ردمد:2676-1939
الإيداع القانوني : مارس -2019

المدار
Cognitive Center for Studies and Research
مركز المدار المعرفي للأبحاث والدراسات

مجلة مدارات تاريخية

المجلد الثاني
العدد السادس
جوان 2020

مجلة مدارات تاريخية
مجلة دورية أكاديمية محكمة
تعنى بالبحوث والدراسات التاريخية

مركز المدار المعرفي للأبحاث والدراسات

مجلة مدارات تاريخية

دورية دولية محكمة ربع سنوية

تعنى بالبحوث والدراسات التاريخية

المجلد الثاني – العدد السادس – جوان 2020

الرقم الدولي للمجلة ردمد: 1939-2676

الإيداع القانوني: مارس -2019

ترسل جميع المراسلات إلى رئيس هيئة تحرير مدارات تاريخية
العنوان الالكتروني:
madaratmagazine@gmail.com

هيئة تحرير مجلة مدارات تاريخية

المشرف العام مدير مركز: عبد الوهاب باشا

رئيس التحرير: عبد القادر عزام عوادي

د/ مولود قرين/ جامعة المدية	د/حورية ومان/ جامعة بسكرة
د/ مختارية مكناس/ جامعة معسكر	د/ عبد الحميد عومري/ المدرسة العليا للأساتذة/ الأغواط
د/ عبد الرحمن بن بوزيان/ جامعة سكيكدة	د/ جيلالي حورية/ المركز الوطني للبحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية/وهران
د/ حليمة مولاي/ المركز الوطني للبحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية/ وهران	أ/ سليم أوفة/ جامعة خميس مليانة
أ/ جيجيك زروق/ جامعة بجاية	أ/ محمد بن ساعو/ جامعة سطيف 2
د/ خير الدين سعيدي/ جامعة إسطنبول/ تركيا	

الهيئة العلمية الاستشارية

أ.د/جمال يحياوي/ جامعة أبو القاسم سعد الله-الجزائر2/ الجزائر	أ.د/خيرالدين شترة/ جامعة الشارقة/ الإمارات العربية المتحدة
أ.د/رضوان شافو/ جامعة الوادي/ الجزائر	أ.د/عثمان البرهومي/ جامعة صفاقس/ تونس
أ.د/عدنان حسين عياش/ جامعة القدس المفتوحة/ فلسطين	أ.د/عمارة علاوة/ جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية/ قسنطينة/ الجزائر
أ.د/مولود عويمر/ جامعة أبو القاسم سعد الله-الجزائر2/ الجزائر	أ.د/ مهند عبد الرضا حمدان الكتزاوي/ جامعة ذي قار/ الناصرية/ العراق
أ.د/نبيلة بن يوسف/ جامعة مولود معمري/ تيزي وزو/ الجزائر	أ.د/يوسف ذياب عواد/ جامعة القدس المفتوحة/ نابلس/ فلسطين
أ.د/ فاطمة جان احمدي/ جامعة تربيت مدرس/ الجمهورية الإسلامية الايرانية	أ.د/ وليد العريض/ جامعة اليرموك/ الاردن
د/امبارك بوعصب/ المركز الجهوي لمهن التربية والتكوين/ المغرب	د/إبراهيم النوري سالم السيليني/ جامعة غريان/ ليبيا
د/بشير غانية/ جامعة الوادي/ الجزائر	د/حبيب الله بريك/ المركز الجامعي تندوف/ الجزائر
د/خالد طحطح/ المغرب	د/خيرة سياب/ جامعة طاهري محمد/ بشار/ الجزائر
د/رشيد خضير/ جامعة الشهيد حمه لخضر/ الوادي/ الجزائر	د/شريفة كلاع/ جامعة الجزائر3/ الجزائر
د/عادل نجيم/ جامعة صفاقس/ تونس	د/عبد الرحمن بعثمان/ جامعة احمد دراية/أدرار/ الجزائر

د/عصام منصور صالح عبد المولى/ جامعة طبرق/ ليبيا	د/علال بن عمر/ جامعة الشهيد حمه لخضر/ الوادي/ الجزائر
د/فتحي جمعة محمد عريبي/ جامعة غريان/ ليبيا	د/كمال بن صحراوي/ جامعة ابن خلدون/تيارت/ الجزائر
د/لخضر بن بوزيد/ جامعة محمد خيضر/ بسكرة/ الجزائر	د/لوبنى زبير/ جامعة القاضي عياض/ المغرب
د/ بشرى حسين الحمداني/ الجامعة العراقية/ العراق	د/محمد لمين باريك/ جامعة حائل/ السعودية
د/نصر الدين العربي/ جامعة المرقب/ ليبيا	د/نواف عبد العزيز ناصر الجحمه/ الهيئة العامة للتعليم التطبيقي والتدريب/ الكويت
د/هيوا عزيز سعيد علي/ جامعة السليمانية/ العراق	د/يحي بكلي/ جامعة طيبة / السعودية
د/جمال مسرحي/ جامعة باتنة 1/ الجزائر	د/عمار غرايسة/ جامعة الشهيد حمه لخضر/ الوادي / الجزائر
د/محمد نفاد/ الأكاديمية الجهوية للتربية والتكوين فاس/مكناس/ المغرب	د/ العيد غزالة/ جامعة تونس/ تونس
د/ غسان محمود وشاح/ الجامعة الإسلامية/ غزة/ فلسطين	د/ أحمد بن خيرة/ جامعة الشهيد حمه لخضر/ الوادي/ الجزائر
أ/ لبصير سعاد/ المدرسة العليا للأساتذة/ قسنطينة/ الجزائر	د/ التجاني مياطة/ جامعة الشهيد حمه لخضر/ الوادي/ الجزائر
د/أشرف صالح محمد/ جامعة ابن رشد/ هولندا	

قواعد وشروط النشر في المجلة

مجلة مدارات تاريخية هي مجلة علمية أكاديمية محكمة تعنى بنشر الدراسات والبحوث التاريخية باللغات العربية والانجليزية والفرنسية على أن يلتزم أصحابها بالقواعد التالية:

1- تنشر مجلة مدارات تاريخية البحوث العلمية الأصيلة والجادة للباحثين من داخل القطر الجزائري ومن خارجه.

2- تخضع جميع البحوث للتقويم من قبل لجنة محكمة، مكونة من دكاترة وأساتذة يساعدهم خبراء من تخصصات معرفية مختلفة، وهذه اللجنة هي الوحيدة المخول لها قبول أو رفض البحوث المقدمة لها.

3- أن تكون المادة المرسلة للنشر أصيلة ولم ترسل للنشر في أي جهة أخرى.

4- ألا يتجاوز حجم البحث 20 صفحة بما في ذلك قائمة المراجع والجداول والأشكال والصور وألا تقل عن 10 صفحات.

5- أن يتبع كاتب المقال الأصول العلمية المتعارف عليها في إعداد وكتابة البحوث وخاصة فيما يتعلق بإثبات مصادر المعلومات وتوثيق الاقتباس.

6- تتضمن الورقة الأولى العنوان الكامل للمقال واسم الباحث ورتبته العلمية، والمؤسسة التابع لها، الهاتف، والبريد الالكتروني وملخصين، في حدود مائتي كلمة أحدهما بلغة المقال والثاني باللغة الإنجليزية على أن يكون أحد الملخصين باللغة العربية، والكلمات المفتاحية باللغتين العربية والانجلزية.

7- تكتب المادة العلمية العربية بخط نوع simplified Arabicمقاسه 14 بمسافة 21 نقطة بين الأسطر، العنوان الرئيسي simplified 16 Grasالعناوين الفرعية simplified Arabic مقاسه 14.

8- هوامش الصفحة أعلى 02 وأسفل 02 وأيمن 02 وأيسر 02 ، رأس الورقة 01، أسفل الورقة 1.25 حجم الورقة عادي (A4).

9- يرقم التهميش والإحالات بطريقة آلية Not de fin على أن تعرض في نهاية المقال.

10- المقالات المرسلة لا تعاد إلى أصحابها سواء نشرت أو لم تنشر.

11- المقالات المنشورة في المجلة لا تعبر إلا على رأي أصحابها.

12- كل مقال لا تتوفر فيه الشروط لا ينشر مهما كانت قيمته العلمية.

13- يحق لهيئة التحرير إجراء بعض التعديلات الشكلية على المادة المقدمة متى لزم الأمر دون المساس بالموضوع.

ملاحظة: ترسل المقالات على العنوان البريدي التالي : madaratmagazine@gmail.com

كلـــــمة العـــــــــدد

بسم الله الرحمن الرحيم

أحمد الله حمداً يليق بجلاله وأشكره شكر من يرجو المزيد من خيراته وافضاله، وأصلي وأسلم على سيدنا محمد وصحبه وآله.

أما بعد:

ها هو العدد السادس من مجلة مدارات تاريخية يجد طريقه إلى القارئ الكريم، حافلاً بالدراسات التاريخية الجادة والبحوث الرصينة والتي برهنت فيه على نزاهة الكلمة وصدق التوجه والروح العلمية الأصيلة، ملتزمة عبر هذه المسيرة بالمبادئ الإنسانية الرفيعة والأهداف النبيلة، المبرأة من التعصب والذاتية، مؤمنة بتحرير بحوثها من أي إسار فكري أو مذهبي تقديراً لأهمية الموضوعية التاريخية، والحياد العلمي في خدمة الحقيقة التاريخية وأهمية ذلك في توثيق عرى الصلات المعرفية بين أبناء الوطن العربي، وذلك بمشاركة نخبة من الباحثين العرب كلاً من: مصر، والمغرب، وتونس، والجزائر، وليبيا، والأردن، والسعودية، الذين حاولوا من خلالها أن يلتمسوا طريق التجديد والابتعاد عن النمطية في التعامل مع الموضوعات التاريخية التي تمت معالجتها، والهدف من ذلك هو ترغيب وتبيان الحقيقة للقارئ في شتى ربوع وطننا العربي، في أن ينال بغيته، ولا ينتظر دوما كتابات آتية من الغرب، وهي مغلفة في معظم الأحيان، بأغلفة لا تواكب الزمان ولا المكان، يشوبها التزوير والتحريف والتشويه للحقائق التاريخية، مؤكدين بأنه لا سبيل إلى نهضة فكرية إلا بالبحث والتنقيب والتحليل العلمي والدرس المعمق.

ولقد وعت الأمة العربية –منذ مئات السنين- هذه الحقيقة، فكان أن أسست حضارة علمية مثينة الأسس، عالية البنيان، مشرقة السمات، قويمة الخصائص، ولا عجب أن تلفت الأنظار، وتهفوا إليها الأبصار، وتكون –آنذاك- قبلة الأمم المتعطشة للعلم والمعرفة.

وإذا كانت أمتنا العربية قد تعرضت للانتكاس ردحاً من الزمن، فإن ذلك لا يعني موتها، وأن ضرعها قد جف، ولم يعد في مقدور أبنائها البررة العطاء، لقد استطاعت أمتنا مع أواخر القرن العشرين ومطلع القرن الواحد والعشرين، أن تأخذ بأسباب الحضارة والتقدم، والتطور، وأن تبعث الروح في ثقافتها، وآدابها، وتاريخها، وان ترداد مختلف ميادين العلوم والمعارف التاريخية الحديثة، ولم تتردد في الاحتكاك بالحضارات المختلفة، لتأخذ وتعطي، وتتبنى وتبدع، ولم تنسى –وهي تفعل ذلك- أصالة وعراقة تاريخها، لأنها أمة تملك رصيداً ثميناً يحميها من التفسخ والضلال، ومن الضعف والانتكاس، متمثلاً في كتاب الله وسنة رسوله "صلى الله عليه وسلم"، فضلاً عن اجتهاد علمائها ومؤرخيها الذين تركوا تاريخاً وتراثاً نفتخر به ونعتز.

وما موضوعات هذا السفر من مجلة مدارات تاريخية المتميزة في عددها السادس التي اتجهت منذ بداية صدورها إلى نشر البحوث التاريخية العلمية القائمة على تأصيل منهج البحث العلمي في رصد القضايا التاريخية وطرق تناولها وأساليب طرحها، ومناهج التفكير في علاج المشكلات، وتحكيم المنطق في التعامل مع ما يستجد من أحداث تاريخية، إلا تأكيداً على نهل أصحابها من معين ذلك الرصيد، مستضيئين بما قدمه أبناء هذه الأمة من المفكرين والعلماء والمؤرخين وغيرهم، ممن أسهم في بناء صرحها الثقافي والعلمي.

وهذا العدد من مجلة مدارات تاريخية الذي نشرف بتقديمه إلى القراء حافل كما سيرى القارئ ببحوث تاريخية معمقة ومفيدة كتبها ثلة من الباحثين من مختلف البلدان العربية، نرجو أن تحظى بعناية الدارسين والباحثين في مساقات تلك المجالات.

وفي ختام هذا التقديم نأمل من الله العلي القدير أن يمن علينا بفضله الواسع – آملين ألا تتوقف هذه المطبوعة القيمة لتكون شاهدة على عطاء وجمع الباحثين من مختلف البلدان العربية، وعلى إسهامات نظرائهم من الباحثين في الجامعات ومراكز البحوث العالمية، ولنبين للعالم أن هذه الأمة جديرة بأن توحد رؤيتها في علاج القضايا التاريخية ومقاومة التغريب والاستلاب الحضاري، وأن تعمل في ضوء تلك الرؤية لتحقيق مستقبل زاهر استجابة لقوله تعالى: (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون) صدق الله العظيم.

والله من وراء القصد وهو المستعان وولي التوفيق.

الدكتور: نصر الدين البشير العربي

عميد كلية الآداب والعلوم مسلاته

جامعة المرقب- ليبيا

الفهـــــرس

كلمة العدد	07
العلاقات السياسية بين مملكة الخزر والدولة العباسية الأولى((132 .232 هـ / 750 .847 م)) د/ سليم مفتاح عبد العزيز عقيلة/جامعة طبرق/ ليبيا د./موسى جمعة سليمان الحبيب/جامعة عمر المختار/ ليبيا	10
سياسية الأدارسة الخارجية تجاه بني رستم: قراءة جديدة من خلال مصدر أخبار فخ للرازي د/نورالدين النوري/ كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس/ جامعة تونس	33
الأوبئة والأمراض بمنطقة المسيلة في ظل الاحتلال الفرنسي 1841-1945 د/كمال بيرم /جامعة محمد بوضياف/ المسيلة	69
التجربة الاستعمارية الفرنسية في ميدان التعليم بشمال إفريقيا و انتهاكات حقوق الإنسان د/ لحسن أوري/ جامعة سيدي محمد بن عبدالله/ المغرب	87
الصِّلَاتُ الْعِلْمِيَّةُ بَيْنَ الْمَشْرِقِ الْإِسْلَامِيِّ وَالْمَغْرِبِ الْإِسْلَامِيِّ خِلَالَ الْقُرُونِ الْأَرْبَعَةِ الْأُوْلَى لِلْهِجْرَةِ دِرَاسَةٌ حَضَارِيَّةٌ فِي التَّأْثِيرِ وَالتَّأَثُّرِ د.محمود محمد خلف/ الجامعة الاسلامية- مينيسوتا/ الولايلات المتحدة الامريكية	106
حقّ النَّقاضي: بين المسار التاريخي والفقهي والتأصيل القانوني د/ عادل العبيدي/ المعهد العالي لأصول الدين جامعة الزيتونة/ تونس	131
الأدوات الزراعية في غور الأردن في العصرين الأيوبي والمملوكي (569-923هـ/ 1173-1517م) د/ طه حسن عقاب الزعارير / وزارة التربية والتعليم / الأردن أ/ حسن محمد لافي الربابعة/ جمعية عجلون للبحوث والدراسات/ الأردن	158
تغطية صحيفة صدى وهران " l'echo d'oran " لهجمات أكتوبر 1955 بتلمسان. د/ رضا بن عتو/ جامعة جيلالي بونعامة خميس مليانة أ/ اسماعيل توتة/ جامعة جيلالي بونعامة خميس مليانة.	176
الكتابة التاريخية من الأرشيف الى التمثيل السردي د./ رشـيد البرنوسـي/ جامعة السلطان مولاي سليمان/ المغرب	186
أثر الهَيكل و التَركيب التَنْظيمي للجَيْشِ المِصْري المَمْلُوكي البَحْرِي على شَاراتِ ورنُوك السَلاطِين و الأُمراء د/ مى السيد السيد محمد/ وزارة الآثار – مصر	205
الجيش المملوكي: المماليك السلطانية د/ نجاة الجويني/ كلية الآداب والفنون والانسانيات / بمنوبة-جامعة منوبة	236

المؤسسات الحكومية في العهد العثماني بالطائف (1840-1916م) د/ متعب ماطر مطر البلادي/ وزارة التعليم/ المملكة العربية السعودية	251
أ.د/ عَـلَّاوَة عمـَارَة :بَيْنَ الاِغْتِنَاقْ وَالقتل: حَالْ وَمَآلْ الإباضيّين المَغَارِبَة مِنْ خِلَالِ النُّصُوصِ اَلفِقْهِيَّةِ المَالِكِيَّة أ / عَبْدُ القَادِرْ مُبَارَكِيَّة/ قسم التاريخ / جَامِعَةُ 8 ماي 1945 قالمة، الجَزائرْ.	272
الأجانب ومسألة تملك العقارات في مغرب ما قبل الاستعمار د/ عبد الغني عمراني/ جامعة الحسن الثاني/ المغرب	292
تجلّيات الشخصيات الأجنبية النافذة للمناسبات الدينية والبروتوكولات الرّسميّة العثمانية بالجزائر خلال فترة الدّايَات ط.د/ يوسف بوسعدة/ جامعة سوسة/ تونس أ/ عبد القادر عزام عوادي/ جامعة الوادي/ الجزائر	305
دور الإقطاع في ظهور الحركات الاجتماعية في الخلافة الإسلامية. ط.د/ جمال رداحي/ القنيطرة/ المغرب	321
ثروات المغرب الأوسط النباتية و الحيوانية خلال العصر الوسيط من خلال مصنفات الرحلة والجغرافيا د/ محمد بن عربة. /جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية/ قسنطينة، د/ أحلام بوسالم./ جامعة عبد الحميد مهري / قسنيطنة.	334
المغرب في الصراع الفرنسي الإنجليزي: نحو تسوية ثنائية للمصالح المشتركة (1902-1912) د/ محمد العزوزي/ كلية الأدب والعلوم الإنسانية فاس /سايس/ المغرب	361
الفكر الصوفي المغربي وسؤال التنمية د/ محمد نفاد/ الأكاديمية الجهوية للتربية والتكوين /فاس-مكناس/ المغرب	379
سلوان وقلعتها خلال بداية القرن 20م أ/ نورالدين احميان/ كلية الآداب سايس/ جامعة سيدي محمد بن عبد الله/ المغرب	391
الحضور العسكري الروماني بالأوراس (في ضوء النقائش اللاتينية والدراسات الحديثة) د/عولمي الربيع / قسم التاريخ وعلم الآثار/ جامعة باتنة-1-/ الجزائر	405
صدى ثورة التحرير الجزائرية في صحيفة " العمل " التونسية 1955 – 1962 د/فتيحة قشيش / جامعة خميس مليانة/ الجزائر	416
الاستعمار ومراسيم الماء في مراكش وأحوازها 1919_ 1939 د/محمد المنتفع /الأكاديمية الجهوية لمهن/ التربية والتكوين كلميم وادنون (المغرب)	433
محورية الوقف في رعاية الفئات الهشة في تاريخ الغرب الإسلامي من خلال كتب النوازل أ/ محمد مرزوك/ كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالقنيطرة/ المغرب	452

الكاتب: د.سليم مفتاح عبد العزيز عقيلة
جامعة طبرق/ ليبيا
د. موسى جمعة سليمان الحبيب
جامعة عمر المختار/ ليبيا
البريد الالكتروني:Dr.salim.M.lamels@gmail.com

عنوان المقال: **العلاقات السياسية بين مملكة الخزر والدولة العباسية الأولى ((132 . 232 هـ / 750 . 847 م))**

تاريخ الارسال: 2019/10/09 تاريخ القبول: 2020/02/18 تاريخ النشر: 2020/06/30

لعلاقات السياسية بين مملكة الخزر والدولة العباسية الأولى
((132 . 232 هـ / 750 . 847 م))

Political Relations between the Kingdom of the Khazars and the First Abbasid State . (132 - 232 H / 750 - 847 A.D)

ملخص البحث.

يقدم البحث دراسة تاريخية عن نشأة مملكة الخزر في منطقة البحر الأسود وبحر قزوين والقوقاز وكيفية تحولهم الديني إلى اليهودية و الدراسة تدحض كثير من مزاعم اليهود، وتؤكد أن معظم اليهود بما فيهم يهود إسرائيل لا علاقة لهم على الإطلاق بالجنس السامي . البحث يعرض كذلك لحقبة التوسع العباسي في مناطق جديدة بالمشرق الإسلامي حيث أصبحت حدود الخزر تلاصق حدود المسلمين لذلك كان من الطبيعي أن تقوم التحالفات السياسية والعسكرية بين الطرفين وما يصاحبها من رحلات تاريخية كان لها عظيم الأثر.

Research Summary

The historical period of the first Abbasid state witnessed many conflicts and alliances among the various political structures, as well as between the kingdoms and other countries. This led to the identification of the political tracks of the Abbasid state from the beginning of its inception, especially its relationship with the Kingdom of the Khazars. This relationship included wars , quiet periods and treaties, so the importance of that period, which ranges between (**132 -232 H / 750 -847 AD**) is due to the nature of the events that affected this relationship.,

The origins of this study are divided into two components:

The first, the emergence of the Kingdom of Khazars and its borders, and the real reasons for their conversion to Judaism, with the chronological date of this conversion.

The second includes the beginnings of the Abbasid state, as well as the narration and analysis of examples of disputes and political alliances between the Khazars and the Abbasids, including political spectacles that influenced the course of events. This element also includes the story of the journey of **the Translator Salam** because of its explanatory importance regarding the relationship between the Khazars and the Abbasids.

The research methodology used in this study is the historical analytical narrative method.

أولاً: مملكة الخزر:

1. نشأة مملكة الخزر.
2. التحول الديني للخزر.
3. صلة الخزر بالقوى الخارجية قبيل ظهور الدولة العباسية الأولى.

ثانياً: الدولة العباسية الأولى:

1. بدايات الدولة العباسية.
2. التنازعات والتحالفات السياسية العسكرية بين الخزر و العباسيين.
3. رحلة سلام الترجمان.

المقدمة:

شهدت الفترة التاريخية للدولة العباسية الأولى الكثير من التنازعات والتحالفات بين التكوينات السياسية المت وكذلك بين الممالك والدول الأخرى، مما أدى إلى تحديد المسارات السياسية للدولة العباسية منذ بدايات نشأتها، وعلى الأخص علاقتها بمملكة الخزر، حيث تضمنت هذه العلاقة حروباً وهدنات ومعاهدات، لذا فإن أهمية تلك الفترة التي تتراوح فيما بين (132 .232 هـ / 750 .847 م) ترجع إلى تبيان طبيعة الأحداث والوقائع التي أثرت في هذه العلاقة.

من هذا المنطلق تنقسم عناصر الدراسة إلى عنصرين، الأول : نشأة مملكة الخزر وحدودها، وتوضيح الأسباب الحقيقية للتحول الديني للخزر إلى اليهودية مع تحديد التاريخ الزمني لهذا التحول، كذلك صلة الخزر بالقوى الخارجية قبيل ظهور الدولة العباسية الأولى.

أما الثاني فيتضمن بدايات الدولة العباسية، وأيضاً سرد وتحليل نماذج من التنازعات والتحالفات السياسية العسكرية بين الخزر والعباسيين، بما فيها من مصاهرات سياسية أثرت في مجريات الأحداث، كما يتضمن هذا العنصر قصة رحلة سلام الترجمان لما لها من أهمية توضيحية بصدد العلاقة بين الخزر والعباسيين.

وبالنسبة للمنهج البحثي المستخدم في تلك الدراسة فهو المنهج السردي التحليلي التاريخي.

أولاً: مملكة الخزر :

1. نشأة مملكة الخزر :

كلمة خزر مشتقة من الفعل التركي " قز "ويعني التجوال والرحيل والبداوة، وبهذا يكون الخزر هم البداة.[1]

كان الخزر جزءاً من الإمبراطورية التركية الغربي[2]، ثم حصلوا على استقلال كامل، وأقاموا دولة خاصة بهم في منتصف القرن السابع الميلادي (650 م)، وكانوا يقومون بهجرات وغارات باتجاه الشرق حتى وصلوا إلى أوروبا الشرقية، واستقروا فيها حتى القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي.[3]

ومما يجدر ذكره أن مملكة الخزر بلغت حداً من الاتساع والنفوذ حتى أنه أطلق على بحر قزوين البحر الخزري.[4]

وهكذا نجح الخزر في الانتشار والتوسع حول منطقة البحر الأسود وبحر قزوين والقوقاز ليكونوا إمبراطورية مترامية الأطراف من بحيرة وان بجوار بحر قزوين ومن البحر الأسود إلى كييف ومن بحر آرال إلى المجر، أي ما بين الدولة الإسلامية (العباسية الأولى) شرقاً والإمبراطورية البيزنطية[5] غرباً، وهذا الموقع الاستراتيجي المتميز قد سمح لمملكة الخزر أن تلعب دوراً مهماً على مسرح الأحداث في العصور الوسطى.[6]

2. التحول الديني للخزر:

هناك مقولات ونظريات تاريخية كثيرة حول الخزر، ولكنها في أغلبها تدور حول أصلهم وهجراتهم والأقاليم التي استوطنوها، وتختلف في التاريخ الزمني، وإن كانت متفقة في جوهرها على شيئين:

أولاً: أن لسانهم غير لسان الترك والفرس ولا يشاركه لسان فريق من الأمم.[7]

ثانياً : أن الديانة اليهودية بدأت تنتشر بينهم سنة 193هـ/809 م بعد اعتناق أحد ملوكهم يدعى بولان لهذه الديانة؛ وتبعه كثير من حاشيته وشعبه في عهد الخليفة هارون الرشيد(170-193هـ / 786- 809 م)[8] حتى يكون بمنأى عن الصراع الدائر بين القوتين العظيمتين الإسلامية والبيزنطية آنذاك، فأشهر يهوديته في خطوة سياسية أخذت بعين الاعتبار، على أن العرب المسلمين والبيزنطيين المسيحيين كلاهما يعترف باليهودية ديانة سماوية، وعلى الرغم من هذا لم يتم إعلان دين محدد رسمي لدولة الخزر، وذلك لصنع مظهراً من مظاهر قوة التوازن في مواجهة البيزنطيين والمسلمين.

كان الخزر كما ذكر الاصطخري[9] تتوزعهم الديانات اليهودية والمسيحية والإسلام وبعض من أهل الأوثان، أما ملكهم (خاقان) وخاصته من اليهود فكانت الخاقانية لا تعقد إلا لمن كان يعتقد اليهودية، وظلت دولة الخزر تعتبر يهودية مستقلة.

ولا تبتعد المصادر اليهودية كثيراً عن المصادر العربية التاريخية بصدد أسباب تحول شعوب الخزر إلى الديانة اليهودية، ففي كتاب يهودا هاليفي الخزري: أن ملك الخزر تحول لليهودية سنة 122هـ / 740م بعد رؤيا رآها ، وربما كان يخوض حواراً ذاتياً وبحثاً عن الحقيقة أدى به إلى اليهودية.[10]

ومن الملاحظ أن تلك الرؤيا ليست هي السبب الأوحد للتحول الديني، بل يوجد سبب آخر، وهو أن اليهود الذين كانوا في داغستان هم الذين عملوا على نشر اليهودية بين الخزريين، بعد مطاردة السامانيين والبيزنطيين لهم، بالإضافة إلى قيام بعض اليهود بالهجرة إلى داغستان بعد استقرار اليهود فيها.[11]

3. صلة الخزر بالقوى الخارجية قبيل ظهور الدولة العباسية الأولى:

استطاع الخزر في هجراتهم وحروبهم أن يسيطروا على أراضي واسعة في حوض بحر قزوين والبحر الأسود، ويزيحوا الشعوب الأخرى نحو الشمال والغرب، ونشأت صراعات طويلة ومعقدة مع الدولة البيزنطية.[12]

وفي صراع بين الإمبراطور جستنيان الثاني[13] وشبه جزيرة القرم[14] ، طلب القرم مساعدة الخزر، ونجح التحالف الخزري القرمي في صد البيزنطيين، لكنه زاد شوكة الخزر وقوتهم وهيمنتهم على شعوب وأراضي المنطقة وتجارتها ومواردها.[15]

وفي المحصلة فقد أقام الخزر دولة قوية واسعة ومزدهرة استطاعت أن تجد لها مكاناً في آسيا وأوراسيا، وأن ترث أجزاء من الإمبراطورية الفارسية وتنجو من الهيمنة البيزنطية.[16]

ثانياً : الدولة العباسية الأولى:

1. بدايات الدولة العباسية :

من المعروف أن رقعة الدولة الإسلامية لم تتسع في العصر العباسي حيث أنهم ورثوا دولة إسلامية شاسعة الحدود، امتدت إلى حدود الصين شرقاً حتى جبال البرانس والمحيط الأطلنطي غرباً ومن البحر العربي والصحراء الكبرى جنوباً حتى جبال طوروس وبحر قزوين (الخزر) شمالاً، ولم يكن اهتمام العباسيين هو التوسع وزيادة رقعة الدولة بل كان جُل اهتمامهم هو الحفاظ على حدود تلك الدولة بتحصينها وتأمينها.[17]

ولقد اتخذ العباسيون بغداد في العراق عاصمة لدولتهم وتركوا دمشق عاصمة الأمويين ببلاد الشام، وبذلك تكون المنطقة القريبة من الخزر قد فقدت جزءاً مهماً من الاهتمام والعناية التي كانت لها قبل سقوط الأمويين، فالأمويون باتخاذهم دمشق عاصمة لهم كانوا قريبين من آسيا الصغري وبالتالي من الخزر، وكان ذلك سبباً في زيادة الضغط الإسلامي على الخزر، أما العباسيون باتخاذهم بغداد عاصمة لدولتهم فقد جعلوا مركزهم أكثر بعداً عن أراضي الخزر، ومن ثم قّل الضغط الإسلامي على حدود هذه الدولة.[18]

لم تكن دولة الخزر بالقوة التي تجعلها تناصب العداء للدولة العباسية في فترة نشأتها، حيث استنفذت جُل طاقتها مع الأمويين الأمر الذي أدى إلى الحد من شوكتهم طيلة العصر العباسي الأول، وكان الخزر يتجنبون مواجهة المسلمين في توسعاتهم، ويكتفون بالتحصينات والامتناع، ربما إدراكاً للتفوق العسكري، ولإفساح المجال لاتفاقيات سياسية واقتصادية وتحالفات عسكرية ضد الدول الأخرى، وهو بالطبع أسلوب سياسي قديم في التفكير الاستراتيجي، وربما وجد اليهود أيضاً في التقارب الديني مع الإسلام فرصة للتميز عن الوثنيين في معاملة المسلمين لهم، ولكن الخزر عندما كانوا يلاحظون ضعفاً أو تراجعاً لدى المسلمين كانوا يغّيرون سريعاً تحالفاتهم واستراتيجياتهم ، فتحالفاتهم كانت دائماً مع الأقوى.[19]

2. التنازعات والتحالفات السياسية العسكرية بين الخزر والعباسيين :

لم يمض وقت طويل على خلافة أبو جعفر المنصور (136-158 هـ/754-775م) حتى بدأت المناوشات العسكرية بين الخزر والعباسيين في المناطق الحدودية بينهما، ولقد سيطر الخزرسنة 145هـ/762م على عدد من المدن الرئيسة بدأوها بمدينة دربند[20] وموقان[21] وتفليس[22] التي استباحوها، وفشل يزيد بن أسيد السلمى[23] في ردهم عن هذه المدن وتراجع أمامهم إلى أردبيل وتحصن بها، وأرسل إلى المنصور يسأله الإمدادات التي جاءته على وجه

السرعة بل إنه أفرج عن سبعة آلاف من السجناء وأرسل إليه بهم وبوصول هذا الإمداد يقْوَيَ ساعده فخرج يزيد من أردبيل وألتقى بالخزر في جبال القوقاز[24] وأوقع بهم الهزيمة وطاردهم إلى أن أزاحهم عن آذربيجان.[25]

وقد عزفت معظم المصادر التاريخية عن ذكر السبب الذي حمل الخليفة العباسي المنصور على الإفراج عن سبعة ألاف من السجناء ويرسل بهم إلى الجبهة في الحرب مع الخزر، وهذه خطوة غير نمطية سيما في حروب الخزر، ويمكن القول إن ظروف الدولة العباسية الداخلية قد اضطرته إلى ذلك، إذ أن المنصور في ذلك الوقت كان في طور تثبيت أركان حكمه ويواجه عدداً من المشاكل الداخلية التي تحتاج إلى مساندة وتعضيد، فمنها التخلص من أبى مسلم الخرساني[26] وما ترتب على ذلك من حركات تمرد وخروج بغية الثأر من قتلته.

وشهدت هذه السنة أيضاً 145هـ / 762م حركة تمرد وخروج أقضت مضجع المنصور، ألا وهي خروج محمد بن عبد الله (النفس الزكية) وأخاه إبراهيم بن عبد الله [27] وقد أُستنفدت لهذه الحركات قوى الخلافة وشغلت جُل اهتمام المنصور، وحتى لا يحدث خلل في الداخل أو الخارج، فمن الراجح أن يكون ذلك ما دفع المنصور للقيام بهذه الخطوة.[28]

والواقع إن سياسة الدولة العباسية اتجهت منذ بداياتها إلى منطقة الحدود بينها وبين بلاد الخزر، فلم يكتف المنصور بتحصين الحدود البيزنطية بل اهتم بحدوده المواجهة للخزر، فبنى مدن (كمخ والمحمدية وباب واق) وجعلها ردءًا للمسلمين ، وأنزل فيها المقاتلة بعد مناوشات الخزر واعتدائهم على أراضي المسلمين في محاولة لتجنب هجماتهم من ناحية وجذبهم إلى الإسلام من ناحية أخرى، وإقامة علاقات بينهم وذلك عن طريق المصاهرات والعلاقات الثقافية والعلمية والتجارية التي ربطت بين الجانبين.

لم تكن ظاهرة المصاهرات السياسية من الظواهر المرتبطة بفترة حكم العباسيين، وإنما تعددت هذه المصاهرات بين الأسر والدول الحاكمة في العالم الإسلامي بصفة عامة، وتبدو هذه المصاهرات في مظهرها على أنها وصال شرعي بين زوج وزوجته من أبناء وبنات الأُسر الحاكمة، ولكنها تحمل بين ثنايا هذا الوصال العديد من المعاني والمحاور المرتبطة بالحالة السياسية لدى طرفي المصاهرة من تحسين علاقات أو إنهاء حرب أو تطلع لضم أملاك جديدة، إلى غير ذلك من مناحي السياسة وخباياها[29]، وتجسدت هذه المعاني في إدراك المنصور خطورة الحرب مع الخزر ورأى في استمرارها استنزافاً لقوى الخلافة العباسية، لذلك أمر واليه على أرمينيا يزيد بن أسيد

السلمي بالتحالف مع الخزر والزواج منهم[30] قائلاً له: " أما بلاد أرمينية لا تستقم ولا تصلح إلا بمصاهرة الخزر، والرأي عندي أن تصاهر القوم
حتى تستقيم البلاد، وإلا فإني خائف عليك وعلى جميع عمالك من الخزر، فإنهم إذا أرادوا واجتمعوا غلبوا، فانظر ولا تخالف أمري واجتهد في مصاهرة الخزر والسلام "[31]
ومن المعلوم أن المرأة التركية إذا تزوجت زيجة سياسية تحولت بحكم وعيها السياسي إلى سفيرة لدولتها عند دولة زوجها، فيبقى لها دورها السياسي قبل المصاهرة وبعد إتمامها[32]، فاستجاب له يزيد وأرسل إلى خاقان الخزر واسمه تعاطر في خطبة ابنته وكانت تدعى خاتون وزُفت إليه من بلادها تحمل معها مظاهر العظمة والأُبهة، وبقت معه سنتين وأربعة أشهر وولدت منه ولدين، ثم ماتت هي وولداها فحزن عليها يزيد[33]، ويبدو أن التحالف الذي سعى إليه العباسيون كان رداً على التحالف الذي عقده الإمبراطور البيزنطي ليو الثالث [34](98 .123هـ / 717 . 741م) مع الخزر بتزويج ابنه قسطنطين[35] (123 . 158هـ / 741 . 775م) من أميرة خزرية سنة 114هـ /732م مقيماً بذلك حلفاً مع الخزر ضد المسلمين.[36]
على أن موت الخاتون كان سبباً في انتفاض الخزر ضد المسلمين، فقاموا بشن هجوم كبير على القوات الإسلامية بقيادة رأس طرخان، وانتهى بهزيمة المسلمين الذين كانوا تحت قيادة يزيد بن أسيد السلمى، كما أن الجيش الذي وجهه الخليفة العباسي وعدده عشرون ألفاً لصد الخزر بقيادة جبريل بن يحيى قد مُنِيَ بهزيمة ساحقة.[37]
وفي سنة 145هـ/762م قام الخزر وبعض العناصر التركية بشن هجوم كبير من ناحية باب الأبواب على المسلمين، وتمكنوا من قتل عددٍ كبيرٍ من المسلمين بأرمينيا[38] حيث بلغ عددهم خمسين ألف نفس.[39]
كان من الطبيعي أن يشتد بأس الخزر في تلك الفترة ويستفحل أمرهم، لأن العباسيين لم يحاكوا الأمويين في فتوحاتهم في القوقاز، حتى الحروب والمعارك التي كانت تقوم بينهم وبين البيزنطيين كانت تقوم فقط لاعتداءات على الحدود من جانب البيزنطيين، مما كان يدفع الخلفاء العباسيون إلى شن الغارات لرد العدوان فقط، ولإجبارهم على احترام المعاهدات واستمرار دفع الجزية.[40]

وهنا يبدو أن الغارات المتواصلة التي وجهها الخليفة العباسي المنصور ضد البيزنطيين لم تحقق النجاح الذي أصابته في عهد الأمويين، فضلاً عن ذلك فإن الحملات التي وجهها المنصور ضد الخزر في بلاد القبق لم تؤد إلى توسع ملحوظ.

وفي عهد الخليفة العباسي هارون الرشيد قام الخزر بهجوم كبير على أرمينيا ، وتمكنوا من هزيمة المسلمين هزيمة قاسية، وكان على رأس المسلمين سعيد بن مسلم الباهلي[41] الذي ولّاه على أرمينيا، وكان ملك الخزر قد زحف بجيش كبير فأغار على المسلمين، فقتل وسبى الكثير وحرق البلاد وقتل النساء والصبيان[42]، الأمر الذي دفع الخليفة إلى إرسال خزيمة بن خازم، ويزيد بن مزيد الشيباني[43] فأخرجوا الخزر بعد عناء شديد.[44]

ويوضح اليعقوبي[45] دافع تلك الغارة التي شنها الخزر على المسلمين فيقول: إن الباعث عليها هو قيام سعيد بن سلم بن قتيبة بقتل النجم بن هاشم صاحب الباب والأبواب، فأرسل ابنه حيون بن النجم إلى ملك الخزر بهدايا وطلب منه أن يوجه إليه بجيشه حتى يغنمه من بلاد الإسلام.

وإن كانت المصاهرة الأولى قد أدت إلى نتائج غير مرضية إلا أنه في سنة 182هـ/798م أجرى الفضل بن يحيى البرمكي مصاهرة سياسية أخرى مع الخزر، مما يظهر مدى حرص الخلافة العباسية على استمرار علاقات المودة والصداقة مع الخزر ، من أجل درء خطرهم وتحييدهم على الأقل، حيث أرسل إلى خاقانهم يطلب منه الزواج من ابنته وقد وافق الخاقان على إتمام هذه الزيجة ولكن لم تشأ الأقدار .للمرة الثانية .نجاح هذه المصاهرة السياسية، إذ ماتت ابنة خاقان الخزر في العام نفسه ببرذعة[46]، فرجع من كان معها من الجواري والعبيد إلى أبيها وأخبروه أنها قُتلت غيلة، وبدأ الخزر كالعادة في الاستعداد لمهاجمة مدينة أردبيل أقرب المدن الإسلامية إليهم.[47]

في سنة 183هـ/ 799م خرج الخزر من باب الأبواب فأوقعوا بالمسلمين في أرمينيا وآذربيجان، وكان سعيد بن مسلم الباهلي واليها فانهزم سعيد وقتلوا الكثير وأسروا، وعظُمت المصيبة ولم تستطع الحاميات العسكرية من صدهم، وأخذوا الخزر ينتقمون من السكان ولم يسلم من أيديهم أهل الذمة[48]، وامتدت أيديهم بالخراب والدمار إلى كل شيء من معالم المدينتين، وأتوا على الأخضر واليابس.[49]

وكان على الرشيد أن يقدر الموقف تقديراً صحيحاً حتى لا يحدث كما وقع في عهد المنصور حينما تقدمت جموع الخزر حتى وصلت إلى الموصل جنوباً، فاختار الرشيد أكفأ قادته العسكريين، فعين يزيد بن مزيد الشيباني بمعاونة خزيمة بن خازم[50] وجعلهما على جيش ضخم، وأوكل إليهما التوجه إلى أردبيل ومقارعة الخزر الذين كانوا قد أخذوا أماكنهم في أردبيل وتحصنوا بها، فلما

اقترب يزيد بالجيش من أردبيل خرج الخزر لملاقاتهم ودارت بين الفريقين عدد من المعارك، وكانت المحصلة النهائية هزيمة الخزر وفرارهم إلى بلادهم.[51]

وبعد إخراج الخزر من أرمينيا وآذربيجان كان على خزيمة بن خازم ويزيد بن مزيد إعادة بناء ما تهدم بفعل الخزر، فأعادا بناء أسوار مدينتي باب الأبواب وأردبيل وإقامة حصونها ولبثا في أردبيل فترة طويلة للإشراف على إعادة إعمارها.[52]

وعلى الرغم من هذا الصراع الذي انتهى بهزيمة الخزر، إلا أن الخليفة العباسي المعتصم (218-227 هـ / 833-841 م) قد تحالف مع من تبقى منهم للقضاء على البابكية[53]، فأبدى اهتماماً كبيراً بتدعيم مركز قواته من أجل القضاء على الخرمية، وأشّرف بنفسه على سير المعارك ووضع الخطط والاستعانة بفرق من الخزر والمتطوعة الذين كانوا ينّظمون إلى الجيش مدفوعين بالرغبة في الجهاد أو سعياً وراء الكسب، وكان لهؤلاء أثر يذكر في حرب بابك الحزمي ومحاربة البيزنطيين.[54]

وذلك لأن الحركة البابكية التي ظهرت بعد مقتل أبي مسلم الخرساني كانت من أخطر الحركات الدينية في المظاهر السياسية في الواقع التي عرفتها إيران منذ قيام الدولة العباسية، فمن المعروف أن هذه الحركة تميزت بسعة انتشارها وبراعة قياداتها، وطول أمرها وتنظيم دعايتها، وخططها واتصالها السياسي بغير الفرس اتصالاً واسعاً.[55]

3. رحلة سلام الترجمان و أثرها على بلاد الخزر :

عُرف العرب منذ القدم بحُب الرحل والأسفار، فتواترت الأخبار عن رحل فردية وجماعية طلباً للرزق والتجارة والاطلاع والمعرفة، ومع دخول كثير من الدول والشعوب تحت لواء الخلافة الإسلامية كان لزّاماً على القائمين على الأمور أن يعرفوا مسالك هذه البلاد وطُرقها، فقاموا بفتح الطرق بين المدن المختلفة ، وأنشأوا نظام البريد الذي أسهم في تشجيع الرحلة بين أجزاء هذه الدولة، كما عينوا موظفين لتسجيل الأراضي وتقدير خراجها وجبايته وتوزيع الحقوق على أصحابها، وشجع هذا الاتساع العرب على السياحة والوقوف على ما في هذه البلاد من عجائب وغرائب.[56]

وتُعد رحلة سلام الترجمان سنة 227 هـ/ 842 م من أجل معاينة سد يأجوج ومأجوج من أقوى الدلائل التي ربطت الخلافة العباسية ببلاد الخزر رغم ما لُصق للرحلة من مبالغات جعلها في بعض الأحيان تكون ضرباً من الخيال.[57]

وقصة هذه الرحلة تروي أن الخليفة العباسي الواثق بالله(227-232هـ/842-847م) رأى في المنام السد الذي بناه الإسكندر ذو القرنين (الذي يقع بين ديار المسلمين وديار يأجوج ومأجوج) ليحول دون تسربهم إلى ديار المسلمين مفتوحاً، فأرعبه هذا المنام، وأمر سلاماً أن يرحل ليتفقد السد، فسار الترجمان من مدينة سامراء[58]، ومعه خمسون رجلاً ومائتا بغل تحمل الزاد والماء ومالاً كثيراً يعينه في سفره ومن خرج معه.[59]

وكان الخليفة قد أعطاه كتاباً إلى إسحاق بن إسماعيل حاكم أرمينيا ليقضي حوائجهم ويسهل مهمتهم، فعُنى هذا الحاكم بالرحالة ورجاله ، وزودهم بكتاب توصية إلى حاكم إقليم السرير، وكتب لهم هذا الحاكم إلى أمير إقليم اللان، وكتب هذا الأمير إلى فيلانشاه وكتب لهم فيلانشاه إلى ملك الخزر، فوجه معهم خمسة من الأدلاء وسار الجميع ستة وعشرين يوماً، فوصلوا إلى أرض سوداء كريهة الرائحة وكانوا قد حملوا معهم بإشارة الأدلاّء خلاً لتخفيف هذه الرائحة، وسار الركب في تلك الأرض عشرة أيام ثم وصلوا إلى إقليم فيه مدن خراب، وساروا فيها سبعة وعشرين يوماً وقال الأدلاّء: إن شعب يأجوج ومأجوج هو الذي خرب تلك المدن وانتهوا إلى جبل فيه السور المنشود وعلى مقربة منه حصون تسكنها أمة مسلمة تتكلم العربية والفارسية، ولكنها لم تسمع بخليفة المسلمين قط.[60]

وتقدم الركب إلى جبل لا نبات عليه يقطعه واد عرضه مائة وخمسون ذراعاً، وفي الوادي باب ضخم جداً من الحديد والنحاس، عليه قفل طوله سبعة أذرع وارتفاعه خمسة، وفوق الباب بناء متين يرتفع إلى رأس الجبل، وكان رئيس تلك الحصون الإسلامية يركب في كل جمعة ومعه عشرة فرسان ، مع كل منهم مرزبة من حديد، فيجيئون إلى الباب ويضربون القفل ضربات كثيرة، ليسمع من يسكنون خلفه، فيعلموا أن للباب حفّظة، وليتأكد الرئيس وأعوانه الفرسان من أن أولئك السكان لم يحدثوا في الباب حدثاً.[61]

ولما فرغ سلام الترجمان ورفقاؤه من مشاهدة السور، رجعوا إلى مدينة سامراء مارين بخراسان، وكان غيابهم في هذه الرحلة قد استغرق ثمانية وعشرين شهراً منها ستة عشر شهرا ذهاباً فقط.[62]

لا يمكن أن يكون الباعث الحقيقي لهذه الرحلة الطويلة هو ذلك الحلم الذي رآه في منامه كما يزعم الرواة، وربما اتخذ الواثق هذا الحلم ذريعة لسبب حقيقي قد يكون سياسياً، ولعل الخليفة أراد أن يبين مقدرته بالهيمنة على تلك الأقطار، وقد نجح إلى حد بعيد، إذ يكمن نجاحه في اهتمام الملوك والأمراء بكتب الخليفة وتسهيل مهمة سلام الترجمان.

ومن الغريب ما طالعناه عند القزويني [63] حيث قال: وأقمت عند ملك الخزر أياماً ورأيت أنهم اصطادوا سمكة عظيمة جداً وجذبوها بالحبال، فانفتح أذن السمكة وخرجت منها جارية بيضاء حمراء طويلة الشعر حسنة الصورة، فأخرجوها إلى البر وهي تضرب وجهها وتنتف شعرها وتصيح، وقد خلق الله تعالى في وسطها غشاء كالثوب الصفيق من سرتها إلى ركبتها كأنه إزار مشدود على وسطها، فأمسكوها حتى ماتت.

وقد تسآل الدكتور حسين فوزي في كتابه حديث السندباد القديم عن تفسير ما رأى سلام الترجمان عند ملك الخزر، وكتب في ذلك: "أيكون الملك قد عرض على خليفة المسلمين منظراً تمثيلياً من نوع البانتوميم احتفاءً به واحتفالاً بقدومه، وفهمه هذا الساذج على أنه حقيقة ؟! أو أن ملك الخزر ماجناً مهزاراً لا يرى عيباً أن يسخر من ضيفه فيدخل عليه منظر الغانية والسمكة الكبيرة ؟[64]، وعندنا أن من المحتمل أيضاً أن يكون سلام الترجمان سمع من بعض العامة في بلاد الخزر حديث تلك السمكة، فعلقت بذهنه ونسبها إلى مشاهداته الخاصة ".[65]

وبغض النظر على أسطورية المادة التي رويت في هذه الرحلة الواقعية، فقد نالت القصة انتشاراً واسعاً في الأدب الجغرافي ورواها الجغرافيون المتقدمون مع تفاوت في التفاصيل،

إذاً فالرحلة في ذاتها واقعية، رغم أن الدافع المعلن لها من ضروب الأساطير والخيال، حيث أن مضمونها يعبر عن مفاهيم شعبية يريدها الحكام لتحقيق إرادتهم السياسية.

الخاتمة:

ومما سبق يمكن استخلاص عدة نتائج وهي كالآتي :

أولاً :إن مملكة الخزر كانت إمبراطورية قوية قبيل بدايات الدولة العباسية الأولى وضعفت قواها لكثرة حروبها مع الأمويين ، وعلى الرغم من هذا إلا أن موقعها الاستراتيجي بين الدولة العباسية شرقاً والإمبراطورية البيزنطية غرباً قد سمح لها بتشكيل علاقات سياسية مع العباسيين.

ثانياً : من أسباب التحول الديني للخزر إلى اليهودية هو صنع مظهراً من مظاهر قوة التوازن في مواجهة البيزنطيين والمسلمين، لأن كلاهما يعترف باليهودية كديانة سماوية، ومنها أيضاً: أن اليهود الذين كانوا في داغستان هم الذين عملوا على نشر اليهودية بين الخزريين بعد مطاردة السامانيين والبيزنطيين لهم.

ثالثاً : اتصفت العلاقات السياسية بين الخزر والعباسيين بالتنازعات والتحالفات، وكذلك المصاهرات التي لم تنتج نتاجاً إيجابياً وانتهت بحروب عسكرية انهزم فيها الخزر وتقلصت دولتهم.

رابعاً : لقد أظهرت قصة رحلة سلام الترجمان إلى بلاد الخزر طبيعة الصلة التي كانت بين الخزر والدولة العباسية الأولى بصرف النظر عن ما لُصق بالقصة من أساطير وخرافات.

هوامش البحث :

1. د.م.دنلوب ، تاريخ يهود الخزر ، نقله إلى العربية وقدم له سهيل زكار ، ط2 ، دار احسان ، دمشق ، 1990م ، ص19.
2. إمبراطورية قصيرة العمر ظهرت في أسيا الوسطى في حوالي منتصف القرن السادس الميلادي نتيجة تحالف مجموعة من القبائل يتولى أمرها حاكم هو الخاقانوهو اللقب الذي خلعه الخزر على أنفسهم فيما بعد قبل أن تعتنق الشعوب التركية الإسلام ، والأمة التركية هي في الأصل الشعوب التي كانت تستوطن ما يعرف اليوم بدول وأقاليم أوزبكستان ، وآذربيجان ، وتركمانستان ، قرغيزستان ، كازاخستان ، وقد هاجرت إلى ما يعرف اليوم بتركيا في القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي وما يليه بعد إسلامها وفي حروبها مع الدولة البيزنطية ، ونجحت الدولة التركية عام 1453م في القضاء على بيزنطة ، وأحتلال عاصمتها القسطنطينية (اسطنبول) التي صارت عاصمة ومركز الدولة التركية ورمزها أيضاً . انظر : صخر المحمد ، اليهود الخزر " تاريخهم وتحولهم للأشكيناز " جامعة دمشق ، ص4 ؛ محمد عبد الشافي محمد المغربي ، مملكة الخزر وعلاقتها بالبيزنطيين والمسلمين في القرنين السابع والثامن للميلاد ، رسالة ماجستير منشورة ، كلية الآداب ، جامعة أسيوط ، سوهاج ، 1991م ، ص52.
3. صخر المحمد ، اليهود الخزر ص7.
4. كيلسترنج ، بلدان الخلافة الشرقية ، نقله إلى العربية بشير فرنسيس وكوركيس عواد ، ط1 ، انتشارات الشريف الرضى ، بغداد، 1954م ، ص15.
5. الإمبراطورية البيزنطية : استمدت هذا الاسم من الاسم القديم الذي كان يطلق على موقع القسطنطينية حيث كانت تعرف بيزانتيوم نسبة إلى أمير بيزانس والذي ترجع أصوله إلى مدينة ميجارا اليونانية انظر:

Vasiliev,A.A.: History of the Byzantiine Empire 324-1453,ed.2,Madison,1958, vol 1 ,p. 57.

6. محمد عبد الشافي محمد المغربي ، مملكة الخزر ، ص69.
7. الاصطخري ، المسالك والممالك ، ط ليدن ، 1870م ، ص 90 ؛دنلوب ، تاريخ يهود الخزر ، ص140 ، 141.
8. المسعودي ، مروج الذهب ، تحقيق يوسف أسعد داغر ، دار الأندلس، بيروت ، 1996م ،ج1 ، ص201 ؛ جمال حمدان ، اليهود انثربولوجيا ، تقديم عبد الوهاب المسيري ، دار الهلال ، 1996م ، ص67 ؛ عفيف البهنسي ، تاريخ فلسطين القديم من خلال علم الآثار ، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب ، دمشق ، 2009م ، ص35.
9. المسالك والممالك ، ص90 ، 92 ؛ صخر المحمد ، اليهود والخزر ،ص5.
10. دنلوب ، تاريخ يهود الخزر ، ص 137 ، 166.
11. وما يدل على هذا الرأي هو أن الأبحاث الجينية التي تم إجراؤها على كروموزومات واي (Y) الخاصة بيهود الأشكيناز عام 1999م أظهرت أن بنية الأحماض النووية للغالبية العظمى هي لليهود المتأصلين من بني إسرائيل ، وقلة قليلة منهم كان لهم آثار أقل لبنية الخزر.

Scholor Claims to find medieval jewish capital, 9.2008(Associated Press).

12. صخر المحمد ، اليهود والخزر ، ص 7.
13. جستنيان الثاني : هو أخر إمبراطور بيزنطي من الأسرة الهرقلية ، حكم من عام 685-695م ومرة أخرى من عام 705-711م ، يعد أول إمبراطور بيزنطي وضع صورة المسيح عليه السلام على العملة ، انظر

James D. Breckenridge: the Numisnatic I conography of justinian II (685-695,705.711.AD) NewYork, the arican numismatic society, 1959, p.1.

14. شبه جزيرة القرم : تقع في جنوب أوكرانيا يحدها من الجنوب والشرق البحر الأسود ومن الشرق بحر آزوف ، وكان اسمها فيما مضى "آق مسجد" أي المسجد الأبيض ، وصلها الإسلام عن طريق التتار وذلك في عهد القبيلة الذهبية. أنظر: فوزي توركر ، شبه جزيرة القرم (الوطن التركي السليب) ، مجلة كتابات الإلكترونية ، 2014م ، ص 1.3.

15. عمر يحي محمد ، التوجهات في العلاقات السياسية والاقتصادية والثقافية بين الدولة البيزنطية والدولة الإسلامية في عهد الأسرة الايسورية (98-205هـ/717-820م) مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، جامعة الملك عبد العزيز ، جدة ، 2010م ، ص8.
16. صخر المحمد ، اليهود والخزر ، ص8.
17. محمد عبد الشافي محمد المغربي ، مملكة الخزر ، ص148.
18. محمد عبد الشافي محمد المغربي ، المرجع نفسه ، ص149.
19. صخر المحمد ، اليهود والخزر ، ص8.
20. دربند : هو باب الأبواب ، مدينة تقع على بحر الخزر وفي وسطها مرسى للسفن ، ولها أهمية كبيرة تجارية لأنها بنيت على طرق في الجبل ، ولذلك تدور حولها صراعات كثيرة ، انظر : ابن حوقل ، صورة الأرض ، دار الكتاب الإسلامي ، القاهرة ، (د. ت) ، ص 291 ؛ الصابئي ، تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء ، تحقيق عبد الستار أحمد فراج ، القاهرة ، 1985م ، ص 239 ؛ ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج2 / 449 ؛ عبد الحسين نهجيري ، جغرافيانتاريخي شهرهاى ، جاب أول ، 1370 هـ ، ش ، ص 282.
21. تقع في أذربيجان ، فيها قرى ومروج كثيرة تحتلها التركمان للرعي فأكثر أهلها منهم. انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان ، ج5 / 225.
22. تفليس : عاصمة إقليم كرجستان (جورجيا حالياً) ، وهي مدينة دون باب الأبواب في الكبر وعليها سوران من طين ولها ثلاثة أبواب وهي خصبة كثيرة الخيرات رخيصة الأسعار. انظر : ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص 292.
23. يزيد بن أسيد : هو يزيد بن اسيد بن زافر بن أبي أسماء بن أبي اسيد بن منقذ بن امرئ القيس ، من قُوَّاد بني العباس ، انظر : ابن حزم ، جمهرة أنساب العرب ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 1983 ، ص262.
24. القوقاز أو القوقاس : كلمة مرادفة للقبق أو القبج الأعجمية وهو جبل متصل بباب الأبواب وبلاد اللان وهو آخر حدود أرمينية ، ويقال له جبل الألسن لأن فيه أمماً لغاتهم مختلفة ، وهو أمر راجع إلى كون الإقليم معبراً أرضياً مرت عبره موجات بشرية عديدة.انظر : ابن خرداذبة ، المسالك والممالك ، بيروت ، (د. ت) ، ج1 / 124 ، 125 ؛ ابن الفقيه ، مختصر كتاب البلدان ، ط ليدن ، 1302 هـ ، ص 286 ؛ ياقوت الحموي ، معجم البلدان ،

ج4 / 306 ؛ أبو الفداء ، تقويم البلدان . تصحيح ماك كوكين ، المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر ، باريس ، 1840م ، ص 71 ؛ لسترنج ، بلدان الخلافة الشرقية ، ص216.

25. رجب محمود إبراهيم بخيت ، مدينة أردبيل تاريخها السياسي والحضاري ، رسالة دكتوراه ، غير منشورة ، كلية الآداب ، جامعة عين شمس ، القاهرة ، 2006م ، ص74.

26. أبو مسلم الخراساني : يسمى إبراهيم بن حيكان ، فتسمى عبد الرحمن بن مسلم ، ويقال إن الذي سماه عبد الرحمن وكنّاه أبا مسلم إبراهيم بن محمد الإمام ، ولد سنة 100هـ / 718م بأصفهان ونشأ بالكوفة ، وهو صاحب الدعوة العباسية. انظر : البلاذري ، أنساب الأشراف ، تحقيق محمد حميد الله ، القاهرة ، (د.ت) ج93/3 ؛ الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد أو مدينة السلام ، دار الكتب العالمية ، بيروت (د.ت) ، ج1 / ص207.

27. عندما بُويع لبني العباس اختفى محمد وأخاه إبراهيم مدة خلافة السفاح ، فلما صارت الخلافة إلى أبي جعفر المنصور خاف محمد بن عبد الله وإبراهيم خوفاً شديداً وذلك لأنه توهم منهما أن يخرجا عليه ، والذي خاف منه وقع فيه ، ولما خافاه ذهبا منه هرباً في البلاد الشاسعة فأختفوا بها ، ثم خرجا عليه من سويقة المدينة (سويقة الثائرة) ، وجّد المنصور في طلبهما ، فخرج أخوه إبراهيم إلى البصرة ، وقتل (بباخمرا) قرية الكوفة ، أما محمد النفس الزكية ، خرج بالمدينة فندب لحربه المنصور ابن عمه عيسى بن موسى العباسي ، فأقبل عيسى حتى أناخ على المدينة وكتب إلى كبراء أهلها يستميلهم ويمّنيهم ، فتفرق عن النفس الزكية الكثير وبقى معه القليل ، وقاتلوا قتالاً شديداً حتى قُتل النفس الزكية انظر الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ، ط4 ، دار الكتب العلمية ، بيروت 2008م ، ج4/454،422.

28. رجب محمود إبراهيم بخيت ، مدينة أردبيل ، ص74.

29. فتحي ابو سيف ، المصاهرات السياسية في العصرين الغزنوي والسلجوقي ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، 1986م ، ص63.

30. البلاذري ، فتوح البلدان ، وضع حواشيه عبد القادر محمد علي ، ط1 ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 2000م،ص129.

31. ابن اعثم الكوفي ، كتاب الفتوح ، تحقيق علي شيري ، ط1 ، دار الأضواء ، بيروت ، 1991م، ج8 / 364.

32. فتحي بو سيف ، المصاهرات السياسية ، ص65.

33. البلاذري ، فتوح البلدان ، ص129.

34. ليو الثالث : هو مؤسس الأسرة الإيسورية ، ومن المحتمل أنه قدم من شمالي بلاد الشام ، وقد عمل قائداً لثيم الأناضول ، ونادى به جنوده كإمبراطور بدلاً من ثيودوسيوس الثالث ، وفي 25 مارس 718م تم تتويجه وابتدأ عهده مع الحصار الذي قاده القائد المسلم مسلمة بن عبد الملك خلال عامي 717-718م ودافع عن آسيا الصغرى وأحرز انتصارات ضد العرب في 740م وأصدر مجموعته القانونية المعروفة بالإكلوجا Ecloga سنة 739م وتوفيّ في يونيو 741م انظر:

Rosser ,J.H : Historical Dictionary of Byzantium , P. 242.

35. قسطنطين الخامس : كان عدواً لعبادة الأيقونات وقد عانى عُبادها من قسوته عليهم إذ قاد حملة ضدهم وصادر ملكيات الأديار وباعها وحطم الصور الدينية ، ودخل في حروب مع الدولة العباسية ، وضاعت في عهده مدينة رافنا التي استولى عليها اللومبارد ، انظر : خميس أحمد ارحومة حميد ، العقائد والمذاهب الدينية المخالفة في القانون البيزنطي ، دراسة تاريخية 313-750م، ط1 ، دار ابن خلدون ، القاهرة ، 2015م ، ص213 ، هامش رقم (1).

36. عمر يحي محمد ، التوجهات في العلاقات السياسية والاقتصادية والثقافية ، ص 11.

37. اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، ط2 ، دار صادر ، بيروت ، 2010م ، ج2 / 371.

38. الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ، ج4 / 477.

39. محمد عبد الشافي محمد ، مملكة الخزر ، ص119.

40. محمد عبد الشافي محمد ، المرجع نفسه، ص119.

41. سعيد بن مسلم بن قتيبة الباهلي : والي أرمينيا والموصل والسند خراسان وسجستان والجزيرة . وولده كثير . انظر : ابن قتيبة الدينوري ، المعارف ، تحقيق ثروت عكاشة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، 1992م ، ص 407.

42. اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، ج2 /427،428.

43. يزيد بن مزيد بن زائدة بن عبد الله الشيباني هو قاتل خراشة الخارجي ، وّلّي أرمينيا وأبنه محمد بن يزيد من بعده ، ساد وهو ابن عشرين سنة وشبيب الخارجي من رهطه . انظر : ابن قتيبة الدينوري ، المعارف ، ص 413،414.

44. محمد عبد الشافي محمد ، مملكة الخزر ص120.

45. تاريخ اليعقوبي ، ج2 / 427.

46. برذعة : هي أم الران وعين تلك الديار ، بانيها برذعة بن أرميني ، كثيرة الزروع والثمار . انظر : ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص290 ؛ الدمشقي ، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر ، بيروت ، 1923م ، ج2 / 189.

47. محمد عبد الشافي محمد ، مملكة الخزر ص121،120.

48. أهل الذمة هم رعايا الدولة الإسلامية الذين بقوا على دينهم ورضوا بحكم الإسلام عليهم بناء على عقد الذمة الذي يبرمه معهم إمام المسلمين أو نائبه بشرط دفع الجزية ، وقولهم : هذا في ذمة فلان أصله من هذا أي في عهده وعقده ، أي فألزمه بالعقد والميثاق ، وهؤلاء لهم ذمة مؤبدة . انظر :القرشي ، كتاب الخراج ، صححه وشرحه ووضع فهارسه أبو الأشبال أحمد محمد شاكر ، دار المعرفة ، بيروت ، 1347هـ ، ص74،55 ؛ الكاساني ، بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع ، ط2 ، بيروت ، 2001م ، ص429،428.

49. الازدي ، تاريخ الموصل ، تحقيق علي حبيبة ، القاهرة ، 1967م ، ص295،294 ؛ الذهبي ، دول الإسلام ، تحقيق حسن إسماعيل مروة ، ط1 ، بيروت ، 1999م ، ج1 /64.

50. خزيمة بن خازم : من أكبر القواد في عصر الرشيد والأمين والمأمون ، وكان لديهم ذو مكانة كبيرة وشهدت لهم مواقع كثيرة ومال إلى المأمون خلال خلافه مع الأمين . انظر : ابن قتيبة الدينوري ، المعارف ، ص417 ؛ ابن الجوزي ؛ المنتظم في تاريخ الأمم والملوك ، تحقيق محمد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا ، راجعه وصححه نعيم زرزور ،بيروت ، 1992م ، 118/9 ؛ الزركلي ، الإعلام ، بيروت ، (د.ت) ، 305/2.

51. رجب محمود إبراهيم بخيت ، مدينة أردبيل ، ص83.

52. رجب محمود إبراهيم بخيت ، المرجع نفسه ، ص83.

53. البابكية : عرفت بهذا الاسم نسبة إلى زعيمها بابك الحزمي الذي ظهر من طائفة الخرمية المزدكية ، كان أتباعها يبيحون المحرمات وسائر اللذات ثم عمدوا إلى نشر عقيدة تناسخ الأرواح. انظر : باول هرن ، تاريخ مختصر إيران أز أول إسلام تا انقراض زنديان ، ترجمة رضا زاده شفق ، طهران ، 1314هـ. ش ، ص23،22 ؛ سعيد نفيسي ، بابك خرم دين ، طهران ، 1333هـ.ش ، ص59 ؛ محمد جواد مشكور ، نظري به تاريخ آذربيجان وآثار باستاني وجمعيت شناسي آن ، ط / طهران ، 1349هـ.ش.ص138.

54. حسن إبراهيم حسن ، تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي ، ط5 ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، 2001م ، ج2 / 224.

55. نظام الملك ، سياست نامه ، ترجمّه عن الفارسية يوسف بكار ، ط1 ، دار المناهل ، بيروت ، 2007م، ص279؛ غادة كمال السيد ، أصفهان من الفتح الإسلامي إلى نهاية العصر العباسي الأول ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآدب ، جامعة عين شمس ، القاهرة ، 2003م،ص77.
56. علي إبراهيم كردي ، أدب الرّحل في المغرب والأندلس ، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب ، دمشق ، 2013م ، ص9.
57. كليفورد . إ . بوزورث ، تراث الإسلام " الحدود القصوى للإسلام في أفريقيا وآسيا " ، الكويت ، 1998م ، ج1 /52.
58. سامراء : بلد على دجلة فوق بغداد بثلاثين فرسخاً يقال لها سر من راي فخففها الناس وقالا : سامراء. انظر : ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج173/3.
59. ابن خرداذبة ، المسالك والممالك ، ط ليدن ، 1889م ، ص 162،163 ؛ نوفل محمد نوري ، الأسطورة والحكاية الشعبية وأثرها في ثقافة الرحالة المسلمين ، مجلة التربية والعلم ، مج15 ، العدد 4 ، 2008م ، ص98 ؛ علاوي الخامسة ، العجائية في أدب الرحلات : رحلة ابن فضلان نموذجاً ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية اللغات والآداب ، جامعة منتوري ، قسطنطينة ، 2005م، ص103.
60. ابن خرداذبة ، المسالك والممالك ، ص163-168 ؛ زكي محمد حسن ، الرحالة المسلمون في العصور الوسطى ، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة ، القاهرة ، 2013م ، ص 16.
61. ابن خرداذبة ، المسالك والممالك ، ص163-168 ؛ زكي محمد حسن ، الرحالة المسلمون في العصور الوسطى ، ص 15 ، 16.
62. ابن خرداذبة ، المسالك والممالك ، ص170.
63. عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات ، ط القاهرة ، 1954م ، ص 138،139 ؛ زكي محمد حسن ، الرحالة المسلمون في العصور الوسطى ، ص 16.
64. محمد عبد الشافي محمد المغربي ، مملكة الخزر ، ص121 ، 122.
65. زكي محمد حسن ، الرحالة المسلمون ، ص16.

قائمة بأهم المصادر والمراجع العربية والفارسية والإنجليزية

1. الأزدي (أبو زكريا يزيد بن محمد ، ت 334 هـ / 945م).

● تاريخ الموصل ، تحقيق علي حبيبة ، القاهرة، 1967م.

2. الأصطخري (ابن اسحاق بن محمد الفارسي، ت 341 هـ / 952م).

● المسالك والممالك، ط ليدن ، 1870م ، ص 90 ؛ دنلوب، تاريخ يهود الخزر.

3. ابن اعثم الكوفي (أبو محمد أحمد ، ت 314هـ / 926م).

● كتاب الفتوح، تحقيق علي شيري ، ط1، دار الأضواء ، بيروت، 1991م، ج8.

4. باول هرن.

● تاريخ مختصر إيران أز أول إسلام تا انقراض زنديان، ترجمة رضا زاده شفق، طهران، 1314هـ. ش.

5. البلاذري (محمد بن يحيى ، ت 279هـ / 892م).

● أنساب الأشراف، تحقيق محمد حميد الله، القاهرة ، (د.ت) ج3.

● فتوح البلدان، وضع حواشيه عبد القادر محمد علي، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2000م.

6. جمال حمدان.

● اليهود انثربولوجيا ، تقديم عبد الوهاب المسيري، دار الهلال، 1996م، ص67.

7. ابن الجوزي (أبو الفرج عبد الرحمن، ت 597هـ / 1200م).

● المنتظم في تاريخ الأمم والملوك ، تحقيق محمد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا ، راجعه وصححه نعيم زرزور ،بيروت ، 1992م.

8. ابن حزم (أبو محد علي بن أحمد ، ت 456هـ / 1075م).

● جمهرة أنساب العرب ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 1983.

9. حسن إبراهيم حسن.

● تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي ، ط5 ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، 2001م ، ج2.

10. ابن حوقل (أبو القاسم النصيبي ، ت 367هـ / 979م).

● صورة الأرض ، دار الكتاب الإسلامي ، القاهرة ، (د. ت).

11. ابن خرداذبة (أبو القاسم عبيد الله ، ت 300هـ / 864م).

● المسالك والممالك ، ط ليدن ، 1889م.

12. الخطيب البغدادي (أبو بكر أحمد بن علي ، ت 463هـ/ 1070م).
- تاريخ بغداد أو مدينة السلام ، دار الكتب العالمية ، بيروت (د.ت) ، ج1.

13. خميس أحمد ارحومة حميد.
- العقائد والمذاهب الدينية المخالفة في القانون البيزنطي ، دراسة تاريخية 313-750م، ط1 ، دار ابن خلدون ، القاهرة ، 2015م.

14. د.م.دنلوب.
- تاريخ يهود الخزر ، نقله إلى العربية وقدم له سهيل زكار ، ط2 ، دار احسان ، دمشق ، 1990م.

15. الدمشقي (شمس الدين أبو عبيد الله ، ت 654هـ/ 1256م).
- نخبة الدهر في عجائب البر والبحر ، بيروت ، 1923م ، ج2.

16. الذهبي (الحافظ شمس الدين بن محمد ، ت 748هـ/ 1347م).
- دول الإسلام ، تحقيق حسن إسماعيل مروة ، ط1 ، بيروت ، 1999م ، ج1.

17. رجب محمود إبراهيم بخيت.
- مدينة أردبيل تاريخها السياسي والحضاري ، رسالة دكتوراه ، غير منشورة ، كلية الآداب ، جامعة عين شمس ، القاهرة ، 2006م.

18. الزركلي.
- الإعلام ، بيروت ، (د.ت).

19. زكي محمد حسن.
- الرحالة المسلمون في العصور الوسطى ، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة ، القاهرة ، 2013م.

20. سعيد نفيسي.
- بابك خرم دين ، طهران ، 1333هـ.ش.

21. سليم مفتاح عبد العزيز عقيلة.
- آذربيجان من الفتح الإسلامي إلى نهاية العصر العباسي الأول " دراسة سياسية وحضارية " رسالة دكتوراه منشورة ، كلية الآداب ، جامعة عين شمس ، القاهرة ، 2013م.

22. الصابئ (أبو الحسن هلال بن المحسن ، ت 448هـ/ 1065م).

- تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء ، تحقيق عبد الستار أحمد فراج ، القاهرة ، 1985م.

23. صخر المحمد.

- اليهود الخزر " تاريخهم وتحولهم للأشكيناز " جامعة دمشق.

24. الطبري (محمد بن جرير ، ت 310هـ/ 922م).

- تاريخ الأمم والملوك ، ط4 ، دار الكتب العلمية ، بيروت 2008م ، ج4.

25. عبد الحسين نهجيري.

- جغرافياى تاريخي شهرهاى ، جاب أول ، 1370 هـ ، ش

26. عفيف البهنسي.

- تاريخ فلسطين القديم من خلال علم الآثار ، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب ، دمشق ، 2009م.

27. علي إبراهيم كردي.

- أدب الرّحل في المغرب والاندلس ، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب ، دمشق ، 2013م.

28. علاوي الخامسة.

- العجائية في أدب الرحلات : رحلة ابن فضلان نموذجاً ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية اللغات والآداب ، جامعة منتوري ، قسطنطينة ، 2005.

29. عمر يحي محمد.

- التوجهات في العلاقات السياسية والاقتصادية والثقافية بين الدولة البيزنطية والدولة الإسلامية في عهد الأسرة الايسورية (98-205هـ/717-820م) مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، جامعة الملك عبد العزيز ، جدة ، 2010م.

30. غادة كمال السيد.

- أصفهان من الفتح الإسلامي إلى نهاية العصر العباسي الأول ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآدب ، جامعة عين شمس ، القاهرة ، 2003م.

31. فتحي ابو سيف.

- المصاهرات السياسية في العصرين الغزنوي والسلجوقي ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، 1986م.

32. أبو الفداء (عماد الدين إسماعيل بن علي ، ت 732هـ/ 1332م).

● تقويم البلدان . تصحيح ماك كوكين ، المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر ، باريس ، 1840م ، ص 71 ؛ لسترنج ، بلدان الخلافة الشرقية

33. ابن الفقيه (أبو بكر أحمد بن محمد ، الهمذاني ، ت 365هـ/ 976م).

● مختصر كتاب البلدان ، ط ليدن ، 1302 هـ ، ص 286 ؛ ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج4.

34. فوزي توركر.

● شبه جزيرة القرم (الوطن التركي السليب) ، مجلة كتابات الإلكترونية ، 2014م

35. ابن قتيبة الدينوري (أبو بكر محمد بن مسلم ، ت 276هـ/ 889م).

● المعارف ، تحقيق ثروت عكاشة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، 1992م.

36. القرشي (يحيى بن آدم ، ت 203هـ/ 818م).

● كتاب الخراج ، صححه وشرحه ووضع فهارسه أبو الأشبال أحمد محمد شاكر ، دار المعرفة ، بيروت ، 1347هـ.

37. القزويني (زكريا بن محمد بن محمود ، ت 682هـ/ 1283م).

● عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات ، ط القاهرة ، 1954م ، ص 138،139 ؛ زكي محمد حسن ، الرحالة المسلمون في العصور الوسطى

38. الكاساني (علاء الدين أبو بكر ، ت 587هـ/ 1191م).

● بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع ، ط2 ، بيروت ، 2001م.

39. كليفورد . إ . بوزورث.

● تراث الإسلام " الحدود القصوى للإسلام في أفريقيا وآسيا " ، الكويت ، 1998م ، ج1.

40. كي لسترنج.

● بلدان الخلافة الشرقية ، نقله إلى العربية بشير فرنسيس وكوركيس عواد ، ط1 ، انتشارات الشريف الرضى ، بغداد، 1954م.

41. محمد جواد مشكور.

● نظري به تاريخ آذربيجان وآثار باستاني وجمعيت شناسي آن ، ط / طهران ، 1349هـ.ش.

42. محمد عبد الشافي محمد المغربي.

- مملكة الخزر وعلاقتها بالبيزنطيين والمسلمين في القرنين السابع والثامن للميلاد ، رسالة ماجستير منشورة ، كلية الآداب ، جامعة أسيوط ، سوهاج ، 1991م.

43. المسعودي (علي بن الحسين ، ت 346هـ/ 948م).

- مروج الذهب ، تحقيق يوسف أسعد داغر ، دار الاندلس، بيروت ، 1996م ،ج1.

44. نظام الملك (الطوسي ، ت 485هـ/ 1092م).

- سياست نامه ، ترجمّه عن الفارسية يوسف بكار ، ط1 ، دار المناهل ، بيروت ، بيروت ، 2007م.

45. نوفل محمد نوري.

- الأسطورة والحكاية الشعبية وأثرها في ثقافة الرحالة المسلمين ، مجلة التربية والعلم ، مج15 ، العدد 4 ، 2008م.

46. ياقوت الحموي (شهاب الدين عبد لله ، ت 626هـ/ 1228م).

- معجم البلدان ، ج2

47. اليعقوبي (أحمد بن أبي يعقوب بن واضح ، ت 284هـ/ 897م).

- تاريخ اليعقوبي ، ط2 ، دار صادر ، بيروت ، 2010م ، ج2.

48. James D. Breckenridge: the Numisnatic I conography of jusinian II (685-695,705.711.A.A) NewYork, the arican numismatic society, 1959.

49. Rosser ,J.H : Historical Dictionary of Byzantium

50. Scholor Claims to find medieval jewish capital, 9.2008 (Associated Press).

51. vasilie v : history of the Byzantiine-vol 1

الكاتب: نورالدين النوري
مدرسة الدكتوراه بكلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس. جامعة تونس
البريد الالكتروني: noureddinenouri@hotmail.fr

عنوان المقال: سياسية الأدارسة الخارجية تجاه بني رستم:قراءة جديدة من خلال مصدر أخبار فخ للرازي

تاريخ الارسال: 2020/05/29 تاريخ القبول: 2020/06/14 تاريخ النشر: 2020/06/30

سياسية الأدارسة الخارجية تجاه بني رستم:
قراءة جديدة من خلال مصدر أخبار فخ للرازي

The Idrissid foreign policy toward Banu Rustom:
A new perspective via the bibliographical source of Arrazi: Akhbar Fakh?

الملخص بالعربية:

يرى الدارس للتاريخ السياسي لدويلات بلاد المغرب الإسلامي خلال العصر الوسيط المبكر، ظاهريا، أن سياسة حسن الجوار كانت سائدة خاصة بين الدولة الرستمية ببلاد المغرب الاوسط ودولة الأدارسة ببلاد المغرب الأقصى، لكن باطنيا كانت بينها صراعات مذهبية وإقليمية حادة أثارتها أحيانا شخصيات خارجية. فجذور الصراع بين هاتين الدولتين، وهما محورا موضوع هذا البحث، يرجع الى العداء الذي نشأ منذ بداية فكرة تأسيس الشخصية الجغراسياسية أو الإقليمية لدولة الأدارسة ببلاد المغرب منذ نزول إدريس الأكبر بمجال نفوسة الإباضية. والأخبار التي ساقها الرازي صاحب كتاب أخبار فخ جعلتنا نراجع طبيعة هذه العلاقة من سلمية إلى حربية وأحيانا عدائية.

كلمات مفتاحية: الإباضية؛ الأدارسة؛ بنو رستم؛ فخ؛ نفوسة؛ المغرب الأوسط؛ المغرب الأقصى؛ وليلي؛ تاهرت؛ مليانة.

Abstract :

A researcher of the Islamic Maghreb states' political history, during the early Middle Ages, ostensibly, notes the reign of a policy of good-neighbourliness, between these states, particularly prevalent between the Rustomid dynasty in the Middle Maghreb and the Idrisid dynasty in the extreme Maghreb. But, deeply, there were intense schism and regional

conflicts, sometimes instigated by external interferences. The roots of the conflict between these two dynasties, which is the topic of this research, are due to the animosity that has arisen since the decision taken to establish the geopolitical or regional existence of the Idrisid State in the Maghreb, with the arrival of Idriss the Great to the Ibadhit territories. Al-Razi, the author of the book "Akhbar Fakh", made us retreat and review the idea about the nature of this relationship from believing that it was peaceful to be persuaded that it was warlike or martial and sometimes hostile.

Key Words: Ibadit; Idrissid; Banu Rustom; Fakh; Naffussa; Medieval Maghreb; Extreme Maghreb; Walili; Tahert; Meliana.

المقدمة:

مثلت دولة الأدارسة (172 - 296 هـ/ 789 – 908 م) التي ضمت كل إقليم بلاد المغرب الأقصى[1] الجار الغربي لدولة بني رستم (160 – 296 هـ/ 776 – 908 م) ببلاد المغرب الأوسط، ويفصلهما وادي ملوية وجبال تازة اللذان يمثلان خط الحدود بين الدولتين، ولقد امتدت حدود حكم الأدارسة إلى الجهة الغربية ووصلت الى البحر المحيط أو المحيط الأطلسي، ومن الشمال بحر الروم أو البحر الأبيض المتوسط، ومن الجنوب جبال درن، وهي دولة علوية معتدلة تتفق في عديد الآراء مع أهل السنة[2]، فإدريس بن إدريس تذكر المصادر أنه كان *"فصيحا بليغا أديبا عامل بكتاب الله تعالى قائما بحدوده، راويا لحديث النبي صلى الله عليه وسلم، عارفا بالفقه والسنة والحلال والحرام وفصول الأحكام ورعا تقيا"* [3]. فكيف كانت طبيعة العلاقات بين بني رستم والأدارسة وهل أثر الاختلاف الفكري فيها؟

كان على بني رستم حال تأسيس دولتهم عن طريق عبد الرحمان بن رستم ببلاد المغرب الاوسط واتخاذهم لتاهرت عاصمة لها سنة 160هـ/ 776 م[4] بناء شبكة من العلاقات الخارجية الإقليمية من أجل تأمين واقعهم السياسي والاقتصادي وتشريع سلطتهم السياسية والمذهبية التي امتدت على مجال كبير من بلاد المغرب الإسلامي شمل جل المغرب الأوسط ثم بلاد قسطيلية وبلاد نفزاوة ودمر وقابس وجربة جنوب إفريقية وصولا إلى جبل نفوسة شرقا ومثل المذهب الإباضي، الذي دخل مبكرا بلاد المغرب، مذهبا رسميا لهذه الدولة[5]، بل هي أول دولة إباضية رسمية ببلاد المغرب بعد إعلان أهل المذهب بداية فترة الظهور في الحكم الإباضي الذي مثل إعلان إمامة بني رستم وقيام دولتهم[6].

لقد اتفقت جل المصادر على أن علاقة الأدارسة بتاهرت بدأت في فترة مبكرة من تاريخ الدولتين، منذ دخول مؤسس الدولة إدريس بن عبد الله بلاد المغرب، إذ من مكة مر بمصر وخرج منها الى برقة ثم حط الرحال بقيروان إفريقية ثم سار إلى تلمسان ثم إلى طنجة ببلاد المغرب الأقصى[7]، ويكون بذلك سلك طريق إفريقية-فاس[8] المارة عبر تاهرت، وحسب المصادر فلقد حط الرحال بها سنة 169هـ/785م، إذ يذكر الطبري في أخبار سنة 169هـ أن إدريس بن عبد الله بن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب عندما أفلت من واقعة فخ أيام الهادي، ونزل بمصر ثم حُمل على بريدها لأرض المغرب *"لحق بتاهرت من بلاد المغرب، فلجأ إليهم؛ فأعظموه"* [9]، لكن هناك من فسر كلمة "تاهرت" التي وردت لدى الطبري ببلاد الخوارج وعلل ذلك أن الكلمة كثيرا ما استعملت للدلالة على الإقليم لا العاصمة خاصة وأن الطبري قال *"فلم يزل عندهم إلى أن تلطف له واحتيل عليه فهلك"* ، فلهذا قد يكون مر بالمغرب الأدنى ثم بالمغرب الأوسط دون المكوث به ثم لجأ إلى المغرب الأوسط *"لأن الطلب عليه شديد من خصوم آل علي وفي مقدمتهم حكام تاهرت وولاة بني عباس في إفريقية"* [10]. لكن أحمد بن سهل الرازي، الذي يكتب تقريبا في نفس أيام الطبري، خلال القرن 4 هـ/ 10 م، كان له رأي مخالف، ويقدم معلومة فريدة ومعارضة لهذا الرأي، إذ يذكر أن إدريس الأكبر نزل بجبل نفوسة، من إفريقية، وكاتب بربر شلف وتاهرت وزناتة وزواغة وصنهاجة ولواتة الذين ناصروه، وطلب تسليمه عبد الوهاب موثوقا له فاختلف النفوسيون في الأمر، وخرج معه ألف من نفوسة وصلوا مليانة ناحية شلف وتحصنوا بها بعد أن بايعه أهلها[11]، وعجل عبد الوهاب بن رستم في مقاتلته خوفا من تعاظم شأنه واستمر القتال لمدة طويلة قُتِل خلالها الكثير، إلى أن هُزم إدريس الأكبر الذي خرج من مليانة إلى طنجة أين نزل بوليلي[12]. فهل هذا الرأي يطرح قراءة جديدة لهذه العلاقة التي تراها جل المصادر بنيت على مبدأ" *حسن الجوار*" [13] وبعض الحذر وبذلك سكتت على ذكر الحروب بينهما؟

أولا- نبذة حول كتاب "أخبارفخ وخبريحي بن عبد الله وأخيه إدريس بن عبد الله" وصاحبه

1. التعريف بالمؤلّف:

هو أحمد بن سهل الرازي، معروف بصاحب أيام فخ، وهو عالم ومؤرخ من الزيدية[14] وكانت له علاقة بزيدية الكوفة من خلال اسمه وأسانيده، ومن خلال سنده فإنه عاش خلال النصف الثاني من القرن الثالث هجري والربع الأول من القرن الرابع هجري (250-315 هـ). لا

تذكر المصادر عن حياته إلا القليل النادر، أخذ عن الحسين بن القاسم الرسي وعن إبراهيم بن إسماعيل بن علي بن إبراهيم بن الحسن بن عبد الله بن العباس بن علي بن ابي طالب وعن أبو زيد عيسى بن محمد بن أحمد بن عيسى بن يحي بن الحسين بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن ابي طالب وغيرهما. وأخذ عنه عيسى بن محمد بن أحمد بن عيسى بن يحي بن الحسين بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب المتوفى سنة 326 هـ وتوفي تقريبا في نفس السنة التي توفي فيها الطبري أي سنة 310 هـ/ 922 م، لأنهما في رواية ينقلان من مصدر مشترك، لذلك فهما متعاصرين[15].

2. المؤلَّف:

يعتبر كتاب أخبار فخ من أوائل الكتب التاريخية الزيدية وأقدمها الذي تناول فترة محددة ابتدأت بواقعة فخ واتبع مصير إدريس بن عبد الله وأخيه يحي وقسمت مادته التاريخية إلى أربع محاور أولها معركة فخ وثانيها قصة هروب إدريس ويحي إلى الحبشة ثم عودتهما وتخفيهما وثالثها ذكر لأخبار إدريس في إفريقية والمغرب حتى وفاته مسموما ثم رابعها تجول يحي بن عبد الله في الأقطار وهروبه إلى بلاد الديلم ثم أمان هارون الرشيد له وسجنه ومقتله، وبالنسبة إلى موضوع بحثنا تعتبر معلومات أخبار فخ حول الوجهة التي اتخذها إدريس أيم روح بن حاتم، الذي ولّيَ سنة 171 هـ، وهي جبل نفوسة الذي نزل بين أهله الإباضية وبث دعوتهم بينهم وأجابوه رغم أنهم كانوا على بيعة الإمام الرستمي عبد الوهاب بن رستم[16]، وهو ما سيجعلنا نراجع عديد الأحكام حول علاقة بني رستم بالأدارسة التي تنقل المصادر أنها *"قامت على أساس المسالمة والتعايش وحسن الجوار"*[17]، لنتأكد أن ما ميز العلاقة السياسة الخارجية الإدريسية الرستمية هو *"سوء التفاهم"*[18] والعداء التام رغم الخصم المشترك الخلافة العباسية وممثليهم بإفريقية بني الأغلب، ووحدة العنصر البشري المتمثل في البربر.

تم التحقيق الأول سنة 1995 بقلم الدكتور ماهر جرار وصدر عن دار الغرب الاسلامي واستعمل ثلاث مخطوطات، النسخة الأولى قام بنسخها حُميد بن أحمد المحلي سنة 638 هـ/ 1240 م، والنسخة الثانية هي لأحمد الشامي أتم نسخها يوم الأحد 22 ربيع الأول سنة 1058 هـ/ 1644 م، والنسخة الثالثة بخط علي بن أحمد بن إسحاق الذي فرغ من نسخها يوم الجمعة 19 ذي القعدة من سنة 1337 هـ/ 1918.

أما التحقيق الثاني فلقد قام به عبد الرقيب مطهر حجر وصدرت عن مركز أهل البيت للدراسات الإسلامية ورجع إلى نسختين للمخطوط الأولى لأحمد بن ناصر السمواي الزيدي تمت في شهر ذي القعدة من سنة 1113 هـ/ 1702 م، أما النسخة الثانية فهي بخط علي بن أحمد بن إسحاق وأتم نسخها سنة 1337 هـ/ 1918 م موجودة بمكتبة الأوقاف بصنعاء. وسنستعمل التحقيق الأول في بحثنا نظرا إلى التشيع الفاضح للمحقق الثاني والذي أظهره في التقديم وهو ما سيؤثر على مصداقية تحقيق المخطوط، رغم أننا كنا مجبرين على الرجوع إليه في ترجمته للمؤلّف نظرا إلى تغافل المحقق الاول ماهر جرار عن الترجمة إليه نظرا إلى شح المعلومات حوله [19].

ثانيا- أطماع الأدارسة ببلاد المغرب الأوسط بناء على أخبار الرازي

1. صراع الأدارسة مع بني رستم من أجل بناء شخصية إقليمية ببلاد المغرب الإسلامي (172- 296 هـ/ 789 - 908م):

أ- بداية أمر الأدارسة ببلاد المغرب ومحاولتهم لبسط نفوذهم على بلاد المغرب الأوسط:

ذكر ابن عذاري ثم ابن أبي زرع أن مؤسس الدولة الإدريسية، إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب[20]، فر من الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور - ثم تبعه أخوه سليمان - بعد واقعة "فخ" إلى المغرب سنة 169هـ/ 786م أيام الخليفة الهادي العباسي الذي قامت فيها قواته بمذبحة في نفر من العلويين أحفاد علي بن أبي طالب لأنهم كانوا يدعون لأنفسهم لإقامة دولة[21]، وفر إدريس غربا عبر إفريقية حتى وصل طنجة ليخبر البربر بنسبه ودعاهم فأجابوه سنة 172هـ/ 788م وهي السنة التي توفي فيها عبد الرحمان بن معاوية وخلفه ابنه هشام الرضا. ثم لحق سليمان بن محمد بعمه والذي قُتل جده سليمان بواقعة "فخ"، واقتطع ناحية تلمسان، وعيسى الذي خرج أحفاده إلى بلاد المغرب الأقصى واستقروا به[22]، أما يحي فقد فر إلى بلاد الديلم جنوب بحر القزوين، أين حاول إقامة دولته، واختلفت المصادر في الطريق التي سلكها، هل كانت من اليمن ثم بلاد الجزيرة ثم أرمينية إلى بغداد ثم صنعاء فخرسان فطبرستان لينتهي بجبل أو بلاد الديلم أو سبيل أخرى[23]. وتحدثنا المصادر عن الجمع الكثير من نسل عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب الذي انتقل إلى بلاد المغرب الأقصى والأوسط أين كان لهم شأن كبير[24]. ثم استوطن مؤسس الدولة

الإدريسية، إدريس، "وليلي" *Volubilis* قرب مكناس، من أرض طنجة سنة 172هـ/ 788م أيام يزيد بن حاتم بإفريقية وخلافة أبي جعفر المنصور، وكانت وليلي بين يدي إسحاق بن محمد بن عبد الحميد الأربي المعتزلي، فبويع له بالإمارة في هذه المدينة و*"أول من بايعه قبائل أوربة،... وكانت أوربة في ذاك الوقت أعظم قبائل المغرب وأكثرها عددا وأشدها قوة وبأسا وأحدها شوكة، ثم بعد ذلك أتته قبائل زناتة وأصناف قبائل البربر من أهل المغرب منهم زواغة، وزواوة، ولماية وسدراتة، وغياثة، ونفزة ومكناسة وغمارة، فبايعوه ودخلوا في طاعته"* [25] واجتمعت حوله القبائل وعظم شأنه سنة 172هـ/ 788م.

خرج إدريس بن عبد الله أو إدريس الأول سنة 173 هـ/ 789م بعسكر عظيم من وجوه زناتة وأوربة وصنهاجة وهوارة وغيرهم إلى سبتة في جمادي الثانية ووصل به إلى السوس الأقصى، ودخل "ماسة" ثم "تازا" أو "تاسا"[26] في جمادي الثانية من سنة 174هـ/ 790م أين *"ترك حملا من إحدى جواريه فقام راشد (مولى عيسى بن عبد الله بن حسن بن حسن بن علي بن ابي طالب) بأمر البربر حتى ولدت غلاما، فسماه باسم أبيه "إدريس"* [27]، وفي نفس السنة استولى على تلمسان ووصل إلى حدود عبد الوهاب بن رستم الغربية وقامت بطون من زناتة بالعرض على الإمام الرستمي دمج أراضيه في صلب دولة الأدارسة، لكنه رفض، ويذكر ابن أبي زرع أن بعض قبائل المغرب الاوسط كزناتة وصنهاجة وزواغة وسدراتة وهوارة بايعت إدريس وشاركت معه في حملته الأولى لغزو بلاد تامسنا وبلاد تادلة وفتحها، ثم في حملته الثانية مع قبائل مغراوة وبني يفرن على تلمسان التي كان عليها أميرها محمد بن خزر بن صولات المغراوي الخزري الذي *"طلب منه الأمان فأمنه إدريس، وبايعه محمد بن خزر وجميع من معه بتلمسان من قبائل زناتة، فدخل ادريس المدينة صلحا وأمن أهلها وبنا مسجدها"* [28]، وهو ما يحيل على خلاف وقع بين الدولتين على الأقل خلال حكم إدريس الأكبر. *"وكانت مدة سلطان إدريس بالمغرب، إلى أن مات بوليلي سنة خمس –وقيل سنة أربع- وسبعين ومائة، ثلاثة أعوام وستة أشهر"* [29]. فهل تواصل هذا الخلاف؟

ب- حروب الأدارسة ضد بني رستم:

لم تتحدث المصادر الإباضية عن حروب بين أيمة بني رستم والأدارسة، لكن أحمد ابن أبي سهل الرازي انفرد بذكر وقائع مهمة عند نزول مؤسس الدولة الإدريسية ببلاد المغرب، فالمصادر تذكر أن إدريس الأكبر عندما وصل إفريقية، أيام يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب

(155-171 هـ/ 772-787) والتي أقام بها مدة، لم يُحدّد بعضها بأي جهة من المغرب الأدنى قد نزل والبعض الآخر كابن زرع يذكر أنه نزل مع مولاه راشد، الذي ذكره الرازي باسم إسحاق بن راشد، بالقيروان سنة 170هـ، واتفقت المصادر أنه من إفريقية سار إلى تلمسان ثم بلاد المغرب الأقصى ونزل سنة 172هـ طنجة، بعد أن اجتاز وادي ملوية ودخل السوس الأدنى[30]، فأقام *"بها أياما، فلم يجد بها مراده، فرجع مع مولاه راشد حتى نزل وليلي قاعدة جبل زرهون"* [31]، لكن الرازي يذكر أن إدريس عندما نزل بإفريقية توجه إلى جبل نفوسة وأقام بين إباضيتها، مما جعل روح عامل هارون الرشيد يُكاتب عبد الوهّاب بن رستم يحذره من خطورة وجود إدريس بالجبل قائلا" *هذا إدريس بن عبد الله، وأنت عارف بعداواته لك ولمن مضى من سلفك ولو ظفر بك لتقرّب بدمك إلى الله"* [32]، ويذكر الرازي أن إدريس بثّ دعوته بين أهل نفوسة فاستجاب له البعض منهم، وكاتب قبائل البربر من أهل الشلف وتاهرت وزناتة وزواغة وصنهاجة ولواتة لبث دعوته فيهم ولقتال الخوارج[33] وعبد الوهاب بن رستم *"فاستجابوا له ووعدوه النصر والقيام معه حتى يبلغ ما يريد أو يموتوا عن آخرهم"* ، لذلك كاتبهم الإمام وأمرهم بشدّ وثاقه وتسليمه له، فتخالفوا في تسليمه، ثم خرج معه ألف نفوسي، حتى بلغوا به مليانة قرب شلف، والتي تحصن بها إدريس فقاتله عبد الوهّاب الذي متى وقعت به الهزيمة *"ثاب إليه المدد لأنّ البلد بلدُه وأهل ديانته، ومتى نزلت بإدريس لم يجد غير أصحابه المنهزمين يعاود بهم الحرب"* لكن عندما أدرك إدريس دقّة الموقف انحاز إلى طنجة[34] التي كانت والسوس الأقصى صفرية ومعتزلة، ثم نزل وليلي سنة 172هـ التي كان عليها إسحاق بن محمد بن عبد الحميد الأوربي المعتزلي المذهب، فبايعه أهلها[35]، وبعدما أقام بها سبع سنين رأى في شيعته العزم في قتال الخوارج وعبد الوهاب بن رستم، وكان له طموح لمد سلطانه على كل أراضي المسودّة ببلاد المغرب *"فاتصل الخبرُ بالفضل بن روح بن حاتم فضاق به ذرعا وعلم أنّه لا طاقة له به إن ظفر بابن رستم، فكتب إلى هارون الرشيد بذلك وأنّه إنْ ظفر بابن رستم فلا طاقة له به، وإن ظفر بالقيروان فلا رادّ له عن مِصْرَ. فلما قرأ هارونُ كتابه وجّه إليه بالأموال والرجال"* [36].

يذكر ابن أبي زرع أنه في سنة 172 هـ/ 789م خرج إدريس الأول بعسكر عظيم من وجوه زناتة وأوربة وصنهاجة وهوارة وغيرهم إلى بلاد تامسنة وبلاد تادلة[37] من المغرب الأقصى التي كان أكثرها على دين اليهودية والنصرانية والإسلام بها قليل، ثم رجع إلى وليلي، وخرج منها سنة 173هـ إلى تلمسان التي بايعه كل سكانها من مغراوة وبني يفرن وزناتة[38]، وربما في هذا الإطار كانت حروب الإمام عبد الوهاب بن عبد الرحمان بن رستم ضد واصلية بني يفرن وهوارة التي

بايعت إدريس الأكبر بالإمارة سنة 172ه عندما نزل بوليلي، وكانت حربا مذهبية لردّة هذه القبائل عن المذهب الإباضي وليست حربا فُتِحت ضد الدولة الإدريسية أو القبائل الموالية لها بالمغرب الأوسط، لأن المصادر كاليعقوبي وابن أبي زرع تذكر استقرار العلويين بعدة مناطق ببلاد المغرب الأوسط وكانت لهم إمارات مستقلة في أراضي الدولة الرستمية[39].

عندما استقر أمر ابراهيم بن الأغلب عامل ثم والي الزاب[40] في خطته الجديدة، لقي فيه هارون الرشيد (170-193ه/ 786-809م) أداة لتنفيذ مخطط القضاء على العلويين بالمغرب، والذين أصبحوا يمثلون خطرا على الخلافة الإسلامية، وهو ما جعله يرسل إليه سليمان بن جرير الملقب بالشماخ بكتاب خاص فيه تكليف بقتل إدريس الأول، وسهّل له بذلك إبراهيم الوصول إلى المغرب الأقصى، وبذلك مر عبر المجال الخاضع للسلطة الرستمية من أجل الوصول إلى المغرب الأقصى، ودسّ له السم وقتله سنة 175ه/ 791م بقارورة طيب مسمومة *"وقيل سمه في حوت من الشابل، وقيل سمه في سنون لأنه كان يشتكي باسترخاء لثاته"* [41]، والسؤال المطروح هو هل كان لبني رستم اليد في اغتيال إدريس الأول خاصة وأن القاتل مر من أراضيها وأمام أعين بني رستم؟ خلاصة القول، ذلك سوف لن يُنهي حُلم العلويين في السيطرة على الأقل على بلاد المغرب الأقصى إذ تمكن ابنه ادريس الثاني من إخضاع بني يفرن ومغراوة وتلمسان وطاعت له بربر المغرب الأقصى وبعض بربر المغرب الأوسط من السوس الأقصى جنوبا إلى وادي شلف وهدّد بذلك التخوم الغربية للإمامة الرستمية، لكن الرستميين تصدوا له ورفضوا إدماج أراضيهم لسلطته[42].

2. تدخل الأدارسة في شؤون دولة بني رستم السياسية وإثارة بعض القلاقل والانشقاقات ببلاد المغرب الأوسط:

أ. ثورة ابن فندين و انشقاق أهل الإباضية مثالا:

بعد استقرار الأمر للأدارسة ظلت علاقاتهم مع الرستميين علاقة باطنها حذر وتربص وظاهرها احترام لسياسة حسن الجوار التي خطها بنو رستم، إلى حدوث نوع من القطيعة بينهما خلال نهاية القرن الثاني هجري أيام الإمام الرستمي عبد الوهاب بن عبد الرحمان بن رستم، كانت نتيجة لموقف مغراوة وبنى يفرن أمراء تلمسان الخاضعين لنفوذ الأدارسة[43]، فقد سعى هؤلاء إلى تأليب واصلية المغرب الأوسط من رعايا الدولة الرستمية وحرضوهم على الثورة ضد عبد الوهاب بن رستم للاستقلال بالأماكن التي يعيشون فيها من أراضي الدولة

الرستمية والعمل على ضمها للأدارسة، ولتحقيق هذا الهدف استعانوا بواصلية المغرب الأقصى ورئيسهم إسحاق بن محمد الأوربي، وتمت مراسلات بينه وبين واصلية المغرب الأوسط في هذا الأمر[44]. وما دفع مغراوة وبنى يفرن إلى هذا التصرف هو ما هالها من مقتل يزيد بن فندين زعيم النكار، خاصة وأن يزيد بن فندين رجل من بني يفرن وهي من بطون زناتة التي ينتسب إليها معظم واصلية المغرب الأوسط[45]. وفشلت هذه المحاولات عندما تمكن الإمام عبد الوهاب من إخماد ثورة الواصلية والقضاء عليها بعد مناظرات وحوارات فكرية مطولة دارت بين مفكري الإباضية وعلماء الواصلية سبقت المعركة العسكرية الحاسمة التي انتهت بهزيمة الواصلية وقمع ثورتهم[46].

قاد يزيد بن فندين، وهو أحد مرشحي الإمامة من طرف عبد الرحمان بن رستم، شق مخالف لعبد الوهاب ومعارض له انطلاقا من سنة تنصيبه 171هـ/ 787م، رغم أن البيعة زُكّيت من شيوخ قبائل البربر الإباضية والعامة، وهو رجل يفرني من بطون زناتة البترية، وسبب هذا الانشقاق في ظاهره سياسيا لكن في باطنه شخصي إذ أن ابن فندين عجز عن الوصول إلى منصب الإمامة رغم أنه كان من ضمن المرشحين السبعة الذين اصطفاهم عبد الرحمان بن رستم لهذا المنصب. و*"لما رأى ابن فندين ما عليه الإمام من الحزم وتنقية أرباب الخيرة والعفة والإستقامة في تعيين الموظفين ولم يبلغ هو ما كان يؤمله من التقديم ونيل بعض المناصب لم يطق صبرا على ذلك وأظهر الإنكار على الإمام في توليته لبعض من كان يرى أنهم لا ينالون مع وجوده شيئا"* [47]. وعمّق السبب السياسي حدّة الأمر إذ *"أن عبد الوهاب،... لما ولي امور المسلمين كانت رغبته في اهل الخير واستعمال أهل العلم والبصيرة من الدين في امور المسلمين، فعمد إلى رجال ليست لهم رغبة في الولاية فولاهم الأمور"* [48]، ولم يسند لابن فندين، الطامح سياسيا[49]، منصبا من مناصب الدولة بعد توليه الإمامة. إضافة إلى ذلك رأى بعض شيوخ الاباضية أن الإمامة أصبحت بالوراثة وهو ما يتعارض مع مبادئ الاباضية السياسية التي تستند على قاعدة الشورى ومبدئها وبذلك حاد بنو رستم عن هذا الشرط والقاعدة[50].

يمكن أن نفهم من خلال منح الإمام الرستمي لمناصب في الدولة لمن عُرِفوا بالعزوف عنها، مدى صرامة سياسته وشدّة حكمته و"دهائه السياسي"، إذ كان ينوي إبعاد كل من له أمل أو طمع في اعتلاء أي منصب في الدولة، لكن هذا الخيار سيكون سببا في بداية القلاقل في صلب السلطة بعد سخط من كان له أمل في ذلك. ويرى الدرجيني نقلا عن مشائخ الإباضية أن *"سبب افتراق الاباضية...هو: أن عبد الوهاب رحمه الله لما ولى المسلمين استعمل على ولاياته*

كلها اهل الورع والزهد، وكل من علم انه ليست له رغبة في الولاية، فاستعان على ما قلده الله من امور المسلمين باهل العلم والبصائر في الدين" [51]، فالسياسة التي انتهجها عبد الوهاب احدثت الهوة بينه وبين الطامعين في الحكم من خصومه[52] وعلى رأسهم يزيد بن فندين الذي بدأ يتهيّأ للثورة، إذ بدأ بجمع الأنصار وخطب في الناس ليقنعهم بأن ولاة الامام وعمالهم لم يكن لهم الكفاءة الكافية لإدارة شؤون رعية المسلمين من الاباضية وأنه هو وأتباعه أولى باعتلاء هذه المناصب[53]، ونكر في الإمامة وطعن فيها لغياب شرط الشورى، حسب رأيه، ودعا إلى الخروج عليه قائلا*"انا قد شرطنا عليه أن لا ينهي أمرا دون موافقة جماعة عليه وها هو قد استقل برأيه ولم يشارك أحدا في شيء ونبذ الشرط وراءه ظهريا فطاعته غير واجبة علينا لفسخه البيعة بتركه الشرط"* [54]. هذه الأحداث أدت الى انقسام أهل الاباضية ببلاد المغرب إلى شقين: فلقد سمي اتباع يزيد بن فندين **بالنكار** لأنكارهم إمامة عبد الوهاب، وخرجوا من تاهرت ثم*"اجتمعوا بكدية بجيال المدينة، فأظهروا إنكار إمامة عبد الوهاب، فسموا "النكار". وسموا "الشغبية" لإدخالهم في الإسلام الشغب، وسموا "الملحدة" حين ألحدوا في أسماء الله تعالى و"ذروا الذين يلحدون في أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون". وسموا "النكاث" لنكثهم بيعة الإمام بغير حدث"* [55]، و*"أكثروا الحديث والنجوى، فسموا نجوية"* [56] أما من أيد الإمام عبد الوهاب بن رستم وتشيع له سموا **بالوهبية** نسبة إليه، وخرج جميع النكار من تاهرت واجتمعوا بمكان خارج العاصمة سمي بكدية النكار[57]، وعندما وصل الخبر إلى الإمام أصبح يترصد غدرهم بحذر شديد.

يذكر أبو زكريا والدرجيني ثم الباروني قصة محاولة ابن فندين قتل الإمام وهي المكيدة المشهورة في تاريخ الإباضية، وإن نجحت لقلبت موازين القوى لصالح النكار والواصلية ولم لا لصالح الأدارسة وبذلك ضمهم لبلاد المغرب الأوسط ثم بناء جبهة متقدمة في اتجاه حلفاء المسودة. لقد وضع النكار رجلا بسيفه في تابوت مغلق وتظاهر رجلان من النكار بأنهما في خلاف حول التابوت ويريدان إيداعه لدى الإمام لأنه لا يأمن أحدهما الآخر، والهدف من ذلك هو أن يخرج الرجل من التابوت ليلا ليتخلص من الإمام. وعندما يتم الأمر بنجاح اتفقوا مع الرجل على أن يؤذن لصلاة الصبح عند طلوع الفجر. ولما حل الرجلان أمام الإمام تدخل ثالث راجيا من الامام ايداع التابوت عنده للإصلاح بينهما. فأمر الإمام الرجلين بحمل التابوت الى بيته، وما جعل الامام يشك في أمرهم هو ثقل التابوت إضافة إلى إلحاح الرجلين على وضع التابوت في بيت نومه. فلما جن الليل، وضع الإمام قربة منفوخة فوقه ملحفة بيضاء على فراشه ثم شرع

في قراءة كتاب، فلما انتهى منه أخلى مكان نومه وبقي يترصد في صمت، فخرج الرجل من التابوت وقصد فراش الإمام وضرب على الزق المنفوخ بسيفه، فتحققت شكوك الإمام وبرز للرجل وضربه بسيفه ووضعه في التابوت. وفي الغد لم يسمع النكار شيئا عن الإمام فذهب الرجلان يطلبان التابوت فأخذوه إلى البيت فلما فتحاه وجدا صاحبهما مقتولا[58].

عند افتضاح المؤامرة خاف النكار من ردة فعل الوهبية فخرجوا من تاهرت ثم عادوا إليها متسلحين، ولكن الإمام سعى إلى تهدئة الأمر لكن النكار أصروا على القتال، فطلب الإمام من أصحابه الاستعداد للحرب[59]، فاندلعت وقتل عدد كبير من الإباضية مما جعل الإمام وأنصاره يطلبون الهدنة من النكار لفترة يكون فيها التحكيم بينهم من طرف علماء إباضية من الشرق من مصر والحجاز واليمن والبصرة وعمان وخراسان[60]. وبذلك سار رسولان من إباضية المغرب الأوسط إلى المشرق لحل الخلاف بين النكار أتباع ابن فندين والوهبية أتباع الإمام عبد الوهاب، ولما وصل الرسولان أرض مصر التقيا بالعلامة شعيب بن المعروف وأصحابه من شيوخ الإباضية وعلمائها فأخبراه بحال إباضية المغرب من موت الإمام عبد الرحمان بن رستم ومبايعة ابنه عبد الوهاب وخروج ابن فندين عن طاعة الإمام الجديد والفرقة بين أهل الإباضية. فلما سمع شعيب الرسولين قرر المسير إلى تاهرت دون مشاورة مشايخ الإباضية طمعا في الإمامة باستغلال الوضع السياسي المتردي والخلاف بين الفرقاء، و*"لما سمع من في مصر من عقلاء وعلماء الإباضية ورجالهم وكانوا أهل فضل وورع نهوه عن السفر إلى المغرب وقالوا له لا يسوغ لك الذهاب إلى قطر فيه من الاختلاف والشقاق بين الإمام ورعيته"* [61]، لكنه اجتمع بخواصه وأصدقائه وخرج بهم ليلا مسرعا راغبا في أن يصل تاهرت قبل وصول الرّسل من المشرق، وبعد مسيرة عشرين يوما نزل بتاهرت أين التقى بالإمام عبد الوهاب وكانت له معه مناظرة حول شرط الإمامة وتولية رجل على جماعة هم أعلم منه ثم خرج وآزر زعيم النكار ابن فندين وأصحابه الذين *"أطمعوه في الإمارة... وصار لهم عونا على الخلاف"* [62]. وأثناء ذلك واصل رسولا إباضية بلاد المغرب رحلتهما شرقا ونزلا بمكة فالتقيا بأبي عمرو الربيع بن حبيب الأزدي الفراهيدي[63] وغسان مخلد بن المعرد فأخبراهما وأصحابهما من الاباضية بحال بلاد المغرب بعد موت الإمام وخروج ابن فندين عن الإمام الجديد وطرحا أمامهم قضية بطلان إمامة عبد الوهاب لأنه يوجد من المسلمين من هو أعلم منه فقها ودينا، لكن علماء مكة أيّدوا موقف عبد الوهاب وبعثوا برسالة مطوّلة تضمنت فساد تعليق الإمامة

على شرط وجود جماعة تحكم مع الإمام لأن ذلك فيه إيقاف لحدود الله وتعطيل لها ويذكر أبو زكريا ثم الدرجيني مضمون هذه الرسالة كاملا[64].

لم يفقد ابن فندين الأمل في الاستيلاء على تاهرت وبقي هو ومن معه من النكار في انتظار الفرصة المناسبة مما جعل الإمام يطلب من أنصاره التسلح تحسّبا لأيّ محاولة للانقضاض على المدينة وصدّها، ويذكر أبو زكريا أنه في أحد الأيام كان عبد الوهاب خارج تاهرت لقضاء حاجته ولما بلغ الأمر لابن فندين أمر بدخول المدينة بجيشه *"فصادف ذلك أفلح واختا له تظفر له راسه، وقد ظفرت له شق راسه وبقي الشق الآخر لم يظفر، فأخذ سلاحه، وابتدرهم. فوجدهم على باب المدينة قد كادوا يدخلوها فوقف لهم أفلح على بابها وأنشب إحدى رجليه في الصفا فانسلخت إلى العرقوب، وصار يتقي بدرقته. ويضربونه حتى لم يجد في درقته ما يتقي به. فرمى بها فعمد إلى باب المدينة، فانتزعه وصار يتقي به فتمالك اهل المدينة ويزيد بن فندين مقابل أفلح بن عبد الوهاب، رضي الله عنه، على باب المدينة... فقصده أفلح، رضي الله عنه، وضربه على ام راسه فقده...، وخر ابن فندين صريعا... فلما نظر إليه أصحابه قتيلا صريعا ولوا منهزمين. فقتل منهم جماعة المسلمين قتلا عظيما، فيه اثنا عشر ألف قتيل"* [65]، ولما رجع عبد الوهاب من حاجته وجد الجثث على باب تاهرت وأخبره أصحابه بأمر ابن فندين فجمعوا جثث الموتى وصلى عليهم الامام طلبا للصلح و*"تطيبا لنفوس بقية أتباع ابن فندين وتأنيسا لهم وتأليفا لقلوبهم ولما وقع البحث عن شعيب وجد قد خرج عقب الهزيمة هاربا إلى مدينة طرابلس ولما وصلها أظهر البراءة من الإمام"* [66].

لم يتوقف النكار عن الخصام رغم انهزامهم في هذه الواقعة، وبدأوا يفكرون في المكائد، وعند قدوم رسولي المغرب من المشرق وقراءة كتاب إباضية المشرق وجوابهم عن تخطئة ابن فندين وأصحابه وصحة ولاية عبد الوهاب، بلغ بالنكار الغضب حد قتل ميمون ابن الإمام عبد الوهاب ليلا ونكلوا بجثته *"وقطع لحمه إربا إربا"* [67]. ولما خرج أحد أبناء ميمون لجمع جباية الخراج من نواحي الدولة الرستمية مرّ بجمع من النكار فنادوه *"ابن المهدور دمه"*، فلما رجع إلى جده عبد الوهاب أخبره بنبأ مقتل أبيه ولم يذكر له الجاني، وصار يبحث حتى تعرف على قاتل أبيه من النكار، فأخرج إليهم جيشا كان على رأسهم هزمهم به وقتل منهم الكثير[68].

لم يتسرع عبد الوهاب عند مقتل ابنه ميمون في معرفة الجاني ولم يتهم أحدا رغم أنه كان على علم بالجهة التي كانت الأقرب لارتكاب هذا الجرم وهم النكار. وعندما انكشف امرهم أرسل إليهم عبد الوهاب للحضور بين يديه لكنهم رفضوا واحتموا بما بقي من النكار انصار ابن

فندين. وهذه الحادثة، أي اغتيال ابن الإمام، هي التي ستعجل بالقضاء على النكار وكسر شوكتهم، وبذلك كان لعبد الوهاب الذريعة الكافية لمحاربتهم وأرسل اليهم جندا يقوده حفيده ابن ميمون لقتل الجناة، فقتل العدد الكبير من النكار، وهذه الواقعة أدت الى إضعاف فرقة النكار والتقليل من خطرهم بعد أن أوجدوا واقعا جديدا في صلب الدولة الرستمية[69] وكانوا السبب في انقسام أهل الاباضية ليس أيام بني رستم فقط، بل سيتواصل الى ما بعد ذلك بقرون عدة وهو ما سيتجلى في ثورة صاحب الحمار النكاري سنة 332هـ/ 943م ضد الدولة العبيدية ومعاركه الاولى التي خاضها ضد وهبية درجين من بلاد قسطيلية.

من بقي من النكار سيقوم بجمع صفوفهم والانضواء داخل فرقة أخرى تسمى بالواصلية والتي ستمثل خطرا آخر سيهدد وجود الإمامة الرستمية بعدما قُضي على أمر يزيد بن فندين.

ب. تدبير الأدارسة للحرب الأهلية بتاهرت أيام الإمام أبي حاتم و إثارة العوام ضده (281 – 294 هـ/ 894-906 م):

أقدم بعض أمراء الأدارسة، أيام الإمام الرستمي أبي حاتم يوسف، كأبي العيش عيسى بن إدريس حاكم جراوة وأحمد بن القاسم بن إدريس حاكم كرت، على الاتصال بعوام تاهرت الرستمية وتدبير ثورة ضد الإمام الرستمي، وعندما فشلت الثورة فر زعمائها إلى آل سليمان بالمغرب الأوسط والأدارسة ببلاد المغرب الأقصى، ويُذكر أن الشاعر التاهرتي بكر بن حماد الزناتي، أخ زعيم عوام تاهرت محمد بن حماد، كان ضمن الذين شاركوا في هذه المؤامرة[70].

كان الإمام الرستمي أبا اليقظان، الذي كانت زوجته غزالة مالكة لأموره، يُخرِج ابنه أبي حاتم يوسف بن محمد لتأمين قوافل المشرق وحراستها من سطو زناتة، وعند وفاته لم يكن أحد من أبنائه في تاهرت، فيقظان ابنه كان في الحج، أما أبو حاتم فقد خرج على رأس جيش من وجوه زناتة لحماية بعض القوافل التجارية من اعتداء قبائل زناتة عليها، وكانت هذه القوافل قادمة من المشرق وفيها أموال لا تحصى[71]، ولما كانت المسافة بين تاهرت وبين أبي حاتم مسيرة يومين من المدينة *"اجتمعت العوام والفرسان دون القبائل"* وعقدت الإمارة وأعلنوا مبايعتهم لأبي حاتم وأعلنوا الطاعة إليه، وأرسلوا له على الفور من يخبره بوفاة أبيه وعقدت له الإمامة[72].

عاد أبو حاتم إلى تاهرت على عجل، واستقبله الناس المبايعون له عند باب المدينة حتى *"ازدحم الناس بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن يساره فبايعوا فما وصل المسجد الجامع إلى وقت الظهر فأصعدوه المنبر وبايعوه وكبروا حوله واحملوه على الأيدي والأعناق حتى وصلوه إلى داره ثم أرسلوا إلى القبائل فبايعته"* [73]. لم يجد مجلس الشورى وأهل الحل والعقد بتاهرت أمام هذا الاجماع العام حلا سوى مبايعة أبي حاتم، ووافقوا على البيعة بالإجماع[74]. ومن جهته لم يرض يعقوب بن أفلح عن مبايعة ابن أخيه أبي حاتم يوسف بن ابي اليقظان على هذه الطريقة، لذا فضل أن يرحل عن تاهرت وأقام في زواغة[75] في الجنوب الغربي لمدينة صبراطة من نواحي طرابلس[76].

صور لنا ابن الصغير أبي حاتم يوسف أنه فتى شابا كريما جوادا "*يجمع الفتيان إلى نفسه فيطعم ويكسي*" وهذه الخصال منحته حب الناس والرعية ورضاهم عنه مما جعلهم يتسارعون إلى مبايعته ويتحمسون لها، لكن ما إن كمُل أمر بيعته حتى انفردت و*"خلت به عشيرته وأخوته وأعمامه وبنو أعمامه ومواليه فأحبو ان يجعلوا له حجابا وهيبة"* [77]، وقد فهموا من ذلك أن يحجبوا الإمام عن جماهير الشعب من الرعية، ويحيطونه بهيبة الملك والسلطان و*"يجعلوا له ما يقتضيه مقام الملك من الأبهة والحجاب"* [78]، لكن الرعية رفضت ذلك وطالب الناس بأن يُسمح لهم برؤية الإمام والاتصال به مباشرة في كل الأوقات كما كان ذلك متاحا لهم قبل إمامته[79]. ولم يكن احتجاب أبي حاتم عن العامة بتأثير من اقاربه ومواليه فحسب وإنما شارك في ذلك عدد من شيوخ تاهرت من غير الإباضية مسموعي الكلمة *"منهم رجلا يعرف بأبي مسعود وكان كوفيا فقيها بمذاهب الكوفيين ومنهم شيخ يعرف بأبي دنون وكان على مثل صاحبه من الفقه الكوفي ومنهم رجل يعرف بعلوان بن علوان لم يكن من أهل الفقه ولكن كانت له رياسة في البلد ومحبة عند العوام وكان هؤلاء قد طمعوا أن يبيتوا خبر الإباضية"* [80]، وهو ما يدل على مشاركة غير الإباضية في الأمر وكانت يد الأدارسة واضحة في ذلك.

نجحت العناصر التي حجبت الإمام عن العامة في إثارة الرعية عليه وتحريكها وبذلك إثارة الفتنة، بل وصل بهم الأمر إلى التآمر مع اثنين من رؤساء القبائل ومن خاصة أبي حاتم *"يُقال لأحدها محمد بن رباح وللآخر محمد بن حماد"* ، الذي يفترض الباروني أن يكون أخا الشاعر التاهرتي بكر بن حماد، اللذان انضما إليهما للتخلص من الإمام أبي حاتم[81]. ولم يشك أبو حاتم فيما سمعه عن هذه المؤامرة، لأن محمد بن رباح ومحمد بن حماد سبق لهما

أن عرضا على ابي حاتم أن يقتلا والده أبا اليقظان عندما كان على خلاف مع أبي بكر وقالا له: *"لا عليك أثبت كما أنت وخل بيننا وبين هذا الخوخاء*[82] *نحن ندخل إليه فنقتله ويصير الأمر إليك"* [83]، وهما من أول الخاصة التي عقدت الإمامة لأبي حاتم، وبادر أبو حاتم إلى الحيلولة دون إتمام هذه المؤامرة فأصدر أوامره بنفيهما، كي يكونا عبرة للخائنين ولتأديبهما، وبتحديد إقامة محمد بن رباح ومحمد بن حماد خارج تاهرت، وسمح لهما بالإقامة معا في قصر لمحمد بن رباح يقال له (الثلث) كان على بعد أميال من تاهرت *"جمع الاشجار والانهار والمزارع والنخل والقصور"* ، ولكنهما لم يهدآ وسعا إلى تحريك ثورة ضد أبي حاتم *"فلم يزالا يرسلان رسولا بعد رسول إلى من في المدينة من إخوانهما ويقولان لهم أترضون أن يكون مثلنا ينفى من البلد بلا جناية كانت منا فيجتمع إخوانهم ويقولون والله لقد صدقا ثم اتفق من بالمدينة من إخوانهم على أن يرسلوا إليهما فيدخلوهما على رضا الراضي وسخط الساخط فما شعر أبو حاتم إلا والتكبير عليهما في المدينة"* [84]، لذلك قرر أبو حاتم الخروج من تاهرت سنة 282هـ/ 895م مع من يناصره وتشيّع له من أهلها إلى حصن لواتة، بعد سنة واحدة من مبايعته بالإمامة[85]. وخرج معه نحو مائة رجل من وجوه تاهرت من المسيحيين إلى حصن يعرف بـ "تاليت" في طرف أرض لواتة، كما خرجت العجم ونفوسة أيضا ولم يبق بتاهرت غير العامة ومشايخ البلد الذين أيقنوا أن أبا حاتم إنما خرج ليستجمع قواه خارج تاهرت وأن عليهم أن يستعدوا للحرب[86].

نجح أبو حاتم في استقطاب قوى كثيرة للوقوف إلى جانبه فانضمت إليه لواتة كلها كما اجتمعت إليه قبائل الصحراء إلا حصن بـ "تالغمت" الذي كان أهله من الصفرية، وانضمت إليه صنهاجة والعجم *"وخرج معه من وجوه أهل البلد من المسيحيين وغيرهم نحو مائة رجل وكان الخارجون معه حماة البلد منهم رجل يعرف ببكر بن يبيدي ومن المسيحيين رجل يعرف ببكر بن الواحد وكان هذان الرجلان فارسي المغرب"* [87]، فأعطى الأموال وحمل على الخيل وزحف إلى تاهرت *"من ثلاثة مواضع من القبلة والمشرق والمغرب فتولى بنفسه القبلة مع لواتة والرستمية وما شايعها وتولى المشرق العجم وصنهاجة ومن شايعها وتولى المغرب طوائل من الناس مع نفوسة"* [88]، واستطاع أبو حاتم أن يضغط بهذه القوات على أهل تاهرت الأمر الذي جعلهم يفكرون في استدعاء يعقوب بن أفلح عم أبي حاتم ليتولى منصب الإمامة في تاهرت، لأنه *"لا طاقة لهم بالاستقلال دون رأس من الرستمية"* [89]، والذي كان بأرض زواغة، فكتبوا إليه وعرضوا عليه الأمر بعد أن أجمع اهل المدينة على ولايته[90].

اعتقد من بقي بتاهرت أنه بهذا العمل يستطيع إضعاف معسكر أبي حاتم خاصة بجلب كثير من أنصاره إلى يعقوب بن أفلح الطامع في الإمامة، والذي ما إن دخل تاهرت حتى ضعفت شوكة أبي حاتم بعد أن انضم إليه جماعة من لواتة وغيرهم من أصحاب أبي حاتم ورغم هذا فقد استمر حصاره للمدينة التي أغلق يعقوب أبوابها *"إلا بابا واحدا وقف عليه"* وصار يحارب منه أبا حاتم، واستمرت الأحوال على هذه الصورة، وطالت الحرب بين الرجلين حتى تدخل رجل من وجهاء القبائل يدعى أبو يعقوب المزاتي رئيس مزاتة بين الطرفين لعقد الهدنة بينهما[91].

رضي الطرفان بفكرة الهدنة وجرت مراسمها، فقدم يعقوب بن أفلح العلامة الشيخ عبد الله بن اللمطي ليكون صاحب مسألته وينوب عنه في توقيع الهدنة، وقدم أبو حاتم رجلين من لواتة يُقال للأول منكود وللثاني ابن أبي عياض. وعقدت الهدنة وكان شرطها أن يُعزل الاثنان ويُرفعا من الإمامة لمدة أربعة أشهر يختار الناس بعدها من يحبون إماما لهم وتم العقد على هذا الأساس[92]. واستغل أبو حاتم الشهور الأربعة في دعاية واسعة لنفسه وكان *"إذا لقى أحدا من وجوه أهل تاهرت وشبابهم استماله فإن كان على القرب استمال به إلى نفسه وإن كان على البعد زوده وأعطاه فمالت قلوب الناس إليه"* [93].

تمكن أبو حاتم من استعادة ثقة الناس فخرجت جماعات من أهل تاهرت إلى قصر أبي حاتم الذي يقيم فيه عند نهر مينة لمبايعته، وكان على رأس هذه الجماعات رجلان من وجوه المدينة *"لم يكن في البلد اذ ذاك اوسع منهما جاها ولا أكثر عشيرة ولا أسمع قلبا يقال لأحدهما أحمد والاخر محمد يعرفان بابن دبوس...فبينما أبو حاتم في منزله وقصره بنهر مينة إذ دخل عليه محمد وأحمد وجماعة الناس فقالوا قم فاركب الساعة فخرج معهما وليس معه أحد من عشيرته ولا من رجاله فلم يصبح إلا على باب المدينة وبادر إليه الناس أجمع"* [94]، وحال وصول هذا الخبر إلى يعقوب بن أفلح خرج وشيعته ليلا وامتطوا خيولهم وعادوا من حيث أتوا إلى زواغة قرب جبل نفوسة مرة ثانية[95]، بعد أن قضى يعقوب في الإمامة أربع سنوات[96].

بعد عودة ابي حاتم إلى الإمامة مرة ثانية حاول اتباع سياسة يستعيد بها سلطة الإمامة وهيبتها، ذلك بعد أن تدهورت أوضاع الدولة الاقتصادية وتراجعت حتى وصلت إلى الركود، وظهرت كثير من الظواهر الاجتماعية الغريبة عن تاهرت *"وكان البلد قد فسدت وفسد أهلها في تلك الحروب واتخذوا المسكر أسواقا والغلمان أخدانا"* [97]. لهذا بادر أبو حاتم بإحكام قبضته على الاوضاع بتعيين عبد الله بن محمد بن عبد الله بن أبي الشيخ قاضيا وكان كأبيه

محمد القاضي أيام أفلح مثالا في الورع والعلم والدين، وجعل عبد الرحمان بن صواب النفوسي على بيت ماله، وولى أمر الشرطة إلى جماعتين من الناس هم قوم زكار، وقوم إبراهيم بن مسكين[98]، واستكمل أبو حاتم بذلك سلطته التنفيذية ونجح موظفوه جميعا في ضبط أمور الدولة، بمواجهة المارقين بالضرب والسجن والقيد، وحطمت "الخوابي" في كل دار عظم شأنها أو صغر وشردت الغلمان وأخدانهم إلى رؤوس الجبال و بطون الأودية، وأمنت الطرق والسبل والبراري بعد أن قضى على السراق وقطاع الطرق وشردت، وانتشر الأمن في البلاد[99].

3. دعم الأدارسة لثورة المعتزلة أو الواصلية ببلاد المغرب الأوسط ضد بني رستم[100]:

المعلومة الفريدة التي يقدمها الرازي حول نزول إدريس الأكبر مع راشد، الذي يذكره باسم اسحاق بن راشد وهو معتزلي من قبيلة أوربة، بين نفوسة وذكره لحركة مؤسس الدولة الإدريسية في بث دعوته بينهم واستجابتهم له، تجعلنا نعتقد أن نفر كبير من نفوسة ارتد عن المذهب الإباضي وأصبح معتزليا، لأنه، ودائما حسب رواية الرازي، لما استجارهم *"خرج معه أهل نفوسة في ألف حتى بلغوا إلى شلف مدينة يقال لها مليانة"* التي استجابت لدعوته وتحصن بها[101]. وهذا النفر من المعتزلة الذي بايع إدريس الأكبر سيكون له الدور الكبير في إثارة القلاقل والانشقاق في الدولة الرستمية وربما سيكون عيون الأدارسة في أراضي بني رستم، خاصة وأن المصادر كابن الصغير وأبو زكريا والدرجيني والشماخي اتفقت على أن قبيلة نفوسة مثلت الدعامة البشرية والعسكرية التي كثيرا ما استند عليها البيت الرستمي ومثل الجبل الجبهة الشرقية التي حمت ظهر الدولة الرستمية خاصة من أطماع الطولونيين[102].

تذكر المصادر الاباضية بداية أمر الواصلية ببلاد المغرب الاوسط واشتداد شوكتهم مباشرة بعد القضاء على ثورة ابن فندين وكأنها محاولة ثانية ومن نفس الشق النكاري للانقضاض على السلطة، وستكون ثورة نكارية ثانية ولكن في ثوب الواصلية والتي يراها بعض المفكرين أنها انتقام لإدريس الأكبر من عبد الوهاب بن رستم[103] عن طريق تحريض المعتزلة عليه، إذ بدأت جماعات من الواصلية تجتمع لتكون قوة أو حزبا ذا ثقل بشري وسياسي، وحسب البكري فقد قدر عدد أفرادهم بـ: *"ثلاثين ألفا –كانوا يعيشون- في بيوت كبيوت الاعراب يحملونها"* [104]، وانتشر مذهبهم إلى شمال العاصمة تاهرت ما بين مستغانم ووهران، ثم جنوبي تاهرت في تيلغمت وبعض المناطق الصحراوية، وفي وادي ميزاب وانتشر بصفة شائعة بالمغرب الأقصى في وليلي وكان رئيسهم هناك اسحاق بن محمد الاوربي[105]، وكانت في جموع

قوية ببلاد المغرب الأقصى وأكثرهم من قبيلة زناتة و*"لهم رئيس في مدينة قريبة من طنجة وهو الذي بايع إدريس صاحب المغرب الاقصى وكان بنواحي تيهرت منهم فريق لا يقل عن ثلاثين وقيل عن اربعين ألف مقاتل فيهم من مشاهير العلماء وأبطال الحرب وأولي الثروة"* [106].

يعزى سبب انتشار المذهب المعتزلي ببلاد المغرب الأوسط إلى أن أئمة الدولة الرستمية لم يضيقوا الخناق على معارضيهم وبعض التيارات الفكرية وكانت الجماعات تتمتع أيامهم بالحرية الفكرية، كأهل الواصلية، مما هيّأ المجال للدعوة إلى مذهبهم وأن يحتجوا وأن يناظروا من يريدون حتى إمام الدولة الرستمية ذاته ويقول الباروني في شأن أحد علماء المعتزلة أنه*"ذو علوم جمة ولسان طلق ومنطق بليغ وله في المجادلة أطوار وطرق يعجز دونها فحول العلماء... ويطلب مناظرة كل من ينسب إلى العلم من علماء غيرهم من الفرق وبفوزه في مواطن متعددة تطاول إلى الإمام وفتح معه أبواب البحث وجرت بينهما محاورات عديدة كاد الإمام يعجز فيها عن الجواب"* [107]. وكان السبب الاساسي لخروج الواصلية عن الإمام عبد الوهاب هو اغتيال ابن فندين قائد فرقة النكار الذين ثاروا عليه، ولأنه من قبيلة بني يفرن من بطون زناتة التي منها معظم أهل واصلية المغرب الأوسط، واتسعت قاعدتهم بانضمام عديد النكار المعارضين لحكم بني رستم، من بقي بعد قتل الرجل، إلى صفهم خاصة من كانوا في شمال العاصمة تاهرت وأكثرهم كان من بربر زناتة[108].

إن ظهور الواصلية كانت له أسباب داخلية وأخرى خارجية، فالداخلية وهي المباشرة كانت أساسا قتل ابن فندين وحرب الإمام على النكار، أما الخارجية وهي الغير مباشرة، توسع الأدارسة على حساب بني رستم بعد إخضاع أمير تلمسان محمد بن خزر بن صولات المغراوي صُلحا من طرف إدريس الأكبر الذي قاد جنده إلى تلمسان سنة 173 هـ/ 789م التي كانت قاعدة المغرب الأوسط وتسكنها قبائل مغراوة وبني يفرن وبذلك سيطر عليها وطلب أميرها من إدريس الأكبر الأمان واعترف به[109]، ويذكر لنا ابن خلدون أن أمراء تلمسان من مغراوة وبني يفرن، بعد إخضاعهم تحت حكم الأدارسة، حاولوا التوسع على حساب الدولة الرستمية وضم بعض الاراضي منها[110]، وتذكر بعض المصادر ان واصلية المغرب الأقصى بزعامة إسحاق بن محمد بن عبد الحميد الاوربي المعتزلي زعيم قبيلة أوربة كانت تدعو واصلية المغرب الأوسط للثورة ضد بني رستم وهي مواضيع المراسلات التي كانت بين إسحاق وواصلية المغرب الأوسط، ومثل مقتل ابن فندين الحجة الثانية لإثارة الجدل حول شرعية إمامة عبد الوهاب بن عبد الرحمان بن رستم، وبذلك هيأت الواصلية جيشا دارت بينه وبين جيوش بني رستم عدة

معارك، ويذكر الدرجيني أن الإمام *"خرج إليهم، بعساكر كثيرة فقاتلهم مرة بعد مرة"* [111] مما يدل على انتشار الواصلية ببلاد المغرب الأوسط واشتداد شوكتهم وأصبحت قوة تهدد كيان الدولة الرستمية ووجودها، ويذكر الدرجيني أنه كان فيهم شاب حديث السن شجاع*"لا يدرك أحدا إلا قتله"* [112].

هذه الظروف الأمنية التي سادت الدولة الرستمية انطلاقا من سنة 173هـ جعلت من الإمام عبد الوهاب يطلب الدعم العسكري من إباضية جبل نفوسة الذين كانوا على استقلال جزئي عن الدولة العباسية منذ أيام عبد الرحمان بن رستم، وازدادت العلاقة مع إباضية المغرب الأوسط ايام عبد الوهاب متانة[113]. ويذكر لنا الشماخي أن عبد الوهاب طلب من إباضية جبل نفوسة أربع مائة رجل: مائة من الفرسان للمبارزة ومائة مفسر ومائة متكلم ومائة فقيه عالم بقوانين الحلال والحرام *"لان الواصلية معهم عالم عيا من هناك في الكلام وفهيم شاب لا يبارزه احد الا قتله"* [114]، لكن الدرجيني قبله كان له رأي آخر حين ذكر أن الإمام *"أرسل إلى أهل نفوسة يستمدهم طالبا منهم جيشا نجيبا يكون فيهم رجل مناظر عالم بفنون الرد على المخالفين، ورجل عالم بفنون التفاسير، ورجل شجاع، يستعده لمبارزة الشاب الواصلي"* [115]، لكن نفوسة أرسلت إليه أربعة رجال فقط وهو ما يدعو إلى الاستغراب، وهم: محمد بن يانيس ومهدي الويغوي النفوسي وأبو الحسن الأبدلاني وأيوب بن العباس[116]، ربما كان الواحد منهم يعادل المائة من الرجال علما وقوة. وتذكر مصادر الاباضية أن عبد الوهاب كان ينتظر حلولهم بفارغ الصبر حتى أنه لبث *"تلك الليلة يفتش في الكتب. ولم يلبس إلا السروال"* كما وصفه البغطوري، ووعد غلمانه الذين كان من بينهم رجل أعرج، بعتق من أتاه بخبر مجيئهم ويصبح حرا، ويوم رأى الغلام الأعرج بقية الغلمان يتسابقون إلى عبد الوهاب فأدرك أنه من أجل خبر قدوم رجال نفوسة، فأعلم الإمام وكان أول من جاء بالخبر وفاز بالحرية، يتضمن الوفد من مهدي النفوسي وأصحابه، وأتوا الإمام ليلا ليوفوا بالميعاد[117].

حال قدوم الوفد من الجبل، اجتمع بهم الإمام وأعلم عالمهم الملقب بمهدي النفوسي بما جرى من مناظرة وعراك مع المعتزلي[118]، وعند تأكد عبد الوهاب من تأهب الجماعة للقاء الواصلية دعاهم إلى المناظرة، فاستعدوا وجمعوا جموعهم. وتقدم الإمام من بين الصفوف ومعه جماعة من بينهم مهدي النفوسي ومحمد بن يانس، فناظر النفوسي عالما من الواصلية حتى توغلا في كلام لم يفهمه الحاضرون إلى أن أفحم النفوسي عالم الواصليّة، فكبر الحاضرون من أتباع الامام عبد الوهاب، فنشب خلاف ثم قتال بين الواصلية وأتباع الامام من

الاباضية، وبقتل أيوب بن العباس لفارس الواصلية انهزمت الواصلية وعاد البعض منهم لطاعة الإمام وتحت البيت الرستمي[119]، والبقية كونت إمارات، كإمارة ايزرج قرب تاهرت ومنهم من توجه إلى المغرب الاقصى والتحقوا بزعيمهم اسحاق بن محمد الاوربي الذي مد نفوذه بين طنجة ووليلي بجبل زرهون[120]. فبالقضاء على واصلية المغرب الأوسط تمكن الرستميون من تأمين إمارتهم من الأدارسة بالحفاظ على حدودهم الغربية مع تلمسان وأكدوا حدود تلمسان الشرقية مع المغرب الأقصى.

ثالثا- نفوذ الادارسة جغراسياسيا في بلاد المغرب الأوسط وسياسة تبجيل المصالح الإقليمية على مبدأ حسن الجوار

1. هيمنة الأدارسة عقيديا وسياسيا على مناطق استراتيجية ببلاد المغرب الأوسط الرستمي:

سيطر الأدارسة على تلمسان وأسفل شلف، إذ عندما لحق سليمان بأخيه إدريس *"سار إلى تلمسان من بلاد المغرب فنزلها واستوطنها، وذلك في ايام أخيه ادريس، فكان له بها أولاد كثيرون"* [121]، ويرى البعض أن إدريس الثاني بعد أن خرج إلى تلمسان وأخضع بني يفرن ومغراوة و هزم قبائل نفزة أحد أقوى عصبيات الدولة الرستمية وأمن حدوده الشرقية انتظمت له *"بعد ذلك طاعة البربر في المغربين الأوسط والأقصى، من السوس الأقصى جنوبا إلى وادي شلف"* [122].

تذكر المصادر أن عدة ممالك وحصون بنواحي تاهرت دانت بالولاء إلى البيت الإدريسي كأيزرج التي يذكر ابن الفقيه أنها في أيامه كانت بيد أبناء إدريس بن إدريس بن عبد الله بن حسن بن حسن بن علي ابن ابي طالب رضي الله[123] ونفس المعلومة ينقلها ابن خرداذبة[124] وهازة التي يذكرها ابن رسته بين يدي الحسن بن سليمان بن سليمان بن الحسين بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ومتيجة التي كانت بين يدي بني محمد بن جعفر من ولد الحسن بن علي بن أبي طالب وبها عدة مدن وحصون كحصن مصادف بن جرتيل ومنها ثلاثة أيام على البحر مدينة مدكرة وهي أيضا بين يدي أبناء محمد بن سليمان بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب ومنها تمتد حصون ومدن بني محمد بن سليمان إلى البحر حتى حصن سوق إبراهيم التي كانت بيد عيسى بن ابراهيم بن محمد بن سليمان بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، ومجالهم يشمل مدينة الخضراء التي حولها مدن

وحصون كثيرة وفي كل حصن كان يتحصن أحد أبناء محمد بن سليمان[125]، لكن بعض المراجع، خاصة الإباضية منها، كدبوز وغيره، تنفي هذه المعلومات لأن المصادر الإباضية لم تذكرها وترى أنه علينا التسليم بمصداقيتها أكثر من المصادر السنية كابن الفقيه والبكري أو الشيعية كاليعقوبي وابن رسته لأنها الأقرب للأحداث وللإطار الجغرافي للإمامة[126].

سعت بعض الاطراف الإدريسية استمالة القبائل القوية بالمغرب الاوسط لتصبح حليفا لها، كمغراوة ويفرن وهما من بطون زناتة وديارها كانت بين تلمسان ووهران إلى شلف شمالا وغريس من ناحية المعسكر جنوبا، إذ بعد تأسيس إدريس لدولته بالمغرب الأقصى سنة 172 هـ/ 788 م توجه شرقا نحو بلاد المغرب الأوسط ليفتح مسلكا للشرق، فزحف مع جمع من مطغرة في منتصف رجب من سنة 173هـ/ 789 م على تلمسان فاستسلم واليها محمد بن خزر وسلمها له سنة 174هـ، ودخلها صُلحا بدون سيف وأقام بها ثلاث سنوات ابتنى فيها المسجد الاعظم، وكانت زناتة ومغيلة تدعوان لبيعة إدريس وكانت لهم حروب ضد بني رستم من أجل الدعوة للإدريسيين[127]. ثم لحق سليمان بأخيه إدريس ببلاد المغرب ونزل تلمسان وبعد موت اخيه إدريس لحق بجهات تاهرت فاستنكروه ثم لحق بتلمسان وملكها، ثم بعد وفاة سليمان خلفه ابنه محمد، أما ابن عمه إدريس الثاني فقد استولى سنة 199هـ على تلمسان وأقام بها ثلاث سنوات بعد أن حارب معارضيه من نفزة وغيرها وبلغ بلاد الشلف وبلاد صنهاجة[128]. ثم لحق بالعلويين ببلاد المغرب الحسن بن سليمان بن الحسين بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب الذي نزل بمدينة هاز القريبة من المسيلة وكون مملكة يقول في شأنها البكري: *"وكان له من البنين حمزة وعبد الله وإبراهيم واحمد ومحمد والقاسم وكلهم أعقب وعقبهم هناك"* [129].

نزل بالمغرب الأوسط ثلاثة فروع من العلويين، وهم بنو محمد بن سليمان وبنو جعفر وبنو الحسن واسسوا ممالك تمتد، حسب الميلي، من ارض الريف غربا إلى أرض الحضنة من عمالة قسنطينة شرقا واهم هذه الممالك هي مملكة هاز ومتيجة[130]. ويذكر لنا البكري مدينة تنس البحرية، التي أسس قسمها الحديث بحارة من بيرة وتدمير الأندلس سنة 262هـ، كانت بيد أبناء إبراهيم بن محمد بن سليمان بن عبد الله بن حسن بن حسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه[131]، وهناك من يرى أن إبراهيم بن محمد أسس دويلة مستقلة هناك، أو هي كانت دويلة علوية تابعة للأدارسة، وهذا الرأي نفاه دبوز، ويذكر البكري مدينة أو مملكة حمزة في طريق أشير ومرسى الدجاج والتي ملكها حمزة بن الحسن بن سليمان بن الحسين بن علي بن الحسن بن أبي طالب، وسميت به[132]. ومن أهم ممالك الادارسة بالمغرب الأوسط:

أ. مليانة؟

يذكر أحمد بن سهل الرازي أن إدريس الأكبر نزل بجبل نفوسة ومنه كاتب أهل شلف وتاهرت وزناتة وزواغة وصنهاجة ولواتة فاستجابوا له ووعدوه بالنصر، وعند اختلاف النفوسيين في أمر تسليمه لعبد الوهاب، خرج معه ألف من نفوسة ونزلوا بمليانة ناحية شلف أين تحصنوا بعد أن بايعه أهلها[133]، وربما خلال هذه الأحداث خرجت المدينة من حكم بني رستم واستقلت عنهم، وحتما خوف عبد الوهاب بن رستم من توسع نفوذ ادريس الأكبر وبذلك يكون خطرا يهدد بني رستم، جعله يعجل في مقاتلته واستمر القتال لمدة طويلة قُتِل خلالها جمع كبير من الناس، إلى أن هزم الإمام الرستمي إدريس الأكبر الذي خرج من مليانة إلى طنجة أين نزل بوليلي[134]، ومن المحتمل أن مليانة بقيت على ولاء للأدارسة، واعتبرت ضمن مجالهم ببلاد المغرب الأوسط التابع لهذا الحلف الذي سبق تأسيس الدولة الإدريسية.

ب. مملكة هاز:

تغلب الحسن بن سليمان بن سليمان بن الحسين ابن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب على بلد هاز وما والاها، وذلك أيام اليعقوبي، أي خلال القرن الـ 3 هـ/ 9م، وكان سكان هاز من البربر من بني يَرْنِيان وهي من بطون زناتة. يلي هاز مدن أخرى كانت لصنهاجة وزوارة وهي على مسيرة ثلاثة أيام من عمل أدنة. ومن هاز مرحلة إلى بلد بني دمر من زناتة يراهم اليعقوبي شراة وهم على مذهب الإباضية ورئيسهم مصادف بن جَرْتِيل ومنها إلى حصن ابن كرام الذين يراهم اليعقوبي ليسوا بشراة ربما كانوا من السنة أو على مذهبه أو من العلويين[135].

امتدت مملكة هاز من البويرة[136] قرب جبال جرجرة إلى نواحي زاغر الشرقية ثم نواحي قصر البخاري لتشمل سهل حمزة الفسيح الذي سمي على حمزة بن الحسن صاحب هاز، وقراها الآن هي عين بسام وسور الغزلان وسيدي عيسى وغيرها[137]. ويقول ابن رسته *"البلد الذي تغلب عليه الحسن ابن سليمان بن سليمان بن الحسين بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب... واول المدن التي في يده مدينة يقال لها هاز سكانها قوم من البربر القدم يقال لهم بنو يرنيان من زناتة أيضا ثم مدن بعد ذلك سكانها صنهاجة وزوارة يعرفون بالبرانس وهم أصحاب عمارة وزرع وضرع وإلى هاز ينسب البلد"* [138].

يذكر البكري مدينة هاز بين المسيلة وتاهرت، وسكانها من بني يزناتن وهي أيامه مدينة خالية[139]، اما الإدريسي يذكرها بين المسيلة وأشير نواحي عين يوسف، ويقول *"ومن أشير زيري*

إلى قرية سطيت مرحلة. وبها عين جارية. ومنها إلى قرية هاز في فحص رمل مرحلة. وبها مياه عيون. وهي الآن خراب. ومنها إلى المسيلة مرحلة" [140].

ج. مملكة متيجة[141]:

تقع مملكة متيجة على سفح كبير قرب العاصمة الحالية، الجزائر، يفصلها عن سهل حمزة جبال تيطري قال عنها اليعقوبي *"بلد يقال له مَتّيجة تغلب فيه رجال من ولد الحسن بن علي بن أبي طالب عليهما السلام يقال لهم بنو محمد بن جعفر وهو بلد زرع وعمارة واسع فيه عدة مدن وحصون، وهو بلد زرع وعمارة بين هذا البلد وبين حصن مصادف بن جرتيل مسيرة ثلاثة أيام مما يلي البحر"* [142]، أما ابن رسته فيقول *"بلد يقال له متيجة تغلب فيه رجال من ولد الحسن بن علي بن أبي طالب... يقال لهم بنو محمد بن جعفر وهو بلد واسع فيه عدة مدن وحصون وهو بلد زرع وعمارة"* [143] وسمي السهل الذي فيه باسمها – سهل متيجة- ويذكرها البكري تحت اسم قزرونة[144] ويقول في شأنها *"ومنها (المدية) إلى قزرونة وهي مدينة على نهر كبير عليه الأرحاء والبساتين، ويقال لها متيجة، ولها مزارع ومسارح، وهي أكثر تلك النواحي كتانا، ومنها يحمل، وفيها عيون سائحة وطواحين ماء، ومنها إلى مدينة آغزر ومنها إلى مدينة جزائر بني مزغني"* [145] وفي موقع آخر أقزرنة متيجة ويذكر قبائل البربر التي تسكنها وهي مدغرة وبنو دمر ومديونة وبنو وارفين[146].

د. مدينة مَدْكَرة:

أو دويلة مدْكور، والمعلومات حول هذه الإمارة شحيحة، فحسب اليعقوبي أسس المملكة بنو محمد بن سليمان بن عبد الله بن الحسن واتخذوا من ثمطلاس عاصمة لهم[147]، وسكنها بربر غالبيتهم من قبيلة مطماطة، وأهم مدن هذه المملكة مدينة إيزْرِجْ ويُحتمل أن تكون مطماطة قد اقتسمت المملكة وكان لعبد الله وهو أحد رؤسائها مدينة تُسمّى الحسنة انفرد بأمرها[148].

ذكر اليعقوبي تغلب أبناء محمد بن سليمان بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب على مدكرة، *"ومسكنهم في المدينة العظمى التي يقال لها ثَمْطِلاس وأهل هذه المملكة قوم من بطون البربر من سائر قبائلهم وأكثرهم قوم يقال لهم بنو مَطْماطة وهم بطون كثيرة ولهم في مملكتهم مدينة عظيمة يقال لها أدرج بها بعضهم وأهل هذه المدينة مطماطة ومدينة أيضا يملكها رجل منهم يقال له عبد الله تسمى المدينة الحسنة إذا فسرت من لسان*

البربر بالعربية ثم إلى المدينة العظمى المشهورة بالمغرب التي يقال لها تِلمسان" [149]، وكذلك ابن رسته يذكر أن مدكرة بين يدي أبناء محمد بن سليمان ومن هذه المدينة تمتد حصون ومدن بني محمد بن سليمان إلى ساحل البحر حتى تبلغ حصن سوق إبراهيم التي كانت بيد عيسى بن ابراهيم بن محمد بن سليمان بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، ومجالهم يشمل مدينة الخضراء التي حولها مدن وحصون كثيرة وفي كل حصن كان يتحصن أحد أبناء محمد بن سليمان[150].

هـ. مدينة الخضراء:

ذكر اليعقوبي مدينة الخضراء التي يتصل بها" *مدن كثيرة وحصون وقرى ومزارع يتغلب على هذا البلد ولد محمد بن سليمان بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب... كل رجل منهم مقيم متحصن في مدينة وناحية وعددهم كثير حتى أن البلد يعرف باسمهم وينسب إليهم"* [151]. وسميت الخضراء لكثرة البساتين فيها[152].

و. سوق إبراهيم:

وهي آخر الممالك التي بين يدي بني محمد، وهي قرب الساحل وكان عليها عيسى بن ابراهيم بن محمد بن سليمان بن عبد الله بن الحسن بن الحسن وهي قريبة من تاهرت[153].

2. سياسة التقارب والتظاهر بحسن الجوار: سياسة فرضتها الجغرافيا والتوجهات الفكرية المعارضة لمركز الدولة الإسلامية بالمشرق وممثليهم بالمغرب:

كانت دولة الأدارسة دولة علوية معتدلة[154]، ولم تكن دولة شيعية رغم أن مؤسسها من أحفاد الرسول ذلك لأنه كان من أحفاد الحسن لا الحُسين، واقتربت آراؤها لأفكار السنة خاصة مع حكم إدريس بن إدريس الذي عُرف بورعه وتقواه وبأدبه وفصاحته في البلاغة وبمعرفته بالفقه والقرآن والسنة[155]، وهو ما دفع بابن عذاري إلى أن يطلق عليها اسم "الدولة الهاشمية"[156]، وقربها لأصحاب الفقه السني جعلها قريبة في ميولها الفكرية والسياسية من أفكار بني رستم أصحاب المذهب الإباضي الذي مثل مذهبهم الإباضي المغاربي آخر تطورات الفكر الخارجي في تلك الفترة. ليصبح هذا المذهب أقرب المذاهب الخارجية إلى مذهب السنة المالكية، لذلك لم تكن هناك خلافات فكرية مذهبية حادة بين الطرفين الجارين، لهذا انتهج الرستميون سياسة مع الأدارسة تميزت ظاهريا بحسن الجوار[157]. وما دعم علاقة الجوار

هذه، الحذرة والعدائية في باطنها، هو ما جمع بينهما من موقف واحد إزاء خلافة بني العباس، وهو العداء المشترك نحوها، فقد استقلت الدولتان بجزء هام من الدولة العباسية، وأصبح لكل منهما شخصيتها الجغراسياسية وقوتها الإقليمية الخاصة وكيانها المستقل بعيدا عن أنظار مركز سلطة الخلافة العباسية وولاتها ببلاد إفريقية[158].

إضافة إلى ذلك كان الأدارسة يعتبرون أن الدولة الرستمية ببلاد المغرب الأوسط تمثل *"الحارس الأمين"* والسور المنيع لحدودهم الشرقية، فقد لعبوا دور الحاجز الذي فصل بين دولتهم في المغرب الأقصى وبين الولاة العباسيين خصومها وأعدائها في إفريقية، فكل جيش سيرسله العباسيون أو ولاتهم في إفريقية كان لابد له أن يخترق أراضي الدولة الرستمية، وهو ما لا يسمح به إباضية المغرب الأوسط، لأنهم كانوا يتمتعون بالسيادة التامة على أراضيهم ومثل الرستميون حراسة شرقية لدولة الأدارسة[159]، ومن جانب آخر لم تكن علاقة بني رستم ببني العباس أو ولاتهم بإفريقية بني الأغلب طيبة. ومن هذا المنطلق كان لموقع دولة بني رستم هذا أثره في السياسة التي اتبعها العباسيون لتتبع الأدارسة ومقاومتهم وحتى القضاء عليهم، إذ لجأوا إلى أسلوب الاغتيال لإدريس الأكبر مؤسس هذه الدولة لأنها أدركت أن فكرة ارسال جيش للقضاء على الدولة تعد ضربا من المستحيل[160]، وحققت الخلافة هدفها في التخلص منه باغتياله سنة 177هـ/ 793م بعد أن أرسل الرشيد سليمان بن جرير الشماخ الذي مضى إلى المغرب ومعه السم ودخل في خدمة إدريس بن عبد الله وكسب ثقته فدس له السم ليتوفى دون أن يعلم حاشيته ما به واختُلف في سبب وفاته[161].

كان المغرب الأوسط الرستمي ملجأ لعديد العلويين الفارين من بطش بني العباس، الذين فضل بعض الأفراد منهم العيش في المدن المنتشرة حول تلمسان ولكن البعض الآخر آثر البقاء في مجال الدولة الرستمية، واستقروا في بعض مدنها شمال تاهرت على ضفاف نهر شلف كالمدينة الخضراء، وسوق ابراهيم ومدينة ثمطلاس. وكان أكثرهم من ابناء محمد بن سليمان أخو إدريس بن عبد الله مؤسس الدولة الإدريسية ويذكر ابن أبي زرع أن سليمان نزل بتلمسان أيام إدريس وكان له بالمغرب الأوسط أولاد كثيرون، واستقلوا بهذه المدن خلال القرن الرابع الهجري، بعد سقوط الدولة الرستمية[162]. كما أنه بعد استيلاء الأدارسة على مدينة تلمسان، ضمت المدينة جاليات إباضية من قبيلة زناتة، التي يراها البعض مثلت عيونا تجسست لصالح بني رستم وبذلك أثارت بعض المتاعب للدولة الإدريسية وذلك لصالح بني رستم[163].

الخاتمة:

ختاما، نستطيع أن نؤكد أن جذور الصراع بين بني رستم والأدارسة يرجع الى العداء الذي بدأ منذ بداية بلورة فكرة تأسيس الشخصية الجغراسياسية لدولة الإدارسة ببلاد المغرب منذ حلول إدريس الأكبر بين إباضية نفوسة التي ناصره جزء منها وهو ما أعطاه الأمل في بناء دولة ببلاد المغرب الإسلامي. وهذا الصراع أضحى إقليميا بعد تأسيس الدولة الإدريسية وبداية النزاع حول الحدود الشمالية الغربية لدولة بني رستم المتاخمة لمجال حكم الأدارسة، فعبد الرحمان بن رستم وطد نفوذه بهذا المجال عن طريق مصاهرته لبني يفرن الزناتية، لكن نفوذ بني رستم بهذه المنطقة انهار بعد سيطرة الأدارسة عليه خلال حكم ادريس الثاني، وبقي مجال صراع بين الدولتين، ثم إرغام عدة قبائل إباضية على مبايعتهم للبيت الإدريسي كزناتة وهوارة وزواغة ولماية ونفزة[164] وهذا الصراع انتهى لصالح الأدارسة نظرا إلى الانشقاقات السياسية التي عرفتها دولة بني رستم والتي بدأت مع موت الإمام الأول عبد الرحمان بن رستم، والتي حسب بعض الدارسين كان للأدارسة الدور الكبير في إثارتها وإذكائها لإضعاف سلطة بني رستم وبذلك سهولة بسط النفوذ على أراضيهم على الأقل في مجال المغرب الأوسط، وتكون لهم جبهة متقدمة لصد ضربات بني العباس وتهديداتهم على الأقل أمام بني الأغلب ممثليهم بإفريقية.

[11]) أخضع إدريس الأول كامل بلاد المغرب الأقصى، رغم بقاء بعض الدويلات خارجة عن سلطته كإمارة برغواطة ونكور وبني عصام، الفاسي (علي ابن أبي زرع)، **الأنيس المُطرب بروض القِرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1972، ص. 20؛ عبد الكريم يوسف (جودت)، **العلاقات الخارجيّة للدولة الرّستميّة**، المؤسسة الوطنيّة للكتاب، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 1984، ص. 184.

[2]) الدراجي (بوزياني)، **دول الخوارج والعلويين في بلاد المغرب والأندلس**، دار الكتاب العربي، 2007، ص. 200؛ محمد عزب (محمد زينهم)، **قيام وتطور الدولة الرستمية في المغرب**، دار العالم العربي، القاهرة، 2013، ص 153.

[3]) ابن أبي زرع، **المصدر نفسه**، ص. 25؛ الحريري (محمد عيسى)، **الدولة الرستمية بالمغرب حضارتها وعلاقتها الخارجية بالمغرب والاندلس (160 هـ- 296هـ)**، دار القلم للنشر والتوزيع، الكويت، ط. 3، 1987، ص. 202.

[4]) حول مصطلح "المغرب الأوسط" ومفهومه الجغرافي والتاريخي أنظر: محمد عزب (محمد زينهم)، **قيام وتطور الدولة الرستمية في المغرب**، دار العالم العربي، القاهرة، 2013، ص. 6-14؛ يخلف (حاج عبد القادر)، *"مصطلح المغرب الأوسط في المصادر الإسلامية الوسيطة"*، مجلة عصور الجديدة، المجلد 7، عدد 26، الجزائر، أفريل 2017، ص ص 145-469، أما مصطلح المغرب وتأسيسه أنظر: المراكشي (أبو محمد عبد الواحد)، **المُعجب في أخبار المَغرب**، شرحه واعتنى به صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية، بيروت، 2006، ص-ص. 13-14؛ جعيط (هشام)، **تأسيس الغرب الإسلامي -القرن الأول والثاني هـ/ الثامن والسابع م-**، ط 2، دار الطليعة بيروت، 2008.

[5]) الباروني (سليمان بن عبد الله)، **مختصر تاريخ الإباضية**، نشر مكتبة الاستقامة، طبع مطبعة الإرادة، تونس 1357هـ/1938م؛ الباروني (سليمان بن عبد الله)، **الازهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية**، جزآن، دار بوسلامة للطباعة والنشر والتوزيع، ط. 1، تونس، 1986، القسم الثاني.

[6]) أبو زكريا (يحي بن محمد الورجلاني)، **كتاب السيرة وأخبار الأئمة**، عبد الرحمان أيوب، الدار التونسية للنشر، تونس 1985، ص. 85؛ عبد الرازق (محمود اسماعيل)، **الخوارج في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجري**، مطبعة النجاح الجديدة، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط. 2، 1985، ص. 146. أما فترة الظهور فهي *"تولية إمام عدل يسند إليه الأمور"*، الدرجيني (أبو العباس أحمد بن سعيد)، **طبقات المشائخ بالمغرب**، (جزآن)، تحقيق وطبع إبراهيم طلاي، قسنطينة، الجزائر 1974، ج. 1، ص. 6.

[7]) إسماعيل (محمود)، **الأدارسة في المغرب الأقصى 172 – 375 هـ: حقائق جديدة**، مكتبة الفلاح، الكويت، 1989، ص. 60.

[8]) إختط إدريس الأصغر بن إدريس الأكبر مدينة فاس بالمغرب الاقصى سنة 192هـ/ 808م، وأسس بها عدوة الأندلس وسورها ثم بعدها بسنة أسس عدوة القرويين وجامعها، ويذكر ابن زرع في أطوار تأسيسها أخبار كالتي تتعلق بتأسيس القيروان وتاهرت الرستمية، ابن أبي زرع، **المصدر نفسه**، ص. 39؛ وفي وصفها انظر: ابن الخطيب التلمساني (لسان الدين) (713–776 هـ)، **معيار الأخيار في ذكر المعاهد والديار**، تحقيق محمد كمال شبانة، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2002، ص. 172.

[9]) الطبري (أبي جعفر محمد بن جرير) (ت 310 هـ/ 922 م)، **تاريخ الطبري: تاريخ الأمم والملوك**، دار الكتب العلمية، بيروت، ط. 3، 1991، ج. 4، ص. 601؛ جودت عبد الكريم يوسف، **المرجع نفسه**، ص. 181.

[10]) بهلولي (سليمان) ، **الدولة السليمانية والإمارات العلوية في المغرب الأوسط 173–342، هـ/ 789–954 م**، وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، تلمسان، 2011، ص. 300.

[11]) الرازي (أحمد بن سهل) (ت 310 هـ/ 922 م ؟)، **أخبار فخ وخبر يحي بن عبد الله وأخيه إدريس بن عبد الله**، دراسة وتحقيق ماهر جرار، دار الغرب الاسلامي، بيروت، 1995، ص. 181، تقع مدينة مليانة 130 كلم غربي الجزائر العاصمة، وتشرف على سهول الشلف، جنوب الأطلس التلي وجنوب غرب سلسلة ونشريس. صادق (حمد حاج)، **مليانة ووليّها سيّدي أحمد بن يوسف**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1989، ص. 20.

[12]) الرازي، **المصدر نفسه**، 1995، ص. 181.

[13]) شبانة (محمد كمال)، **الدّوْيْلات الإسلامية في المغرب**، دار العالم العربي، القاهرة، 2008، ص. 117.

[14]) ارتبط قيام دولة الأدارسة سنة 172 هـ بالتشيع الزيدي *"فكرة ودعوة وثورة"* وهو ما يعني أن الخطة الاساسية لبناء الدولة الإدريسية أعدت في بلاد المشرق، وهذا الرأي ينفي نظرية المدارس المشرقية القائمة على اعتبار أن هذه الدولة ببلاد المغرب مستقلة تاريخيا وسياسيا عن المشرق، فالدعوتين الزيدية والإعتزالية وصلتا المغرب قبل قيام دولة الأدارسة ومهدتا لقيامها. اسماعيل (محمود)، **الأدارسة (172–345): حقائق جديدة**، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1991، ص. 21، 47.

[15]) الرازي (أحمد بن سهل)، **أخبار فخ وخب يحي بن عبد الله (ع) وأخيه إدريس بن عبد الله (ع)**، تحقيق عبد الرقيب مطهر حجر، مركز أهل البيت (ع)، للدراسات الإسلامية، اليمن، –صعدة–، 2000، 17–19؛ الرازي، **أخبار فخ**، 1995، 17.

[16]) الرازي، **أخبار فخ**، 1995، ص ص 15–17، ص. 63.

[17]) محمود اسماعيل، **الأدارسة**، 1991، ص. 141.

[18]) بهلولي (سليمان) ، **الدولة السليمانية والإمارات العلوية في المغرب الأوسط**،ص. 300.

[19]) الرازي (أحمد بن سهل)، **أخبار فخ وخب يحي بن عبد الله (ع) وأخيه إدريس بن عبد الله (ع)**، تحقيق عبد الرقيب مطهر حجر، مركز أهل البيت (ع)، للدراسات الإسلامية، اليمن، –صعدة–، 2000.

[20]) ابن أبي زرع، **المصدر نفسه**، ص. 21.

[21]) ابن عذاري، **البيان المغرب في أخبار الاندلس والمغرب**، 4 أجزاء، تحقيق ج. 1 و2 و3: ج س كولان وإ ليفي بروفنسال، ج. 4: حسان عباس، الدار العربية للكتاب، بيروت، 1983، ج. 1، ص. 210، ابن أبي زرع، **المصدر نفسه**، ص. 15، وأبناء عبد الله الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب هم: محمد النفس الزكية ويحي وسليمان وإبراهيم وموسى وعيسى وإدريس.

[22]) ابن الأبار (القضاعي)، **الحلة السيراء**، جزآن، تحقيق حسين مؤنس، دار المعارف، القاهرة، ط. 2، 1985، ج. 1، ص. 51. أما لدى ابن زرع فقد بعث محمد النفس الزكية *"أخاه سليمان إلى بلاد مصر داعيا للبيعة، ولما اتصل به قتل أخيه* (محمد) *سار إلى بلاد النوبة، ثم إلى بلاد السودان، ثم خرج إلى زاب إفريقية، ثم سار إلى تلمسان من بلاد المغرب فنزلها واستوطنها، وذلك في أيام أخيه إدريس، فكان له بها أولاد كثيرون"*، ابن أبي زرع، **المصدر نفسه**، ص. 16.

[23]) الرازي، **المصدر نفسه**، 1995، ص. 70، *"والديلم هي المنطقة الجبلية التي تمتد على طول الساحل الجنوبي لبحر الخزر (Capsian sea) من جيلان إلى مازندران وجرجان همدان والّري"*، نفس الصدر، ص. 77.

[24]) ابن الأبار، **المصدر نفسه**، ج. 1، ص. 98؛ ابن عذاري، **المصدر نفسه**، ج 1، ص. 210؛ ابن أبي زرع، **المصدر نفسه**، ص. 16؛ حسين مؤنس، **المرجع نفسه**، ج. 1، ص. 372.

[25]) ابن أبي زرع، **المصدر نفسه**، ص. 20.

[26]) ابن عذاري، **المصدر نفسه**، ج 1، ص82، ص. 210؛ يُذكر أنه خلال هذه السنة، 173هـ، كانت هنالك حادثة عسكرية بين الإمام الرستمي عبد الوهاب وقبائل زناتة بسبب خروجها عنه وخضوعها لسلطة الأدارسة، لكنها ربما كانت حربا ضد واصلية يفرن وهوارة لا بسبب الانفصال، فابن زرع يذكر أن قبائل زناتة وهوارة كانت ضمن قبائل البربر التي غزا بها إدريس الأكبر بلاد تامسنا وبلاد تادلة، ابن أبي زرع، مصدر مذكور، ص. 20؛ جودت عبد الكريم، **المرجع نفسه**، ص. 188.

[27]) ابن الأبار، **المصدر نفسه**، ج. 1، ص. 100. يقول ابن الأبار *"راشد هذا هو مولى عيسى بن عبد الله بن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب، وكان عاقلا شجاعا أيدا، خرج بإدريس بن عبد الله أخا مولاه عند انهزامه بوقعة "فخ""*. ابن الأبار، **المصدر نفسه**، ص. 98. تجمع المصادر أن إدريس خرج مع رجل يسمى راشد لكن أحمد بن سهل الرازي ذكر أنه خرج مع *"رجلين نحو المغرب، يقال لأحدهما إسحاق بن راشد"* وكان معتزليا من قبيلة أوربة، الرازي، **المصدر نفسه**، 1995، ص 169. أما أم إدريس الثاني المكنى بأبي القاسم فهي كنزة من قبيلة نفزة البربرية، ابن أبي زرع، **المصدر نفسه**، ص. 25.

[28]) ابن أبي زرع، **المصدر نفسه**، ص. 21. وحول تاريخ مدينة تلمسان أنظر: بوعزيز (يحي)، **تلمسان عاصمة المغرب الأوسط**، وزارة الثقافة الجزائرية، 2007.

[29]) ابن الأبار، **المصدر نفسه**، ج. 1، ص. 100؛ زكار (سهيل)، *"الدولة الرستمية في تيهرت"*، مج. دراسات تاريخية، ع. 12، 1983، ص. 84؛ جودت عبد الكريم يوسف، **المرجع نفسه**، ص. 188.

[30]) نصر الله (سعدون عباس)، **دولة الأدارسة في المغرب: العصر الذهبي 172-223 هـ / 788-835 م**، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1978، ص. 65.

[31]) ابن أبي زرع، **المصدر نفسه**، ص. 19.

[32]) الرازي، **المصدر نفسه**، 1995، ص. 174.

[33]) يطلق مصطلح الخوارج على من خرج على علي بن أبي طالب عند التحكيم، لكن أهل الإباضية وخاصة المتأخرين منهم يستنكرون نسبتهم إلى هذه الفرقة، حول هذه المسألة انظر: تغلات (زهير)، *"الإباضية والخوارج: اتّصال أم انفصال..؟"*، مجلة معهد الآداب العربية IBLA، عدد 220/219، السنة 80، 2017/ 1-2، ص-ص 03-39.

[34]) الرازي، **المصدر نفسه**، 1995، ص-ص. 174-181، يذكر اليعقوبي الذي يكتب سنة سنة 278 هـ/ 891 م، أي بعد إمامة أبي اليقظان بأيام، موقعا بمليانة يسمى مذْكرة، وُلد به محمد بن سليمان بن عبد الله وهو ابن أخي إدريس الأكبر، وهناك من يرى أن مذْكرة هو اسم مليانة القديم، ويرجعه إلى مطغرة، وهو ما يجعلنا نفهم أن مدينة مليانة كانت تابعة لحكم الأدارسة حتى بعد إمامة عبد الوهاب بن عبد الرحمان بن رستم. اليعقوبي، **البلدان**، مطبعة بريل، ليْدن 1890، ص. 132؛ صادق (حمد حاج)، **مليانة ووليّها سيّدي أحمد بن يوسف**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1989، ص. 22، 27.

[35]) ابن أبي زرع، **المصدر نفسه**، ص. 19.

[36]) الرازي، **المصدر نفسه**، 1995، ص-ص. 174-181.

[37]) *"تادلة: بفتح الدال واللام: من جبال البربر بالمغرب قرب تلمسان وفاس"* ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، مادة تادلة، ج. 2، ص. 5.

[38]) وقعت سنة 173هـ حرب بين الإمام الرستمي عبد الوهاب وقبائل زناتة بسبب خروجها عنه وخضوعها لسلطة الأدارسة، اعتُبِرت حربا ضد واصلية يفرن وهوارة وليست من أجل استرجاع سلطته عليها، ابن أبي زرع، **المصدر نفسه**، ص. 20؛ جودت عبد الكريم، **المرجع نفسه**، ص. 188.

[39]) وطد عبد الرحمان بن رستم نفوذه داخل إقليم التخوم الشمالية الغربية لدولته والمصاقب لدولة الأدارسة وذلك بمصاهرة سكانه من بني يفرن الزناتية، لكن سرعان ما انهار هذا النفوذ على الإقليم واستبدل بسلطة الأدارسة وهو ما خلق نزاعا بين الطرفين إلى أن تأكد ضمة للأدارسة أيام إدريس الأصغر أو الثاني، محمود إسماعيل، **الأدارسة**، 1991، ص. 141.

[40]) حول الجغرافية التاريخية لبلاد الزاب أنظر: الهطاي (علي)، *"الجغرافية التاريخية لبلاد الزّاب من الفتح إلى منتصف القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر ميلادي: دراسة في تطور المجالات والمواقع"*، مجلة معهد الآداب العربية IBLA، عدد 220/219، السنة 80، 2017/ 1-2، ص-ص 91-119.

[41]) ابن أبي زرع، **المصدر نفسه**، ص. 19.

[42]) الطالبي (محمد)، **الدولة الأغلبية: التاريخ السياسي 184 – 296 هـ/ 800 – 909 م**، تعريب المنجي الصيادي وحمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط. 2، 1995، ص. 120؛ فيلالي (عبد العزيز)، **العلاقات السياسية بين الدولة الأموية في الأندلس ودول المغرب**، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982، ص. 90.

[43]) خلال نهاية القرن الثاني للهجرة/ 9م خرج إدريس الثاني وأخضع تلمسان واقام بها لثلاث سنوات، وبذلك أخضع قبائل بني يفرن ومغراوة، وحرضهم ضد العائلة الرستمية، لكن بني رستم تصدوا له ولمخططه لإدماج أراضيهم لسلطة الأدارسة، وكان إدريس الثاني يهدف بإقامته بتلمسان تأمين حدوده الشرقية مع بني رستم، وربما كان له نية التقدم شرقا لضم أراض رستمية ببلاد المغرب الأوسط لبناء جبهة أو قاعدة عسكرية متقدمة أمام أغالبة بني العباس. عبد العزيز فيلالي، **المرجع نفسه**، ص. 90؛ شبانة (محمد كمال)، **الدّوْيْلات الإسلامية في المغرب**، دار العالم العربي، القاهرة، 2008، ص. 117.

[44]) ابن أبي زرع، **المصدر نفسه**، ص. 19؛ ابن خلدون (أبو زيد عبد الرحمان)، **ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر**، 8 أج.، تحقيق خليل شحادة وسهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط. 2، 1988، ج. 6، ص. 160؛ الباروني، **الأزهار**، ج. 2، ص. 117.

[45]) الدرجيني، **المصدر نفسه**، ج. 1، ص. 57؛ ابن خلدون، **المصدر نفسه**، ج. 6، ص. 160.

[46]) الباروني، **المرجع نفسه**، ج 2، ص-ص. 123-125؛ الحريري، **المرجع نفسه**، ص-ص. 204-205.

[47]) الباروني، **المرجع نفسه**، ج. 2، ص. 102.

[48]) ابو زكريا، **المصدر نفسه**، ص. 92.

[49]) الدرجيني، **المصدر نفسه**، ج. 1، ص. 48.

[50]) الشماخي (أحمد ابو العباس اليفرني)، **كتاب السير**، الجزء الخاص بتراجم علماء المغرب إلى نهاية القرن الخامس، تحقيق ودراسة محمد حسن، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس، سلسلة 4، مجلد XXX، تونس 1995، ص. 53.

[51]) الدرجيني، **المصدر نفسه**، ج. 1، ص. 48.

[52]) عبد الحميد (سعد زغلول)، **تاريخ المغرب العربي**، جزآن، دار المعارف، مصر 1979، ج. 2، ص. 389.

[53]) الدرجيني، **المصدر نفسه**، ج. 1، ص. 48.

[54]) الباروني، **الأزهار**، ج. 2، ص. 102.

[55]) أبو زكريا، **المصدر نفسه**، ص. 95؛ الدرجيني، **المصدر نفسه**، ج. 1، ص. 51.

[56]) الشماخي، **المصدر نفسه**، ص. 53.

[57]) ابن الصغير، **أخبار الأئمة الرستميين**،
Motylinski (A. de C.), «Chronique d'Ibn Saghir sur les imams de Tahert», in actes du XIV[e] congrès international des orientalistes Alger 1905, éditeur Ernest Leroux Paris 1908, pp. 3-132. ص. 16؛ الدرجيني، **المصدر نفسه**، ج. 1، ص. 55.

[58]) ابو زكريا، **المصدر نفسه**، ص-ص. 97-99؛ الدرجيني، **المصدر نفسه**، ج. 1، ص-ص. 52-53؛ الشماخي، **المصدر نفسه**، ص-ص. 55-56؛ الباروني، **المرجع نفسه**، ج. 2، ص. 103.

[59]) الباروني، **الأزهار الرياضية**، ج. 2، ص. 106.

[60]) **المرجع السابق**، نفس الموقع.

[61]) **المرجع نفسه** ، ج. 2، ص. 108

[62]) الدرجيني، **المصدر نفسه**، ج. 1، ص. 51؛ الشماخي، **المصدر نفسه**، ص. 57؛ الباروني، **الأزهار**، ج. 2، ص. 109.

[63]) هو الربيع بن حبيب الفراهيدي ولد سنة 75هـ/ 694م وتوفي سنة 175هـ/ 791م، عماني الأصل بصري المنشأ، انتقل إلى البصرة لطلب العلم، أين أدرك المدرسة الإباضية في أوج عطائها وأخذ العلم عن أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة (ت 145هـ/ 762م) وارتقى بعلمه ليكون من أيمة الإباضية ببلاد المشرق. لمزيد المعلومات حوله يرجى مراجعة: الجعبيري (فرحات بن علي)، **شخصيات إباضية**، مكتبة الضامري للنشر والتوزيع، ط. 1، عمان، 2010، ص. 58.

[64]) ابو زكريا، **المصدر نفسه**، ص. 94؛ الدرجيني، **المصدر نفسه**، ج. 1، ص-ص. 49-50؛ الشماخي، **المصدر نفسه**، 54؛ الباروني، **الأزهار**، ج. 2، ص-ص. 105-107.

[65]) ابو زكريا، **المصدر نفسه**، ص. 100؛ الدرجيني، **المصدر نفسه**، ج. 1، ص. 54.

[66]) الباروني، **الأزهار**، ج. 2، ص. 112.

[67]) الدرجيني، **المصدر نفسه**، ج. 1، ص. 56؛ الباروني، **المرجع نفسه**، ج. 2، ص. 113.

[68]) الدرجيني، **المصدر نفسه**، ج. 1، ص. 56؛ الباروني، **المرجع نفسه**، ج. 2، ص-ص. 114-116.

[69]) أبو زكريا، **المصدر نفسه**، ص. 104-114؛ الشماخي، **المصدر نفسه**، ص. 62-66؛ الباروني، **الأزهار**، ج. 2، ص. 116.

[70]) محمود اسماعيل، **الأدارسة في المغرب الأقصى**، ص. 161.

[71]) ابن الصغير، **المصدر نفسه**، ص. 50؛ الحريري، **المرجع نفسه**، ص. 174.

[72]) ابن الصغير، **أخبار**؛ الباروني، **المرجع نفسه**، ج. 2، ص. 266؛ الحريري، **المرجع نفسه**، نفس الصفحة.

[73]) ابن الصغير، **المصدر نفسه**، ص. 50؛ الباروني، **الأزهار**، ج. 2، ص. 266؛ الحريري، **المرجع نفسه**، ص. 174.

[74]) الباروني، **مختصر**، ص. 47؛ الحريري، **المرجع نفسه**.

[75]) ابن الصغير، **أخبار**، ص. 53؛ الباروني، **الأزهار**، ج. 2، ص. 266؛ الحريري، **المرجع نفسه**، ص. 175.

[76]) الباروني، **مختصر**، ص. 47.

[77]) ابن الصغير، **المصدر نفسه**، ص ص.49، 50؛ الحريري، **المرجع نفسه**، ص. 175.

[78]) الباروني، **الازهار الرياضية**، ج. 2، ص. 266.

[79]) ابن الصغير، **أخبار**، ص. ص 50؛ الحريري، **المرجع نفسه**.

[80]) ابن الصغير، **المصدر نفسه**، ص. 50-51؛ الباروني، **الأزهار**، ج. 2، ص. 266-267.

[81]) ابن الصغير، **أخبار**، ص. 51؛ الباروني، **الازهار الرياضية، ج. 2، ص.** 265.

[82]) أو الخوخة *"وهي باب صغير كان معدا له خاصة يدخل معه إلى والده"*، الباروني، **الأزهار**، ج. 2، ص. 267.

[83]) ابن الصغير، **مصدر مذكور**، ص. 51.

[84]) ابن الصغير، **أخبار**، ص. 51؛ الباروني، **الأزهار الرياضية**، ج. 2، ص. 267.

[85]) ابن الصغير، **المصدر نفسه**، ص. 52؛ ابن عذاري، **البيان**، ج. 1، ص. 197.

[86]) ابن الصغير، **أخبار**، ص. 52؛ ابن عذاري، **البيان**، نفس الصفحة؛ الباروني، **الأزهار**، ج. 2، ص. 269.

[87]) ابن الصغر، **المصدر نفسه**، ص. 52.

[88]) ابن الصغير، **المصدر نفسه**، ص. 52؛ الباروني، **الأزهار الرياضية**، ج. 2، ص. 270.

[89]) الباروني، **الأزهار الرياضية**، ج. 2، ص. 271.

[90]) ابن الصغير، **أخبار الأئمة**، ص. 53.

[91]) ابن الصغير، **المصدر السابق**، ص. 54؛ الباروني، **الأزهار الرياضية**، ج. 2، ص. 273.

[92]) ابن الصغير، **المصدر نفسه**، ص. 55؛ الباروني، **المرجع نفسه**، ج. 2، ص. 274؛ الحريري، **المرجع نفسه**، ص. 177.

[93]) ابن الصغير، **المصدر نفسه**، ص. 55؛ الباروني، **المرجع نفسه**.

[94]) ابن الصغير، **أخبار الأئمة**، ص. 55-56؛ الباروني، **الأزهار الرياضية**، ج. 2، ص. 274.

[95]) ابن الصغير، **المصدر السابق**، ص. 56؛ الباروني، **المرجع السابق**، ج. 2، ص. 275.

[96]) ابن عذاري، **البيان المغرب**، ج. 1، ص. 197.

[97]) ابن الصغير، **المصدر نفسه**، ص. 56.

[98]) **المصدر السابق**، ص. 56.

[99]) ابن الصغير، **أخبار الأئمة**، ص-ص. 56-57؛ الحريري، **الدولة الرستمية**، ص-ص. 178-179.

[100]) أبو زكريا، المصدر السابق، ص-ص. 104-114؛ الشماخي، المصدر السابق، ص-ص. 62-66؛ الباروني، المرجع السابق، ج. 2، ص. 116. وحول أصول المعتزلة ومصطلحها أنظر: الشهرستاني (أبو الفتح محمد بن عبد الكريم)، **الملل والنحل**، تحقيق محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت، 1975، ج 1، ص. 43؛ المعتق (عواد بن عبد الله)، **المعتزلة وأصولهم الخمسة وموقف أهل السنة منها**، ط 2، مكتبة الرشد، الرياض، 1995.

[101]) الرازي، **المصدر نفسه**، 1995، ص. 181.

[102]) حول غزو أحمد بن طولون للتخوم الشرقية للإمامة الرستمية أنظر: الكندي (أبو عُمر محمّد بن يوسف)، **كتاب الولاة وكتاب القضاة**، مهذبا ومصححا بقلم رفن گست، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت، 1908؛ ابن الاثير (عزالدين)، **الكامل في التاريخ**، تحقيق مكتب التراث، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، 1994، ج. 4، ص. 485؛ الحريري، **الدولة الرستمية**، ص. 171.

[103]) محمود اسماعيل، **الأدارسة في المغرب الأقصى**، ص. 158.

[104]) البكري (أبو عبيدة)، **المسالك والممالك**، تحقيق: أدريان فان ليوفن وأندري فيري، جزآن، بيت الحكمة قرطاج، الدار العربية للكتاب، تونس 1992، ج2، ص. 735. وينقل الدرجيني عن البكري نفس الحديث في وصف

الواصلية الذين كانوا يسكنون قرب تاهرت، الدرجيني، **الطبقات**، ج.1، ص. 43؛ وينقل أيضا ياقوت الحموي عن البكري، ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، مادة تاهرت في حرف التاء، ج. 2، ص. 9.

[105]) الحريري، **الدولة الرستميّة**، ص. 119.

[106]) الباروني، **الأزهار الرياضية**، ج. 2، ص. 116.

[107]) الشماخي، **السير**، ص. 155؛ الباروني، **المرجع نفسه**، ج. 2، ص. 117.

[108]) ابو زكريا، **السيرة**، ص. 104؛ الدرجيني، **الطبقات**، ج. 1، ص. 57.

[109]) ابن خلدون، **تاريخ**، ج. 6، ص. 160؛ عبد العزيز فيلالي، **العلاقات السياسية**، ص. 89؛ الحريري، **الدولة الرستميّة**، ص. 120.

[110]) ابن خلدون، **الصدر نفسه**؛ الحريري، **المرجع نفسه**.

[111]) الدرجيني، **الطبقات**، ج. 1، ص. 57؛ الباروني، **الازهار**، ج 2، ص. 117؛ عبد العزيز فيلالي، **المرجع نفسه**.

[112]) الدرجيني، **المصدر نفسه**، ج. 1، ص. 57.

[113]) الشماخي، **السير**، ص. 154.

[114]) المصدرالسابق، ص ص. 154، 155.

[115]) الدرجيني، **الطبقات**، ج. 1، ص. 57.

[116]) البغطوري (مقرين بن محمد)، **سيرة مشائخ نفوسة**، تحقيق توفيق عياد الشقروني، مؤسسة توالت الثقافية، 2009، ص. 103؛ الدرجيني، المصدر السابق، ج. 1، ص. 58؛ الشماخي، **السير**، ص. 155.

[117]) أبو زكريا، **السيرة**، ص. 107؛ البغطوري، **سيرة مشائخ نفوسة**، ص. 101؛ الدرجيني، المصدر السابق، ج. 1، ص. 59.

[118]) أبو زكريا، **المصدر السابق**، ص108؛ البغطوري، **المصدر السابق**، ص. 101؛ يصنف الدرجيني مهدي النفوسي ضمن الطبقة الخامسة (200-250هـ)، الدرجيني، **المصدر نفسه**، ج. 2، ص. 313.

[119]) البغطوري، **المصدر نفسه**، ص. 101؛ الشماخي، **المصدر نفسه**، ص-ص. 156-157.

[120]) الشهرستاني، **الملل والنحل**، ج. 1، ص. 59.

[121]) ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**، ص. 16؛ ابن عذاري، **البيان المغرب، ج. 1، ص.** 82.

[122]) عبد العزيز فيلالي، **العلاقات السياسية**، ص. 90؛
Montagnon (Pierre), *Histoire de l'Algérie*, op. cit, p. 74.

[123]) ابن الفقيه (ابي بكر أحمد بن محمد الهمذاني)، **مختصر كتاب البلدان**، مطبعة بريل، ليدن، 1885، ص. 80.

[124]) ابن خرداذبة، **المسالك والممالك**، المثنى، بغداد 1889، ص. 77.

[125]) ابن رسته (أبو علي أحمد بن عمر)، **كتاب الاغلاق النفيسة**، مطبعة بريل، ليدن 1976، ص. 352، 353.

[126]) دبوز (محمد علي)، **تاريخ المغرب العربي**، دار إحياء الكتب العربية، ط. 1، القاهرة، 1963، ج. 3، ص. 488.

[127]) الرازي، **أخبار فخ**، 1995، ص. 66؛ الميلي (مبارك بن محمد)، **تاريخ الجزائر في القديم والحديث**، تقديم وتصحيح محمد الميلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 3 أجزاء، ج. 2، ص. 101؛ عبد العزيز فيلالي، **العلاقات**، ص. 90.

[128]) الميلي، **مرجع مذكور**، ج. 2، ص. 102؛ عبد العزيز فيلالي، **مرجع مذكور**، نفس الصفحة.

[129]) البكري، **المسالك والممالك**، ج. 2، ص. 730.

[130]) الميلي، **مرجع مذكور**، ج. 2، ص. 103.

[131]) البكري، **مصدر مذكور**، ج. 2، ص. 726.

[132]) **المصدر نفسه**، ج. 2، ص. 730.

[133]) الرازي، **أخبار فخ**، 1995، ص. 181.

[134]) **المصدر نفسه**، ص. 181.

[135]) اليعقوبي، **البلدان**، ص. 142.

[136]) البويرة كانت تسمى سوق حمزة لأنه هو من ابتناها، يقول البكري "إلى سوق حمزة وهي مدينة عليها سوق وخندق، وبها آبار عذبة، وهي لصنهاجة، وكان نزلها حمزة بن الحسن بن سليمان بن الحسين بن علي بن الحسن بن علي بن أبي طالب"، البكري، **المصدر نفسه**، ج. 2، ص. 731.

[137]) الميلي، **تاريخ الجزائر**، ج. 2، ص. 103.

[138]) ابن رسته، **الأغلاق النفيسة**، ص. 352.

[139]) البكري، **المسالك والممالك**، ص. 830.

[140]) الإدريسي، **نزهة المشتاق**، ج.1، ص. 111.

[141]) TADEUSZ (L.), «Une langue romane oubliée de l'Afrique du Nord, Observation d'un arabisant», in *R. O*, T XVII, 1951-1952, Varsovie 1953, p. 470.

[142]) اليعقوبي، **البلدان**، ص. 142.

[143]) ابن رسته، **الأغلاق النفيسة**، ص. 352.

[144]) TADEUSZ (L.), «Une langue romane oubliée…», *op. cit*, p. 462.

[145]) البكري، **المسالك والممالك**، ج. 2، ص. 732.

[146]) **المصدر نفسه**، ج. 2، ص. 744.

[147]) اليعقوبي، **البلدان**، ص. 146؛ محمد زينهم، **قيام وتطور الدولة الرستمية في المغرب**، ص. 164.

[148]) الكعاك (عثمان)، **موجز التاريخ العام للجزائر من العصر الحجري إلى الاحتلال الفرنسي**، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط. 1، 2003، ص. 121؛ الطالبي، **الدولة الأغلبية**، ص. 410.

[149]) اليعقوبي، **البلدان**، ص-ص. 142-146.

[150]) ابن رسته، **الأغلاق النفيسة**، ص-ص. 352-353.

[151]) اليعقوبي، **المصدر نفسه**، ص. 142.

[152]) **الاستبصار**، ص. 171.

[153]) اليعقوبي، **المصدر نفسه**، ص–ص. 142–143.

[154]) محمد كمال شبانة، **الدّويلات الإسلامية في المغرب**، ص. 117.

[155]) ابن أبي زرع، **المصدر نفسه**، ص. 25؛ سعد زغلول، **تاريخ المغرب**، ج. 2، ص. 408؛ غلاّب (عبد الكَريم)، **قِراءة جديدة في تاريخ المغرب العربي: مغرب الأرض والشعب، عصر الدول والدويلات**، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2005، ج. 1، ص. 318.

[156]) ابن عذاري، **المصدر نفسه**، ج 1، ص. 82؛ محمد زينهم، **قيام وتطور الدولة الرستمية في المغرب**، ص. 163.

[157]) الحريري، **المرجع نفسه**، ص. 203؛ شبانة، **الدويلات الإسلامية في المغرب**، ص. 117؛ محمد زينهم، **قيام وتطور الدولة الرستمية في المغرب**؛ ص. 165.

[158]) الحريري، **المرجع السابق**، نفس الصفحة؛ شبانة، **المرجع السابق**، نفس الصفحة.

[159]) الحريري، **المرجع نفسه**، ص. 203؛ شبانة، **المرجع نفسه**، ص. 117.

[160]) ابن عذاري، **البيان المغرب**، ج. 1، ص. 83؛ ابن أبي زرع، **المصدر نفسه**، ص. 23؛ الحريري، **الدولة الرستمية بالغرب الاسلامي**، ص. 203.

[161]) ابن أبي زرع، **المصدر نفسه**، ص. 23؛ مؤنس (حسين)، **تاريخ المغرب العربي وحضارته من قبيل الفتح العربي إلى بداية الاحتلال الفرنسي للجزائر: من القرن السادس إلى القرن التاسع عشر الميلاديين**، مجلدين في 3 أجزاء، العصر الحديث للنشر والتوزيع، ط. 1، بيروت 1992، ج. 1، ص. 382.

[162]) ابن أبي زرع، **المصدر نفسه**، ص. 16؛ الحريري، **المرجع نفسه**، ص. 204.

[163]) محمود اسماعيل، **المرجع نفسه**، ص. 143.

[164]) محمود اسماعيل، **المرجع السابق**، ص. 155.

الكاتب: د/كمال بيرم
جامعة محمد بوضياف المسيلة

عنوان المقال: الأوبئة والأمراض بمنطقة المسيلة في ظل الاحتلال الفرنسي 1841-1945

biremkamal@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2020/05/01 **تاريخ القبول:**2020/05/26 **تاريخ النشر:** 2020/06/30

الأوبئة والأمراض بمنطقة المسيلة في ظل الاحتلال الفرنسي 1841-1945

ملخص

شكلت فترة الاحتلال الفرنسي لمنطقة المسيلة محطات من البؤس والحرمان وتفشي الأوبئة والمجاعات، جراء السياسة الاستعمارية وما تبعها من تحولات عقب انتقال ملكيات الأراضي ووسائل الاستغلال من أنماطها وأطرها التقليدية إلى النظام الكولونيالي الرأسمالي.

وحملت الذاكرة الجماعية المحلية ومحفوظات الأرشيفات المحلية والأجنبية الكثير من الوقائع والحالات الصحية التي سادت المنطقة منذ بداية الاحتلال مرورا بمراحل توسعاته وما صاحبها من مقاومات شعبية عنيفة، والتي نحاول رصدها في هذه الورقة البحثية بالكشف عن بعض محطاتها وتأثيراتها الاجتماعية على المنطقة.

الكلمات المفتاحية: الأوبئة الصحة، المسيلة، الاحتلال.

Abstract

The period of the French occupation of the region of M'sila constituted stations of misery, deprivation and epidemics and famines, due to the colonial politic and the transformations, which followed the transfer of landed properties, and means of exploiting their traditional models, and frameworks in the colonial capitalist system. Local collective memory and the holdings of local and foreign archives, have demonstrated many health facts, and conditions which have prevailed in the region since the beginning of the occupation, and through the stages of its expansion and the violent popular resistance, which has accompanied, which we are trying to monitor in this research Paper, and reveal its social effects

Keywords : epidemic, occupation, Msila, the health.

تقديم

لا تزال الدراسات الاجتماعية المتعلقة بجوانب الصحة والاوبئة بالجزائر[1] تأخذ منحى متواضع في البحث والاهتمام بالنظر الى الكم القليل من المنجز البحثي حولها مقارنة بالأبحاث المتعلقة بالأحداث السياسية، خاصة ما تعلق بالتاريخ المحلي، في ظل نقص المدونات التاريخية او المخطوطات، ويعتبر الوصول اليها امر شاق. وإذا كانت كتب النوازل قد تركت لنا ما يفيد الكثير من الوقائع الصحية في فترات التاريخ الحديث لبعض الحواضر المعروفة كقسنطينة ومازونة وغيرهما، فالأمر يختلف عن باقي الحواضر والمناطق الأخرى التي يبقى تاريخها مغمورا في كثير من جوانبه الى اليوم، ومنها منطقة المسيلة التي نحاول تتبع أوضاع سكانها الصحية و وقع الاحتلال واثر سياساته على صحة وحياة الأهالي منذ احتلالها الى الحرب العالمية الثانية.

يجدر بالذكر أن موضوع الأوبئة يتميز بتعدد جوانبه وتشعب امتداداته الطبيعية والبشرية، بحيث تتداخل مجموعة من العوامل في تفسير الأوبئة عموما والأوضاع الصحية تحديدا، منها البيئي بالمعنى الشامل للمفهوم، ومنها الاجتماعي والاقتصادي ومنها السياسي والعسكري والحضاري، الذي يبرز كثيرا في موضوع بحثنا هذا فالظروف التي أنتجت الأوبئة تختلف بتغير مجالها الجغرافي وسياقها التاريخي ومقدار تدخل العوامل السالفة الذكر ومدى تفاعلها.

تذكر الكثير من كتب التاريخ والرحالة مسالة انتشار الأوبئة والأمراض في الجزائر قبل الاحتلال الفرنسي، فقد أصاب وباء الطاعون مدينة الجزائر ومدن أخرى خلال القرن السادس عشر أودى بحياة كثير من الناس حتى بباشاوات الجزائر كصالح رايس[2]،كما أصاب نفس الوباء معظم أرجاء الجزائر سنة1787 والذي أدى الى الاف الوفيات و اضطر الباي محمد الكبير بسببه مغادرة وهران لعدة أشهر. والوباء الذي امتد سنوات 1817-1822 والذي سبب خلو المدن بشكل رهيب كعنابة وجيجل وغيرهما.[43]

التقارير الفرنسية الأولى حول الوضع الصحي بالجزائر بداية الاحتلال والتي معظمها كانت موافقة للحملات العسكرية الأولى، تشير من خلال وصفها للوضع العام إلى حالات عديدة من اوبئة الطاعون والكوليرا التي أصابت العديد من المناطق بسبب العناصر الوافدة من فرنسا واسبانيا او جبل طارق مثل الطاعون الذي أصاب مدينة وهران سنة 1834 واصاب الجزائر سنة 1835 بسبب قدوم بعض المستوطنين من تولون ومرسيليا بفرنسا ،

كما كانت سنة 1849 سنة انتشار وباء الكوليرا بعديد المناطق كبوسعادة والحضنة ومدن بالغرب الجزائري مثل وهران ومستغانم ، وتلمسان وبلعباس ، وتكرر الوباء فيما بعد عدة مرات أدى الى المئات من الوفيات في صفوف الجيش الفرنسي والسكان بشكل اكبر[5].

شكل الاحتلال الفرنسي لأقاليم الجزائر وتيرة متسارعة في انتشار الامراض والاوبئة المنقولة من الضفة الشمالية لحوض المتوسط الى الضفة الجنوبية خاصة في فترة توسعاته بين 1834-1871 والتي أدت الى تدني كبير لمستوى معيشة السكان، بعد فقدانهم لمصادر الرزق المصادرة، ويمكن إضافة عامل التقلبات المناخية الصعبة التي في الغالب هي الوضع السائد لبعض المناطق الداخلية كما هو الحال لمنطقة المسيلة التي هي محل بحثنا هذا. [6]

بداية الاحتلال و انتشار الأوبئة بمنطقة المسيلة

شهدت منطقة المسيلة منذ النصف الثاني من القرن 19 وطيلة النصف الأول من القرن العشرين حالات متكررة من الأمراض والأوبئة، التي أصبحت من الوضعيات المألوفة لدى سكان المنطقة. لكن لم تكن بالصورة المرعبة التي اتخذتها خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، فخلال الحملات العسكرية التي شهدتها منطقة المسيلة كتبت عدة تقارير عن عدد الوفيات التي أصابت قوات الاحتلال الفرنسي، جراء انتشار وباء الكوليرا، مثل حالة 1849 (التي أصيب فيها العشرات من قوات الجنرال Serrokka،.و الضابط Pein بان، في حملاتهم ضد قوات ثورة ابن شبيرة ببوسعادة وجنوب منطقة المسيلة سنة 1849.

كما يقدم لنا الشيخ ابن العربي في بعض تقييداته[7] تفاصيل مثيرة حول وباء الكوليرا بمنطقة المسيلة سنوات الستينات فيقول:

"انه في شهر ربيع الأول من عام 1282هـ الموافق 1865 نزل الوباء المسمى عندنا بيشحيط في المسيلة فمات بسببه منها نحو الأربعة مائة نفس ....ثم يضيف انه حكي ان بسكرة في هذا العام مات منها ثلاثة الاف نفس هي وما حولها وفي هذا العام كثر الريح والغبار حتى يظلم النهار..فكانت الموت للأنفس كثيرة والبعض يموت الدوار كله"

وجاء في تقييد اخر لأحمد ابن العربي فيوصف الوضع الاجتماعي ببلاد الحضنة عموما فيقول:**"ان في عام 1285هـ وقع قحط عظيم وسلط الله عدم الشبع على الخلق وغلت الأسعار حتى صار صاع القمح بثلاثين ريال ،حتى باعت الخلق الأثاث ورخص المال حتى ان البعير قيمتها ارخص من صاع الشعير واما الغنم فماتت وتفرقت التلقودة واكلت القطف والعرعار وكثرت الموت وهاجت في كل البلاد حتى ان الفرقة في بعض الاعراش**

يموت منها النصف واصبح الناس موتى في الشعاب والاودية حيث تجد فر ايس الموتى في كل موضع واكلت الناس الكلاب والدواب "[8]

وفي سنة1864 عندما اندلعت انتفاضة منطقة المسيلة بقيادة إبراهيم بن عبد الله بن بوعزيز قايد عرش السوامع ، تكبدت قوات الجيش الفرنسي أعداد من الوفيات لنفس المرض الذي أصاب المنطقة .[9]كما شهدت منطقة الحضنة بكاملها انتشار وباء الكوليرا الذي رافق سنوات الجفاف و العوز 1866-1868.وترك بصماته القاسية على التجمعات السكانية الهامة للمنطقة ،حيث بدأ في الانتشار منذ 11 جويلية 1867 وعم مختلف مناطق الجزائر .و كانت مقاطعة سطيف لوحدها التي كان يقطنها سنة 1867 ما يزيد عن 146000 نسمة، قد تعرضت إلى أكثر من 5300 حالة وفاة ،أي ما يزيد عن نسبة 3.6 % من مجموع السكان ، بينما كانت منطقة منطقة المسيلة من أهم المناطق التي مسها الوباء مثل أولاد عدي بـ 178 وفاة ، أولاد دراج بـ 186 وفاة ، المسيلة بـ 280 وفاة وغيرهم .[10]

وتعتبر فترة الصيف الحارة أهم فترات انتشار الأمراض و الأوبئة بمنطقة المسيلة كالتيفيس و الرماد العيني و الكوليرا .[11]وإذا كان حال الأهالي قبل انتصاب الحكم المدني بمنطقة المسيلة سنة 1871 تحت رحمة الاحتلال و المناخ ، فان وضعهم لم يزد إلا سوءا بقدوم المعمرين الجدد وتكوين الحكم المزدوج بها منذ 1885، لذلك تكررت حالات الأمراض الفتاكة التي انتشرت وعمت قرى و أرياف منطقة المسيلة .

وباء سنة 1867بمنطقة المسيلة

أصاب الوباء الذي مس الجزائر ككل خلال سنة 1867 منطقة المسيلة واريافها ، وبالرغم من الأسباب التي تحاول بعض الكتابات الارشيفية لضباط الاحتلال اعتمادها لظهور وانتشار الوباء ،سواء ما تعلق بالظروف الطبيعية من جفاف وجراد ، الا انها تغفل دور الاحتلال ومؤسساته الاستيطانية في الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية الصعبة التي ال اليها الأهالي والتي افقدتهم وسائل الحماية الغذائية او الصحية .

كتبت التقارير الفرنسية في الوثائق المختلفة لهذا الوباء، أن الإصابات الأولى لوباء الكوليرا قد ظهرت في صيف 1867 بمدينة المسيلة التي تعتبر المركز الحضري للإقليم وكتب حينها طبيب الدائرة العسكرية للمسيلة السيد موسmousse ان المرض ظهر يوم 07 جويلية 1867في يوم الأحد بعرش السوامع احد فروع عرش أولاد دراج، عقب انعقاد السوق التقليدي ، وبعد يومين أصاب سكان مدينة المسيلة في الأحياء اليمنى لوادي القصب، وأدى

الوباء حسب التقرير إلى وفاة 72 شخص بين تاريخ 07 إلى 14 أوت ، بينما توفي 04 أوروبيين فقط ، كما أشارت التقارير أن الأوبئة بلغت على امتداد 18 يوم و أودت إلى 144 وفاة من الأهالي بين تاريخ 14 إلى 18 أوت .امتد الوباء إلى منطقة بوسعادة يوم 17 جويلية، حيث كتب الطبيب دوفيل Duvelعن انتشاره في الفترة الممتدة بين 17 جويلية إلى 08اوت، و أرجعت الهيئة الصحية سبب انتقال هذا الوباء إلى الروابط الاجتماعية و الاقتصادية بين أهل بوسعادة وأهل المسيلة، خاصة في مسألة العلاقات العائلية و التجارية، التي تؤدي عادتا إلى الإيصال و الاحتكاك و التواصل، ساهمت عناصر طبيعة أخرى في سرعة انتقال الوباء إلى الجفاف و الحرارة خاصتها أيام هبوب رياح السيروكو (الشهيلي) بينما يغفل عن دور الاحتلال في ذلك.[12] .هذا مع العلم أن القيادة العسكرية و الإدارية لمحيط بوسعادة كانت مكونة من ضباط المكتب العربي و الجنود تقارب 98 شخص ،في الوقت الذي بلغ مجموع المعمرين 77 أوروبي، في حين بلغ مجموع الأهالي 6096 نسمة .[13]

أكد الطبيب المسؤول عن متابعة هذا الوباء من مدينة المسيلة انه انتشر بداية الشتاء في مناطق برج بوعريريج ، وكان انتقال بعض الجنود من المسيلة وهم مصابون بالمرض من الأسباب التي أسرعت في انتشار الوباء الذي قضى بمنطقة البرج وحدها : 470 وفاة ،منها : 45 رجل و 59 امرأة ، 62 طفل و 54 فتاة .[14]

تؤكد جل التقارير الصحية أن المناطق المصابة هي الأكثر فقرا وحرمانا وبها اغلب الضعفاء و البؤساء الذين صودرت املاكهم واثقلتهم ضرائب الحرب والمقاومات ،فقد أشارت التقارير في إحصائيات لبعض الوفيات بالمنطقة التي كانت تخضع لخلافة المقراني بمجانة مثل برج بوعريريج (897 وفاة) و سطيف (211 وفاة) .وقدرت التقارير مجموع الوفيات بإقليم الهضاب العليا سطيف بـ 8394 وفاة من مجموع السكان 146000 نسمة تقريبا .[15]

في اغلب التقارير وجدنا نفس الملاحظات ونفس الإشارات، بحيث أن وباء الكوليرا انتقل من الجنوب إلى الشمال، ونفس الأسباب أدت إلى نفس النتائج. القرى أكثر تعرض للوباء هم الأكثر فقر وحرمان و الأقل نظافة و الأكثر تجمع و احتكاك. الوفيات تصيب في اغلب الحالات الفقراء. كل الذين كتبوا هذه التقارير هم ضباط سامون أو أطباء اجمعوا أن انتشار الوباء كان وراءه انتقال الإفراد واتصالهم ببعضهم البعض .

هكذا كان وباء سنة 1867 أكثر خطورة في ظل عدم تعود الأهالي على مثل هذه الحالات أو توقع انتشارها السريع. وعادة ما تكون عملية تسارع الوفيات عقب قدوم شخص أو أشخاص من مناطق مجاورة مصابة، وفي كل الحالات ضاعفت حالة الفقر والعوز والحرمان والبؤس من عملية انتشار وتسارع وفيات الجزائريين. غير أن ما أكدته هذه التقارير أن الوباء الذي أصاب الجزائر ككل إنما بدأ من مدينة المسيلة سنة 1867 وهذا الامر الذي لم تشير اليه الكتابات التاريخية حوله [16]رغم الأمراض والأوبئة التي صاحبت منطقة المسيلة منذ بداية الاحتلال 1840 ،فان الإدارة الاستعمارية لم تحاول تخفيف وطأة هذا الوضع،او تفكر في إقامة عيادة طبية إلا سنة 1904 عندما افتتحت أول عيادة خاصة بالأهالي (infirmerieindigènes) في 16 أكتوبر 1904 جهزت بـ 17 سرير و 3 عمال صحة. وقد بقيت هذه العيادة محدودة الخدمة وغير قادرة على تأمين صحة السكان خاصة في ظل بعد المسافات بين مركزها والدواوير من جهة،ونقص الدعم البلدي المالي لها من جهة ثانية.

كما وقعت نهاية القرن التاسع عشر كوارث متنوعة منها الزلزال الذي أصاب المنطقة سنة 1890 ويتكرر سنة 1895 وانتشار وباء الكوليرا المميت بكامل منطقة الحضنة ، أدى إلى عدد كبير من الإصابات التي قاربت 500 حالة تحولت منها 416 حالة إلى وفيات خصوصا في المناطق الحضرية كمدينة المسيلة (177 وفاة) كما يوضحه الجدول التالي [17]:

جدول خاص بانتشار وباء الكوليرا 1893 بدواوير المسيلة.

المناطق	عدد الإصابات	عدد الوفيات
سلمان	29	10
أولاد عدي	5	1
المسيلة	الأوروبيين: 7	3
	الأهالي : 282	282
المطارفة	59	20
أولاد منصور	35	14
السعيدة	82	28
مسيف	18	8
ملوزة	2	2

في قراءة لأرقام الجدول مقارنة بالتقارير الاجتماعية الرسمية و تقارير قياد دواوير منطقة المسيلة المرتبطة بالوفيات و المعيشة، لا يبدوا تطابق بين الحالتين ،لان الأرقام المبينة في الجدول لا تعكس الوضع الحقيقي للأهالي على جميع المستويات و الأصعدة، وفي نفس الوقت لا تعطي الصورة الواقعية لدور العيادة الطبية الصحية اتجاه الأهالي .[18] لقد أدى وضع الأهالي الصعب إلى اعتماد السكان بمبادرة لأعيان وذي الدخل إلى محاولة التكفل الاجتماعي من خلال إنشاء جمعيات التعاون و التكافل الاجتماعي لتعويض حالات البؤس و المرض الذي أصبح يلاحق السكان. وقد حصرت إدارة هذه العيادة المعطيات الاستشفائية لدورها بين سنوات 1904-1914 [19]وكان كالتالي :

جدول خاص بحالة الخدمات الصحية بالعيادة بين 1904-1914.

الحالات	1904	1906	1910	1911	1912	1916	1917	1918
عدد الممرضين	3	3	3	3	3	03	04	3
عدد المرضى :								
رجال	143	161	174	162	170	174	205	120
نساء	31	54	25	44	56	41	53	39
أطفال	14	22	34	36	37	27	27	11
عدد الوفيات	1	3	5	4	5	6	5	6
إصابات العيون	18	37	20	18	20	30	32	41
إصابات الهضم	48	61	24	20	36	18	15	11
إصابات الجلد	34	39	56	97	87	71	14	18
عدد الفحوصات الطبية	150	200	1400	1927	840	1701	1080	350

ورغم الويلات التي أعقبت الحرب العالمية الاولى من مجاعات و أوبئة، فان الفترة الممتدة بين 1918 إلى غاية 1949 لم تشهد خلالها منطقة المسيلة زيادة في الإطارات الصحية ،ولم يزد عدد الممرضين عن ممرضة واحدة وعون صحي واحد .[20] ومرد ذلك استقرار عدد المعمرين بمركز الاستيطان الوحيد بها أي بالمسيلة من جهة ومن جهة ثانية لم تكن لدى سكان الحضنة عادة الاستشفاء بمراكز الاحتلال .

ومما ضاعف في بؤس الأهالي صحيا ضعف الإنتاج الفلاحي بعد تمكن المعمرين من مصادر السقي والأراضي الخصبة من جانب،، وصعوبة المناخ من جانب اخر فارتفعت حالات الحمى التي تؤدي غالبا إلى وفيات كثيرة مثل ما حدث سنة 1918 .[21] وكانت السنوات التي أعقبت الحرب العالمية الأولى جد صعبة من حيث استمرار انتشار وباء التيفيس بمحيط مدينة المسيلة.[22]

الأوضاع الصحية بمنطقة المسيلة بين الحربين(1919-1939)

لم يتغير كثيرا وضع منطقة المسيلة الصحي بعد الحرب العالمية الأولى بسبب تكوين مركز الاستيطان الأوربي بالمدينة من جهة حيث سادت وضعية اقتصادية صعبة صاحبت سنوات بين 1918الى-1923، مما جعل المنطقة محل انتشار عدد من ألامراض و الأوبئة الفتاكة ، مثل الرماد العيني و الحمى القلاعية أو البالوديزم PALUDISME خاصة بين الأطفال التي تتراوح أعمارهم بين 10-15 سنة [23].

كان الانتشار واسع بين أطفال الأهالي، في حين لم تشمل التقارير الصحية و لا حالة واحدة عند الأطفال الأوروبيين الذين وصل عددهم إلى 101 طفل ،كما استمرت حالة باقي المعمرين جيدة إلى غاية بداية الحرب العالمية الثانية .[24]صاحبت الأمراض و الأوبئة في الفترة الممتدة بين الحربين بمنطقة المسيلة حالات الفقر و العوز و المجاعات مع حالات الجفاف ونقص الإنتاج الزراعي .*ففي مقال بعنوان "المجاعة في البلد " كتبت مجلة الكفاح الاجتماعي [25] عن وضعيات الأهالي الصعبة في منطقة المسيلة سنة 1923 ،حيث انتشر الفقر وشمل كل من منطقة برج بوعريريج إلى بوسعادة ، المسيلة ، كانت الإدارة الاستعمارية تقوم بتوزيع كميات محدودة من الخبز لا تزيد عن 70 غرام لكل فرد يوميا ، ولم تخفي المجلة تواطؤ الإدارة الاستعمارية المحلية مع أرباب العمل على استغلال سكان الحضنة بشراء عقاراتهم لشراء الخبز و الحبوب، وتضرب لذلك مثلا لذلك بسكان المسيلة اين يبدو الدور المزدوج للكوكون و الإدارة في القضاء على أرزاق الناس و البؤساء .[26]

تعد الأمراض و الأوبئة بمنطقة الحضنة كحال باقي الجزائر من الحالات الغير محدودة لانها واكبت حياة السكان فترة طويلة ،ومن أهمها أمراض العيون و الأمراض المرتبطة بالفقر كالتيفيس و الكوليرا ،وقد أحصت التقارير الصحية أنواع عديدة من الأمراض مثل الرمد العيني ، أمراض الحنجرة ، أمراض الجلد وغير ذلك[27].

ومن جانب آخر قدرت الإدارة المحلية عدد الفحوص التي قدمتها المصحة للأهالي خلال سنة 1917-1918 بـ 1501 حالة علما أن وضع المنطقة كان أصعب قبل الحرب العالمية الأولى حسب الإحصائيات الخاصة بعيادة الأهالي بالمسيلة.[28] بينما استمر فيه الوضع الصحي بالمعمرين في نفس الفترة على ما يرام، حيث لم نعثر في وثائق الأرشيف عن أي حالة من حالات الأوبئة المنتشرة أو الأمراض التي أصابت الأهالي ،قد أصابت مركز استيطانهم بالمسيلة لم نجد سوى إشارات قليلة عن ذلك مثل إصابة ثلاثة من المعمرين بمرض العيون سنة 1913.

الحرب العالمية الثانية وذاكرة عام العربة بالمسيلة1941-1942

شهدت مدينة المسيلة خلال الحرب العالمية الثانية وضعا استثنائيا ،من حيث انتشار الفقر المدقع و الأوبئة الفتاكة التي تركت بصمات عميقة في ذاكرة السكان الجماعية ، و التي لم تشهدها مناطق أخرى في الجزائر بنفس الحدة و الوطأة إلى بداية 1954 .[29]لقد ساهمت عوامل عديدة في تردي حالة أهالي منطقة المسيلة خلال الحرب العالمية الثانية ، فقد ألحق الجفاف المستمر بين 1937 إلى 1954 حالات إضافية من الفقر التام و الكلي و الشامل لسكان منطقة المسيلة ، بعد أن جردوا خبراتهم وحرموا من أراضيهم وتشتت أرزاقهم وبيعت حيواناتهم من اجل لقمة العيش التي ضاقت من اجلها السبل .و إذا كانت التقارير الرسمية قد اغفلت نهائيا تسجيل أصعب فترة عاشتها جهة من الحضنة=الغربية و هي منطقة المسيلة خلال الحرب العالمية الثانية. فان الذاكرة الجماعية المحلية تتذكرها بتفاصيلها [30]. مثلت سنوات الحرب العالمية الثانية أقصى وأشد فترات الوجود الاستعماري بمنطقة المسيلة وارتبطت أحداثها ومآسيها بذاكرة سكان المنطقة الذين جعلوا منها مرحلة هامة لبشاعة الظلم الاستعماري والتميز العنصري بين الأهالي والأوربيين الذين استوطنوا بمركز البلدية بالمسيلة.لقد تلقت مصالح الإدارة الاستعمارية بمنطقة المسيلة من الوالي بقسنطينة التعليمات الخاصة بتنظيم الحياة اليومية للأهالي والاوربين الفرنسيين الذين بلغوا بداية الحرب 215 نسمة حيث لم تكن بالمدينة آية حامية عسكرية لحمايتهم ، لذلك عمدت

السلطة المحلية على تجنيد كل عمال البلدية والشرطة والفرسان لمختلف الدواوير القريبة من المدينة و إقامة مخابئ لأوربيين خوفا من غارات قوات المحور[31] .وتم تكوين :

مركز علاج أولي: يقوم بإشرافه عمال المصحة الملحقة بالمسيلة و مركز إنقاذ ومركز تنظيف

مركز نقل بالسيارات وتكونت فرقة خاصة بالأوبئة والأمراض لمركز الاستيطان بالمدينة وفرضت إجراءات أمنية على محاصيل الحبوب خوفا من أعمال إجرامية[32].كما شددت الخناق على الأهالي بواسطة القياد ومراقبة تحركاتهم وأنشطتهم وأمرت القياد بار سال تقارير مفصلة عن وجود أي عنصر من أحباب البيان والحرية[33].وفرضت تجنيد الأهالي في جبهات القتال بعد أن رفضوا العمل في الجندية إلى جانب فرنسا[34].كما كانت مدينة المسيلة محطة لعبور قوات الحلفاء من الغرب نحو تونس جوان 1943 حيث تم تخصيص مركز لقواتهم بالبلدية[35]بأمر من الوالي بقسنطينة.

وقام القياد بحراسة المنطقة وإخبار السلطة بكل غريب أو جندي فار[36] ، بعد أن تلقوا التعليمات بإعدام كل سجين يتم القبض عليه[37]. إن الشغل الشاغل للإدارة الفرنسية هو امن الأوربيين وحياتهم بالمنطقة فقد كانت الحرب العالمية الثانية عاملا في استغلال المعمرين سجناء الحرب من الألمان والإيطاليين الذين تم القبض عليهم ببلدية المسيلة، والذين بلغ عددهم 164 سجينا وسخروا في أعمال الفلاحة في ضيعات المعمرين ببلدية المسيلة[38].

أما الأهالي فقد عمقت ظروف الحرب مأساته موزادت في تعاستهم لدرجة فضيعة لم تشهدها المنطقة في تاريخها من خلالها حالات الوفيات والفقر والحرمان بعد أن فقدوا كل شيء لديهم من مواشي وممتلكات[39].

وتكشف تقارير القياد لمختلف دواوير بلدية المسيلة [40] حالات البؤس ونقص الغذاء حتى للمواشي التي بقيت على الحياة تقتات على الحطب اليابس فقط[41]، إن ما أصاب سكان بلدية المسيلة خلال الحرب العالمية الثانية خصوصا سنة 1941،كان يستلزم تدخلا محليا ومركزيا فوريا وبجدية كبيرة فقراءة تقرير عن احد سكان المدينة ندرك ذلك الهول الذي أصابها بحيث يذكر أن حالات الوفيات للسكان بسبب الحمى خلال شهر واحد (رمضان 1941) كانت بمعدل 25 وفاة يوميا، في الوقت الذي لم تقم السلطات المحلية بأية مبادرة لفائدة السكان ولو بتمكينهم الحصول حتى على كفن الموتى، بسبب انعدام الأقمشة في كامل

المدينة وتشير الشهادات إلى أن الكفن يخيط عدة مرات لكفاية الميت ووصل الحال ببعض السكان إلى عدم استطاعتهم دفن موتاهم لعدم تمكنهم من الحصول على قماش الكفن. وقد وصل عدد وفيات سنة 1945 بالبلدية 2897 من جملة 3611 مواليد.

لقد كان الوضع المأساوي الذي شهدته البلدية ومركزها نتيجة السياسة الاستعمارية التي جعلت المعمرين يحتكرون الخيرات والمياه والثروة، ويفقر الأهالي ويحرمون من الشغل والغداء وهذا ما جعل أعيان فرنسا من القياد يتداركون هذا الوضع في تقاريرهم نهاية الحرب في ضرورة إعطاء الأهالي فرص أحسن للعيش بتوفير العمل ،وفتح ورشات الشغل وإمدادهم بقنوات مياه السقي وطرق المواصلات وتكوين فرق لتنظيف مدينة المسيلة وفتح مطاعم خاصة بالمحتاجين والمعطوبين وضرورة تموين الفلاحين ببذور الحبوب للقضاء على البؤس والحرمان والأمراض[42].

فخلال شهر رمضان1941 [43] حل بالمنطقة وباء التيفيس الخطير الذي صاحب حالة الجوع و الفقر وانتشار القمل و الجراد. و أدى إلى حالة اجتماعية تكاد تكون استثنائية من تاريخ منطقة المسيلة،وقد كتب عنها احد أبناء مدينة المسيلة واحد رواد حركتها الوطنية السيد بوضياف عبد الحميد ، مقالات عديدة في جريدة سريع قسنطينة la dépêche de Constantine سنة 1941-1942 ابرز خلالها الحالة المأساوية لسكان مدينة المسيلة خاصة خلال شهر رمضان ،حيث كانت الوفيات بالجملة لدرجة عجز السكان عن نقل الجثث على الأكتاف ، استعملوا العربات التي تجرها الخيول لنقل الموتى الذين يصل عددهم يوميا إلى ما يزيد عن 30 وفاة ، و كان من اثر ذلك استحداث الأهالي لمقبرة جديدة بحي الأشياخ بالمسيلة لاستقبال العدد الكبير من الأموات ، وقد صاحب هذا الوباء عوز كبير في الأقمشة و الألبسة ، حيث تجمع شهادات السكان عن عجزهم عن توفير ابسط الأشياء مثل كفن نعش الميت [44].

وفي خضم الأوضاع الاجتماعية الصعبة تخلت الإدارة الاستعمارية عن التكفل حتى بالمنشآت الضرورية للسكان في ظل عجز الإطارات الصحية ، إذا علمنا انه بين 1904 إلى غاية 1949 لم يكن بعيادة الأهالي بالمسيلة سوى طبيب واحد إلى جانب ممرضة واحدة . فتوقفت المدارس وفر المعلمون منها خاصة الأوربيون منهم خوفا وعجزا.[45]

ورغم اقتراح حاكم بلدية المسيلة المختلطة في رسالته (1943/12/20) إلى مضاعفة الطاقم الطبي للحضنة بدعم مالي اضافي فان الوضع استمر على حاله إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية 1946.

فخلال سنة 1941 ورغم الإضافة المالية لراتب الممرضة الزائرة إلى 2000 فرنك إلا أنها لم تغطي المنطقة الواسعة المترامية الأطراف ولم تقدم الإدارة خلالها من المساعدات إلى الأهالي إلا :

- 1000 متر من القماش لصنع القندورة .
- 1000 متر من القماش لصنع القميص .[46]

وحملة المساعدات التي قدمتها مصلحة الأمومة في تقرير إحصائي لنشاطها بالمنطقة سنة 1941:

- عدد الفحوص التي قام بها الطبيب 15 فحص .
- عدد الدورات التي قامت بها الممرضة الزائرة 13.
- عدد الرضع الذين فحصوا من طرف الطبيب 1912 .
- عدد القندورات التي وزعت للأمهات 133/25 قميص للرضع .
- عدد وفيات الرضع 117 أي 17% في زيادة عن 1939 .
- ارتفاع الوفيات بـ PALUDISME* بـ 98% .[47]

وفي نهاية الحرب العالمية الثانية أصيبت الحضنة الغربية مرة أخرى بوباء خطير بدأ الظهور منذ يوم 22 أوت 1945 بشكل خطير و سريع ، ومن خطورته ارتفاع عدد المصابين يوميا بحيث كانت المصلحة الوحيدة تستقبل ما بين 600-300 مريض يوميا، ونفد دواء المخزون بسرعة، وتسارعت التقارير وطلبات الإغاثة بالأطباء و الدوائر إلى الإدارات المركزية بالعاصمة بعد اتساع دائرة الوباء في محيط منطقة المسيلة و الذي عرف بـ conjonctivite granuleuse .[48] وأصابت كثيرا الأطفال الذين أصيب منهم 80%. وفي حينها لم تقم الإدارة الاستعمارية بجهد يذكر من اجل الحد من انتشار الوباء ولم ترسل سوى ممرض واحد غير مختص .في 10 ديسمبر ارتفع عدد المصابين إلى 800 مصاب يوميا وتطلب الأمر تدخل الشرطة و الأمن لتداول المرضى على المصحة التي أرهقت ممرضتها الوحيدة .عمل الدكتور

الجزائري ألسماتي في تدخلاته العديدة في إطار المندوبيات المالية على طلب نقل المرضى بسرعة إلى مستشفيات المدن المجاورة كسطيف، التي قامت باستقبال و معالجة 819 مريض وأصبح الدكتور سماتي يتابع شخصيا العملية بمدينة سطيف بالتنسيق مع مديرية النظافة و الصحة .

استمرت عملية نقل المرضى بالحافلات و الشاحنات يوميا إلى سطيف إلى غاية شهر أكتوبر 1945 في ظل نقص مواد تنظيف التي انعدم وجودها بكامل منطقة المسيلة مثل الصابون و الأدوية و القماش .[49] لقد استمر تدهور الوضع الاجتماعي المرتبط باستمرار تدهور الاقتصاد الأهلي وتقلص الثروة الحيوانية واستمرار الجفاف وارتفع عدد العائلات المحتاجة رغم محاولات التضامن بين السكان في حدود إمكانياتهم[50].

وتشابهت أحوال سكان منطقة المسيلة بين الحربين في ظل استمرار الفقر والمرض ولم يحصل أي تطور يذكركما اشارت التقارير الفرنسية في مختلف الميادين ،بل استمر تضييق الإدارة الاستعمارية على السكان لمنعهم من ابسط الحقوق مثل استعمال المياه للتنظيف وتميزت هذه الفترة بسنوات حرجة من حيث انخفاض الغلات الزراعية أو ارتفاع الوفيات كما كان الحال سنة 1937 بحيث أدى وباء التيفيس الذي يرتبط بالنظافة والتغذية إلى تقلص عدد السكان بلدية المسيلة من 54.371 سنة 1936 إلى 48396 نسمة سنة 1937[51]، أي تقلص السكان بما يقارب بـ6000 نسمة وقاربت نسبة ارتفاع الوفيات لسنة 1941 مقارنة سنة 1931 بـ 48 **52%**.لقد ترتب عن هذا الوضع حالة من اليأس لدى بعض الأهالي الذين غادروا بلدية المسيلة المختلطة في اتجاهات مختلفة بعائلاتهم أو بمفردهم وكان العامل الجغرافي والعلاقات التاريخية من أهم عوامل توزيع هذه الهجرة السكانية مثل تاملوكة – سدراتة –عزابة برج بوعريريج قالمة وفرنسا خلال الحرب العالمية الثانية كما اتجهت عائلات من منطقة القصابية نحو بلاد القبائل مثل تازمالت البويرة – مايو– الجزائر أقبو وكذا فرنسا.واتجهت كذلك عدة عائلات من بني يلمان نحو بلاد القبائل و متيجة ورويبة وفرنسا[53].

كما أن المتصرف الجديد للبلدية يشير في تقريره[54] نهاية الحرب إلى حالة الفقر والحرمان التي تسود المدينة و أهاليها الذين باعوا كل ما يملكون من اجل لقمة العيش[55]،في الوقت الذي استغلت فيه شركة الأهالي الاحتياطية société indigène de prévoyance الظروف في تقديم قروض وصلت إلى 1000.000 فرنك مقابل رهن الأهالي لها أملاكهم

وأراضيهم[56].كما نجد في شهادة معلم فرنسي بمنطقة الدريعات[57]ذلك الواقع المؤلم لأهالي المنطقة وأبناءهم ،بحيث يشتكي معهم الجوع والبرد ويذكر الأطفال وهم جياع لا يلبسون إلا ما يستر عورتهم ولا يجد معهم في المدرسة ولا قطعة حطب للتدفئة .

لكن هل انتهى الوضع إلى هذا الحد بالنسبة للسلطة الاستعمارية؟.لم تكن السلطة الاستعمارية ترى إلا من يأب واحد هو خدمة الأهالي لفرنسا وللمعمرين وهذا ما جعلها تفرض عقب نهاية الحرب على الأهالي بعد المرض و الفقر غرامات تقدم لمختلف الجمعيات الفرنسية في إطار إعادة أعمارها مثل:

-الجمعية الخاصة بالموظفين الإداريين للمقاطعة التي فرضت دفع 30.000 فرنك.

-المتحف التاريخي للمارشال فروشي D'esporey Frenchet مبلغ 300.00.

-فدرالية المستعمرات للمقاطعة لمركز لاصطياف مبلغ 3000.00 فرنك ،كما فرضت الإدارة المحلية على جميع الدواوير مساهمات جعلت ميزانية البلدية تحقق فائضا ماليا سنة 1945 قدر بـ 200.970 فرنك[58].[59]وكان تعمير فرنسا المنهارة نهاية الحرب بخراب المنطقة البائسة بحيث فرض عليها تقديم دعم مالي إلى الجمعية الإسلامية لإعادة إعمار فرنسا بالمسيلة قدر بـ 42.7675 فرنك قدم إلى الحكومة الفرنسية بواسطة أعيانها من القياد أعضاء الجمعية ورئيسها الأغا بوضياف علي[60].وكانت تقوم بالدعاية لها صحيفة صوت الأهالي La

voix indigeneبعنوان:le vrai visage du bled.

لقد حملت الذاكرة الجماعية المحلية وصفا دقيقا أكثر مما حملته او دونته تقارير سلطة الاحتلال حول الأوبئة التي ضربت منطقة المسيلة بين سنوات بداية الاحتلال الى الحرب العالمية الثانية، سواء ما تعلق بتأثيراتها الصحية أو الاجتماعية والنفسية التي بقيت عالقة كمحطة مرجعية لحالات البؤس والشقاء الذي حل بهم بسبب الاستعمار وسياساته التي أفقدتهم كل وسائل الحماية الاقتصادية او الاجتماعية لصالح فئة المستوطنين الذين مرت عليهم هذه الحالات الوبائية بصورة عادية. وتحولت هذه الأوبئة من الكوليرا إلى التيفيس إلى الحمى القلاعية كحالات اعتيادية في افتقاد الأسر والعائلات لفلذات أكبادها من الأبناء والآباء.

1- هناك دراسات لاهم الأوبئة التي ضربت شمال افريقيا منها كتاب الطبيب قيون: الأوبئة في شمال افريقيا .
كذلك ينظر االى: **L Guyon** *:les épidémies de l'Afrique du nord, alger,1855
Marchika(j), la peste en Afrique Septentrionale, histoire de la peste en Afrique du nord ,1902
.et **Tremsal**(j) :un siècle de médecine coloniale française en Algérie 1830-1929 2è édition Tunis,1929.،

[1]

[2]**Reynaud**(l) :L'hygiène et pathologie nord africaines, Assistance Médicale, tome1, paris,1922

[3]**Marchika**(j) :op-cit,p173.

4- مسلم بن عبد القادر الوهراني:خاتمة انسي الغريب والمسافر تحقيق وتقديم رابح بونار الجزائر 1974 ص 64

[5]André Nouschi : Notes sur la médecine et la démographie en Algérie de 1840 à 1880 Annales de Démographie Historique Année 1973 1973 pp. 523-533.

[6]-CAOM (centre d'Archive d'Outre-Mer) Aix en Provence Marseille: 8H7. Occupation de Bou Saada , rapport du 12/11/1849.

7-احمد ابن العربي بن البركاتي: تقييدات الشيخ بن العربي،مخطوط غير منشور.بتاريخ ربيع الأول من عام 1285هجرية.

احمد بن العربي البركاتي :المصدر السابق ،تقييد في 1285هجرية.[8]

[9]-CAOM : 8H22, trouble dans le hodna , rapport du 23/09/1864.

[10]-ACMM (archive de la commune mixte de m'sila) : B(boite) 264, Assistance musulmanes , renseignement statistique .

[11]-ibid.

[12]-CAOM :8h7. Cercle Boussaâda, rapport du médecin de ville, médecin aide major (21/09/1867.page : 168).

[13]-CAOM : 8H7, OP. Cit page 166 .

[14]. CAOM 65k1, rapport de Mr. Le commandant supérieur (1866 – 1867).

[15]-CAOM : 65k4.rapport de Mr.Lienard. Médecin aide major 1867.

16- كتب الجيلالي صاري مقالا وكتاب حول الكارثة الديمغرافية التي ضربت الجزائر لكن لم يشير الى هذه المسالة وهي كيفية ظهور وانتقال المرض من منطقة المسيلة الى مناطق الهضاب العليا انظر:الجيلالي صاري ، الكارثة الديمغرافية،ترجمة خليل اوذاينية،طبعة دار موفم للنشر 2013.

[17]-ACMM (archive de la commune mixte de M'sila): B(boite) 87,Etat énumératif d'épidémie choléríforme du 11/08 au 8 octobre 1893-

[18]- في رسالة من سكان المسيلة الى الحاكم (1922/08/31) يشكون فيها حالهم جراء التمييز العنصري الذي كانت تمارسه الممرضة الوحيدة التي بقيت في الخدمة في العيادة وهي الفرنسية ، ضاق من تصرفاتها حتى اليهود الاهالي آنذاك

(ACMB 12/01/1944)

[19]-Edmont,Sergent et autres: Contribution de l'institut Pasteur d'Algerie à la connaissance humaine, in cahier d'outre-mer ,volume 7-8 année 1954,pp305-310.

[20]-ACCM : B 264, sante publique, lettre de l'administrateur 10/05/1949.

[21]- ACIM : B 210, –rapport du Caïd Boudiaf Med said douar dreat 24/09/1918 .

[22]-ACCM : B 90-, santé- Lettre du directeur de l'école indigène de M'sila .04/04/1912 . (choussal) .

[23]-archives de l'institut pasteur Algérie, 1923.

[24]ACMB : B264..Rapport 31/01/1936.

*تكرر حالات وباء الكوليرا بعد سنة 1910 بالحضنة (انظر المبشر عدد 5277 السنة 62 الاربعاء 24 أوت (1910

[25]- Gracchus: la famine dans le bled , la lutte sociale N° 220 , le 16/08/1923 et N°221 27/08/1923 et N°224/02/03/1923 .

[26]-I BID : 27/02/1923.

[27]-ACMM : B90 infirmerie indigène rapport du 03/01/1918

[28]-ACMM : B264 rapport quotidien (du 1904/1918) .

Archive de l'institut pasteur d'Algérie 1923 خاصة رمد العيون للمزيد انظر

[29] -مقابلات عديدة مع شيوخ المنطقة وشهادات مسجلة .

31- قدم المخرج السينمائ محمد لخضر حمينة صورة وافية عن هذاه الوضعية في فيلمه وقائع سنين الجمر و هو ابن البلدة التي اصابها الوباء.-

[31]- ACMM,B,20; (rapport de L'Administrateur 9/5/1940)

[32]- ACMM;B,20.D(dossier)1.

[33]- ACMM,B,54,D1, (lettre des caïd des douars de la CMM, 31/01/1943.

[34]-- ACMM, B, 154, lettre du caïd des douars de la CMM, 31/01/1943

[35]- ACMM، B187 (lettre des caïd des Douars de la CMM, 31/01/1943

37-دور قايد ملوزة في القبض على الجنود الإيطاليين وتسليهم لفرنسا –رسالة القايد بوضياف 25 أوت (1943ACMM : ,B257D4.)

[37]- ACMM, B187 (lettre l'Administrateur aux caïds de la commune 25/9/1943)

[38]- ACMM,B; 257 D(prisonnier de guerre détaché à l'agriculture)

[39]- la dépêche de Constantine-21-11-46) rapport de Boudiaf-Abdelhamid.

[40]- ACMM، B;54 (rapport des caïd 1941.)

[41]- ACMM، B;54 (rapport caïd de Kherabcha 2/1/1941.)

[42]- la Dépêche de Constantine 21-11-46

[43]-dépêche de Constantine 22/10/1941.

ACMM : B90 : circonscription médicale de colonisation M'sila . épidémie d'affection oculaires [44] 25/09/1945 .

[45]

46-رسالة معلم الدريعات (1941/02/12) وفيها تصوير فضيع لحال الأطفال الأهالي المعيشية ACMM/B209 ,D3

[46]-ACCM : B 211 , inspection de l'assistance publique subvention par 1943/28/08/1943

[47]- J .Clastrier : sur une Epidémie de paludisme observé à M'sila in contribution de l'institut pasteur d'Algérie : par JAMES ORIN OLI PHANT . Institut pasteur. 1962. P .31 .

[48]ACCM :B90 – circonscription médicale de colonisation d'affection oculaires 25/09/1945.

[49]-ACCM : B 133– assistance aux mères et aux nourrissons. Rapport .25/05/1945 .

[50].-.A.C.M.M: B, 18.1927/01/18 مثل تكوين أهالي المسيلة الجمعية الخيرية الإسلامية

[51] -استمرار سنوات الجفاف بين 1921-1927 وأمراض التنفيس 1921-1937 في الوقت الذي لم يكن يوجد بالبلدية إلا طبيب متنقل من البرج [ين سالم عيسى] بين 18-1924.(ACMM :b,88D4)

[52]- ACMM، B18.rapport administrateur. (5-09-1940)

[53]- ACMM، B;133(Rapport des caïd 9/1/1941).

[54]- ACMM، B;89 (rapport de L'Administrateur3/3/45)

56-تشير الكثير من الشهادات إلى بيع السكان لأراضيهم الواسعة من اجل لقيمة العيش(لقاءات مع اعيان [55] البلدة)

57-تشير الرسالة الثانية إلى حرص التلاميذ (21) على التعليم ومساهمة أهاليهم في تموين مطعم المدرسة [56] -الوحيد بالبلدية المختلطة للمسيلة بمواد : الملح-البصل-الحطب والخضروات

[57]- ACMM، B,154 (lettre de l'instituteur de l'école de Dreat a l'Administrateur 27/03/1941.

[58]- ACMM، B,53,D1,

59

60-للإشارة فإن الميزانية البلدية استمرت منذ مدة طويلة تحقق فائضا ماليا بسبب قلة الاتفاق والضرائب العديدة على السكان. ACMM، B,87,115.

الكاتب: لحسن أوري
جامعة سيدي محمد بن عبدالله.
كلية الآداب والعلوم الإنسانية سايس- فاس– المغرب
البريد الالكتروني: lahcen.ourri@usmba.ac.ma

عنوان المقال: التجربة الاستعمارية الفرنسية في ميدان التعليم بشمال إفريقيا و انتهاكات حقوق الإنسان

تاريخ الارسال: 2020/06/13 تاريخ القبول: 2020/06/25 تاريخ النشر: 2020/06/30

التجربة الاستعمارية الفرنسية في ميدان التعليم بشمال إفريقيا و انتهاكات حقوق الإنسان

French colonial experience in the field of education in North Africa and human rights violations

ملخص:

تميز المشروع الاستعماري الذي استأنفته بعض القوى الأوربية وخاصة بريطانيا وفرنسا مع مطلع القرن التاسع عشر، بمحاولة تفادي الأشكال التقليدية المعتمدة خلال القرون السابقة في مجال السيطرة على البلدان الخارجة عن النطاق الأوربي والمستهدفة من قبلها. ويرجع هذا التطور إلى جملة من الأسباب من بينها انتباه القوى الاستعمارية أنداك إلى جسامةالتكاليف المادية والبشرية المترتبة عن أسلوب العنف الموجه ضد الأهالي الذين تروم تلك القوى إخضاعهم قبل الشروع في استغلال المجالات التي يعمرونها.

لهذا اتضح جليا بأن العنف لم يؤد إلا إلى إنتاج حلقات متواصلة من الصراع بين المستعمر والمستعمَر، الشيء الذي جعل عملية الاستغلال تستغرق وقتا طويلا وتتطلب آليات وأدوات كفيلة بتحقيق ما لم تتمكن الآلة الحربية من تحقيقه.

فما هي مساهمة المدرسة والمعلم في السياسة الاستعمارية الفرنسية بالجزائر؟ وما هي المراحل التي مرت بها؟

الكلمات المفاتيح: التجربة الاستعمارية- التعليم- الجزائر- تونس- المغرب- انتهاكات - حقوق تعليم المغاربيين.

Abstract

The colonial project, which was resumed by some European powers, especially Britain and France at the beginning of the nineteenth century, was characterized by an attempt to avoid the traditional forms adopted during the previous centuries in the field of controlling countries outside the European range and targeted by them. This development is due to a number of reasons, among them the attention of the colonial powers and the attention of the great material and human costs resulting from the method of violence directed against people whom they intend to subjugate before proceeding to explored areas where they live.

That is why it became evident that the violence only led to the production of continuous episodes of conflict between the colonizer and the colonizer, which made the exploitation process time consuming and required mechanisms and tools to achieve what the war machine could not achieve.

What is the contribution of the school and the teacher to the French colonial policy in Algeria and what stages did it go through?

.

Keywords: Colonial Experience - Education - Algeria - Tunisia - Morocco - Violations -Maghreb education rights.

مقدمة:

ركزت الأدبيات المغاربية والأجنبية في دراستها للتجارب الاستعمارية الفرنسية بشمال إفريقيا على إثارة جزء من تاريخ السياسة التعليمة الفرنسية بكل من الجزائر وتونس والمغرب، وحاولت تبني فكرة بناء سياسة تعليمية تتوافق والأوساط الاجتماعية التي ينتمي غليها المتمدرسون، واهتمت بتأسيس التعليم على قواعد سياسية بحيث ساهم ذلك في بناء نخب حاولت تقريبها إليها لخدمة مصالحها، بينما أصبح عامة أبناء الشعب موجهون بسياسة تعليمية كانت تروم من خلالها فرنسا تحضير عمال المقاولات الاستثمارية الأجنبية بالمغرب التي شجعها الاستعمار الفرنسي، فضربت بعرض الحائط طموحات فئات عريضة من المغاربيين

وحقوقهم المشروعة في متابعة تعليمهم، عبر استغلال مختلف الآليات لقمعهم، وتوجيههم لخدمة مصلحة المقاولات الأجنبية بالشمال الإفريقي، وقد عبر عن ذلك أحد المنظرين للسياسة الاستعمارية بمقال نشر له في الموضوع في نشرة التعليم العمومي بالمغرب تحت عنوان" من المدرسة إلى المعمل"، مما أسهم في عزم السلطات الاستعمارية بمختلف آلياتها العسكرية والمدنية من أجل وضع تعليم على أسس سياسية تخدم مصالحها.

I- السياسة التعليمية الفرنسية بالجزائر ما بين النظام العسكري وحكم الجمهوريين.

1- مرحلة الحكم العسكري ما بين 1830-1848.

كانت البنية التحتية للمؤسسات التعليمية بالجزائر قبل الاحتلال الفرنسي، عبارة عن غرف صغيرة لصيقة بالمساجد والزاويا، يتلقى فيها الأطفال الجزائريون الكتابة والقراءة والحساب تحت إشراف "طالب" يتقاضى أجره عينا أو نقدا من مؤسسة الأحباس أو من أولياء الأطفال الذين يشرف على تعليمهم. وقد استأثرت هذه المؤسسات باهتمام بعض السلطات المحلية الجزائرية التي تحمل بعض عناصرها مسؤولية الإسهام في توفير خيمة بديلة عن الكتاب يطلق عليها "الشريعة" في المناطق النائية التي كانت تفتقد إلى مثل هذه المؤسسات التعليمية(1). ومن هذه المنطلقات فإن التعليم بالجزائر قبل 1830 لم يكن خاضعا لأي تنظيم بيداغوجي خاص أو مالي واضح، وكانت مستوياته مقتصرة فقط على الأولي.

أما فيما يتعلق بالتعليم العالي الأصيل؛ الذي ركزت برامجه على دروس في القرآن الكريم واللغة العربية والشريعة، مع بعض الاستثناءات التي سجلت في بعض مدارسه، من خلال احتوائها لمواد وبرامج إضافية كعلم البيان والفلك والهندسة والآداب؛ فقد كان نخبويا لا يستقطب سوى فئة قليلة من أبناء وجهاء المدن و البوادي(2).

وأثناء تدخل السلطات الاستعمارية الفرنسية بالجزائر فإنها عانت من اضطراب وانقسام واضح بسبب افتقار هذا التدخل إلى معطيات مستقاة من فهم واستيعاب مكونات المجتمع الجزائري الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية(3).

لقد انعكس ذلك على هذا التدخل إلى حد أن الأمر تطلب تدخل وزارة الحرب الفرنسية لدى الملك الفرنسي من أجل تدارك الموقف، حيث طالبت منذ 1833 بتأسيس لجنة تحل" بإفريقيا" من أجل تجميع في عين المكان كل المعطيات الكفيلة بتزويد الحكومة الفرنسية بمعلومات عن الوضعية التي تعيشها الجزائر أثناء مراحل الاحتلال الأولى، والتدابير الواجب اتخاذها لتأمين مستقبل التواجد الفرنسي بها(4)، وضمان استقراره وديمومته، ونوعية

العلاقات الواجب نسجها مع الجزائريين للحفاظ على التعايش الأوربي الجزائري بولاية الجزائر([5]).

كانت الخلاصة المهمة التي توصلت إليها هذه اللجنة ونبهت إليها الحكومة الفرنسية هي أن انعدام أية دراسة حول تقاليد المجتمع الجزائري وعاداته وأعرافه([6]) كانت السبب الرئيسي في فشل السلطات الاستعمارية الفرنسية وارتباكها بين جملة المواقف السياسية المتباينة التي أثرت بشكل سلبي على تدخلها سواء على المستوى السياسي أو الاقتصادي أو الثقافي هذا، إذ كان مثار نقاشات حادة بسبب اختلافها حول الصيغة الواجب اعتمادها لتحضير الجزائريين للوضع الجديد.

وقد ظهرت في أول الأمر سياسة العسكريين الفرنسيين، التي كان هدفها الأساسي يدور حول ضرورة تكوين نخبة جزائرية مسيطرة لكنها فرنكفونية([7]) من أجل تيسير إدارة البلاد. وقد ظهرت نواة أولى لهذه الصيغة فيما يسمى عند الجزائريين بـ" بيرو عراب" Bureau Arabe([8]).

لا تستند الفكرة التي تبنتها المؤسسة العسكرية الفرنسية بالجزائر خلال مراحل الاحتلال الأولى إلى أية أسس علمية، لأنها ساهمت في القضاء على الدور التعليمي للمؤسسات الدينية كالمساجد والزوايا و"المدرسات"**Medersas**" التي تحولت إلى أماكن مهجورة من التلاميذ([9])، بعدما تم إغلاق أغلبها وتعويض بعضها الآخر بمدارس فرنسية للجزائريين حلت بها اللغة الفرنسية محل اللغة العربية ([10]).

لم تقتصر سياسة العسكريين على إغلاق المدارس والمعاهد الدينية بالجزائر، بل بادرت إلى القضاء والسيطرة على مواردها المالية، بعد إلغاء التقليد الديني القاضي بتحويل بعض الأسس المالية عن طريق التحبيس لفائدة المؤسسات التعليمية والخيرية ودمج ثرواتها وخيراتها في الأملاك الخاصة بالدولة([11]) فتحولت بسبب ذلك إلى ثروة استفادت منها السلطات الاستعمارية.

نتج عن هذه الإجراءات التعسفية التي اتخذها الجيش الفرنسي في الجزائر، أن توالت على طول البلاد عملية إغلاق معاهد التعليم الابتدائي، باستثناء بعض الكتاتيب التي كانت تتلقى دعما من بعض الخواص، فتضاءل عدد الطلبة وغادر جل العلماء المناطق التي امتدت إليها عمليات جيوش الاحتلال، بينما تابع الآخرون ممارسة مهامهم كأئمة في المساجد يتقاضون مقابلها رواتب هزيلة ([12]).

إن الهجوم الذي شنته المؤسسة العسكرية بالجزائر على هذه المعاهد وعلى المؤسسات الدينية الإسلامية، تحكمت فيه تخوفات السلطات الفرنسية من الإرث التاريخي والحضاري الإسلامي باعتباره قوة يمكن أن تهدد تواجدها بالجزائر من حين لآخر، لذلك قررت تحطيم معالمه وتحجيم أكبر قدر منه، مستعملة في ذلك آلية الدعاية للفكر استعماري ولإيديولوجيته من خلال البرامج التعليمية التي حضرتها لمدارسها الفرنسية المفتوحة في وجه الجزائريين، إذ روجت من خلالها لفكرة المقاطعة الفرنسية في شمال إفريقيا، رغبة في عملية الاحتواء والإدماج التي صارت الأدبيات الفرنسية تكررها كلما أثارت الحديث عن الجزائر([13]) والتي أصبحت بسببها حقوق الجزائريين أقل بكثير من حقوق المستعمرين ([14]).

2- أهداف السياسة التعليمية للسلطة العسكرية ونتائجها.

تماشيا مع دعاة فكرة المدرسة الإدماجية، أصبح المشروع الفرنسي يهدف إلى تحويل الجزائريين إلى فرنسيين حقيقيين([15])، ففتحت في وجههم مدارس فرنسية ابتداء من سنة 1836، وفرضت عليهم تعلم اللغة الفرنسية أثناء الدروس المسائية([16])، وأجبرتهم على إرسال أبنائهم إلى هذه المدارس بعدما استحدثت برامج تربوية إضافية كاللغة العربية والشريعة الإسلامية، إلا أن ذلك لم يحقق أية نتيجة تذكر إذ لم يلتحق بهذه المدارس سوى ستين تلميذا خلال سنة 1836([17]) نصبت السلطات الاستعمارية لتعليمهم معلما جزائريا تعرض هو الآخر إلى ضغوط كبيرة أهمها الاقتصار على الشرح اللغوي للقرآن دون الخوض في معانيه وتفصيل شرحها([18]).

لقد أثارت هذه الإجراءات حفيظة الساكنة الجزائرية المسلمة، فأبدت تخوفها من المدارس العصرية التي تبنت مشروع إحداث القطيعة بين المجتمع الجزائري وثقافته الإسلامية خصوصا بعد تكاثر مؤسسات التبشير المسيحي التي أثرت على هذه المدارس حيث أصبحت أجنبية الإطار مسيحية الإدارة تميل بشكل كبير إلى التنصير والدعاية له([19]).

ورغم احتراز الساكنة الجزائرية من التعليم العصري خلال مراحل الاحتلال الأولى، فإن السلطات الاستعمارية الفرنسية لم تدخر جهدا لمتابعة سياستها هاته، حيث أصدرت بتاريخ 14 يوليوز 1850 مرسوما يقضي بتوسيع المشروع ليشمل باقي مناطق الولاية الجزائرية، فتم تأسيس ست مدارس إسلامية فرنسية للذكور بالجزائر العاصمة وبقسنطينة وبونة (عنابة) ولبليدة وبمستغانم ثم أربع مدارس أخرى لفائدة البنات بالجزائر العاصمة وبوهران وبونة وبقسنطينة تبنت فيها تقسيما متوازيا للبرامج التعليمية المُدَرسة باللغة العربية وباللغة

الفرنسية، إذ ظلت طموحات فرنسا تهدف إلى صهر الشبيبتين الفرنسية والإسلامية الواحدة في الأخرى([20]).

وبفضل المجهودات المبذولة ما بين1850 و1873 وصل عدد الحجرات الدراسية المفتوحة إلى أربعين حجرة، إلا أن أغلبها أُغلق في سنة 1873، بينما استمر البعض منها بشروط محتشمة تراجعت بسببها نسبة المتمدرسين بشكل كبير ولم تسجل إلا نتائج ضعيفة([21]) تتضح من خلال التذبذب الذي عرفته نسبة المتمدرسات بمدارس البنات المسلمات التي استقبلت بالجزائر منذ أن فتحت أبوابها سنة 1850 حوالي 110 تلميذة، لكنها سرعان ما تراجعت فتحولت بسبب ذلك إلى ورشة مهنية سنة 1861([22]). وتمكنت مدرسة البنات بقسنطينة من الاستمرارية في ظروف بئيسة، حيث بلغ عددهن 176 تلميذة سنة 1878. فأصبغ بذلك مجموع التلاميذ المسلمين حوالي 1573 بمجموع التراب الجزائري بشتى أنواع مدارس الحكومة الفرنسية بالجزائر([23]).

وقد بادر المسئولون الفرنسيون إلى فتح إعداديات عربية إسلامية بجانب المؤسسات التعليمية الابتدائية طبقا لمرسوم 14 مارس 1875، في كل من قسنطينة ووهران، تؤهل الملتحقين بها لتحضير دبلوم خاص يخول لهم إمكانية متابعة التعليم الثانوي أو الحصول على وظيفة إدارية أو دخول مدرسة الطب المحدثة بمرسوم 4 غشت 1857 التي فتحت أبوابها في وجه العرب الجزائريين ([24]).

أما بالنسبة لمتطلبات المؤسسات الدينية بالجزائر من أطر وموظفين في ميدان العدل والشريعة الإسلامية، فقننها مرسوم 30 شتنبر 1850 الذي أُحدثت بموجبه ثلاث مؤسسات إسلامية في كل من قسنطينة ولمدية وتلمسان، يشرف على العملية التعليمية بها أساتذة مسلمون. فاحتفظت هذه الأخيرة بطابعها الإسلامي التقليدي في البداية، وبطريقتها العشوائية في استقبال الطلبة لأنها لم تكن خاضعة لأية شروط ولا لأي تنظيم يقنن سن الالتحاق أو تاريخ التسجيل، أما بالنسبة لبرامجها التعليمية فكانت تلقائية لا تلتزم بأي برنامج تربوي وتوجيهي منظم، بسبب خضوعها للمراقبة المباشرة للسلطة العسكرية الفرنسية([25])، في الوقت الذي وضعت مجموع "مدارس التعليم الأصيل"Medersas والمدارس الفرنسية العربية والكتاتيب القرآنية والزوايا، بموجب مرسوم 31 أكتوبر 1863 تحت مراقبة مفتش المؤسسات التعليمية العمومية المفتوحة في وجه الجزائريين، كما كلفت لجنة بدراسة تكوين وتحضير المعلمين، واختيار الكتب المدرسية والبرامج التعليمية، فتحت على إثرها مدرسة عليا بمدينة الجزائر.

سنة 1865 لضمان تكوين عشرين " تلميذا معلما" Eléves-Maitres فرنسيا، و 10 من" الأهالي" الجزائريين[26].

3- مرحلة سياسة الجمهوريين في التعليم بالجزائر ما بين 1883-1929.

رغم المجهودات المبذولة من أجل إدماج المجتمع الجزائري في النظام التعليمي الجديد، فإن مساعي الحكومة الفرنسية بالجزائر شابها الارتباك والتردد، بعدما احتارت في اختيار الطريقة الواجب اتباعها لتعليم الجزائريين.

وللإجابة على هذا الإشكال مرت الحكومة الفرنسية بالجزائر بمرحلة أخرى، أطلقت عليها الأدبيات الفرنسية "***مرحلة الجمهوريين"***، والتي تبنت سياستهم الأطر التعليمية العلمانية انسجاما مع تجربتها بفرنسا، تحت وصاية وتأييد جول فيري "**Jules Ferry**"، الذي جعل المدارس الفرنسية العربية رمز انطلاقتها[27]، التي قننها مرسوم مؤرخ ب 13 فبراير 1863، يقر بتأسيس مدارس يتلقى فيها الجزائريون والأوربيون تعليما متقدما يركز على اللغة الفرنسية بهدف تجاوز مخلفات المدارس العربية الفرنسية التي أسسها العسكريون[28].

وستظهر لأول مرة بعد إعلان المرسوم ودخوله حيز التنفيذ، عملية تقسيم المدارس إلى أنواع مختلفة، منها المدارس الأساسية التي فتحت أبوابها في المدن الرئيسية والمدارس التحضيرية والمهنية التي تم تأسيسها في المدن الصغيرة أو بالبوادي، إضافة إلى رياض الأطفال للذين تراوحت أعمارهم ما بين ثلاث وثمان سنوات. لقد راهنت الحكومة العامة بالجزائر على النتائج التي ستحققها هذه الأخيرة، من أجل إعادة خلق مدارس موازية للبنات الجزائريات [29].

إلا أن أهم ما توصلت إليه الحكومة الثالثة للجمهوريين الفرنسيين [30]، بعد مختلف المراسيم والقرارات التي أصدرتها بالجزائر، هو إجبارية التعليم الابتدائي للأطفال الذين تراوحت أعمارهم ما بين6 و13 سنة، وتوسيع الخريطة المدرسية بإنشاء مدارس بكل جماعة طبقا لمرسوم 8 نونبر 1887 القاضي بقبول الجزائريين بالمدارس الابتدائية الفرنسية، ومنح إمكانية موازية للأطفال الأوربيين بولوجهم المدارس الخاصة بالجزائريين، كما فتحت للجميع مدارس عليا ابتدائية ومدارس للدروس التكميلية وإعداديات وثانويات وجامعة، بالإضافة إلى الإشراف على تكوين أساتذة فرنسيين وجزائريين مسلمين، وأخذت تشجع التلاميذ المتفوقين على اعتياد استعمال اللغة الفرنسية لبلوغ درجات عليا من الثقافة للانتقال من القاعدة إلى القمة[31].

لقد كانت صيغة الاحتواء التي أسست عليها سلطات الاستعمار منطلقات سياستها التعليمية بالجزائر من بين أخطاء تجربتها بهذا البلد، لأنها عجلت منذ 1857 بتنفيذ صيغة التعليم المختلط بالإعداديات الجزائرية، بهدف" ***تكوين الشباب الجزائري خارج وسطه الثقافي دون المرور عبر مرحلة انتقالية تسمح بتحويل الشباب الجزائري إلى مناصر للحضارة الفرنسية، ووسيلة لتعميمها على باقي الجزائريين***" ([32]).

أما بالنسبة لقضية تكييف التعليم بالشروط والمتطلبات المحلية، فلم تكن غائبة بل كانت حاضرة ونالت اهتمام جِين مير "Jeanmaire" بصفته أول من أسس التعليم الإسلامي للجزائريين ما بين 1884 و 1908؛ وركز على أن يكون دور المدرسة في المجتمع الجزائري هو تنوير وتطوير الجزائريين وسط ثقافتهم وحضارتهم، دون السعي إلى اجتثاثهم من أصولهم لإدماجهم في الحضارة الغربية، والتركيز على تحفيز الجزائريين لفهم التطور الاقتصادي الفرنسي، من خلال المخططات المدرسية والبرامج التعليمية الابتدائية الصادرة ما بين 1889 و 1898. وتتضمن الاهتمام بحصص التعبير الشفوي ومادة الأشياء، بالإضافة إلى تخصيص مكانة مهمة للتعليم الفلاحي والمهني بمدارس البنات الجزائريات المسلمات، وإعداد الكتب المدرسية المتكيفة مع هذه البرامج، ثم إحداث شهادة الدروس المتخصصة للجزائريين([33]).

4- حصيلة تجربة الجمهوريين الفرنسيين في الجزائر.

مهما كانت اهتمامات السلطات الاستعمارية بمجال التعليم، فإن نتائجها لا تترجم سوى تطور عددي بطيئ لنسبة التلاميذ الجزائريين المسلمين الذين انتقل عددهم من 3172 تلميذ خلال 1882 إلى 12263 تلميذ في سنة 1892 ثم إلى 25921 تلميذ خلال 1902 ليبلغ سنة 1907 حوالي 32517 تلميذ موزعون بين كلا الجنسين، وقد احتفظ تعليم البنات الجزائريات ب 2281 تلميذة([34]).

وزاد من تعميق الأزمة المالية للتعليم بالجزائر رفض الوزارة المعنية الإنفاق على المؤسسات التعليمية التي حاول إنشاءها جول فيري سنة 1883 والتي بلغ عددها 15 مدرسة عملا بالتشريع المدرسي الفرنسي في الجزائر([35])، انعدام ميزانية خاصة بتعليم الجزائريين ما بين 1889 و1891، باستثناء بعض المجهودات المسجلة بفضل المبادرات التي قامت بها بعض البلديات([36])، مما انعكس سلبا على الإنجازات المدرسية نظرا لضعفها خصوصا خلال سنة 1899 عندما رفضت البلديات الفرنسية في عمومها تقديم الدعم المالي لهذا المشروع الذي اعتبرته خطيرا في نظرها([37]).

وكانت السلطات الفرنسية بالجزائر تترقب منذ العقد الأول من القرن العشرين حل هذا المشكل بإحداث مندوبيات مالية، إلا أن ذلك لم يغير من وضعية التعليم المادية أو المعنوية، مما اضطرها إلى تطبيق برنامج للتمدرس السريع سنة 1908، الذي تمثل هدفه في إنجاز 60 حجرة دراسية جديدة كل سنة، يتحمل فيها المرشدون أو الموجهون الجزائريون مسؤولية التأطير التربوي ([38]).

وتوضح هذه الإجراءات عدم قدرة السلطات الاستعمارية بالجزائر على النهوض بالمسألة التعليمية بسبب ضعف الاعتماد المالي المخصص لها بالموازاة مع ارتفاع عدد المتمدرسين بمدارسها في بلاد الجزائر. ولتدارك بؤس الميزانية المخصصة لهذا الشأن اعتمدت على جهاز المندوبيات المالية المحدثة التي اهتمت بترشيد وتدبير الاعتمادات المالية المخصصة لهذا الشأن وذلك بتقليص مدة الدراسة وتبسيط البرامج التعليمية والاعتماد على أطر تلقت تكوينا استعجاليا؛ لا يتطلب تكاليف مالية كبيرة، لأن رواتب موظفيه تقل بكثير عن رواتب المتخرجين من المدارس العليا لتكوين المعلمين([39]).

مهما كانت المجهودات المبذولة فإن مرحلة الجمهوريين بالجزائر فشلت هي الأخرى في برامجها وسياستها التعليمية، إذ كان أول فشل يسجل عليها هو إخفاق تجربة مدرسة "كوربي" خلال سنة 1914، رغم أنها لم تؤثر على ارتفاع نسبة المتمدرسين الذين تزايد عددهم بنسبة 5% سنويا ([40]).

ينم الارتفاع الذي سجلته الإحصائيات المدرسية بالجزائر عن رغبة الجزائريين في ولوج المدارس العصرية رغم التحفظات التي سُجلت عند بعض المسنين الذين اعتبروا المدرسة أداة لتنصير المجتمع الجزائري انطلاقا من تجربة المدرسة الاستعمارية؛ التي كانت بالفعل تحاول احتواء المجتمع الجزائري بكل ما أوتيت من قوة حسب ما تشهد به تجربتها في إنشاء مدارس التبشير المسيحي بمنطقة القبائل وبعض المحاولات المماثلة في مجموعة من المدن الجزائرية الأخرى، إلا أنها دائما كانت معرضة للإخفاق والفشل، بسبب انعدام تأطير إداري وسياسي رسين تحكمه نوايا سليمة ترغب فعلا في تعليم الجزائريين.

هكذا، عانت التجربة الفرنسية بالجزائر في مجال التعليم حالة من التذبذب والفوضى تحكمت فيها بالدرجة الأولى ما بين1830 و1870، الإدارة العسكرية التي كان هَمُّها هو القضاء على المؤسسات التعليمية الدينية الإسلامية وتعويضها بمدارس أولية لكل الأطفال بدون تميز عرقي وديني([41])، وبمؤسسات تم تخصيص بعضها للتلاميذ الفرنسيين والإسرائيليين، وأخرى

للتلاميذ المسلمين، انتهت بإغلاقها في سنة 1880[42] ودُمج تلاميذها في ثانوية الجزائر الفرنسية انسجاما مع السياسة التي تبناها الجمهوريون الفرنسيون ببلاد الجزائر.

وقد ركزت هذه السياسة على إعادة فصل التعليم الخاص بالأهالي عن التعليم الخاص بالفرنسيين، بإنشاء مدارس للجزائريين المسلمين وتطبيق قوانين التعليم الفرنسي طبقا لمرسوم 13 فبراير 1883، و يعتبر ذلك في حد ذاته خطأ فادحا سقط فيه المسؤولون الفرنسيون الذين حاولوا تطبيق قوانين التعليم الفرنسي على المؤسسات التعليمية بالجزائر لأنه يستحيل على مشروع من هذا النوع أن ينمو ويتطور في بلد تختلف مكوناته الثقافية والاقتصادية والاجتماعية عن مكونات الوسط الذي بُرمج له[43].

وإذا كانت مساعي السلطات الفرنسية تتجلى في محاولة النهوض بتعليم الجزائريين، فإن أهداف المستوطنين تتجلى في محاولة إنتاج نخبة أهلية ذات ثقافة متواضعة لكن فرانكفونية لخدمة مصالحهم الاقتصادية[44].

من هذا المنطلق سيطر هاجس الاحتواء والإدماج على الفكر الاستعماري الفرنسي بالجزائر، الذي عبر عنه" جول فيري" في مختلف خطبه **"بالاستعمار المبرر بالرسالة الحضارية التي تعني عنده*"حمل إلى المناطق المستعمرة بعض المبادئ الكبرى من الحضارة والمدنية التي تراكمت في المجتمعات الغربية، كحقوق الإنسان والديموقراطية والتطور الصحي والاجتماعي، والديني (المسيحية) ثم التعليم والتربية(...) ثم الاستيطان*"**، كعملية اقتصادية مربحة تقوم على ثلاثة أسس هي[45]:

- أولا: تشييد إمبراطورية استعمارية لتفادي أزمة التضخم بتصدير فائض الإنتاج إلى أسواق مستعمراتها.
- ثانيا: الاستفادة من المواد الأولية.
- ثالثا: استغلال يد عاملة أهلية غير مكلفة تسمح بتقليص مصاريف الإنتاج لفائدة المقاولات الفرنسية[46].

لقد كانت قضية تعليم عامة الجزائريين جوهر المعارضة بين التيارين الأساسيين للإيديولوجية الاستعمارية الذي كان أحدهما يشجع تكوين نخبة فرنكفونية محدودة من الأهالي، بينما كان التيار الآخر يرى في تعليم الجزائريين خطر على المعمرين[47].

فانعكس هذا الصراع على نسبة التمدرس حيث لم تسجل الإحصائيات المدرسية في الطور الابتدائي سنة 1890 سوى 1,73 % من مجموع الأطفال الجزائريين الذين هم في سن

التمدرس أي 10000 تلميذ، وارتفعت هذه النسبة إلى 4,3 % سنة 1900 ثم ارتفعت بعد ذلك إلى 5,7% خلال سنة 1918 ثم إلى 6% سنة 1929([48]).

II. التجربة الفرنسية بتونس في المجال التعليمي.

1- أهمية التجربة الجزائرية في إفراز معالم السياسة التعليمية بتونس

تعتبر التجربة الفرنسية في الجزائر الأساس والجوهر الذي ستؤسس عليه السياسة التعليمية بتونس، والتي ساهم في بلورتها" جول فيري" عند تقلده منصب وزير التعليم العمومي بفرنسا ما بين 1879 و1883 إذ تبنى مبادئ أساسية في هذا المجال كمجانية وعلمانية التعليم ثم إجباريته في الطور الابتدائي ما بين 1881 و1882 رغبة منه في ترسيخ دعائم الثقافة الفرنسية بشمال إفريقيا [(49)]، لكن مصير هذه السياسة كان هو الإخفاق، لذلك كثف مجهوداته وتابع عمله لتحقيق طموحاته الاستعمارية، بإشرافه على إرساء نظام الحماية الفرنسية على تونس بتوقيع اتفاقية باردو 11 ماي 1881 بتونس، التي كانت السبب في سقوط البلاد التونسية تحت الحماية الفرنسية، بل فتحت إمكانية التدخل الفرنسي بكل من الكونغو والنيجر ومدغشقر([50]).

انطلاقا من هذه التجربة، أصبح *جول فيري* مهووسا بمتابعة مساره السياسي حيث تبنى مقاييس اعتبرها أساسية لإصلاح التعليم العمومي وتوسيع طور التعليم الثانوي للبنات([51])، بالعمل على تفادي بعض الأخطاء المرتكبة في الجزائر، حسب ما يستخلص من رسالة وجهها إلى مدير التعليم بتونس آنذاك هذا نصها:" يجب عليكم أن تعملوا في تونس على تفادي ما قمنا به في الجزائر التي تركنا بها الجماهير المسلمة جاهلة، ولم نقدم لها تعليما متطورا يتوافق ووسطها الاجتماعي، فمن مصلحتنا ومصلحتهم أن نبحث عن السبل الكفيلة بتنويرهم، لأن عَمَلا وإنجازا من هذا القبيل سيمنحنا حظوظا كبيرة للتفاهم مع المتعلمين أكثر من الأميين، وعليهم الاقتناع بحسن نيتنا وعدم رغبتنا في الإساءة إلى مشاعرهم الدينية، لكنهم يجب أن يعلموا بأننا لن نقبل أن يكون تعليمهم مصدر عداء لقضيتنا وعملنا وينبغي أن يكون التعليم الملقن للشباب المسلم تطبيقيا ومهنيا"([52]).

فشرعت التجربة تأخذ مسارها الحقيقي بهيكلة النظام التعليمي بتونس، وفق متطلبات المرحلة الجديدة، بتعيين على رأس مديرية التعليم منذ سنة 1883" لويس ماكويل" " Louis Machuel"، أستاذ اللغة العربية بالجزائر، من أجل دعم التأثير الفرنسي([53]) الذي كانت أرضيته جد مهيأة بتونس بعد انتشار مجموعة من المؤسسات التعليمية الفرنسية التي ناهز

عددها حوالي 24 مؤسسة، كان أغلبها تابعا للبعثات الكاثوليكية والبروتستانتية المقيمة بتونس، وثلاثة منها تابعة للرابطة الإسرائيلية العالمية، بالإضافة إلى الثانوية الصديقية. وقد احتضنت هذه المؤسسات بمجملها حوالي 3518 تلميذ منهم 175 مسلم(54)، في الوقت الذي كانت المؤسسات التعليمية الدينية الإسلامية تحتضن كمًّا هائلا من الأطفال وصل عددهم أكثر من 25000 تلميذ يتابعون دروسهم الدينية (55).

ألحقت سلطات الحماية الفرنسية بتونس منذ سنة 1890؛ انسجاما مع متطلبات سياستها التعليمية؛ بعض الكتاتيب القرآنية بالمدارس الفرنسية لاستقطاب التونسيين إلى المؤسسات العصرية التي تم إنشاؤها لفائدتهم، بهدف خلق نوع من التقارب بين العنصرين الفرنسي والتونسي وإخضاعهم للأمر الواقع(56).

وقد راعت في ذلك سلطات الحماية الفرنسية بتونس عدم المساس بالصرح الجامعي الذي بناه التونسيون بعناية كبيرة، بل العمل على مساعدتهم للنهوض به، وبالخصوص ما يتعلق بتحسين مستوى الدراسات(56)، لكن بارتباط جذري بالتعليم الفرنسي لغة ومضمونا حيث جعلت منه سلطات الحماية الفرنسية ضرورة أولية في كل المدارس العمومية والخاصة باستثناء الكتاتيب.

هكذا، شرعت سلطات الحماية الفرنسية في فرنسة تعليم التونسيين بإحلال اللغة الفرنسية محل لغتهم القومية، باعتبارها لغة الحضارة والمدنية والأفكار الجديدة والمثل العليا، وأصبح تعليم اللغة العربية مثل اللغات الأجنبية اختياريا بالنسبة للمدارس العمومية(57).

وقد توجه الاهتمام بالدرجة الأولى نحو تطوير التعليم الابتدائي ليكون أساسا للتعليم المهني الفلاحي والتجاري والصناعي فيما بعد، بعد توفير الشروط الضرورية لذلك والمتمثلة في السماح لأكبر عدد ممكن من التلاميذ بتلقي المبادئ الضرورية والأولية في المرحلة الابتدائية من أجل تكوين عمالا وفلاحين وتجارا، لكن مع الاحتفاظ للشعب التونسي بتراثه وبتقاليده التي لا تتغير لتفادي تدميرها بالقوة كما وقع في الجزائر(58).

فانسجاما مع هذا الطرح، اتُخذت مجموعة من الإجراءات الإدارية، تم تعيين على إثرها مفتشا للدراسات العربية، تم اختياره من بين قدماء أساتذة الجامع الكبير بمدينة تونس، حُددت مهمته في التنسيق بين مدير التعليم العمومي والأساتذة المسلمين، من أجل إحاطة علم المدير العام بطبيعة الدروس الملقاة بمختلف المساجد والمدارس، وعدد الطلبة

المتمدرسين بها، ومستوياتهم التعليمية ثم الأوساط التي ينحدرون منها[59]، مما جعل هذه المساعي بادرة لمحاولة تجاوز الأخطاء التي ارتكبت بالجزائر، بسبب غياب إجراءات من هذا القبيل خلال المرحلة الجزائرية التي أتت فيها السلطات الاستعمارية على الأخضر واليابس، إذ حطمت بشكل كبير جميع المؤسسات التقليدية، التي اعتبرتها السلطات الاستعمارية مراكزا للتعصب، فقامت بتدميرها دون أن تحسب عواقب ذلك الإجراء، الذي لم يكن يتلاءم مع شعب متحضر، في الوقت الذي كان من المفروض عليها أن تعمل على تحسينها واستمالة مدرسيها والاقتصار على حذف المدارس التي تشوش على نجاحها[60].

لقد ساعد انتباه سلطات الحماية بتونس إلى ذلك الواقع في بلورة خطواتها الموالية التي حددت شروط الالتحاق بمهنة المؤدب في الكتاتيب القرآنية بنظام المباراة فأُنشأت على إثر ذلك المدرسة التأديبية خلال سنة 1894، ليتابع بها الناجحون برنامجا دراسيا متنوعا، يتضمن دروسا في اللغة الفرنسية والقرآن والنحو العربي والفقه وفن الخط العربي والأدب، ثم تاريخ تونس وجغرافيتها[61].

2- نتائج السياسة التعليمية بتونس:

رغم الاحتياطات التي اتخذتها سلطات الحماية في تونس فإن التردد والتحفظ على ولوج المدرسة العصرية التي أنشأتها بهذا البلد ظل قائما، بالرغم من المساعي والمحاولات الرامية لتحديث التعليم التقليدي، حيث استمر الجامع الكبير محتفظا بتنظيمه وبرامجه الدراسية، ولم يتجاوز عدد التلاميذ المسلمين المسجلين بالمؤسسات التعليمية العصرية ما بين 1892 و1893 حوالي 3520 تلميذا من بينهم 19 تلميذة في المدارس العمومية والخاصة، في الوقت الذي بلغ عدد التلاميذ اليهود خلال نفس الموسم نسبة مهمة حُددت في 2382 تلميذ يهودي و 2918 تلميذة يهودية[62]، وهذا ما يوضح خلل توازن النظام التعليمي بتونس، إذ سجلت أعداد التلاميذ المسلمين بمدارس الحماية تضاربا في تطورها، لأنها لم تتجاوز 175 تلميذا خلال سنة 1883، ثم 738 تلميذا سنة1885 (منهم ستة بنات) و 4131 تلميذا (منهم 31 تلميذة مسلمة) خلال سنة 1898 على ما مجموعه 16241 طفل في سن التمدرس[63]، لكن سرعان ما سيتراجع عددهم بشكل مستمر إلى حدود سنة 1903 حيث بلغ 2979 تلميذا فقط منهم 52 تلميذة على ما مجموعه 19674 تلميذ[64].

لم تتمكن سلطات الحماية الفرنسية بتونس من تحقيق التوازن بين المسلمين واليهود والأوربيين في سياستها التعليمية، لأنها أعطت الأولوية لأبناء الأوربيين على حساب التونسيين. وانصب اهتمامها بشكل الكبير على المراكز الحضرية الكبرى، الأمر الذي نجم عنه تهميش البوادي والمراكز القروية، بل تم إغلاق بعض المدارس الفرنسية العربية التي كان تلاميذها تونسيون فقط، لتفادي مصاريف اعتبرتها سلطات الحماية بتونس لا طائل منها، فعوضت هذه الأخيرة بفتح أخرى بالمناطق التي يتواجد بها الأجانب والعناصر التونسية التي تم استقطابها من أجل تكريس التبعية وخلق نوع من الاندماج الثقافي بين التونسيين المسلمين و الأوربيين المقيمين بتونس(65).

وهذا ما جعل سلطات الحماية تسقط في نفس ما سقطت فيه بالجزائر، حيث أصبح التعليم الخاص بالتونسيين مهددا، رغم أنه لم يكن بنفس الحدة التي شهدتها بلاد الجزائر، لأن التونسي مهما كانت درجة ارتباطه بدينه فإنه تكيف بسهولة مع متطلبات الحياة، بحيث أنه لم يكن يخشى مخالطة الأوربيين، وتعلم لغتهم، لأن التونسيين تحدوهم الرغبة في التعلم، ولا يهمهم أن يتلقوا ذلك على يد الأجانب(66).

ورغبة في تطوير وتحديث التجربة الرائدة للمدرسة الصديقية، عملت سلطات الحماية الفرنسية في تونس على إدماجها ضمن هياكل تعليمها حيث حولت هذه المؤسسة إلى معهد فرنسي لتكوين النخب التونسية، ففرضت عليها اللغة الفرنسية كلغة للتعليم وكقاعدة أساسية لكل المواد المدرسة عوض اللغة العربية، إلا أن تخوفاتها من انقلاب الوضع ضدها، جعلها تتجه نحو تأسيس ستة معاهد ابتدائية عربية فرنسية لمنافسة المدرسة الصديقية، حتى تفقد هذه الأخيرة شهرتها وإشعاعها المرتبط بتعليمها الثانوي الطموح وتتحول إلى مؤسسة وضيعة ترعى هياكل تعليم عربي فرنسي منقوص، إلا أن ما سيزيد وضعها أزمة هو تفكير سلطات الحماية الفرنسية في ضمها إلى معهد" سان شارل" "Saint-louis" حينما تخلت عنه البعثة الكاثوليكية وأصبح تحت مسؤولية إدارة التعليم العمومي. لكن فشل هذه المحاولة جعل المدرسة الصديقية تتحول إلى معهد ثانوي عربي فرنسي ابتداء من 1875 لتكوين مترجمي وموظفي إدارة الحماية الفرنسية بتونس(67)، فاستقبل المعهد حوالي **105** تلميذا سنويا يتلقون تكوينا سطرته فرنسا، لتذهب بمشاريعه الطموحة كمؤسسة تدرس متطلبات نهضة الأمة الإسلامية(68).

خلاصة:

لا تعتبر التجربتان اللتان عاشتهما فرنسا في مجال التعليم بكل من الجزائر وتونس، سوى محاولتين محتشمتين لإصلاح الوضع التعليمي الذي جعلته صرحا لتمرير سياستها الاستعمارية بالجزائر، وتنفيذ مخططاتها الاستغلالية بتونس، وذلك بالعمل على تكوين نخبة من المتعاونين والوسطاء الذين لولاهم لما تمكنت إدارة الاستعمار والحماية من الاستقرار بكل شمال إفريقيا، فالخطابات والدعايات التي نشرتها الأدبيات الفرنسية، سواء تلك التي أُلقيت في المناسبات الفرنسية الرسمية أو تلك التي وجهت إلى وزارة الخارجية، كانت بعيدة كل البعد عما تقوم به السلطات الممثلة لفرنسا بشمال إفريقيا، لذلك فالتجربة الفرنسية بالجزائر وتونس لم تخرج عن المعتاد، بل هي تكريس لوضع عاشته فرنسا في أول الأمر بالجزائر وارتكبت خلاله أخطاء فادحة، شردت بسببها فئات من المجتمع الجزائري، وحاولت القضاء على هوية الجزائريين بسبب سياسة الاحتواء والإدماج التي رفع شعارها العسكريون في أول الأمر والسياسيون فيما بعد، ثم المستوطنون الذين كانت رغبتهم وهدفهم من المؤسسات التعليمية هو تكوين فئة من العمال، للعمل في ضيعاتهم واستغلالياتهم الزراعية وبمعاملهم التي كانت في أمس الحاجة إلى عمال من هذا الصنف.

أما فيما يخص التجربة التونسية، فقد أخذت هي الأخرى نفس المسار والاتجاه، بحيث أنها لم تتمكن من تجاوز ما ارتُكِب من أخطاء بالجزائر، فنجم عن ذلك تهميش التونسيين والاهتمام بأبناء الأوربيين، بالتركيز على المراكز الحضرية الكبيرة التي عاشت بها أغلبية الجالية الأوربية، التي تجاوزت مطالبها الحد الأقصى بمطالبة سلطات الحماية خلال سنة 1908 بحذف التعليم الابتدائي الأهلي، وتوظيف اعتماداته المالية في تطوير التعليم الفلاحي التطبيقي الذي سيتولى الإشراف عليه المرشدون الفرنسيون.

فكانت النتيجة الأساسية لهذه الإجراءات، استياء فئة من الشباب التونسي المتخرج من مختلف مؤسسات التعليم التي أهلتهم للخوض في هذا الشأن، ارتباطا بحركة النهضة والتطورات التي عرفها المشرق العربي في المرحلة، حيث تمكن هؤلاء الشباب من صياغة برنامج إصلاحي خلال سنة 1907 تقدموا به لإصلاح التعليم التونسي من خلال تطبيق برامج التعليم الابتدائي المعتمدة في فرنسا، مع التأكيد على ضرورة فتح المجال للغة العربية.

لقد كان غياب دراسة سوسيولوجية مسبقة لكل من البلاد الجزائرية والتونسية من أكبر الأخطاء التي ارتكبتها سلطات الاستعمار والحماية الفرنسية بهذين البلدين، فكانت تجربتها نوع من المجازفة والمغامرة، نجم عنها تعثر النظام التعليمي الفرنسي بكل من الجزائر وتونس،

بحيث أنه كان يدور حول محور الإلحاق والإدماج، ثم التبعية لسيادة الدولة الفرنسية بدون منازع، لأن همها لم يكن هو تثقيف المجتمع الجزائري والمجتمع التونسي بل كان هدفها هو تكوين نخبة من المتعاونين مع السلطات الفرنسية لتيسير عملها وإقامتها في ظروف ملائمة طبقا لتوجهات رسمية كان أساسها فرض لغة وحيدة هي الفرنسية وتطبيق مبدأ العلمانية في المؤسسات التعليمية وتطوير المدارس المختلطة ومنح مكانة لدراسة اللغة العربية والحضارة الإسلامية، إلا أن ذلك لم يجنبها فصل المؤسسات التعليمية الثانوية، حيث كانت مدارس فرنسية وإسرائيلية من جهة، ومدارس إسلامية من جهة أخرى، تعبر عن انتقائية المؤسسات التعليمية، وتمييزها بين مختلف المكونات السكانية والدينية للشعبين الجزائري والتونسي.

الهوامش:

[1]- Delassus (A.), **Métropole et colonie, la conquête morale des indigène**, Alger 1913, p.25.

[2]- Ibid., pp. 25-26.

[3] - كان العمل الوحيد الذي أُنجز حول الجزائر قبل تأسيس لجنة شمال إفريقيا للبحث حول الجزائر، هو عمل القنصل الأمريكي ويليام شالر حول: لكننا لم نتمكن من الاطلاع عليه.

: -«Esquisse de l'Etat d'Alger du Consul Général Américain W. Shaler», publié en Anglais en 1826 et Traduit en Français 1830, « Les voyages dans la Régence de Peyssonel et des Fontaines, La Reconnaissances du capitaine Boutin en 1908». Aperçu Historique, statistique et topographique», Imprimé 1830 à l'usage de l'armée expéditionnaire d'Afrique.

[4] -Yves (G.), «Commission d'Afrique, 7 Juillet –12 Décembre 1833», **Acte du 14 ème Congrès des Orientalistes** Alger, 1905, p.547.

[5]- Ibidem.

[6] - Lucas (Ph.) et Vatin (J.C.), **L'Algérie des anthropologues**, Maspéro Paris, 1979, p.11.

[7] - Vermeren (P.), **Ecole, Elite et Pouvoir**, Ed. Alizés Rabat, Février 2002, p.8.

[8] - Service des affaires indigènes du Maroc, Saulay(Jean**), Histoire des Goums Marocains**, La Koumia, Paris ,1985 , T.III, p. 57.

[9]- Paye (L.), **Introduction…**Op. cit., p.140.

[10]- Ibid., p.142.

[11] -Ibid., p.140.

[12] - شاطر (خليفة)، **الاستعمار الفرنسي والثقافة العربية بشمال إفريقيا**، معهد البحوث والدراسات العربية، دار غريب للنشر القاهرة، 1977، ص.388.

[13] -Agéron (Ch.R.), **Politiques Coloniales au Maghreb**, Collection Hier, 1er Ed. Presse Universitaire de France Paris, 1972, p. 183.

[14] - Dellassus (A.), Op. cit., p. 16.

[15]- Ibidem

[16] - شاطر (خليفة)، مرجع سابق، ص 390.

[17]-Paye (L.), **Introduction** Op. cit., p.142.

[18] - شاطر (خليفة)، مرجع سابق، ص.390 .

[19] - نفسه.

[20]- Paye (L.), **Introduction...**Op. cit., p. 142.

[21]- Dellassus (A.),Op. cit., p. 28.

[22]- Paye (L.), **Introduction...** Op. cit., p.142.

[23]- Dellassus (A.), Op. Cit., p. 29.

[24]- Paye (L.), **Introduction...**Op. cit., p. 142.

[25]- Bel (Alfred), « L'enseignement des indigènes musulmans dans les écoles qui leurs sont spéciales», **Compte-Rendu du Congrès de l'Afrique du nord de 1908**, T.II, p. 215.

[26] - Paye (L.), **Introduction...**Op. cit., p. 143.

[27]- Vermeren (P.), Op. cit., p. 8.

[28]- Paye (L.), **Introduction...**Op. cit., p. 146.

[29]- Paye (L.), **Introduction...**Op. cit., p. 146.

[30]- يمتد حكم الجمهورية الثالثة ما بين 1906 و1940 وقد تعاقب على الحكم خلالها أرمون فالبير Armand Falbert (1906-1913) و بول دي شانيل Paul de channel 1920 و ألكسندر ميران Alexander Meyrin (1920-1924) وجاستون دوميرك (1924-1931) وبول دومي Paul Dumey (1931-1932) ثم ألبير لوبران(1932-1940): أنظر في هذا الصدد المعجم الفرنسي الصغير **Petit Robert**.

[31]- Paye (L.), **Introduction...** Op. cit., pp. 147-148.

[32]- Marty (Paul), **Le Maroc ...**.Op. cit., p.115.

[33]- Paye (L.), **Introduction...** Op. cit., p.148.

[34]- Ibid, p. 149.

[35]- مهساس(أحمد)، "التعليم والثقافة بالجزائر خلال العهد الاستعماري"، ضمن كتاب: **الحركة الوطنية الثورية في الجزائر من الحرب العالمية الأولى إلى الثورة المسلحة**، منشورات الذكرى الأربعين للاستقلال، الجزائر، 5 جويلية 2002، ص.401. صفحات المقال 395-419.

[36]- Paye (L.), **Introduction...**Op. cit., p.14.9

37- مهساس(أحمد)، "التعليم والثقافة..."، م. س.، ص.401.

[38]- Ganiage (J.), **Les Affaires d'Afrique du Nord de 1930 à 1958**, Ed. C.U.D., Paris, 1972, p. 13.

[39]- Paye (L.), **Introduction...**Op. cit., p. 151.

[40]- Ganiage (J.), Op.cit., p.13

- انظر كذلك اليزيدي (محمد)، **التعليم بالمغرب على عهد الحماية، مدينة فاس نموذجا 1912-1956**، أطروحة لنيل الدكتوراه في التاريخ المعاصر، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ظهر المهراز – فاس، السنة 2001-2002، ج.1، ص. 28.

[41]- Delassus (A.), Op. cit., p. 32.

[42]- Marty (R.), Op. cit., p. 117.

[43]- Delassus (A.), Op. cit., p.16.

[44]- Vermeren (P.), Op. cit., p.8.

[45]- Saverese (Eric), «Ecole et pouvoir colonial, Retour sur la légitimation de la colonisation», **www. La-Science-politique. Com/revue/revue2/ papier. Htm**, p.2.

[46]- Ibidem.

47- مهساس(أحمد)، "التعليم والثقافة..."، م. س.، ص.401.

48- نفسه، ص. نفسها.

[49]-*Biographie Jules Ferry (1832-1893),* http: //perso. Wanadoo.Fr/ ant-cddp.calmecy/Lexik/julesFerry.htm."*Ferry, Jules", Encyclopédie* Microsoft (R) Encarta (R) 98. (C) 1993-1997 Microsoft corporation.

[50]- "Jules Ferry (1832-1893): un Militant de la République",

http://www2.ac-Toulouse.Fr / éco-Jules-Ferry-Leguevin/biographie.htm , pp.2-3.

[51]-*Biographie Jules Ferry* (1832-1893) ,...Op. cit., p.1.

[52]-Paye (L.), **Introduction...**Op. cit. , p.153, marge (1)

53-Ibid, p.p. 152-153.

[54]-Ibid., p.153, marge (1)

[55]- Ganiage (J.), Op. cit., p.38

[56]- شاطر (خليفة)، مرجع سابق، ص. 399.

[57] -Paye (L), **Introduction...**Op.cit. , p.159.

[58]- شاطر(خليفة)، مرجع سابق، ص. 399

[59] -Paye (L.), **Introduction...** Op. cit., p. 159.

[60]-Lasram (Mohamed), «L'enseignement supérieur musulman à la mosquée de l'Olivier ou grande Mosqué de Tunis», **Compte-Rendu du Congrès de l'Afrique du Nord,** 1908, T. II , p.159

[61]-Paye (L.), **Introduction...**Op.cit., p.155.

[62]-Kheirllah (Ben Mustapha), " L'enseignement primaire des indigènes en Tunisie"**, Compte-Rendu**... Op. cit., pp. 54-55.

[63]-Paye (L.), **Introduction...** Op. cit., p. 159. (Marge 4).

[64] - Paye (L.), Op. cit., p.159. (marge 4).

[65]-Ibidem.

[66]- Paye (L.), Op. cit., p.161 (Marge1)

[67]- Ibid., p. 153-154.

[68]-Vermeren (P.), Op. cit., p. 48.

- هناك تباين بين الإحصائيات التي يقدمها فيرميران ولوسيان باي في أطروحته حول عدد الملتحقين بالثانوية الصديقية سنة 1875 حيث يعطي باي رقما يصل إلى 150 تلميذ عوض 105 التي يقدمها فيرميران في عمله الذي سبقت الإشارة إليه، انظر في هذا الصدد أطروحة باي، ص.155.

[69]- شاطر (خليفة)، مرجع سابق، ص.400.

الكاتب: د.محمود محمد خلف
الجامعة الاسلامية- مينيسوتا
الولايات المتحدة الامريكية

عنوان المقال: الصلات العلمية بين المشرق والمغرب الاسلامي خلال القرون الاربعة الاولى للهجرة-دراسة حضارية في التاثير والتاثر

البريد الالكتروني:mahmoudkhalf141973@gmail.com

تاريخ الارسال: 2020/05/11 تاريخ القبول: 2020/05/29 تاريخ النشر: 2020/06/30

الصِّلَاتُ الْعِلْمِيَّةُ بَيْنَ الْمَشْرِقِ الْإِسْلامِيّ وَالْمَغْرِبِ الْإِسْلامِيّ خِلَالَ الْقُرُونِ الْأَرْبَعَةِ الْأُوْلَى لِلْهِجْرَةِ دِرَاسَةٌ حَضارِيَّةٌ فِي التَّأْثِيرِ وَالتَّأَثُّرِ

East and West during the first four centuries Scientific links between the Islamic of migration A Cultural Study in Mutual Influence

ملخص البحث

يتناول هذا البحث ـ الموجز ـ إلقاء بعض الضوء على الرحلة العلمية بين المشرق الإسلامي والمغرب الإسلامي، تلكم العلاقة التي قامت على التأثير والتأثر بين الجانبين. وقد امتدت هذه العلاقة خلال القرون الأربعة الأولى للهجرة، فكانت تشمل معظم العلوم الإسلامية؛ ومنها علوم القرآن الكريم، وعلم الحديث الشريف، وعلم الفقه، وعلم التاريخ، والتصوف الإسلامي. مكتفيًا بذكر نموذج واحد ـ على الأقل ـ في كل علم من هذه العلوم المذكورة خوف الإطالة.

وقد طبقتُ في هذا البحث المنهج الاستقرائيَّ؛ من خلال جمع الأمثلة والنصوص التاريخية للوصول إلى الحقائق المنطقية؛ المتمثلة في وجود اتصال فكري قوي بين المشرق الإسلامي والمغرب الإسلامي خلال القرون الأربعة الأولى للهجرة.

وقد توصل البحث إلى بعض النتائج من أهمها: أن العلاقات الثقافية بين المشرق الإسلامي والمغرب الإسلامي كانت تقوم على التأثير والتأثر، فكل منهما انتفع بعلم الآخر وأثّر فيه. وهذا يؤكد أن الحركة العلمية لا تعرف الحدودَ المصطنعة بين الأوطان، ويثبتُ أن العلاقات الثقافية بين المشرقين والمغربين قد أثرت في باقي أمصار العالم الإسلامي، ومن ثم فقد شاركت فيها معظمُ البلدان الإسلامية الأخرى.

الكلمات المفتاحية: الرحلة العلمية ـ علم القراءات ـ علم الحديث ـ علم الفقه ـ علم التاريخ ـ علماء التصوف الإسلامي.

Research Summary

This paper discusses a scientific journey, between the Islamic East and West, which is based on the mutual and influence between the two sides. This relationship extended during the first four centuries of migration, and included most of the Islamic sciences such as the science of The Holy Quran, the science of Hadith, the science of jurisprudence, the science of history, and the Islamic mysticism. Due to the fear of prolongation, I have mentioned at least one model in each of these sciences.

In this research, I have applied the inductive method by combining historical examples and texts to reach logical facts that mainly focus on the existence of a strong intellectual connection between the two parts during the first four centuries of migration.

The research has reached some of the most important results: the cultural relations between the Islamic East and West were based on mutual influence as each benefited from the knowledge of the other and influenced it. This confirms that the scientific movement does not acknowledge the artificial boundaries between the homelands, and proves that cultural relations between the Islamic East and the West have influenced the rest of the Islamic world, and therefore were practised in most other Muslim countries.

Key words: the scientific journey - the science of readings - the science of Hadith - the science of jurisprudence - the science of history - the scholars of Islamic mysticism.

المقدمة:

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، والصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى أَشْرَفِ الْمُرْسَلِينَ، وبعد: فإن من أهم ما يميز طلاب العلم في الإسلام، رحلتهم العلمية من بلد إلى بلد، ومن قطر إلى قطر في سبيل طلب العلم، غير مبالين ما يعترضهم من مشقة وفقر، مع ما في السفر إذ ذاك من صعاب.

وكان المُحَدِّثون ـ والحق يقال ـ أنشط الناس لرحيل، وأصبرهم على عناء. وكما رحل علماء اللغة إلى البادية يدونون اللغة والأدب، ورحل الأدباء إلى نواحي الدولة الإسلامية يأخذون عن أدبائها، ورحل طلاب الفلسفة إلى القسطنطينية وغيرها في طلب كتب العلم، كذلك كان شأن الفقهاء الذين رحلوا للأخذ عن علماء مذهبهم. فكانوا يجمعون ما تفرق من الأحكام، وكان باعثهم الديني يذلل كل عقبة، ويسهل كل مشقة.

والواقعُ أن مصر قد شهدت نشاطًا علميًا بارزًا، نهض به علماء مصريون، وصارت مصر مركزًا لاجتذاب العلماء والطلاب من الأقطار المجاورة، من بلاد المغرب والأندلس تارة، ومن بلاد المشرق الإسلامي تارة أخرى.

وسوف أتناول في هذ البحث ـ الموجز ـ رحلة طلاب العلم بين المشرق الإسلامي والمغرب الإسلامي وأثر كل منهما في الآخر. فمما تجدر الإشارة إليه، أن هذه الرحلة لم تقتصر على علِم واحد بل شملت مختلف العلوم الإسلامية، فكان منهم القراء والمُحَدِّثون والفقهاء والمؤرخون، وبل وعلماء الصوفية أيضًا. لنثبت في النهاية أن طلبة العلم في الإسلام كانوا حلقة الوصل الحقيقية بين الأمصار الإسلامية، فأضحت العلاقة بين المشرق والمغرب قائمة على التأثير والتأثر، فكلاهما قد أخذ واستفاد من علم الأخر.

ولا غرابة في ذلك، فالعالم الإسلامي كان حينذاك ـ وما زال ـ يمثل وحدة واحدة في العقيدة واللغة والجنس. وما زال الأمل الأكبر في طلبة العلم لرأب الصدع الذي وقع بالأمة الإسلامية في عصورها الحديثة. فالغرض الرئيس من هذا البحث ـ إذًا ـ هو الدعوة إلى لَم شمل الأمة الإسلامية من خلال علمائها الثقات. فكما كانوا قوة في الماضي فإن فيهم الخيرَ والبركة في الحاضر.

أمَّا عن المنهج؛ فقد اتبع الباحث المنهج الاستقرائيَّ الذي يعتمد على تقصي الجزئيات والقضايا العامة، والدراسة الشاملة؛ من خلال جمع الأمثلة والنصوص التاريخية للوصول إلى الحقائق المنطقية؛ المتمثلة في وجود اتصال فكري قوي بين المشرق الإسلامي والمغرب الإسلامي.

وقد حاولتُ الإيجاز قدر المستطاع، وإلا فالموضع يستحق أن يفرد له مُؤَلفٌ كاملٌ. والحمد لله رب العالمين.

أولًا: علماء القراءات:

كانت العلوم الدينية تحظى باهتمام المسلمين، فقد أقبل الناس على القرآن الكريم يفهمون معانيه، ويفسرون آياته، ويستنبطون منه الأحكام[1] وقد بدأت هذه الحركة في حياة

الرسول (ﷺ) ثم أخذت في الاتساع بعده، وقام أصحابه في الأمصار الإسلامية يعلمون الناس أصول دينهم، ونزل كثير من هؤلاء الصحابة في الأمصار الإسلامية، وتعلم على أيديهم الكثير، بل قل أنشأ كل منهم حركة علمية في البلد الذي أقام فيه، وكان لهم تلاميذ ينقلون عنهم العلم، فتخرج علىهم التابعون ثم مَنْ بعدَهم.

وكان القرآن الكريم أول ما يُبدأ به في طلب العلم، فبعد أن يحفظه الطالب جيدًا، يبدأ بعد ذلك في دراسة العلوم المتعلقة بالقرآن الكريم، وأولها: علم القراءات[2] وهو علم يدور حول كيفية قراءة ألفاظ القرآن الكريم. وقد نشأ بسبب خاصية الخط العربي، إذ أن الرسم الواحد للكلمة الواحدة يُقرأ بأشكال مختلفة تبعًا للنقط فوق الحروف أو تحتها. كما أن تباين لهجات العرب والمسلمين من الشعوب المفتوحة أوجد اختلافًا في النطق بحروف القرآن الكريم.

ثم إن القرآن الكريم يشتمل ـ أصلاً ـ على ألفاظ القبائل العربية المختلفة بما فيها من عدنانية وقحطانية، وإن كانت ألفاظ قريش هي الغالبة، تليها هذيل وكنانة وحِمير وغيرهم من قبائل الجزيرة العربية. ولذلك اتفق بعد البحث والاستقصاء على قراءات معينة، أو ما سمي أيضًا بالتجويد، أُيدت بأحاديث نبوية، وروايات الصحابة والتابعين، وقصد من تنوعها التسهيل.

وقد يكون أساس التنوع أيضًا، بسبب اختلاف القراء في قراءة القرآن الكريم ومصاحف الصحابة قبل أن يصلهم مصحف عثمان بن عفانﷺ الذي كان خاليًا من النقط والشكل، حتى إن عثمان أطلق للناس القراءات على أي حرف وأية لهجة. وقد أصبحت هذه القراءات عِلمًا مدونًا توضع فيه المُصنَّفات، التي ربما صحبها الرسم لأوضاع الحروف، واعتبرت المعرفة بها فرضًا[3].

ومن أقدم القراء الذين جمعوا في رحلتهم العلمية بين المشرق والمغرب، الشيخ محمد بن علي بن محمد التجيبي[4]، كان بارعًا في قراءة ورش المصري[110 - 197 هـ / 728 - 812 م] عن نافع المدني[المتوفى عام: 169هـ /785 م] ، وكان غالب طلابه من بلاد المغرب والأندلس، ومن أشهرهم: أحمد بن محمد الأوريواني[5]. وللأسف، لم تمدنا المصادر التاريخية بمعلومات وافية عنه.

ومن القراء ـ أيضًا ـ الشيخ أحمد بن إسماعيل التجيبي ، الذي تصدر الإقراء بقراءة نافع في مصر[6]، فرحل طلاب هذا العلم من المغرب الإسلامي للأخذ عنه ، والسماع منه ، ومنهم : زكريا بن يحيى الأندلسي، الذي نجح في نشر هذه القراءة في بلاد الأندلس . قال أبو عمرو

الداني:" كان مقرئًا ، متصدرًا ، ضابطًا ، عرض على أحمد بن إسماعيل التجيبي، ولم يكن بالأندلس أضبط منه لقراءة نافع "[7].

صفوة القول: أن القراء كان لهم أثرٌ كبيرٌ ، وخيرٌ وفيرٌ في تعليم الناس علوم القرآن الكريم(علم القراءات) في العالم الإسلامي عامة ، وفي مصر خاصة ، وفي بلاد المغرب والأندلس على وجه أخص ، فقد رحل طلاب العلم إليهم من كافة الأقاليم ليتعلموا منهم، ويأخذون القراءة عرضًا عنهم. وعندما عاد هؤلاء الطلاب إلى أوطانهم تصدروا الإقراء في هذه البلاد، وعن طريقهم دخلت قراءة ورش ـ وما زالت ـ إلي بلاد المغرب والأندلس.

ثانيًا: المُحَدِّثون:

كان المُحَدِّثون ـ والحق يقال ـ أنشط الناس لرحيل، وأصبرهم على عناء. ذلك أن الصحابة عند الفتح الإسلامي تفرقوا في الأمصار، فمنهم مَن سكن فارس، ومَن سكن العراق، ومَن سكن مصر، ومَن سكن الشام؛ وكان هؤلاء يحملون حديثًا عن رسول الله ﷺ أخذه عنهم التابعون ومن بعدهم، فكان في كل مصر طائفة من الحديث لا تعرف في الأمصار الأخرى، فجد العلماء في الرحلة يأخذون الأحاديث عن أهلها، ويجمعون ما تفرق منها، وكان باعثهم الديني يذلل كل عقبة، ويسهل كل مشقة.

عرَّف العلماء علم الحديث بأنه :" كل ما ورد عن الرسول (ﷺ) من قول أو فعل أو تقرير"[8]. وبعد عصر الرسول (ﷺ) ضُم إلى الحديث ما ورد عن الصحابةﷺ، فهم الذين عاشروا الرسول (ﷺ) وسمعوا منه، وشاهدوا أعماله، ثم حدثوا بما رأوا وبما سمعوا. ثم جاء التابعون فعاشروا الصحابة وسمعوا منهم ورأوا ما فعلوا. فكان من الأخبار عن رسول الله(ﷺ) وأصحابه ما عرف باسم " الحديث"[9].

ولستُ هنا بصدد الكلام عن قصة تدوين الحديث[10]، والذي يهمني هنا القول: إن علم الحديث كان له أكبر الأثر في نشر الثقافة في العالم الإسلامي، حيث أقبل الناس عليه يتدارسونه، وكانت حركة الأمصار العلمية تكاد تدور عليه. حيث رحل طلاب العلم إليه من أقصى الدولة الإسلامية، وطوّفوا ببلدان العالم الإسلامي، يأخذون عن علمائهم ومشايخهم. ولا تكاد تقرأ ترجمة أحد من المُحِّدثين إلا وتجد فيها جزءًا كبيرًا من حياته يتضمن رحلته العلمية.

ولا غرابة في ذلك، فلم يكن الرواة في تاريخ الثقافة الإسلامية بالعدد القليل، فإنهم يزيدون على ستين بالمائة من رجال العلم والفكر. وأستطيع القول: إنا لا نكاد نجد " عالمًا" لم يشارك من قريب أو بعيد في حمل الحديث وروايته، فقد كان ذلك فخرًا علميًا لا يهمله إلا الأقلون، وكان لقب" الحافظ" من أجل الألقاب التي يحملها عالم.

إن مصر في عصر الولاة [21 ـ 254هـ/ 641 ـ 868م] قد شهدت نشاطًا علميًا بارزًا، نهض به علماء مصريون وغير مصريين، وصارت مصر مركزًا لاجتذاب العلماء والطلاب من الأقطار المجاورة، ويأتي في مقدمتها بلاد المغرب والأندلس، فأثرت مصر على سكانها في العلوم الدينية، والتي يأتي في مقدمتها علم الحديث.

ومن التابعين المُحَدِّثين: حبيب بن الشهيد القتيري، المعروف بأبي مرزوق التجيبي. كان من أساطين أهل العلم في زمانه، ولا غرابة فقد سمع من فضالة بن عبيد(المتوفى عام: 53 هـ / 673 م)، وحنش الصنعاني(المتوفى عام:100 هـ/ 718 م)، وسهل بن عُلية، والمغيرة بن أبي بردة[11] (المتوفى عام:105 هـ/ 723 م تقريبًا)، وغيرهم.

كانت له رحلة طويلة في طلب العلم، فدخل دمشق وافدًا على الخليفة عمر بن عبد العزيز(61 - 101 هـ/781 - 720 م) ، وسمع منه ، ودارت بينهما مناظرة طويلة فيما يقع من ألفاظ الطلاق[12]. عاد بعد هذه الرحلة إلى مصر، فعمت شهرته الآفاق، فالتف كثير من طلاب العلم حوله للأخذ عنه من أمثال: يزيد بن أبي حبيب(53 - 128 هـ / 673 - 745 م)، وجعفر بن ربيعة، وسالم بن غيلان، وسليمان بن أبي زينب[13]، وقائمة يطول الحديث بذكرها.

لم تطل إقامة حبيب بمصر كثيرًا، ثم خرج إلى برقة ليعلم أبناءها العلم الشرعي، فالتف الناس حوله ـ أيضًا ـ للأخذ عنه ، حتى عُرف بـ:" فقيه أهل المغرب"[14]. قال أحدهم:" كان أبو مرزوق يفتي ببرقة كما يفتي يزيد بن أبي حبيب بمصر"[15].

كان حبيب ثقة، ثبتًا ، ورعًا[16]. روى له أبو داود، وابن ماجة ، وأبو جعفر الطحاوي[17]. توفي ببرقة سنة (109هـ/727م)، وكان له بها عقب[18].

ومن أشهر مَن المُحَدِّثين الذين جمعوا في رحلتهم العلمية بين المشرق والمغرب، الإمام سعيد بن عثمان بن سعيد بن السكن، المكني بأبي علي المصري، المشهور بالبزاز، لعمله في تجارة البز[القماش]. ولد في سنة [294 هـ / 907 م][19] ، وحفظ القرآن الكريم ، ثم رُزق حب الحديث منذ صغره ، فسمع بمصر من محمد بن أيوب الصموت، ومحمد بن زبان، ومحمد بن بشر العكري، وأبا جعفر الطحاوي[20] وغيرهم. ثم طوَّف في بلدان العالم الإسلامي، فدخل

بغداد[21] و واسط [22]، والأبلة، والبصرة ، والكوفة، ودمشق[23]، ونيسابور، ومرو ، وسرخس[24]. ثم عبر نهر جيحون، ليضع أقدامه ببلاد ما وراء النهر، فدخل بخارى في ظل الدولة السامانية[261 ـ 389هـ/ 874 ـ 999م]، وسمع بها " الجامع الصحيح " للإمام البخاري ، برواية محمد بن يوسف الفربري[25] ثم عاد بعد هذه الرحلة الطويلة إلى مسقط رأسه مصر[26].

كانت رحلة ابن السكن إلى بلاد ما وراء النهر رحلة مباركة، أسفرت عن نتائج خطيرة في دراسة علم الحديث ليس في مصر وحدها، بل في بلاد المغرب الإسلامي كله. فقد تعرف المصريون لأول مرة على كتاب " الجامع الصحيح " للإمام البخاري، الذي انفرد ابن السكن بسماعه من الفربري. يقول الذهبي: " سمع ابن السكن صحيح البخاري من محمد بن يوسف الفربري ، فكان أول مَن جلب الصحيح إلى مصر ، وحدث به "[27].

كان من الطبيعي أن يلتف طلاب العلم حول ابن السكن للسماع منه ، خاصة إنه كان " كبير الشأن، مكثرًا ، متقنًا ، مُصَنِّفًا ، بعيد الصيت" كما يقول ابن تغري بردي[28]. يضاف إلى ذلك إنه " جمع ، وجَرَّح ، وعَدَّل ، وصَحَّح ، وعَلَّل"[29]، ورُزق حُسن الصوت وجمال الأداء وقوة الذاكرة. كل هذه المقومات العلمية، جعلت طلاب العلم يلتفون حوله، فكان من أشهرهم: أبو سليمان بن زبر الربعي، وأبو عبد الله بن مَنَده ، وعبد الغني بن سعيد، وعلي ابن الدقاق[30]. بل رحل إليه كثير من طلاب العلم من بلاد المغرب والأندلسي للأخذ عنه؛ يأتي في مقدمتهم: أبو القاسم خلف بن القاسم بن سهل الأندلسي، ومحمد بن أحمد بن محمد بن مفرج الأندلسي، وأبو محمد عبد الله بن محمد الجهني الأندلسي[31]، وعبد الله بن محمد بن أسد القرطبي، والقاضي محمد بن أحمد بن مفرج ، وغيرهم. قال الذهبي:" ولم نرَ تواليفه، هي عند المغاربة، وحديثه يعز وقوعه لنا"[32]، وقال في موضع آخر:" وتلامذته جماعة من الأندلسيين والمصريين"[33]. وهذا يثبت أن ابن السكن كان جسرًا ثقافيًا عبر عليه علم الحديث ـ خاصة صحيح الإمام البخاري ـ من بلاد ما وراء النهر إلى مصر ومنها إلى بلاد المغرب والأندلس.

لم يكتفِ ابن السكن بالتعليم وسماع الطلاب منه ، بل صَنَّف كُتبًا هامة في علوم الحديث المختلفة، ومنها:

أ- كتاب:" الصحيح المنتقى"[34] المعروف بـ " السنن الصحاح " أو" السنن في الحديث"[35]. وهو كتاب محذوف الأسانيد، جعله أبوابًا في جميع ما يحتاج إليه من الأحكام ، فمنه ما صح عنده من السنن المأثورة. قال في مقدمته:" وما ذكرته في كتابي هذا

مجملًا فهو مما أجمعوا على صحته، وما ذكرته بعد ذلك مما يختاره أحد من الأئمة الذين سميتهم، فقد بَنيتُ حجته في قبول ما ذكره ونسبته إلى اختياره دون غيره. وما ذكرته مما ينفرد به أحد من أهل النقل للحديث فقد بَينتُ علته ودللت على انفراده دون غيره "[36].

ب- كتاب:" معرفة أهل النقل"، قال عنه ابن عساكر: " ورأيتُ له جزءًا من كتاب كبير صَنَّفه في معرفة أهل النقل، يدل على توسع في الرواية"[37].

هذا، ويعد الكتاب الأول، أعني " الصحيح المنتقى" أهم كتب ابن السكن على الإطلاق[38] ، ويرجع سبب تأليف هذا الكتاب؛ إلى أن جماعة من شباب المُحَدثين طلبوا منه الاقتصار على كتاب واحد من كتب السُّنَن، فدخل " إلى بيته وأخرج أربع رزم ، ووضع بعضها على بعض، ثم قال: هذه قواعد الإسلام؛ كتاب البخاري، وكتاب مسلم، وكتاب أبي داود، وكتاب النسائي[39]. ثم شرع في تأليف كتابه، رغبة منه في تسهيل علم الحديث على الناس عامة، وشباب المُحَدثين خاصة.

على كل، لقى هذا الكتاب قبولًا عظيمًا عند أهل العلم وخاصة الأندلسيين منهم. لذا قال الذهبي:" وقع كتاب المنتقى الصحيح [هكذا] إلى أهل الأندلس، وهو كبير"[40]. وكان ابن حزم الأندلسي[384 ـ 456 هـ / 995 ـ 1063م] يثني على هذا المُصَنَّف[41]. وهذه شهادة لها ثقلها، خاصة إذا صدرت من مثل ابن حزم.

صفوة القول، أن ابن السكن، المصري المنشأ، رحل إلى بلاد ما وراء النهر ثم عاد إلى مصر، وأهدى إلى طلابها كتاب " الجامع الصحيح " للإمام البخاري. هذا الكتاب الذي ظل مجالاً للبحث والتأليف عدة قرون، بل عبر من مصر إلى بلاد المغرب والأندلس. ولا غرابة ، فقد كان ابن السكن " حجة في علم الحديث " كما قال أحد المؤرخين[42].

توفى ـ رحمه الله تعالى ـ في المحرم سنة [353 هـ / 964 م] ودفن بالقرافة الصغرى بجبل المقطم[43] في أرض مصر التي عاش فيها ، ونشر علمه بين أهلها ، فأعطته الشهرة والثقة.

ثالثًا: فقهاء المالكية:

المالكية: نسبة إلى مالك بن أنس بن مالك الأصبحي، أحد الأئمة الأربعة عند أهل السُّنَّة. كان مولده ووفاته بالمدينة [93 ـ 179 هـ / 712 ـ 795 م][44]. انتشر مذهبه بين أهل المغرب والأندلس[45]. أما في بلاد المشرق فلم يظهر بها أحد ممن ينشر مذهبه ويتفقه به، وذلك لإقامة كثير من تلاميذه بمصر وتونس ، وسرى هذا المذهب منهما إلى كل البقاع في غرب أفريقيا[46].

كان لمصر اتصالٌ قويٌ بالحجاز منذ الفتح الإسلامي، لأن الحجاز كان مركز الخلافة أيام الخلفاء الراشدين، ثم دام الاتصال بالرحلة إلي الحج ، وزيارة المسجد النبوي. فمن ثم كان مذهب الإمام مالك أول ما صادف المصريون من تلك المذاهب فأقبلوا عليه ولم يكونوا يعرفون غيره. وذلك على عكس المشرق الإسلامي، الذي كان اتصاله بمركز الخلافة ببغداد، ومن المعروف أن بغداد كانت مركز المذهب الحنفي، ومن ثم فقد عملوا على نشر المذهب الحنفي في العراق والأمصار القريبة منه مثل خراسان وما وراء النهر.

من أشهر فقهاء المالكية في مصر خلال عصر الولاة، أحمد بن موسى بن مخلد الغافقي: ولد سنة(207هـ/ 822م) بالفسطاط ، وحفظ القرآن الكريم صغيرًا، ثم رحل في طلب العلم إلى بلاد المغرب العربي، فنزل بمدينة القيروان[47]، وأقام بها فترة ليست بالقصيرة، لازم فيها الإمام سحنون بن سعيد(160 - 240 هـ / 777 - 854 م) حتى صار من أخص تلامذته. كما سمع من أقرانه من أمثال: عبد العزيز بن يحيى المدني، وهارون بن سعيد الأيلي، وأبي إسحاق البرقي، وغيرهم[48].

انتفع أحمد بما سمع من العلم، فكان زاهدًا ، ورعًا، متعبدًا، فاضلاً ، ثم صار مضرب المثل بين أقرانه ، مما جعل طلاب العلم يرحلون إليه من الآفاق للأخذ عنه ، ومنهم: أبو القاسم بن تمام، وعبد الله بن مسرور، ومحمد بن يونس السدري، ولقمان بن يوسف. ويطول بي المقام لو ذكرت جميع تلامذته، وأكتفي بما قاله القاضي عياض:" وتلامذته غير واحد من الأجلة ، وعالم كثير"[49].

ومن الجدير بالذكر، أن الإمام أحمد عُرِض عليه القضاء ، فأبى خوفًا من أن يظلم أحدًا، أو يميل بفتواه إلى الولاة، ولكنه اكتفى بالتعليم، فسطع نجمه في سماء العلم، وذاع صيته بين الفقهاء، حتى قال ابن فرحون عنه:" كان فقيهًا، عالمًا، ثبتًا، ضابطًا، حسن التقييد"[50].

وعلى الرغم من كل هذا العلم الذي حصله الإمام أحمد، لم يترك لنا مُصَنَّفًا واحدًا يحمل اسمه. ولكن ذكرت لنا كتب طبقات المالكية كثيرًا من المسائل الفقهية التي وجهت إليه من بعض تلامذته، نلمح فيها زهده و ورعه وشفقته على الناس، مع القطع في الإجابة، والتعبير بأقل الألفاظ التي تصل إلى مسامع السائلين، مع وضوح المعنى، وجزالة الأسلوب، وسهولة العبارة.

ظل الإمام أحمد الغافقي يعلم الناس في مسجد القيروان أمور دينهم، حتى توفي ـ رحمه الله تعالى ـ سنة(275هـ/ 888 م)، ودفن بالقيروان[51].

صفوة القول: أن الفقيه أحمد الغافقي كان له قصب السبق في الرحلة لطلب العلم وعن طريقه انتقل فقه المالكية إلى بلاد المغرب والأندلس.

رابعًا: المؤرخون:

كان بجانب الحركة الدينية ـ التي ظهرت في أعقاب الفتح الإسلامي ـ لمصر حركة تعني بتدوين أحداث التاريخ ، وتسلك في منهجها مسلك المحدثين. فقد كان علم التاريخ عند المسلمين يهدف في البداية إلى دراسة سيرة النبيﷺ وأعمال الصحابةﷺ والجماعة الإسلامية الناشئة وأخبار الغزوات والجهاد. وهكذا نرى أن طبيعة علم التاريخ لم تكن تختلف أولاً عن طبيعة علم الحديث، اللهم إلا في هدف كل منهما، ونوع الروايات التي يعنى بها، فالمحدثون يعنون بالروايات التي تقرر مبادئ فقهية. بينما يعني المؤرخون بالروايات التي تتجه إلى سرد الحوادث. وحسبنا دليلاً على اشتراك العِلْمين في المصادر والمنهج؛ أن كل جيل كان يأخذ الروايات عن الجيل الذي سبقه، وأن المتن في كل رواية كان مسبوقًا بالسند أو الإسناد. ولذلك نرى أن منهم مَنْ تخصص في التاريخ إلى جانب دراسته في الحديث أو الفقه[52].

وعلى ذلك فإننا نستطيع أن نميز بين ثلاثة أنواع من الروايات التاريخية، التي ظهرت خلال تلك المرحلة، وهي: التاريخ السياسي، وفن القصص، وفن السير. ولا يعني ذلك انفصال المادة العلمية بين الأقسام الثلاثة انفصالاً تامًا كما هو معروف حاليًا. ولكنه يعد بداية لهذا النوع من الكتابات التاريخية التي ظهرت فيما بعد.

ومِن أقدم مَن اشتغل بالكتابة التاريخية، خالد بن أبي عمران التجيبي، الذي اشتغل في بداية حياته بعلم الحديث، فخرج في رحلة طويلة سمع فيها من أساطين أهل العلم في زمانه ـ خاصة آل عمر بن الخطاب ـ ، فسمع عبد الله بن عمر، وسالم ابنه، ونافع مولاه. كما روى عن عروة بن الزبير، وحنش الصنعاني، والقاسم بن محمد، وعكرمة مولى ابن عباس[53]، وغيرهم.

وهي قائمة كبيرة ولاشك ، فكل واحد من هؤلاء الأعلام يمثل مدرسة علمية قائمة بذاتها، وتدل ـ في نفس الوقت ـ على مدى سعة علم خالد، واجتهاده فيمن يأخذ عنه هذا العلم.

عاد خالد إلى الفسطاط وقد جمع علم هؤلاء الأعلام الكبار الثقات ، المشهورين بالرواية في علم الحديث والتاريخ. فكان من الطبيعي أن يلتف طلاب العلم حوله للأخذ عنه، والسماع منه، خاصة وقد انفرد بالرواية عن آل الخطاب. فسمع منه كثير من الطلاب ؛ الذين

صاروا أعلام بعد ذلك ، من أمثال : يحي بن سعيد الأنصاري، والليث بن سعد، وعبد الله بن لهيعة، وعبد القاهر بن عبد الله [54]، وقائمة كبيرة يطول الحديث بذكرهم.

هكذا ، أصبح خالد التجيبي علمًا من أعلام المدرسة المصرية في علم الحديث والتاريخ، فأثنى عليه علماء الجرح والتعديل، بقولهم:" ثبت، ثقة"[55].

وبالرغم من كل هذه الشهرة التي حققها الإمام خالد في مصر، إلا أنه عنَّ له[56] السفر إلى إفريقية[57] لينشر علمه في ربوع تلك البلاد ؛ التي كانت في حاجة شديدة إليه ، فالتف الناس حوله، ينهلون من خُلقه قبل علمه. وبعد فترة قليلة ولى منصب القضاء، فحمدت سيرته، وأثنى عليه الناس ، حتى صار يلقب بـ"فقيه إفريقية، ومفتي مصر والمغرب"[58].

ونظرًا لهذه المكانة التي وصل إليها فقد روى له أصحاب السُّنَّن[59]. وبعد رحلة طويلة من العطاء، والعيش في رحاب العلم ، رحل الإمام سنة(125هـ / 742م) وقيل: سنة(129هـ /746م) ودفن بإفريقية[60] التي صارت سكنًا ومستقرًا له في آخر عمره.

ومما يجب علينا ذكره، الإشارة إلي الجانب التاريخي في حياة الإمام خالد بن أبي عمران التجيبي، والمتمثلة في المرويات التاريخية التي حفظتها لنا بعض المصادر التاريخية ، والتي يمكن تقسيمها كالتالي:

1. فيما يتعلق بحضارات الشعوب القديمة، فقد وصلنا خبر واحد عن قصة مدينة إرم ذات العماد[61] ، وصلتنا عن طريق ابن لهيعة ، عن خالد التجيبي عن وهب بن منبه[62].

2. الروايات المتعلقة بالسيرة النبوية ـ وهي أكبرها ـ ومعظمها يدور حول ميلاد النبي(ﷺ)، وبعثته[63]، وتفاصيل فتح خيبر، وتقسيم الغنائم[64]، والدعاء المأثور عنه(ﷺ) في ختام المجلس[65]، وتاريخ وفاته ..... إلخ.

3. الروايات المتعلقة بعصر الخلفاء الراشدين ، ومن عاصرهم من الصحابة. ومنها تفاصيل معركة " ذات الصواري"[66]، وأخبار عبدالله بن عمر وكيفية حجه لبيت الله الحرام[67] ، وعبد الله بن الزبير[68]، وعتبة بن غزوان السلمي ، وجهاده مع النبي(ﷺ)[69]، وعبدالله بن سلام[70].

4. أما فيما يتعلق بأخبار الدولة الأموية ، فلم يَذْكر إلا خبرًا واحدًا ، ونصه: " عن ابن لهيعة عن خالد بن أبي عمران عن حذيفة بن اليمان ، قال: يكون بعد عثمان اثنا عشر ملكًا من بني أمية ، قيل له: خلفاء، قال: لا بل ملوك"[71].

صفوة القول، أن خالد بن أبي عمران قد اشتغل إلى جانب علم الحديث بعلم التاريخ الإسلامي، وأصبح علمًا من أعلام المدرسة المصرية في هذا المجال، وأن السيرة النبوية قد شغلت الجزء الأكبر من مروياته التاريخية. ولا غرابة في ذلك فهو تلميذ عروة بن الزبير[72] ؛ المؤسس الحقيقي لمدرسة المغازي والسير. وقد وصلتنا معظم هذه الأخبار عن طريق أشهر تلامذته ابن لهيعة ، والذي يعد من عماد المدرسة التاريخية المصرية لمن جاء بعده ، كالمقريزي والسيوطي وابن تغري بردي، وغيرهم.

ومن المؤرخين ـ أيضًا ـ حيي بن هانئ بن ناضر، أبو قُبَيل المعافري المصري(المتوفى عام:128هـ / 746م): نشأ باليمن، وكان صغيرًا يوم مقتل عثمان بن عفانﷺ [35هـ/ 656م] ، ثم قدم إلى مصر في خلافة معاوية بن أبي سفيانﷺ[73]، وشارك في غزو جزيرة رودس مع جنادة بن أبي أمية، والمغرب مع حسان بن النعمان[74]، ثم استقر بمصر. سمع مجموعة كبيرة من أعلام الصحابة؛ منهم: أبو عثمان الأصبحي، نزيل مصر[75]. والسائب الغِفْاري، صحابي نزل مصر وعاش فيها[76]. وعبيد بن مخمر المعافري، يكنى أبا أمية؛ قال ابن يونس:" له صحبة وشهد فتح مصر"[77]. ومسلمة بن مُخَلد الأنصاري الخزرجي[78]، وغيرهم. ومَن يُمعن النظر في قائمة شيوخ أبي قُبَيل نجدها قد ضمت كثير من الصحابة الذي شاركوا في فتح مصر، وكانوا المصدر الأول له في رواية هذه الأحداث.

هذا، وقد حظى أبو قُبَيل بثقة العلماء، قال أحمد بن حنبل، ويحيى بن معين، وأبو زرعة:" ثقة"[79]. وقال أبو حاتم: "صالح الحديث"[80]، وقال السيوطي:" وكان له علم بالملاحم والفتن"[81]. توفى بالبرلس[82]. روى له البخاري في أفعال العباد، وأبو داود ، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه. وكان شجاعًا دينًا متواضعًا، يخرج إلى السوق يلي شراء حاجته بنفسه[83].

تتلمذ أبو قبُيْل على يد عبدالله بن عمرو بن العاص، وانفرد بروايات الملاحم والفتن حتى صار رأس المدرسة المصرية في هذا النوع من الكتابة التاريخية، واستمرت مدرسته في مصر ـ كما يقول الدكتور شاكر مصطفى ـ من بعده أكثر من قرنين[84]. والمرويات التي نقلها ابن عبد الحكم عنه قد تكون مأخوذة من كتابه المفقود المسمى" فتوح مصر"[85].

خامسًا: علماء الصوفية:

إن علم التصوف الإسلامي نشأ في كنف العلوم الدينية، ولكنه اختص بجانب الأخلاق والسلوك. يقول العلامة ابن خلدون:" علم التصوف من العلوم الشرعية الحادثة في

الملة، وأصله عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم طريق الحق والهداية وأصلها العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى والإعراض عن زخارف الدنيا وزينتها"[86]، فالتصوف أساسه الخُلق، لأن الأخلاق هي روح الإسلام. قال ابن قيم الجوزية:" اجتمعت كلمة الناطقين في هذا العلم على أن التصوف هو الخُلق"[87]، ويقول الكتاني:" التصوف خُلق ، فمن زاد عليك في الخُلق، زاد عليك في الصفاء "[88].

ومن أشهر أقطاب الصوفية الذين جمعوا في رحلتهم بين المشرق والمغرب، على بن بندار بن الحسيني، المكني بـ" أبي الحسين ـ وقيل أبي الحسن ـ الصيرفي"[89]، أصله من نيسابور. رُزق منذ صغره ـ كما يقول السُّلمي في طبقاته[90] ـ بمحبة المشايخ وصحبتهم، فسمع ببلده : سعيد بن إسماعيل الحيري، ثم عنت له الرحلة للأخذ عن العلماء، فطوف بإقليم خراسان، فسمع ببلخ: محمد بن حامد البلخي، ومحمد بن محمود بن أبي مطيع البلخي. وبمرو: سمع من قطبها يوسف بن موسى. وبالجوزجان: أخذ عن أبي علي الجوزجاني، وأبي العباس بن عطاء، وأبي محمد الجريري[91]، ولم يمكث في بوشنج طويلاً، فقد رحل عنها بعد أن سمع من شيخها أبي عبد الله البوشنجي[92]. ثم دخل الري: وأخذ من علمائها، ومن أشهرهم: يوسف بن الحسين[93].

وبعد هذه الرحلة الطويلة في إقليم خراسان والري، كان من الطبيعي أن يرحل على بن بندار إلى بلاد ما وراء النهر، التي ذاع صيتها في عالم التصوف خاصة بعد أن برز فيها أقطاب الصوفية الكبار؛ من أمثال : الحكيم الترمذي [محمد بن علي بن الحسن، المتوفى في عام: 175 هـ / 791 م]، وأبي تراب النخشبي [المتوفى في عام: 245 هـ / 859 م]، والحسين بن منصور الحلاج [المتوفى في عام: 309 هـ / 921 م]، وأبي بكر الشبلي [دُلف بن جحدر، المتوفى في عام: 334 هـ / 945 م]، وغيرهم من الأعلام الذين كانت لهم بصماتهم الواضحة في علم التصوف الإسلامي، والتي لا يستطيع أحد إنكارها.

على كل حال، دخل علي بن بندار بلاد ما وراء النهر مُتعلمًا، فأخذ عن أقطابها، من أمثال: محمد بن الفضل السمرقندي، وعمر بن محمد بن بَجير السمرقندي[94]. وفي بخارى سمع من عالِمها أبي سعيد حاتم بن محمد البخاري، كما زار مدينة ترمذ[95]، التي أخرجت لنا أقطاب الصوفية الكبار، وسمع من محمد بن أحمد بن يحيى الترمذي[96]، وغيره من أعلام هذه المدينة.

وبعد هذه الجولة التي ليست بالقليلة، واصل علي بن بندار رحلته، ولكن في هذه المرة كانت إلى حاضرة الدنيا مدينة بغداد، فسمع من القطب الأوحد، ذائع الصيت في زمانه؛ الإمام الجُنْيد البغدادي [المتوفى في عام: 297 هـ / 909 م] الذي قال عنه أبو العباس بن عطاء: " إمامنا في هذا العلم [التصوف] ومرجعنا والمقتدى به؛ الجُنْيد"[97]، كما أخذ عن رويم بن أحمد، وسمنون المحب، وأبي العباس بن عطاء، وأبي محمد الجريري[98]، وغيرهم .

ومن بغداد رحل علي بن بندار إلى بلاد الشام، فدخل دمشق وسمع بها أبا عمر الدمشقي، وطاهر المقدسي، وأبا الحسن بن جوصا، وأبا عبد الله بن أحمد بن يحيى الجلاء[99]. ثم توجه إلى حلب فسمع من قطبها عبد الرحمن بن عبد الله الهاشمي الحلبي، وفي أنطاكية أخذ عن الفضل بن الحارث الأنطاكي، ووصيف ابن عبد الله الحافظ الأنطاكي. ثم تحول إلى طرسوس وسمع من محمد بن علي بن سعيد المركب الطرسوسي[100]، وغيرهم.

بعد هذه الرحلة الطويلة، أصبح من الضروري أن يتوجه علي بن بندار إلى مصر، التي كانت لا تقل شهرة في عالم التصوف ـ إن لم تزد ـ عن بغداد، وعن بلاد ما وراء النهر. وكأنه أراد أن يجمع في رحلته بين شيوخ بلاد ما وراء النهر وشيوخ مصر. وعلى كل، فقد سمع من أبي بكر الدقاق[101]، وأبي علي الروذباري، وأبي بكر المصري[102]، وغيرهم من أعلام التصوف المصري.

هكذا، رأينا على بن بندار الصيرفي، يرحل من المشرق إلى المغرب مطوَّفًا بمعظم الأمصار الإسلامية، متحملاً مشاق الرحلة وطول المسافة. ولكن هذا لا يمنع أن الرجل قد أجهد نفسه في لقاء المشايخ والأخذ عن أقطاب الصوفية في زمانه. قال عنه صاحب طبقات الأولياء: " ورُزق من رؤية المشايخ وصحبتهم ما لم يرزق غيره"[103].

وكأني بالشيخ علي بن بندار قد نحا منحى جديدًا في عالم التصوف، مؤداه إنه لابد من الرحلة للأخذ عن مشايخ الصوفية وأقطابها ـ وذلك على غرار ما كان يفعله المُحَدِّثون ـ ولا غرابة في ذلك، لأن الشيخ علي بن بندار قد بدأ حياته محدثًا. قال صاحب " طبقات الصوفية ": " كتبَ الحديث الكثير، ورواه ، وكان ثقة "[104]. وقال الجامي : " كان كثير الحفظ للحديث، وفقْه فيه"[105]. بل يحدثنا عن نفسه:" إنه عندما دخل دمشق للأخذ عن شيخه الصوفي أبي عبد الله بن الجلاء، تأخر عنه ثلاثة أيام، وعندما سأله عن سبب التأخير، قال:" ذهبت إلى ابن جوصا[106][المحدث] ، وكتبتُ عنه الحديث "[107] فقال الشيخ : شغلتك السُّنة عن الفريضة"[108]. قال الشيخ الهروي معلقًا على هذا الكلام: " رؤية المشايخ فرائض القوم، لأنهم في رؤيتهم يجدون شيئًا لا يجدونه في غيرهم"[109].

وهكذا ، يتضح لنا أن الشيخ علي بن بندار ، كان يشغله علم الحديث وطلبه والأخذ عن المحدثين. قال ابن عساكر: " وكان من الثقات في الرواية، وعقد المجلس يملي سنين"[110]. وقال عنه الحاكم أبو عبد الله النيسابوري:" من الثقات في الرواية وأملى مدة "[111].

ومن لطيف كلامه: " فساد القلوب على حسب فساد الزمان وأهله"[112] وقال:" دار [الدنيا] أُسست على البلوى، بلا بلوى محال"[113]. وعرف الصوفية بأنها: " إسقاط رؤية الخلق ظاهرًا وباطنًا"[114].

خلاصة القول: إن الشيخ علي بن بندار بدأ حياته محدثًا، وانتهى به الحال صوفيًا، جمع في رحلته بين بلاد المشرق والمغرب. وأدعى أنه واضع حجر الأساس للصوفية للرحلة للأخذ عن أقطابهم.

ذاع صيت ابن بندار في العالم الإسلامي، بصفته قطب من أقطاب التصوف، فرحل إليه الطلاب للأخذ عنه، ومن أشهرهم: سعيد بن عبد الله بن أبي عثمان، وأبو نصر الطوسي، وأبو عبد الرحمن السّلمي، والحاكم أبو عبد الله الحافظ النيسابوري، وأبو جعفر كامل بن أحمد العزائمي[115]، وأبو سعيد عبد الملك بن محمد بن إبراهيم الواعظ ، وأبو يعلي حمزة بن عبد العزيز المهلبي، وابنه : أبو القاسم محمد بن علي[116]، وغيرهم.

مع عظيم جهد علي بن بندار، وطول رحلته وكثرة شيوخه الذين سمع منهم، إلا أنه لم يترك لنا مُصَنَّفًا يحمل اسمه حتى نقف على أفكاره. توفى ـ رحمه الله تعالى ـ عام [359هـ/969 م](117)، وقيل: سنة [357 هـ / 967 م][118].

الخاتمة وأهم نتائج البحث

ختامًا، هناك عدة نتائج مهمة توصل إليها هذا البحث، أُوجزها فيما يلي:

أولًا: أثبت البحث أن الرحلة العلمية بين المشرق الإسلامي والمغرب الإسلامي، كانت قديمة تضرب بجذورها في أعماق التاريخ الإسلامي. فقد بدأت هذه العلاقة ـ وما زالت ـ منذ الفتح الإسلامي لهذه الأقطار حتى القرن الرابع الهجري.

ثانيًا: أثبت البحث ـ بما لا يدع مجالًا للشك ـ أن الرحلة العلمية ـ لطلاب العلم ـ بين المشرق الإسلامي والمغرب الإسلامي، لم تقتصر على علم واحد بل شملت علومًا عدة، فكان منها: القراء، والمحدثون، والفقهاء، والمؤرخون، بل والمتصوفة أيضًا. وكان طلاب العلم يرحلون من المشرق إلى المغرب ـ والعكس ـ في سهولة ويسر. باعثهم الديني وحبهم لنشر العلم كان الدافع

الرئيس لهم في تحمل كل هذه الصعاب، مع ما كانت تقدمه الحكومات الإسلامية ـ حينذاك ـ من خدمات عامة مثل تمهيد الطرق وتوفير سبل الراحة للمسافرين.

ثالثًا: أن مصر ـ بحكم موقعها الجغرافي، والحق يقال: ـ كانت حلقة الوصل الحقيقية بين المشرق الإسلامي والمغرب الإسلامي؛ مما أدى إلى ازدهار الحركة العلمية بها. فقلما تجد طالب علم كانت له رحلة علمية من المغرب إلى المشرق إلا ودخل مصر وأخذ عن علمائها وشيوخها. ولا غرابة في ذلك فإن بعض الجغرافيين العرب قد صنف مصر ضمن بلاد المغرب الإسلامي.

رابعًا: إن كان المشرق الإسلامي قد أهدى إلى المغرب الإسلامي قراءة ورش المصري عن نافع المدني، فإن المغرب الإسلامي قد حافظ على هذه الهدية الثمينة. ودليل ذلك، أنه ما زال يُقرأ بها في بلاد المغرب العربي، بل ويتصدر أهلُه الإقراءَ بها في مختلف أنحاء العالم الإسلامي.

خامسًا: إن كان المشرق الإسلامي قد أسدى للأمة الإسلامية معروفًا، بظهور كتاب:" الصحيح المنتقى" في الحديث النبوي لابن السكن المصري، فإن كل الفضل يرجع لأهل المغرب الإسلامي في تدريس هذا الكتاب وتعليمه لفترات طويلة، وبذلك حافظت على هذا الكنز الثمين من الضياع، وذلك بشهادة علماء المشرق الإسلامي أنفسهم.

سادسًا ـ وأخيرًا ـ : أثبت البحث أن كلا من المشرقين والمغربين قد حافظ على تراث الأمة الإسلامية من الضياع وخاصة في علمي الفقه المالكي والتصوف الإسلامي. فإن كانت نشأة كلا العلِمين مشرقة، فإن المحافظة والحفظ والانتشار كانت ـ وما زالت ـ مغربية، وفي كلٍ خيرٌ.

قائمة المصادر والمراجع

أولًا: المصادر العربية:

1. البغدادي:(عبد المؤمن بن عبد الحق، الحنبلي، المتوفى عام: 739هـ/ 1338م): مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، الطبعة: الأولى، دار الجيل، بيروت، 1412 هـ/1991م.
2. ابن تغري بردي: (أبو المحاسن يوسف الأتابكي، المتوفى عام: 874هـ / 1469م): النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، الطبعة: الأولى، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة،2007م.
3. الجامي:(أبو البركات عبد الرحمن الجامي، المتوفى عام: 898هـ / 1492م): نفحات الأنس من حضرات القدس، نقله عن الفارسية: تاج الدين محمد بن زكريا بن سلطان القرشي، الطبعة: الأولى، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، 2010م.

4. ابن الجزري:(محمد بن محمد بن محمد بن علي الدمشقي، المتوفى عام: 833هـ/ 1429م): غاية النهاية في طبقات القراء، تحقيق: برجستراسر، الطبعة: الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، 2006م.
5. ابن الجوزي: (عبد الرحمن بن على بن محمد بن على البغدادي، المتوفى عام:597هـ/1201م): المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، تحقيق: محمد عبد القادر عطا،، الطبعة: الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت 1412هـ / 1992م.
6. ابن حجر:(أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، المتوفى عام: 853هـ/ 1449م): تهذيب التهذيب، الطبعة: الأولى، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت، 1404 هـ / 1984 م .
7. الحِميري :(محمد بن عبد المنعم الصنهاجي، المتوفى عام: 900 هـ/ 1495 م): الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: د. إحسان عباس، الطبعة: الثانية، مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت، 1980 م.
8. الخطيب البغدادي:(أبو بكر أحمد بن ثابت، المتوفى عام: 463هـ /1037م): تاريخ بغداد، تحقيق: د. بشار عواد معروف، الطبعة: الأولى، دار الغرب الإسلامي، بيروت،1422 هـ /2001 م.
9. ابن خلدون :(عبد الرحمن بن خلدون، المتوفى عام: 808هـ / 1405م): المقدمة، تحقيق: علي عبد الواحد وافي، الطبعة: الأولى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2006م.
10. ابن خلكان: (أحمد بن محمد بن إبراهيم، المتوفى عام: 681هـ / 1383م): وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: د. مريم قاسم طويل، وآخرين، الطبعة: الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، 1998م.
11. الذهبي: (شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، المتوفى عام: 748هـ / 1348م): تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، الطبعة: الثانية، دار الكتاب الإسلامي، بيروت، 1413هـ/1993م.
12. .....: تذكرة الحفاظ، تحقيق: زكريا عميرات، الطبعة: الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، 1419هـ/ 1998م.
13. .....: سير أعلام النبلاء، تحقيق: الشيخ شعيب الأرناؤوط، الطبعة: الثالثة ، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1405 هـ / 1985 م.

14. .....: العبر في خبر مَن غبر، تحقيق: محمد السعيد بن بسيوني زغلول، الطبعة: الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، (بدون. تاريخ).
15. السُّلمي:(محمد بن الحسين بن محمد بن موسى النيسابوري، المتوفى عام: 412هـ / 1021م): طبقات الصوفية، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولى، بيروت، 1419هـ/ 1998م.
16. السمعاني: (عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي، المتوفى عام: 562هـ / 1166م): الأنساب، تحقيق: عبد الله عمر البارودي، دار الكتب العلمية، بيروت،1408هـ / 1988م.
17. السيوطي: (جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، المتوفى عام: 911هـ/1505م): حُسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة: الأولى، دار الفكر العربي، القاهرة،1418هـ / 1988م.
18. الصفدي: (صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله، المتوفى عام: 764هـ / 1362م): الوافي بالوافيات، تحقيق: أحمد الأرناؤوط، الطبعة: الأولى، دار إحياء التراث، بيروت، 1420هـ/ 2000م.
19. ابن عبد الحكم: (المتوفى عام: 257هـ / 871م): فتوح مصر والمغرب، تحقيق: عبد المنعم عامر، الطبعة: الأولى، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة،1999م.
20. ابن عذارى المراكشي:(المتوفى نحو: 695 هـ / نحو 1295 م) البيان المُغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق: كولان، وليفي بروفنسال، الطبعة: الرابعة، دار الثقافة، بيروت، 1983م.
21. ابن عساكر:(علي بن الحسن بن عبد الله الشافعي، المتوفى عام: 571هـ/ 1125م): تاريخ مدينة دمشق، تحقيق: علي شيري، الطبعة: الأولى، دار الفكر، بيروت، 1419هـ/ 1998م.
22. ابن العماد: (عبد الحي بن أحمد بن محمد، المتوفى عام: 1089هـ/ 1678م): شذرات الذهب في أخبار مَن ذهب، تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط، وآخر، الطبعة: الأولى، دار ابن كثير، دمشق، 1406هـ /1985م.
23. الفاكهي:(محمد بن إسحاق المكي، المتوفى عام: 353 هـ /964 م): أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه، تحقيق: د. عبد الملك بن عبد الله دهيش، الطبعة: الثانية، دار خضر للطباعة والنشر، بيروت، 1414هـ/ 1994م.

24. القشيري:(أبو القاسم القشيري النيسابوري، المتوفى عام: 465 هـ /1073م): الرسالة القشيرية، تحقيق: د. عبد الحليم محمود، مؤسسة دار الشعب، القاهرة، 1409هـ / 1989 م.
25. ابن كثير:(عماد الدين إسماعيل بن عمر الدمشقي، المتوفى عام: 776هـ/ 1364 م): البداية والنهاية، تحقيق: علي شيري، الطبعة: الأولى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1408هـ / 1988م.
26. ابن ماكولا: (علي بن هبة الله بن أبي نصر، المتوفى عام: 475هـ/ 1082م): الإكمال في رفع الارتياب عن المؤتلف والمختلف في الأسماء والكنى، الطبعة: الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، 1411هـ/ 1990م.
27. المقريزي: (تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي، المتوفى عام: 845 هـ /1141م): المقفى الكبير، تحقيق: محمد اليعلاوي، الطبعة الأولى، دار الغرب الإسلامي، بيروت،1411 هـ/ 1991م.
28. ياقوت الحموي:(شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي، المتوفى عام: 626هـ / 1229م): معجم البلدان، الطبعة: الأولى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1997م.

ثانيًا: المراجع العربية:

29. أحمد أمين: فجر الإسلام، الطبعة: الأولى، النهضة المصرية، القاهرة، 1964م.
30. .....: ضحى الإسلام، الطبعة: الأولى، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، 2002م
31. إسماعيل البغدادي:(باشا): هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، وكالة المعارف، استانبول، 1955م.
32. حاجي خليفة(مصطفى بن عبد الله): كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، [بدون ـ تاريخ].
33. الزركلي(خير الدين): الأعلام، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، الطبعة : الخامسة، دار العلم للملايين، بيروت،1980م.
34. عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين ـ تراجم مصنفي الكتب العربية، دار إحياء التراث العربي، بيروت، [بدون ـ تاريخ].
35. فؤاد سزكين: (دكتور): تاريخ التراث العربي، ترجمة: د. محمود فهمي حجازي وآخرون، جامعة الإمام محمد بن سعود، الرياض، 1311هـ/ 1991م.

36. محمود محمد خلف:(دكتور): الفتح الإسلامي لبلاد ما وراء النهر، بين حقائق المؤرخين وأوهام المستشرقين، دار المعارف، القاهرة، 2015م.
37. .....: دور قبيلة تُجيب العلمي والإداري في مصر، من الفتح الإسلامي حتى القرن الرابع الهجري، مجلة الجمعية التاريخية السعودية، جامعة الملك سعود بالسعودية. العددان:(31 ـ 32)، 1436 ـ 1437هـ/ 2015 ـ 2016م.
38. هويدا عبد العظيم رمضان:(دكتورة): المجتمع في مصر الإسلامية من الفتح الإسلامي إلى العصر الفاطمي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2006م.

الهوامش:

(1) أحمد أمين: فجر الإسلام، ص: 145.

(2) هو: علم يُبحث فيه عن كيفية النطق بألفاظ القرآن الكريم ، وبه يترجح بعض الوجوه المحتملة على بعض. وقد عده الإمام السيوطي العلم الثامن من العلوم المتعلقة بدراسة القرآن الكريم. الإتقان في علوم القرآن، جـ1 ، ص444، أما عن نشأة هذا العلم و تطوره ، انظر على سبيل المثال: الزرقاني: مناهل العرفان في علوم القرآن، جـ1 ، ص 412، حاجي خليفة: كشف الظنون، جـ2، ص 1317 وما بعدها، د. محمد حسين الذهبي: التفسير والمفسرون، جـ1، ص 13.

3(3) د. هويدا عبد العظيم رمضان: المجتمع في مصر الإسلامية، جـ1، ص131.

(4) قبيلة تجيب إحدى القبائل العربية التي هاجرت من اليمن ونزلت في مكة المكرمة والمدينة المنورة، ثم شاركت في حركة الفتوحات الإسلامية، وكثيرهم نزل مصر، وقليلهم واصل طريقه إلى بلاد المغرب والأندلس، وكان لهم نشاط علمي وإداري كبير في الدولة الإسلامية. لمزيد من التفاصيل، انظر: د. محمود محمد خلف: دور قبيلة تُجيب العلمي والإداري في مصر من الفتح الإسلامي حتى القرن الرابع الهجري، مجلة الجمعية التاريخية السعودية، جامعة الملك سعود بالسعودية. العددان:(31 ـ 32)، 1436 ـ 1437هـ/ 2015 ـ 2016م.

(5) ابن الجزري: غاية النهاية ، جـ 1، ص 53.

(6) ابن الجزري: غاية النهاية ، جـ 1، ص 16.

(7) ابن الجزري: غاية النهاية ، جـ 1، ص129.

(8) ابن الملقن: المقنع في علوم الحديث، جـ1، ص 41.

(9) زين الدين العراقي: شرح التبصرة والتذكرة على ألفية العراقي، جـ1، ص 105، وكتابه: التقييد والإيضاح شرح مقدمة ابن الصلاح، ص: 20.

(10) انظر ـ على سبيل المثال ـ : السخاوي: فتح المغيث بشرح ألفية الحديث للعراقي، جـ1، ص 26، السيوطي: تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي، جـ 1، ص 59، مصطفى حسني السباعي: السُّنة ومكانتها في التشريع، ص

103 وما بعدها. عبد المهدي عبد القادر عبد الهادي: السُّنَّة النبوية، مكانتها، عوامل بقائها، تدوينها، ص 93 وما بعدها.

(11) السمعاني: الأنساب ، جـ4، ص 452، ابن حجر: تبصير المنتبه، جـ1، ص 268، الزبيدي: تاج العروس، جـ13، ص 367.

(12) ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق، جـ12، ص 36.

(13) ابن حجر : تهذيب التهذيب، جـ12، ص 205، و كتابه : لسان الميزان ، جـ3، ص 277.

(14) ابن ماكولا: الإكمال ، جـ1، ص 399، الذهبي: تاريخ الإسلام، جـ7، ص 47.

(15) السيوطي: حُسن المحاضرة ، جـ1، ص 95.

(16) الذهبي: سير أعلام النبلاء، جـ13، ص 70، النووي: تهذيب الأسماء واللغات، جـ3، ص 162.

(17) العيني: مغاني الأخيار، جـ5، ص 354.

(18) ابن يونس: تاريخ ابن يونس، جـ1، ص 106.

(19) الذهبي : تذكرة الحفاظ ، جـ 3 ، ص 100 .

(20) الذهبي : تاريخ الإسلام ، جـ 26 ، ص 88 .

(21) الذهبي : سير أعلام النبلاء ، جـ 16 ، ص 117 .

(22) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق ، جـ 21 ، ص 218 .

(23) السيوطي : طبقات الحفاظ ، ص 379 .

(24) الذهبي : سير أعلام النبلاء ، جـ 16 ، ص 117.

(25) الزركلي : الأعلام ، جـ 3 ، ص 98 .

(26) الذهبي : العبر ، جـ 1 ، ص 146 ، ابن العماد : شذرات الذهب ، جـ 3 ، ص 12 .

(27) سير أعلام النبلاء ، جـ 16 ، ص 117 .

(28) النجوم الزاهرة ، جـ1 ، ص 387 .

(29) كحالة : معجم المؤلفين ، جـ 4 ، ص 227 .

(30) الذهبي : تذكرة الحفاظ ، جـ 3 ، ص 100 .

(31) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق ، جـ 21 ، ص 218 .

(32) الذهبي : سير أعلام النبلاء ، جـ 16 ، ص 117.

(33) تاريخ الإسلام ، جـ 26 ، ص 88 .

(34) إسماعيل البغدادي : هدية العارفين ، جـ 1 ، ص 389 ، د. فؤاد سزكين : تاريخ التراث العربي ، م 1 ، جـ 1 ، ص 379 .

(35) حاجي خليفة : كشف الظنون ، جـ 2 ، ص 1006 .

(36) الكتاني : الرسالة المستطرفة ، جـ 1 ، ص 21.

(37) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق ، جـ 21 ، ص 218 .

(38) الزركلي : الأعلام ، جـ3 ، ص 98 ، كحالة : معجم المؤلفين ، جـ 4 ، ص 227 .

(39) السيوطي : طبقات الحفاظ ، ص 379 .

(40) تذكرة الحفاظ ، جـ3 ، ص 100.

(41) الذهبي : سير أعلام النبلاء ، جـ16 ، ص 117 .

(42) ابن العماد : شذرات الذهب ، جـ3 ، ص 12.

(43) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، جـ1 ، ص 387 ، السيوطي : طبقات الحفاظ ، ص 380 .

(44) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، جـ4 ، ص 135. 138 ، الزركلي : الأعلام ، جـ 5 ، ص 257 .

(45) ابن خلدون : المقدمة ، جـ3 ، ص 954 .

(46) الخضر حسين : تاريخ التشريع الإسلامي ، ص 167 .

(47) القَيْرَوَان: مدينة عظيمة بإفريقية، مصرّت في الإسلام في أيام معاوية بن أبي سفيانﷺ. ياقوت الحموي: معجم البلدان ، جـ4، ص 420، البغدادي: مراصد الاطلاع، جـ3، ص1139

(48) الذهبي: تاريخ الإسلام، جـ22، ص 76.

(49) ترتيب المدارك، جـ1، ص 344.

(50) الديباج المذهب، جـ1، ص 18.

(51) ابن عذارى: البيان المغرب، جـ1، ص 61.

(52) هويدا عبد العظيم: المجتمع في مصر الإسلامية ، جـ1، ص175.

(53) ابن الجوزي: المنتظم، جـ2، ص 427، المقريزي: المقفى الكبير، جـ3، ص 736.

(54) ابن حجر: تهذيب التهذيب، جـ3، ص 96، وكتابه: تبصير المنتبه، جـ1، ص 489.

(55) العجلي: معرفة الثقات، ص 28، العيني: مغاني الأخيار، جـ1، ص 261.

(56) عَنَّ لَهُ الأَمرُ: عَرَض، ظهر، خَطَر في بالِه. مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، جـ2، ص 632، أحمد مختار عبد الحميد عمر: معجم اللغة العربية المعاصرة ، جـ2، ص 1565.

(57) إِفْرِيقِيَّة: هو اسم لبلاد واسعة ومملكة كبيرة، قبالة جزيرة صقلية، وينتهى آخرها إلى قبالة جزيرة الأندلس، والجزيرتان في شماليّها، وصقلّية منحرفة إلى الشرق والأندلس إلى الغرب، سمّيت بإفريقية نسبة إلى إفريقس بن أبرهة الرائش. ياقوت الحموي: معجم البلدان، جـ1، ص 228، البغدادي: مراصد الاطلاع، جـ1، ص 100.

(58) الذهبي: تاريخ الإسلام، جـ9، ص 121، وكتابه: سير أعلام النبلاء، جـ9، ص 465، وكتابه: العبر، جـ1، ص 31.

(59) صحيح مسلم(8 / 270) رقم(2979)، سنن أبي داود(9 /186) رقم(2908) (9 / 187) رقم(2909)(9 /424) رقم(3074)(11 / 334) رقم(3720)، سنن الترمذي(5 /44) رقم(1176)(11 /407) رقم(3424) (11 /407) رقم(3424) ، سنن النسائي(5 /154) رقم(1327)(14 /133) رقم(4497)(14 / 134) رقم(4498)، مسند أحمد بن حنبل تعليق شعيب الأرنؤوط في (17) موضعًا.

(60) السيوطي: حُسن المحاضرة، جـ1، ص 95.

61() الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، جـ2، ص 22.

(62) لمزيد من التفاصيل، انظر: عبد العزيز الدوري: نشأة علم التاريخ عند العرب، ص 115.

(63) الفسوي: المعرفة والتاريخ، جـ 3، ص 281، ابن سعد : الطبقات الكبير، جـ 1، ص 101، 193، جـ 2، ص 274، الطبري: تاريخ الرسل والملوك، جـ 2، ص 114،43، 455، ابن الجوزي: المنتظم، جـ1، ص 425، ابن العديم: بغية الطلب في تاريخ حلب، جـ 2، ص 458، ابن كثير: البداية والنهاية، جـ 2، ص 319.

(64) الأصفهاني: تاريخ أصفهان، جـ4، ص 90، ابن الأثير: أُسْد الغابة، جـ2، ص 397، القاسم بن سلام: الأموال، ص 141.

(65) ابن قتيبة: عيون الأخبار، 2003م، جـ1، ص 240، الأصفهاني: طبقات المحدثين بأصبهان، جـ4، ص 388.

(66) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، جـ3، ص 340.

(67) الفاكهي: أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه، جـ1، ص 276، 277، 402.

(68) يحيى بن معين : تاريخ يحيى بن معين رواية الدوري، جـ1، ص 43، ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ2، ص 275، ابن كثير: البداية والنهاية، جـ8 ، ص 369.

(69) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ، جـ 3، ص 69.

(70) ابن شبة: تاريخ المدينة المنورة ، جـ 4، ص 1181.

(71) ابن كثير: البداية والنهاية، جـ6، ص 280.

(72) لمزيد من التفاصيل انظر ـ على سبيل المثال ـ أحمد أمين : ضحى الإسلام، جـ2، ص 321 ـ 322، عبد العزيز الدوري: نشأة علم التاريخ عند العرب، ص 155 ـ 162.

(73) السمعاني: الأنساب، جـ3 ، ص 252 وجـ5 ، 333، الذهبي: تاريخ الإسلام ، جـ8 ، ص324.

(74) الذهبي: سير أعلام النبلاء، جـ5 ، ص 214، الصفدي: الوافي بالوافيات، جـ4 ، ص340.

(75) ابن الأثير: أُسد الغابة ، جـ3، ص213، ابن حجر: الإصابة في تمييز الصحابة،جـ3، ص376، السيوطي: حُسْن المحاضرة ، جـ 1، ص 82.

(76) ابن حجر: الإصابة، جـ1 ، ص 417.

(77) ابن الأثير: أسد الغابة، جـ2 ، ص 235.

(78) ابن الأثير: أسد الغابة، جـ 3 ، ص 92، ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، جـ1، ص 52.

(79) العجلي: معرفة الثقات، جـ1 ، ص 28، ابن حبان: الثقات، جـ4، ص 178.

(80) الجرح والتعديل، جـ3 ، ص 275 ، فتحي عبد الفتاح: تاريخ ابن يونس الصدفي، جـ1، ص 144.

(81) حُسْن المحاضرة، جـ1، ص298.

(82) الذهبي: سير أعلام النبلاء، جـ5 ، ص 214، الصفدي: الوافي بالوفيات، جـ4 ، ص 340.

(83) الفسوي: المعرفة والتاريخ، ج2، ص 293.

(84) التاريخ العربي والمؤرخون، ج2، ص147.

(85) ابن عبد الحكم: فتوح مصر والمغرب، الصفحات:(173،158،139،127،102،101،82،74،33،32،1.... إلخ).

(86) ابن خلدون: المقدمة، ج 3 ، ص 989 .

(87) ابن قيم الجوزية: مدارج السالكين، ج2، ص 316 .

(88) القشيري: الرسالة القشيرية، ص 466 .

(89) الجامي: نفحات الأنس، ص 385.

(90) طبقات الصوفية، ج 1، ص 373.

(91) ابن الجوزي: المنتظم، ج7، ص 52.

(92) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج 16، ص 109.

(93) ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق، ج41، ص 285.

(94) السُّلمي: طبقات الصوفية، ج 1، ص 373.

(95) هي: مدينة حسنة، تقع على الضفة الشمالية لنهر جيحون بالقرب من مصب نهر سُرْخان. و دمرت المدينة أثناء الثورة الروسية، ثم أعيد بناؤها من جديد، وتسمى حاليًا ترمز، وهي إحدى مدن جمهورية أوزبكستان الحالية. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج 1، ص 441، محمود محمد خلف: الفتح الإسلامي لبلاد ما وراء النهر، ص 32.

(96) ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق، ج41، ص 285.

(97) الجامي: نفحات الأنس، ص 277.

(98) الذهبي: تاريخ الإسلام، ج26، ص 164.

(99) ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق، ج41، ص 285.

(100) الجامي: نفحات الأنس، ص 385.

(101) السيوطي: حُسن المحاضرة، ج1، ص 443.

(102) السُّلمي: طبقات الصوفية، ج1، ص 373، ابن الجوزي: المنتظم، ج7، ص 52.

(103) ابن الملقن ، ص 137.

(104) السُّلمي: المصدر السابق، نفس الجزء، نفس الصفحة.

(105) نفحات الأنس، ص 386.

(106) هو: أحمد بن عمر بن يوسف بن جوصا، أبو الحسن الدمشقي، الإمام الحافظ النبيل، محدث الشام، سمع بمصر والشام، وجمع وصَنَّف وتكلم في العلل والرجال، توفي في جمادى الأولى سنة(320هـ/ 932م). الذهبي: تذكرة الحفاظ، ج 3، ص 16 ـ 18.

(107) ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق، ج 41، ص 287.

([108]) ابن الملقن: طبقات الأولياء، ص 138.

([109]) الجامي: نفحات الأنس، ص 386.

([110]) ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق، جـ41، ص 287.

([111]) الذهبي: تاريخ الإسلام، جـ26، ص 164، وكتابه: سير أعلام النبلاء، جـ16، ص 109.

([112]) السُّلمي: طبقات الصوفية، جـ1، ص 375.

([113]) الجامي: نفحات الأنس، ص 386.

([114]) السُّلمي: المصدر السابق، نفس الجزء، نفس الصفحة.

([115]) ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق، جـ41، ص 286.

([116]) الذهبي: سير أعلام النبلاء، جـ16، ص 109.

([117]) السُّلمي: طبقات الصوفية، جـ1، ص 273، ابن الملقن: طبقات الأولياء، ص 137، الذهبي: تاريخ الإسلام، جـ26، ص 164.

([118]) ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق، جـ41، ص 287، الذهبي: سير أعلام النبلاء، جـ16، ص 109.

الكاتب الأول: عادل العبيدي
المعهد العالي لأصول الدين جامعة الزيتونة– تونس

عنوان المقال: حقّ التَّقاضي: بين المسار التاريخي والفقهي والتأصيل القانوني

البريد الالكتروني:lawerlabidi@gmail.com

تاريخ الارسال: 07/05/2020 تاريخ القبول: 28/05/2020 تاريخ النشر: 30/06/2020

حقّ التَّقاضي: بين المسار التاريخي والفقهي والتأصيل القانوني

ملخص:

شُرع حقّ التقاضي كأداة لحماية بقيّة الحقوق التي ينعم بها الإنسان وسط المجموعة لما يكفله من ضمان التجاء الفرد إلى سلطة تكفل احترام هذه الحقوق وتُدافع عنها ضدّ كلّ تعدٍّ، لذلك توحّدت الشرائع السماويّة والوضعيّة لوضع القواعد والآليات الكفيلة بحمايته وضمان ممارسته في إطار شرعي وقانوني دون تعسّف يضمن بهدف لتحقيق مصلحة وهي إيصال الحقوق لأصحابها وتحقيق التوازن الاجتماعي داخل المجتمع. غير أن تعامل القانون والشرع لم يكن بنفس السياق بما اتّجه معه البحث لتأصيل المسألة.

الكلمات المفاتيح: تقاضي - تعسّف – محاكمة عادلة – مجانيّة – علانيّة – مساواة – حياد – استقلاليّة القضاء.

Abstract:

The right to litigation was initiated as a tool to protect the rest of the rights that people enjoy among the group, as it guarantees the individual recourse to an authority that guarantees respect for these rights and defends them against every infringement. It aims to achieve an interest which is to communicate rights to their owners and achieve social balance within the community. However, the treatment of law and Shari'a was not in the same context as the research approached to root the issue.

Key words: Litigation - arbitrariness - fair trial - free - public - equality - impartiality - independence of the judiciary.

مقدّمة:

يُعرّف الحقُّ في لسان أهل اللّغة على كونه "الثابت الذي لا يسوغ إنكاره، وفي اصطلاح أهل المعاني هو الحكم المطابق للواقع يطلق على الأقوال والعقائد والأديان والمذاهب باعتبار اشتمالها على ذلك ويقابله الباطل[1]. وحقّ التقاضي هو" الحقُّ المخوَّل قانونا للالتجاء إلى السلطة القضائية قصد المُطالبة بحماية حقّ حماية مؤقّتة أو نهائيَّة"[2].

ويُعدُّ حقُّ التقاضي من الحقوق الأساسيّة الملتصقة بشخصيّة الإنسان ووجوده لكونه أداة لتحقيق أحد أسمى المبادئ الإنسانيّة وهو مبدأ العدل، قال تعالى "إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي القُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ وَالمُنْكَرِ وَالبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ" [النحل: 90].

أورد ابن كثير في تفسيره لهذه الآية الكريمة[3] قوله "يُخبر تعالى أنه يأمر عباده بالعدل وهو القسط والموازنه ويندب إلى الإحسان، كما قال تعالى "وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ"[النحل: 126] وقوله "وَجَزَاؤُا سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا" [الشورى:40] وقال سفيان بن عيينة: العدل في هذا الموضع هو استواء السَّريرة والعلانيَّة من كل عامل لله عملا، والإحسان أن تكون سريرته أحسن من علانيته.

وأما البَغيُ فهو العُدوان على الناس وجاء في الحديث"ما من ذنب أجدر أن يعجّل الله عقوبته في الدنيا مع ما يدخّر لصاحبه في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم"[4]، وقوله: **"يَعِظُكُمْ"** أي يأمركم، وقال الشعبي عن شتير بن شكل: سمعت ابن مسعود يقول: إن أجمع آية في القرآن في سورة النحل: **"إِنَّ اللَّهَ"** رواه ابن جرير[5].

وذكر الماوردي أنه القضاء بالحقّ، قال تعالى "وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالعَدْلِ"[النساء:58]، وقال أبو عبد الله الرازي: أمر بثلاثة ونهى عن ثلاثة: فالعدل: التوسّط بين الإفراط والتفريط وذلك في العقائد وأعمال الرعاة، قال تعالى **"وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا"**، والإحسان: الزيادة على الواجب من الطاعات والدواعي والصوارف[6].

والعدل في اللغة: القِسط وعدم الجور وأصله التوسّط بين المرتبتين، والإحسان مصدر أحسن، وهي تستعمل متعدّية بالحرف نحو: أحسِن إلى والديك، وتستعمل متعدّية

بنفسها، كقولك: أحسَن العامل عمله، أي أجاده وجاء به حسنًا، والله جلّ وعلا يأمر بالإحسان بمعنييه المذكورين[7].

وفي الاصطلاح هو الإنصاف[8]، وهو لفظ يقتضي المساواة ويستعمل باعتبار المضايفة، وهذا النحو هو المعنيُّ بقوله "إِنَّ اللهَ" فإن العدل هو المساواة في المكافأة إن خيرا فخير، وإن شرًّا فشرّ، والإحسان أن يقابله الخير بأكثر منه، والشرّ بأقلّ منه[9].

جميعها دلالات على أن أمر الله جاء على قسمين أوّلهما الأمر بالعدل، وثانيهما الأمر بالإحسان: فأيّ طريق موصلٍ للعدل فإن إتّباعه أمر من الله، وأي طريق مُنتج إلى الإحسان فإن إتّباعه أمر من الله.

وكأنَّ الجهد الإنساني انصبَّ لتلمّس أثر هذين الطريقين: فالعدل مأمور به، وكَمَاله يتحقّق بالإحسان، وأعمال البحث وخلاصة الفقه ومحكّ التجارب كان دائرًا حول هذه الغاية، وكانت مسافة الوصول إليها بُعدا أو قُربا معيارا لتحديد نجاح أي نظام في إيجاد المعادلة الصحيحة التي تضمن استقرار الأمر وتحقّق الأمن داخله.

لذلك تستعمل هذه الآية شعارا لعدّة أنظمة قضائيّة، تنصبه في شكل لوحات في بهو محاكمها ليقرأه النّاس علامة على أن من وُلُّوا القضاء كفيلون بأن يردّوا عليهم حقوقهم المسلوبة والانتصار لمظلُومهم وصدّ ظالمهم، وأن صدى أحلامهم في العدل سيتحقّق واقعا من خلال المنظومة القضائيّة القائمة من قوانين وتشريعات وهياكل ومحاكم وما عليهم إلا الالتجاء إليها للتوصّل إلى أخذ حقوقهم عبر ممارستهم لحقّهم في التقاضي.

فهل أن حقّ التقاضي هو حقٌّ مُطلق أم أنه محدّد في إطار ضوابط وضمانات؟ وكيف أصّل القانون التونسي والفقه الإسلامي حقّ التقاضي؟

الجزء الأوّل: ضوابط مُمارسة حقُّ التقاضي:

شُرِعَ حقُّ التقاضي لحماية مصلحة **(فقرة أولى)** يُمارس أمام هيكل مختصّ **(فقرة ثانية)**.

فقرة أولى: حقُّ التقاضي سبيل لتحقيق مصلحة:

الحقُّ في اصطلاح الفقهاء هو الشيء الثابت لله أو للإنسان على الغير بالشرع[10]، وفي لغة القانونيين، هو السلطة التي يقرها القانون للشخص سواء بصفته إنسانا أو لمواجهة حاجياته في علاقاته الاجتماعية[11]، ويتمتَّع الشخص بجميع حقوقه ويضمن له القانون سلطة ممارستها وحمايتها وهي تكوِّن في مجموعها ما يعبَّر عنه بالذمَّة المالية.

وتقتضي القاعدة الفقهيَّة "الجواز الشرعي يُنافي الضمان"[12]، أي أن من مارس حقَّه كيف ما أجازه الشارع، وهو الله سبحانه وتعالى، فلا ضمان عليه وذلك فيما إذا استعمل المُكلَّف حقَّه على الوجه المأذون فيه شرعا من غير تعسُّف أو مُجاوزة في فعل غير مشروع[13]، وكأنَّ هذه القاعدة الأصِيلة كانت أساسا للقاعدة الواردة في القانون الرُّوماني"مُنتهى الحقِّ مُنتهى الظُّلم" (injuria Summun jus, Summa)[(14)]، فمن فَعل ما يقتضيه حقُّه بدون قصد الإضرار بالغير فلا عُهدة عليه [(15)]، بما يعني أن ممارسة الحقِّ مقيَّد بظوابط منها المصلحة والغايات وحسن النيَّة وعدم التحايل على القانون وعلى مصلحة الغير واستعمال الحيل الشرعيَّة.

وتأسُّس حقُّ التقاضي على مصلحة شرعيَّة ينفي عنه تضمُّنه تحايلا على القانون (أ) أو تعسُّفا في استعمال الحقِّ (ب).

أ- **التحايل على القانون:**

الأصل أن الالتزامات الناشئة طبق القانون والشرع، والتي لم يطرأ عليها أي سبب لفسخها أو إبطالها، تُنفَّذ إراديًّا من قبل الطرفين، باعتبار أن العقد الرابط بينهما نشأ بإرادتهما الحرَّة الكاملة وأن الباعث على التعاقد كان جائزا بما يجعل منه "شريعةً للطرفين"حسب التعبير القانوني[16]. فكلّ طرف محمول عليه واجب الوفاء بالتزامه طوعا واختيارا، ويبقى الاستثناء هو اللجوء للقضاء لجبر المدين على التنفيذ بالإذعان لحكم المحكمة ولو باستعمال أساليب القوّة العامّة حسب ما يُجيزه القانون[17].

ونِطاق الالتزام لا يتحدَّد من خلال الدَّلالة النصيَّة للعقد فقط، بل كلُّ ما يترتَّب عنه من حيث العُرف والأمانة والإنصاف حسب ما تقتضيه أحكام الفصل 243 من القانون المدني التونسي الذي ينصّ على أنه " يجب الوفاء بالالتزامات مع اتمَام الأمانة ولا يلزم ما صُرِّح به فقط بل يلزم كلّ ما ترتَّب على الالتزام من حيث القانون أو العرف أو الإنصاف حسب طبيعته". وهو أصل مستوحى من قوله ﷺ ﴿الصُلح جائزٌ بينَ المُسلمينَ إلاّ صُلحًا حَرّمَ حَلالاً أو أحَلّ حَرامًا والمُسلمُونَ عَلى شُروطِهم إلاّ شَرطًا حَرّمَ حَلالاً أو أحَلّ حَرامًا﴾[18]، وهو نصٌّ يخرج بالالتزام من دائرة القانون إلى دائرة أعمُّ وأشمل يتداخل فيها القانون مع الأخلاق وأصول المُعاملات والعُرف غير أن أساسه لم يكن الفقه الإسلامي بل كان استنساخا للنصّ المدني الفرنسي[19].

إن هذه النصوص رغم صراحتها وحُجّيتها، لم تمثّل مانعا لتطويع الالتزام وفق الرغبة الشخصيَّة والمصلحة الفرديّة للخروج عن مُقتضاه الشرعي والقانوني بما يُشكّل مضرّة للمتعاقد أو للغير وتحايُلا على القانون.

والحيل هي تقديم عمل ظَاهرُ الجَواز لإبطال حُكم شرعيٍّ وتحويله في الظاهر إلى حُكم آخر، فمآل العمل فيه خَرق لقواعد الشريعة كواهبِ مَالِه عند رَأس الحَول فرارًا من الزكاة[20]،أجازها أبو حنيفة ومَنعها المالكيَّة والشافعيَّة، غير أن الإجازة كانت باعتبار المآل أيضا لكن على حُكم الانفراد فالعبرة عند أبي حنيفة بالقَصد: فإن كان قَصدُ الواهب إبطال حُكم الزكاة فالتصرُّف ممنوع، وإلاَّ لامتنَعت الهبة عند رأس كل حَولٍ مُطلقا[21].

فالتحايل إذا هو سعي الشخص للتمتُّع بحقوق أو بمنافعَ على غير مُقتضى التزامه بما لا حقَّ له فيه، أو لتجنُّب تطبيق قاعدة معيَّنة ظنًّا بأنها تُضرُّ بمصالحه، كلُّ ذلك بتطويع قواعد أخرى من الشرع أو القانون.

ولمَّا كان مَبنى حقُّ التقاضي المحافظة على الحقوق كما رتَّبها الشرع والقانون مُنعَ أن يكون "كَلمة حقٍّ أُريد بها بَاطل"[22]، بأن يتحوَّل إلى وسيلة إجرائيَّة للزَّيغ بالحقِّ وإهداره ونُصرةَ الباطل أو سبيلا للخروج عن مبادئ العدل والنزاهة والأمانة في تنفيذ الالتزامات.

لذلك يأتي من أولويَّات عمل القاضي مراقبة حُسن مُمارسة الحقوق حتى تكون مُطابقة للغايات التي وُضعت من أجلها وضمان تنفيذ الالتزامات حسب ما يُرتّبه الشرع والقانون وتطبيق مبادئ العَدالة والإنصاف، مُجمل ذلك يجعله صاحب أمانة ليحفظ لكلِّ طرف حقَّه بأن يمنع التحايل باستعمال قواعد قانونيَّة أو شرعيَّة تُخلُّ بالتوازن العَقدي أو تُلحق ضررا بأحدهما أو بالغير، وصيانةً للحُكم القضائي ليضلَّ وسيلة للنطق بالحقِّ وعلامة على العَدل، وهو ما يتطلَّب من القاضي التحقُّق في شروط الدعوى وحقيقة النزاع وجديَّته واستقراء الباعث على الخصام ومآله فيما ينجرّ عنه من آثار للمتخاصمين أو لغيرهما حتى يُمكنه الجزم بعدم وجود تحايل أو خديعة، الأمر الذي جعل الفقهاء يشدّدون في شروط اختيار القاضي بالقول "ويقدَّم في القضاء من هو أعرف بالأحكام الشرعيّة وأشدّ تفطّنا لحِجاج الخصوم وخدعهم وهو معنى قوله ﷺ "**أقضاهم عليّ**"[23].

ومثال تلك الحيل الترفيع في ثمن المبيع صوريًّا لمنع الشفيع من مُمارسة حقّ الشفعة، فإذا رُفعت الدعوى للقاضي وجب عليه ردُّ الأمور إلى نِصابها بعد النظر والتحقُّق في كون الثمن المُصرَّح به بالعقد يتجاوز أضعاف القيمة الحقيقيّة للمبيع رغبة في مَنع تطبيق قواعد الشفعة.

ودأبت المحاكم التونسيَّة، إن تحقَّق الأمر لديها في وجود تحايل على القانون وكان الثمن صوريّا، أن تُجيز للشفيع عرض الثمن الحقيقي على المشتري، مع تحميله عبء إثبات ما ادّعاه بجميع طرق الإثبات ومنها الاختبار على العقار المبيع لتنظير ثمنه مع بقيّة العقارات المماثلة وتحديد قيمته الشرائيّة[24].

وقد يَعمد المدين إلى بيع أملاكه سعيا لتهريبها من قبضة دائنيه وتفصِّيا من واجب الوفاء بالدين بإيجاد حالة مفتعلة من الإعسار تمنع إجراء أعمال التنفيذ ضدَّه ببيع أملاكه عنه.

فإن تحقَّق القاضي من قيام التحايل بثبوت عنصر المحاباة بين البائع، المدين، والمشتري، وثبوت عنصر التواطئ بينهما، وسوء النيّة القائمة على التصدّي للدائنين لتنفيذ سندات ديونهم واستخلاصها، فإنه يقضي بإبطال تلكم التصرُّفات التي أجراها المدين، والتي يبدو من ظاهرها وشكلها أنها منضبطة إلى جميع أحكام القانون، لكونها تضمَّنت سعيا للإضرار بدائنيه، وهو ما يُجيزه الفصل 306 من مجلّة الالتزامات والعقود الذي يقتضي "يجوز للدائنين أن يطعنوا في حقّ أنفسهم في العقود التي تمَّمها مدينهم بأنه تمَّمها لإضرارهم في حقوقهم تغريرا وتدليسا لكن دون أن تقع مخالفة الأحكام المتعلقة بالحالة الشخصية أو بالميراث..."، المبدأ الذي أقرَّته محكمة التعقيب بالقول" إن من شروط الدعوى البُليانيَّة أن يكون التصرف الذي قام به المدين يُقصد به الإضرار بدائنه تغريرا وتدليسا وهذا يقتضي عُسر المدين أي أن تكون مكاسبه غير كافية لسداد ما عليه من ديون"[25].

ويكون التحايل وسيلة لتجنُّب تطبيق قاعدة مُلزمة، كتغيير الجنسية لتجنُّب تطبيق أحكام القانون في الأحوال الشخصيّة للانتفاع بحقوق يُجيزها القانون الشخصي غير مُتاحة في القانون الوطني، أو أن يُقرَّ المورِّث بماله للغير حتى يحرم الورثة من نصيبهم في الإرث، أو تعويض عقد الربا بعقد بيع على أن تدفع الفوائض بعنوان ربح في عمليَّة البيع... فجميع تلك التصرُّفات باطلة عملا بالقاعدة الفقهيَّة "الأمور بمقاصدها" باعتبار مآل الفعل وما يؤديه إلى مفسَدة.

ويقع على كاهل القاضي التثبُّت في مدى تحقُّق تلك المصلحة عند ممارسة حقّ التقاضي ومدى مُطابقة الأعمال والدعاوى المعروضة عليه لمقصدها الشرعي والقانوني صيانة للحقوق من الضياع والتلاعب.

ب- التعسُّف في استعمال الحقّ:

أبدع الفقه الإسلامي نظريَّة التعسُّف في استعمال الحقّ من خلال القاعدة الأصوليَّة القائلة "النظر في مآلات الأفعال مقصود مُعتبر شرعًا[26]، ذلك أن المجتهد، أو القاضي، المشترط فيه فقها تحوُّزه على صفات المجتهد، فلا يحكم على الأفعال الصادرة من المكلَّفين إلا بعد نظره إلى ما يؤول إليه ذلك الفعل من مصلحة أو مفسَدة.

فالتكاليف مشروعة لمصالح العباد، فقد يكون العمل مَشروعًا لكن يُنهى عنه لما يؤول إليه من المَفسدة، أو يكون ممنوعا لكن يُترك النهي عنه لما في ذلك من مصلحة[27]. وكلُّ ذلك مستمدٌّ من أحكام القرآن الآمرة بالإحسان.

يقول ابن عبد السّلام:" كتب الله سبحانه الإحسان على كلّ شيء وأخبر أنه يأمر به على الدوام والاستمرار بقوله: **"إِنَّ اللَّهَ"**[النحل:90]، ورغّب فيه بقوله **"إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ"**[البقرة:195]، وإن أمرًا يكون سببا لحبّ الله لجدير بأن يُحرص عليه ويُتنافس فيه ويُبادَر إليه، والإحسان منحصر في جلب المصالح ودرء المفاسد وهو غاية الورع أعلاها إحسان العبادات، وثانيها الإحسان إلى الخلائق وذلك إمّا بجلب المنافع أو بدفع المضارّ ولا فرق بين قليله وكثيره وجليله وحقيره فإن **"مَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ"**[الزلزلة:7] فإن الألف واللاّم في العدل والإحسان للعموم والاستغراق فلا يبقى من دقّ العدل وجُلّه شيء إلا اندرج في أمره بالعدل ولا يبقى من دقّ الإحسان وجُلّه شيء إلا اندرج في أمره بالإحسان"[28].

كما استروح الفقهاء نظريّة التعسّف في استعمال الحقّ من نهي الشريعة عن الإضرار، قال تعالى:﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍ﴾[النساء:12]، وقال تعالى: ﴿وَلاَ تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا﴾[البقرة:231]، وقوله ﷺ عن أبي سعيد سَعد بن مالك بن سِنان الخُدْريّ رضي الله عنه أنه قال: ﴿ لاَ ضَرَرَ ولاَ ضِرَارَ﴾[29]، وقضاؤه ﷺ في سوء استعمال الحقّ والتعسُّف فيه: ما رواه أبو داود من أن رجلا كان له نخل في حائط رجل من الأنصار فسبّب له كثيرا من المضايقة فطلب إليه أن يبيعه فأبَى، فطلب إليه أن يُناقله أي يبادله نخلا بنخل فأبَى، فأتى النَّبي صلى الله عليه و سلَّم فذكر ذلك فطلب إليه النبيّ ﷺ أن يبيعه فأَبَى فطلب إليه أن يُناقله فأبَى قال: فهَبه لي ولك كذا وكذا، فأبَى، فقال له ﴿**أنت مُضارّ**﴾، وأَمَر الأنصاريَّ بأن يخلع نخله [30].

وفي ذات السياق تعامل الفقه الفرنسي مع هذه النظريَّة[31]، وانقسم إلى مذهبين[32]، المذهب شخصي ويقوم على أساس أن الفرد هو الهدف من تنظيم المجتمع بالتالي فإن ممارسة الحقّ لا تخضع لأيّ قيد، بدعوى أن العمل القانوني لا يمكن أن يكون في آن واحد شرعي

ومخالف للقانون وهو اتّجاه الفقيه "بلانيول"[33]، عارضه فيه أصحاب نظرية الوظيفة الاجتماعيَّة بقيادة الفقيه "جوسران" بالقول أن الحقَّ ليس بسلطة في حدِّ ذاته أو حريَّة بل إمكانية تُعطى للفرد في نطاق معيّن ولأهداف معيَّنة فالحقوق إذا ليست إلا وظائف اجتماعية وفكرة التعسُّف تتضمَّن نيَّة خبيثة تهدف إلى مصلحة غير مشروعة[34].

ويبدو أن القانون التونسي حاول تبنى النظريَّتين معا من خلال صيغة الفصل 103 من مجلّة الالتزامات والعقود المنظِّم لمسألة التعسُّف في استعمال الحقِّ من خلال نصّه "من فعل ما يقتضيه حقه بدون قصد الإضرار بالغير فلا عهدة ماليّة عليه، فإذا كان هناك ضرر فادح ممكن اجتنابه أو إزالته بلا خسارة على صاحب الحقّ ولم يفعل فعليه العهدة الماليّة"، بمعنى أن الممارسة تكون تعسفيّة إذا نتج عنها ضرر فادح غير عادي بالنسبة لما هو مقبول عادة أو عرفا مقارنة بالفائدة التي يرمي إلى تحقيقها صاحب الحقّ.

فالقاضي يُراقب إن تضمَّنت الدعوى تعسُّفا من عدمه كأن يكون القصد منها التنكيل والإحراج، ويوجب عليه القانون في تلك الحالة الحكم بغُرم الضرر للطرف المُتضرِّر جرَّاء ذاك التعسُّف في استعمال حقِّ التقاضي.

والحقُّ في الغُرم يتمُّ المُطالبة به في إطار "دعوى مُعارضة" التي عرَّفها الفصل 227 من مجلّة المرافعات "حقُّ القيام بدعوى المعارضة مختصٌّ بالمطلوب ويمكن عرضها ما دامت القضيَّة بصدد التحضير ولا تُقبل هذه الدعوى إلا إذا كان المقصود منها الدفاع لردِّ الدعوى الأصليّة أو المُقاصة أو طلب غُرم الضرر المتسبَّب عن النازلة" ويُحكم فيها مع الدعوى الأصليَّة في آن واحد.

ومن أوجه التعسُّف التي جاء بها القانون التونسي، التعسُّف في طلب الطلاق بأن يُنشأ أحد الزوجين طلب الطلاق بناء على رغبة خاصَّة منه دون أن يكون مُطالبا بتقديم مُبرِّر له وهو ما يوجب غُرم ضرر الطرف الثاني بناء على النيَّة التعسُّفيَّة الواضحة [35]. وصورته أيضا قطع العلاقة الشغليَّة من قبل المؤجِّر بدون سبب وجيه أو مُبرَّر شرعي وهو ما يوجب غُرم ضررِ العامل لعدم احترام المؤجِّر للأسباب القانونيَّة لقطع العلاقة الشغليَّة[36]. وإن كان الأمر في علاقة كرائيَّة فإن إقدام مالك الجُدران على قطع العلاقة الكرائيَّة التجاريَّة بعد اكتساب المتسوّغ للحقِّ في تجديدها توجب غُرم الضرر لتعسُّفه في قطعها ورفض تجديدها وذلك بتمكينه من غرامة حرمان تعويضا له عن ضرره المتمثل في نُقص الربح وفقدان الحرفاء ومصاريف الانتقال إلى محلّ تجاري ثان[37]. وقد يصدر التعسُّف عن سلطة عموميَّة متمثِّلة في

الدولة أو إحدى مؤسساتها في استعمالها لصلاحيَّات السلطة العامَّة بدون وجه حقٍّ والانحراف بالسلطة والإجراءات من خلال القرارات الإداريَّة التي تتَّخذها وهو ما يكون سببا في الطعن فيها أمام المحكمة الإداريَّة لطلب إلغائها وغُرم الضرر

المدَّعي لتعسُّف جهة الإدارة نتيجة الأعمال غير الشرعية الصادرة عنها تُجاهه[38].

وتطرّق الفقهاء أيضا إلى وجوه التعسّف والإضرار، من ذلك منع الجار من الإضرار بجاره "فلا يفعل ما يضرّ بجاره من فتح كُوّة قريبة يكشف جاره منها، أو فتح باب قُبالة بابه، أو حفر ما يضرّ بجاره في حفره وإن كان في ملكه"[39]، أو "الإضرار بالحائط المشترك، أو أن يعمد المريض إلى الطلاق بتهمة إخراج الزوجة من الميراث"[40]. والتعسّف في القيام أمام القضاء بدون وجه حقّ لغاية التنكيل والتعنيت على غرار ما أورده ابن فرحون "لو ادعى صعاليك على أهل الصلاح والطهارة دعاوى باطلة وليس لهم من قصد سوى التشهير بهم وإيقافهم أمام القضاء إيلاما وامتهانا لا تسمع الدعوى ويؤدب المدعي"[41].

الفقرة الثانية: مُمارسة الحقّ لدى هيكل مختصّ:

تكفل الدولة ممارسة حقّ التقاضي وذلك من خلال إيجاد سلطة مختصّة تُعهد لها مهمّة الفصل في الخصومات القضائيّة وفضّ النزاعات، ويُعبّر عنها في أغلب الأنظمة القانونية ب"السلطة القضائيّة" على غرار الدستور التونسي لسنة 2014 الذي أفرد لها أحكاما خاصة ضمن الباب الخامس منه على كون "القضاء سلطة مستقلّة تضمن إقامة العدل وعلويّة الدستور وسيادة القانون وحماية الحقوق والحريّات. القاضي مستقلّ لا سلطان عليه في قضائه لغير القانون"[42]

ويُعبّر جانبا من الفقه الإسلامي عن ذاك الهيكل بـ"ولاية القضاء"، وشروطها: خمسة: مولٍّ، ومولًّى وعَمل ونظر وعقد[43].

وعُرِّف القضاء بكونه صفة حكميّة توجب لموصوفها نفوذ حكمه الشرعي ولو بتعديل أو تجريح لا في عموم مصالح المسلمين، فيخرج التحكيم وولاية الشرطة وأخواتها والإمامة[44].

أمّا حقيقة القضاء فهي إخبار على حكم شرعي على طريق الإلزام، وحكمة مشروعيّته: حفظ النظام ودفع الضرر العام[45].

ويُعدُّ القاضي الطرف الأساسي في ضبط حقّ التقاضي والحفاظ على ممارسته ووجوده وذلك من خلال جملة من الآليات أهمّها أهمُّها استقلاليّة القاضي (أ) وحياده (ب).

أ- استقلاليَّة القاضي:

يُعتبر مبدأ استقلالية القضاء من أهمّ المبادئ المكرّسة لحقّ التقاضي لكونها تُنزِّه القاضي عن كل الضغوطات والتدخلات والتأثيرات التي من شأنها أن تجعله يزيغ عن الحقّ أو يخاف النطق به، فلا سلطان عليه إلا القانون ليستوي أمامه القويُّ والضعيف والغنيُّ والفقير وصاحب السلطان والرجل العادي.

ومن مظاهرها عدم تدخُّل السلطة التنفيذية أو هياكلها في إدارة القضاء، من خلال التسمية والترقية، أو في الرقابة من خلال مُمارسة السلطة التأديبيَّة، وهو ما أقرَّه القانون الأساسي عدد 34 لسنة 2016 المؤرخ في 28 أفريل 2016 المتعلق بالمجلس الأعلى للقضاء، إذ اقتضى في فصله الأوّل أن المجلس الأعلى للقضاء مؤسّسة دستورية ضامنة في نطاق صلاحياتها حسن سير القضاء واستقلاليّة السلطة القضائيّة طبق أحكام الدستور والمعاهدات الدولية المصادق عليها، وجعل مهمَّة الإشراف على المسار المهني للقضاة من تسمية وترقية ونقلة من أنظاره، كما يبتُّ في مطالب رفع الحصانة ومطالب الاستقالة والإلحاق والإحالة على التقاعد المبكّر والإحالة على عدم المباشرة، ويعتمد المجلس عند النظر في المسار المهني للقضاة على مبادئ تكافؤ الفرص والشفافية والكفاءة والحياد والاستقلالية، ويراعي لهذه الغاية المقتضيات والمبادئ الواردة بالدستور والمعاهدات الدوليّة والمعايير والشروط المنصوص عليها بالأنظمة الأساسيّة للقضاة. وفي صورة ثبوت الخطأ الموجب للتأديب فإن المجلس القضائي المعني المنتصب للتأديب يقرّر العقوبة المناسبة للأفعال المرتكبة.

أمّا على مستوى الفقه الإسلامي فللاستقلاليّة أصل ثابت، باعتبار أن القاضي وإن كان يستمدّ شرعيّة تسميته من الوالي، إلا أن ولايته للقضاء مستقلّة عن ولاية الإمامة ولها أركانها الخاصّة وهما "ركني: القوّة والأمانة، فالقوّة في الحكم ترجع إلى العلم بالعدل وتنفيذ الحكم، والأمانة ترجع إلى خشية الله تعالى، وهذه الشروط تعتبر حَسَب الإمكان ويجب تولية الأمثل فالأمثل"[46]. كما أن علاقته بالإمام تبقى في إطار الوكالة، مع الاستثناء ذلك أن ولاية القاضي لا تنتهي" إذا مات أو خلع الخليفة لا تنعزل قضاته وولاّته، لأن القاضي يعمل بولاية المسلمين وفي حقوقهم، وإنّما الخليفة بمنزلة الرسول عنهم. أما إذا عزله ينعزل لأنه لم يعزله الخليفة حقيقة بل بِعزل العامَّة لما ذكرنا من أن توليته بتولية العامَّة، والعامَّة ولُّوه الاستبدال لتعلِّق مصلحتهم بذلك وهو الفرق بين العزل والموت[47].

ويُعدُّ سيدنا عُمر رضي الله عنه أوَّل من أسَّس لمبدأ استقلاليَّة القضاء هيكليًّا ووظيفيًّا، بإنشائه لديوان خاصٍّ به يُعنى بشؤونه ويُدير أموره، كما أن نماذج مختلفة من

القضايا والأحداث مثلّت خير برهان لاستقلال القاضي عن سلطة الخليفة أو الأمير من ذلك رسالته إلى واليه معاوية بن أبي سفيان حاكم سوريَّة وفلسطين، إنه لا سبيل لك على عُبادة بن الصامت، وكان عُبادة قاضيًّا لفلسطين ليضع حدًّا لتدخُّل الولاَّة في شأن القضاء[48].

والأصل أنه لا يمكن التدخّل في أحكام القاضي إلا في حالات لخّصها البرزلي في نوازله "قلت في النوادر الواضحة عن أصبغ: إن مَنع الإمام قاضيه الحكم بين خصمين فإن كان قبل أن يتبيّن له الحقّ أطاعه، وإن كان بعد أن تبيّن فينفذه إلا أن يصرفه رأسا. وكثيرا ما يقع في زماننا ينهى الأمير القاضي في تمام الحكم في قضية أو ينهاه عنها ابتداء مثل تحجيره عليه أن لا يحكم على الأجناد أيام الحركة، فإن كان قبل ظهور الحق عزل نفسه، وبعد ظهوره يجب عليه السعي في تمامه إن أمكن ولم تنشأ عنه مفسدة، وإن ظنّ إنشاء المفسدة تركها وكان كالمكره على عدم إنفاذ الحكم فله مندوحة عند الله تعالى[49].

كما أنه لا يمكن للوالي أن يُلزم القاضي باعتماد مذهب معيّن لقوله تعالى: "فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالحَقِّ"[ص:26]، "فان فعل، بَطُل الشّرط وصحّت الولاية كالشروط الفاسدة في البيع"[50].

ب- حياد القاضي واجتهاده:

يقتضي المبدأ أن القاضي لا يتدخّل في إجراءات الدعوى، دون أن يخلَّ بواجب الاجتهاد لطلب الحقِّ.

ذلك أن الفصل 12 من مجلّة المرافعات المدنيّة والتجاريّة ينصّ على أنـه " ليس على المحكمة تكوين أو إتمام أو إحضار حجج الخصوم"، وهو نصٌّ لم يكن موجودا ضمن نصوص مجلَّة المرافعات الصادرة سنة 1910، التي وضعت على كاهل القاضي كل الأعباء الإجرائيَّة التي يتطلبها نشر القضيَّة وسيرها أمام المحكمة، فأعفَى النص الجديد الصادر سنة 1959 القاضي من هذه المهمَّة ليتفرَّغ للفصل في النزاعات المعروضة عليه، فأصبح تكريسا لنظام إجرائي جديد وهو نظام المبادرة الذاتية (Système accusatoire) أو نظام المواجهة، في اختلاف مع النظام الإجرائي السابق وهو نظام المبادرة القضائيَّة (Système inquisitoire) أو النظام الاستقرائي، الذي كان سائدا في مجلة 1910[51].

وهو ما انتهجته محكمة التعقيب بالقول "إن الدور الموكول للقاضي لتهيئة النزاع للفصل يقتضي منه تحقيق المعادلة بين التزام الحياد بمفهومه الإيجابي والاجتهاد في سبيل استجلاء الحقيقة و بالتالي فإنه لا شيء يمنع القاضي كلما تبين له وجود نزاع جدِّي يقتضي

منه تدخلا حاسما أن يقوم بالعديد من الأعمال الكاشفة للحقيقة وتأطير النزاع في إطاره الصحيح في نطاق ما خوَّلته له النصوص القانونية وذلك لاستكمال أدلَّة المتقاضين حتى يؤسِّس حكمه على عناصر واضحة وثابتة من شأنها أن تجعل الأحكام القضائية مطابقة للحقيقة الواقعية"[52].

ويُؤخذ هذا المبدأ في الفقه الإسلامي على مستوى أرفع باعتبار أن القاضي مُلزم بالحكم بالقِسط. والقِسط هو النصيب بالعدل، قال تعالى "وَأَقِيمُوا الوَزْنَ بِالقِسْطِ"[الرحمن:9][53]، وقال تعالى ﴿ إِنَّ الله يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالعَدْلِ﴾[النساء: 58]، وقال تعالى ﴿فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ الله وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الحَقِّ ﴾[المائدة:48]، فهو مُلزم بتحقيق العدل وبالسعي بكلّ الطرق للنُطق به، بما يجعله متحمّلا لأعباء إجراءات الدعوى من حيث إقامتها وإحضار المدعي عليه والسعي في ذلك بجميع الوسائل وتعيين جلساتها والسؤال عن الشهود والتحرّي بنفسه في أسباب التجريح فيهم وإثبات عناصر الادّعاء فيها واختيار الطريقة الأنسب لقبولها أو ردّها غير أن جميع تلك الأعمال لا يُمكن أن تُمثِّل إخلالا بمبدأ الحياد بل إنها من صميم وظيفته وجوهرها حفاظا على الحقوق المُؤمَّن عليها والتزاما بعقد القضاء الذي في عهدته ذلك أن الوفاء بالعقد واجب شرعيٌّ.

كما يوجب النظام الإجرائي القانوني على القاضي السعي بكلّ جهده للنُطق بالحقيقة من خلال الُحكم الذي يُصدره حسما للنزاع. فعند تعهُّد المحكمة بملف القضيَّة، تتولى إحالته على القاضي المُقرّر الذي يتلقى التقارير والمؤيدات من المحامين ومطالبتهم بما يراه لازما من الإيضاحات والوثائق الإضافيَّة طبق الفصل 87 من مجلّة المرافعات المدنيّة والتجاريّة، كما يقوم بإجراء الأبحاث التي يستوجبها سير النزاع بسماع الطرفين شخصيًّا وضبط نقاط الخلاف بينهما وسماع البيّنات وتلقي ما لكلّ منهما من المؤيدات، بما في ذلك توجيه اليمين الحاسمة وإتمام التوجهات على العين والإذن بإجراء الاختبارات واتخاذ القرارات المتعلقة بالجوانب الشكلية التي لا تأثير لها على موضوع الدعوى، وإذا كانت الأعمال المطلوبة ممَّا تستدعي خبرة فنيَّة أو كانت من النوع الذي يتعذَّر عليه القيام به، فإنه ينتدب لها من كان مؤهَّلا لإتمامها من الخبراء الذين يتولون إنجاز مهامهم تحت رقابته وطبق المأموريَّة المسندة لهم التي تحدِّد نطاق عملهم.

ويُحرِّر القاضي المقرِّر عند نهاية أعماله تقريرا يُحيله للمحكمة دون إبداء رأيه، ويبقى لهذه الأخيرة السلطة في إجراء جميع الأعمال الكاشفة للحقيقة فلها أن تأذن للقاضي المقرِّر بإجراء أبحاثَ معيَّنة من سماع بيِّنات أو إجراء توجُّهات واختبارات تكميليَّة أو تتبُّع دعوى الزور وغيرها من الأعمال التي تُقدِّرها وفق طبيعة النزاع ومحتواه.

ويجب أن يكون القاضي مبدئيّا من أهل الاجتهاد، فقد روي عن عَمرو ابن العاص أنه سمع رسول الله ﷺ قال ﴿إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران وإذا حكم فاجتهد فله أجرٌ﴾[54]. كما روي أن النبيَّ ﷺ قال لمُعاذ لمَّا بعثه إلى اليَمن:﴿بِمَ تَقضي﴾، قال: "بكتاب الله"، قال:﴿فإن لم يكن في كتاب الله﴾،قال "بسنَّة رسول الله"، قال ﴿فإن لم تجد في سنَّة رسول الله﴾ قال: "أجتهد برأيي ولا آلو جهدا"، فقال:﴿الحمد لله الذي وفّق رسولَ رسولِ الله لما يرضاه رسول الله﴾[55]، وروى بريدة أن النبيَّ ﷺ قال ﴿القضاة ثلاثة واحد في الجَنّة واثنان في النّار فأما الذي في الجنّة فرجل عرف الحقَّ فقضى به، ورجل عرف الحقّ فجَار فيه فهو في النّار، ورجل يَجهل فهو في النّار﴾[56].

والتعريف الأصولي للاجتهاد هو "بذل الفقيه الجهد في استنباط الأحكام الشرعيّة العمليّة من أدلّتها"[57]، ويضيف القرافي "التاء في لسان العرب في فعل اجتهد لفرط المعاناة تدل على تعاطي الشيء بعلاج وإقبال شديد عليه، نحو اقتلع واكتسب"[58]. ويُعرّف الآمدي الاجتهاد بالقول: لغة: عبارة عن استفراغ الوِسع في تحقيق أمر من الأمور مستلزم للكلفة والمشقّة، ولهذا يقال: اجتهد فلان في حمل حَجَر البزارة ولا يقال اجتهد في حمل خردلة. أما في اصطلاح الأصوليين فمخصوص باستفراغ الوِسع في طلب الظنّ بشيء من الأحكام الشرعيّة على وجه يحسّ من النفس العجز عن المزيد فيه [59].

ويُعدُّ شرط الاجتهاد[60] في الشرع أساسًا لاختيار القاضي وتعيينه بأن تتوفر فيه شروط المجتهد غير المُقلّد، مع ما يقتضيه ذلك من علم بالأحكام القرآنيّة وأحكام الأحاديث وأصول الفقه والتفسير واللّغة، فهو يقضي باجتهاده لا باجتهاد غيره إذا لم يجد الحكم المناسب للواقعة لا في الكتاب ولا في السنَّة ولا في الإجماع [61].

قال الشافعي: قال الله تبارك وتعالى "وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الحَرْثِ"[الأنبياء:78]، قال الحسن بن أبي الحسن: لولا هذه الآية لرأيت أن الحكَّام قد هلكوا، ولكنّ اللهَ حَمَد هذا لصوابه، وأثنى على هذا باجتهاده[62]، "والمجتهد: من يعرف من كتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام الحقيقة والمجازَ، والأمر والنهي، والمجمل، والمُبيَّن، والمُحكمَ

والمتشابه، والخاص والعامَّ، والمطلق والمقيّد، والناسخ والمنسوخ، والمستثنَى والمُستثنى منه، ويعرف من السنة صحيحها من سقيمها، ومتواترها من آحادها، ومرسَلها ومتّصلها، ومسندها ومُنقطعها مما له تعلّق بالأحكام خاصّة. ويعرف ما أُجمع عليه مما اختلف فيه. والقياس وحدودُه وشروطه، وكيفيّة استنباطه، والعربيّة المتداوَلَةَ بالحجاز والشّام والعراق، وما يُواليهم. فمن وقف عليه ورُزق فهمه صَلُح للفتيا والقضاءِ"[63].

والقاضي محمول على المُشاورة لأهل العلم بأن "يتّخذ بِطانةً من أهل العلم يُشاورهم في أمور القضاء والدعاوى التي ينظرها وهو غير مُلزم بالأخذ برأيهم لأنه يقضي باجتهاده لا باجتهادهم"[64]، قال تعالى ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران:159]. "سُئل القاضي أبو عبد الله بن الحاج عن صفة من ينبغي أن يشاور من أهل العلم؟ أجاب: ينبغي أن يشاور من أهل العلم العالم النافذ الخيّر الورع الواثق بنفسه وعلمه، والعالم بكتاب الله وسنّة نبيّه محمد صلى الله عليه وسلّم وما مضى من الحكم، العارف باللّغة ومعاني الكلام الموثوق به في دينه، والذي يُؤمَن فيما يشير به ولا يميل إلى هوى ولا طمع[65].

الجزء الثاني: ضمانات حقُّ التقاضي:

لا يمكن أن يُمارس حقّ التقاضي إلا وفق مبادئ أساسيّة مضبوطة تهدف إلى ضمان هذا الحقّ وصيانته، تُقسّم إلى ضمانات متّصلة بالمتقاضي وضمانات متّصلة بهيكل القضاء.

الفقرة الأولى: ضمانات متّصلة بالمُتقاضي:

وتشمل مبدأ مجانيّة التقاضي وحقّ الدفاع والمساواة أمام القضاء.

1- مبدأ مجانيّة التقاضي:

الأصل أن مُمارسة حقّ التقاضي مجاني باعتبار أنه مرفق عمومي مُتاح للجميع بصرف النظر عن الوضع المادّي أو الاجتماعي للمُتقاضي، فهو أداة الفقير والأرمل واليتيم والقاصر لتحصيل حقوقه بأرفق السُبل وأيسرها فلا يمكن أن يحول عارض للالتجاء للقضاء، أو أن تكون مُناسبة تظلّمه وسيلة لجمع أموال الجباية لفائدة الدولة.

غير أن هذا المبدأ ليس على نفس المستوى من التطبيق إذ أن مجلة التسجيل والطابع الجبائي الصادرة بالقانون عدد 58 لسنة 1993 المؤرخ في 17 ماي 1993، وقوانين الماليّة الصادرة في مُفتتح كلّ سنة إداريَّة، تتضمَّن في غالبها أحكاما جبائيَّة متَّصلة بممارسة حقّ التقاضي كإحداث معاليم جديدة أو الترفيع في القديمة منها، أو إخضاع إجراءات قضائيّة

معيَّنة للتسجيل بعد أن كانت معفيّة منه، أو توظيف معلوم على تسجيل الأحكام أو إحداث طوابع جبائيّة والترفيع في قيمتها... وغيرها من الأحكام والتراتيب الإداريّة ذات الأثر المالي والجبائي بالنسبة للمتقاضي التي لا يُراعى فيها مقدرة المتقاضي ووضعه الاجتماعي والمادّي.

وفي المقابل تمَّ التخفيف من وطأة تلكم الإجراءات الجبائيّة بسنُّ نظام الإعانة العدليَّة بموجب القانون عدد 52 لسنة 2002 المؤرخ في 03 جوان 2002 المتعلق بالإعانة العدليَّة في المادة المدنيَّة لكلِّ شخص طبيعي طالبا كان أو مطلوبا، وذلك في كلِّ طور من أطوار القضية أو لتنفيذ الأحكام أو لممارسة حقِّ الطعن. كما تمَّ إقرار نظام الإعانة العدليَّة لدى المحكمة الإداريَّة بموجب القانون عدد 3 لسنة 2011 مؤرخ في 3 جانفي 2011 يتعلق بالإعانة القضائية لدى المحكمة الإدارية الذي ينتفع بموجبه بالإعانة القضائية كل شخص طبيعي تونسي الجنسية أو أجنبي مقيم عادة بالتراب التونسي، بشرط احترام مبدأ المعاملة بالمثل، لمباشرة أعمال الادِّعاء أو تنفيذ الأحكام أو الطعن فيها ويجب إثبات الحالة الماديَّة للطالب التي تُعوزه عن التوصُّل بحقوقه من كونه عديم الدخل وأن الحقَّ المدَّعَى به مبني على أسباب جديَّة.

وهي إجراءات تبقى قاصرة عن تحقيق مبدأ مجانيّة التقاضي باعتبار تعدّد المتداخلين في مرفق القضاء من محامين وعدول تنفيذ وخبراء وإدارات ذات صلة كإدارة الملكيّة العقاريّة وديوان قيس الأراضي ورسم الخرائط وجميعها تُخضع خدماتها لدفع معاليم لتحصيلها.

وفي إطار الفقه الإسلامي فإن القضاء يبقى مبدئيّا محافظا على صبغته المجانيّة باعتباره أمانة وعهد، فلا وجود لرسوم أو معاليم أو طوابع جبائيّة تُفرض على المدَّعي أو تمنع القاضي من النظر في النزاع، لأنَّ ذلك قد يكون سبيلا لمنع استيفاء الحقوق وتحقيق العَدل بين النَّاس وهو مَقصد القضاء ومآله، كما أن الدولة في الإسلام ليست في حاجة إلى تمويل خزينتها بواسطة الموارد الجباية المتأتّية من مَرفق العَدالة.

وأشار الفقهاء إلى ضرورة تخصيص جانب من أموال بيت المال لمصلحة القضاء لكتابة الأحكام والمحاضر والسجلاّت، إذ أورد ابن قدامة "وينبغي أن يجعل من بيت المال شيء برسم الوراق التي يكتب فيها المحاضر والسجلاّت لأنه من المصالح، فإنه يحفظ به الوثائق، ويذكِّرُ الحاكم حكمه والشاهد شهادته ويرجع بالدَّرك على من رجع عليه، فإن أعوز ذلك لم يَلزمه الحاكم ذلك، ويقول لصاحب الحقّ: إن شئتَ جئتَ بكاغدٍ أكتب لك فيه، فإنه حجّة لك ولستُ أُكرهكَ عليه[66].

2- مبدأ حقّ الدفاع:

يُعدُّ حقُّ الدفاع من أصول المحاكمة العادلة التي تمكِّن من تحقيق العدل والنُطق بالحقّ، إذ أوجب القانون على المحكمة السهر على احترام هذا الحقّ وتطبيقه باعتباره حقًّا دستوريًّا لا يُمكن النيل منه أو هضمه.

ومن آثاره أن حُمِّل المدَّعي قانونا بواجب إطلاع خصمه على أوراق ملف القضيَّة وعلى جميع المؤيّدات المظروفة بها طبق صريح نصّ الفصل 4 من مجلّة المرافعات المدنيّة والتجاريّة، وذلك بتبليغ المدعَى عليه بنسخة من عريضة دعواه مع نسخة من المؤيدات وأن يستدعيه للجلسة بواسطة عدل منفذ في أجل مضبوط قبل تاريخ الجلسة، وأن ينبّه عليه للجواب عن الدعوى وتقديم ما لديه من ملاحظات ومؤيدات بواسطة محامي، إن اقتضى القانون وجوب تكليفه.

وتتثبَّت المحكمة في مدى احترام عريضة الدعوى لتلكم الإجراءات الشكليَّة، وتقضي ببطلانها بما يمنعها من الفصل في أصل النزاع طبق أحكام الفصل 71 من مجلّة المرافعات المدنيّة والتجاريّة. وفي صورة حضور المدعَى عليه وطلب التأجيل للجواب فإن المحكمة تستجيب لطلبه وتمكِّنه من أجل معقول لإبداء ما لديه من ملاحظات ودفوع للردّ عن الدعوى وهو من أوجه احترام حقّ الدفاع.

وحرص الفقه الإسلامي بدوره على صيانة هذا الحقّ، ذلك أن حُكم الدعوى وجوب الجواب على المدعَى عليه لأنَّ قطع الخصومة والمنازعة واجب ولا يمكن القطع إلا بالجواب[67]، بما يقتضيه ذلك من واجب إحضاره لمجلس القضاء حتى يقع سماع ما لديه للردّ عن الدعوى فيُقرُّ أو يُنكر. أمَّا إذا حضر وطلب إمهاله فإن القاضي يؤجّله إلى موعد يُحدِّده.

وأورد أبو اصبغ صيغا للآجال بالقول "وضرب الآجال مصروف إلى اجتهاد القاضي وليس فيها حدّ محدود لا يتجاوز، إنما هو الاجتهاد وبحسب ما تعطيه الحال، فإذا كان الأجل المضروب في الأصول أجّل المُعذر إليه من طالب أو مطلوب خمسة عشر يوما ثم ثمانية أيام ثم أربعة أيام ثم تلوّم عليه ثلاثة أيام تتمّة ثلاثين يوما في الجميع"[68]، فإذا انقضت الآجال ولم يأت بجوابه ولم يَأت بعُذر يوجب إعادة التأجيل فإن القاضي يصدر قراره بتعجيزه أي اعتباره عاجزا عن تقديم بيّنته لدفع الدعوى[69].

ومن مظاهر احترام حقّ الدفاع أن القاضي لا يقضي بعلمه بل إنه مُلزم بتحقيق الدعوى طبق ما تضمنته أوراقها وهو ما يُستنتج من تحميل القاضي واجب تعليل الأحكام

الصادرة عنه التعليل الواقعي والقانوني[70]، بما يقتضي أن يُبنى الحكم على ما له أصل ثابت بالملف طبق ما استقرَّت عليه الأعمال الاستقرائيَّة ووسائل الإثبات المُخوَّلة قانونا التي عُرضت على المحكمة وتمَّ النقاش فيها والترافع بشأنها أمام القضاة الذين أصدروا الحكم، مبدأ أقرَّته محكمة التعقيب" يُمنع على القاضي القضاء بعلمه الشخصي الذي يقصد منه علمه الشخصي بوقائع النزاع فهو يتلقى الوقائع من الخصوم ويقتصر عليها إلا أن ذلك لا يتعلق بعلمه للقانون فهو ملزم بالعلم به في معناه الشامل سواء كان مكتوبا أو غير مكتوب وإلا اعتبر مُنكرا للعدالة"[71].

أمَّا بالنسبة للفقه الإسلامي فقد اختلف الفقهاء حول جواز حكم القاضي بعلمه. قال مالك رضي الله عنه وأكثر أصحابه لا يقضي القاضي في شيء من الأشياء بما علمه لا قبل ولايته ولا بعدها، ولا يقضي القاضي إلا بالبيّنات أو الإقرار، "ولا يجوز للحاكم أن يحكم بعلمه في حدّ ولا في حقّ من الحقوق ولا في شيء قد كان شهد عليه مع غيره[72].

أما المذهب الشافعي ففي أحد القولين: لا يقضي بشيء من علمه في مجلس الحكم ولا في غيره إلا أن يشهد شاهدين بشيء على مثل ما علم، فيكون علمه وجهله سواء، وهكذا قال شريح[73]، واستثني القول في تعديل الشهود بكون القاضي يقضي بعلمه قولا واحدا لأنه أقوى من الشاهدين[74].

وقال أبو حنيفة: ما علمه القاضي قبل أن يَلِيَ القضاءَ أو رآه في غير مِصره لم يقضِ فيه بعلمه لأنه شاهدٌ واحد في ذلك، وما عَلمه بعد أن اسْتُقضِي أو رآه بمِصره قَضَى في ذلك بعلمه إلا في الحدود لأنه في ذلك قاضٍ لا يحتاج أن يضمَّ إليه فيما يقضي به غيره[75].

واتّفق الحنابلة على أن القاضي لا يقضي بعلمه في حدّ ولا غيره لا فيما علمه قبل الولاية ولا بعدها[76] وقالوا: "وهو المذهب وعليه الأصحاب"[77]

3- مبدأ المساواة أمام القضاء:

ضمِنت مختلف الشرائع والقوانين حقَّ التقاضي، والأصل فيه الحريَّة والمساواة بين الجميع وهو ما أقرَّه القانون التونسي من خلال الفصل 108 من دستور2014، وأقرَّته الشريعة الإسلاميَّة باعتبار أن المسلمين والكفَّار والأحرار والعبيد في الدعاوى سواء، "وفي هذا الحديث من الفقه: أن المسلم والكافر والذميّ في الحكم بينهما والفصل بين المسلمين سواء"[78]، فقد وروي عن مالك عن يحي بن سعيد عن سعيد بن المسيّب، أن عمر بن الخطاب اختصم إليه مسلمٌ ويهودي. فرأى عمر أن الحقّ لليهوديّ فقَضى له، فقال له اليهودي: "والله لقد

قضيت بالحقّ"، فضربه عمر بن الخطاب بالدِّرَّة ثم قال: "وما يُدريك؟"، فقال له اليهودي: "إنَّا نجد أنه ليس قاضٍ يقضي بالحقّ إلا كان عن يمينه مَلَكٌ وعن شِماله ملكٌ يسدِّدانه ويوفِّقانه للحقّ، ما دام مع الحقّ، فإذا تركَ الحقَّ عَرَجَا وتَركاهُ".[79]

واختلف الحنفيَّة في دعوى المرتدِّ، فمنهم من قال هو في الدعوى كغيره، ومنهم من قال لا تُسمع دعواه لأن مِلكه قد زال عن أمواله، ومنهم من قال تُسمع فيما اكتسب بعد الردّة ولا تُسمع فيما كان قبل الردَّة، وعند محمد وأبو يوسف تُسمع في جميع الأحوال [80].

الفقرة الثانية: ضمانات متّصلة بهيكل القضاء:

وتشمل مبدأ التقاضي على درجتين وعلانيّة الجلسة.

1- **مبدأ التقاضي على درجتين:**

هو من أهمّ الضمانات المخوَّلة للمتقاضي، باعتبار أنه يُمكِّن من صدر ضدَّه حكمًا ابتدائيًّا من الطعن فيه لدى محكمة أعلى درجة لإعادة النظر في النزاع ونقض الحكم عند الاقتضاء، إن نجح الطاعن في إثبات المطاعن القانونية والواقعيَّة المنسوبة للحكم الابتدائي المطعون فيه.

والطعن في الأحكام مقنَّن صلب مجلّة المرافعات المدنيّة والتجاريّة[81] بإجراءات مضبوطة من حيث شروط الحكم المطعون فيه وآجال الطعن وإجراءاته وآثاره، وتصنَّف إلى طرق طعن عاديَّة مثل الاستئناف، وطرق طعن غير عاديَّة مثل التماس إعادة النظر والاعتراض والتعقيب.

والأمر بمثله في الفقه الإسلامي، ولو أنه ليس على نفس المستوى من ناحية الإجراءات، باعتبار جواز نقض أحكام القاضي حسب شروط معيَّنة.

والنَّقضُ: لغة انتثار العقد من البناء والحبل، والعَقْدِ، وهو ضدّ الإبرام[82]، ويمكن أن يؤدي إلى فسخ الحكم وعدم تنفيذه لأن القاضي مأمور بالعدل فإذا "تبين له خطأ في قضائه ينبغي له أن يُظهر رجوعَه عن ذلك، ولا يمنعه الاستحياء عن الناس من ذلك ولا الخوف، فالله تعالى يحفظه من الناس والناس لا يحفظونه من عذاب الله تعالى"[83]. وللقاضي أن ينقض أحكام نفسه أو أحكام غيره.

فبالنسبة لأحكامه، إذا تبيّن له الخطأ: قال سحنون: إذا كان الحكم مختَلفا فيه وله فيه رأي وحكم بغيره سهوا، فله نقضه، وليس لغيره نقضه. وإن كان رَأَى بعد الحكم رأيًا سواه لم ينقضه[84]. وقال "والخطأ الموجب لردّ حكم العدل العالم: فسّره اللّخمي: بما خالف نصّ آيةٍ

أو سنّة أو إجماع. قلتُ: أو ما ثبت من عمل أهل المدينة، لأنه عند مالك مقدّم على الحديث الصحيح عنده.[85]

وقال الشافعي: "إذا رأى أنه خالف في حكمه الأوّل كتابا أو سنّة أو إجماعا، أو أصحّ المعنيين فيما احتمل الكتاب أو السنّة، نقض قضاءه الأوّل على نفسه ونقضه على من قضى به إذا رفع إليه. وإن كان قياسا محتملا أحسن عنده من شيء قضى به قبل، فإنه يستأنف الحكم في القضاء الآخر بالذي رأى آخرا ولم ينقض الأوّل ولا ينقضه على من قضى به[86].

وقال الحنفية: إذا قضى في حادثة بالاجتهاد ثم تحوّل رأيه في الثانية فلا يوجب نقض حكمه الأوّل لأنه قضاء بالاجتهاد مجمع على جوازه ولا يجوز لقاضي آخر أن يبطله[87]

أمّا نظره في أحكام غيره ففيه تفصيل على حسب أحوال القاضي فإن كان عدلا عارفا: "فالأصل ألاّ تعترض أحكام القضاة العدول إلاّ أن يثبت جورها"[88].

أمّا الجاهل العدل: فيكشف أقضيته، فما كان منها صوابا أمضاه وما كان خطأ لم يختلف فيه ردّه. ثالثا: غير العدل: فظاهر المذهب فسخ أحكامه على ثلاثة: الفسخ المطلق: قاله ابن القاسم في المستخرجة، وعدمه مطلقا قاله عبد الملك، والتفرقة في ما مضي من أحكامه ما عدل فيه ولم يسترب، ويردّ ما فيه جور أو استُريب، ويفعل فيها ما يفعل في أقضية الجاهل: قاله اصبغ[89].

قال أصحاب المذهب الشافعي لا يجب أن يتعقّب أحكام من قَبله لأمرين: أحدهما: أن الظاهر منها نفوذها على الصحة، والثاني: أنه ناظرٌ في مستأنَف الأحكام دون ماضيها[90].

2- علانيَّة الجلسات:

يُعدُّ مبدأ علانية الجلسات من المبادئ الأصيلة الذي يعود جذورها إلى الحضارات القديمة، حيث كانت المحاكمات تتمُّ بحضور طائفة من أفراد الشعب ليَشهد المحاكمة في فضاءات مفتوحة تُجسِّد نوعا من المحاكمات الشعبيَّة كوسيلة للاقتصاص وتطبيق القانون.

وتقتضي مجلّة المرافعات المدنيّة والتجاريّة أن تُعقد الجلسات في المحاكم وهي مقرَّات عموميَّة مفتوحة للعموم، ويتمُّ الترافع في القضايا بصورة علنيَّة طبق أحكام الفصل 117 "تكون المرافعة علنيّة..."، ويحضر جلساتها أطراف الدعوى وغيرهم، إلا إذا رأى القاضي ضرورةً لعقدها بصورة سريَّة حفاظا على النظام العام أو مراعاة للآداب العامَّة أو لحرمة الأسرة. كما أن التصريح بالأحكام يتمُّ بصورة علنيَّة إثر جلسة المفاوضة طبق أحكام الفصل 121 "...تُحرَّر لائحة في نصّ الحكم ومستنداته يمضيها القضاة المتفاوضون ولا تكون لهذه

اللائحة صبغتها النهائية إلا بعد النطق بها بجلسة علنيّة يحضرها جميع القضاة الذين أمضوها...". ويحفظ رئيس المحكمة النظام داخل الجلسة إن تمَّ بها ما يُشوِّش النظر أو يُعطِّل سيرها العادي وله أن يمنع تسجيل أطوارها أو تصويرها إلا بإذن خاص لمصلحة ثابتة.

ولمبدأ علانيَّة الجلسات مكانته في القضاء طبق أحكام الفقه الإسلامي حيث كانت المُحاكمات تُعقد في المسجد ويجلس القاضي في مجلس الحكم، وكان الشعبيُّ يقضي في الجامع وشُريح يقضي في المسجد إلا في يوم المَطر فإنه يقضي في دَاره[91].

وقال الشافعي: وكُره أن يجلس للقضاء في المسجد لأن الخصومة يحضرها اللَّغط والسَّفلة فنُزِّه المسجد من ذلك ولأنه قد يقضي بين الحَائض والجُنُب فلا يمكنهما المقام في المسجد... والمستحبُّ أن يجلس للحكم في موضع بارز يصل إليه كلُّ واحد ولا يحتجب من غير عذر، ويستحب له أن يكون المجلس فسيحا حتى لا يتأذى بضيقه الخصوم ولا يُزَاحَم فيه الشيخ والعجوز ولا يكون موضعا لا يتأذَّى فيه بحرٍّ ولا بردٍ ولا برائحة نَتنة[(92)].

ويحضر مجلس الحكم الخصوم والوكلاء والشهود والأمناء من جهة والفقهاء المشاورون من جهة أخرى ويحضره أيضا "أصحاب المسائل عن الشهود" الذين يستيعين بهم القاضي ليعرف أحوال من جُهلت عدالته من الشهود و"أن يكونوا جامعين للعفاف في الطُعمة والأنفس براء من الشحناء بينهم وبين الناس ولا يكونوا من أهل الأهواء والعصبيّة"[(93)]. بينما يرى الحنفيّة أنه لا يُكره أن يجعل القاضي مجلسه في المسجد وجلوسه في الجامع أولى لأن النبيَّ ﷺ كان يجلس في المسجد وينظر في أمور المسلمين قال الشعبيُّ: "رأيت عُمر يقضي في المسجد"[(94)].

والأصل أن المرافعة تكون علنيَّة لكن قد يرى القاضي المصلحة في جعلها سريَّة "لأنَّ الخصومة تكون في أمور ربما كانت شِنعة بين الرجال والنساء أو مضحكة لا يؤمَن أن يؤدي ذلك إلى ما يُكره"[(95)].

قيل: إن قضاء القاضي من باب تغيير المنكر فتجب الفوريّة فيه بحسب الإمكان"[96]

المُخرجات:

إن اختلاف طبيعة النصّ المتعامل معه القانوني والشرعي لا يُحيل في جميع الحالات إلى التصادم بل إن العامل المشترك بينهما هو الرغبة في التنظيم والتأطير بإيجاد حدود مضبوطة معلومة مسبقا من المُخاطَب تكون مرجعا ثابتا تُلزم الأفراد بالتقيّد بها في جملة تصرّفاتهم.

إن الأمر يحتاج إلى إزالة حالة الجمود عن النصّ القانونيّ وعن الاجتهاد الفقهي، واستغلال خصائص التشريع الإسلامي بما فيه من سعة واستيعاب ودقة ومرونة وبُعد مقاصدي وإيجاد قراءة متوازنة هادئة وواعية للنصوص بعيدة عن التعصب الذهني قادر فعلا على تحقيق العدالة المنشودة.

ضرورة استغلال مميّزات التشريع الإسلامي (السّعة والاستيعاب، الدقّة المتناهية، مرونة أصوله ومصادره، مكانة العرف، بناء الأحكام على أساس مقاصدي) ومميزات النص القانوني (الديمومة، النشر..) ليطعّم أحدهما الآخر حفاظا على نسق النصّ وديمومته وتحقيقا لغاياته.

أن حقّ التقاضي لا بدّ أن يُحصّن بجميع الضمانات والآليات حتى لا يقع المساس به، باعتبار أن تعقّد الإجراءات والتمسّك بالشكليّات على مستوى القانون يؤدّي في عديد الأحيان إلى التضحية بهذا الحقّ فيكون الشكل حائلا أمام القاضي للنطق بالحقّ.

أن حقّ التقاضي هو عنوان للعدالة الحقيقيّة وهو ما لا يتسنّى إلا بضمان سرعة الفصل في الخصومات وتنقيح الإجراءات والقوانين التي تُعيق مرفق القضاء عن أداء دوره المعهود إليه وذلك باعتماد الأساليب الحديثة في الولوج إلى مرفق العدالة كالتقاضي عن بُعد ورقمنة مصالح العدالة وتقريب الخدمة للمتقاضي وتبسيط الإجراءات، وهذا من ناحية، ومن أخرى، ضمان استقلاليّة فعليّة للقضاء ولشركائه ومساعديه من محامين وعدول وخبراء وكتبة....بإيجاد أطر قانونيّة قويّة ونافذة تكفل حريّة القاضي وفاعليّة كافّة المتداخلين في مرفق القضاء حتى يقوم كلّ منهم بواجبه حسب طموحات المجموعة، وحتى يكون القضاء تجسيدا حقيقيّا للشعار الذي يحمله من أن العَدل أساس العمران.

الهوامش:

[1] - القُونوي، قاسم بن عبد الله بن ملانا خير الدين أمير علي القونوي الرومي الحنفي، ت 978هـ، أنيس الفقهاء في تعريفات الألفاظ المتداولة بين الفقهاء، تح أحمد بن عبد الرزاق الكُبيسي، دار الوفاء للنشر والتوزيع- السّعوديّة جدّة، ط 1، 1986، ص 216

[2] - جندوبي وبن سليمة، أصول المرافعات المدنيّة والتجاريّة، شركة أوربيس، تونس 2001، ص 166

[3] - ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضَوْ بن درع القرشي الشافعي، 701-774هـ، تفسير القرآن العظيم، تح حكمت بن بشير بن ياسين، ج4، دار ابن الجوزي- السعوديّة، ط1، 1431، ص 704

[4] - أخرجه أبو داود، السنن، الأدب، باب النهي عن البغي،ح 2902

[5] - أخرجه الطبري من طريق الشعبي، المعجم الكبير، ح 8659

[6] - أبو حيان، أثير الدين محمد بن يوسف بن علي بن يوسف ابن حيّان الأندلسيّ الغرناطيّ، 745/654 هـ، تفسير البحر المحيط، تح عبد الرزاق المهدي، ج5، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ص 673

[7] - الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي، 1393هـ، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، تح بكر بن عبد الله بوزَيد، دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع، مج 3، ص 418

[8] - الطبري، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الشهير بالإمام أبو جعفر الطبري، 310/224هـ، تفسير الطّبري من كتابه جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تح بشار عوّاد معروف وعصام فارس الحرستاني، مج 4، مؤسسة الرسالة- بيروت، ط1، 1994 ص 551

[9] - الأصفهاني، الراغب، 425هـ، مفردات ألفاظ القرآن، تح صفوان عدنان داوودي، دار القلم- الدار الشاميّة،ط4، 2009، ص 551

[10] - الزحيلي وهبة ، الفقه الإسلامي و أدلّته ، ط 2، دمشق، دار الفكر،1985، ص 34

[11] - هاشم، محمد العربي ، محاضرات في القانون المدني، كليّة الحقوق والعلوم السياسيّة بتونس، 1990 ، ص 19

[12] - الزرقا أحمد ، شرح القواعد الفقهيّة، تح مصطفى أحمد الزرقا، ط 2، دمشق،دار القلم، 1989، ص 499

[13] - طلافحة محمد أحمد ، قاعدة الجواز الشرعي يُنافي الضمان وتطبيقاتها في الفقه الإسلامي والقانون، رسالة بحث،(جامعة الأردن 2006).

[14] - قاعدة منسوبة للفقيه الروماني "سيسورون" *Cicéron*، (مولود سنة 106 قبل المسيح في إيطاليا) مُرادفها بالفرنسيّة:**Justice excessive devient injustice**

[15] - الفقرة الأولى من الفصل 103 من مجلّة الالتزامات والعقود التونسيّة

[16] - الفصل 242 من مجلّة الالتزامات والعقود التونسيّة

[17] - الفصول 285 وما بعده من مجلّة المرافعات المدنيّة والتجاريّة

[18] - أخرجه الترمذي ، سُنن الترمذي،كتاب الأحكام، باب ما ذُكر عن رسول الله صلى الله عليه و سلّم في الصلح بين الناس، ح ر 1352.

[19] - الفصل 1134 من القانون المدني الفرنسي:

" Les conventions légalement formées tiennent lieu de loi a ceux qui les ont faites, elles ne peuvent être révoquées que de leur consentement mutuel, ou pour les causes que la loi autorise. Elles doivent être exécutées de bonne foi"

[20] - الشاطبي، أبي إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد اللّخمي، الموافقات، تح أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، ط 1، مج 5، (السّعوديّة، دار ابن عفّان،1997)، ص 187.

الشاطبي، الإمام العالم أبو محمد القاسم بن فِيُرُّه، بكسر الفاء،بن خَلَف بن أحمد الرُّعَينِيّ الشاطبيّ الضَّرير المقرئ أحد أعلام القرن السادس الهجري ولد سنة 538هـ

[21] - الشاطبي، ن م، ص 187

[22] - تُنسَبُ هذه المقولة لعليّ بن أبي طالب رضي الله عنه حيث قالها في موقعة صفّين سنة 37 هـ والتي كانت بين جيشه وجيش معاوية بن أبي سفيان.، قالوا له: لا حكم إلا لله، *قال عليّ:" كلمة حقٍ أُريد بها باطلا"* ، فأصل الكلمة صدقٌ لكنهم أرادوا بها الإنكار على عليّ رضي الله عنه في تحكيمه .

[23] - القرافي أحمد بن إدريس، ت 684هـ، الأحكام في تمييز الفتاوى من الأحكام وتصرفات الإمام، تح عبد الفتاح أبو غدة، مكتبة المطبوعات الإسلاميّة، حلب، 1967، ص 37

(أخرجه ابن ماجه في السنن عن أنس بن مالك برقم 154، كتاب المقدمة، باب فضائل خباب رضي الله عنه).

[24] - قرار تعقيبي مدني عدد 6312 بتاريخ 2006/03/30، *قرارات الدوائر المجتمعة لمحكمة التعقيب*، منشورات مركز الدراسات القانونية والقضائية 2008، ص 221

[25] - قرار تعقيبي مدني عدد 61677 مؤرخ في 1999/02/22،نشريّة محكمة التعقيب، ج2، 1999، ص 57

[26] - الشاطبي، ن م، ج5، ص 177

[27] - الشاطبي، ن م، ج5، ص 181

[28] - العزّ بن عبد السلام، عزالدين عبد العزيز بن عبد السلام السُّلمي، ت 660هـ، الفوائد في اختصار المقاصد أو القواعد الصغرى، تح إيّاد الطباع، دار الفكر المعاصر،بيروت، ط1، 1996، ص 33

[29] - رواه مالك، الموطّأ، كتاب الأقضية- باب القضاء في المرفق ح ر 2895

[30] - سُنن أبي داود، كتاب الأقضية، أبواب من القضاء، ح ر 3636

[31] - ينسبُ الفقه الفرنسي هذه النظريّة لنفسه من خلال مؤلفات الفقيه الفرنسي *JOSSERAND*، والحال أن الفقه الإسلامي سبقه إليها منذ قرون.

[32] - السيّد شوقي، التعسّف في استعمال الحقّ، طبيعته ومعياره في الفقه والشريعة والقضاء، ط2، القاهرة، دار الشروق، 2008، ص60

[33] - Marcel PLANIOL et Georges RIPERT, ***Traité élémentaire de droit Civil***, T1,15ème éd., LGDJ- PARIS, 1928

[34] - Louis JOSSERAND, ***de l'esprit des droits et leurs relativité, théorie dite de l'abus des droits***, Dalloz, impression de la 2ème éd. de 1939, PARIS 2006

[35] - الفقرة الثالثة من الفصل 31 مجلّة الأحوال الشخصيّة

[36] - الفصل 14 مجلّة الشغل

[37] - قانون عدد 37 لسنة 1977 المؤرخ في 25 ماي 1977 المتعلق بتنظيم العلاقات بين المسوّغين والمتسوّغين فيما يخصّ تجديد كراء العقارات أو المحلاّت ذات الاستعمال التجاري أو الصناعي أو المستعملة في الحرف.

[38] - الفصل 17 من القانون الأساسي المؤرخ في غرّة جوان 1972 المتعلّق بالمحكمة الإداريّة.

[39] - ابن ناجي، قاسم بن عيسى بن ناجي، 837هـ، شرح ابن ناجي التّنوخي على متن الرسالة للإمام أبي محمد بن أبي زيد القيرواني386هـ، تح أحمد فريد المزيدي، ج2، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2007، ص386

[40]- البغدادي، أبو محمد عبد الوهاب بن علي بن نصر البغدادي المالكي 422هـ، ،الإشراف على نُكتِ مسائل الخلافِ، تح أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، مج 3، دار ابن القيّم بالرياض ودار ابن عفان بمصر، ط1، 2008، مسألة 908 ص 45.

[41] - ابن فرحون، تبصرة الحكام في أصول الأقضية ومناهج الأحكام، تح طه عبد الرؤوف سعد، ط1، مكتبة الكليات الأزهريّة، 1986، ج2، ص 156

[42] - الفصل 102 من الدستور التونسي

[43] - الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي البصري الشافعي، ت 450هـ، أدب القاضي، تح مُحي هلال السَّرحان، مطبعة الإرشاد، بغداد، 1971، ج1، ص 135

[44] - ابن عرفة، المختصر الفقهي، ت 803هـ، المختصر الفقهي، تح حافظ عبد الرحمان محمد خير، مطبعة الفاروق، ط1، 2014، ج9، ص 85

البرزلي، أبو القاسم بن أحمد البلوي التونسيّ، 841هـ، فتاوى البرزلي، جامع مسائل الأحكام لما نزل من القضايا بالمفتين والحكّام، تح محمد الحبيب الهيلة، دار الغرب الإسلامي-بيروت، ط1، 2002، ج4، ص 5

[45] - ابن راشد القفصي، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن راشد البكري القفصي، ت 736هـ، لباب اللباب في بيان ما تضمنته أبواب الكتاب من الأركان والشروط والموانع والأسباب، تح محمد المدنيني والحبيب بن طاهر، دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث، دبي ، ط 1، 2007، ص 697

[46] - ابن مفلح، شمس الدين محمد بن مفلح المقدسيّ، 763هـ، كتاب الفروع، تح عبد الله بن عبد المحسن التركي، ج11، مؤسسة الرسالة – بيروت، دار المؤيد- جدّة، ط 1، 2003، ص 107

[47]- الكاساني، علاء الدين أبي بكر بن مسعود الكاساني الحنفي، ت 587 هـ، بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، تح علي محمد معوّض وعادل أحمد عبد الموجود، ج 9 ، دار الكتب العلمية بيروت، ط 2، 2002، ص 138

[48] - زيدان عبد الكريم ، نظام القضاء في الشريعة الإسلاميّة، مؤسسة الرسالة- مكتبة البشائر، ط2، 1989، ص 64

[49] - البرزلي، أبو القاسم بن أحمد البلوي التونسيّ، 841هـ، فتاوى البرزلي، جامع مسائل الأحكام لما نزل من القضايا بالمفتين والحكّام، تح محمد الحبيب الهيلة، دار الغرب الإسلامي-بيروت، ط1، 2002، ج4، ص26

[50] - البهوتي، منصور بن يونس بن إدريس البُهُوتي، كشّاف القناع عن متن الإقناع، ج6، عالم الكُتب، بيروت، 1983، ص 291

[51] - الغزواني، تعليق على مجلّة المرافعات المدنيّة والتجاريّة ، ص 112

[52] - قرار تعقيبي مدني عدد 25966 بتاريخ 2009/05/21

[53] - الأصفهاني، الراغب، 425هـ، مفردات ألفاظ القرآن، تح صفوان عدنان داوودي، دار القلم- الدار الشاميّة،ط4، 2009، ص 669

[54] - صحيح مسلم، ح ر 1716، باب أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ، أخرجه البخاري 7352

[55]- أخرجه أبو داود في سننه ح ر 3592

[56]- أخرجه أبو داود في سننه ح ر 3573

[57] - الرازي، فخر الدين محمد بن عمر الحسين، 606/455 هـ، المحصول في علم أصول الفقه، تح طه العلواني، مؤسّسة الرسالة، ج6، ص6.

[58] - القرافي،شهاب الدين أبي العباس أحمد بن ادريس بن عبد الرحمان ، ت 684 هـ، نفائس الأصول في شرح المحصول، تح محمد عبد القادر عطا، ج4، دار الكتب العلمية بيروت، ص 513

[59] - علي بن محمد الآمدي،631/551هـ، الإحكام في أصول الأحكام، دار الصّميعي للنشر والتوزيع الرياض، ط1، 2003، ج 4، ص 201

[60] - شتيوي محمد، حكم الاجتهاد و أهميّته، درس في مادّة أصول الفقه، المعهد العالي لأصول الدين، 2016/2015

و راجع: محمد بن أحمد بم جُزي الغرناطيّ (741/693هـ)، تقريب الوصول إلى علم الأصول، تح نزار حمّادي، (تونس، دار الإمام ابن عرفة،د ت) ص 129

[61] - زيدان عبد الكريم ،ن م ، ص 248

[62] - الشافعي، محمد بن إدريس الشافعي، 204هـ، الأمّ، تح رفعت فوزي عبد المطلب، دار الوفاء القاهرة، ط1، 2001، ، ج 8، ص 209

[63] - المرداوي، علاء الدين أبي الحسن على بن سليمان المرداوي، 885/817 هـ، الإنصاف في معرفة الرّاجح من الخلاف على مذهب الإمام المبجّل أحمد بن حنبل، تح محمد حامد الفقي، طبع بالسعوديّة، ط1، 1955، ج11، ص 183

[64] - ابن قُدامة، موفّق الدين أبي محمد عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسيّ الجمَّاعِليّ الدِّمشقيّ الصّالحيّ الحنبليّ،620/541هـ، المُغني شرح مختصر الخرقي (أبي القاسم عمر بن الحسين بن عبد الله ت 334هـ)، تح عبد الله بن عبد المحسن التركي وعبد الفتاح محمد الحلو،ج 14، دار عالم الكتب، الرياض، ط3، 1997 ، ص 395

[65] - الونشريسي، أبي العباس أحمد بن يحي الونشريسي، 914هـ، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل إفريقيّة والأندلس والمغرب، تح جماعة من الفقهاء بإشراف محمد حجي، ج10، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلاميّة للملكة المغربيّة، 1981، ص50

[66] - ابن قدامة،ن م، ص 56

[67] - الكاساني، ن م، ص 417.

[68] - أبو اصبغ، عيسى بن سهل بن عبد الله الأسدي، ت 486هـ، الإعلام بنوازل الأحكام (المعروف بالأحكام الكبرى)، تح نورة محمد عبد العزيز التويجري، ج1، ط1، 1995 ، ص 49

[69] - زيدان، عبد الكريم ، ن م، ص 147.

[70] - الفقرة 5 من الفصل 123 مجلة المرافعات المدنية والتجاريّة

[71] - قرار تعقيبي مدني عدد 27962 بتاريخ 2009/11/19، ن م ت، ج2، 2009، ص 99

[72]-ابن عبد البرّ، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البرّ النمْري القرطبي (ت 463ه)، الكافي في فقه أهل المدينة المالكي،دار الكتب العلميّة، ط3، 2002، ص 956

[73] - الشافعي، الأمّ، ج7، ص 535

[74]- إمام الحرمين، عبد الملك بن عبد الله بن يوسف الجويني، 487/419 ه، نهاية المطلب في دراية المذهب، تح عبد العظيم محمود الدّيب، ج 18، دار المنهاج جدّة، ط 1، 2007، ص 581

[75] - الكاساني، بدائع الصنائع، ج 9، ص 114

[76] - ابن قدامة، المغني، ج 14، ص 30

[77] - المرداوي، علاء الدين أبي الحسن علي بن سليمان المرداوي، 885/817، الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف على مذهب الإمام المبجّل أحمد بن حنبل،تح محمد حامد الفقي، ج11، ص 251

[78] -ابن عبد البرّ، ن م، ص 20

[79] - الموطأ، كتاب الأقضية، باب الترغيب في القضاء بالحقّ.

[80] - السمناني، أبو القاسم علي بن محمد بن أحمد الرحبي السمناني، 499ه، روضة القضاة وطريق النجاة،تح صلاح الدين النّاهي، ج1، مؤسسة الرسالة-بيروت ودار الفرقان-عمّان، ص 1444

[81] - الجزء الرابع من المجلّة المتضمّن للفصول 130 وما بعده بعنوان "طُرق الطعن"

[82] - الأصفهاني، الراغب، 425ه، مفردات ألفاظ القرآن، تح صفوان عدنان داوودي، دار القلم- الدار الشاميّة،ط4، 2009، ص 821

[83] -السّرخسي، شمس الدين محمد بن أحمد بن أبي سهل أبو بكر السرخسي،482ه، المبسوط، ج16، دار المعرفة-لبنان،1989، ص75

[84] - ابن راشد القفصي، ن م، ص 711

[85] - ابن عرفة، محمد بن عرفة الورغمي التونسي، ت 803ه، المختصر الفقهي، تح حافظ عبد الرحمان محمد خير، مطبعة الفاروق، ط1، 2014، ج9 ، ص 135

[86] - الشافعيّ، الأمّ، ج 7، ص 495

[87] - الكاساني، ن م، ص 109

[88] - الونشريسي، أبي العباس أحمد بن يحي الونشريسي، 914ه، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل إفريقيّة والأندلس والمغرب، تح جماعة من الفقهاء بإشراف محمد حجي، ج10، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلاميّة للملكة المغربيّة، 1981، ص103

[89] - ابن راشد القفصي، ن م، ص 711

[90] - الماوردي، أدب القاضي، ج1، ص 690

[91] - السمناني، ن م، ص 97

[92] - الشافعي، الأمّ، ص 100

[93] - السمناني، ن م، ص 125

[94] - القدّوريّ، أبي الحسين أحمد بن محمد بن جعفر البغدادي (428/362هـ)، موسوعة القواعد الفقهيّة المقارنة(المسمّاة "التجريد")، تح محمد أحمد سراج و علي جمعة محمد، مج 12، ط1 (القاهرة، دار السلام، 2004) ، ص 6527

[95] - السمناني، ن م، ص 134

[96] - الونشريسي، ن م، ص 252

الكاتب: د/ طه حسن عقاب الزعارير
أ/ حسن محمد لافي الربابعة
وزارة التربية والتعليم - الأردن- باحث مساعد في جمعية عجلون للبحوث والدراسات

البريد الالكتروني: tahazareer@yahoo.com

عنوان المقال: الأدوات الزراعية في غور الأردن في العصرين الأيوبي والمملوكي (569-923هـ/ 1173-1517م)

تاريخ الإرسال: 2020/06/15 **تاريخ القبول:** 2020/06/27 **تاريخ النشر:** 2020/06/30

الأدوات الزراعية في غور الأردن في العصرين الأيوبي والمملوكي
(569-923هـ/ 1173-1517م)

الملخص:

لقد كان لغور الأردن دوراً هامّاً في الحياة الاقتصادية على مرّ العصور التاريخية، فقد امتاز بعدة ميزات، منها خصوبة أرضه التي يخترقها نهر الأردن والموقع الاستراتيجي كممر للقوافل وحلقة وصل بين بلاد الشام ومصر وغيرها من البلدان. وتأتي هذه الدراسة للتأكيد على جانب مهم من القطاع الزراعي، وهو الأدوات التي كانت تستخدم في العصرين الأيوبي والمملوكي لتتناسب مع حاجات المزارع في الغور في تلك الفترة والتي تعد من الركائز الأساسية التي تسند الإنتاج الزراعي. تناولت هذه الدراسة مجموعة من الأدوات الزراعية التي كانت مستخدمة في العصرين الأيوبي والمملوكي مزودة برسوم وصور توضيحية لهذه الأدوات وطريقة عملها.وتوصلت هذه الدراسة إلى النتائج والتوصيات من شأنها تحسين نوعية الحياة في في غور الأردن.

الكلمات المفتاحية: العصرين الأيوبي والمملوكي، غور الأردن، نهر الأردن ،الأدوات الزراعية.

Abstract:

Agricultural tools in the Jordan Valley in the Ayyubid and Mamluk periods

The Jordan Valley has played an important role in economic life throughout history. It has many advantages, including the fertility of its land,

which is penetrated by the Jordan River and the strategic location as a corridor of convoys and a link between the Levant, Egypt and other countries. This study is intended to emphasize an important aspect of the agricultural sector, which was used in the Ayyubid and Mamluk periods to suit the needs of farms in the Ghor in that period, which is one of the main pillars that support agricultural production. This study deals with a number of agricultural tools used in the Ayyubid and Mamluk periods, with drawings and illustrations of these tools and their methods., This study reached the results and recommendations that improve the quality of life in the Jordan Valley.

Keywords: Ayyubid and Mamluk ages, Jordan Valley, Jordan River, agricultural tools.

مقدمة:

لقد كان لغور الأردن دورا هاما في الحياة الاقتصادية على مدى التاريخ، وذلك لما تمتع به من موقع جغرافي هام، حيث كان منطقة وصل بين مصر وبلاد الشام وباقي بلدان العالم، بالإضافة لكونه الممر الرئيس الموصل إلى بيت المقدس للقادمين من الشرق.

لقد تعددت الأدوات الزراعية التي استخدمها الفلاح في الأغوار في العصرين : الأيوبي والمملوكي، والتي كانت بدائية تتناسب مع حاجاته وتلبي متطلباته للقيام بمهنته على أتم وجه في تلك الفترة.

ومن الأدوات الزراعية التي كانت مستخدمة في الغور في فترة الدراسة: المحراث، الفأس، المجرفة، الشوافة، الوتد، النورج، المذراة، الغربال، المنجل، المنشار، القادم، الشاعوب والصاع وغيرها من الأدوات التي كانت مستخدمة في تلك الفترة.

1:1 منطقة الدراسة:

تقع منطقة الدراسة المتمثلة بالسهول التي تحاذي نهر الأردن في قلب العالم القديم (آسيا واوروبا وإفريقيا) كما تشير إلى ذلك الخريطة رقم1، ويمتد نهر الأردن بين بحيرة طبريا شمالاً والبحر الميت جنوباً بطول 110 كيلومتر، وتبلغ مساحة السهول التي تحاذيه 40ألف دونم مربع، وتُسمّى سهول الزور، وهي ذات تربات فيضية خصبة[1] (خريطة رقم2).

خريطة رقم (1) موقع نهر الأردن من العالم عمل الباحث

خريطة(2) موقع منطقة الدراسة (نهر الأردن) عمل الباحث

2:1 مشكلة الدراسة:

شهد غور الأردن تقدماً ملموساً في تنوع المحاصيل الزراعية وما تبع ذلك من تنوع في الأدوات الزراعية التي استخدمها السكان في فترة الدراسة، وتكمن مشكلة الدراسة في أنها لم

تعد معظم هذه الأدوات مستخدمة حالياً، علماً بأنها أنسب بيئياً من الآلات الزراعية الحديثة المستخدمة حالياً وما تسببه من أضرار بيئية خطيرة.

3:1 أهمية الدراسة :

تتمثل أهمية الدراسة بالتعرف على نوعية الحياة التي كان يعيشها سكان غور الأردن في العصرين: الأيوبي والمملوكي، وأنواع الأدوات الزراعية التي استخدموها، خاصة وأن المنطقة شهدت تطورا وازدهارا امتازت فيه عن غيرها من المناطق المجاورة.

وقد تعددت الأدوات الزراعية المستخدمة في غور الأردن في فترة الدراسة،والتي تناسبت مع حاجات المزارع،للقيام بنشاطه الزراعي على أتم وجه، للوصول إلى منتج مناسب لحاجاته، علما بأن النشاط الزراعي من الأهمية بمكان، حيث يلبي حاجات الإنسان الغذائية، وكذلك دخوله كمادة أولية في العديد من الصناعات الزراعية.

4:1 أهداف الدراسة :

تهدف هذه الدراسة إلى التركيز على الأدوات الزراعية التي كانت مستخدمة في العصرين: الأيوبي والمملوكي، كعامل مساند رئيسي للنشاط الزراعي الذي يمارسه الإنسان في تلك المنطقة، لما لهذا القطاع من أهمية كبرى في تأمين الأمن الغذائي لسكان المنطقة، وكذلك لما للأدوات الزراعية من دور كبير في تنشيط هذا القطاع الاقتصادي الهام، وبالتالي سيؤدي إلى إنعاش المنطقة اقتصادياً.

5:1 منهجية الدراسة:

لتحقيق الهدف العام للدراسة والأهداف الفرعية المنبثقة عنه استخدم الباحث المنهجين التاريخي Historical Approach، والتحليلي التّتبعي (التصاعدي) Analytical Vertical Approach لموضوع الدراسة خلال العصرين الأيوبي والمملوكي.

6:1 الدراسات السابقة:

- الحياة الزراعية في بلاد الشام في العصر الأموي، وهو كتاب من تأليف الدكتور فالح الحسين، تحدث فيه عن الأدوات الزراعية في العصر الأموي، في منطقة بلاد الشام والتي أفادت الدراسة إلى حد كبير، وذلك من خلال توضيح وتفصيل للأدوات الزراعية والتي ظلت مستخدمة خلال فترة الدراسة، مع تطور بسيط يلائم الفترة التالية للعصر الأموي.

- الجغرافية التاريخية للمنطقة الغربية من جبل عجلون، وهو كتاب من تأليف الدكتور خليف غرايبه، تناول فيه تفصيلا كاملا عن الأدوات الزراعية التي كانت مستخدمة في المنطقة على مر العصور التاريخية في منطقة شرقي نهر الأردن، لا سيما في الفصل الرابع من الكتاب، وقد أفاد الدراسة في توضيح عمل تلك الأدوات مع رسم توضيحي لكل أداة من الأدوات التي كانت مستخدمة في فترة الدراسة.

- التقانة في فلسطين في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين، لأحمد يوسف الحسن، وهو بحث منشور في كتاب، الصراع الإسلامي –الفرنجي على فلسطين في العصور الوسطى، من تحرير هادية الدجاني وآخرون، وقد أفاد الدراسة بمعلومات قيمة عن التقنيات والأدوات المستخدمة في قطاع الزراعة خلال فترة الدراسة.

- الصناعات والحرف في جنوب بلاد الشام في العصرين:الايوبي والمملوكي، وهي رسالة دكتوراه لطه الزعارير، قدمت في قسم التاريخ بجامعة اليرموك، تحدث فيها الباحث عن الحرف والصناعات التي كانت سائدة في منطقة الدراسة في تلك الفترة، وتناول فيها الباحث التعريف في العديد من الأدوات الزراعية المستخدمة آنذاك، والتي أفادت الدراسة إلى حد كبير.

وتمتاز هذه الدراسة عن غيرها من الدراسات السابقة بالتركيز على الأدوات الزراعية التي كانت مستخدمة في العصرين: الأيوبي والمملوكي، ورسم توضيحي لكل أداة زراعية بالتفصيل وإلقاء الضوء على استخدامات هذه الأدوات في فترة الدراسة،وما تؤديه من وظائف خدمة للقطاع الزراعي السائد في تلك الفترة والذي يلبي الحاجات الغذائية الأساسية للسكان، وغيرها من الحاجات الأخرى، مثل الملبس.

2. الأدوات الزراعية :

تعددت وتنوعت الأدوات الزراعية التي استخدمها السكان في الغور الأردني في العهدين الأيوبي والمملوكي نظراً لتعدد وتنوع المحاصيل الزراعية التي عرفها وأنتجها هؤلاء السكان ومن أهم هذه الأدوات:

1:2 المحراث:

وهو من الأدوات بسيطة التركيب، فهو عبارة عن عود خشبي في أسفله سكة من الحديد ذات رأس مدبب، خفيف الوزن، ولأنه خفيف الوزن يكون عمقه قليل، ويجر المحراث زوج من الثيران أطلق عليه اسم الفدان، وكذلك استخدمت البغال والحمير لجر المحراث والجواميس، ويرتبط بعود المحراث عادة قطعة مستطيلة من الخشب هي (المنساس) وهي عصا في نهايتها قطعة من الحديد مشعبة إلى شعبتين، يمسك بها الحراث لإزالة التراب الذي يعلق بالمحراث، أثناء حراثة الأرض[2]، وتعود أصول هذا المحراث إلى المحراث الروماني القديم، وهو عبارة عن خشبة معقوفة من أحد طرفيها حيث يشكل الطرق المعقوف سكة المحراث، وفي الطرف الآخر يشد الحبل الذي يربط بالدابة، وعلى الطرف المعقوف عمود خشبي آخر وفي أعلاه خشبة صغيرة مستطيلة، يرتكز عليها الحراث، ويضغط بيده على المحراث ليغرز السكة في التراب إلى أقصى عمق ممكن[3]. (شكل 1).

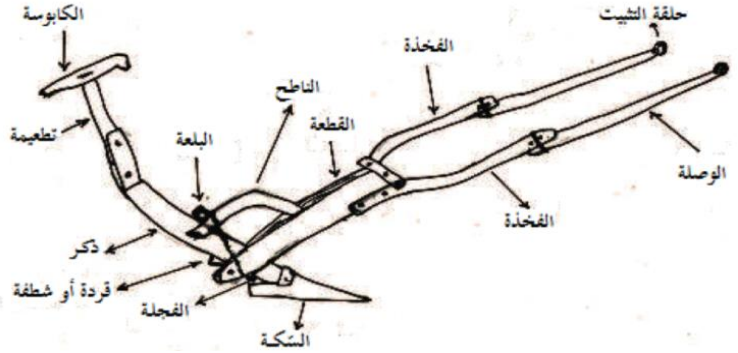

شكل **(1)** يمثل أجزاء المحراث

وقد تطور المحراث في العصرين الأيوبي والمملوكي ليصبح أكثر فائدة لأداء الغرض المطلوب وهو شق العشرة الأرضية العلوية وإعداد التربة للزراعة.

2:2 الفأس:

ويستخدم عوضاً عن المحراث في الأرض الوعرة، التي لا تستطيع الفدان التحرك بها، وهو ذو رأس حاد استخدم بديلاً للمحراث أو للنكش حول النباتات[4]. (شكل 2).

شكل (2) الفاس

3- المجرفة:

ومهمتها قلب الأرض وإعدادها لبذر البذور، وهي بديل جيد للمحراث أيضاً، والمجرفة لها ذراع خشبي بطول ذراع تقريباً، تثبت قطعة حديدية من الأسفل فيها مهمتها قلب الأرض وإعدادها للزراعة ولا زالت المجرفة تستخدم في الأعمال الزراعية في الأغوار وبلاد الشام إلى يومنا هذا[5]. (شكل3).

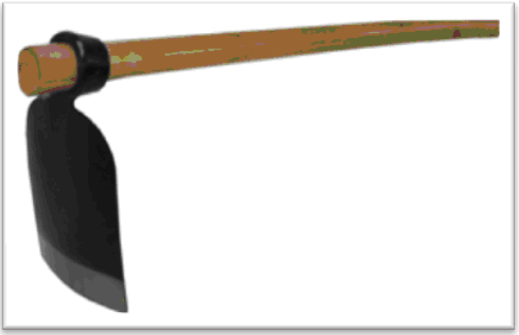

شكل (3) المجرفة

4 - الشوافة:

وتستخدم لتسوية الأرض الزراعية، وهي من أدوات المزارع المهمة في العصرين الأيوبي والمملوكي، وهي خشبة أسطوانية يبلغ طولها حوالي (3م) وقطرها (30سم)، يجرها ثور أو حصان بشكل عرضي، حيث يثبت في طرفي هذه الأسطوانة حبلين يتم سحق الكدر والكتل الترابية أثناء مشي الدابة التي تجر الشوافة خلفها، وتكون الأرض بعد ذلك جاهزة للزراعة، لأنه أثناء زحف الشوافة تكون قد مهدت الأرض وأصبحت جاهزة للزراعة[6]. (شكل 4).

شكل (4) الشواقة أو المسحاة

5- الوتد:

وهي قطعة من الخشب طولها أقل من نصف متر معتدلة السمك مدببة من الأسفل وذلك ليسهل غرسها في التربة حيث يقوم الفلاح بغرس الأشتال بواسطة حفرة صغيرة يحدثها الوتد في التربة، وكان الوتد في بلاد الشام والغور يصنع محلياً من قبل المزارع الذي لا يستغني عنه في زراعته، وكان يتم أخذه من الأشجار الموجودة في المنطقة[7].(شكل 5).

شكل (5) وتد خشبي

6- النّورج:

ويستخدم لدراسة القمح والشعير، وهو عبارة عن لوح من الخشب طوله من متر ونصف إلى مترين وعرضه متراً أو أقل من ذلك بكثير، ويثبت في أسفل هذا اللوح الخشبي حجارة خشنة دائرية عملها تقطيع وتكسير سنابل القمح وقصله المكوم على الأرض (بيدر) ويقف الفلاح أو يضع ثقلاً فوق النورج الذي كان يصنع محلياً[8]. (شكلي 6 و 7).

شكل (6) النورج وتظهر الحجارة الخشنة

شكل (7) فلاح يقف فوق النورج لتكسير قش القمح

7 - المذراة:

وهي عبارة عن عمود خشبي طولها أقل من مترين بقليل، وتستخدم المذراة لفصل السنابل عن حبات القمح أو الشعير، ثم يتم رفع هذه الحبات إلى الأعلى بواسطة الأصابع الخشبية التي في أسفل العصا أو حديدية ليأخذ الهواء السنابل ويسقط الحب أمام الفلاح والسنابل التي تبقى تستخدم أعلافاً للحيوانات، وتأتي هذه المرحلة بعد درس المحصول بواسطة النورج. (شكل 8).

شكل (8) المذراة

8- الغربال:

وهو نوعان: أحدهما يسمى (الكربال) ويكون واسع الثقوب يسقط منه الحصى والتراب، ومن ثم مرحلة النوع الثاني (الغربال) الذي يساعد على تنقية القمح بشكل أفضل ليصبح صالحاً للاستهلاك، والغربال هو عبارة عن دائرة من الخشب الرقيق ارتفاعها حوالي (15سم) في أسفل هذه الدائرة يثبت طبقه من الخيوط الجلدية المتينة على شكل فتحات ضيقة بعض الشيء للحصول على أفضل ناتج ممكن، وكانت مهنة الغربلة من نصيب المرأة في تلك الفترة[9]. (شكل9).

شكل (9) الغربـال

9- المنجل:

ويعد المنجل من أقدم أدوات الحصاد المعروفة التي استخدمها الفلاح في بلاد الشام، ويتألف المنجل من نصل من الحديد على شكل قوس مسنن، وله يد خشبية بقدر مقبض اليد للإمساك بها. (شكل 10).

شكل (10) المنجل

ويستخدم المنجل الحصاد والقمح والشعير، وكذلك استخدام لقص أغصان الشجر الزائدة ما يعرف بالتقنيب[10].

10- المنشار:

وهي من الأدوات التي لا يمكن للفلاح الاستغناء عنها في عمله، والمنشار حديدة طويلة ومستقيمة ومسننة، تستخدم في قطع الأغصان الزائدة عن الشجر، ولها مقبض خشبي للإمساك بها ومن أجل التحكم بها أثناء عملية القطع[11]. (شكل 11).

شكل (11) المنشار

11- القادم:

هي أداة مصنوعة من الخشب ترتفع عن الأرض بمقدار متر ونصف،الغرض منها نقل المحصول من الحقل إلى البيدر – وهو مكان لجمع المحصول- تمهيدا لدرسه وتذريته، إذ يوضع القادم على ظهر الحمار، ويتم نقله بواسطة رجل يسمى (الرجاد) الى البيدر (شكل 12).

شكل (12) القـادم

12- الشاعوب:

أداة حديدية مكونة من أربعة أصابع مجوفة، يدخل فيها عصى خشبية،والهدف من استخدام الشاعوب هو سحب وتقليب القش، أثناء وجوده على البيدر، من اجل الحصول على ناتج أفضل، وفصل القش عن الحب[12]. (شكل 13).

شكل (13) الشاعوب

13- الصّاع:

أداه تستخدم لكيل المحصول من القمح ومن غلات الحبوب الأخرى كالعدس والفول والكرسنة، ويستخدم الصاع بعد عملية فصل القمح أو الحبوب الأخرى عن القش والشوائب الأخرى، والحصول على الناتج المطلوب من وراء هذه العملية، ويتم كيل الناتج بواسطة هذا الصاع الذي يقدر بحوالي (12كغم) وهو عبارة عن أداة اسطوانية من الخشب، وقد استخدم قديماً، وفي العصرين: الأيوبي والمملوكي، ولا يزال يستخدم في وقتنا الحاضر، ولكن قل استخدامه بسبب استخدام المكاييل الإلكترونية وذلك لدقتها وسهولة استعمالها[13]. (شكل 14).

شكل (14) الصّاع

النتائج والتوصيات:

- **النتائج**: توصلت الدراسة إلى العديد من النتائج أبرزها:

1- يتمتع غور الأردن بموقع هام حيث يقع بين سلسلتين جبلتين هي جبال فلسطين غرباً وجبال الأردن شرقا، وهذا شكل حماية طبيعية للمحاصيل الزراعية التي اشتهرت بها.

2- شكل غور الأردن بيئة صالحة للزراعة حيث المياه المتوفرة من نهر الأردن المجاور، والينابيع الكثيرة المتدفقة من السلسلتين الجبلتين المذكورتين سابقاً، علاوة على التربات الرسوبية الخصبة التي جلبها النهر والتي حملتها مياه الأمطار من السفوح الشرقية لجبال فلسطين والسفوح الغربية لجبال الأردن.

3- حظي غور الأردن باهتمام سلاطين العصرين: الأيوبي والمملوكي، وكان يُرسل شاداً خاصاً للإشراف على عملية إنتاج المحاصيل من قبل والي دمشق إلى الغور التي اشتهرت بزراعة قصب السكر وغيرها من المحاصيل في تلك الفترة.

4- **تعددت وتنوعت الأدوات** الزراعية التي استخدمها سكان الغور نظراً لتعدد وتنوع المحاصيل الزراعية، فقد بلغ عددها ثلاثة عشر أداة هي: المحراث، والفأس، والمجرفة،

والشوافة، والوتد، والنورج، والمذراه، والغربال، والمنجل، والمنشار والقادم، والشاعوب، والصاع.

- **التوصيات:** توصلت الدراسة إلى التوصيات التالية التي يمكن أن تساهم في تحسين نوعية الحياة لسكان الغور الحاليين بشكل خاص وسكان الأردن بشكل عام:

1- **الاهتمام السياحي بالغور الأردني** من خلال:

أ- إقامة جناح دائم يعرض فيه الأدوات الزراعية التي عرفها الغور في العهدين الأيوبي والمملوكي.

ب- تشجيع الحكومة للسكان الحاليين بتقديم قروض ميسرة تساعدهم على إقامة أكشاك سياحية تعرض نماذج صغيرة لكل أداة من هذه الأدوات بغرض بيعها للسياح الذين يترددون على الغور.

2- توعية المزارعين الحاليين بالأهمية البيئية للتربةبإعادة استخدام بعض الأدوات الزراعية التقليدية كالمحراث.

3- توعية المزارعين بدورات منتظمة لإعادة الاهتمام بزراعة بعض المحاصيل التي انقرضت كالقطن، والسكر، والكتان وغيرها، وإعادة إحياء الأدوات الزراعية التي تلزم لكل محصول.

4- إنشاء كلية زراعية في الغور بهدف معرفة خصوصيّة الزراعية وتكاملها من حيث: المحاصيل الزراعية، وأساليب الزراعة، و الأدوات الزراعية المستخدمة، وتصنيع هذه الأدوات الزراعية.

قائمة المصادر والمراجع::

1. براور، يوشع، الاستيطان الصليبي في فلسطين "مملكة بيت المقدس" ترجمة عبد الحافظ البنا، عين للدراسات والبحوث، القاهرة، ط1، 1422هـ/ 2001م.
2. الحجاج، عادل محمد علي الشيخ حسين، موسوعة الزراعة في التاريخ، دار الحموي، ط1، عمان-الأردن، 1431هـ/2009م.
3. الحسن، أحمد يوسف، التقانة في فلسطين في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين، بحث منشور في كتاب الصراع الإسلامي- الفرنجي على فلسطين في العصور الوسطى، تحرير هادية الدجاني وشكيل الدجاني، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، ط1، 1415هـ/ 1994م.

4. الحسين، فالح، الحياة الزراعية في بلاد الشام في العصر الأموي، الجامعة الأردنية، عمان، 1398هـ/ 1978م.
5. الحموي، شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي، (ت: 626هـ/ 1280م)، معجم البلدان، (8) أجزاء، دار إحياء التراث العربي، مؤسسة التاريخ العربي، ط1، بيروت، 1417هـ/1997.
6. الرازي، زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي، (ت:666هـ،1267م)، مختار الصحاح، تحقيق يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية، ط5، بيروت، 1420هـ/ 1999م.
7. سلوم، انتصار رشيدة، الأهمية الاقتصادية والزراعية لجنوب بلاد الشام في العصر العباسي الأول والثاني (132-447هـ/ 749-1055م)، رسالة ماجستير غير منشورة بقسم التاريخ، كلية الآداب، جامعة اليرموك، اربد، 1458هـ/ 2001م.
8. ابن سيده، أبو الحسن بن إسماعيل المرسي، (ت: 458هـ/ 1065م)، المخصص، (5) أجزاء، تحقيق خليل إبراهيم جفال، دار إحياء التراث العربي، ط1، بيروت 1417هـ/1996م.
9. أبو الشعر، هند غسان، تاريخ شرقي الأردن في العهد العثماني، وزارة الثقافة، مطبعة أروى، د.ط، عمان، 1432هـ/2010م.
10 . علي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار الساقي، (20) جزء، ط4، القاهرة، 1422هـ/2011م.
11.غرايبة، خليف مصطفى حسن، الجغرافيا التاريخية للمنطقة الغربية من جبل عجلون، وزارة الثقافة، مطبعة الروزنا، ط1، اربد، 1418هـ/ 1997م.
12.غرايبة، خليف مصطفى، التربية الوطنية في الأردن، دار الكتاب الثقافي، اربد 2005،
13. غوانمه، يوسف درويش، تاريخ نيابة بيت المقدس في العصر المملوكي، دار الحياة للنشر والتوزيع، د.ط، عمان، 1403هـ/ 1982م.
14. الفيتري، يعقوب، بطريرك عكا، تاريخ بيت المقدس، *ترجمة وتعليق سعيد عبد الله البيشاوي*، دار شروق، ط1، عمان، 1417هـ/ 1997م.
15. القاسمي، محمد سعيد وآخرون، قاموس الصناعات الشامية، حققه وقدم له ظافر القاسمي، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، ط1، 1409هـ/ 1988م.

16. القلقشندي، أحمد بن علي بن أحمد، (ت: 821هـ/1418م)، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، شرحه وعلق عليه محمد حسين شمس الدين، (15) جزء، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ط، د.ت.

17. مصطفى، إبراهيم وآخرون، *المعجم الوسيط*، (جزآن) مجمع اللغة العربية، دار الدعوة، الإدارة العامة للمعجميات وإحياء التراث، د.ط، القاهرة، د.ت.

18. ابن منظور، جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم بن علي الأنصاري، (ت:711هـ/1311م)، لسان العرب، (15) جزء، دار صادر، ط3، بيروت، 1414هـ/ 1993م.

19. Abu Jaber, R.S "Pioneers Over Jordan The Frontier Of Settlement On Jordan, 1850- 1914", C.B. Touris and Co, ltd, London,1989.

1- غرايبة، خليف مصطفى، التربية الوطنية في الأردن، دار الكتاب الثقافي، اربد 2005، ص30.

[2] - ابن سيده، المخصص، ج3، ص95-96. غوانمة، تاريخ نيابة المقدس، ص79.

[3] - ابن سيده، المخصص، ج3، ص95-96. الفيتري، يعقوب، (بطريرك عكا، تاريخ بيت المقدس، ترجمة وتعليق سعيد عبد الله البيشاوي، دار شروق، ط1، عمان، 1417هـ/ 1997م، ص34. الحسين، فاع، الحياة الزراعية في بلاد الشام في العصر الأموي، الجامعة الأردنية، عمان، 1398هـ/ 1978م، ص89.

[4] - الحموي، معجم البلدان، ج4، ج8، ص296. سلوم، الأهمية الاقتصادية، ص61.

[5] - الحجاج، موسوعة الزراعة، ص159، سلوم، الأهمية الاقتصادية، ص62.

[6] - الحجاج، موسوعة الزراعة، ص159، سلوم، الأهمية الاقتصادية، ص63.

[7] - فالح الحسين، الحياة الزراعية، ص89، سلوم، الأهمية الاقتصادية، ص63.

[8] - ابو الشعر، هند غسان، تاريخ شرقي الأردن في العهد العثماني،وزارة الثقافة،مطبعة أروى،عمان،1432هـ/2010م، سلوم، انتصار رشيدة، الأهمية الاقتصادية والزراعية لجنوب بلاد الشام في العص العباسي الأول والثاني،(132-447هـ/749-1055م)،ص64.

[9] - القاسمي، قاموس الصناعات الشامية، ج2، ص 327. فالح الحسين، الحياة الزراعية، ص81. أبو الشعر، تاريخ شرقي الأردن، ص340-341.

[10] - الرازي، مختار الصحاح، ص305. ابن منظور، لسان العرب، ج1، ص322، 486. القلقشندي، صبح الأعشى، ج6، ص223، سلوم، الأهمية الاقتصادية، ص62-63.

[11]- مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط، ج2، ص921. جواد علي، المفصل، ج14، ص240. فالح الحسين، الحياة الزراعية، ص85.

[12]- Abu Jaber, R. S. Op. cit. P. 62 .

[13]- Abu Jaber, R. S. Op. cit. P. 59 .

الكاتب: د: رضا بن عتو
جامعة جيلالي بونعامة خميس مليانة
أ.اسماعيل توتة
جامعة جيلالي بونعامة خميس مليانة.

البريد الالكتروني: i.touta@univ-dbkm.dz

عنوان المقال: **تغطية صحيفة صدى وهران " l'echo d'oran " لهجمات أكتوبر 1955 بتلمسان.**

تاريخ الارسال: 2019/04/15 تاريخ القبول : 2019/11/25 تاريخ النشر: 2020/06/30

تغطية صحيفة صدى وهران " l'echo d'oran " لهجمات أكتوبر 1955 بتلمسان.

"L'echo d'oran" newspaper coverage of the October 1955 attacks in Tlemcen

ملخص البحث.

الصحف من أهم الوسائط الاعلامية التي أرخت للثورة الجزائرية ولا سيما صحف الكولون، وبالرغم من النزعة الذاتية لهذه الصحف إلا أنها ساهمت بشكل كبير في نقل الأحداث التي مرت بها الثورة التحريرية الجزائرية، ومن أهم الصحف التي أولت اهتمامها بعمليات جيش التحرير الوطني وردود الافعال الفرنسية عليه نجد صحيفة صدى وهران اليمينية المتطرفة، وكانت هجمات 2 أكتوبر 1955م كنموذج لدراسة التغطية الصحفية لها.

الكلمات المفتاحية: الثورة الجزائرية، التغطية الصحفية، هجمات أكتوبر 1955، صدى وهران.

Abstract:

The newspapers are considered one of the most important media outlets that have been dated for the Algerian revolution, especially the cologne newspapers, and despite the self-propensity of these newspapers, they have contributed greatly to the reporting of the events of the Algerian liberation revolution, and among the most important newspapers that have paid attention to the operations of the National Liberation Army and the reactions of France to it We find the far-right

Echo newspaper of Oran, and the October 2, 1955 attacks were a model for studying its press coverage.

key words: The Algerian revolution, press coverage, the October 1955 attacks, Echo of Oran

مقدمة:

شكلت التغطية الإعلامية إحدى أهم مصادر التأريخ للثورة الجزائرية، ففي ضل غياب الوثيقة الأرشيفية أضحت الصحف الصادرة إبان الثورة الجزائرية وثيقة أرشيفية في حد ذاتها خصوصا فيما يتعلق بالتاريخ المحلي، وفي هذا الصدد تصدرت صحيفة صدى وهران " l'écho d'Oran " في تغطيتها لأحداث الثورة بالجهة الغربية أو ما عرف تاريخيا بالولاية الخامسة التاريخية.

تعالج هذه المداخلة الثورة بمنطقة تلمسان بداية من 1 أكتوبر 1955م من خلال النظرة الصحفية للإعلام الفرنسي ممثلا في صحيفة صدى وهران، أو ما عرف عند المؤرخين بالانطلاقة الثانية للثورة بالولاية الخامسة حيث كانت مقاطعة تلمسان مركزا لهذه الانطلاقة.

ومن هنا يمكن طرح الإشكاليات التالية:

1- ما الذي نقصده بالانطلاقة الثانية للثورة بالولاية الخامسة التاريخية ؟.

2- ما موقف صحيفة صدى وهران من العمليات الأولى للفاتح من أكتوبر 1955 ؟.

3- ما هي النظرة التحليلية للصحيفة للثورة بمقاطعة تلمسان مستقبلها وردود الأفعال الفرنسية ؟.

1- صحيفة صدى وهران L'ECHO D'ORAN:

يمكن تسمية صحيفة صدى وهران بعميدة الصحف الفرنسية في الجزائر، فهي من أقدم الصحف الصادرة داخل الجزائر ويعود تأسيسها إلى سنة 1844م من طرف عائلة perrie وهي من أكبر العائلات الكولونيا لية بالغرب الجزائري ولها مصالح اقتصادية بالمنطقة[1].

من هنا يمكن فهم توجه الجريدة وأسباب ظهورها فالغاية الأولى وهدفها هو الدفاع عن مصالح الكولون الاقتصادية، إذن فتوجهها هو يميني متطرف يدعم غلاة الكولون بالقطاع الوهراني.

كانت الصحيفة مع بداياتها تصدر يوم السبت من كل أسبوع (جريدة أسبوعية) لتصبح فيما بعد جريدة يومية خصوصا مع اتساع مراسلها وفروعها داخل القطاع الوهراني مع يوم راحة

وهو الإثنين من كل أسبوع، وسيرتها عائلة perrie بداية من الجد السيد adolphe perrie من أكتوبر 1844 إلى 1879، ثم تسلمها ابنه paul perrie إلى غاية سنة 1937م ومن ثم خلفه إبنه السيد lucien perrie إلى غاية سنة 1956 ومن ثم إبنه السيد lafont perrie إلى غاية توقفها عن الصدور سنة 1962 [2]

2- الثورة بالولاية الخامسة بعد عمليات الفاتح من نوفمبر 1954:

انطلقت الثورة بالقطاع الوهراني من (70) عملية ليلة الفاتح من نوفمبر بكل أنحاء الجزائر (14) عملية منها للناحية الوهرانية[3]، لحق القطاع بركب الثورة وهو يملك إلا (5) بنادق ومسدس ومتفجرة ومفرقعات[4]، ويذكر محمد بوضياف في شهادته على أن مجاهدي المنطقة الرابعة و المنطقة الخامسة لم تكن لهم عشية اندلاع الثورة إلى (10) قطع من الأسلحة الحربية، وحتى العربي بن مهيدي لم يكن يملك الذخيرة في مسدسه[5]، هذا ما يفسر أن العمليات المسطر لها ترمي لسرقة الأسلحة فاستهدفت ثكنة الدرك في مستغانم والديار الغابية بالسبخة وجنوب تلمسان فضلا عن محاولة الدخول إلى ثكنة أكمول بوهران[6] وأما عدد مجاهدي المنطقة الخامسة فيقول محمد حربي أن عددهم وصل إلى 60 مجاهد[7].

وتقييم لعمليات الفاتح من نوفمبر بالقطاع الوهراني فإنه ما يلاحظ وهذا ما ذكرته كذلك المصادر المكتوبة أو الشفهية أن العمليات ارتكزت في منطقتين جغرافيتين متباعدتين، الأولى في ناحية سيدي علي على مقربة من مستغانم، والثانية ناحية أحفير ضواحي تلمسان مع الإشارة إلى أن هاتين العمليتين هما عمليات تخريبية[8].

وأبعد من ذلك يذهب العربي الزبيري للقول أن عمليات ليلة الفاتح من نوفمبر بالقطاع لم تكن ناجحة في معظمها، حيث تمكنت القوات الفرنسية من إلحاق خسائر معتبرة بالأفواج الأولى، حتى أن قائد المنطقة العربي بن مهيدي قد تأثر بالنتائج السلبية[9]، وحتى جريدة المجاهد تطرقت إلى تمكن القوات الفرنسية من القضاء على الفرق الصغيرة بالقطاع[10]، حيث أستشهد أو أعتقل أغلب المشاركين[11].

أمام هاته المشاكل التي أخذت تتخبط فيها الولاية الخامسة من نقص في الأسلحة وتفكيك الخلايا الأولى التي فجرت الثورة بالقطاع كان لابد لقائد الولاية الخامسة التاريخية العربي بن مهيدي من إيقاف العمليات الثورية.

إذن ففي الفترة الواقعة من أواخر شهر نوفمبر 1954م إلى غاية بداية أكتوبر 1955م لم يحدث شيء بالناحية الوهرانية، وفي ظل هذه الانعكاسات أخذ العربي بن مهيدي على عاتقه

البحث عن الأسلحة فتوجه في رحلة إلى عواصم الدول الأوروبية والعربية من أجل تسليح القطاع، وترك نائبه عبد الحفيظ بوصوف لينظم المداشر والقرى

ويرسي هياكل التنظيم الثوري بها للاستعداد لما سوف يصطلح عليه بالانطلاقة الثانية، مدعومة بيخت دينا[12] الذي جلب معه كمية من الأسلحة مكنت القطاع باللحاق بركب باقي المناطق الثورية بالجزائر.

3- تغطية صحيفة صدى وهران للعمليات الأولى للفاتح من أكتوبر 1955:

افتتحت الجبهة الوهرانية للمرة الثانية الثورة ليلة 1 أكتوبر 1955م بهجومات كبرى، لتفتتح جريدة صدى وهران في عددها الصادر ليوم 2 أكتوبر 1955 بعنوان أسفل الصفحة الأولى تحت عنوان " **هجمات إرهابية في مقاطعة تلمسان وندرومة** "[13]، وقبل أن يفصل المقال في نتائج هذه الهجمات توجه إلى تحليل هذه الهجمات حيث ربط منفذي العمليات بالمغرب وإسبانيا وأنهم أيادي خارجية عبرت الحدود في الأيام الأخيرة واتصلت بعناصر محلية ساعدتها في ارتكاب هذه الهجمات[14].

وفي الصفحة الثالثة من نفس العدد توجهت الصحيفة إلى ذكر العمليات وقائمة المراكز المستهدفة وكذا المستهدفين من هذه العمليات وجاء تحت عنوان " **الأحداث ساعة بساعة**"[15]، والملاحظ أنها ابتدأت بضحايا مسلمين وهم القياد في منطقة الرمشي وتوران (صبرة)، سبدوا وندرومة. في محاولة منها ربط منفذي العمليات بالمغرب أو إسبانيا وأنهم ليسوا جزائريين.

استهدفت الهجمات كذلك بعض المراكز الحيوية الفرنسية على غرار مزرعة السيد Rifeld الواقعة على بعد 5 كم جنوب ندرومة، بعض المخازن التابعة لمسلمين متعاونين مع الإدارة الفرنسية، كما تم قطع الخط الهاتفي في مغنية وعرقلة سير السكة الحديدية بين وهران ووجدة[16].

وفي عددها الصادر يوم 4 أكتوبر 1955م غابت الهجمات عن الصفحة الأولى ولعل الجريدة كانت مشغولة أكثر بما يحدث في المغرب الأقصى من تمرد، ولم تتطرق لهجمات الفاتح من أكتوبر إلا في الصفحة الأخيرة من الجريدة وجاءت تحت عنوان " **الوضعية بالقطاع الوهراني**" وجاء هذا المقال بنظرة أكثر عمق وتحليل.

افتتح المقال بوصف الهجمات التي كانت في 2 أكتوبر 1955م بأنها لم تنجح في خلق جو خطير بالقطاع الوهراني، وأن منطقة مغنية وتلمسان لم تسجل عمليات إرهابية أخرى والهدوء

الأكبر في باقي مقاطعات تلمسان[17]، ليواصل التقرير نبرة الثقة بعبارة " بالرغم من قلة حجم العمليات إلا أن قوات حفظ الأمن تمكنت من تحديد 50 مشتبه تم اعتقالهم جميعا وجاري التحقيق معهم "[18].

إنه ما يلاحظ على التقريرين السابقين الصادرين يومي 2 أكتوبر 4أكتوبر 1955م، أن الجريدة قد قللت من حجم العمليات وعدم نجاحها، كما ربطت هذه العمليات ومنفذيها بما يحث بالمغرب الأقصى من أحداث، وما يلاحظ كذلك أنها تطرقت فقط إلى الضحايا من المسلمين وهم في الغالب متعاونون مع الإدارة الفرنسية.

في العدد الصادر يوم 5 أكتوبر 1955م دائما غياب العمليات الثورية بمقاطعة تلمسان من الصفحة الأولى للجريدة، حاولت دائما التقليل من العمليات وعدم إعطائها أكبر من حجمها على حد وصفها.

في الصفحة الأخيرة من العدد كانت الإشارة إلى هجمات الفاتح من أكتوبر تحت عنوان **"المسلمون بالقطاع الوهراني يطالبون بالمشاركة في العمليات ضد الإرهاب"** والواضح من العنوان أن الجريدة تمارس الحرب النفسية ضد جبهة التحرير الوطني.

وتطرق هذا التقرير إلى أنه بسبب الأعمال الإرهابية التي شهدتها منطقة غرب القطاع الوهراني ليلة السبت والأحد، تحركت الإدارة الفرنسية بما فيها التابعة لمقاطعة تلمسان واتي كانت مسرحا للفوضى على حسب تعبير الجريدة لتضيف أن المسلمين بالمقاطعة استنكروا هذه الأعمال وطلبوا من الإدارة الفرنسية تسليحهم للتصدي للإرهابيين[19].

كذلك تستمر الهجمات ليلة 5 أكتوبر بالهجوم على قطار السلع المار بمنطقة نمور (الغزوات)، بعد ذلك تطرق التقرير إلى سلسلة العمليات والمداهمات التي مست مقاطعة تلمسان بعد هجمات 1 أكتوبر، وقد ذكرنا في التقريرين السابقين أن الهجمات قد استهدفت بعض المتعاونين مع الإدارة الفرنسية من بينهم الآغا بن عبو الذي اغتيل في دوار السواحلية التابع لبلدية ندرومة وقد تمكنت الإدارة الفرنسية من إلقاء القبض على أحد المشاركين في العملية.

عملية أخرى لفرق الجندرمة بمنطقة نمور (الغزوات) بعد تعليمات قائد الجندرمة بتلمسان، وانطلقت العمليات عند فجر يوم الأربعاء 4 أكتوبر 1955م وكانت الحصيلة مقتل أحد المجاهدين وبحوزته سلاح ناري، القبض على ثلاثة آخرين وهذه الفرقة مكونة من ستة أشخاص واحد منهم في حالة فرار من قوات حفظ الأمن، وفي الأخير تم إلقاء القبض على أحد

المجاهدين وبحوزته مبلغ مالي وبندقية صيد داخل البلدة، وفي منطقة تونان تم القبض على 8 أشخاص مشتبه بانتمائهم إلى الفرق التي قامت بهجمات الفاتح من أكتوبر[20].

إنه ومن الواضح أن هذا العدد خصص لعمليات قوات حفظ الأمن والعمليات المصاحبة للهجمات، يمكن اعتبار ذلك شيئا من الحرب النفسية فهي تحاول من جهة تطمين الكولون بأن قوات حفظ الأمن تقوم بدورها وتمكنت من القضاء على الفرق الصغيرة ومن جهة أخرى حرب نفسية على المجاهدين عندما أعلنت بأن المسلمين طلبوا من الإدارة الفرنسية ربطهم بالعمل الدفاعي.

وهذا التقرير كان الأخير في تطرقه لهجمات الفاتح من أكتوبر 1955م، لأنه في العدد الصادر يوم 6 أكتوبر 1955م تتطرق الجريدة إلى هجمات جديدة في منطقة تلمسان[21]، وهذا يعني انتشار الهجمات والبداية الفعلية للثورة بالمنطقة ومن ثم بالولاية الخامسة التاريخية.

4- هجمات الفاتح من أكتوبر في تقارير الصحيفة بعد انتشار الثورة بمقاطعة تلمسان:

بعد حوالي ستة أشهر من هجمات الفتح من أكتوبر، عادت الصحيفة من جديد إلى هذه الهجمات ولكن هذه المرة بنظرة أكثر واقعية من التقريرين السابقين، وذلك بعد دراستها لتطور الوضع بالمنطقة وما خلفته الهجمات الأولى، سنحاول وضع مقارنة ما بين التقارير الأولى التي صاحبت الهجمات وما بين هذه التقارير وذلك من أجل الخروج باستنتاج حول نظرة الجريدة لتطور الثورة بالمقاطعة، الكاتب والصحفي maurice maurin أعد تقارير ونشرها عبر الصحيفة.

التقرير الأول جاء تحت عنوان " **تلمسان بلدة حدودية متاخمة للخوف والأمل**" الصادر في عدد 14 أفريل 1956م، وجاءت التفاصيل على النحو التالي، مقاطعة تلمسان الآن مدينة تعتلها الحمى وذلك بسبب تباطئ النمو داخل المدينة لقد اغتيل الفرح داخلها[22].

ولكن ما سبب كل هذا ؟. لماذا أصبحت هذه المدينة تمر بهذه الحالة الصعبة وتباطئ للنمو؟.

ربط التقرير بين هذه الحالة وبين الثورة بالمقاطعة حيث وصفت أن هذا المرض بدأ منذ أكتوبر 1955م، فمن الصعب الصمود دون إيجاد حل، هذا المرض على حد وصف الجريدة قائم على الضربات الإرهابية من النوع القديم والمتمثلة في (رسائل التهديد بالقتل-الهجمات العشوائية-الجرائم-محاولة الحرق)، إنهم يحاولون السيطرة على تلمسان وتحويلها إلى مدينة من الدم والنار[23].

يواصل التقرير وصفه للثورة بالمقاطعة ومراكز انتشارها، موضحا بأن الريف هو مركز اهتمام المتمردين على حد وصفه حرق المزارع وقتل الماشية وتفريغ المزارع من العمال، كل هذا عبر عليه في مصطلح سياسة الأرض المحروقة.

منذ بداية أكتوبر تركز الإرهاب في المناطق الغربية للقطاع الوهراني بتسجيل حوالي 20 عملية منها عبارة عن عمليات اغتيال للأوربيين أو المسلمين المتعاونين مع الإدارة الفرنسية، في كل من سبدو- بورساي (مرسى بن مهيدي)- بني صاف، بسبب هذا التكتيك سوف تنزل الأراضي المخصصة للزراعة إلى حوالي 50%، هذه هي انشغالات سكان مدينة تلمسان بعد أنرسم الإرهاب حدوده وأصبحت المدينة مهددة من الداخل والخارج[24].

بعد دراسة هذا التقرير يمكن عمل مقارنة مع التقرير الأول، ألم تطرح جريدة صدى وهران في تقريرها الأول عن الهجمات أن هذه العمليات لم تنجح وأنها لم تستطع تغيير الجو الهادئ لتلمسان والمناطق المحيطة بها، ما هو الشيء الذي تغير ؟.

إن التحليلات الأولى دائما تأتي لمحاولة امتصاص غضب الشارع ومحاولة ممارسة الحرب النفسية، ولكن بعد اصطدامها مع واقع الثورة أصبحت هذه التحليلات أكثر قربا للواقعية وأكثر منطقية.

التقرير الثاني لنفس الصحفي كان تحت عنوان " **نظرة نحو توران (صبرة) أين أعطى الإرهاب إشارته الأولى** "، جاء لتحليل واقع الثورة بأحد بلديات مقاطعة تلمسان وهي turenne (صبرة)، التي تبعد حوالي 30 كلم من مدينة تلمسان.

إنه من المستغرب أن يختار المتمردون مدينة توران (صبرة) لإعطاء إشارة لنشاطهم قبل 6 أشهر أي منذ أكتوبر 1955، هكذا افتتح الصحفي تقريره[25].

وراح التقرير بعد ذلك يفصل في واقع الثورة داخل المدينة موضحا بأن المجاهدين استغلوا التنافس المحلي بين الأسر الكبيرة داخل المدينة والجري وراء المصالح الشخصية من صراع حوالة ملكية الأراضي وترسيمها والانقسامات والخلافات، وهذا ما يفسر الأعمال الإرهابية الأولى التي ارتكبت في المدينة وكان ضحيتها المزارعين.

في هذه المرحلة وصلت سياسة المتمردين إلى هدفها لا يمكن الحياة في الريف، هذا الإستنتاج الذي خرج به الصحفي Maurice، ودائما يربط بين الثورة وبين المغرب الأقصى معتبرا بأن من قام بهذه العمليات تسللوا عبر الحدود ووجدوا العون من الفلاحين المسلمين داخل المنطقة، وبسبب هذه الأعمال الإرهابية تغير المناخ داخل المدينة[26].

نفس الملاحظة التقرير الأول عبر بصورة واضحة بأن مدينة توران لم تتأثر بالهجمات الأولى للفاتح من أكتوبر ولكن في التقرير الثاني تغيرت المعطيات وتغيرت النظرة.

التقرير الثالث والأخير للصحفي Maurice جاء للتطرق إلى أحد البلديات المهمة بمقاطعة تلمسان وهي مدينة Marnai (لالة مغنية) وجاء تحت عنوان **" أسئلة حولة مدينة مارنيا (لالة مغنية)، باب مفتوح على المجهول ".**

وملخص التقرير أن هذه المدينة هي مركز اقتصادي مهم ما جعلها تحظى باهتمام المتمردين، هي من أكثر النقاط الحساسة في الغرب الوهراني[27].

الخاتمة:

بعد هذه الدراسة يمكن الخروج بمجموعة من الاستنتاجات:

1- أن التغطية الصحفية لعمليات الفاتح من أكتوبر بمقاطعة تلمسان لجريدة صدى وهران كانت تغطية شاملة.

2- اختلفت النظرة لهجمات الفاتح من أكتوبر بين التقارير الصادرة مباشرة بعد الهجمات وما بين التقارير التي كانت بعدة مدة وجاءت نتيجة للتحقيقات.

3- كعادتها مارست الصحيفة حربها النفسية ضد جبهة التحرير الوطني بالتقليل من حجم العمليات وحتى ضد الكولون بإعطائهم الأمل والقوة.

4- ربطت الصحيفة عمليات الفاتح من أكتوبر بالمغرب الأقصى وحتى في التقارير التي جاءت بعد ذلك رأت بأن للمغرب الأقصى دور في تحويل مقاطعة تلمسان إلى مدينة من الدم والنار.

[1] - مولاي حليمة، النشاط الثوري في مدينة وهران من خلال جريدتي l'écho d'Oran و Oran républicain 1954-1962، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجيستير في التاريخ الحديث والمعاصر، بجامعة وهران قسم التاريخ وعلم الآثار، 2011-2012، ص 32.

[2] - الزبير سيف الإسلام، تاريخ الصحافة في الجزائر، ط1، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ص 85.

[3]- جيلالي بولوفة عبد القادر، حركة الانتصار للحريات الديمقراطية الخروج من النفق من اكتشاف المنظمة الخاصة إلى اندلاع الثورة التحريرية (1950-1954) عمالة وهران، دار الأملعية للنشر والتوزيع، ط1، الجزائر، 2011، ص348.

[4] - BELLAHSENE BALI, OGB-ELLIL (mohamedbouzidi) l'homme qui s'apposa a hiérarchie, 2 ed, thala édition, Alger, 2014, p.86.

[5]- مجلة أول نوفمبر، شهادة محمد بوضياف حول التحضير للثورة، العدد 147، سنة 1995م، ص25.

[6] - BELLAHSENE BALI, op cit, p86.

[7] - MOHAMED HARBI, LE FLN Mirage et réalité désorganise ala pris du pouvoir (1954-1962), edj.a paris, 1980, p127.

[8]- الطاهر جبلي، الواقع العسكري للثورة الجزائرية في مرحلتها الأولى (1954-1956) دراسة تحليلية نقدية للإمكانيات المادية والبشرية، مجلة كان التاريخية، العدد 21، سبتمبر 2013،، ص33.

[9]- العربي الزبيري، الثورة الجزائرية في عامها الأول، ط1، دار البعث، 1984م، ص136.

[10]- جريدة المجاهد، ج2، ص110.

[11] - BELLAHSENE BALI, op cit, p.225.

[12] - اليخت دينا هو ملك لملكة الأردن استأجره أحمد بن بلة لنقل السلاح، أبحر اليخت أواخر شهر فيفري 1955 تحت قيادة إبراهيم نيال من السودان مختص في التهريب وكان الوصول إلى شاطئ الناظور يوم 27 مارس 1955 بعدة مهمة ماراثونية بعرض البحر الابيض المتوسط. ينظر: ANOM : (12 cab -209-210), rapport technique, ministre de l'intérieur, services de la surveillance du territoire en Algérie, n 1442, Oran 29 octobre 1956, p7.

[13] - l'écho d'Oran, n 30347, dimanche 2 et lundi 3 octobre 1955, p.1.

[14] - ib id.

[15] - ib id, p.3.

[16] - ib id.

[17] - l'écho d'Oran, n 30 348, mardi 4 octobre 1956, p8.

[18] - ib id.

[19] - l'écho d'Oran, n 30 349, jeudi 5 octobre 1956, p.8.

[20] op cit, p.8. - l'echo d'oran, n 30 349,

- l'echo d'oran, n 30 350, vendredi 6 octobre 1956, p.8.[21]

- Maurice maurin, Tlemcen ville-frontière aux confins de peur et de l'espoir, l'écho d'Oran, n [22] 30514, samedi 14 avril 1956, p.10.

- ib id, p.10.[23]

- Maurice maurin, n 30514, op cit, p,p. 10,4.[2424]

- Maurice maurin, Tlemcen ville-frontière aux confins de peur et de l'espoir, l'écho d'Oran, n [25] 30515, dimanche 15 et lundi 16 avril 1956, p.2.

- Maurice maurin, n 30515, op cit, p.2.[26]

- Maurice maurin, Tlemcen ville-frontière aux confins de peur et de l'espoir, l'écho d'Oran, n [27] 30517, mercredi 18 avril 1956, p.10.

الكاتب: **رشـيد البرنوسـي**

جامعة السلطان مولاي سليمان

كلية الآداب والعلوم الانسانية

بني ملال _ المغرب

البريد الالكتروني: elbarnousi@gmail.com

عنوان المقال: **الكتابة التاريخية من الأرشيف الى التمثيل السردي**

تاريخ الارسال: 2019/08/24 **تاريخ القبول**: 2019/12/15 **تاريخ النشر**: 2020/06/30

الكتابة التاريخية من الأرشيف الى التمثيل السردي

ملخص:

عرفت الكتابة التاريخية تطورات من حيث التصور والمنهج والأسلوب، تجسدت في القطائع الابستيمولوجية التي عرفها مسار تطور الحقل التاريخي منذ النشأة الأولى في رحم الملحمة والأسطورة التي تعتبر بمثابة ولادة المعرفة التاريخية أو مطلعها أو بداياتها أو أصولها، مع المؤرخين الإغريق والرومان، أعقبتها مرحلة مهمة تمثلت في انعتاق حقل التاريخ من هيمنة الكنيسة في القرن التاسع عشر وتحوله من مادة دينية لاهوتية إلى مادة علمانية تحت لواء المدرسة المنهجية والوضعانية التاريخاني، التي تعتمد بشكل حصري على النص المكتوب المتمثل في الأرشيف الرسمي سمتها البارزة "التاريخ السياسي والدبلوماسي، والتاريخ – اللوحة، والتاريخ المبسط المعتمد على سرد الأحداث دون التوقف عندها، ومن دون إثارة الإشكاليات منغمسا في اجترار النصوص؛ ثم تجددت المعرفة التاريخية مع مدرسة الحوليات في القرن

العشرين حاملة شعار مهم يتجلى في كتابة تاريخ إشكالي وليس تاريخا آليا، مع رفض وتحطيم أصنام التاريخ التاريخاني الثلاثة: البيوغرافي والسياسي والوقائعي الصرف؛ عرف التاريخ في هذه المرحلة المفصلية الحاسمة تطورا ابستيميا بتشييدهما لمنهجية تاريخية نسقية تستمد بعض آلياتها من العلوم الاجتماعية المجاورة، مع الإلحاح على تنويع الأجناس المصدرية في البحث التاريخي كالايقونوغرافيا، والرواية الشفهية وكتب النوازل والنقود القديمة ...

تتأسس عملية كتابة التاريخ على مراحل ثلاث تتمثل في البنية الثلاثية في خطوطها العريضة لمقالة **ميشال دوسيرتو l'opération historique**": مرحلة الأرشيف أو الوثائقية، ومرحلة التفسير أو التحليل، ثم مرحلة التمثيل أو السرد.

الكلمات المفتاحية:

الكتابة التاريخية – مدرسة الحوليات – تاريخ إشكالي – الأرشيف – التفسير – التمثيل

Abstract :

Historical writing has known developments in terms of perception, approach and style, It was embodied in the epistemological disciplines that have been defined in the course of the development of the historical field since its early establishment in the womb of the epic and myth that is considered the birth of historical knowledge or its beginnings or its beginnings or origins, with Greek and Roman historians,

followed by an important stage represented in the liberation of the field of history from the domination of the church in the ninth century Ten and his transformation from religious theological material to a secular subject under the banner of the methodological and historical place of history, which relies exclusively on the written text represented in the official archive whose prominent feature is "political and diplomatic history, history - painting, and simplified history." It is based on recounting events without stopping at them, and without raising problems, engaging in ruminating texts, Then the historical knowledge was renewed with the annals school in the twentieth century bearing an important slogan that is reflected in writing a problematic history and not an automated history, with the refusal and destruction of the three idols of historical history: biographical, political and purely factual; history in this decisive juncture was known as an epistemic development by constructing a coordinated historical methodology that derives some Its mechanisms are from neighboring social sciences, with insistence on diversifying the genera in historical research such as iconography, verbal narration and books of ancient caliphate and money ... The process of writing history is based on three stages represented in the triple structure in a line Stewing petition for an article

Michel de Certeau " historic operation": archive or documentary stage, interpretation or analysis stage, then representation or narrative stage.

Key Word : historical writing - the annals school - problematic history – archive interpretation - Narration

مسار تطور المعرفة التاريخية:

قطعت الكتابة التاريخية أشواطا طويلة لتشكل ملامحها، حيث عرفت تطورات من حيث التصور والمنهج والأسلوب، تجسدت في القطائع الابستيمولوجية التي عرفها مسار تطور الحقل التاريخي منذ النشأة الأولى في رحم الملحمة والأسطورة التي تعتبر بمثابة ولادة المعرفة التاريخية أو مطلعها أو بداياتها أو أصولها، مع المؤرخين الإغريق والرومان، كما يؤكد ذلك الفيلسوف بول ريكور:" ... إني سأقول على طريقة **فيدروس أفلاطون** الولادة الأسطورية لكتابة التاريخ. أن أسطورة أصل الكتابة بفضل إعادة الكتابة، تبدو وكأنها أسطورة أصل التاريخ"[1]؛ يليها انعتاق حقل التاريخ من هيمنة الكنيسة في القرن التاسع عشر وتحوله من مادة دينية لاهوتية إلى مادة علمانية تحت لواء المدرسة المنهجية والوضعانية التاريخانية مع **شارل فكتور لنغلوا** "**CHarles Victor Langlois** و **شارل سينبوس** "**CHarles Seignibos** " التي تعتمد بشكل حصري على النص المكتوب المتمثل في الأرشيف الرسمي سمتها البارزة "التاريخ السياسي والدبلوماسي، والتاريخ – اللوحة، والتاريخ المبسط المعتمد على سرد الأحداث دون التوقف عندها، ومن دون إثارة الإشكاليات منغمسا في اجترار النصوص"[2]، يجعل منه أسير الوثيقة

المكتوبة:" لم يعد التاريخ إلا استخداما للوثائق"[3] مع الإلحاح على إعطاء الأولوية للظاهرة المفردة والفردية:" في الواقع كل حدث هو حدث فريد"[4] والمؤرخ غير مطالب بالبحث عن سببية الظواهر التي يصفها :" إن كل تاريخ الأحداث هو تسلسل بديهي لحوادث لا يرقى إليها الشك"[5] ثم تجددت المعرفة التاريخية مع مدرسة الحوليات في القرن العشرين حاملة شعار مهم يتجلى في كتابة تاريخ إشكالي وليس تاريخا آليا"[6]، مع رفض وتحطيم أصنام التاريخ التاريخاني الثلاثة: البيوغرافي والسياسي والوقائعي الصرف، إذ دعا **فرانسوا سيميان** المؤرخين ليتخلصوا من هرجهم ليجددوا أنفسهم، واعتمد الصورة المجازية **لبايكون** Bacon عن أصنام «قبيلة المؤرخين » وعددها ثلاثة، وكلها غير مفيدة. هناك أولا "الصنم السياسي»[7]، أي الدارسة المهيمنة، أو على الأقل الاهتمام الدائم التاريخ السياسي، يضاف اليه «الصنم الفردي أو العادة الراسخة في فهم التاريخ كتاريخ للأفراد»، ودراسة السير الفردية السياسية والعسكرية، وأخيرا «صنم التسلسل التاريخي، عادة الضائع في البحث عن الأصول»[8] جاء هذا الخطاب مستهدفا صورة أساسية لكتاب شارل سينيوس المنهجي " La Méthode historique appliquée aux sciences sociales" الصادر، سنة 1901.

عرف التاريخ في هذه المرحلة المفصلية الحاسمة تحت ريادة **لوسيان فيفر Lucien Febvre** بمعية رفيقه **مارك بلوك Marc Bloch** تطورا ابستيميا بتشييدهما لمنهجية تاريخية نسقية تستمد بعض آلياتها من العلوم الاجتماعية المجاورة، مع الإلحاح على تنويع الأجناس المصدرية في البحث التاريخي كالايقونوغرافيا، والرواية الشفهية وكتب النوازل والنقود القديمة ..على أساس أن النص التاريخي لا يحيط بالظاهرة الإنسانية المعقدة إلا بتعدد المداخل العلمية لفك

طلاسمها؛ توجت بميلاد مجلة **حوليات التاريخ الاقتصادي والاجتماعي** منذ تأسيسها سنة 1929، التي أصبحت قناة إعلامية هادفة للتواصل مع كل المهتمين بعلوم الإنسان، احتضنت نقاشات علمية سجالية حول الجسور الإبستيمولوجية بين العلوم الإنسانية وإمكانية تحقيق الشمولية في ما بينها[9]. ستتغذى المعرفة التاريخية في ظل الحوليات من مفاهيم ومناهج و فرضيات العلوم الاجتماعية الأخرى؛ إذ بدأ النداء من أجل كسر الحدود: اخرجوا من خنادقكم إنها معاهدة تآخ مقترحة على بقية العلوم الانسانية. هذا ما يؤكده لوسيان فيفر:" الجدران مرتفعة جدا حتى إنها تحجب النظر .... إننا نريد أن نثور ضد هذه الانقسامات المخيفة"[10].

وعموما، إن المؤرخ بالنسبة إلى مارك بلوك ولوسيان فيفر لا يستطيع أن يكتفي بالكتابة تحت إملاء الوثائق فحسب، بل عليه أن يسائلها ويضعها ضمن إشكالية. إنهما يقترحان ضد التاريخ-الرواية الذي ينادي به لانغلوا وسينيبوس تاريخا مشكلا، يكون أرضية نظرية لمفهومية تاريخ بنيوي مستقبلي. لم يعد التقسيم التاريخي يتمفصل إذا وفق حقبات كلاسيكية وحسب، ولكن وفق مشكلات يتم إبرازها والبحث عن حلول لها.

إن التأكيد على تاريخ – مشكل هو عنصر أساسي في نموذج التاريخ الجديد؛ إنه تحليل وتفسير بنية اجتماعية مع علاقاتها وداخل السياق الذي أنتجها..."[11]، كما سعى الجيل الثاني للحوليات مع **فيرناند بروديل Fernand Braudel** الذي يدعو التاريخ في مقدمة أطروحته حول **البحر الأبيض المتوسط والعالم المتوسطي في عصر فيليب الثاني** إلى البقاء على اتصال

مع علوم الانسان الحديثة، مصرحا بوحدتها، لا شيء يفرقها عن التاريخ، يقول:" علم الاجتماع والتاريخ كلاهما مغامرة واحدة للعقل فهما ليسا الوجه والقفا للنسيج ذاته بل هما هذا النسيج ذاته في كل كثافة خيوطه"[12]، وهو يتيح إعادة تنظيم مجموع العلوم الاجتماعية حول برنامج موحد تكون مرجعيته الأساسية فكرة الأمد الطويل؛ يجب أن تفرض على الجميع وبما أن الأمر يتعلق بالديمومة والتقسيم إلى عهود طويلة[13]؛ كما استعار مفهوم البنية من كلود ليفي ستراوس لكنه متبنيا باراديغما مخالفا تماما، فهي تعني عند بروديل هندسة وتركيبا ولكنها يمكن أن تعاين في واقع ملموس، ويمكن أن تلاحظ. "إن هذه البنى التاريخية قابلة للاكتشاف وبشكل ما قابلة للقياس، مدتها الزمنية قياس"[14].

لا يقتصر بروديل على الأمد الطويل كبنية ولكن بالتعددية الزمنية أيضا، حيث تحولت إلى نظرية تتخذ كنموذج سنة 1958، إن الزمن عنده ينقسم إلى أنساق غير متجانسة تكسر وحدة الديمومة، كما يأخذ الزمن صبغة نوعية ليحصل على معقولية ذات مستويات مختلفة.

تتمحور الهندسة البروديلية حول ثلاث زمنيات مختلفة: الزمن الوقائعي، الزمن الظرفي الدوري وأخيرا الأمد الطويل، مثلث: الأحداث والظرفيات والأمد الطويل، الذي يجسد درجة سرعة الزمن؛ ومنذ أطروحته أعطى لكل ديمومة حقلا خاصا بها:" يمكن أن نميز داخل الزمن التاريخي زمنا جغرافيا وزمنا اجتماعيا وزمنا فرديا(سياسيا)"[15]، ليخلص في النهاية إلى مقولته الشهيرة:" يجب أن نفهم جيدا ما هو درس الحوليات، هو أن العلوم الانسانية قد أدمجت في التاريخ وأصبحت علوما رديفة له"[16].

تكتمل ملامح التاريخ الجديد مع الجيل الثالث لمدرسة الحوليات خاصة مع **جاك لوغوف J.Le Goff وبيير نورا P. Nora** بإبراز مجموعة من الإشكاليات والمناهج الجديدة تم التعريف بها في كتابهما : **صناعة التاريخ**[17](1974)، المكون من ثلاث مجلدات: الأول مشكلات جديدة والثاني مقاربات جديدة والثالث موضوعات جديدة، ساهمت حقيقة في تجديد مجالات تقليدية كان التاريخ يعنى بها نجد أهمها الديموغرافيا التاريخية، التاريخ الديني، والتاريخ الاجتماعي و الثقافة المادية... مدرجة كذلك في كتاب(قاموس): **التاريخ الجديد**[18] تحت إشراف **جاك لوغوف** صدر سنة 1978 في شكل مقالات، عددها عشرة، تعبر "بعمق عن إشكالية الكتاب" تم فيها التعريف بالتاريخ الجديد بإبراز مواضيع جديدة في حقل التاريخ كانت عادة من اهتمامات الأنثروبولوجيا مثل: الأسطورة، والتغذية، واللباس، والجسد، والمآثر، والصوة، والكتاب والجنس...

مستويات عملية كتابة التاريخ:

تتأسس العملية التاريخية أو بتعبير أدق عملية كتابة التاريخ أو -"المرحلة الكتابية للعملية التاريخية" كما يسميها **دوسيرتو** - على مراحل ثلاث تتمثل في البنية الثلاثية في خطوطها العريضة لمقالة **ميشال دوسيرتو l'opération historique**": مرحلة الأرشيف أو الوثائقية، ومرحلة التفسير أو التحليل، ثم مرحلة التمثيل أو السرد؛ يقول بول يكور: لقد اقترحنا كلمة مرحلة لكي نميز الأقسام الثلاثة لعملية كتابة التاريخ - ولرفع الالتباس حول استعمال التعبير- لا يتعلق الأمر بمراحل متميزة زمنيا، ولكن بلحظات منهجية متداخلة في بعضها.

يقول:"لا يستشير أحد الأرشيف من دون مشروع تفسير، من دون فرضية فهم، ولا يبذل أحد جهده في تفسير مجرى الأحداث من دون اللجوء إلى استعمال صيغة أدبية مناسبة ذات طابع سردي أو بلاغي أو متخيل"[19].

لا تشكل المراحل الثلاث للعملية التاريخية أطوارا متتابعة، بل هي مستويات متداخلة، والانهمام التربوي وحده هو الذي يعطيها مظهر التتابع الزمني.

إن فكرة التتابع الزمني يجب أن تستبعد في كل استعمال للتعبير «المرحلة العملانية» فقط في الخطاب المتعلق بلحظات «سير عملية كتابة التاريخ» ستتحول المراحل إلى حقبات، فترات متعاقبة لمسيرة تنشر خطها المستقيم الخاص بها، سنتجنب تماما التباس التعاقبية، حين نتكلم عن المستوى لأن التعبير يشير بالأحرى إلى التنضيد والتكديس[20].

يضيف بول يكور: لقد فضلت في النهاية، التعبير «مرحلة» نظرا لأنه في غياب نظام زماني للتعاقب، يشير إلى تقدم العملية بما يخص تبيان القصد التاريخاوي لإعادة البناء الحقيقية للماضي. وبالفعل في المرحلة الثالثة يعلن القصد في تمثيل الأشياء الماضية على حقيقتها، وهذا القصد يحدد في وجه الذاكرة المشروع المعرفي والعملي للتاريخ، كما يكتبه المؤرخون المحترفون، هناك تعبير ثالث، والذي فضله بول ريكور في عمله المرحلي هو تعبير البرنامج. وهو يناسب تماما كي يعبر عن الصفة المحايثة لكل مرحلة من المسار. بحيث يملك هذا المعنى امتيازا تحليليا بالنسبة إلى التسميتين الأخيرتين. لهذا فإنه يلجأ إليه كلما أراد التشديد على طبيعة العمليات القائمة على كل مستوى.

إن الكتابة هي عتبة اللغة التي اجتازتها دوما المعرفة التاريخية لكونها ابتعدت عن الذاكرة كي تجري وراء المغامرة الثلاثية للأرشفة والتفسير والتمثيل. "إن التاريخ – إذن- من بدايته إلى نهايته هو كتابة"[21].

في هذا الصدد تشكل الأرشيفات [المحفوظات] الكتابة الأولى التي يواجهها التاريخ، لأن ينتهي هو نفسه إلى الكتابة على النمط الأدبي للتدوينية، كما إن التفسير يجد نفسه وقد أحاطت به كتابتان، من جهة الكتابة الأقرب من الينبوع ومن جهة أخرى الكتابة الأبعد، إنها تتلقى طاقة الأولى وتستبق طاقة الثانية حسب تعبير بول ريكور.

هذه المراحل هي التي تمكن المؤرخ أو الباحث في حقل التاريخ من تدبير الماضي كما يقول جاك لوغوف حينما يتحدث عن عملية بناء الماضي وكتابة التاريخ أو ترتيب الماضي أو إعادة بناء الماضي وربط هذا الماضي بالحاضر انطلاقا من مقولات ومفاهيم[22].

المرحـلة الأولى: مرحلة الأرشـيف

وفي تعريف واسع جدا للأرشيف الذي أعطاه القانون الفرنسي سنة 1979: "الأرشيف (المحفوظات) هي مجموعة الوثائق، مهما كان تاريخها، وشكلها أو سندها المادي الذي أنتجها أو تلقاها كل شخص مادي أو معنوي أو كل دائرة أو هيئة عامة أو خاصة أثناء ممارسة الوظيفة"[23].

تسمى هذه المرحلة بالمرحلة الوثائقية التي تستأنف بها عملية كتابة التاريخ، يقول بول ريكور:" إن لحظة الأرشيف هي لحظة الدخول في الكتابة لعملية كتابة التاريخ"[24]، عندها يقصد المؤرخ هذا الأرشيف حاملا العديد من الأسئلة، لأن مفهوم المساءلة ولائحة الأسئلة هما أول ما يجب ترتيبه في عملية البرهان الوثائقي.

لذا فالمؤرخ يلتزم ببحث في الأرشيف بعد أن يتسلح بالأسئلة. بافتراض مرحلة أساسية أولى حيث يجمع فيها المؤرخ الوثائق، ويقرأها ويتأكد من أصالتها وصحتها، ثم تأتي مرحلة ثانية يضعها في خدمته.

كما يدعو **أنطوان بروست** في كتابه اثنا عشر درسا في التاريخ:" ليس من ملاحظة من دون فرضيات، وليس من واقعة من دون أسئلة. إن الوثائق لا تتكلم إلا إذا طلبنا منها أن تتحقق، أي أن تجعل فرضية ما صحيحة. وبالتالي هناك ترابط ين الوقائع وبين الوثائق وبين الأسئلة.

لقد كتب أ. بروست: " إن السؤال هو الذي يبني الموضوع التاريخي حين يقوم بتقطيع أصلي داخل العالم غير المحدود للوقائع وللوثائق المحتملة"[25].

هنا يؤيد المؤلف **بول فين Paul Veyne** الذي يصف العمل الحالي للمؤرخين أنه تطويل للأسئلة، ويضيف قائلا "أن مسألة المؤرخ ليست مسألة عارية، إنها مسألة مسلحة تحمل معها فكرة معينة عن مصادر الوثائق وطرق البحث المحتملة"[26].

يشكل الأثر والوثيقة والسؤال المثلث الأساسي للمعرفة التاريخية، فبالنسبة إلى المؤرخ كل شيء يمكن أن يصبح وثيقة، طبعا هناك أولا البقايا التي تستخرج من الحفريات للتنقيب عن الآثار الباقية، ولكن بطريقة لافتة جدا المعلومات المختلفة والمتقلبة من مثل بيانات الأسعار، وسجلات الأبرشيات (الكنائس)، والوصيات، وبنوك المعطيات الإحصائية...[27].

وتكمن أهمية الوثيقة في كيفية تصرف المؤرخ وآليات اشتغاله التي طبقها عليها، والجهاز المفاهيمي الذي أخضعها إليه، فبالنسبة للمؤرخ ليست الوثيقة معطاة فقط، كما قد توحي إلى ذلك فكرة الأثر الباقي. إننا نبحث عنها ونجدها. بل أكثر من ذلك، إنها محددة وبهذا المعنى فإن التساؤل يقيمها ويؤسسها كوثيقة. هذا يجسد نواقص الوثيقة تكمل صرحها إجراءات الوثائقيين، والمؤرخين بعدهم، يؤكد بول ريكور هذه التلاحم الحاصل بين الموضوع التاريخي والسؤال التاريخي:" إن هذه المرحلة(التفسير) من عملية كتابة التاريخ ... متداخلة مع المرحلة السابقة (الأرشيف) لأن ليس من وثيقة من دون سؤال، ولا من سؤال من دون مشروع تفسير. إن الوثيقة تقيم البرهان بالنسبة للتفسير. غير أن ما يقدمه التفسير/ الفهم من جديد بالنسبة إلى المعالجة الوثائقية للواقعة التاريخية يتعلق بأنماط التسلسل بين الوقائع الموثقة..."[28]

المرحلة الثانية: مرحلة التفسير

يعتبر التفسير- بصورة عامة - الإجابة عن السؤال «لماذا» عن طريق استعمال متعدد للرابط «لأن»، بتنوع أنماط التفسير في الحقل التاريخي، مع التشديد بأن ليس هناك في التاريخ من

نمط في التفسير يحظى بامتياز خاص[29] . من ناحية، فإن سلسلة الواقع المتكررة للتاريخ الكمي تقبل التحليل السببي وإثبات أمور منتظمة تشد فكرة السبب معنى العلة الفاعلة نحو فكرة الشرعية، على طريقة نموذج العلاقة «إن .... إذن....» من ناحية ثانية، فإن تصرفات العاملين الاجتماعيين حين يستجيبون لضغط المعايير الاجتماعية بردود متنوعة من التفاوض والتفسير أو التنديد فإنهم يجرون فكرة السبب إلى جهة فكرة التفسير بالدواعي[30].

يظهر التاريخ على هذا المستوى المنهجي كأجرأة وكممارسة وتبرز بالنتيجة خصوصيات البحث في الحقل التاريخي، من جرد للنصوص وتصنيف لهذه النصوص والجمع بين الوثيقة كمعطى والموضوع كمشروع مبتكر وكذلك، ما نفترضه واقعا وما تتم صياغته في شكل مرقون، وهذه الخصوصيات هي التي دفعت بول ريكور إلى القول بأن المؤرخ فهو في الأصل محلل للوثائق.

المرحلة الثالثة: مرحلة التمثيل/ السرد

تختلف التسميات لهذا المستوى من عملية كتابة التاريخ، مرحلة الكتابة، أو الصياغة الأدبية أو مرحلة السرد، أو تمثيل كتابي، يقول ميشال دوسيرتو في كتابه "l'écriture de l'histoire": إن هذه المرحلة هي مرحلة إخراج أدبي «la mise en scène du récit»[31]، أو تمثيل أدبي، تعني الصياغة بشكل أدبي أو كتابي للخطاب الذي يوضع أمام علم قراء التاريخ.

أعاد **هايدن وايت** في كتابه "محتوى الشكل، الخطاب السردي والتمثيل التاريخي" إنتاج مفهوم التاريخ بوصفه سردية مجازية لها صور بلاغية أربع هي الاستعارة والكناية والمجاز والسخرية. وما هذا التداخل بين السرد والتاريخ إلا انفتاح فكري فيه السرد هو القالب الشكلي بينما المادة التاريخية هي المحتوى الذي سيصب في ذلك القالب"[32].

وأعطى هايدن وايت لبول ريكور فصلا في كتابه موضع الرصد مركزا على نظرة ريكور للزمن والرمز في إطار فلسفة التاريخ وصلتها بالميتافيزيقيا السردية، وأن التاريخ والأدب يتشاطران مرجعا نهائيا بين الخطاب الوثائقي والخطاب التخييلي"[33].

يقول بول ريكور:" إذا كان الرهان الإستيمولوجي الأكبر يقرر في مرحلة التفسير/ الفهم فإن هذه المرحلة لا تنهي الرهان، إذ إن في المرحلة الكتابية يعلن تماما القصد التاريخوي أي القصد في تمثيل الماضي كما قد حصل مهما كان المعنى المعطى لكلمة "كما"، بل إنه في هذه المرحلة الثالثة تبرز بقوة الاستعصاءات الكبرى للذاكرة، استعصاء تمثيل شيء غائب وقع سابقا واستعصاء ممارسة مكرسة للاستذكار النشط للماضي والتي يرفعها التاريخ إلى مستوى إعادة بناء"[34].

يبدو التاريخ - عطفا على قول ريكور- كبناء كإعادة بناء، ككتابة، كإعادة كتابة، كقراءة للماضي، كإعادة قراءة الماضي، وكاستيعاب لمقولات ومفاهيم، وإعادة صياغتها. وأن إعادة قراءة الماضي هي إعادة بناء، وأحيانا على حساب تهديمات مكلفة، البناء والهدم وإعادة البناء هي أعمال مألوفة لدى المؤرخ، لذلك يبقى البعد الأدبي في الكتابة التاريخية حاسما.

يقول ريكور في هذا الصدد: "إن التاريخ الذي هو نوع من أنواع السرود، سرد واقعي مقارنة مع سرود أسطورية تخيلية يحيل على أفعال الناس في الماضي"[35].

ويضيف مؤكدا أن التاريخ ليس علما صرفا محكوم عليه بالتخلي عن السرد، وفي المقابل التاريخ ليس بسرد صرف بعيد عن قواعد العلم. لكونه ينتمي لإبستمولوجيا مختلطة.

خاتمة:

تجددت المعرفة التاريخية انطلاقا من توسيع دائرة المصادر بعدم الاقتصار على الوثيقة المكتوبة وحدها بل بالانفتاح على أجناس مصدرية متنوعة منها الرواية الشفهية والصورة والعمارة واللباس .... التي من شأنها أن تكشف عن مكامن الماضي، وأن تكون صلة وصل بين الماضي والحاضر، بالإضافة إلى مسألة الاحتكاك بالعلوم الاجتماعية المجاورة ولاسيما علم الاجتماع، واللسانيات، وكذا تغيير انهمام المؤرخ من البحث في الأحداث إلى البحث في البنيات. كل هذه المسارات تؤكد هذا التوجه الجديد للحقل التاريخي، ولذلك يسعى المؤرخ لخلق نوع من التوازن بين ما تقوله الوثيقة وما يقتضيه الفهم من تفسير وتأويل ولا يتأتى هذا إلا بالاحتكاك العلوم الاجتماعية المجاورة. بطبيعة الحال لا يمكن كتابة التاريخ بدون وثيقة ولكن كلما كثرت الوثائق كلما حاصرت تفكير المؤرخ وسجنته في قوالب ضيقة، ويترجم في النهاية ماتقوله الوثيقة فقط، ومعنى هذا أن تطور المعرفة التاريخية لا يرتطب بالوثيقة وحدها بل بدرجة الإغتراف من العلوم الاجتماعية، لأن المسألة هي مسألة جهاز مفاهيمي بدرجة أساسية،

فهذه المفاهيم هي التي تميز التاريخ عن الوثيقة كما يقول **بول فين** في كتابه "**كيف نكتب التاريخ**"، وتمكن المؤرخ من الحديث بلغة مختلفة عن لغة الإخباري عندما يدرس البنية وأنماط العيش والذهنيات....

وفي الختام يبقى التاريخ مادة أدبية من منظور بول ريكور -عندما نستند إلى هذا المعطى، معطى الكتابة ومعطى السرد - مهما دافعنا عن موقعه ضمن علوم الانسان ومهما كانت الجهود الاسطغرافية الحديثة في مختلف الدارسات التي اشتغلت على الدرس التاريخي منذ القرن التاسع عشر وذلك لأسباب منها:

ارتباطه بالوثيقة وما تتضمنه من نقائص حتما، وارتباطه بإقناع القارئ وما يتطلبه من تفسير وتأويل (من خلال الحِجاج)، وارتباطه بالسرد وما يتطلبه من بناء الحبكة.

يبين هايدن وايت كيف أن السرد يمثل الحلقة الرئيسية التي تحدثنا عنها لأنه في ذات الوقت أسلوب يتم بواسطته التأويل التاريخي، ومفهوم يمثل مقاربة استدلالية لكتابة التاريخ. كما أن مفهوم وايت عن التاريخ كسرد، الذي طوره في مفهوم ما وراء التاريخ، يبين أن الاعمال التاريخية عموماً تأخذ شكل السرد، بصيغة "تمثيلاً متماسكاً ومنظماً لأحداث أو تطورات حدثت بتسلسل زمني"[36].

الهوامش:

[1] _ بول ريكور، الذاكرة، والتاريخ والنسيان، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط. الأولى،2009. ترجمة الدكتور جورج زيناتي، ص.224.

[2] _ جاك لوغوف، التاريخ الجديد ترجمة وتقديم محمد الطاهر المنصوري، ط.1. بيروت،2007 ص. 93.

[3] _ Charles Seignobos ; Introduction aux études "Langlois Victor Charles" historiques (Paris: Hachette ;1889) ;p.275.

[4] _ جاك لوغوف، التاريخ الجديد، ص.205.

[5] _ المصدر نفسه ص.253.

[6] _ المصدر نفسه، ص91.

[7] _ Simiand, La Méthode historique appliquée aux sciences sociales(p.52

[8] _ التاريخ المفتت من الحوليات إلى التاريخ الجديد، فانسوا دوس، ترجمة محمد الطاهر المنصوري ط.1. بيروت، 2009، ص. 52.

[9] _ cf. Brigitte Mazon: Lucien Febvre: combats et destin, p 11-18

[10] _ التاريخ المفتت من الحوليات إلى التاريخ الجديد، فانسوا دوس، ص.94.

[11] _ Marc Bloch, la société féodale, l'évolution de l'humanité ;8(Paris :A.(51) Michel, 1986),p.16..

[12] _ Fernand Braudel, écrits sur l'histoire (Paris:,,1969)،Flammraiso p.31

[13] _ التاريخ المفتت من الحوليات إلى التاريخ الجديد، فانسوا دوس، ص.176

[14] _ Braudel, Histoire et Sociologie» ,114.

[15] _ « Préface » dans : Fernand Braudel, Civilisation matérielle es capitalisme,1. p.17.p.176

[16] -لتاريخ المفتت من الحوليات إلى التاريخ الجديد، فانسوا دوس، ص.192

[17] _ Le Goff et Nora , Faire de l'histoire.

[18] _ جاك لوغوف، التاريخ الجديد.ص.111

[19] _ بول ريكور، الذاكرة، والتاريخ والنسيان، ص.219

[20] _ المصدر نفسه، ص.219

[21] _ المصدر نفسه، ص.220

[22] _ مقالات الدكتور حبيدة، مقالة: "ابستمولوجيا المعرفة التاريخية"، إعداد وجمع المقالات: لحرش رضوان9 يناير2012. سلسلة مقالات رقم 2

[23] _ فرانسوا يدايدا، التاريخ ومهنة المؤرخ في فرنسا، 1945- 1995، باريس، منشورات بيت علوم الإنسان1995 ص.93

[24] _ بول ريكور، الذاكرة، والتاريخ والنسيان، ص.252

[25] _ أنطوان بروست، اثنا عشر درسا عن التاريخ، ص.79.

[26] _ نفسه ص.80.

[27] _ بول ريكور، الذاكرة، والتاريخ والنسيان، ص.271.

[28] _نفسه. ص277.

[29] _ بول فين، كيف نكتب التاريخ، باريس، 1971. أنطوان بروست، اثنا عشر درسا في التاريخ.

[30] _ بول ريكور، الزمان والسرد، ج.1، الفصل2 ص.217

[3131] _ ميشيل دوسيرتو، الكتابة التاريخية، ص.101.

[32] _ هايدن وايت، محتوى الشكل، الخطاب السردي والتمثيل التاريخي

[33] _ وقد وصف هايدن وايت كتاب ريكور عن الزمان والسرد بالعمل الضخم وأنه أهم تركيب لنظرية الأدب والتاريخ أنتجت في القرن العشرين.

[34] _ بول ريكور، الذاكرة، والتاريخ والنسيان، ص218

[35] _Paul Ricoeur, Du texte à l'action, P.176.

[36] - Hayden White, Metahistory: The Historical Imagination in Nineteenth-Century Europe, Fortieth-Anniversary Edition (Baltimore: Johns Hopkins University Press, 2014 [1973]), p.35.

الكاتب: د/ مى السيد السيد محمد
وزارة الآثار – مصر
Mai El Sayed El SayedMahamed
Ministry of Antiquities – Egypt

عنوان المقال: أَثْر الهَيكل و التَركيب التَنْظيمي للجَيْشِ المِصْري المَمْلُوكي البَحْرِي على شَاراتِ ورنُوك السَلاطِين و الأُمراء

البريد الالكتروني: mai2181972@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2020/06/10 تاريخ القبول: 2020/06/25 تاريخ النشر: 2020/06/30

أَثْر الهَيكل و التَركيب التَنْظيمي للجَيْشِ المِصْري المَمْلُوكي البَحْرِي على شَاراتِ ورنُوك السَلاطِين و الأُمراء

The impact of structure and organizational Structure of the Mamluk naval army on the Insignia and Emblems sultans and Princes

ملخص البحث

سَعَى الفنانُ المسلمُ عَبَر العُصُور الإسلامية المتعاقبة للتعبيرِ عن ذاتِه جمالياً بطريقةِ تتفق ومبادئه الدينية، تجسد ذلك بوضوحٍ في استخدام الرنوك في العصر المملوكى لما تميز به هذا العصر من رقِي ورفاهية ووثراء، انعكس أثره بما يتناسب مع حياة الأبهة التى عاشها سَلاطِين المَماليك، وما تمتع به الجيش المصرى في العصر المملوكي البحري من طبيعةِ اتسقت مع نشئت الدَوْلة المَمْلُوكِية في ظلِ نظام عسكري، ويتناول البحث هذه الدراسة في عدة مباحث، يتعرض أولها : للهيكلِ العام للجيش المملوكي البحري، والتركيب التنظيمي للجند السلطانية، والتركيب الهرمي لأقدمية الرتب، بينما يستعرض المبحث الثانى: دراسة أنواع الرنُوك؛ أما المبحث الثالث: فيتناول الشعارات الدالة على وظائفِ بعض الأُمراء وصفاتهم، وقيمهم ومبادئهم، ويختم البحث بأهم النتائج والتوصيات.

الكلماتالدالة : المَماليك، الرنُوك، الشعارات

Abstract :

The Muslim artist sought through the successive lslamic periods to express himself aesthetically in a manner consistent with his religious principles;this

clearly reflected in the use of slogans in the Mamluk era, which characterized this era of development. Well-being and richness reflected in a way that suited the life of the goddess of the Mamluk Sultans the Egyptian army in the Mamluk era of marine nature coincided with the establishment of the Mamluk state under a military regime, the research deals with this study in the first of its kind;the first is the general structure of the Mamluk Navy and the organizational structure of the Sultan's army and the hierarchical structure of the ranks. The second topic is the study of Emblem the third topic deals with slogans on the functions of some princes and their qualities, principles and values and concludes the research with the most important results and recommendations.

مقدمة :

شهد عَصْر دَوْلَة سَلاطِين المَماليك أحداثًا حربية مهمة على الصعيدين الدولي عامة، والإسْلامِي خاصة، ويكفي أن نذكر منها:الأنتصار على جحافلِ المغول، وأقتلاع الخطر الصليبي، ومن هنا فرضت دراسة الموضوع تساؤلات مهمة ؛ كيف نجحت القوات المصرية في تحقيق هذه الإنتصارات المبهرة ؟ بالقضاءِ على الخطرِ المغولي وفي الوقت ذاته التهديد الصليبي، ثم كيف رُتِبت الجيوش تنظيمياً حتى تحققت لهم هذه الإنتصارات؟

1- تكوين الجَيْشَ المِصْرِي المَمْلُوكي البَحْري :

(1-1)النشأة العسكرية للمَماليكِ

أوضحت النظرة العميقة للأصل المملوكي البحري أن أصُولهم ترجع إلي عَنَاصر عِرقية تُرْكيَة مختلفة ، وعلى الأخص من بلادِ القبجاق والقوقاز في آسيا الوسطى، وفي مرحلة لاحقة انضم إليهم العنصر الشركسي والمغولي والصقلبي ثم الكرجي[1] أي أنهم هم خليطاً من الأتراكِ والجراكسة رغم ذكر بعض المصادر أن ربما كان أصلهم من العربِ[2] الذين سكنوا آسيا الصغرى وفارس وتركستان[3].

وكانت الخدمه في الجَيْشِ هى الطريق الوحيد للترقي في المناصبِ العسكرية في العَصْر المملوكي، لذلك كان الجيش مؤسسة مغلقة على المماليكِ المجلوبين[4] ومن ثم مثلوا الطبقة العسكرية الممتازة التى فرضت سيادتها على البلادِ المصرية وأهلها، وقد أولت الدولة النشأة

والتعليم لمماليكها أهمية كبرى، وأن لم تقدم لنا المصادر التاريخية عن أسلوب التعليم المملوكي كثيراً إلا أن تربيتهم ونشأتهم العسكرية الأولى أتسمت بكثير من المعالمِ المميزةِ.

فمنذ شراء السلطان لهم يرسلوا للفحصِ للتأكد من سلامةِ أجسامهم ويلحقوا بطبقةِ جنسهم ومتقاربة بموطنِهم ليتلقوا التعليم الديني والعسكري الصارم على يدِ الطواشية، الخصيان "الأغاوات"

وتستمر فترة تعليمهم أربعة أو خمسة عشر شهراً، وتمتد أحياناً لعدةِ سنين يتلقى خلالها تدريباً قتالياً يعتمد على الفروسيةِ التى كانت الأسَاس للفنِ الحربي في ذلك الحين وتتمثل فى خفةِ الحركة والمرونة والقوة الضاربة ،وكان تعليم المملوك الفروسية يتم فى الطباق[5] ماراً بعدة مراحل أولها : ركوب الخيل والكر والفر، وثانيها : الرمى بالقوسِ الفروسية[6]، فضلاً عن تعليم المملوك أخلاق الدواب والأمراض التى يمكن أن تصيبها وأسباب وطرق علاجها علاج سليم[7]، ويستمر المملوك فى التدريبات إلى أن يصبح مقاتلاً أى جاهزاً للقتالِ وأن كان ينقصه خبرة القتال، ولكنه مكتسب للمهاراتِ القتالية، فإذا أنتهت الدراسة أعْتقَ المملوك، ويكون الأعتاق جملة ويقام له إحتفال خاص يحضره السلطان والأمراء، وبناء على شهادةِ تسمى أعتاق يُسَلم المملوك سلاحاً وفرساً ولباساً خاصاً وإقطاعاً[8] يبقى له طوال حياته، وكان المماليك المتخرجون يقسمون أقساماً، لكل جماعة منهم باش أما الذين يصلون إلى الأمارة وهى مرتبة تهئ للوظائفِ الكبرى الحاكمة في البلاط والجيش أو حتى للسلطنِة فالمملوك لايحصل عليها إلا بعد أن ينتقل من مرتبة لأخرى، وقد تهذبت أخلاقه، وصبغت آدابه بروحِ الأسلام، وبرع في فنونِ القتال.

(2-1)الهيكِل العَام للجَيْشِ المَمْلُوكي البَحْرِي :

يتدرج الجيشُ في تسلسل دقيق ، يتكون الجيشُ المِصْرِي في العَصْر المَمْلُوكي البَحْرِي من قيادةِ وقادة وجند، تمثلت القيادة في ديوان الجيش[9] ويعرف كأحد دواوين السلطنة الرئيسية، وكان أهم مميزاتها وصفتها، وتمتع بأهمية كبرى ووضع خاص ووصفه **المقريزي** بأنه "أضبط الدواوين وأكثرها نفعاً"[10] فيه تحتفظ الأوراق الخاصة بأسماءِ الجنود والأمراء ومقره بقلعةِ الجبل، وذكره **القلقشندي** بقوله "فطنة الأقطاعات أى سجلا وأكبر الدواوين المختصة بالشئونِ الأدارية"[11].

ولم تكن تدونُ أسماء الجنود الجيش بديوانِ الجيش إلا عن طريقِ أمرائهم[12]، ولايستطيع جندى أن ينتقل من خدمِة أمير تابع له إلى خدمة أمير آخر إلا بإذنِ من السلطانِ

وبعد صدور مرسوم خاص منه، أو من نائبهِ، ولا يستطيع الأمير أن يدخل في خدمته مماليك جدد إلا بسبب وفاة أو قتل أو طرد أحد أجناده من الخدمةِ،[13]وكان يرأس ديوان الجيش[14] موظف كبير يعرف بأسم **ناظر الجيش** يتولى أمر الإقطاعات بمصرِ والشام ويصدر أوامره بتنوين كل مايختص بهذه الإقطاعات في سجل خاص، ويستشير السلطان فى شئونها[15]، وكانت وظيفة ناظر الجيش من الوظائفِ العليا في الدولة كون المسئول عنها يشرف على الجيوشِ، وما يتعلق بها من جميعِ النواحى في عَصْر كانت للجنديةِ مكانة رفيعة، ولقد كان هناك عدة وظائف لمعاونة ناظر الجيش، وهم أربعة من كبار الموظفين[16] يرأسهم أثنان **أولهم: صاحب ديوان الجيش** ويلى الناظر فى الرتبة والأقدمية وينوب عنه في تصريفِ شئون هذا الديوان حالة غياب الأول، **وثانيهم** : وهو يليهم في الأقدمية **نائبه** تنحصر مهمته في تحديد مرتبات الجنود وتدوينها في كشوفات خاصة، ويشرف على تنفيذ ماورد بها وذلك بعد اعتمادها من السلطانِ حيث كان يقوم بهذا العمل شخصياً، ثم يليهم الموظفون الأربعة **الأول : مستوفي إقطاعات الديار المصرية ،والثانى : مستوفي إقطاعات البلاد الشامية**[17]

ووزع اختصاص هذين الشخصين على هذا النحو لأن ديوان الجيش المصرى كان منقسماً إلى ديوانيين في مصر والشام طبقا لأختصاصاته؛ أما **الثالث**: في الأقدمية من هؤلاء الموظفين **مستوفي إقطاع العرب** ؛ ويتصرف في إقطاعات العرب، **والرابع** : **مستوفي الرزق**؛ ويشرف على صرفِ نفقات الجنود، ويشترط في هؤلاء الموظفين أن يكونوا على جانبٍ كبير من الأمانةِ والدقة في تصريف الأمور التى يكلفون بها، والدراية التامة بدقائقِ أعمالهم[18]، ويعمل مع هؤلاء الموظفين عدد وافر من الكُتابِ والشهود أذ أن الديوان يشرف على جميع جنود الدَوْلَة اَلْمُلوكية بما فيهم المَماليك السلطانية الذين يؤلفون قسماً مهماً من جيشِ المَماليك،[19] ويساعد ناظر الجيش في عمله لإدارة ديوان الجيش موظف كبير عرف بأسم **نقيبالجيش**[20]، عُهِدَ إليه أمر حراسة السُّلطان خلال سفره وأثناء خروجه للمواكبِ، ويستدعى من يطلبه السلطان من أمراءِ أو أجناد الحلقة، ويشرف على الجند أثناء عرضهم، وكان من اختصاصاتهِ الحكم في الأمور البسيطة[21]، وأطلق عليه في الشام **نقيب النقباء**، وعرفت هذه التسمية في مصر في حكم قلاوون، وكان نقيب الجيش يختار من أمراءِ العشرات ويتمتع بنفوذِ كبير على كافة الناس ويخشى بأسه وجبروته[22]، وكان يطلق على هذه الوظيفة بداية العَصْر المملوكي نقيب العسكر[23]، ومن جملةِ اختصاصاتهِ مصاحبة الأُمراء والموظفين المغضوب عليهم من السجنِ إلى البلاطِ السلطانى والعكس، والأمراء المخلوعين إلى أماكنِ

منفهم، وتوصيل المحكوم عليهم بالأعدام، وأعلان تجهيز الجيش لإستعراض أو حملة عسكرية، وأرسال نقباء وأجناد الحلقة الذين تحت أمرته إلى القاهرة وضواحيها؛ أما وظيفة **نقيب المماليك** فكانت لمعاونة ناظر الجيش أيضاً في أدارة ديوان الجيش وحددت أختصاصاته بالمماليك السلطانية، ويبدو أن هناك ثمة تشابه بين الوظيفتين من ناحية أسلوب العمل الوظيفي، وأن كانت المصادر لم تبين أوجه الأختلاف بين المنصبين، وعلى أساس التسمية يمكننا أن نفترض أن نقيب المماليك تقتصر على المماليك الأمراء، أما نقيب الجيش كان يشمل جميع أفرع الجيش، ويبدو أن منصب صاحب ديوان المماليك بالنسبة إلى منصب صاحب ديوان الجيش هو نفس الوضع بالنسبة لمنصب نقيب الجيش، ومنصب نقيب المماليك، ويمكن أن يكون نفس التفسير.

إلا أن الوظيفة الأولى لم يعد لها وجود منذ أوائل النصف الأول من القرن الثامن؛ أما وظيفة نقيب الجيش أستمرت وأشتملت على جميع أفرع الجيش المملوكي[24].

(3-1) التَركيب الهَرمي لأقدمية الْرتَب في الجيش المصري في العَصْرَ المَمْلَوكِي البَحْري :

زودتنا المصادر بمعلوماتٍ وَافرة عن تكوينِ الجيش المصرى فى العصر المملوكي البحري وفي مقدمتها القيادات التي تسمى بالأمراء، ويمكن القول بأن السُلطَان كان على رأس هذه القيادات بصفته رئيس الدولة الأعلى[25]، وزعيم أمراء المماليك والمسيطر على شئونهم الخاصة والعامة وصاحب الحق فى تدرجهم، وبإلغاء منصب نائب السلطان عقب موت الناصر محمد قام بتأدية مهامه أقدم الأمراء رتبة في العاصمة وكان يلقب **بنائب الحماية أو أتابكالعسكر**، وهو كبير أمراء المماليك[26]، وكان شائعاً أن يخلف السلطان على العرش[27]، وكان قائدا أعلى للجيش، وتشير المصادر إلى عدة وظائف لهذا المنصب "كمدير الملك[28]" ولقب بأتابك الجيش أو بأتابكى الجيش، ولم توضح المصادر هل لقب أمير الجيش يعنى أتابك الجيش أم لا؟، وعلاوة على أتابك العسكر كان للجيش قواد يسمون الأمراء ووظيفتهم **الأمره**[29]، وكانت الأمره لجيش المماليك يصل إليها المملوك بالتدرج فى الترقي[30]، وتتم مراسم الأمره فى حفل كبير يتسلم التشريفة من السلطان فى القلعة ويحلف يمين الولاء[31]، وتتدرج الأمراء من أمير خمسة إلى أمير عشرة إلى أمير أربعين إلى أمير مائة، ويتميز الأمراء فى تدرجهم بأعداد الجند تحت أمرتهم[32]، وبأعداد المماليك الذين يملكون، وبعلامات تشريفية يتخذونها شعارات لهم،فأمير خمسة كان في خدمته خمسة مماليك وأكثرهم من أولاد الأمراء المتوفين أو من أبناء الأمراء المقدمين، ويمنح الواحد منهم هذه الرتبة تقدير لخدمات والده أذ كانوا

يعدون من المقربين[33] ووصل عددهم في الجيش إلى ثلاثين[34]، أما أمير عشرة، فكان عند كل أمير مهم عشرة مماليك أو فرسان وربما منهم من يدخل تحت أمره عشرون فارساً ولا يعد إلا من أمراء العشرات الذين كان عددهم نحو خمسين أميراً أما أمراء الأربعين، فأطلق عليهم أمير طبلخاناه[35] لحقهم في دق الطبول على أبواب قصورهم كما يفعل السلطان وأمراء المئتين، ولكن بصورة مصغرة، ولكل أمير الحق في الأحتفاظ بأربعين فارس في خدمته، وبوفاته يقسم أمارة الأربعين إلى عشرين أو إلى أربع أمارات عشراً، وتسمى بأمير طبلخاناه حيث كان له الحق في أن يعزف أمام داره فرقة تسمى طبلخاه وتتكون من الطبل والأبواق والزمور تعرف بطريقة معينة في كل مساء بعد صلاة العشاء[36]، ويبدو أنهم سموا هكذا تميزا لهم عمن هم أقل منهم في الرتبة وبلغ عدد أمراء الطبلخاناه في الجيش أو الوظائف من ثلاثين إلى أربعين أميرا[37].

(4-1) التركيب التنظيمى للجندِ السُّلْطَانيةِ في العَصْرِ المَمْلُوكي البَحْري.

أما وظائف الأمره فكان عددها أربعة وعشرين وظيفة، وأن كان في بعض الأحيان نقص إلى عشرة أو عشرين[38]، وكانت هذه الأمره وظيفة حربية خاصة بأربابِ السيوف ومقترنة عادة بلقب مقدم ألف "أمير مائة مقدم ألف" ومعنى هذه التسمية المركبة أن يكون في حوزة الأمير مائة مملوك وهو في نفس الوقت مقدم في الحرب على ألف جندى من أبناء الحلقة[39].

وكان المقربون من الْسلْطَانِ يسمون الأكابر[40]، وهم **أمير المجلس** مسئول عن أمر الأطباء الباطنية والعيون، ولم توضح المصادر العلاقة بين رتبة أمير المجلس وبين هذا العمل المحدد والذى كان لايبدو أنه كان له أهمية خاصة برغم أنه أعلى رتبة من **أمير السلاح** والذى كان واجبه الرئيسي حمل أسلحة السلطان أثناء ظهورة أمام الجمهور "الرعية" كما كان مسئولا عن السلحدارية وهى مكان وضع الأسلحة السلطانية ويتولى الأشراف على الترسانة وهو المكان الخاص بصنع وأصلاح وصيانة السلاح وكان يشغل ذلك المنصب أمير الف[41].

أما رتبة **صاحب الحجاب** فكان من واجباته الرئيسية النظر في القضايا بين المماليك الأمراء القادة طبقا للقانون، وتقديم المبعوثين والضيوف إلى السلطان، وترتيب الأستعراضات في الجيش، وقد جرت العادة على تعين خمسة من الحُجاب أثنان أمير الف، وأمير عشرة، وعند أنشاء الوظيفة كانت هناك ثلاثة حُجاب[42].

أما رأس نوبة النوابفكانمسئولا عن المماليكالسلطانية وهم جند السلطان ذاته وكان عليهمراقبة سلوكهم ويتولى تنفيذ أوامر السلطان ، ومسئولا عن الاستعراضات التى يقومها الجيش وكانت رتبته أمير مائه مقدم ألف و لقبه رئيس النوبه الكبرى وكان يشغل المنصب أربعة واحد منهم مقدم ألف والباقون أمراء طبلخاناه ، أما فيما يخص وظيفة **الداودار الكبير** فقد كان عمله الرئيس المكاتبات السلطانية، وقد أستمدت هذه الوظيفة من السلاجقة حيث كان يشغلها مدينون تحت سيطرتهم ومن بين مهام الدوادار أن يقرر من بين جند الحلقة من هو الأجدر بالإيفاد فى مهام عسكرية،وتركزت المهام الوظيفية لرتبة **أمير أخور** فى رئاسة الأسطبلات السلطانية حيث توجد خيل السلطان التى يستخدمها فى حروبه، وكان يقيم الأسطبل السلطانى تحت أمرته ثلاثة أمراء طبلخانة، وعدد لايحصى من أمراء العشر وغيرهم[43]، أما رتبة **أمير خازندار**[44] فهو المسئول عن الزرد خانة والسجن الحربى وخزائن السلاح وكان يقوم بإعتقال من ينفذ العقوبات التى قد تصل فى بعض الأحيان إلى القتل ومن هنا جاءت تسمية أميرخازندار؛هذه هى المناصب العسكرية المهمة فى الأمره وتخصصات كل منها[45] والتى يصل إليها أمراء المماليك بالترقى من درجة إلى أخرى[46]، وإن كان فى بعض الأحيان يصل عن طريق المحسوبية، وقد لجأ بعض السلاطين كالناصر محمد بن قلاوون إلى منح مماليكه مناصب عليا ليملأ أعينهم بالعطاء الكثير ولم يتبع عادة أبيه في تدرج المماليك في المراتب والمناصب والوظائف ومراعاة المواهب والكفاءة والخبرة.

2- **أنواع الرنُوك المخصصة لسلاطينِ وأمراء الجيش المِصْري المَمْلُوكي البَحْري**[47]

2-1 تعريف الرنُوك:

مصطلح فارسى الأصل ينطق رنج، وعربت فأصبح حرف الجيم كاف معقودة وتعنى لون[48] أي رموز وإشارات وشعارات للدلالة على وظائف الأمراء.

وقد جرت العادة عند تأمير المملوك يعطى رنكًا[49] ، أو شعاراً يشير إلى وظيفته[50] ويترك له حرية أختياره، لذا شاع أستخدامها منذ القرن 6هـ /12م، وحتى نهاية القرن 9هـ / 15م، وصار شرفًا وأمتيازاً حربياً للسلاطين والأمراء وحدهم ينقش على كل مايخصهم[51] أحد الأمراء من ذوى الأعمال الحسنة ينقشون رنكه على معاصمهم وأدواتهم.

2-2بداية أستخدام الرنوك في دولة الإسلام :

عرفت الشعارات عند المسلمين منذ عصر النبوة متمثلة في ألوان الألوية والرايات والبيارق فالأبيض كان لون الرسول صل الله عليه وسلم، وكان شعاراً للأمويين في المشرق

والاندلس ، أما الفاطميون في مصر فشعارهم رايات تظهر عليها أشرطة كتابية تقرأ " نصر من الله وفتح قريب" يزخرفها أسد باللون الاحمر والأصفر، أما العباسيون فقد أتخذوا من اللون الأسود شعاراً لهم منذ أن لبسه أبو مسلم الخرسانى 129هـ/ 747 م و جعله لون لوائه و عدله الخليفة المأمون للأخضر ويرجح بأن الرنوك عُرفت بمعناها الوظيفي بعد قبل نهاية العصر الايوبي ثم شاعت بعد ذلك في العصر المملوكي[52].

3-2 أنواع الرنوك

قد يكون الرنك لون واحد أو ذي ألوان متعددة، ويشمل على رسم شئ معين "حيوان" زهرة، أداة"، أو أكثر من شئ، وأحياناً يتألف من منطقة واحدة أو ينقسم إلى منطقتين أفقيتين، وبهذا أختلفت الرنوك من حيث المرسوم أو المنقوش ومن حيث اللون التقسيم، ومن حيث اللون، لذا صُنفت إلى عدة أنواع[53] يمكن حصرها فى الآتي :

1- **الرنوك البسيطة** وتنقسم إلى نوعين:

الأول : شخصي. **والثاني** : وظائفي.

2- **الرنوك المركبة.** 3- **الرنوك الكتابية.**

2-3-1 الرنوك البسيطة :

وهى التى تتضمن شعاراً واحداً، ونقشت على العمائر، والتحف، والسكة وتنقسم إلى؛ شخصية خاصة بالسلاطين والأمراء، **ووظائفية** تشير إلى وظائف المماليك بالأمراء .

الرنوك الشخصية :

تتضمن رموزاً حيوانية كالسباع[54]، أو طيوراً كالنسور[55]والبط، أو نباتات كالزهرة الزنبق (الفرنسيسة) أو الوريدات[56].

الرنوك الوظائفية :

ويقصد بها الشارات أو الرموز الدالة على الوظائف التى كان يشغلها بعض أمراء في البلاط السلطانى، وأشترك في الرنك الدال على الوظيفة أكثر من مملوك مثل القوس شعار البندقدار، السيف شعار السلاحدار، الدبوس شعار الجمقدار[57]، العلم شعار العلمدار، الصليب شعار مستوفى الديوان من المسيحين، حدوة الفرس أو الهلال[58] شعار ألامير أحوز، البوق شعار للمنفر (مطلق النفير) من علامات الأمرة، الطبلة والعصى شعار الطبلدار، الطبر شعار الطبر دار، النعل شعار البشمقدار شعار أمير شكار لأمير الصيد، الدواة والقلم شعار الدوادار[59]، الكأس شعار الشرابدار البقجه شعار الجمدار[60]، بالإضافة إلى

شارات عديدة أخرى كالجوكان (عصوان البولو) الخويجة شعار الجاشنكير أحد أهم العاب الفروسية، ورقعة الشطرنج ، الوريدات، والشطب شعار البريدى، وأحيانا يكون الشعار مصحوب بأسم الوظيفة الدالة عليها وفى أحيان أخرى وجدت علامات ورموز مصحوبة بأسماء ووظائف لاعلاقة لها بالرنك المصاحب لها وتفسير ذلك ربما يرجع إلى أن الأمير قد شغل وظيفة في وقت من الأوقات يشير إليها الشعار ثم أنتقل فيما بعد إلى الوظيفة المصاحبة لهذا الرنك، بالإضافة إلى رموز أرتبطت بشعارات أخرى كالبغل أو الحصان والذى أرتبط بالشطب شعار البريدى، والهدف(القُبقُ) القريب الشبه من لوحة النيشان التى يتدرب العسكريون عليها لأصابة الهدف[61].

2-3-2 الرنوك المركبة :

وهى التى تشتمل على أكثر من رمز أو شعار، كشعار يجمع بين رمز الأسد شعار السلطان بيبرس، والبقجه شعار الجمدار، أو رنك النسر[62]بصحبة شعار الجمدار، كذلك عرف أمراء المماليك البحرية رنُوكاً مركبة تتألف من علامات تشير إلى بعض وظائف البلاط السلطانى في هذا العصر، ويمكننا القول أن الرنوك المركبة أشتملت أولاً على شعار شخصى للسلطان ورمز دال على أحدى الوظائف ثم تخلصت الرنوك من الشعار الشخصى، وأصبحت قاصرة على الرموز الدالة على الوظائف التى تنوعت بإنتقال الأمير من وظيفة إلى أخرى فقد كان من عادة الأمراء عدم تناسى مراكزهم البسيطة يوم أن كانوا بسطاء.

3-3-2 الرنوك الكتابية :

أستخدم سلاطين المماليك نوعاً ثالثاً من الرنوك أطلق عليها أسم الدروع أو الخراطيش وإنفراد به السلاطين دون الامراء[63]، وظهرت بكثرة على العمائر أواخر القرن 7هـ/13م وأوائل القرن 8هـ/14م وجاءت على هيئة درع مستدير أو كمثرى أو مفصص الشكل يشتمل على ثلاث مناطق أفقية كان يملىء المنطقة الوسطى بكتابات دونت بخط الثلث، نصها على سبيل المثال "عز لمولانا الملك الناصر، ثم فى مرحلة تالية صارت الكتابات تملأ المنطقتين العليا والسفلى من الرنك.

3-الشعارات العسكرية الدالة على وظائف بعض السلاطين والأمراء ودلالاتها وأستخداماتها وأسلوبها الفنى.

(1-3) الرنوك الشخصية للسلاطين ودلالاتها :

ترأس السلطان الجيش المصرى المملوكى البحرى فقد كان رأس الدولة الأعلى[64]، وزعيم أمراء المماليك والمسيطر على شئونهم العامة والخاصة، وصاحب الحق في تدرجهم فى مراتب الترقي، ومنصب السلطان لايشغله إلا أقوى هؤلاء المماليك، لذا كان أمراً طبيعياً أن يتخذ أشهر سلاطين المماليك البحرية رنوكاً مميزة تدل على القوة والشجاعة والحزم والسيطرة أمثال السلطان بيبرس البندقداري(658 – 676هـ / 1620 -1277م) الذى أتخذ من **السبع(الببر – الفهد)** :

شعاراً له حيث وصلنا من عهده مايقرب من ثمانين سبعاً نقشت على عمائره المختلفة التى شيدت فى كل من مصر والشام[65].

النسر[66]:

كان يمثل شارة مميزة لحكام والسلاطين المماليك البحرية، صور برأس واحدة ملتفة إلى اليمين أو اليسار ناشراً جناحية فى وضع مواجهة وأتخذه السلطان الناصر محمد بن قلاوون فى فترات حكمه الثلاث المتقطعة (693 – 694هـ / 1293 – 1294م ، 698 – 708هـ / 1299 – 1309م ، 709 – 741 هـ / 1310 – 1341 م) شعاراً شخصياً له ظهر على عملات نحاسية ضربت دمشق، وفي فاتحة مخطوط يحمل أسمه في المتحف الأسيوى، ويسجل أنتصاره على الملك المغولى قطلوشاه 702هـ / 13.3م، وعلى مبخرة من النحاس المكفت في متحف الفن الإسلامي في القاهرة وغيرها الكثير حيث لايسعنا المجال لحصره، كذلك أستخدام بعض سلاطين المماليك البحرية رنوك كزهرة اللوتس، والفرنسيسة، والورديات إلا أنها لا علاقة لها بالرتب والتدرج الوظيفى ولا ترمز للقوة أو الشجاعة.

(2-3) الشعارات العسكرية الدالة على وظائف بعض الأمراء ودلالالتها :

الدبوس :

شعار الجمقدار أسم الوظيفة مركب من لفظين الأول جمق تركيه وتعني الدبوس، والثاني دار فارسية وتعني ممسك، وبذا يكون المعنى الكلي حامل الدبوس، والمدون في كتب الدساتير المملوكية أنه كان يشغل هذه الوظيفة في البلاط السلطانى أحد العسكريين، وأن هذه الوظيفة كانت أستعراضية بالدرجة الأولى، وكان مهمة صاحبها أن يقف في أيام المواكب والأحتفالات إلى جوار السلطان في الجهة اليمنى رافع يده بوضع تمايل بدبوس كبير الرأس مموه بالذهب شاخص ببصره إلى بصر السلطان لايشخص لغيره حتى قيام السلطان من

مجلسه، وكان يشترط فيمن يشغل هذه الوظيفة أن يكون حسن الشكل عظيم الهيئة مهاباً[67].

ويعتبر الدبوس آلة من آلات القتال الفردية وأحد أسلحة الرمي بالنيران أو النفط أو البارود أثناء الإحتفالات المختلفة في العصر المملوكي، وأحد أهم الرنوك العسكرية الوظائفية التى أشارت إليها المخطوطات، وكتب الفروسية والفنون الحربية وتميزت بتنوع أشكالها وأستخداماتها وكان الدبوس يتخذ من الحديد[68] بأكمله في السرج تحت أقدام الفارس، ويعد من أسلحة تهشيم الرأس، وترجع أهميته إلى أنه قد يطيش النشاب في الريح أو لا يصيب الهدف وقد يخون الرمح صاحبه فينقصف او يتعطل العمل به في المضيق والأزدحام والألتحام، ولايبقْ صالح للعمل به إلا السيف والخنجر والدبوس[69].

ونظراً لقوته أستخدم لتحطيم الأسلحة المصنوعة من الحديد و الصلب[70]، وكان للدبوس دور رمزى كصولجان لبعض سلاطين وأمراء المماليك.

السيف :

شعار السلاحدار أسم وظيفته مركب من مقطعين الأول عربي يعني سلاح، والثاني دار فارسية وتعني ممسك وهى وظيفة عسكرية تعني ممسك السلاح للسلطان، وذكر المؤرخ أبو الفداء أنه كان هناك سلحدار بسيفين معلقين على كتفه يشرف على سلاح خاناه ويقوم بحراسة السلطان ويطلق عليه أمير سلاح[71]، أما صغار السلحدارية فكانوا يشتركون مع الجمدارية في حراسة السلطان عند جلوسه فى دار العدل، والوظيفة كان يتقلدها بعض الأمراء الكبار إلى جانب مهامهم الكبرى أو يشتغلونها لفترة معينة[72]، وأختلفت رنك السلحدار من أمير لآخر فقد يظهر السيف مقوسا أو مستقيماً وقد نراه في وضع رأسى أو أفقى[73].

القوس :

شعار البنداقدار أسم وظيفة عسكرية مكون من لفظين بندق الفارسى المعرب وتعني البندق الذي يُرمَى به، ومنقول عن البندق الذي يؤكل، ودار الفارسية بمعنى الممسك والمقصود ممسك البندق أي الأمير المكلف بحمل غرارة البندق خلف السلطان أو الأمير[74]، وربما عرفت هذه الوظيفة في الدولة التركمانية قبل أن تعرف بين الأيوبيين والمماليك[75]. ويتألف

الرنك من شكل مستدير بداخله قوس في وضع رأسى، وأحياناً مفرداً أو مصحوباً بسهمين، ونجده أيضا يتضمن في بعض الأحيان قوسين متدابرين[76].

الهدف (القُبقُ) :

من الرنوك الخاصة بوظائف الرياضة العسكرية، ويجوز لنا تسميته بالقُبقُدار ويعكس أنتشاره الرفاهية والأنتعاش الأقتصادي على الحياة الاجتماعية والإهتمام بشئون الرياضة وربطها بالحياة العسكرية، وبلغ أهتمام سلاطين المماليك بالأمر أن عينوا لها من الأمراء من يشرف عليها[77]، وقد شغف أمراء المماليك بممارسة هذه الرياضة العسكرية بميادين القاهرة لأثبات مهاراتهم في النيشان بالتصويب بتنصيب خشبة عالية في أحد الميادين ويثبت بأعلاها قرص مستدير من داخلها إلى هدف معين، وذلك تمريناً لهم على إحكام الرمي، وأحياناً يكون بدلاً من القرص المستدير قرعة عسلية (قبق بالتركية) من ذهب أو فضة ويكون فى القرعة طير حمام ويقوم الرماه برمي الهدف بالنشاب أو السهام، وهم على ظهور الخيل فمن أصاب منهم القرعة أو طار الحمام جاز له السبق وأخذ القرعة المعدنية نفسها[78]، وأشهر السلاطين المشاركين في هذه الرياضة العسكرية السلطان بيبرس[79]، والمرجح أن يكون هذا الرنك بمثابة هدية أو منحة من السلطان للمملوك الذى يجيد التصويب، ويحرز الهدف تميزاً له عن غيره من الأمراء، أو لعله كان شعاراً للمسئول عن هذه الرياضة العسكرية في البلاط السلطانى[80] نظراً لخلو الرنوك من وجود لقب وظيفي لصاحبها.

الطبلة والعصى :

وهى تشير إلى شعار الطبلدار أو الدبندار أي الذى يضرب على الطبل حيث كان صاحب الرنك مصاحب للسلطان في المواكب والإحتفالات والغزوات العسكرية، والرنك قليل التمثيل ونادر على التحف والعمائر بإستثناء الفخار المطلى الذى نجده منقوش عليه بكثرة على هيئة الترس أو الدرع المدبب الطرف من أسفل فوق شطب الرنك الأوسط يصاحبها في كثير من الأحيان زوجان من العصى.

الصليب :

من الشعارات شائعة الإستخدام على التحف المملوكية[81]، ومصور بكثرة على الفخار المطلى والزجاج كزجاجات العطور المستخدمة كعطايا وهدايا وعلى المشكاوات المموه بالمنيا[82]، والصليب من أقدم الرموز أستخداماً منذ القرن الثالث الميلادى بعد أن أصبح

الرمز الكامل للسيد المسيح، وعلامة للدين المسيحى، ويعنى غفران الخطايا والخلاص، وللصليب أشكالاً متعددة أهمها الصليب اللاتينى والصليب اليونانى، ويرمز الرنك إلى **مستوفى الديوان منالمسيحين** أحد أهم الوظائف فى الهيكل العام للجيش المصرى المملوكى البحرى ومن ثم يندرج ضمن الرنوك الدالة على الوظائف العسكرية.

القبة المذهبة[83]:

شعار الجاويش أحد أربعة من جنود الحلقة الذين كانوا يسيرون أمام السلطان فى مواكبة للنداء وتنبيه الماره[84].

الطبر:

يعرف أيضا بالطبرزين أي الفأس وهو عبارة عن آلة ذات هراوة قصيرة، ورأس حاد كان يتخذ عادة من النحاس أو الحديد، ويعد من أسلحة الضرب والتهشيم عند الأشتباك وصاحب الرنك كان مكلفاً بحمل الطبر ووجوده بالقرب من السلطان في المواكب والأحتفالات وهو من الرنوك العسكرية القليلة على التحف والعمائر المملوكية.

حدوة الفرس أو الهلال :

شعار الأمير أخور والوظيفة تتألف من لفظين أمير بالعربية، وآخور بالفارسية والتى تعني المعلف والوظيفة تطلق على المكلف بأمر الدواب السلطانية من خيل وبغال وأبل وغيرها، وزعم المؤرخ أبو الفدا أن النعل هو شعار الأميرأخور[85] ، رغم علمنا أن النعل شعار البشمقدار، ظهر الرنك بكثرة على التحف المملوكية، ونقش أما على هيئة دائرة مفتوحة فى جزئها العلوى أو السفلى أشبه مايكون بالهلال، أو مركباً مع رموز أخرى، ونظراً لإختلاف المؤرخين حول تحديد وظيفة حامل الرنك مما دفع البعض من الباحثين للأعتقاد بأن الشعار بمثابة أحد الرموز السلطانية الخاصة بأسرة قلاوون[86]، وأعتقد البعض الآخر أنه عنصر زخرفى يتعلق بالعملة المملوكية[87].

العلم :

من الرنوك العسكرية ويرمز إلى **العلمدار** أي حامل الأعلام والبيارق والرايات الذي كان يتقدم المواكب والأحتفالات والجيوش أثناء الحروب لذا كان ملازماً للسلطان، وغالباً مايمثل بسيطاً على هيئة علمين متدابرين يخترقان أقسام الرنك الثلاثة في وضع عمودى، أو يمثل على هيئة علم واحد تتجه رايته جهة اليمين، وقد يكون أيضا مركباً على بعض الرنوك الأخرى خاصة المصور على الفخار المطلى الذى كثر تمثيل هذه الشارة عليه على العكس مع

بقية المواد الأخرى وتجدر الإشارة الى أن الإعلام والرايات لم تكن وقفا على العلمدار، وأنما كانت شعاراً لبعض الحكام، ويشير القلقشندي إلى أن البيارق كانت ضمن آلات الملك ووصفها بالعديدة محدداً أياها براية عظيمة من الحرير صفاء اللون مطررة ومزرقشة بالذهب، وراية عظيمة تسمى الجاليش على رأسها خصلة من الشعر، ومجموعة رايات صفر صغار تسمى السناجق[88]، ويفهم مما أورده المؤرخ أن أمره علم كان صاحبها متحدثاً على الطبلخاناه السلطانية وأهلها متصرفاً فى أمرها وعادتها أمرة عشرة[89].

البوق :

خلت المصادر المملوكية تماماً رغم كثرتها من الإشارة إلى شعار البوق وحامله، وصور بهيئة رأس مثلثة القاعدة إلى أعلى ، وقمته إلي أسفل ، أو شكل ناقوس مقلوب ، أو على هيئة قدح متسع الفوهة ، وضيق القاعدة مزود بمقبض قصير أسطوانى يصله بالرأس نتوء صغير بيضاوي أو كروي الشكل و ينتهي عادة برمانتين صغيرتين يفصل بينهما مسافة قصيرة ليسهل مسكه أو التحكم فيه وقد أختلف المتخصصين في تصنيف الشعار صنفه البعض ضمن رموز التمغا[90]،و أعتقد البعض الآخر وعلى رأسهم **ماير** أنه شعار أحد أفراد الطبلخاناه مشيراً إلى حديث القلقشندي عن المنفر في الطبلخاناه وهو الشخص الذى يضرب البوق[91]، وأشارة بعض المؤرخين بأن البوق والعلم كان من علامات الأمره[92]، مؤكدا أعتقده بأنه كشعار الطبلة للطبلدار[93]، وصار على دربه المرحوم محمد مصطفى، والمرحوم زكى محمد حسن ، الاستاذ الدكتور أحمد عبد الرزاق، و ماينكه، و إسين أتيل، وغيرهم[94]، و لا عجب في هذا الاختلاف بين المتخصصين حيث سبق و أن وقع العالم نفسه في خطأ مشابه لشعار سراويل الفتوة و سارع إلي تصحيح الخطأ في مقال منشور عام 1939[95]إلا أنه لم يصلنا أسم حامل بوق، ولايوجد رنكًا يضم البوق والعلم شعاراً له لصمت المصادر إزاء هذا الموضوع[96]، ويرى الأستاذ الدكتور أحمد عبد الرازق أن هناك خلطاً بين شعار الدبوس للجمقدار وشعار البوق مؤكداً على عدم وصول أبواق حقيقية يمكن نسبتها إلى العصر المملوكي، إلا أنه يمكن التعرف بسهولة على شكل الأبواق الشائعة والمستخدمة إبان تلك الفترة من خلال بعض تصاوير المخطوطات التى تتسبب إلى القرنين 7،8هـ / 13،14م [97]والتى تبدو فيها الأبواق أقرب شبها ببعض الدبابيس[98]، والشعارات التى وصلتنا نقشت على شطب الرنك الأوسط فى وضع مستقيم، أو وضع مائل[99].

(3-3) أستخدامات الرنوك العسكرية :

ثبتت الرنوك العسكرية الشخصية منها أو الوظائفية على جميع الأشياء المنسوبة إلى صاحبها كما ورد عند القلقشندى بقوله أنه كان يوضع على مطابخ السكر، وشون الغلال والأملاك والمراكب وغيرها وينقش على قماش خيوله من جوخ ملون مقصوص وعلى قماش جماله من خيوط صوف ملونة تنقش على العبي والبلاسات، وربما جعل على السيوف والأقواس وعلى الأدوات المعدنية والخشبية والزجاجية والأوانى الخزفية والفخار وغيرها[100].

كما أثبتت دراسة العمارة المملوكية في كل من الشام ومصر هذه الحقيقة الواقعة ؛فمن بين منشآت القاهرة المملوكية نجد أكثر من مائه بناء يحمل رنوك أصحابها التى كانت تعد بدورها أشبه بصك من صكوك الملكية[101]، وجرت العادة أيضاً أنه في حالة غضب السلطان على أحد مماليكه وألقاء القبض عليه ومصادرة أملاكه، يأمر بمحو رنكه من فوق عمائره ويضرب المالك الجديد رنكه أعلى المنشأة التى آلت إليه،ويمكننا القول أن ضرب الرنوك لم يكن وفقاً على الدور والقصور بل نجدها نقشت على المساجد والمدارس والحمامات وعلى القباب في كل من مصر والشام على حد سواء، مثلما نقشت على العملات الذهبية والفضية.

(4-3) الأسلوب الفني للرنوك العسكرية :

أستخدم الفنان المسلم عدة أشكال لتحديد هيئة الرنك خارجياً قد يكون مربعاً أو بيضاوياً أو كمثري الشكل[102]، وينتهى أحياناً من أسفل بطرف مدبب يشبه الدرع، وإن كان الشكل المستدير هو الأكثر شيوعاً وأستخداماً على العمائر والتحف التى وصلتنا من العصر المملوكي ويتألف الرنك عادة من منطقة واحدة، أو ينقسم إلى منطقتين أو ثلاث مناطق أفقية أكبرها عادة المنطقة الوسطى، وهى تسمى شطف أو شطب[103].

والرنك قد يكون لون واحد أو ذى ألوان متعددة، ويؤكد هذا ماورد فى المصادر التاريخية من أشارات إلى أنواع الرنوك فقد ذكر المقريزي أن رنك الأمير سلار كان أبلقاً[104]، وذكر القلقشندي أن شعار سلطان اليمن كان وردة حمراء على أرض بيضاء[105]ويؤكد التعدد في ألوان الرنوك التحف والآثار الباقية لدينا والتى نقشت عليها هذه الرنوك والتى تبدو بجلاء على الأوانى الخزفية، والزجاج المموه بالمينا والتحف المعدنية والمنسوجات والتحف الخشبية الملونة والمذهبة، وقد أعتمدت الأسُس البنائية الفنية للرنوك على مجموعة أنظمة تصميمة يمكننا حصرها في:

التصميم البؤرى (المركزى) : والذى يركز على بؤرة مركزية فى تصميم تبدأ منها حركة العين متجهة للداخل أو الخارج.

التصميم الأشعاعى : تجتمع فيه التشكيلات حول ذاتها من مركز وهمى أو حقيقى، وتمتد المفردات التصميمة بطريقة أشعاعية.

التصميم الهرمى : بتجميع التشكيلات بشكل متماسك وبهيئة هرمية وتكون قاعدته متوجهة نحو الأعلى أو الأسفل.

التصميم التجميعى : تكون التشكيلات متشابهة متنوعة باللون والشكل والحجم والوظيفة بشكل مترابط ومتناسق.

التصميم المحورى : وينقسم الى نوعين:أما أن يكون متماثل أو غير متماثل

التصميم المتداخل : ويجمع بين التصميم المحورى والهرمى

التصميم الخطى : وفيه ترتبط المفردات الشكلية أرتباطاً متسلسلاً على شكل امتداد خطى محققاً شعوراً بالإستمرارية.

ونلاحظ أن **القيم التشكيلية** للرنوك تمثلت في تقسيم الرنك إلى مساحات أفقية متساوية أو غير متساوية وفقاً لمجموعة العناصر المكونة للرنك، أو أستخدام عنصر زخرفى واحد يوائم الهيئة الخارجية للرنك[106].

بينما تركزت **القيم الجمالية** فى الرنوك على أستخدام الخطوط اللينة المستقيمة العمودية منها أو الأفقية أو المنحنية فى تحديد العناصر ونوع الإتجاهات، وأستخدام الألوان ومراعاة التداخل بين العناصر الزخرفية والأرضية المنفذ عليها ومحاولة تحقيق التوازن والإيقاع والتماثل بتكرار المساحات والعناصر من خلال توزيع العناصر بوضع الأكبر حجماً في منتصف الرنك وتوزيع العناصر الأصغر حجماً حوله.

النتائج :

- تعتبر الرنوك من المصادر الغنية لدراسة أحدى مظاهر الحياة العسكرية وربطها بالحياة الإجتماعية في العصر المملوكي البحري.
- تظهر دراسة الرنوك الرفاهية والثراء والأبهه في حياة السلاطين والأمراء ورجال البلاط في العصر المملوكي البحري.
- تلقى دراسة الرنوك الضوء على طبيعة وشخصية صاحب الرنك ،وتعكس مبادئه وصفاته وقيمه .

توصية :

- ضرورة الأطلاع على التصميمات الإسلامية والإستفادة منها في المجالات الفنية كمنطلق للتطوير والتحديث في مجال الفن والإستثمار في التراث الفنى العربى.

الهوامش:

[1] أيمن فؤاد سيد، **دولة سلاطين المماليك في مصر** (القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، 2019): 30.

[2]شهاب الدين أبو العباس أحمد بن علي بن أحمد القلقشندي (ت 821 ه)، **صبح الأعشي فى صناعة الإنشا**، مج. 4 (القاهرة: دار الكتب المصرية، 1919): 458.

[3] StanlyLane-Poole, **History of Egypt: In the Middle Ages** (London, 1936): 255; W. Heyd, **Histoire du Commerce en Levant au Moyen-age**, vol. 2 (Berlin: Leipzig,1925): 260.

[4] سيد، **دولة سلاطين المماليك**: 34.

[5]الطُّباقُ: مساكن المماليك التى انشئت له خاصة بقلعةِ الجبل بالقاهرة؛ للإستزادة، انظر: المرجع السابق:30، 31، حاشية 2.

[6]الكمال في الفروسية وأنواع السلاح وآداب العمل بذلك وصفات السيوف والرماح، ميكروفيلم، نسخحاتم بن أزبك، جامعة الدول العربية. معهد المخطوطات (رقم الحفظ: 46 فنون حربية): ورقة 2 ومابعدها.كما يوجد نسخة في مكتبة الاسد في سوريا رقم الحفظ 48098، نسخة في مكتبة الفاتح بإسطنبول رقم الحفظ 3513. هذا وقد تعددت المخطوطات التى تتحدث عن الفروسية بمدلولها الشامل و تنقسم إلي ثلاثة أنواع أهمها ما ينفرد بعلم الفروسية وأصوله مثل *الفروسية المحمدية* لابن قيم الجوزيه والمحفوظ بدار الكتب برقم 22 فروسية تيمور ، ومنها ما يختص بالحروب و المعارك و أهمية الخيول ،وكيفية أستخدامها كمخطوط *التذكره الهرويه فى الخيل الحربية 611ه*، ،و مخطوط *الخيل في الحرب و فتح المدائن وحفظ الدروب 778ه*،و منها أيضا ما يختص بعلم البيطره و معالجة الخيول و صفاتها ومميزاتها وهى لا تخلو من دراسات علم الفروسية مثل *مختصر البيطره* بدار الكتب برقم 8 طب خليل آغا ،و مخطوط *بيطرنامه* المحفوظ بدار الكتب برقم 49 ط م ،و مخطوط *البيطروالزردقه في معرفة الخيل وأحوالها و أمراضها و أدويتها* المحفوظ بدار الكتب برقم 50 ط م

[7]شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد بن حريز بن مكي زيد الدين الزُّرعي الدمشقي الحنبلي (ابن قيم الجوزيه،ت 751 ه)، **الفروسية المحمدية**، تحقيق عزت العطار الحسيني، ط. 2 (القاهرة: مكتبة الخانجي،1414ه): 8. للإستزادة عن أهتمام و عناية وولع المماليك بالخيل والفروسية، انظر: شيرين عبد الحليم القباني، وفاروق عثمان، وابتسام مرعي، "العناية بالخيل في مصر المملوكية 648-923ه/ 1250-1517م"،**المجلة العلمية لكلية السياحة والفنادق - جامعة الإسكندرية** 2، العدد13 (2016): 138-158.

[8] David Ayalon, "The System of Payment Mamluk Military Society", **Journal of the Economic and Social History of the Orient (JESHO)** 1, no. 1 (Aug 1957): 37-65; سيد، **دولة سلاطين المماليك**: 37.

[9] القلقشندي، **صبح الأعشي**، مج. 4: 20، 21.

[10] تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي بن عبد القادر بن محمد الحسيني العبيدي المقريزي (ت 845 ه)، **المواعظ والإعتبار في ذكر الخطط والآثار**، تحقيق محمد عبد الرحمن قطه العدوي، مج. 2 (القاهرة: مطبعه بولاق، 1270ه): 350؛شمس الدين محمد بن بدر الدين بن محمد السحماوي الشافعي (ت 868 ه)، **الثغر الباسم فى صناعة الكاتب والكاتم، المعروف بإسم المقصد الرفيع المنشألهادي لديوان الانشا للخالدي**، تحقيق أشرف محمد أنس، مراجعة حسين نصار (القاهرة: دار الكتب والوثائق القومية، 2009): 305.

[11] القلقشندي، **صبح الأعشي**، مج. 13: 153

[12] المقريزي، **الخطط**، مج. 1: 141.

[13] المرجع السابق، مج. 2: 215؛ السيد الباز العريني، **الإقطاع الحربى بمصر في عهد سلاطين المماليك** (القاهرة، 1956): 18.

[14] المقريزي، **الخطط**، مج. 1: 401؛ القلقشندي، **صبح الأعشي**، مج. 11: 323-325؛ عبد المنعم ماجد، **نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر**، ط. 2، منقحة، مج. 1،**دراسة شاملة للنظم السياسية**(القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، 1979): 139.

[15] القلقشندي، **صبح الأعشي**، مج. 4: 30-31؛ زين العابدين أبو البركات محمد بن أحمد بن إياس الحنفي الناصري القاهري (ت 930 ه)، **بدائع الزهور في وقائع الدهور**، مج. 3 (القاهرة: مطبعة بولاق، 1131ه): 4.

[16] المقريزي، **الخطط**، مج. 3: 339-350.

[17] علي إبراهيم حسن، **دراسات في تاريخ المماليك البحرية: وفيعصر الناصر محمد بوجه خاص** (القاهرة: مطبعة الشبكشي، 1948): 36؛

A. N. Poliak, **Feudalism inEgypt, Syria, Palestine and the Lebanon, 1250–1900** (London, 1939): 20.

[18]السحماوي، **الثغر الباسم**، مج. 1: 136.

[19] القلقشندي، **صبح الأعشي**، مج. 4: 456؛ إبراهيم على طرخان، **النظم الاقطاعية فى دولة المماليك الاولى والثانية، 1250-1517** (رسالة دكتوراه، جامعة القاهرة. كلية الاداب، 1955): 151.

[20] القلقشندي، **صبح الأعشي**، مج. 5: 456.

[21] جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن سيف الدين تغري بردي الأتابكي اليشبقاوي الظاهري (ت 874 ه)، **النجوم الزاهرة: في ملوك مصر والقاهرة**، مج. 8،تعليق محمد رمزي(القاهرة: دار الكتب المصرية،1939):

456؛ شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن علي الكناني بن محمود بن أحمد بن حجر بن أحمد العسقلاني المصري الشافعي (ت 852 ه)، **الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة**، تحقيق محمد عبد المعيد ضان، مج. 2 (حيدر آباد، الهند: مجلس دائرة المعارف العثمانية، 1939): 225.

[22] المقريزي، **الخطط**، مج. 2: 223.

[23] عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن علي بن محمود بن محمد بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب (ت 732 ه)، **المختصر في أخبار البشر**، مج. 4 (القاهرة: المطبعة الحسينية المصرية، 1325 ه): 111؛ ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم بن علي بن الحسن بن محمد بن عبد العزيز بن محمد الحنفي (ابن الفرات المصري، ت 807 ه)، **تاريخ ابن الفرات: وهو تاريخ الدول والملوك**، تحقيق قسطنطين زريق، مج. 18، منشورات كلية العلوم والآداب. سلسلة العلوم الشرقية (بيروت: الجامعة الأمريكية، 1942): 132.

[24] David Ayalon, "Studies in the Structure of the Mamluk Army", **Bulletin of the School of Oriental and African Studies (BSOAS)** 15 (1953): 45.

[25] القلقشندي، **صبح الأعشي**، مج. 4: 18.

[26] المرجع السابق، مج. 8: 286.

[27] تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي بن عبد القادر بن محمد الحسيني العبيدي المقريزي (ت 845 ه)، **السلوك لمعرفة دول الملوك**، تحقيق محمد مصطفى زيادة، مج. 1 (القاهرة: لجنة التأليف والترجمة، 1934): 656

[28] ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، مج. 8: 286.

[29] DavidAyalon, "Aspects of the Mamluk Phenomenon", **Der Islam** 53, no. 2 (1976): 212-217.

[30] المقريزي، **الخطط**، مج. 3: 347.

[31] المرجع السابق: 232.

[32] ماجد، **نظم دولة سلاطين المماليك**، مج.1: 145؛

R. S.Humphreys, "The Emergence of the Mamluk Army", **Studies Islamica**45 (1977): 67-99.

[33] المقريزي، **الخطط** ، مج. 2: 314؛ السحماوي، **الثغر الباسم**، مج. 1: 123.

[34] غرس الدين خليل بن شاهين الظاهري (ت 873 ه)، **زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك**،تصحيح بولس راويس (باريس، 1894): 113.

[35] David Ayalon, "FormAyyubids to Mamluk", **Revue des Etudes Islamique** 49 (1981): 43-58

[36] إبراهيم حسن سعيد، **الجيش في عصر سلاطين المماليك** (القاهرة، 1963):87-105.

[37] ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، مج. 2: 644.

[38] ابن شاهين، **زبدة كشف الممالك**: 113.

[39] القلقشندي، **صبح الأعشي**، مج. 3: 480.

[40]المقريزي، **الخطط**، مج.2: 215.

[41]القلقشندي، **صبح الأعشي**، مج. 4: 18؛ جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمن بن كمال الدين بن أبي بكر بن محمد بن سابق الدين الخضيري السيوطي (جلال الدين السيوطي، ت 911 هـ)، **حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة**، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مج. 5 (القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، 1881): 111.

[42] David Ayalon, "Studies in the Structure of the Mamluk Army", **Bulletin of the School of Oriental and African Studies (BSOAS)** 16 (1954): 62.

[43] السيوطي، **حسن المحاضرة**، مج. 2: 113.

[44]المقريزي، **الخطط**، مج. 2: 222.

[45]محمود نديم أحمد فهيم، **الفن الحربي للجيش المصري في العصر المملوكي البحري: 648-783، 1250-1383** (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1983): 80.

[46]المقريزى، **الخطط**، مج. 3: 247.

[47] رغم ما حظيت به دراسة الرنوك الإسلامية خلال القرنيين الماضيين بإهتمام علماء الأثار الاوربيين أمثال:

E. T. Rogers, "Le Blason chez les prines musulmans de L' Egypte et de la Syrie", **Bulletin de l'Institut Egyptien**2, no. 1 (1882): 83-131; YacoubArtin, **Contribution a L'etude du blason en Orient** (London, 1902):121.

أما الرنوك المنقوشة على العملة المملوكية فنشرها مستشرقين أمريكان أمثال:

P. Balog, **The Coinage of the Mamlūk Sultans of Egypt and Syria**, Numismatic Studies 12 (New York: American Numismatic Society, 1964): 21, 25-26, 31-32, 34, 106, 109, 205; J. W. Allan, "MamlukSultanic Heraldry and Numismatic Evidence: A Reinterpretation", **Journal of the Royal Asitatic Society (JRAS)** 2 (1970): 99-112.

فضلا عن بحوث المستشرق الالماني مانيكه عن الرنوك المملوكية و تطورها :

M. Meinecke, "Zurmamlukischenheraldik",**Mittellungen des DeutschenArchaologishen Instituts AbtellungKairo** 28, no. 2 (1972): 87-213; M. Meinecke, "Die Bedeutung der mamlukischenHeraldik fur die Kunstgeschichte",**DeutscherOrientallistentagvortrageOktoberundreferate** 18 (1974): 212-240.

و بالرغم من أهمية وجدية الدراسات إلأ أنها بحاجة إلي مزيد من الدراسات لإيضاح ما يكتنف بعض جوانبها من غموض .

[48]محمد موسهنداوي، مترجم، **المعجم فى اللغة الفارسية** (القاهرة: مكتبة مطبعة مصر، 1952): 50؛ أحمد عبد الرازق أحمد، "الرنوك على عصر سلاطين المماليك"، **المجلة التاريخية المصرية** 21 (1974): 67.

[49]المقريزى، **الخطط**، مج. 4: 673 .

[50]جمال محرز، "الرنوك المملوكية"، **مجلة المقتطف** 98، العدد 5 (مايو 1941): 465؛ مايسه محمود داود، "الرنوك الاسلامية دلالاتها واستخدامتها في عصر المماليك"، **مجلة الدارة**، العدد 3 (1982): 26-41.

[51]القلقشندي، **صبح الأعشي**، مج. 4: 63.

[52] رشا عدره، **الرنوك المملوكية في دمشق** (رساله ماجستير، جامعة دمشق، 2013): 53-60.

[53]محمد مصطفى، "الرنوك فى عصر المماليك"، **مجلة الرسالة**، العدد 400، السنة9(3 مارس 1941 م / 5 صفر 1360 هـ) : 268

[54] L. A. Mayer, **Saracenic Heraldry: A Survey** (Oxford, 1933): 1; EsinAtil, **Renaissance of Islam: Art of the Mamluks (**Washington, DC: Smithsonian Institution Press, 1981): 20, 215; Balog, **TheCoinage of the Mamluk**: 21.

[55] Atil, **Renaissance of Islam:** 20

[56]أحمد عبد الرازق أحمد، **الرنوك الاسلامية** (القاهرة: جامعة عين شمس، 2001): 93؛ أحمد عبد الرازق أحمد، **"**أضواء جديدة على رنك النسر وعلاقته بصلاح الدين الايوبى"، **فيندوة حطين،عام 1984م**(القاهرة، 1988)؛

M. A. Marzouk, "Egyptian Sgraffito ware Excavated at Komed–Dikka in Alexandria", **Bulletin of the Faculty of Arts** 13 (1959): 10; Mayer, **Saracenic Heraldry**: 1; Atil, **Renaissance of Islam**: 20, 67, 190.

[57] Reinhart Pieter Anne Dozy, **Essai Sur L'histoire de l'Islamisme**,translated by Victor Chauvin (Paris: Maisonneuve, 1879): 785.

[58]القلقشندي، **صبح الأعشي**، مج. 2: 137؛ مج. 5: 459.

[59] Atil, **Renaissance of Islam**: 21, 186;

القلقشندي، **صبح الأعشي**، مج. 5: 459.

[60]أحمد عبد الرازق أحمد، "أضواء جديدة على رنك الدبوس، شعار الجمقدار"،**مجلة مركز الدراسات البردية والنقوش: جامعة عين شمس** 34 (2017): 1-39.

[61]داود، "الرنوك الاسلامية دلالاتها واستخدامتها في عصر المماليك": 34.

[62]شفيق مهدي، **مماليك مصر والشام: نقودهم، نقوشهم، مسكوكاتهم، ألقابهم، سلاطينهم، 648-922 هـ/1250-1517م** (بيروت: الدار العربية للموسوعات، 2008): 39.

[63]مايسه محمود داود، **المشكاوات الزجاجية فى العصر المملوكى** (القاهرة: المجلس القومي للثقافة والآداب، 2004): 425.

[64]القلقشندي، **صبح الأعشي**، مج. 4: 18.

[65]أحمد، **الرنوك الإسلامية**: 77. لم يكن بيبرس البندقداري أول من أتخذ هذا الرنك شعاراً له بل سبقه الملك الأيوبي المظفر شهاب الدين غازي بن الملك العادل أبي بكر حاكم أورفا. انظر: أبو الفرج العش، "الفخار غير المطلى من العهود العربية الإسلامية في المتحف الوطني بدمشق"، **مجلة الحوليات الاثرية السورية**، العدد 10 (1960): 59؛ عبد الخالق علي عبد الخالق الشيحة، **التأثيرات المختلفة على الخزف الأسلامي في العصر المملوكي: دراسة أثرية فنية مقارنة** (رسالة ماجستير، جامعة القاهرةز كلية الآثار، 2002): 376.

[66]عن رمزية طائر النسر، انظر: ممدوح محمد السيد حسنين، "أسطورة النسر ورمزيته فى ضوء قطعة خزفية جديدة من حفائر الفسطاط"، **مجلة اتحاد الآثاريين العرب** 18، العدد 18 (نوفمبر 2017): 664-672.

[67]تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن تقي الدين أبي الحسن علي بن زين الدين عبد الكافي بن ضياء الدين علي بن تمام السبكي (ت 771 ه)، **معيد النعم ومبيد النقم**، تحقيق عبد الوهاب السبكي (بيروت: مؤسسة الكتب الثقافية، 1986): 34؛ السحماوي، **الثغر الباسم**، مج. 1: 383.

حسن الباشا، **الفنون الإسلامية والوظائف على الاثار العربية**، مج. 1 (القاهرة: دار النهضة العربية، 1965): 360؛

Karl Wulzinger and Carl Watzinger, **Damaskus die Islamischestadt** (Berlin: Leipzig, 1924): 181; H. Sobernheim, "Die Inschhriften der Zitadelle von Damaskus", **Der Islam** 12, no. 13 (1922): 111-113.

Max van Berchem, **Materiaux pour un corpus inscriptionumarabicarum**, Vol. 1,**l'Egyp't**(Paris, 1804-1903): 290, 732-733.

[68] L. A. Mayer, "Huit objectsinedits a blasons MamluKs en Grece et en Turquie", **Melanges Maspero** 3, no. 1-2 (1940): 97.

[69]نبيل محمد عبد العزيز، **هزل فرسان الخيل، وبعض مايزه نفوسهم وأبدانهم قبل يوم الحقائق**(القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، 2006): 37.

[70]حسين عبد الرحيم حسين عليوه، **السلاح المعدني للمحارب المصري في عصر المماليك "دراسة آثرية"** (رسالة دكتوراه، جامعة القاهرة. كلية الآثار، 1974): 304 ؛

L. A. Mayer, "Saracenic Arms and Armour", **ArsIslamica** 10 (1943): 11.

[71]أبو الفدا، **المختصر**، مج. 3: 149.

[72]داود، "الرنوك الاسلامية دلالالتها واستخدامتها في عصر المماليك": 33-34.

[73]Atil, **Renaissance of Islam**:21, 186؛ داود، **المشكاوات الزجاجية**: 443.

[74]القلقشندي، **صبح الأعشي**، مج. 2: 137؛ مج. 5: 459؛ الباشا، **الفنون الإسلامية**: 318.

[75]المرجع السابق: 138.

[76] YacoubArtin, "Description de quatre lamps en verreemaille et armoiriees", **Bulletin de l'InstitutEgyptien**5,no. 1 (1907): pl. 1;
أحمد، **الرنوك الاسلامية**: 93.

[77] داود، **المشكاوات الزجاجية**: 446؛ داود، "الرنوك الاسلامية دلالالتها واستخدامتها في عصر المماليك": 28-35.

[78] سعيد عبد الفتاح عاشور، **المجتمع المصري فى عصر سلاطين المماليك** (القاهرة: دار النهضة العربية، 1962): 72.

[79] محمد حسام الدين إسماعيل، **مدينة القاهرة فى العصر المملوكي، الخان وما حوله** (القاهرة، 1999): 65.

[80] أحمد، **الرنوك الإسلامية**: 81.

[81] أحمد، **الرنوك الإسلامية**: 124.

[82] داود، **المشكاوات الزجاجية**: 452.

[83] أبو الفدا، **المختصر**، مج. 3: 149.

[84] المقريزي، **السلوك**، مج. 1: 87؛
Mayer,**Saracenic Heraldry**:5,10;Atil,**Renaissance of Islam**:21,66.

[85] القلقشندي، **صبح الأعشي**، مج. 2:19-23؛ مج. 5: 461.

[86] أبو الفدا، **المختصر**، مج. 3: 149.

[87] السبكي، **معيد النعم ومبيد النقم**: 99-101.

[88] الباشا، **الفنون الإسلامية**، مج. 1: 175-176.

[89] القلقشندي، **صبح الأعشي**، مج. 5: 435.

[90] ابن شاهين، **زبدة كشف الممالك**: 125؛ القلقشندي، **صبح الأعشي**، مج. 3: 13؛ عاشور، **المجتمع المصري**: 62.

[91] Mayer, **Saracenic Heraldry**: pl. xii/b, fig. 2-6, 8, fig. 20; L. A. Mayer, "A New Heraldic emblem of the Mamluks", **ArtsIslamica**4 (1937): 349-351.

[92] محمد مصطفى، الرنوك في عصر المماليك، مجلة الرسالة،القاهرة ، العدد 400،السنة ٩، (3مارس ١٩٤١مالموافق 5 صفر ١٣٦٠هـ)، 268-271؛ زكي ، **أطلس الفنون الزخرفية والتصاوير الإسلامية**،منشورات كلية الآداب والعلوم (بغداد، 1956): شكل 199؛ أحمد عبد الرازق أحمد، **شبايك القلل الفخارية في دار الآثار الإسلامية** (الكويت: مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، 1988)؛ علاء الدين محمود محمد، **الزجاج الايوبي والمملوكى بمتحف الفن الاسلامي بالقاهرة: دراسة أثرية وفنية** (رسالة دكتوراه، جامعة القاهرة. كلية الآداب، 2015): 33، 53؛ أحمد، **الرنوك الاسلامية**: 117، شكل 18.

[93] M. Meinecke, **The Mamluks Heraldry, Notes on Lecturers Given in the Cairo** (**University** Cairo: Faculty of Archaeology, 1974-1975): 46-47; Atil, **Renaissance of Islam**: 188-189.

[94] محمد، **الزجاج الايوبي والمملوكى بمتحف الفن الاسلامي بالقاهرة**: لوحة 150-152، شكل 6، 115.

[95] L. A. Mayer, "Un enigme de blason musulman", **Bulletin de l'Institut de l'Egypt** 21 (1938-1939): 141-143.

[96] D. T. Rice, **L'art de l'Islam** (Paris, 1965): 109, no. 108; D.Soudel and J.Sourdel, **La civilization de l'Islam classique** (Paris: Arthaud, 1968): 181; Atil, **Renaissance of Islam**: 255, fig. 1.

[97] نبيل محمد عبد العزيز، **الطرب وآلاته فى عصر الأيوبيين والمماليك** (القاهرة، 1980): 153، 155، 157.

[98] أحمد، "أضواء جديدة على رنك الدبوس": 1-29.

[99] أحمد، **الرنوك الإسلامية**: 117.

[100] القلقشندي، **صبح الأعشي**، مج. 4: 673.

[101] أحمد، **الرنوك الإسلامية**: 50.

[102] Mayer, **Saracenic Heraldry**: 27.

[103] هناء محمد عدلي حسن، "نشر ودراسة لمجموعة من الفخار المطلى، محفوظة بمتحف كلية، الاثار والسياحة، جامعة الأردن"، **مجلة اتحاد الآثاريين العرب** 18، العدد 18 (نوفمبر 2017): 735.

[104] ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، مج. 9: 908.

[105] القلقشندي، **صبح الأعشي**، مج. 5: 34.

[106] داليا عبد المنعم، "إثر جماليات الرنوك على الخزف المملوكي"، **مجلة العمارة والفنون والعلوم الانسانية** (2017): 159-172، مقالة الكترونية متاحة عبر الانترنت، https://www.academia.edu/40269398

قائمة المصادروالمراجع

أولا: المصادر

ابن إياس (زين العابدين؛ أبو البركات؛ محمد بن أحمد بن إياس الحنفي الناصري القاهري، ت 930 هـ). **بدائع الزهور في وقائع الدهور**. مج. 1-3. القاهرة: مطبعه بولاق، 1131 هـ.

ابن تغري بردي (جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن سيف الدين تغري بردي الأتابكي اليشبقاوي الظاهري، ت 874 ه).**النجوم الزاهرة: في ملوك مصر والقاهرة**.مج. 1-12. تعليق محمد رمزي. القاهرة: دار الكتب المصرية، 1929-1956.

ابن تغري بردي (جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن سيف الدين تغري بردي الأتابكي اليشبقاوي الظاهري، ت 874 ه).**النجوم الزاهرة: في ملوك مصر والقاهرة**.مج. 13-16. تحقيق فهيم محمد شلتوت وآخرين.القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتب، 1970-1972.

ابن حجر العسقلاني (شهاب الدين؛ أبو الفضل؛ أحمد بن علي بن محمد بن علي الكناني بن محمود بن أحمد بن حجر بن أحمد العسقلاني المصري الشافعي، ت 852 ه). **الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة**.تحقيق محمد عبد المعيد ضان. حيدر آباد، الهند: مجلس دائرة المعارف العثمانية، 1939.

ابن شاهين (غرس الدين خليل بن شاهين الظاهري، ت 873 ه).**زبدة كشف المماليك وبيان الطرق والمسالك**. تصحيح بولس راويس. باريس، 1894.

ابن العسال (الصفي؛مفضلبنأبيالفضائلالأمجدبنأسعدبنأبيالفضلبنإبراهيمبنيوحناأبيبشرالقبطي،ت 759 ه). **النهج السديد والدرر الفريد في ما بعد تاريخ ابن العميد**. باريس: بلوشيه، 1919.

ابن الفُرات المصري (ناصر الدين؛ محمد بن عبد الرحيم بن علي بن الحسن بن محمد بن عبد العزيز بن محمد الحنفي، ت 807 ه). **تاريخ ابن الفرات: وهو تاريخ الدول والملوك**.تحقيق قسطنطين رزيق. مج. 18. منشورات كلية العلوم والآداب. سلسلة العلوم الشرقية. بيروت: الجامعة الأمريكية، 1942.

ابن قيم الجوزيه (شمس الدين؛ أبو عبد الله؛ محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد بن حريز بن مكي زيد الدين الزُّرعي الدمشقي الحنبلي، ت 751 ه). **الفروسية المحمدية**. تحقيق عزت العطار الحسيني. ط. 2. القاهرة: مكتبة الخانجي، 1414هـ

أبو الفداء (عماد الدين؛أبو الفداء؛ إسماعيل بن علي بن محمود بن محمد بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب، ت 732 ه). **المختصر في أخبار البشر**. القاهرة: المطبعة الحسينية المصرية، 1325 هـ.

السبكي (تاج الدين؛ أبو نصر؛ عبد الوهاب بن تقي الدين أبي الحسن علي بن زين الدين عبد الكافي بن ضياء الدين علي بن تمام السبكي، ت 771 ه). **معيد النعم ومبيد النقم**. تحقيق عبد الوهاب السبكي. بيروت: مؤسسة الكتب الثقافية،1986.

السيوطي (جلال الدين؛ أبو الفضل؛ عبد الرحمن بن كمال الدين بن أبي بكر بن محمد بن سابق الدين الخضيري السيوطي، ت 911 هـ).**حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة**.تحقيق محمد أبوالفضل إبراهيم. القاهرة: دار احياءالكتب العربية، 1881.

القلقشندي(شهاب الدين أبو العباس أحمد بن علي بن أحمد القلقشندي، ت 821 هـ). **صبح الأعشى فى صناعة الإنشا**. مج. 1-14. القاهرة: دارالكتب المصرية، 1919-1929.

المقريزي (تقي الدين؛ أبو العباس؛ أحمد بن علي بن عبد القادر بن محمد الحسيني العبيدي المقريزي، ت 845 هـ). **السلوك لمعرفة دول الملوك**. تحقيق محمد مصطفى زيادة. مج. 1-2. القاهرة: لجنة التأليف والترجمة، 1934-1958.

المقريزي (تقي الدين؛ أبو العباس؛ أحمد بن علي بن عبد القادر بن محمد الحسيني العبيدي المقريزي، ت 845 هـ). **السلوك لمعرفة دول الملوك**. تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور. مج. 3-4. القاهرة: دار الكتب المصرية، 1970-1973.

المقريزي (تقي الدين؛ أبو العباس؛ أحمد بن علي بن عبد القادر بن محمد الحسيني العبيدي المقريزي، ت 845 هـ). **المواعظ والإعتبار في ذكر الخطط والآثار**. تحقيق محمد عبد الرحمن قطه العدوي. القاهرة: مطبعه بولاق، 1270هـ

– **ثانيا :المراجع العربية :**

أحمد، عبد الرازق أحمد.**الرنوك الإسلامية**. القاهرة:جامعة عين شمس، 2001.

أحمد، عبد الرازق أحمد."أضواء جديدة على رنك النسروعلاقته بصلاح الدين الأيوبى".**فيندوة حطين، عام 1984م**. القاهرة، 1988.

أحمد، عبد الرازق أحمد."أضواء جديدة على رنك الدبوس، شعار الجمقدار". **مجلة مركز الدراسات البردية والنقوش: جامعة عين شمس**34 (2017): 1-29.

أحمد، عبد الرازق أحمد.**شبابيك القلل الفخارية في دار الآثار الإسلامية**. الكويت: مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، 1988.

إسماعيل، محمد حسام الدين.**مدينة القاهرة فى العصر المملوكي، الخان وماحوله**. القاهرة، 1999.

الباشا، حسن. **الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية**.القاهرة: دار النهضة العربية، 1965–1966.

حسن، زكي محمد. **أطلس الفنون الزخرفية والتصاوير الإسلامية**. منشورات كلية الآداب والعلوم. بغداد، 1956.

حسن، على إبراهيم.**دراسات فى تاريخ المماليك البحرية: وفي عصر الناصر محمد بوجه خاص**. القاهرة: مطبعة الشبكشي، 1948.

داود، مايسة محمود.**المشكاوات الزجاجية فى العصر المملوكي**. القاهرة: المجلس القومي للثقافة والآداب، 2004.

السحماوي (شمس الدين محمد بن بدر الدين بن محمد السحماوي الشافعي، ت 868 ه).**الثغر الباسم فى صناعة الكاتب والكاتم، المعروف بإسم المقصد الرفيع المنشأ الهادي لديوان الانشا للخالدي**. تحقيق أشرف محمد أنس. مراجعة حسين نصار. القاهرة: دار الكتب والوثائق القومية، 2009.

سعيد، إبراهيم حسن.**الجيش في عصر سلاطين المماليك**. القاهرة، 1963.

سيد، أيمن فؤاد.**دولة سلاطين المماليك في مصر**. القاهرة: الدار المصرية اللبنانية،2019.

عاشور، سعيد عبد الفتاح. **المجتمع المصري فى عصر سلاطين المماليك**.القاهرة: دار النهضة العربية، 1962.

عبد العزيز، نبيل محمد.**الطرب وآلاته فى عصر الأيوبيين والمماليك**. القاهرة، 1980.

عبد العزيز، نبيل محمد. **هزل فرسان الخيل، وبعض مايزنه نفوسهم و أبدانهم قبل يوم الحقائق**. القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، 2006.

العريني، السيد الباز.**الإقطاع الحربى بمصر فى زمن سلاطين المماليك**.القاهرة، 1956.

ماجد، عبد المنعم. **نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر**. ط. 2، منقحة. مج. 1. **دراسة شاملة للنظم السياسية**. القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، 1979.

ماجد، عبد المنعم. **نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر**. ط. 2، منقحة. مج. 2. **دراسة شاملة لنظم البلاط ورسومه**. القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، 1982.

مهدي، شفيق. **مماليك مصر والشام: نقودهم، نقوشهم، مسكوكاتهم، ألقابهم، سلاطينهم، 648-922 هـ/1250-1517م**. بيروت: الدارالعربية للموسوعات، 2008.

هنداوي، محمد موسى، مترجم.**المعجم في اللغة الفارسية**. القاهرة: مكتبة مطبعة مصر، 1952.

- **ثالثا : الرسائل العلمية**

الشيحة، عبد الخالق علي عبد الخالق. **التأثيرات المختلفة على الخزف الأسلامى فى العصرالمملوكي:دراسة أثرية فنية مقارنة.** رسالة ماجستير. جامعة القاهرة. كلية الآثار، 2002.

القباني، شيرين عبد الحليم.**الخيل والفروسية في مصر الاسلامية بداية الدولة المملوكية وحتىجلاءالحملة الفرنسية 648-1261هـ/1250-1801م: دراسة آثرية تاريخية سياحية**. رسالة دكتوراه. جامعة الاسكندرية. كليةالسياحة والفنادق، 2015.

طرخان، إبراهيم علي. **النظم الأقطاعية فى دولة المماليك الأولى والثانية، 1250-1517.** رسالة دكتوراه. جامعة القاهرة. كلية الاداب، 1955.

عدره، رشا.**الرنوك المملوكية في دمشق**. رسالة ماجستير. جامعة دمشق، 2013.

عليوه، حسين عبد الرحيم حسين.**السلاح المعدني للمحارب المصري فى عصر المماليك "دراسة آثرية"**. رسالة دكتوراه. جامعة القاهرة. كلية الآثار، 1974.

محمد، علاء الدين محمود.**الزجاج الايوبي والمملوكى بمتحف الفن الاسلامي بالقاهرة: دراسةأثرية وفنية**. رسالة دكتوراه. جامعة القاهرة. كلية الاداب، 2015.

- **رابعا- الدوريات والمجلات :**

حسن، هناء محمد عدلي."نشر ودراسة لمجموعة من الفخار المطلى، محفوظة بمتحف كلية الآثار والسياحة، جامعة الأردن". **مجلة اتحاد الآثاريين العرب** 18، العدد18 (نوفمبر 2017): 725-750.

حسنين، ممدوح محمد السيد."أسطورة النسر ورمزيته في ضوء قطعة خزفية جديدة في حفائر الفسطاط". **مجلة اتحاد الآثاريين العرب**18، العدد18 (نوفمبر 2017): 664-685.

داود، مايسه محمود."الرنوك الاسلامية دلالاتها واستخداماتها في عصر المماليك".**مجلة الدارة**، العدد 3 (1982): 27.

عبد المنعم، داليا على."إثر جماليات الرنوك على الخزف المملوكي". **مجلة العمارة والفنون والعلوم الانسانية**(2017): 159–172. مقالة الكترونية متاحة عبر الانترنت.

https://www.academia.edu/40269398
[تاريخ الدخول على الموقع: 12 إبريل 2020]
محرز، جمال."الرنوك المملوكية". **مجلة المقتطف** 98، العدد 5 (مايو 1941): 465.
مصطفى، محمد."الرنوك في عصر المماليك". **مجلة الرسالة**،السنة 9العدد 400 (3 مارس 1941 الموافق 5 صفر 1360 هـ): 268-271.

خامساً ،المراجع الأجنبية :

Artin, Yocoub. **Contribution a l'etude du dlason en Orient.** London, 1902.

Artin, Yocoub. "Description de quatre Lampes en verre Emailleet armoiees". **Bulletin de l'InstitutEgyptien**5, no. 1 (1907): 43.

Atil, Esin. **Renaissance of Islam: Art of the Mamluks.** Washington, DC: Smithsonian Institution Press, 1981.

Ayalon, David. "Aspects of the Mamluk Phenomenon".**Der Islam** 53, no. 2 (1979): 212-217.

Ayalon, David. "From Ayyubids to Mamluks".**Revue des Etudes Islamique (REL)** 49 (1981): 43-58.

Ayalon, David. "Studies on the Structure of the Mamlouk Army".**Bulletin of the School of Oriental and African Studies (BSOAS)** 15 (1953): 222-228.

Ayalon, David. "The System of Payment in Mamluk Military Society".**Journal of the Economic and Social History of the Orient (JESHO)** 1, no. 1 (Aug 1957): 37-65.

Dozy, Reinhart Pieter Anne. **Essai sur l'histoire de 'Islamisme**. Translated by Victor Chauvin. Paris: Maisonneuve, 1879.

Heyd, W. **Histoire du Commerce en Levant au Moyen-age.**Vol. 2.Berlin: Leizig, 1925.

. **StudiesIslamica** 45 (1977): 67-"The Emergence of the Mamluk Army"Humphreys, R. S. 99.

Lane-Poole, Stanley.**History of Egypt in the Middle Ages.** London, 1963.

Maezouk, M. A. "Egyptian Sgraffito Ware Excavated at Komed-Dikka in Alexandria". **Bulletin of the Faculty of Arts** 13 (1959): 20-190.

Mayer, L. A. "Huit objects inedits a blasonsMamluks, en Grece et en Turquie". **MelangesMaspero** 3, no. 1-2 (1940): 97-104.

Mayer, L. A. "A New Heraldic emblem of the Mamluks". **Art Islamica**4 (1937): 349-351.

Mayer, L. A. **Saracenic Heraldry: A Survey.**Oxford, 1933.

Mayer, L. A."Saracenic Arms and Armour".**Ars Islamica** 10 (1943): 1-12.

Mayer, L. A. "Un enigme de blason musulman". **Bulletin de l'Institut de l'Egypt**21 (1938-1939): 141-143.

Meinecke, M. **The MamluksHeraldry, Notes on Lecturers Given in the Cairo University**.Cairo: Faculty of Archaeology, 1974-1975.

Poliak, A. N. **Feudalism Egypt, Syria, Palestine and the Lebanon,1250-1900**. London, 1939.

Rice, David Talbot. **L'art de l'islam**. Paris, 1965.

Sobernheim, M. "Die Inschhriften der ZitadellevonDamaskus". **Der Islam** 12, no. 13 (1922): 1-28.

Soudel, D., and J. Sourdel.**La civilization de l'Islam classique**. Paris: Arthaud, 1968.

Van Berchem, Max. **Materiaux pour un corpus inscriptionum**. Vol. 1.**l'Egyp't**. Paris, 1804-1903.

Wulzinger, Karl, and Carl Watzinger.**Damaskus die Islamischestadt**. Berlin: Leipzig, 1924.

الاشكال

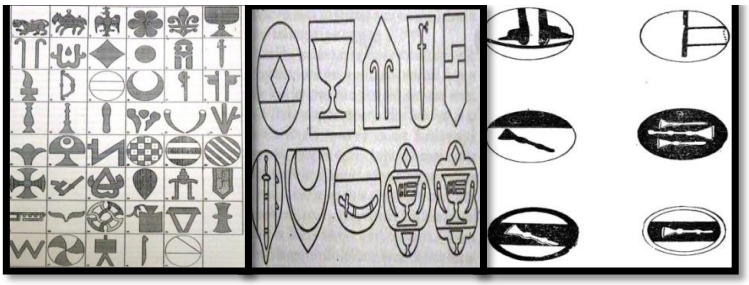

الرنوك (عن ماير) أشكال الهيئه الخارجية للرنك رنكا البوق و العلم

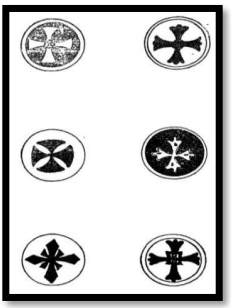

رنك الصليب

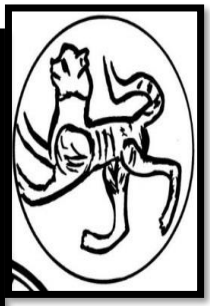

رنك النسر

رنك الببر

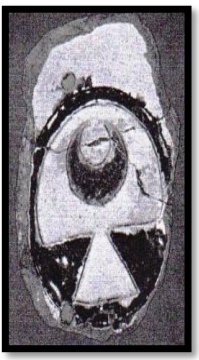

رنك القُبقُ

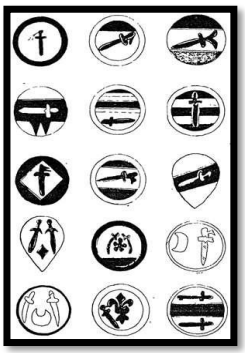

رنك السيف

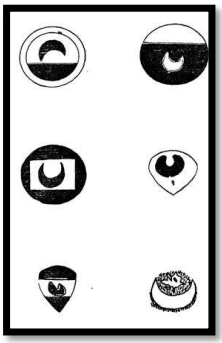

رنك حدوة الفرس

الكاتب: د/نجاة الجويني
كلية الآداب والفنون والانسانيات
بمنوبة-جامعة منوبة

najet_jouini@yahoo.fr

عنوان المقال: الجيش المملوكي: المماليك السلطانية

تاريخ الإرسال: 2020/05/07 تاريخ القبول:2020/05/30 تاريخ النشر: 2020/06/30

الجيش المملوكي: المماليك السلطانية

الملخص بالعربية:

يهدف هذا المبحث إلى إبراز خصوصيات الجيش المملوكي، من حيث تنظيمه وتركيبته، وكذلك من خلال الدور السياسي والعسكري والديني الذي لعبه داخل الدولة المملوكية بصفة خاصة، وداخل المجال الإسلامي بصفة عامّة، برفعه راية الجهاد ضدّ الصليبيين في بلاد الشام، وكذلك بدفاعه على المجال الإسلامي ضدّ المغول. وقد يكون هذا الدور هو الذي جعل الجيش المملوكي ضمن النخب العسكرية في العالم الإسلامي وخاصة فرقة المماليك السلطانية، التي كانت تحظى بامتيازات عديدة.

كلمات مفتاحية: الدولة المملوكيّة، الجيش المملوكي، المماليك السلطانيّة، المصادر الوثائقيّة، نخبة عسكرية.

Abstract :

This topic aims to highlight the peculiarities of the Mamluk army, in terms of its organization and composition, as well as through the political, military and religious role that it played within the Mamluk state in particular, and within the Islamic field in general, by raising the banner of jihad against the Crusaders in the Levant, as well as by defending the Islamic field against The Mongols. This role may have made the Mameluke army among the military elites in the Islamic world

Key Words: Mamluk State, Mamluk Army, Royal Mamluk, Documentary Sources, Military Elite.

مقدمة:

البحث في تاريخ الدولة المملوكية التي حكمت مصر وبلاد الشام حوالي ثلاثة قرون، من أوسط القرن السابع للهجرة الموافق للقرن الثالث عشر ميلادية إلى مطلع القرن العاشر للهجرة الموافق لمطلع القرن السادس عشر، يُحيلنا بالضرورة إلى البحث في أسباب هذا الاستمرار الزمني الهام نسبيّا رغم تعدّد الأخطار الخارجيّة، ولعلّ ما يفسّر لنا ذلك هو أهميّة الجيش المملوكي من حيث تنظيمه، وكذلك دوره في تواصل واستمرارية الدولة من حيث بقيّة نظمها وخاصة من حيث حدودها الجغرافية وعلاقاتها الداخلية والخارجيّة. فالمصادر التي كُتبت في ظلّ هذه الدولة، ومنها المصادر الوثائقيّة[21]، قد بيّنت ذلك، كما بيّنت أيضا أنّها دولة عسكريّة بامتياز، وأنّ بقيّة النظم كانت بدرجة أولى لخدمة الجيش

المملوكي وعلى رأسه السلطان الذي عادة ما يكون عسكريّا بدرجة أولى. فالدولة المملوكيّة نشأت على العناصر المُستعبدة، والتي كانت المصدر الرئيسي لرجال الدولة والجيش، ولم تسمح لغير المماليك بالولوج في الجيش الذي بقي مغلقا وحكرا على المماليك فحسب، فأبناء المماليك ليس لهم الحق في الانتماء للجيش لأنّهم ليسوا مماليك.

فالجيش المملوكي يتنزّل ضمن الأطراف الدخيلة على العنصر العربي والذين ساعدتهم العديد من الظروف على اغتصاب السلطة وفرض الهيمنة على المجتمعين المصري والشامي بداية من منتصف القرن السابع للهجرة/ أواسط القرن 13م إلى حدود القرن العاشر للهجرة/ مطلع القرن 16.

كما تعتبر الدراسات الحديثة أنّ الدولة المملوكية هي دولة عسكرية بامتياز وأنّ الجيش هو المهيمن على الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وفي هذا الإطار يتنزّل الجيش المملوكي كنخبة من النخب العسكرية غير العربية.

لكن في هذا المبحث لن نهتمّ بالجيش المملوكي ككلّ، بل بفئة أو فرقة تنتمي إليه، والتي تمثّل نخبة داخل النخبة العسكريّة، وهي فئة الممالك السلطانية. ممّن تتكوّن هذه الفئة العسكرية؟ ماهي مكانتها في الجيش المملوكي؟ مالذي يميّزها عن بقية الفرق العسكرية الأخرى في الجيش؟

ثمّ ما مدى التطابق في دورها بين ماهو مطلوب منها وما وُجد على أرض الواقع؟ يعني علاقتها بالسلطان من ناحية؟ ودورها في الدولة من ناحية أخرى؟

لكن قبل دراسة هذه الفرقة، فإنّ منهجية البحث تقتضي ضرورة إبراز التنظيم العسكري المملوكي.

I- التنظيم العسكري للدولة المملوكية:

تتكوّن المؤسسة العسكرية المملوكية من عنصرين: الجيش وديوان الجيش وهو الهيكل المخصّص لتسيير شؤون الجيش.

بالنسبة لديوان الجيش: تبيّن المصادر التي كتبت في ظلّ الدولة المملوكية الأولى[3]، أنّه يتصدّر الهرم السياسي للدولة، والإداري للنظم المملوكية. في حين تجعل بعض الدراسات[4] واستنادا على بعض المصادر المتأخرة أي التي كتبت في ظلّ الدولة المملوكية الثانية[5] أنّ هذا الديوان يأتي في المرتبة الثالثة بعد الوزارة وديوان الإنشاء. ولكن مهما كانت رتبة هذا الديوان مقارنة بالدواوين الأخرى في الدولة، فإنه يحظى بمكانة متميّزة ونتبيّن ذلك من خلال تنظيمه وكيفية الانتماء إليه ومن يعمل به.

1- تركيبة ديوان الجيش:[6]

يتكوّن ديوان الجيش من الوظائف الآتية:

- أرباب الوظائف العسكريّة، ويعرفون في المصادر المملوكيّة بأرباب السيوف[7]. وتقع تسميتهم مباشرة من السلطان بما يعرف "بالتوقيع الشر هم أساسا[8]:

- ناظر الجيش: هي أعلى رتبة في ديوان الجيش مهمّته السهر على حسن سير المؤسّسة العسكريّة في الدولة وهو في علاقة مباشرة مع السلطان المملوكي، كما أنّه عسكري بدرجة أولى أي يقع اختياره من المماليك السلطانية.

- نائب ناظر الجيش: هي خطّة نيابية، مهمة هذا النائب تسيير شؤون المؤسسة العسكريّة عند خروج ناظر الجيش مع السلطان في حرب أو للصيد، وتذكر المصادر[9] أنّ نائب ناظر الجيش عادة ما يشكّل خطرا على ناظر الجيش فيكيد له مع السلطان للإطاحة به وحتّى قتله.

- صاحب ديوان الجيش: وهو رئيس القسم المختصّ في التدوين داخل المؤسّسة العسكريّة ويتكوّن هذا القسم من مستوفي ديوان الجيش، وكتّاب ديوان الجيش، وشهود ديوان الجيش، وهم بدورهم عناصر من الفرق المكوّنة للجيش.

- صاحب ديوان المماليك: يترأس فرع في ديوان الجيش يهتمّ بشؤون المماليك الذّين سيقع تدريبهم للإلتحاق بالجيش المتكوّن من صاحب ديوان المماليك ومستوفي ديوان المماليك، فكتّاب ديوان المماليك ثمّ شهود ديوان المماليك وهم كذلك من العسكريين.

2- مكانة ديوان الجيش في الدولة المملوكية:

سنحاول من خلال بعض المصادر أن نتبيّن مكانة ديوان الجيش في الدولة المملوكية، ومدى محافظته على هذه المكانة. فالمصادر التي تعود إلى القرن السابع والثامن للهجرة وكذلك مطلع القرن التاسع للهجرة مثل المصادر الوثائقية ونذكر على سبيل المثال، كتاب "التعريف بالمصطلح الشريف" لابن فضل الله العمري وكذلك كتاب "صبح الأعشى" في صناعة الإنشاء للقلقشندي و"حسن التوسّل في صناعة الترسّل" لابن حبيب الحلبي، تبرز أنّ ديوان الجيش كان دائما يتصدّر الهرم السياسي والإداري للدولة وبقيّة الدواوين من دونه، لكن في المصادر المتأخرة نسبيّا مثل كتاب "الثغر الباسم في صناعة الكاتب والكاتم "للسحماوي"، فقد بيّنت أنّ مكانة ديوان الجيش تراجعت وأنّ ناظر الجيش أصبح في المرتبة الرابعة بعد كاتب السر والوزير وناظر الخاص، أي أنّ مكانة ديوان الجيش تراجعت لحساب دواوين أخرى في الدولة مثل ديوان الإنشاء والوزارة وديوان الخاص. ونجد صدى لهذا التراجع في مصادر أخرى مثل كتاب "النجوم الزاهرة لابن تغري بردي"، و"مسالك الأبصار للعمري"، و"زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك" للظاهري، أمّا بعض المصادر الأخرى فهي لا تذكر أي تحوّل يهمّ تغير أو تراجع مكانة ديوان الجيش في الترتيب السياسي والإداري المملوكي. ونجد صدى لهذا التغيّر في مكانة ورتبة ديوان الجيش في الدولة المملوكية في بعض الدراسات الحديثة[10].

لكن رغم وجود هذا التراجع في رتبة ديوان الجيش في ترتيب مؤسسات الدولة المملوكية إلاّ أنّه يبقى المؤسّسة الرئيسية، لأنّها تنظّم الجيش وتعمل على استقراره من أجل استقرار وتواصل الدولة، ويذكر القلقشندي في هذا الصدد: "ديوان الجيش، لا يكون صاحبه إلاّ مسلما، وله الرتبة الجليلة والمكانة الرفيعة، وبين يديه حاجب وإليه عرض الأجناد وخيولهم، وذكر حلاهم وشيات خيولهم، وكان من شرط هذا الديوان عندهم ألاّ يثبت لأحد من الأجناد إلاّ الفرس الجيّد من ذكور الخيل وإناثها دون البغال والبراذين، وليس له تغيير أحد من الأجناد ولا شيء من إقطاعهم إلاّ بمرسوم. وبين يدي صاحب هذا الديوان نقباء الأمراء، يعرّفونه أحوال الأجناد من الحياة والموت والغيبة والحضور وغير ذلك، ...، كما قد فسح للأجناد في المقايضة

بالإقطاعات لمالهم في ذلك من المصالح كما هو اليوم، بتوقيعات من صاحب ديوان المجلس من غير علامة، ولم يكن لأمير من أمرائهم بلد كاملة، وإن علا قدره إلا في النادر. ومن هذا الديوان كان يعمل أوراق أرباب الجرايات وله خازنان برسم رفع الشواهد"[11]. نلاحظ إذا أنّ الدور الرئيسي لديوان الجيش هو السهر على تأسيس جيش مملوكي أوّلا ثمّ تنظيم العلاقة بين الجيش والسلطة وبين السلطة والمجتمعين المصري والشامي. فكيف تمّ تنظيم الجيش المملوكي؟ وما هي شروط الإنتماء إليه؟

II- تركيبة الجيش المملوكي:

قبل التطرّق إلى تركيبة الجيش المملوكي، رأينا أنّه من الأجدى إبراز شروط الإنتماء لهذا الجيش، وقد تكون هذه الشروط من بين خصوصيات الجيش المملوكي. فكيف يتمّ تكوين المملوك عسكريّا؟

تبيّن بعض المصادر التاريخية[12] أنّ المملوك هو المؤهّل الرئيسي في الدولة لكي يصبح جندياً، باعتبار أنّ الجيش المملوكي لا يحوي أجناسا أخرى غير المماليك، ولكن هذا بقي نظريا فحسب، لذلك لابدّ من توفّر الشروط التالية:

- أن يكون المملوك غير مسلم.
- أن يكون مولودا في بلد أجنبي ومن المستحسن من بلد القبجاق، ويكون ذو بشرة بيضاء.
- أن يقع شراءه وهو صبيّا أو غلاما.

يقوم السلطان، الذي لا يُستثنى عن هذه القاعدة، بشراء المماليك الصغار من تاجر المماليك، ثمّ يأمر بوضعهم في مكان خاصّ يُسمّى الطباق[13]، الذي يوجد فيه مختصّون لتربية وتنشئة المماليك، وهم الذين تسمّيهم المصادر بالطواشي الخصيان [14]، مع العلم أنّه توجد مجموعة من هذه الطباقات، الخاصّة بالمماليك، أين يقع تعليمهم فنون الحرب والقتال والتدريبات العسكرية بمختلف أنواعها، وكذلك أصول الدين والفقه الإسلامي واللغة العربية وتقع أسلمتهم، ويواصل تدريبهم وتعليمهم إلى أن يشبّوا عندها يقع عتقهم ليدمجوا في الجيش المملوكي[15]. وأي سلطان لابدّ أن يمرّ بهذه المراحل ليصبح فيما بعد رأس الجهاز السياسي والعسكري والإداري للدولة. ويعتبر المؤرخون[16]أنّ المماليك يبحثون عن الرجل العسكري

المفقود في مصر، بل أكثر من ذلك " إنّ السكّان المصريين المحليّين لم تكن لهم القدرة على حمل السلاح"[17]. فما هي خصائص تركيبة هذا الجيش؟

أوردت عديد المصادر، وكذلك المراجع[18] أنّ الجيش المملوكي يتكوّن من ثلاث فئات رئيسيّة وهي كالآتي:

المماليك السلطانية، مماليك الأمراء، أجناد الحلقة، ونجد ذكرا لفئة رابعة لكن لا تولها المصادر نفس الأهمية التي تولها للفئات الثلاث السابقة والمتمثّلة في مماليك أبناء الأمراء، والمعروفة باسم أولاد النّاس. وكلّ فئة من هذه الفئات الأربع تحوي تقسيمات فرعيّة سوف نبيّنها باختصار لأنّها في الحقيقة ليست موضوع البحث.

1- أجناد الحلقة[19]

وهي الفئة الثانية في الجيش المملوكي، عُرفت فرق الحلقة في الجيوش الإسلاميّة السابقة للعهد المملوكي، حيث ذُكرت من قبل المصادر في العهد الزّنكي، وفي العهد الأيّوبي وتحديدا في جيش صلاح الدّين[20]. أمّا في الجيش المملوكي فقد تكوّنت تلك الفرقة من محترفي الجنديّة من مماليك السلاطين السابقين وأولادهم، ويشرف على كلّ ألف منهم أحد الأمراء المئتين، كما كان لكلّ مئة منهم نقيب، ويُشترط فيه الإلمام بمحلّ إقامتهم لجمعهم عند الطلب.

وليس للأمير سلطة عليهم إلاّ في الحرب، وقد أُضيف إليهم المأجورين من التركمان والبدو الذين كانت مصالحهم ترتبط بالسلطان لحماية ممتلكاتهم، حيث أنّهم أحرار أو مماليك حصلوا على حرّيتهم أو ربّما كانوا من أبناء المماليك السلطانيّة، ونلاحظ أن هذه الفرقة العسكرية ليست متجانسة ثمّ لا يكوّنها المماليك فحسب.

يتمتّع أجناد الحلقة بإقطاعات في كامل أرجاء الدولة المملوكيّة مقابل حضورهم وقت الحاجة أي في الحروب، حيث كانوا يقيمون بإقطاعاتهم على خلاف المماليك السلطانية الذين كانوا في طباق القلعة وجميع نفقاتهم على السلطان. وقد كان لكلّ أربعين من أجناد الحلقة مقدّم[21].

ويبدو أنّ تسمية أجناد الحلقة جاءت في إطار أنّ هؤلاء عبارة عن مجموعات متفرّقة في كامل أرجاء السلطنة بما في ذلك الثغور والقلاع وحين يتمّ طلبها تأتي في حلقات، وكلّ حلقة تملك سلاحها وتجهيزاتها، فهي تأتي في شكل مجموعات. وقد بيّنت المصادر[22] أنّ المماليك السلطانيّة يمكن أن يصبحوا من أجناد الحلقة إذا أنعم عليهم السلطان بذلك من خلال فكّ الارتباط معهم بإعطائهم إقطاعا في الدولة لكن المشتروات يقع استثناءهم من هذا الإجراء. ويمكن

اعتبار أنّ المماليك السلطانيّة كانوا أوفر حظّا في الرواتب حيث يفوق راتبهم أجناد الحلقة، كما أنّ امرة أجناد الحلقة تزول بمجرّد انتهاء الحرب، وليس له على الجند سلطان، بعكس المماليك السلطانيّة الذين يبقى لهم حقّ الإمرة على جنودهم. ولكن إثر انتهاء سلطنة الناصر محمّد بن قلاوون، دخلت عناصر غريبة تدريجيّا إلى أجناد الحلقة وذلك من قيام أجناد الحلقة المعيّنين من قبل السلطان ببيع أقطاعاتهم ومبادلتها بالمال، وصار أجناد الحلقة أكثرهم من أصحاب حرف وصنائع[23]، كما كان ضمن أجناد الحلقة أبناء أمراء المماليك أيضا، ودخل أولاد السلاطين أنفسهم أجناد الحلقة، ومثّلوا أكابر أجناد الحلقة وأطلقت عليهم تسمية الأسياد[24].

2- أجداد الأمراء:

الفئة الثالثة التي تكوّن الجيش المملوكي، والمقصود بهم مماليك الأمراء. يتلقّى جنود الأمراء أوامرهم مباشرة من أمرائهم وليس من السلطان كالمماليك السلطانية أو أجناد الحلقة، وهم مسجّلون في ديوان الجيش تحت اسم أميرهم ولا يستطيع الجندي أو الأمير تغيير تبعيّته إلاّ بأمر سلطاني عن طريق الدّيوان، وكانت رواتب وأعطيات أجناد الأمراء أكثر من رواتب وأعطيات أجناد الحلقة. وأمراء الأجناد كانوا مماليك صغارا ثمّ أنعم عليهم السلطان بالحريّة لكفاءتهم القتاليّة، وأعطاهم صلاحيّات وإمرة تشريفيّة خاصّة، وكانت الرتبة التي يحصل عليها الأمير المملوكي تجعله سلطانا مصغّرا له اسطبل ومخازن ومجموعة من المباني وله من الموظّفين ما يكفيه، إضافة إلى اقتنائه عددا من المماليك سمّوا بأجناد الأمراء[25].

ونجد أنّ الأمراء يقسّمون إلى أربعة أقسام من حيث الأهميّة والرتبة في الجيش وفي الدولة عامّة. يمثّل أمراء المئة وتقدمة الألف الدرجة الأولى ويتولّون المناصب العليا في الدولة ومنهم يقع اختيار السلطان. أمّا القسم الثاني فيمثّله أمراء الطبلخاناه، يليهم أمراء العشرة ثمّ أمراء الخمسة. وجميع هؤلاء الأمراء وخاصّة منهم أمراء المئة والطبلخاناه قاموا بتكوين حرس خاصّ من المماليك مثل السلطان، ولم يكن عدد هؤلاء المماليك محدّدا بل كان مرتبطا بمدى قدرة الأمير المادّية ورتبته، كما لم يكن عدد الأمراء بدورهم ثابتا، فمن السلاطين من أنقص أعداد الأمراء ومنهم من زاده[26]. وما يمكن ملاحظته أنّ هذه الفرقة في الجيش المملوكي كانت أكثر تجانسا.

3- أبناء الأمراء:

الفئة الرابعة والمكوّنة بدورها للجيش المملوكي والتّي تسمّيها المصادر بأولاد النّاس وهم ليسوا مماليك، واشتهر مماليكهم باسم مماليك أولاد النّاس.

4- للمماليك السلطانية:

هي الفئة الأولى في الجيش، هذه الفئة تتكوّن من أربعة فرق كالآتي:

- الفرقة الأولى هي الخاصكيّة: هي الفرقة الأولى ضمن فئة المماليك السلطانية، يختار السلطان أفرادها، ليكوّن منهم حرسه الخاصّ. يلازمون السلطان في خلواته ويقومون أساسا بالمهمّات الشريفة، مثل تنفيذ أحكام الإعدام بالأمراء، والقبض على أعداء السلطان. والخاصكية هم من الأمراء الذين شغلوا مناصب عسكرية في الدولة مثل نائب السلطنة (يسمى بالنائب الكافل، وهي أعلى رتبة سياسية وعسكرية وإدارية في الدولة بعد السلطان، وعادة ما ينوب السلطان في القلعة عند خروج هذا الأخير لأمر ما.) ورأس نوبة (هم كبار الأمراء العسكريين على المماليك السلطانية: أربعة أمراء واحد مقدّم ألف وهو أمير الخاصكية وثلاث طبلخاناه) وداوادار (من يهتم بشؤون البريد للعسكر، برتبة أمير)، وسلاحدار (رتبتة من كبار الأمراء وهو من يحمل السلاح للسلطان). وأحيانا يتدخلون في الشؤون الداخلية للدولة، وفي صراع السلاطين مع الأمراء وتاريخ الدولة المملوكية حافل بمثل هذه الصراعات خاصة على السلطة. كما شكّلت هذه الفرقة من المماليك السلطانية خطرا على مركز السلطان واستقرار حكمه وتواصله، حيث كانوا في عديد الأحيان يتمرّدون على قراراته وحتّى على أوامره، ويجبرونه على تقديم تنازلات لهم.

وقد كانت هذه الفرقة تتقاضى راتبا ماديا، يُعرف بالجامكية، وهو راتبا شهريّا، لكن قيمته غير قارّة، وعادة ما يدفعه السلطان من ماله الخاص، ومن بيت المال، إضافة إلى أشكال أخرى من الرواتب مثل اللحم والخبز، وكسوتين في السنة، والشمع والحلوى خاصة في المناسبات، وأحينا يتمتّع الخاصكيّة بإقطاعيات، رغم تمركزهم بالقاهرة، كما أُفردت هذه الفرقة بديوان الخاصّ الذي يسيّر مختلف شؤونها داخل الدولة، وفي أواخر العهد المملوكي أصبح الخاصكي بدوره يشتري المماليك الخاصّين به، وهو ما شكّل خطرا على السلطان القائم. وقد تكون هذه الفرقة ضمن المماليك السلطانية هي الأكثر تجانسا وعلاقتهم بالسلطان القائم مبنية على الخشداشية أي على الأخوة.

- الفرقة الثانية هي القرانيص: وهم مماليك السلاطين المتوفّون، ويقسّمون بدورهم إلى مماليكك السلاطين المتوفين منذ أمد بعيد، ومماليك السلاطين الذين ماتوا حديثا. أي أنّهم كانوا من الخاصكيّة قبل وفاة أستاذهم، هذه الفرقة لم تكن متجانسة، ولم تكن فرقة عسكرية واحدة، وذلك لانتساب كلّ مجموعة منهم إلى السلطان الذي أعتقهم. وعادة ما تكون فرقة القرانيص من الفرق المقرّبة للسلطان عند اعتلائه العرش، خاصة إذا ما تمّ توارث السلطة (أي اعتلاء ابن السلطان المتوفّي العرش، وتمّ ذلك مثلا في أبناء المنصور قلاوون وأحفاده)، ولكن عند تكوين خاصّته من مشترواته يقع التخلّي عنهم، وأخذ التدابير اللازمة لمراقبتهم، وأحيانا محاربتهم وملاحقتهم وتشتيتهم، حيث كان السلطان القائم كثيرا ما يخشى قوّة القرانيص الحاقدين عليه لعدم ترقيتهم، وسطوتهم وتدبيرهم الفتن والمؤامرات للإطاحة به خاصة إذا ما كان هو قاتل أو المتسبب في قتل أستاذهم، وبالتالي الثأر له مثلا: خاصكية الناصر محمد بن قلاوون خافوا على مصيرهم عندما كان أستاذهم يحتضر، ويقول في ذلك المفضل بن أبي الفضائل في كتابه النهج السديد": *قوي عليه النزاع وتوجعت له خواطر مماليكه وشرع كل منهم يفكر فيما يلقاه بعده*"[27] وبالتالي ما يجمع بين هذه الفرقة من المماليك السلطانية الغير متجانسة هو حقدهم على السلطان القائم وعلى خاصكيته، ومحاولة قتله أو عزله باغتصاب السلطة منه، والأمثلة على ذلك عديدة خاصة في ظل الدولة المملوكية الثانية، الدولة الجركسية، مثلا السلطان لاجين كان ممن اشترك بمقتل السلطان الأشرف خليل وحلّ محلّه، فاتفق من كان من خاصكيته على الثأر لأستاذهم من لاجين وتآمروا عليه مع القائم بحراسته وقتلوه.)

ما نلاحظه أنّ علاقة السلطان القائم بالقرانيص هي علاقة تطغى عليها الكراهية المتبادلة والحقد، لذلك يحاول السلطان أن يكون حذرا، مثلا كان يعمد إلى عزلهم من الطباق في القلعة التي تعتبر رمز قوة السلطان، والذي يكاد يكون خاصّا بخاصكيته، ويسكنهم في أي طباق آخر خارج القلعة، باستثناء فئة قليلة منهم ما تسميهم المصادر "بالكتابية"، حيث يشتريهم من جديد ويعتقهم بعد أن يكونوا قد أتموا تعليمهم وبذلك يصبحون جزءا من مشترواته، بينما تُفرض مراقبة وأحيانا محاصرة على بقية القرانيص الذين عادة ما يقع تجميعهم في طباق واحد خارج القلعة، وأحيانا أخرى يشرع السلطان بنفسه في تصفيتهم بذبحهم أو بالخازوق

ويُترك إلى أن يموت إلخ... مثلا يورد ابن إياس في كتابه بدائع الزهور[28]،" أنّ السلطان الناصر فرج، سنة 1414م، كان يأمر ببطح المملوك من القرانيص والذين كانوا خاصكية أبيه، ويذبحه بيده، وقد يدوس على رأسه أو ربما يتبول عليه أو يسكب عليه الخمر انتقاما بعد أن يسأله عن سبب تمرّده وكان يذبح أحيانا في ليلة واحدة مائة مملوك، وفي هذه السنة أي 1414، قتل ستمائة مملوك من القرانيص، ويبرّر ابن إياس ذلك بأن السلطان الناصر فرج كان يسامح من تمرد من القرانيص أكثر من ثلاث مرات ومع ذلك فإنهم يعودون للغدر به، والثورة عليه".

وقد تكون الدوافع التي تبرّر التصرّف العدائي للقرانيص تجاه السلطان القائم عديدة لكن لعلّ أبرزها هو تدنّي رتبة هؤلاء في المماليك السلطانية عامة، فهم كانوا يحتلون الرتبة الأولى في هذه الفرقة بموت أستاذهم تتدنّى رتبتهم إلى الثالثة بعد الخاصكية والأجلاب، ويصبح ارتقاء الفرد منهم إلى رتبة الخاصكية مجدّدا صعبة إن لم تكن مستحيلة، وبالتالي فإنّ دورهم في السلطة السياسية ونفوذهم في الحياة الإقتصادية سيتراجع.

- الفرقة الثالثة من المماليك السلطانية هم المُشتروات: وتسمّيهم المصادر التاريخية[29] الجلبان أو الأجلاب[3130]. فالأجلاب هم الرقيق صغار السن، الذين يشتريهم السلطان القائم من تجار خاصين، ويأمر بوضعهم في طباق خاصّ بهم وعادة ما يكون هذا الطباق داخل القلعة أو خارجها ومُحاذيا لها لكي يتسنّى للسلطان زيارتهم. ويُكلّف مختصّين بهذه المهمة على الإشراف على تنشئتهم وتربيتهم وتعليمهم، لغة عربية، شؤون دينية، فنون حربية...، وعندما يجهزون، يتمّ نقلهم إلى الطباق المخصص للخاصكية، داخل القلعة، ويتمّ أيضا عتقهم، وضمّهم إلى خاصّة السلطان القائم، ويتمتّعون بجميع امتيازات الخاصكية، وهو ما كان يثير غضب القرانيص. أمّا الجلبان، فهم من مشتروات السلطان البالغين.

وتضمّ هذه الفرقة الثالثة من المماليك السلطانية ما تسمّيهم المصادر "بالوافديّة"، و كذلك ب"المستأمنين" أو " المستأمنة" والتّي كانت بداية وفودها على الدولة المملوكية في عهد السلطان الظاهر بيبرس وضمّت في البداية الهاربين من هولاكو وتقول المصادر أنّ عددهم أكثر من مائتي فارس بنسائهم وأولادهم[32]، ودخل عدد منهم في خدمة الأمراء المماليك لكن ترقيتهم في صفوف الجيش المملوكي، خلال عهد دولة المماليك الأولى، أي دولة المماليك الأتراك، كانت محدودة مقارنة بمن هم مماليك، حيث لم يصل ولو زعيم منهم إلى ما وصل إليه نظيره من المماليك السلطانيّة. وقد يكون السبب في بطء ومحدوديّة ترقية الوافديّة في الجيش المملوكي إلى تعصّب

المماليك وانغلاقهم ضدّ من يعتبرونه دخيلا على تربيتهم ونظام تنشئتهم، كما أنّ المماليك السلطانيّة ينظرون إلى هؤلاء الوافديّة على أنّهم أحرار، وينظرون إلى أنفسهم على أنّهم "أرباب الفروسيّة المملوكيّة دون غيرهم من فئات الجيش المملوكي"[33] وخاصّة دون غيرهم من الوافديّة. وفي أواخر عهد الدولة التركية وتحديدا خلال سلطنة كتبغا 1294م، قدمت إلى مجال الدولة المملوكية مجموعات أخرى من الوافدية عرفوا في المصادر ب"جماعة الإويراتية"، وهم مجموعات غير مسلمة من الشعوب المغولية التي ناصرت طرغاي بن هولاكو وفدت على المجال المملوكي إثر تولّي غازان زعامة المغول، وقد استقدم السلطان القائم أكابرهم إلى مصر ومنحهم ترقية برتبة أمير طبلخاناه، وولاّهم أمر ملاحقة اللصوص، وجعلهم من المماليك السلطانية، بعد أن ضمهم إلى الجلبان، وهو ما يعكس لنا تغيّر سياسة السلاطين المماليك، أواخر سلاطين الدولة التركية وبداية الدولة الجركسية، أو البرجية، وصارت رتبهم أعلى من رتب القرانيص، أمّا الباقين منهم فقد وقع ضمّهم إلى أجناد الحلقة، أي أصبحوا يتمتعون بإقطاعات داخل الدولة وهو ما لا يتمتّع به أحيانا الخاصكية والقرانيص دائما.

وقد شكّلت هذه الفرقة من المماليك السلطانية أحيانا سندا للسلطان القائم خاصة إذا ما تغافل عن أسلوبهم في سلب الناس ونهب الأسواق، أمّا إذا ما حاول السلطان ردعهم، فإنّهم يكيدون له ويتحالفون مع غيره للإطاحة به خاصة إذا ما تقاضوا مبالغ من الأموال ووُعدوا بإقطاعات وبترقيتهم. هذه الفرقة ضمّت عناصر غير مملوكية وغير مسلمة ومتشبّعة بعادات شعوبها وقد تجسّد بدورها إحدى النخب العسكرية ضمن فئة المماليك السلطانية.

- أمّا الفرقة الرابعة فهي السيفيّة، وهم مماليك الأمراء الذين، توفّوا أو قتلوا أو عُزلوا أوسجنوا، أو أسقطت عنهم الإمارة وصُودرت أقطاعاتهم وكذلك مماليكهم، وبالتالي فهناك نوعا من التشابه بينهم وبين القرانيص، من حيث تركيبتهم، لكن يختلفون عنهم في قبولهم بالأمر الواقع، وخدمة السلطان القائم، ومساندته وعدم إثارة الفتن للإطاحة به أو قتله لأنّ وضعهم لن يتغيّر مع أي سلطان قائم وعلاقتهم المباشرة هي مع أساتذتهم الأمراء وليس مع السلطان وأحيانا كثيرة يعتبرون ضمّهم إلى فرقة المماليك السلطانية هو نوع من كرم السلطان عليهم.

ففرقة المماليك السلطانيّة تعدّ أهم فرقة في الجيش المملوكي إذ يقول القلقشندي في شأنها" وهم أعظم الأجناد شأنا، وأرفعهم قدرا، وأشدّهم إلى السلطان قربا، وأوفرهم إقطاعا، ومنهم تؤمّر الأمراء رتبة بعد رتبة، وهم في العدّة بحسب ما يُؤثره السلطان من الكثرة والقلّة وقد كان لهم في زمن السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون ثمّ في أيّام السلطان الظّاهر برقوق العدد الجمّ والمدد الوافر لطول مدّة ملكهما واعتنائهما بجلب المماليك ومشتراها"[34].

خاتمة

تُعتبر فرقة المماليك السلطانيّة فرقة عسكريّة غير متجانسة، لها أصولا متعدّدة وكذلك لها انتماءات مختلفة وأهداف متباينة، فترتيبها من حيث دورها وعلاقتها بالسلطان هرمي فأكثرهم قربا للسلطان هم الخاصكيّة يليهم المشتروات أو الأجلاب ثمّ القرانيص ثمّ السيفيّة وهم الأكثر تهميشا في فرقة المماليك السلطانية، وهذا يعني أنّ فرقة المماليك السلطانيّة رغم التصاقها بالسلطان الحاكم ومكوثها معه القلعة وتحديدا في طباق القلعة والإمتيازات التّي يُستأثرون بها في الأكل والكسوة والمهام وحتّى السطوة إلاّ أنها تمثّل خطرا كامنا على السلطان القائم وعلى الدولة، لذلك نجد هذا الأخير يكثر من شراء المماليك الخاصّين به أي المُشتروات أو الأجلاب لحماية نفسه وسلطانه. كما نستنتج من هذا المبحث كيفيّة ارتقاء هذا الجيش بجميع فرقه إلى مستوى النخبة ليس بالولادة بل باكتساب الخصال المرتبطة باستعمال السلاح وبالهيمنة على وسائل الإنتاج والثروات وكذلك الحكم والسلطة.

الهوامش:

[2] - العمري (ابن فضل الله)، التعريف بالمصطلح الشريف، تحقيق محمد حسين شمس الدين، بيروت، 1988.
- الطرسوسي (نجم الدين إبراهيم بن علي)، تحفة الترك فيما يجب أن يعمل في الملك، تحقيق السيد رضوان، بيروت، 1992.
- القلقشندي (أحمد بن علي)، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء (14 ج)، تحقيق علي يوسف الطويل، بيروت، 1987.

[3]- المقريزي (تقي الدين)، السلوك لمعرفة دول الملوك، (4مج)، تحقيق محمد مصطفى زيادة، القاهرة، 1956.
- المنصوري (بيبرس الدوادار)، التحفة الملوكيّة في الدولة التركيّة، تقديم عبد الحميد صالح حمدان، ط.1، القاهرة، 1987.

[4]-Martel Thoumian (B.). *Les civils et l'administration dans l'état militaire mamluk*, IX-XV siècle, Damas, 1992.

[5] - ابن تغري بردي، مورد اللطافة فيمن وُلّي السلطنة والخلافة، (2 مج.)، تحقيق نبيل محمد عبد العزيز أحمد، القاهرة، 1997.

[66]- رسم السلطان قلاوون في شعبان 688هـ/1289م "ألاّ يستخدم أحدا من الأمراء وغيرهم في دواوينهم أحدا من النصارى واليهود، وحرض على ذلك فامتثل ذلك الأمراء جميعهم"، أورده حمزة (محمّد) والحدّاد (إسماعيل)، السلطان المنصور قلاوون (تاريخ مصر في عهده – منشآته المعمارية)، القاهرة، 1993، ط.1.

المقريزي، السلوك ج2 ص125" وفي رابع عشريه (شهر شوّال أحداث سنة 678هـ/1279م)، أمر بصرف كتّاب الجيوش المنصورة من النصارى وان يستخدم بدلا منهم كتاب مسلمون".

[7]- المقريزي، **السلوك**؛ مصدر سبق ذكره، القلقشندي، **صبح الأعشى**؛ مصدر سبق ذكره، السحماوي، **الثغر الباسم في صناعة الكاتب والكاتم**، تحقيق أشرف محمد أنس، القاهرة، 2009.

[8]- يقول القلقشندي: "نظر الجيش وموضوعها التحدّث في أمراء الإقطاعات بمصر والشام والكتابة بالكشف عنها ومشاورة السلطان عليها وأخذ خطّه، وهي وظيفة جليلة رفيعة المقدار. ولناظر الجيش أتباع بديوان يولّون عن السلطان، كصاحب ديوان الجيش وكتّابه وشهوده، وكذلك صاحب ديوان المماليك، وكاتب المماليك وشهود المماليك. فإنّ المماليك السلطانية فرع من الجيش ونظرهم راجع إلى ناظر الجيش". أنظر: القلقشندي، **صبح الأعشى**، مصدر سبق ذكره، ج.4، ص.30.

[9]- المقريزي، **كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، (2مج)، القاهرة، د. ت.**

[10] -Bernadette Martel-THOUMIAN, *Les civils et l'administration dans l'Etat mamluk (Ixe/XVe. s)*, op. cit ,p.29 .

[11]- القلقشندي، **صبح الأعشى**، مصدر سبق ذكره، ج.3، ص.565.

[12]- النويري، **نهاية الأرب في فنون الأدب**، تحقيق محمد ضياء الدين الريس، القاهرة، 1992، ج.30.

[13]- يذكر المقريزي أنّ أوّل من أنشأ الطباق هو السلطان الناصر محمّد بن قلاوون سنة 729هـ، المقريزي **الخطط**، مصدر سبق ذكره، ج2.، ص.189.

- أمّا الظاهري، فهو يرجع بناء الطباق لعهد السلطان الظاهر بيبرس المتوفّى سنة 676هـ ويذكر عددها اثنى عشر طباقا وكلّ واحدة قادرة على احتواء ألف مملوك. أنظر: الظاهري، **زبدة كشف الممالك**، مصدر سبق ذكره، ص 67.

[14] -«les eunuques tenaient une grande place dans les écoles militaires, comme dans toute la société mamelouke. L'homosexualité était très répandue et les eunuques avait la tache particulièrement lourde d'en écarter les jeunes gens qui leur étaient confi. L'eunuque était

totalement responsable de son pupille,et des liens très fort, qui duraient toute la vie, s'établissaient entre eux. Devenus des hommoes, souvent importants, ils leur manifestaient leur reconnaissance en favorisant leur ascension dans l'échelle des honneurs. Cette échelle était considérable, un eunuque, comme un mamelouk de haut rang ou un Karani intime du sultan pouvait accéder à des postes aussi importants...L'eunuque qui avait élevé un mamelouk n'était donc pas un simple precepteur. Il appartenait, lui aussi, à une élite, à une caste, comme le marchand qui avait vendu le mamelouk à son maitre, comme le mamelouk lui-même, Clot(André), *L'Egypte des mamelouks*: *L'empire des esclaves (1250—1517)*, Perin, Paris, 1996, p. 49

[15]" -Le jeune mamelouk acheté par le sultan, était placé dans une école spéciale ou il recevait l'entrainement militaire et l'instruction religieuse jusqu'à ce qu'il atteignit l'âge d'adulte et qu'il devint soldat accompli. Quand il avait terminé ses études, il était affranchi, puis il recevait l'équipement militaire et était affecté au corps des mamelouks royaux ». Ayalon (D.), *The mamluk miltary socity*, texte imprimé, collected studies, London, 1979, p213.

[16] - ابن تغري بردي (أبو المحاسن)، حوادث الدهور في مدى الأيّام والشهور، 2 مج.، تحقيق محمد كمال الدين عزالدين، عالم الكتاب، 1990.

[17] -W. Heyd, *Histoire du commerce du Levant*, I-II, Leipzig, 1923, p 555.

[18]- العريني السيد الباز، **المماليك**، بيروت، د. ت. الفصل الثاني، ص.53 وما يليها؛ ضومط أنطوان خليل، **الدولة المملوكيّة**: التاريخ السياسي والاقتصادي والعسكري، 1290-1422، بيروت، 1982، ص 294.

[19]- الحلقة لغويّا تعني كلّ شيء استدار كحلقة الحديد والذّهب والفضّة، وكذلك إذا استدارت مجموعة من النّاس. أنظر: ابن منظور، **لسان العرب**، ج.10، ص.61.

- الحلقة اصطلاحا، وردت في مصادر تاريخيّة متنوّعة بمعنى السلاح، وبمعنى الدروع كونها مصنوعة باستدارة. أنظر: ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج.6، ص.319.

[20]- ابن الأثير، **الكامل**، ج.10.

[21]- «ولكلّ أربعين نفسا منهم مقدّم منهم، ليس له عليهم حكم إلاّ إذا خرج العسكر كانت مواقفهم معه، وترتيبهم في موقفهم إليه». أنظر: القلقشندي، **صبح الأعشى**، مصدر سبق ذكره، ج.4، ص.16.

[22]- المقريزي، **الخطط**، مصدر سبق ذكره، ج.1، ص.250، ج.2، ص.2- 5.

[23]- **المصدر السابق**، ج.3، ص.355- 356.

[24]- ابن تغري بردي، **حوادث الدهور**، ص.142.

- " أجناد الحلقة، وهم عدد جمّ وخلق كثير، وربّما دخل فيهم من ليس بصفة الجند من المتعمّمين وغيرهم، بواسطة النزول عن الإقطاعات": أنظر: القلقشندي، **صبح الأعشى**، مصدر سبق ذكره، ج.4، ص.16.

[25]- أورد خليل بن شاهين الظاهري الآتي فيما يخصّ الأمراء: " كانت رتب وأعداد الأمراء كالآتي: 24 أمير مئة، 40 أمير طبلخاناه، 20 أمير عشرين، 150 أمير عشرة، و30 أمير خمسة". أنظر: الظاهري، **زبدة كشف المماليك**، مصدر سبق ذكره، ص.153.

[26]- في بداية الدولة المملوكية الأولى بلغ عدد أمراء المئة 24 أميرا ونقص إلى عشرين ثمّ إلى 18 في أواخرها. وفي العهد الجركسي، نقص عدد أمراء المئة حينا وزاد حينا آخر. ففي عهد السلطان إينال، بلغ عددهم أحد عشر أميرا وفي عهد خشقدم ثلاثة عشر أميرا. أنظر: عاشور (سعيد عبد الفتّاح)، **العصر المماليكي**، دار النهضة العربية، 1976، ص.67.

[27] - المفضّل بن أبي الفضائل، النهج السديد، نص مطبوع، القاهرة 1962، ص 93.

[28] - ابن إيّاس، بدائع الزهور، مصدر سبق ذكره، ج.1، ص 353.

[29]- المقريزي، **السلوك**، مصدر سبق ذكره؛ ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، مصدر سبق ذكره، ج.16.

[31]- الظاهري، **زبدة كشف المماليك**، مصدر سبق ذكره، ص 34.

[32]- "واستقبل السلطان بيبرس بنفسه هؤلاء الوافدية، وأنزل كبرائهم في دور أقامها لهم، أعطاهم أمريات في فرقته البحريّة السلطانيّة، ثمّ أفرد لكلّ منهم جهة أقطاعية يعيش منها، وتظاهر أولئك الوافدية بالدين الإسلامي". أنظر: المقريزي، **الخطط**، ج.3، مصدر سبق ذكره، ص.190-191.

[33]- الباز، **المماليك**، مرجع سبق ذكره، ص. 58.

[34]- القلقشندي، **صبح الأعشى**، مصدر سبق ذكره، ج.4، ص.15- 16.

الكاتب: د. متعب ماطر مطر البلادي
وزارة التعليم المملكة العربية السعودية

عنوان المقال: المؤسسات الحكومية في العهد العثماني بالطائف (1840-1916م)

البريد الالكتروني : albladi66@hotmail.co

تاريخ الارسال: 28/04/2020**تاريخ القبول**:14/05/2020**تاريخ النشر**: 30/06/2020

المؤسسات الحكومية في العهد العثماني بالطائف (1840-1916م)

Government institutions in the Ottoman era in Taif (1840-1916 AD)

ملخص:

تهدُف الدراسة إلى التعرف على المؤسسات الحكومية في الطائف في العهد العثماني الثاني (1256-1334هـ/1840-1916م)، والوقوف على مهام ومسئوليات كل مؤسسة وطبيعة تشكيلها، والكشف عن موقع الطائف الإداري على مستوى السلطنة، والتوصل إلى أسباب الصراع بين سُلطتي الإمارة والولاية وأثره على الطائف وغيرها من أبرز ما حققت الدراسة، وتقوم الدراسة على المنهج التاريخي الوصفي التحليلي، وتوصلت إلى نتائج من أهمُّها، أن الصراع بين الولاية والإمارة حول السلطات والصلاحيات هو صراع سياسي وليس صراعاً دستورياً وقانونياً، مما أدى إلى غياب الرؤية والهدف الواضح في عمل مؤسسات الإمارة والولاية، وتطور الصراع ليشمل الحياة الاجتماعية فأدى إلى انقسام المجتمع إلى قسمين بناءً على التقسيم الإداري، وفي المحصلة فشل نظام الولاية في استثمار الموارد الإمكانات الطبيعية التي تمتعت بها الطائف، ولم ينجح نظام الإمارة في رفع المستوى الاقتصادي والاجتماعي به.

الكلمات المفاتيح: الطائف – الحجاز – السلطنة العثمانية – امارة مكة – المؤسسات الحكومية – ولاية الحجاز – العهد العثماني – التنظيم الاداري – ازدواجية السلطة.

Abstract

The study aims at identifying the governmental institutions in Taif in the second Ottoman period (1256-1334 AH / 1840-1916). In Taif, among other highlights of the study, it is based on the historical descriptive analytical approach. It concluded

that the conflict between the state and the emirate over the authorities is a political one rather than a constitutional or legal one. In the end, the state system failed to exploit the natural resources that Taif enjoyed, and the emirate's system failed to raise its economic and social level.

Keywords: Taif - Al Hijaz - The Ottoman Sultanate - The Principality of Mecca - Governmental institutions - Wilayat Al Hijaz - The Ottoman Era - Administrative Organization - Dual Power.

مقدمة:

تعتبر الطائف احد أهم مدن الحجاز في العهد العثماني؛ لقربها من مكة المكرمة مركز العالم الاسلامي والعاصمة السياسية والإدارية لولاية الحجاز، والمقر الصيفي لواليها، والقاعدة العسكرية ومركز التدريب للجيش العثماني؛ لأجوائها المعتدلة صيفاً، و وقوعها في موقع استراتيجي على مفترق الطرق الي الاقاليم المجاورة كنجد وعسير، كما تُعد قاعدة جماهيرية وداعماً لوجستياً لإمارة مكة؛ نتيجة كثرة قبائلها الموالية لها.

قبعت المؤسسات الإدارية في الطائف في العهد العثماني الأول (923-1217هـ/1517-1803م)، تحت سيطرة إمارة مكة ولم يكن للسلطة العثمانية أي دور في السيطرة عليها، واكتفت ببقاء اعتبارها المعنوي كحامية للحرمين الشريفين، فشكل منصب أمير مكة مكانة سياسية واجتماعية، فبدأ الصراع علية بين الأشراف؛ لعدم وجود قانون لتداول المنصب بينهم، فأصبح الأشراف المتنافسون يسعون للسيطرة على الطائف، واستمالة قبائله للدخول في الصراع، وبالتالي أصبحت الطائف مسرحاً لصراع دموي بين القوى المتصارعة.

ولقد رأت السلطنة العثمانية في العهد الثاني (1256-1334هـ/1840-1916م)، أن نظام الإمارة الذي كان سائداً في العهد الأول لم يكن كفيلاً بالحفاظ على الحجاز، لذا قررت أن يكون لها وجود فعلي، بإدارته بأسلوب الولايات العثمانية عن طريق استحداث منصب والي الحجاز، وتحويل نظام الإدارة إلى الإدارة المركزية (البيروقراطية)، وتحويل جميع الموظفين في الولاية إلى موظفين تنفيذيين، فأصبح شكل التنظيم الإداري بالشكل الهرمي، بحيث يكون السلطان ومجلس الوزراء في أعلى الهرم، وبالتالي أصبح ولاة الحجاز يأتمرون بالأوامر التي تأتيهم من

الوزارات في إسطنبول، كالمالية والداخلية والحربية، بهدف تقليص نفوذ أمير مكة مقابل توسيع نفوذ الوالي العثماني، متلافيةً بذلك عيوب الفترة الأولى للحكم العثماني.

إن قيام السلطنة بمراجعة سياستها الداخلية في الحجاز أدى الي خضوع الطائف إلى نظاميين إداريين مزدوجين متصارعين فيما بينهما، وهما: نظام الإمارة ويعلو هرمه أمير مكة، ونظام الولاية وعلى رأسه والي الحجاز، ولكُل من النظامين أجهزته الإدارية وأهدافه الخاصة، وخططه المستقبلية المستقلة، والتي عادة ما تختلف عن الآخر، وبالتالي بقاؤهما في صراع مستمر حول السُلطات والصلاحيات، استمر ثمانية وسبعون عاماً لم تحاول السُلطات العثمانية ان تتدارك ذلك الخطأ، بل إنها فاقمته من خلال تصنيف الطائف (ناحية)[1]، فكانت الاجهزة الإدارية في الناحية ضعيفة بطبيعتها في تصنيف المدن العثمانية، علاوة على انها لا تتناسب مع مكانة الطائف العسكرية والاقتصادية، بالإضافة الي أن السلطنة لم تستطع أن تطبق عليها جميع أنظمة النواحي كبقية نواحيها[2]،

اختلفت الطائف عن بقية نواحي السلطنة العثمانية من النواحي الإدارية، فلم يكن لها أي قرى ذات تنظيم إداري يتمتع بمجلس اختياري، رغم أنها مُحاطة بعشرات القرى، ويعود ذلك إلى وضعها الإداري والاجتماعي الذي يقوم على جوانب قبلية، وبالتالي فإنها كانت مستقلة عن النظم الإدارية والمالية العثمانية، وتقع مسئولية إدارة شؤونها إلى أمير مكة، وبذلك اصبحت خارج نطاق السيطرة العثمانية، وفي المقابل كانت المدينة داخل السور تحت السيطرة العثمانية، بل وأُحكمت السيطرة عليها من خلال اتخاذها عاصمة صيفية لولاية الحجاز عام 1285هـ/1868م، فقامت الولاية بإنشاء مقرات لها، وبناء مخازن ومستودعات للمؤن والأسلحة، واتُخذت قلعة الطائف مقراً لولاية الحجاز وتم تهيئتها لتتناسب مع الإدارات والأقسام الإدارية[3]، وفيما يلي استعراض للنظامين وصلاحيات كلا منهما:

أولاً: نظام الإمارة:

أبقت السلطنة نظام الإمارة الذي كان معمولاً به منذ الفترة العثمانية الأولى، وبموجب هذا النظام يتولى الحكم في الحجاز أحد الأشراف، ويلقب باسم شريف مكة وأميرها، ويستمد سلطته من مكانته الدينية في نفوس الأهالي، وامكانياته المالية التي يحصل عليها من الضرائب وعائدات الجمارك والصرة، وتمحورت صلاحياته في الطائف على السيطرة على قبائله واخضاعها للسلطنة العثمانية، والفصل في المنازعات القبلية بينها، والوساطة بين القبائل

والسلطنة، وتصريف شؤون القبائل وأحوال السكان وحل مشكلاتهم، وتأمين طرق القوافل، والقيام بتكوين الجيش الشعبي[4] من قبائلها وجمع الزكاة منها، وتعيين بعض رؤساء المؤسسات الحكومية كالأمير والمحتسب ورؤساء الطوائف المهنية، وشيوخ القبائل والمحلات ورجال الدين من الأئمة والخطباء، ومحاسبة الأوقاف وتعيين ناظر عليها، ومن صلاحيات أمراء مكة فرض الضرائب، وممارسة القضاء وتنفيذ أحكام الشريعة، وفرض الأنظمة المستحدثة على الأهالي بأسلوب عشوائي وبدون سند قانوني[5].

لم تكن لدى أمراء مكة سياسة واضحة تجاه الشأن الداخلي في الطائف، بل متغيرة من فترة إلى أُخرى ومن أمير لآخر، حسب ما تقتضيه مصالحهم الشخصية، مستغلين في ذلك سُلطاتهم التنفيذية والقضائية فكان لهم محاكمهم وسجونهم وقواتهم العسكرية الخاصة، ولقد ساهم الولاة في ذلك من خلال عدم استماعهم لشكاوى أهالي الطائف وقبائله وآراءهم ومعاملتهم بطريقة سيئة، مما أدى إلى شعورهم بأن مؤسسات السلطنة لا تقدم لهم الخدمات المطلوبة، فأصبحت استجابتهم للولاية (السلطنة) وانتمائهم لها يضعف وروحهم المعنوية تنخفض، فسنحت الفرصة للإمارة لتكون الواسطة بين الولاية والأهالي، وأن تقوم برعاية شؤون القبائل ومصالحها، وقيادتها وتحريكها كيفما شاءت، وتسيير أمورها وتلبية متطلباتها، فأصبحوا أداة في يد الإمارة لاستخدامهم ضد الولاية، فكلما زاد التوتر بين الأمير والوالي أوعزت الإمارة للقبائل للإخلال بالأمن؛ مما وضع الوالي في موقف حرج أمام السلطنة[6]، ويتبع لأمير مكة العديد من الجهات الإدارية والمالية والقضائية في الطائف، وهي:

امير الطائف (حاكم الطائف):

يعتبر وكيلاً لأمير مكة، ويلقب بقائم مقام الإمارة بالطائف، ومن أبرز مهامه حفظ الأمن على الطرق الواصلة من وإلى الطائف في جميع الاتجاهات، بحشد الجيوش من قبائلها، والتصدي للقبائل التي تقوم بتهديد أمن الطرق، والتحقيق في القضايا الجنائية، والتفاوض والتشاور مع القبائل، وتقريب وجهات النظر بينهم وبين الإمارة، وإدارة شؤون المدينة وضواحيها، والقيام بإيقاع العقوبات على المذنبين من الأهالي والقبائل، وتعيين القضاة في الضواحي، والقيام بالقضاء بين الأفراد وبين بطون القبيلة الواحدة، وأيضًا القيام بعقد الصلح بين القبائل المتخاصمة دون القضاء بينها[7].

شكل أمراء الطائف عاملاً اساسياً في تنفيذ مصالح امارة مكة فعلى سبيل المثال قام الشريف عبدالمجيد[8] بعزل موظف الزكاة المعين من قِبل الولاية عام 1298هـ/1881م، وتعيين موظف آخر مكانه، مما استدعى قيام الوالي بإرسال رسالة احتجاج لأمير مكة، أوضح له فيها أن هذا العمل يقوم بالإخلال بالأسلوب الإداري المتبع من قِبل السلطنة، فكانت إجابة أمير مكة بأن: المصلحة تقتضي تعيين وعزل الموظف من قِبل الإمارة؛ لأن لها نصيب من هذه الزكاة، ولم يتوقف الأمر عند ذلك بل امتد الي اتخاذ اجراءات تعسفية شملت الضرب والسجن على جميع الأشخاص (الموظفين) الذين يعملون في مؤسسات الولاية[9].

إمارات القبائل:

تُعد إمارات القبائل إحدى المؤسسات الإدارية التابعة لإمارة مكة، وذلك لأن المناطق والقرى التي تقع خارج أسوار الطائف لم تكن تحت السيادة الفعلية للسلطنة العثمانية بل كانت سيادة إسميه، وكان النفوذ والسيطرة فيها لأمير مكة، الذي يعهد بشؤونها إلى أمير القبيلة، وهو أحد الأشراف الموالين له، وتركزت مهامه في جمع الزكاة من القبائل التي تقع تحت ادارته وعقد الصلح بينها، وحشدها للقتال عند الحاجة، وإيصال تعليمات الإمارة لشيوخ القبائل، وتعيين القضاة فيها، ولقد وُجهت الكثير من التهم والشكاوى على قيام أمراء القبائل باختلاس أموال الزكاة، وعند محاولة الولاية التحقيق في تلك الاتهامات، تُواجه برفض الإمارة واستنكارها؛ لأن هؤلاء الأمراء من الأشراف وتابعون لإدارتها[10].

شيوخ القبائل:

تعتبر القبيلة منظمة سياسية شديدة التماسك وعظيمة الأثر في الوضع السياسي في الحجاز، ويرأس هذه المنظمة شيخ القبيلة ويساعده مجلس مؤلف من أصحاب الرأي والخبرة والحرب، وللأسف ترك النظام العثماني القبائل خارج نطاق النظم الإدارية والمالية، فكان يعهد بشؤونها إلى أمير مكة الذي حرص على كسب ولائها بالهبات والهدايا، والتصاهر السياسي؛ فأصبح شيوخ القبائل واسطة بين قبائلهم وأمير القبيلة؛ لإبلاغهم التعليمات الصادرة من الإمارة، كما يقومون بالتعبئة العامة لأبناء القبيلة للمشاركة في جيش الأمير (الجيش الشعبي)، وحراسة القوافل وحفظ الأمن في مناطقهم، بعقد الصلح بين أفراد قبيلته، واصلاح ذات البين، مستعيناً بمجلس القبيلة[11].

شيوخ المحلات (الحارات):

أصغر منصب إداري في النظام الاداري للطائف، وعلى الرغم من أنهم يتبعون إدارياً للولاية، إلا أن إمارة مكة **انتزعت** صلاحية تعيينهم منها، ويتولى مشيخة المحلة أحد الوجهاء من أهل الرأي والدراية الاجتماعية؛ ليكون حلقة وصل بين الولاية والأهالي وممثل لهم أمامها؛ للمطالبة باحتياجاتهم، والقيام **بإعلام** سكان المحلة بكل ما يرد إليه من الأنظمة والقوانين والتعليمات الحكومية، والقيام ببعض المهام المالية كتحصيل أموال السلطنة الواجبة على سكان المحلة، والإشراف على أموال اليتامى وأملاك المتوفين الذين يسكن ورثتهم خارج الطائف، وإبلاغ مدير الناحية بالمستجدات في محلته من ولادة ووفاة، وقضايا جنائية وأمنية وحالات اشتباه في أي مرض معدي، كما يقومون بدور اجتماعي في الصلح بين أهالي المحلة، وحل مشاكلهم ومساعدة المحتاجين منهم، وتفقد أحوالهم، كما أنهم يقومون بالتفاوض مع الحارات والقبائل المجاورة وإقرار الصلح معها[12].

المحتسب:

سيطرة الإمارة على أسواق الطائف، من خلال انتزاع صلاحية تعيين المحتسب دون الرجوع لولاية الحجاز، ويقوم المحتسب بضبط الحياة التجارية والصناعية في الأسواق، وتسعير البضائع الواردة إليه، ومنع عمليات الغش والاحتكار ومعاقبة المخالفين بما يراه مناسباً، وجمع رسوم الاحتساب التي تفرض على ما يباع في الأسواق من البضائع، والقيام بالمساعدة في جمع الزكاة النقدية والعينية من الأهالي[13].

شيوخ الطوائف المهنية:

تمتع شيوخ الطوائف بسلطات واسعه تمثلت في تنظيم العلاقة بين طوائفهم والسُلطة الحاكمة، والتحدث باسم الطائفة في جميع أمورها والدفاع عنها، والعمل على حماية أفرادها من أي اعتداء، والتنسيق فيما بينها وبين الطوائف المهنية الأخرى، ولشيخ الطائفة بعض السلطات القضائية كمعاقبة المخالفين، والنظر في النزاعات بين أفراد الطائفة وبين الزبائن، والموافقة على انضمام عضو جديد للطائفة، ولقد قامت الطوائف المهنية بالمساهمة مع المؤسسات الحكومية التابعة للولاية، في تقدير ميزانيات الترميمات للمباني الحكومية، وأيضاً مساعدة المحتسب في الرقابة على الصناع، ومراقبة الأسعار، واستمراراً لنهج الإمارة في السيطرة على الحياة الاقتصادية في الطائف استطاعت انتزاع تعيين شيوخ الطوائف المهنية من الولاية[14].

الاجهزة الاعلامية:

قامت إمارة مكة بالسيطرة على الجهاز الإعلامي في الطائف وهم: العلماء وخطباء المساجد وائمتها، من خلال إصدار قرارات تعينهم وعزلهم، وبالتالي توجيههم للترويج لتوجهاتها وأهدافها وشيطنة نظام الولاية، من اجل كسب تعاطف الأهالي في صفهم، وتعبئة الرأي العام ضد الولاة وموظفيهم وطواقمهم العسكرية، مستغلين في ذلك ثقة الناس برجال الدين الذين استطاعوا صياغة خطابهم الإعلامي بقالب يتلمس مشاعر الأهالي الإيمانية؛ فكانت وسيلة فعالة؛ فغالب الأهالي أميون لا يجيدون القراءة والكتابة، ومن منهم يُجيدها لا تتجاوز إجادته للغة العربية، وفي المقابل نجد أن المؤسسة الإعلامية للولاية اعتمدت على اللغة العثمانية، وعلى الصحف التقليدية التي لا يقتنيها الأهالي؛ لضعف حالتهم الاقتصادية، وبالتالي استطاعت إمارة مكة السيطرة على الأهالي والتأثير على آرائهم الشخصية في القضايا المطروحة على الساحة، وتأجيج العاطفة الدينية لديهم، مما أدى إلى بعض المصادمات بين الأهالي والقوات العسكرية العثمانية[15].

ثانياً: نظام الولاية:

أُستحدث نظام الولاية عام 1256هـ/1840م، بجانب نظام الإمارة (الشرافة) بتعيين حاكم عسكري للحجاز من قِبل السلطنة، ويتم اختياره من كبار رجالات الجيش؛ ليجمع بين السُلطتان المدنية والعسكرية، وتدور مهامه حول القيام بتنفيذ السياسة العامة للسلطنة، وترجمة القوانين وتطبيقاتها على الواقع، وإدارة المؤسسات العامة مثل البريد والتعليم والبلدية، والمساهمة في تحقيق التنمية الاقتصادية والاجتماعية في ميادين الصحة والزراعة والتجارة والعمران، والقيام بالتخطيط والتنظيم الإداري، والعمل على استتباب الامن والمحافظة على سلامة السكان، كما تقع على عاتقه واجبات المتابعة والإشراف على المؤسسات الحكومية، ورفع التقارير عن سير أعمالها ومراقبة تنفيذ المشاريع الخدمية المنوطة بها، من خلال القيام بجولات تفتيشية، وإيقاع العقوبة على الموظفين المتخاذلين في أداء أعمالهم، وفي المقابل ترقية الموظفين المتميزين، وإعداد التقارير عن الطائف وتصرفات الأمير وما يتبعه من مؤسسات به[16].

تعتبر مدة ولاية الولاة غير كافية للتعرف على أحوال الطائف والتخطيط للعمل به، حيث أن مدة ولايتهم سنه واحدة، قابلة للتجديد لمدة ثلاث سنوات؛ فأصبح هدف بعض الولاة جمع

أكبر قدر من المال خلال فترة ولايته، والمحافظة على الوضع القائم قدر المستطاع، مما أدى إلى ضعف دورهم كممثلين للسلطان، وظهر ذلك جلياً عام 1298هـ/1880م، عندما لم يستطع الوالي حماية بعض قبائل الطائف من بطش أمير مكة عندما لجئت اليه، كما ظهر أيضاً اعتماد التخطيط على قناعات الوالي الشخصية، فعندما تعرضت أجزاء من طريق (كرا) الواصل بين مكة المكرمة والطائف للدمار قام الوالي وهيب باشا (1331-1333هـ/1913-1915م) بإصلاح الطريق عام 1332هـ/1914م، ولكن أهل الخبرة والعلم أشاروا عليه بعدم القيام بذلك، لكنه أصر، وبدأ العمل في المشروع وصرف سبعة آلاف جنية عليه ولكنه فشل؛ بسبب عدم تنفيذه وفق المواصفات والمقاييس الصحيحة؛ وأيضاً لإرسال طابور عسكري للعمل بالمشروع، فأدى ذلك إلى حدوث مشاجرات بينه وبين أبناء القبائل، مما نتج عنه توقف أعمال المشروع، وعندما هطلت الأمطار جاءت السيول فهدمت أجزاء من الطريق، وأصبح أسوأ من ذي قبل[17].

واجهت المشروعات التنموية في الطائف فشلاً في الحصول على الميزانيات من السلطنة؛ لعدم اقتناعها بجدوى تلك المشاريع والميزانيات المخصصة لها، ولسوء سمعة الولاية المالية، كما فشلت الولاية في جذب الاستثمارات (رؤوس الأموال المحلية)؛ لخوف الناس على ممتلكاتهم الشخصية، فالثروات معرضة للمصادرة من قبل أمير مكة؛ لذا كانت تنفق على بعض مظاهر احتفالات الزفاف، أو تحويلها إلى أموال منقولة عن طريق شراء الذهب والمجوهرات، والتي يمكن إخفاؤها ونقلها بسهولة، مما ادى إلى قلة فرص العمل واتساع دائرة الفقر[18]، ويتبع والي الحجاز العديد من الاجهزة العسكرية والمدنية، وهي:

اولاً: المؤسسات العسكرية

القوات العسكرية:

أولت السلطنة اهتماماً بالغاً بالتشكيلات العسكرية باعتبارها الأداة الرئيسة لبسط نفوذها في الطائف، ويأتي في مقدمتها الجيش الذي يقوم بحراسة أسوارها وفتح أبوابها، وتامين المدينة إذ يرابط على كل باب حوالي اثني عشر جندياً، عدا من يقف على الأبراج للمراقبة، ومن واجباته القيام بتنفيذ القوانين وجباية الأموال وحفظ الأمن، وتكونت القوات المسلحة من ثلاث فرق، هي: فرقة الخيالة، وفرقة المدفعية، وفرقة المشاة، وتم تزويدها عام 1290هـ/1873م، بفرقة موسيقى عسكرية، وبلغ عددها نصف كتيبة تضم 400 جندي، عدا

قوات المدفعية المتواجدة في القلعة والقلاع المجاورة المزودة بمجموعة من المدافع، بلغت اربعة مدافع هاون ومدفعين للتحصينات وبطارية ميدان[19].

لم يستطع الجيش أن يحقق السيادة العثمانية على ضواحي الطائف، فكان يقف فوق أسوار الطائف وخلف حصونها وفي معسكراتها؛ من أجل حماية المدينة فقط، ولا تجرؤ على المخاطرة والتوغل داخل الضواحي إلا نادراً، لأن عدته وعتاده لم تكن تكفي لذلك، بالإضافة الي أن العائد من التوغل بها أقل بكثير من النفقات اللازمة لنقل الجنود وتدريبهم وتجهيزهم لخوض الحرب، وبالتالي أصبحت تلك الضواحي والقرى خاضعة لإمارة مكة وتحكمها حكماً مباشراً[20].

أما القوات العسكرية الأخرى فهي قوات الأمن الداخلي، التي انقسمت إلى قسمين هما: تشكيلات الضبطية: (البوليس) التي أُنشئت في الحجاز عام 1288هـ/1871م، بموجب قانون الضبطية الصادر عام 1286هـ/1869م، وعادة ما يكون مدير الضبطية في الطائف برتبة يوزباشي[21]، وتدور مهام الضبطية في المحافظة على أرواح وأموال وأعراض الأهالي، وحفظ الأمن والسكينة في المدينة، وملاحقة المطلوبين من قطاع الطرق واللصوص وضبطهم وتسليمهم للقضاء، وإطفاء الحرائق، وحراسة الدوائر الحكومية وجميع المرافق العامة، وتنفيذ أحكام القضاء، ومساعدة الجهات الحكومية في جباية أموال السلطنة، ومراقبة النظافة العامة في الشوارع، وفرض الغرامات المالية على المخالفين من أصحاب البيوت والمحلات التجارية، وحظي بوليس الطائف بعناية من والي الحجاز تقي الدين باشا (1291-1294هـ/1874-1877م) الذي قام عام 1294هـ/1877م، ببناء مقر له، وحظي أيضاً باهتمام أمير مكة عون الرفيق (1256-1323هـ/1841-1905م) الذي قام بتجديد المقر بحيث يستوعب خمسين جندياً مع المغاسل وغرفة الضابط وذلك عام 1302هـ/1884م[22].

أما القسم الأخر من قوات الأمن الداخلي فهي تشكيلات الجندرمة (الشرطة العسكرية)، التي ظهرت منذ زمن مبكر وكانت تُعرف باسم القوة الحميدية، وتعتبر قوات احتياط ورديف للجيش، وهي قوات غير منظمة، ولم تكن تتلقى تدريباً لائقاً ليتسنى لها القيام بواجباتها على الوجه الأكمل، ورواتب جنودها ضئيلة، ويبدو من خلال الوثائق والسجلات أن مهمتها في الطائف اقتصرت على حراسة الدوائر الحكومية ومرافقة الموظفين الحكوميين أثناء تأدية

أعمالهم، ولقد أثرت الأزمات المالية التي أصابت السلطنة على تلك القوات، مما أجبر بعض جنودها على رهن أسلحتهم حتى يتمكنوا من الحصول على مئونتهم[23].

السجن:

يقع في قلعة الطائف وهو عبارة عن بناء من طابقين من الحجر، ويوجد بالطابق الأرضي غرف الحبس وغرف للحراس، كما خُصصت الغرف العلوية للمساجين، ولقد سجن فيه الكثير من السياسيين والمنفيين والعسكريين، ولم تُهمل السلطنة أوضاعه فكانت عادةً ما تطلب تقارير عن أحوال السجن والمساجين، وبشكل تفصيلي بأعدادهم ونوعية جرائمهم[24].

ثانياً: المؤسسات المدنية

ناحية الطائف:

تعد ناحية الطائف احدى أهم المؤسسات الإدارية المرتبطة مباشرة بولاية الحجاز، ويمثلها مدير الناحية الذي حُددت مهامه في نشر القوانين والأنظمة التي تصدرها السلطنة، والإشراف على قيد المواليد وإعلانها، وإجراء التحقيقات حول الوفيات والجنايات بالتعاون مع أمير الطائف، كما أن من مهامه رفع التقارير الدورية عن الحالة الأمنية لوالي الحجاز، والقبض على المجرمين، والتحقيق في الشكاوى التي تُقدم إليه بحق المؤسسات الحكومية وموظفيها، واتخاذ الإجراء المناسب تجاهها، والاستعانة بالقوات العسكرية لفرض الأمن، وتحصيل الإيرادات الخاصة بالناحية، والحضور عند بيع تركات المتوفيين الذين ليس لهم ورثة؛ من أجل استلامها وايداعها بيت المال، وكذلك القيام بجمع التبرعات النقدية، ومساعدة المحتسب في جمع الزكاة من الأهالي، والإشراف على تنفيذ المشاريع الخدمية كتسوية الطرق وإصلاحها، والحفاظ على أمن وسلامة الطرق من كل ما يعترها من أخطار، ومنع الناس من التعدي عليها[25].

يُساعد مدير الناحية في أعماله كادر إداري يتكون من مجموعة من الموظفين، ومنهم: نائب مدير الناحية والذي عادةً ما يكون من العلماء؛ لكي يُقدم المشورة لمدير الناحية في الأمور الشرعية، ولقد تولى هذا المنصب بعض قضاة الطائف ومنهم: احمد الدده (1300-1304هـ/1882-1886م)، ومحمد حسن مصطفى الدده (1306-1307هـ/1888-1889م)، وبكر كمال (1308-1326هـ/1890-1922م)، كما يساعده كاتب يتولى جميع الأعمال الكتابية المتعلقة بالناحية من إصدار الخطابات وأوامر الإحضار، وتوريد الخطابات التي ترد إلى الناحية من الجهات الأخرى في السجلات، وتصنيفها وترتيبها في الملفات[26].

إن لناحية الطائف مجلس إدارة يقوم بمراقبة أعماله لضمان جودتها، وهو بمثابة الهيئة الاستشارية التي تقدم العون لمدير الناحية في أداء مهامه، ويتألف المجلس من مدير الناحية، ونائبه، ومأمور المالية، وبعض الأهالي الذين يرشحهم أمير مكة، ولقد أُنشئ المجلس عام 1300هـ/1882م، وتتمحور مهامه في جمع التبرعات والإعانات وتوزيعها على الفقراء، وإنشاء الطرق بين القرى ومركز الناحية وتزويدها بالاستراحات، والاهتمام بالمنشآت المتعلقة بالزراعة والري ومجاري السيول والعيون، والعمل على تطوير الصناعات اليدوية، وتسويق المنتجات المحلية ورعاية الثروة الحيوانية، ومتابعة إيرادات ومصروفات الناحية، ورفع التقارير الدورية إلى الوالي عن الأحوال الاجتماعية والأمنية التي ناقشها المجلس في اجتماعاته، وعلى الرغم من ذلك سُجلت ملاحظات على ناحية الطائف، ومنها، عدم استجابته لمطالب الأهالي المتعلقة بسلامة الطرق بين القرى؛ لأن أعضاءه يتم تعيينهم من قِبل الولاية، وفي التقسيم العرقي للمجتمع هم من رعايا الإمارة، وبالتالي هم معرضون للعقاب والعزل من الأمير في حال موافقتهم على قرار يخالف سياسة الإمارة وتوجهاتها[27]، فأصبح المجلس عديم الفائدة.

البلدية:

أُسست بموجب الإصلاحات الإدارية التي أقرتها السلطنة ضمن نظام الولايات، وذلك بعد صدور قانون البلديات عام 1294هـ/1877م، والترخيص بتشكيل الدوائر البلدية في مراكز النواحي عام 1304هـ/1886م، ولقد تأخر تأسيس أول بلدية في الحجاز حتى عام 1326هـ/1908م، وتعتبر البلدية أكبر قطاع حكومي يُشرف على الطائف، في جميع نواحيه المختلفة من حيث المباني والمشاريع، والطرق والأرصفة ومجاري المياه، والكشف على المباني المراد إنشاؤها أو ترميمها أو الآيلة للسقوط، واستخراج تصاريح الأبنية، والإشراف على عمليات البناء، وتوسيع الطرق وتنظيمها وإنشاء سواقط المياه، والمحافظة على نظافة المدينة، وتزيينها وتنويرها وإظهارها بالمظهر اللائق، وحماية المستهلك وذلك بتنظيم الأجور وعمل تسعيرات للمواد الغذائية وأجور النقل، كما أُسندت إليها مراقبة الصحة العامة لما يقارب من 200 محل تجاري، وعشرة محلات للقصابين وتسعة أفران للخبز، وحمام، وأيضاً تسجيل المواليد والوفيات والقيام بتعداد السكان، كما أن لها دوراً اجتماعي تمثل في تربية الأطفال الأيتام والعميان والخرسان والفقراء، ومنع تجول الحيوانات داخل المدينة، ويتبع لبلدية الطائف مسلخين تكمن مهمتهما في توفير الطرق السليمة للتخلص من المخلفات، والتأكد من

سلامة الذبيحة من الأمراض السارية والمعدية، وتعقيمها إذا ظهر فيها مرض يمكن تعقيمه، والتخلص من اللحوم التي يثبت بأنها غير صالحة للاستهلاك الآدمي[28].

ولقد وضعت السلطنة موارد مالية للبلدية تؤمن لها مصادر دخل على هيئة رسوم تستوفى من تراخيص البناء، والغرامات النقدية التي تُفرض على مخالفي النظام البلدي، بالإضافة إلى إيرادات الحلقات (الأسواق)، وما تقدمه الشخصيات الاجتماعية من تبرعات، وأيضا الرسوم التي تُؤخذ من أصحاب المحلات التجارية، وبعض أرباب المهن مثل رسوم التخريجية[29] والابواب[30]، ولم تكن تستثمر تلك الايرادات بالشكل المطلوب بسبب عدم تطبيق الأنظمة والتعليمات بالشكل الصحيح، حيث أن دفاتر المصاريف والواردات اليومية كانت تُسجل كل شهر، والإعانات الحكومية لم تكن تصل إلى مستحقها، بالإضافة الي تعسف البلدية في تنفيذ بعض الانظمة، مما ادى الي رفض الأهالي تطبيق تعليماتها، ومنها، ما حدث عام 1329هـ/1911م عندما قامت قبائل الطائف بمنع وصول المواد الغذائية إلى سوق المدينة احتجاجاً على فرض البلدية رسوماً على الدواب[31].

الاتصالات الادارية:

اعتمد النظام الإداري في الحجاز على النظام البيروقراطي، ويغلب على هذا النظام كثرة الاتصالات؛ من قطبي الإدارة في الحجاز الوالي والأمير إلى السلطان، وهذا يتطلب نظام اتصال فعال، فبدأت السلطنة باستخدام البريد عام 1286هـ/1869م، حيث تكون مكتب البريد في الطائف من رئيس المكتب (مأمور البوسطة)، ونائبه وبائع الطوابع ومأمور البريد المسجل والعادي، ويتم نقل البريد مرتين في الأسبوع، ينقل خلالها معاملات المؤسسات الحكومية إلى مراجعها في مكة المكرمة والعكس، ومع مرور الزمن أدركت السلطنة أهمية سرعة الاتصالات في تعزيز سيطرتها على ولايتها، فأخذت بالعمل بوسائل وأساليب التقنية الحديثة؛ فبدأت في إنشاء البرق؛ من أجل المتابعة والسرعة في اتخاذ القرارات حيال القضايا التي تنشأ في ولاية الحجاز، وتحسين مستوى تحكم الإدارة المركزية في اسطنبول[32]،

قامت السلطنة بتأسيس دارة البرق في الحجاز وربط مكة وجدة والطائف بشبكة واحدة، وتم مد خط البرق من مكة إلى الطائف عام 1301هـ/1883م، وتم الانتهاء منه عام 1302هـ/1884م، حاولت إمارة مكة إفشال المشروع، من خلال الايعاز للقبائل برفض مد خط التلغراف عبر أراضيها؛ لخوفها من ان يدعم هذا الخط سُلطة الولاية، وزيادة نفوذ السلطنة

على الطائف، بحيث يصبح الوالي على اتصال مباشر من مقره الصيفي بالباب العالي، وفي واقع الأمر انعكس ذلك إيجاباً على الطائف حيث ساهمت في سيطرة السلطنة عليها، بوصول الأوامر من اسطنبول مباشرة في الوقت المناسب، ومن زاوية أُخرى قدمت خدمة كبيرة للأهالي تمثلت في سرعة الإبلاغ عن ثبوت دخول شهري رمضان وشوال، ولقد تشكلت إدارة البرق من مدير الإدارة ومفتش ومدير مكتب التلغراف، وفريق صيانة يقوم بمراقبة وصيانة خطوط البرق[33].

القضاء:

تُعد السلطة القضائية من أهم السلطات الثلاث في السلطنة، فمن خلالها تُصان الحقوق ويُنشر العدل بين الناس، وقد خضع الجهاز القضائي في الحجاز لإشراف شيخ الإسلام من الناحية الفنية، وللوالي من النواحي الإدارية والمالية، مستمدة مصادرها التشريعية من القرآن والسنة النبوية، واعتمدت على المذهب الحنفي وهو المذهب الرسمي للسلطنة، واشتملت صلاحيات المحكمة الشرعية في الطائف على النظر في الأحوال الشخصية، والقضايا الاجتماعية والإدارية، والاقتصادية، والنظر في شؤون الأوقاف، والأيتام والولاية والوصية والإرث، وعزل الوصي ونصبه، والدعاوى المتعلقة بالنكاح والافتراق والمهر والنفقة، والنسب والحضانة وتحرير التركات، وتسجيل الوكالات، ووثائق تحرير الرق، والوصايا والإيجار والبيع وغير ذلك من سائر الإجراءات الحقوقية، ويُعد تحري رؤية الهلال وحث الناس على التراثي، وإثبات الرؤيا وسماع الشهود والمزكين وإعلام الأهالي، ومرافقة الحملات العسكرية، من المهام الاساسية للقاضي[34].

استعانت المحكمة بلجان إدارية مساعدة من المهنيين وأرباب الخبرة من خارج الجهاز الإداري لها، للمساهمة في إعطاء رؤية واقعية للعقارات المراد الحكم عليها، واصدار الحكم الشرعي الصحيح فعلى سبيل المثال استعانت بمهندس البلدية ومقاولي البناء للكشف على البيوت الخربة، وتقدير تكلفة ما تحتاجه من تعمير وإصلاح، كما استعانت بالدّلال للقيام بالإعلان عن وضع عقار بالمزاد العلني وبيع التركات، وتقوم ميزانية المحكمة على الرسوم التي يتم تحصيلها من الأهالي الذين يلجأون إليها، للحصول على استحكام أو وصية وغيرها، حيث كانت السلطنة تبحث عن موارد مالية للقضاة؛ لزيادة رواتبهم من أجل حياة كريمة[35].

المؤسسات التعليمية:

اهتمت السلطنة بالتعليم في الطائف من أجل استثمار راس المال البشري في بناء مؤسساتها الإدارية، فالإنسان هو الركيزة الأساسية التي تُبنى عليها المؤسسات الحكومية، وهو العنصر الأساس لأداء الأعمال وتحقيق الأهداف، فكلما ارتفع مستوى التعليم والثقافة والخبرات نتج عنه عناصر بشرية مؤهلة لتولي الوظائف العامة، وبالتالي جهاز إداري قادر على إنجاز الأعباء المُوكلة إليه بكفاءة، فقامت السلطنة بإنشاء المدارس، وقمسيون للمعارف[36] عام 1329هـ/1911م؛ من اجل إعداد جيل من الموظفين المؤهلين للعمل في المؤسسات الحكومية، يتم تعليمهم وتدريبهم على المعارف والمهارات الأساسية المطلوبة لشغل الوظائف، ومنها، اللغة العثمانية، وأصول مسك الدفاتر[37].

عانت المؤسسات التعليمية في الطائف من بعض المشكلات الإدارية، ولقد واجهت الولاية ذلك بالخصم من مرتبات المعلمين، والقيام بزيارات ميدانية مفاجئة للمدارس، ومناقشة مشكلاتها مع معلميها، ولكن تلك الاجراءات لم تؤدي الي تحقيق المؤسسات التعليمية هدفها المرجو منها؛ نظراً لتخوف الأهالي من البرامج التعليمية التي تُقدمها؛ والاتجاه النفسي العام للمجتمع بالعمل في مهنة الأب، أو الأعمال الحرة، ولذا أصبحت الولاية في أخر عهدها تعتمد على المتقاعدين في تسيير أمور مؤسساتها الإدارية، كما كانت تستعين بالجنود والمتسولين كأيدي عاملة للعمل في مشاريعها[38].

تقييم أداء المؤسسات الحكومية في الطائف:

إن السُلطة في إقليم الحجاز تتميز بخاصية يندر وجودها في الولايات العثمانية، ألا وهي وجود نوعين أو نسقين من السُلطة، وهما السُلطة القانونية التي يمتلكها أصحاب الإدارة العليا (الولاية)، والمُستمدة من الهيكل الهرمي للتنظيم، أما النسق الأخر فهو السُلطة (الشرعية) التي يمتلكها أمراء مكة (الإمارة)، وهذه الازدواجية في السلطة مصدرها مجموعة من الخصائص والصفات التي تميز بها الإقليم عن بقية الأقاليم، فأصبحت تخلق وضعاً معقداً على جميع النواحي داخل هذا التنظيم، بفعل التقاطع والاصطدام بين هاتين السلطتين.

إن ازدواجية السُلطة في النظام السياسي ظاهرة طبيعية، اذ يتقاسم الأمير والوالي السُلطات التنفيذية على افتراض تعاونهما وتكاملهما في القيام بالمهام، والاختصاصات الموكلة لهما حسب تعليمات السلطنة، ولكن برز في هذا النظام صعوبة توزيع السُلطات بين الطرفين وبخاصة في المسائل التي تتقاطع فيها الأدوار بينهما؛ لأن مهام وامتيازات أمراء مكة غير محددة من جانب

السلطنة، وقرارات تعيينهم لم تحدد ذلك، وليس بها أي قيود أو شروط تتعلق بمهامهم ومسؤولياتهم، وبالتالي قام الأمراء بتوسيع نفوذ إمارتهم بالقدر الذي يشاءون، يقابله عدم اهتمام بعض الولاة بذلك، ومن قام منهم بمحاولة تحديد مهامهم وتحجيم نفوذهم كان مصيره العزل، وهنا لابد من بيان أن السياسة العثمانية في الحجاز لم يحكمها قانون مكتوب في إطار سياسي أو إداري، بل قوة أحد الطرفين في مقابل ضعف الطرف الآخر في بسط نفوذه وسيطرته على الولاية[39].

إن اختصاص أي من السُلطتان بوظيفة معينة لا يعني تمتعها بسُلطة مطلقة، ولا أن تنعزل عن الأخرى، بل من الواجب أن تقوم كلاً من السُلطتان بوظيفتهما المسندة إليهما دون التعدي على سُلطة الأخرى، مع إتاحة المجال للسُلطة الأخرى للرقابة عليها أثناء ممارسة صلاحياتها[40]، وفي الواقع يوجد بعض الصلاحيات لإمارة مكة تُنفذ بمشاركة الولاية فمثلا تنصيب أمراء الطائف والقبائل، وشيوخ القبائل والمحلات، ولكن إمارة مكة انتزعت صلاحية تعيينهم مباشرة دون الرجوع للولاية، بأسلوب فرض الأمر الواقع تحقيقاً لمصالحها، وليس بهدف التطوير أو زيادة فاعلية وكفاءة تلك المؤسسات.

أدت الازدواجية في النظام الإداري إلى انقسام الأهالي إلى قسمين، قسم يمثلون رعايا الإمارة وهم القبائل وجميع الأهالي الذين يخضعون لسُلطة الأمير، وليس للولاية سُلطة عليهم، أما الأتراك والأرناؤوط فهم رعايا الولاية وليس للأمير سُلطة عليهم، لدرجة أنه عندما تكون هناك خصومة بين أمير مكة وأحد رعايا الولاية فإن الأمير يكون عاجزاً عن القيام بانتزاع حقة، ويكتفي باللجوء للمحكمة الشرعية للمطالبة بحقوقه، فنجد أن الأمير الحسين بن علي (1270-1350هـ/1854-1931م) عام 1331هـ/1913م، رفع دعوى قضائية في محكمة الطائف على يوسف أغا قوت خادم الحرم المكي الشريف للمطالبة بدين لمورثته عمته رقية بنت الحسين[41]. ولكن اتسعت دائرة الازدواجية والصراع حتى أصبحت على مستوى المؤسسات الأمنية فاصبح لكل وأحد منهما مؤسساته الأمنية والقضائية، فإذا ألقى الجنود الأتراك القبض على أحد المجرمين أُخذ إلى الشرطة ثم إلى سجن الولاية، بينما إذا ألقي البياشة[42] القبض على آخر، أُحضر إلى الأمير ثم إلى سجن الأمار، وبالتالي يكون الحكم من الجهة التي ألقت القبض على المُتهم، وكل جهة لها تسلسلها الهرمي الخاص بها دون تداخل أو تنسيق بين الجانبين، فكان أهالي الطائف عادة يلجئون إلى الأمير لضعف نفوذ الوالي فيها، ولهم تجارب

فاشلة في اللجوء إليه، وعدم قدرته على حمايتهم، علماً بأن هناك قواعد يتم مراعاتها في هذا الصدد، فقد جرى العرف أن ينظر الأمير في المسائل التي يكون فيها أحد الأطراف من الأشراف أو من القبائل أو من مواليد الطائف على أن لا يكون تركي الأصل[43].

والجدير بالذكر ان لتلك الصراعات اثر على الدور التنموي لمؤسسات القطاع الحكومي وخدماتها، بحيث افتقدت تلك المؤسسات لأجهزة مراقبة ومتابعة الأداء؛ لكشف المخالفات الإدارية، ومعرفة أسبابها واقتراح الحلول الممكنة لها، والتحكم في ممارستها الإدارية، مستندتاً إلى الأنظمة والقوانين، لذا قام بعض الولاة بهذا الدور مستندين إلى سُلطتهم القانونية التي استمدوها من الدستور، من خلال القيام بفرض العقوبات المنصوص عليها نظاماً بحق المخالفين، بهدف تحقيق رقابة فاعلة على أموال السلطنة، ومتابعة أداء المؤسسات لمسئولياتها والتنسيق بين جهودها[44]، ولكن لم يستطع الولاة متابعة المخالفات المالية والإدارية في المؤسسات التابعة للإمارة، -التي لم تتضمن آليات للمساءلة والرقابة الداخلية- بل واجهوا صدام عنيف مع الأمراء فكانت متابعتهم ومسالتهم للقضايا التي تمس مؤسسات الإمارة غير فاعلة، وتؤدي في نهاية المطاف إلى عزل الوالي[45]، حتى أنه في عهد الأمير الواحد يتم عزل ما بين ثلاثة إلى أربعة ولاة. وفي ذات السياق فإننا نجد أن هناك فراغاً رقابياً تجاه قطبي الإدارة، وهما: الوالي والأمير، فعند ارتكابهما مخالفات مالية أو إدارية، لم يكن في الحجاز جهاز رقابي مستقل يقوم بمحاسبتهما وإبلاغ السُلطان.

خاتمة:

تكمن أهمية الدراسة في كونها تكشف جانباً من جوانب التاريخ الإداري للطائف، التي تمثل فلسفة النظام السياسي العثماني ونظرته إلى مؤسسات الحكم، والكيفية التي تعمل بها لإشباع حاجات المواطنين وتقديم الخدمات ذات النفع العام.

إن ازدواجية السُلطة التي اتسم بها الطائف، لا تشكل نادرة في الأنظمة السياسية، ولكن السلطنة لم تحدد صلاحيات كل سُلطة والصلاحيات المشتركة بينهما لضمان تعاونهما وتكاملهما، وعدم تعدي سُلطة على أُخرى، ومن انعكاسات تلك الازدواجية عدم الاتفاق على الرؤى والاهداف، وغياب استراتيجية عمل وبرامج موحدة تجمع بين الإمارة والولاية، فالخلافات التي وقعت بين الأمراء والولاة كان ورائها الكثير من الخلافات الإدارية والإجراءات

التشريعية والتنفيذية؛ من أجل حصول كل منهما على مزيد من السُلطات والصلاحيات، وأدت تلك التطورات إلى أن أصبح هناك حكومتان تعملان في منطقة جغرافية واحدة.

تعددت المؤسسات الخدمية في الطائف، التي يكون نشاطها موجهاً لتقديم خدمات ذات نفع عام، ويعتبر أمر تحقق عوائد ربحية من هذه المؤسسات هدفاً ثانوياً، على الرغم من أنه يعزز من قدرة هذه المؤسسات على تغطية بعض نفقاتها، ورفع مستوى أدائها، ولكن الطائف افتقدت للمؤسسات الإنتاجية، التي يكون نشاطها مزاولة أنشطة اقتصادية وإنتاج سلع معينة؛ بهدف تحقيق عوائد بأقل التكاليف، رغم ما حباها به الله من طبيعة ساحرة، وانتاج زراعي وحيواني مميز، وقد يعود السبب في ذلك لغياب الوعي والفكر الاستثماري لدى الولاة في تلك الفترة، وعدم إفادة السلطنة بتقارير عن البيئة الاستثمارية الخصبة به، التي تتيح لمتخذ القرار في اسطنبول من وضع تصور وتخطيط لاستثمار ذلك.

نستنتج من ذلك عدم نجاح السياسة الإدارية العثمانية في الطائف؛ ويعود ذلك إلى عدة أسباب، منها، ازدواجية الحكم ما بين الأمير والوالي، وتداخل الصلاحيات بينهما، واختلافهما حولها، وأيضاً الفساد الذي أصاب الطبقة العليا من الموظفين، ورغبتهم في الحصول على أكبر ربح مالي، وعلى العموم يمكن تلخيص تاريخ تلك الفترة السياسية بالتنافس المستمر بين سُلطة الولاة وسُلطة الأمراء فكل من الطرفين يحاول بقدر الإمكان سلب صلاحيات الآخر، ولكن دون صدام مباشر، فكانت الكفة تميل إلى الأقوى، وفي العادة تكون الغلبة للأمراء الذين يسيطرون على القبائل والأهالي.

---

[1] أُستخدم لفظة (ناحية) في اللغة العثمانية للدلالة على منطقة معينة تتميز بخصائص جغرافية، وبشرية تجعل منها وحدة متميزة عن بقية المناطق المجاورة لها، أو للدلالة على مجموعة من القرى والمزارع.

[2] الدستور، ترجمة نوفل افندي نعمة الله، مراجعة خليل أفندي الخوري، م2 (بيروت: المطبعة السورية، 1301هـ) ص58-61. سالنامة الدولة العلية العثمانية، إسطنبول، لعام 1266هـ، ص89. بيات، فاضل، الدولة العثمانية في المجال العربي دراسة تاريخية في الأوضاع الإدارية في ضوء الوثائق والمصادر العثمانية حصرًا (مطلع العهد العثماني – أواسط القرن التاسع عشر)، ط1، (لبنان: مركز دراسات الوحدة العربية، 2007م) ص63.

[3] صحيفة حجاز،(مكة المكرمة: مطبعة الولاية، 1908-1915م) ع143، 11/ربيع الاول/1332هـ صابان، سهيل، مراسلات الباب العالي إلى ولاية الحجاز في الأرشيف العثماني دفتر العينات رقم 873 (1283-

1291هـ/1866-1875م)، (الرياض: جامعة الملك سعود، 1431هـ=2010)144-145. دارة الملك عبدالعزيز، الوثائق العثمانية، رقم السجل 26254، وسجل 33164. الأرشيف العثماني، تصنيف Y.PRK.UM 6/31. (دارة الملك عبدالعزيز بالرياض والأرشيف العثماني - أرشيف رئاسة مجلس الوزراء بإسطنبول- هيئتان تهتمان بالوثائق التاريخية، ولقد استطاع الباحث الحصول على مجموعة من الوثائق العثمانية غير المنشورة)، سالنامة ولاية الحجاز، مكة المكرمة: مطبعة المبرية، ع3، س 1305هـ، ص87. الدستور، المصدر السابق، م1، ص397. صبري، أيوب، مرآة جزيرة العرب، ترجمة أحمد فؤاد والصفاصافي احمد،،ج1(الرياض: دارة الملك عبدالعزيز، 1403هـ=1983م) ص19.

[4] تجنيد عدد من القبائل لمحاربة العدو المشترك من القبائل الأخرى، ويعتمد انضمام القبائل لهذا الجيش على مكانة أمراء مكة وقدراتهم المالية، ولم يكن للولاة أي سلطة عليه، ويتم الاستعانة بهذا الجيش لقلة القوات العسكرية النظامية، ولعدم كفاية أعدادها، ولعدم إجادتها أسلوب الكر والفر الذي تتبعه القبائل.

[5] بيت المال، مصدر سابق، ص284. دحلان، أحمد زيني، خلاصة الكلام في أمراء البلد الحرام من زمن النبي ﷺ إلى وقتنا هذا بالتمام، ط1 (مصر: المطبعة الخيرية، 1305هـ)، ص 364. هورخرونية، ك سنوك، صفحات من تاريخ مكة المكرمة، ترجمة: علي الشيوخ، علق عليه: محمد السرياني و معراج مرزا (مكة المكرمة: مركز مكة التاريخي، 1432هـ). م1، 295. وثيقة محلية رقم 109، بتاريخ 1271هـ جارشيلي، إسماعيل حقي أوزون، والي وقائد عام الحجاز عثمان نوري باشا يعزل أمير مكة الشريف عبدالمطلب بفرمان مزور، ترجمة صالح سعداوي، مجلة مؤته للبحوث والدراسات، المجلد الثامن، العدد الأول (1993م)، ص108-109. الأرشيف العثماني، تصنيف BEO 3942/295584. بيت المال، أحمد أمين، النخبة السنية في الحوادث المكية، تحقيق حسام مكاوي (د.ن، د.م، د.ت) ص139. وثيقة محلية رقم 104، بتاريخ 3/شوال/ 1278هـ، (الوثائق المحلية: هي مجموعة من الوثائق التي جمعها الباحث من أهالي الطائف، وسيعبر عنها بعد هذا بالوثائق المحلية).

[6] دارة الملك عبدالعزيز، الوثائق العثمانية، رقم السجل: 16295. الأرشيف العثماني، تصنيف: Y.MTV 24/26.

[7] وثيقة محلية، رقم 115، بتاريخ 16/جمادى الآخرة/1279هـ الأرشيف العثماني، تصنيف Y.PRK.ZB 5/42. بيت المال، مصدر سابق، ص240. الحضراوي أحمد محمد، تاج تواريخ البشر وتتمة جمع السير، مكة المكرمة، معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي، 122 نسخه مصورة.، ج2، ص15.

[8] لم يجد الباحث له ترجمة.

[9] دارة الملك عبدالعزيز، الوثائق العثمانية، رقم السجل 17958، و17637، و 17958. الأرشيف العثماني، تصنيف YPRK.UM 4/40، Y.PRK.ASK 21/1. جارشلي، إسماعيل حقي، أشراف مكة المكرمة وأمراؤها في العهد العثماني، ترجمة خليل مراد، ط1 (بيروت: الدار العربية للموسوعات، 2003م)، ص63.

[10] وثيقة محلية، رقم 114، عام 1268هـ ورقم 112، وتاريخ 7/جمادى الآخرة/1270هـ، و رقم113، بتاريخ 28/ذو القعدة/1344هـ دحلان، مصدر سابق، ص313. هورخرونية، مصدر سابق، م1، ص301-302.

[11]الحضراوي، مصدر سابق، ج2، ق16، وثيقة محلية، رقم 102، عام 1284هـ اوكسنولد، وليم، الدين والمجتمع والدولة في جزيرة العرب الحجاز تحت الحكم العثماني 1840-1908م، ترجمة: الدكتور عبدالرحمن سعد العرابي، ط1 (جدة: مركز النشر العلمي جامعة الملك عبدالعزيز، 1431هـ=2010م) ص50.

[12] وثيقة محلية رقم، 108، عام 1342هـ ورقم 109، عام 1271هـ اوكسنولد، مرجع سابق، ص187. الدستور، مصدر سابق، ص409.

[13] دارة الملك عبدالعزيز، الوثائق العثمانية، رقم السجل 27657، الأرشيف العثماني، تصنيف I.MV 24373. بيات، مرجع سابق، ص70.

[14] سجل محكمة الطائف لعام 1331-1332هـ، ق 24،67(سجل محكمة الطائف: عبارة عن سجلان يشمل الأول الفترة مابين 1292-1294هـ/1875-1877م، والثاني فيمثل الفترة مابين عامي 1331-1332هـ/1913-1914م، وسيعبر عنهما بعد هذا بـ سجل محكمة الطائف). الأرشيف العثماني، تصنيف: DH.MKT 2039-95. جارشيلي، والي وقائد عام الحجاز عثمان نوري باشا يعزل أمير مكة الشريف عبدالمطلب بفرمان مزور، ص109.

[15] دارة الملك عبدالعزيز، الوثائق العثمانية، رقم السجل: 17328. الأرشيف العثماني، تصنيف BEO 4020/301483، وتصنيف: Y.E.E 88/47. دحلان، مصدر سابق، ص317-318. سجل محكمة الطائف لعام 1331-1332هـ، ق 136،6. بيت المال، مصدر سابق، ق207.

[16] دارة الملك عبدالعزيز، الوثائق العثمانية، رقم السجل 209403. صحيفة حجاز، ع 60، 12/شعبان/1332هـ، و ع156، 29/جماد الثاني/1332هـ الدستور، مصدر سابق، م1، ص398،629،627-401.

[17] الزركلي، خير الدين، ما رأيت وما سمعت، (د.م، د.ن، د.ت)، ص38. صحيفة حجاز، ع 158، 11/رجب/1332هـ، و ع124، 12/جمادى الأولى/1331هـ، و ع154، 29/جمادى الثانية/1332هـ هورخرونية، مصدر سابق، م2، ص671-672. بيت المال، مصدر سابق، ق195.

[18] الأرشيف العثماني، تصنيف: 1151/85, 1156/20, 1151/76, 1152/2 MF.MKT. بيت المال، مصدر سابق، ص 142، 207.

[19] اوكسنولد، مرجع سابق، ص49. الدستور، مصدر سابق، م1، ص629.

[20] دولتشن، عبدالعزيز، الرحلة السرية للعقيد الروسي عبدالعزيز دولتشن إلى الحجاز سنة 1898-1899م، ط1(بيروت: الدار العربية للموسوعات، 2008=1428هـ) ص150-151. الأرشيف العثماني، تصنيف I.DH 628/43656. فيلبي، هاري سانت جون، قلب الجزيرة العربية، الطبعة الأولى، ترجمة صلاح علي محجوب،

مراجعة فهد السماري ومحمد الخضيري وعبدالله المنيف وعبدالرحمن الشقير، (الرياض: مكتبة العبيكان، 1423هـ=2002م)، ج1، ص294. بيت المال، مصدر سابق، ص129.

[21] رتبه عسكرية عثمانية تعادل حالياً رتبة نقيب.

[22] الأرشيف العثماني، تصنيف Y.PRK.TKM 8L25. دارة الملك عبدالعزيز، الوثائق العثمانية، سجل 17390. الدستور، مصدر سابق، م2، ص676، 734-740.

[23] أوكسنولد، مرجع سابق، ص262،248. سجل محكمة الطائف لعام 1331-1332هـ، ق 6. الدستور، مصدر سابق، ص757.

[24] دارة الملك عبدالعزيز، الوثائق العثمانية، رقم سجل 6965، وسجل 191973. الأرشيف العثماني، تصنيف DH.KMS 21/54, DH.MB.HPS 151/4, 3/36, DH.UM.MKT 70/40, DH.EUM.MEN 8/28.

[25] الأرشيف العثماني، تصنيف DH.EUM.EMN 29/4. وتصنيف: Y.E.E. 21-43, Y.EE 16/12. صحيفة حجاز، ع 158، 11/رجب/1332هـ، الدستور، مصدر سابق، م1، ص 648، 408-409. سجل محكمة الطائف لعام 1292-1294هـ، ق1.

[26] سالمناه ولاية الحجاز، للعام 1301هـ، ص135، وللعام 1305هـ، ص221، وللعام 1306هـ، ص277، وللعام 1303هـ، ص129، 179،102. وللعام 1306هـ، ص219، 228. سجل محكمة الطائف لعام 1331-1332هـ، ق 1. الأرشيف العثماني تصنيف: Y.E.E. 21-43.

[27] دارة الملك عبدالعزيز، الوثائق العثمانية، رقم السجل 17958، و17637، و 17958. الأرشيف العثماني، تصنيف YPRK.UM 4/40، Y.PRK.ASK 21/1. صحيفة حجاز، ع 158، 11/رجب/ 1332هـ و ع 156، 29/جمادى الثاني/1332هـ، و ع 60، 12شعبان/1332هـ الدستور، مصدر سابق، م1، ص645، 416-417. أوكسنولد، مرجع سابق، ص329.

[28] فيلبي، مرجع سابق، ج1، ص307. صبري، مرجع سابق، ص184. سالنامة ولاية الحجاز، لعام 1301هـ، ص191. ولعام 1305، ص 179، وعام 1309، ص 288. الدستور، مصدر سابق، م2، ص395-396، و ص679-680، م 3، ص532-538.

[29] رسوم أُستحدثت عام 1302هـ/1884م، تؤخذ على الدواب المستخدمة في نقل البضائع.

[30] تؤخذ على بضائع القبائل ومنتجاتها وحيواناتها التي تُجلب إلى الطائف.

[31] صحيفة حجاز، ع150، 2/جمادى الأول/1332هـ و ع 158، 11/رجب/ 1332هـ و ع 156، 29/جمادى الثاني/1332هـ، و ع 60، 12شعبان/1332هـالأرشيف العثماني، تصنيف: BEO 3942/295584. الدستور، مصدر سابق،، م1، ص420-421، و م2، ص429.

[32] دارة الملك عبدالعزيز، الوثائق العثمانية، رقم السجل 38034،33164،و 38034،28651. الأرشيف العثماني، تصنيف Y.PRK.UM 6/31. وتصنيف I.SD 72/4235. تصنيف S.D 1142/17، و DH.MUI 2/2-

28، و 1142/17 S.D. أوكسنولد، مرجع سابق، ص332. دولتشن، مصدر سابق، ص163. سالنامة ولاية الحجاز، لعام 1301هـ، ص40-41. وعام 1303هـ، ص58.

[33] دارة الملك عبدالعزيز، الوثائق العثمانية، رقم السجل 38034،33164،و 38034،28651. الأرشيف العثماني، تصنيف 6/31 Y.PRK.UM. وتصنيف 72/4235 I.SD. تصنيف1142/17 S.D، و 2/2- DH.MUI 28، و 1142/17 S.D. أوكسنولد، مرجع سابق، ص332. دولتشن، مصدر سابق، ص163،202. سالنامة ولاية الحجاز، لعام 1301هـ، ص40-41. وعام 1303هـ، ص58. صحيفة حجاز، ع 48، 17/ربيع ثاني/1332هـ الدستور، مصدر سابق، ج2، 303. بيت المال، مصدر سابق، ص164، 240.

[34] بيت المال، مصدر سابق، ص131. سجل محكمة الطائف للعام 1331-1332هـ، ق 111،56،32،24،13-4،117،112. الدستور، مصدر سابق، م1، ص131. صحيفة حجاز، ع 69، 18/صفر/1329هـ.

[35]سجل محكمة الطائف للعام 1331/1332هـ، ق 100،98،67،64،24. وسجل عام 1292-1294هـ، ق 32،29. الدستور، مصدر سابق، م 2، 135-141، 194-195.

[36] لجنة مكونة من مجموعة من الأعضاء في مجال التعليم، مخولة بالقيام ببعض المهمات والواجبات ومنها، التفتيش والرقابة على المدارس، وتنفيذ القرارات والتوجهات الصادرة من نظارة المعارف، وإرسال التقارير السنوية عن حالة التعليم، واستقبال المواطنين الراغبين في التعيين كمعلمين وإجراء الامتحانات لهم.

[37] صحيفة حجاز، ع 158، 11/رجب/ 1332هـ و ع 156، 29/جمادى الثاني/1332هـ، و ع 60، 12/شعبان/1332هـ، الأرشيف العثماني، تصنيف 161-2/29 DH.ID.

[38] صحيفة حجاز، ع 158، 11/رجب/ 1332هـ، و ع124، 12/جمادى الأولى/1331هـ، و ع154، 29/جمادى الثانية/1332هـ ع 156، 29/جمادى الثاني/1332هـ، و ع 60، 12شعبان/1332هـ، و ع82، 2/رجب/1329هـ الأرشيف العثماني، تصنيف 161-2/29 DH.ID.

[39]جارشلي، إسماعيل حقي، أشراف مكة المكرمة وأمراؤها في العهد العثماني، ص63. دارة الملك عبدالعزيز، الوثائق العثمانية، رقم السجل:17958. الأرشيف العثماني، تصنيف: 4/40 Y.PRK.UM. جارشيلي، والي وقائد عام الحجاز عثمان نوري باشا يعزل أمير مكة الشريف عبدالمطلب بفرمان مزور، ص108-109.

[40]جارشلي، أشراف مكة المكرمة وأمراؤها في العهد العثماني، ص63.

[41] سجل محكمة الطائف للعام 1331-1332هـ

[42] قوة تابعة لأمير مكة يتم تجنيدهم من وادي بيشة ومن الرقيق السود المحررين.

[43] هورخرونية، مصدر سابق، م1، ص321.

[44] صحيفة حجاز، ع156، 29/جماد الثاني/1332هـ

[45] جارشلي، أشراف مكة المكرمة وأمراؤها في العهد العثماني، ص63. جارشيلي، والي وقائد عام الحجاز عثمان نوري باشا يعزل أمير مكة الشريف عبدالمطلب بفرمان مزور، ص108-109.

الكاتب: أ/ عَبْدُ القَادِرْ مْبَارْكِيَّة
قسم التاريخ /كلية العلوم الانسانية والاجتماعية
جَامِعَةُ 8 ماي 1945 قالمة، الجَزائرْ.

عنوان المقال: أ.د/ عـلَّاوَة عمـارَة
بَيْنَ الاِعْتِنَاقْ وَالقتل: حَالْ وَمَآلْ الإباضيّين المَغَارِبَة مِنْ خِلَالِ النُّصُوصِ اَلفِقْهِيَّةِ المَالِكيَّة[1].
تَرجمة: أ/ عَبْدُ القَادِرْ مْبَارْكِيَّة

البريد الالكتروني: mebarkia.abdalkader@univ-guelma.dz
تاريخ الارسال: 2020/06/07 تاريخ القبول: 2020/06/22 تاريخ النشر: 2020/06/30

أ.د/ عـلَّاوَة عمـارَة

بَيْنَ الاِعْتِنَاقْ وَالقتل: حَالْ وَمَآلْ الإباضيّين المَغَارِبَة مِنْ خِلَالِ النُّصُوصِ اَلفِقْهِيَّةِ المَالِكيَّة[2].

الملخص بالعربية:

عالج الباحث في هذه الدراسة تطوّر نظرة النصوص الفقهية المالكية إلى الجماعات الإباضية ببلاد المغرب، وما نتج عن ذلك من أحكام فقهية وفتاوى دينية تدين أتباع هذا المذهب في أغلب الأحوال، وقد حاول تتبّع الظروف السياسية الكامنة وراء هذه الفتاوى ومدى إطّلاع فقهاء المذهب المالكي على تفاصيل مذهب مخالفيهم، ومن النتائج التي توصل إليها باختصار هي وجود تحامل مذهبي مدعوم سياسيا وغير مبرر في غالب الأحيان، لاسيما أن بعضها تؤكد ضعف فهم خبايا عقيدة الآخر وفقهه وتنظيراته السياسية مما أدى إلى ظهور فتاوى مجحفة وغير سليمة.

كلمات مفتاحية: الخوارج-الإباضية-الوهبية-النُكّار-الكُفّار-المنافقون-المبتدعة-المالكية.

Abstract :

In this study, the researcher dealt with the evolution of the Maliki jurisprudencial (fiqh) texts view towards the Ibadi groups in Maghreb, and the resulting jurisprudential rulings and religious fatwas condemning the followers of this doctrine in most cases. The study attempts not only to track the political

conditions surrounding these fatwas but also to detect the extent towhich Maliki doctrine's jurists are familiar with their opponents' doctrine's details.

Aamong the results the researcher reached is the presence of doctrinal clamping supported politically and often unjustified, especially as some of them confirm a lack of understanding the secrets of the other's believes, jurisprudence and political theories, the fact that led to the emergence of unfair and improper fatwas.

1- مقدمة:

اصطدم الفتح الأموي لإفريقيّة البيزنطية والمجالات البربرية، التي ستأخذ مستقبلا تسمية المغرب الأوسط والأقصى، بمقاومة محلية عنيفة في نوميديا انطلاقا من جبل أوراس. تُفسَّر هذه الوضعية بالمحافظة على بعض الهياكل السياسيّة والاجتماعيّة رغم قرونٍ من السيطرة الرومانيّة، الونداليّة، ثم البيزنطيّة. وفي على بعض البنى السياسيّة والاجتماعيّة رغم قرونٍ من السيطرة الرومانيّة، الونداليّة، ثم البيزنطيّة. وفي هذا الصدد تتحدث النصوص الإخباريّة عن أسلمةٍ سريعةٍ للسكان المحليّين خلال القرن الأول من الوجود الإسلامي بالمغرب. رغم بقاء كنيسة إفريقيا خاصة في المدن الكبرى بنوميديا وفي إفريقيا -بتسميتها الواسعة- ممثلة خاصّة بالعناصر اللاّتينية، البيزنطيّة، والمحليّة، فإن عملية الأسلمة لقسم كبير من المجموعات الريفيّة أدت إلى تشكّل اجتماعيّ-دين جديد[3]. كذلك وجد السكان المحليّون الذين أسلموا حديثا أنفسهم في مواجهة السياسة الضريبية الأموية الثقيلة وتم تهميشهم من قبل النخب السياسية والعسكرية الأموية. وقد ساهم هذا المناخ في التحضير لأوّل انتفاضة محلية ضد جنود الحاكم الأموي المستقر بالقيروان. كمجالٍ مناسبٍ للمذاهب الرئيسيّة المنشقّة عن الإسلام الأول أصبحت بلاد المغرب منطقةً جاذبةً للدُّعاة الأوائل الإباضيّين والصُّفريّين القادمين من المشرق في بداية القرن 2هـ/8م. وفي هذا السياق فإن الإباضية انتشرت بسرعة بين الجماعات المحليّة الرعويّة بالهضاب الداخلية وفي تخوم الواحات الصحراوية. وجدت كذلك أفكار المساواة التي دعى إليها الإباضيّة قبولا في الأوراس مثلما حدث في شمال وجنوب القيروان، وهي تعتبر معقل الإسلام الموالي بالمغرب الذي سيحمل فيما بعد التّسمية الشائعة "السُّنَّة". لقد نجحت الإباضية في الانتشار وتأسيس إمامة بتاهرت ووضعت نظام متين لمراقبة

الشّبكات الاجتماعية، العلماء والتجار المنطلقين من جبل نفوسة وإلى غاية تلمسان[4]. إذن أصبحت بلاد المغرب وكأنها نسيجٌ مزركشٌ بألوان الخوارج (الإباضيّة والصفريّة). وفي إفريقيّة الأغلبية، كما تسمّى على وجه الدقّة، سجّلت حضورًا ملحوظًا للإباضيّة في المركز واعتناق تام لهذا المذهب في الجنوب. في هذه الظروف نشأت المجموعات المالكيّة الأولى في حضور خارجي عموما وإباضي خصوصا، وهذا ما انعكس على الانتاج الفقهي. انطلاقا من القيروان ثم من المدن الكبرى بإفريقيّة والمغرب الأوسط، انتشرت المجموعات المالكية واتبعت مع مرور الزمن سياسة الغزو الهادئ التي تلاها العنف ضد المعاقل الإباضية خلال الفترة الاسلامية الأولى ببلاد المغرب. وفي القرن 5هـ/11م أصبحت الجماعة المالكية تمثل الغالبية في المجالات الشماليّة بالمغرب بينما المجالات الجنوبية ذات الغالبية الإباضية مسّتها وبصفة مباشرة عملية إخضاع للمذهب المالكي والتي امتدت خلال القرون الأخيرة من العصر الوسيط المغربي. إن مراحل هذا الصراع الإيديولوجي أصبحت معروفة بفضل مضمون النصوص الإخبارية، لكن أبعاده الفقهية حسب معرفتنا ليست مدروسة. لذلك نتساءل كيف ينظر الفقهاء المالكية إلى الخوارج عموما وإلى الإباضيّة على وجه الخصوص؟ ما هو موقفهم تجاه الإباضية؟ هل يعتبرونهم مسلمين؟ أم منافقين؟ أو أكثر من ذلك...كُفّارًا؟ هل يوجد تحالف بين النظام السياسي والسلطة الفقهية المالكية بخصوص موضوع الإباضية؟ هل يمكن الحديث عن وجود تطورات في الخطاب "المعياري الفقهي" المالكي تجاه الإباضية؟

للإجابة عن هذه الأسئلة وجب علينا القيام بقراءة في المصادر الفقهية المالكيّة. تعتبر الروايات المختلفة لموطّأ مالك بن أنس (ت. 179هـ/795م) نقطة انطلاق مشروعنا. لقد احتل الخوارج والإباضية خصوصا مكانة بارزة ضمن إنتاج وانتقال المعارف الفقهية بالمغرب من سحنون (ت. 240هـ/854م) الذي يعتبر المؤسس الحقيقي للمالكية المغربية بعد الجيل الأول الذي تشكّل من علي بن زياد (ت. 183هـ/799م)، والبهلول بن راشد (ت. 183هـ/799م) وابن أشرس (ت. 170هـ/786م)[5]. يؤخذ بعين الاعتبار ضمن هذا التطور النصوص التي دوّنت الإنتاج الفقهي المالكي بالمغرب مثل المدونة الكبرى لسحنون والنوادر والزيّادات على المدونة لابن أبي زيد القيرواني (ت. 386هـ/996م) صورة أخرى كبيرة للمالكية المغاربية. هذه الاستشارات تم جمعها خاصة من قبل البرزلي (ت. 844هـ/1441م)، المغيلي المازوني (ت. 883هـ/1478م) والونشريسي (ت. 914هـ/1508م). هذه المجاميع مكتملة بعدّة مقتطفات فقهية مالكية مثل كتاب الأموال لأبي جعفر محمد بن نصر الداودي (ت. 420هـ/1112م).

تم تعويض المعطيات الفقهية لاحقا في سيّاق إعدادها بفضل حضور المصادر الاخبارية الإباضية. هذه الأخيرة أصبحت كثيرة انطلاقا من القرن 5هـ/11م مما يمنحنا فرصة الإحاطة بالتطور الداخلي والحقيقي للجماعات الإباضية بالمغرب الوسيط.

2- وضعية الخوارج والإباضية، جدل فقهي:

بعد قراءة أقدم روايتين لموطّأ مالك بن أنس لاحظنا أن النّصارى، اليهود والمجوس لهم وضعية خاصّة، بينما لم ينل الخوارج اهتمام مؤسس المذهب المالكي[6]. وهذا يوضّح أنّ المدينة لم تكن ضمن الفضاء الذي مسّه نشاط الخوارج. وفي القسم المتعلّق بضريبة الجزية فقد ذكر أن النبي (ص) حصّل ضريبة الجزية التي دفعها البربر[7]، وفي القسم المتعلق بالجهاد قال أن الكفر لا يتعلّق إلا بالزنادقة دون أن يكون لذلك علاقة بالخوارج[8]. كذلك في القطعة الموجودة والمنشورة من رواية علي بن زياد للموطّأ لاحظنا غياب تام للخوارج، فالفقيه مهتم بذكر أهل الكتاب والمجوس كمجموعات غير مسلمة تعيش ضمن تجمعات إسلامية يسودها التضامن[9]. لقد أخذت مسألة الخوارج الأهمية الكبرى في الكتاب الأم للجماعة المالكية المغربية وهو المدونة الكبرى لسحنون. هذه الأخيرة تعتبر مجموعًا لمسائل فقهية تنتهي إلى مالك بن أنس وتأخذ شرعيتها من حيث انتقالها بواسطة المصري ابن القاسم. كذلك فإن فقيه القيروان نسب إلى مالك بن أنس فتوى مفادها أن موتى الخوارج، الإباضية، القدرية وكل الزنادقة لا يُصلّى عليهم صلاة الجنازة[10]. في القسم المتعلق بالغنائم اصطّف سحنون ضد الخوارج ورسم موقف واعتقاد الجماعة المالكية الوسيطية باتجاه الإباضيّة على وجه الخصوص: اعتناق قسري، السجن والقتل. وبالتالي أصبح أتباع الاتجاهات المحسوبة على الخوارج محكوم عليهم باعتناق المذهب السُّني أو يصبحون مهدّدين بالسجن والتعزير[11]. لا توجد أية إحالة إلى مالك بن أنس حول هذه النقطة بالذات وقد قارن سحنون بين هؤلاء الخوارج وخوارج الشام ولذلك فقد رخّص مؤسس الجماعة المالكية للحاكم باللّجوء إلى قوّة السلاح في حالة استمرارهم في تمرّدهم. لكن هاتين الحالتين غير قابلتين للمقارنة لأن الإباضية لم يتمردوا على الأقل في الدوّل التي تركّز بها مذهبهم[12]. تبدو الروايات المنسوبة إلى مالك بن أنس والمتعلّقة بالإباضية مشكوكا فيها، فالتفاصيل المقدمة بشأن الإباضية، الحرورية، والقدرية تجعلنا ندرك أن سحنون لا يملك معرفة قاعدية حولها ويقدم فقط انطباعا يبرّر القرار السياسي. من خلال كل الروايات والأحاديث النبوية المستشهد بها[13] ليس فيها ما يبرر الدعوة القسرية أو قتل الأتباع. وفي المقابل فإن الخوارج بالمدوّنة على ارتباط بالمسلمين ولا

علاقة لهم بغير المسلمين: المسيحيين، اليهود، المجوس، المرتدين والعبيد. إذن لم يتم اعتبارهم مثل الكفار ولا مثل المشركين أو المرتدين، فكيف يمكن إذن أن نبرر ترخيص قتلهم من قبل الحاكم بالضّبط؟ وهل يرتبط ذلك بتفسير القرآن وبالانشقاق السيّاسي؟ إن وضعية معارفنا لا تسمح لنا بتقديم إجابة مؤكّدة. غير أن بعض العناصر الاثنية والسياسية كفيلة بشرح هذه الوضعية المتطرّفة.

أصبحت القيروان وهي مركز للثقافة العربية الإسلامية محاطة من الجنوب بجماعات إباضية تقطن قرى صغيرة[14]. وقد وجّه الأغالبة ونخبهم صراعا كبيرا لدفع المنطقة إلى المذهب السني. تؤكد النصوص الإخبارية المعطيات الفقهية خاصة ما تعلق بالدور الذي لعبه سحنون في هذه السياسة الرامية للقضاء على الاتجاهات المزاحمة والمهدّدة ليس فقط للحضور العربي بإفريقية ولكن لاتجاه أهل الحديث. وباعتباره قاض لافريقيّة فقد قرّر منع المناظرات الفقهية للمدارس الفقهية الأخرى وطرد حلقات تعليم "الزّنادقة"من الجامع الكبير بالقيروان[15].

للمرة الثانية تمت الإشارة إلى الإباضية كاتجاه خارجي من قبل محمد بن سحنون (ت. 256هـ/869م) في كتابه الأجوبة وهو كتاب من خلاله أجاب عن أبي عبد الله محمد بن سالم. في السؤال رقم 54 حيث صنّف وبوضوح الإباضية والصفريّة ضمن فصيلة أهل الأهواء المتّهمون بالخروج. حسب رواية منسوبة لمالك بن أنس فإن كل من أعلنوا عن عصيانهم لأمر السلطان فهم متهمون وشهادتهم غير مقبولة لأن وضعيتهم تعتبر كالخروج. وقد ذهب ابن سحنون بعيدا لما جعل هذا الخروج إنكار للجماعة وللدين الإسلامي ذاته[16]. إن المعايير المطلوبة للتصنيف ضمن الجماعة وبالتالي من المسلمين تتمثل في احترام صحابة النبي (صلى الله عليه وسلم) ورفض استخدام الأسلحة كوسيلة للاستيلاء على الحكم[17]. بعد ذلك بقليل، لم يبد محمد بن حارث الخشني (ت. 361هـ/971م)، -فقيه وكاتب سيّر قيرواني استقرّ في قرطبة وألّف رسالة فقهية عنوانها: *"أصول الفُتيا في الفقه على مذهب الإمام مالك*- إهتمام كبير بالخوارج مستبشرا بالقول أنه يمكنهم العودة إلى جماعة المسلمين. وفي هذه الحالة عليهم إعادة أموال المسلمين الذين تم غزوهم وإعلان توبتهم[18].

تقريبا قرن بعد زمن سحنون أي في الفترة العصيبة القرن 4هـ/10م، فرض ابن أبي زيد القيرواني (ت. 386هـ/996م) نفسه كأكبر شخصية مالكيّة مغربيّة في زمنه بفضل أنشطته الدينية وتآليفه، ومن المحتمل أن تكون أصوله محلية من بربر نفزاوة بجنوب إفريقية، وقد

سجل فترة نجاح للجماعات المالكية بفضل نظرته التوافقية بين الفقه المالكي والممارسات المحليّة "العرف". وقد ذكر الاتجاهات الرئيسية للإسلام والمؤمنين غير المسلمين في مؤلفاته. وفي نصه الأساسي، *"النَّوادِر والزّيادات على المدوّنة"*، تبدو المكانة المحتلة من قبل الخوارج ملحوظة جدا. وفي مختلف أجزاء الكتاب سعا ابن أبي زيد القيرواني لمحاربتهم بنقد نظرتهم الدينية والسيّاسية. هؤلاء الخوارج تمت الإشارة إليهم كذلك تحت اسم الإباضية والحرورية إذ يشتركون في أغلب الأوقات مع القدرية وفي بعض الأحيان مع جميع المبتدعة. وعبر المجلّدات المختلفة لهذا الكتاب لم يتم اعتبارهم كالكفار ولا تابعين للمسيحيّين، أو لليهود، أو حتى للوثنيّين. لكن لا يمكن اعتبارهم كمسلمين!. الإجابة عن هذه المعضلة من الممكن أن تتوفر في القسم المتعلق بالمرتديّن، إذ يعتمد ابن أبي زيد القيرواني على أمهات الكتب المالكيّة مثل كتاب ابن حبيب (ت 238هـ/852م) وكتاب ابن المواز (ت. 269هـ/882م)، وكتاب سحنون (ت. 240هـ/854م) وكتاب ابن الماشجون وهم أيضا بدورهم اعتمدوا على مالك بن أنس[19]. يطلق على العناصر الأولية لمذهب الخوارج بـ: حروري ويعامل كخارجي لابد أن يستتاب أو يقتل إن كان فعل تمرّده موجّه ضد حاكم شرعي[20]. كذلك فهؤلاء "المنافقون" تم وصفهم في القسم المتعلق بالمرتدين، إذ لم ينشأ أي رابط بين الخوارج والمرتدين الذين تم وصفهم بالردّة والزّندقة[21]. وقد صنّفت الإباضيّة ضمن الفصيلة التي ينتمي إليها الزنّادقة والمنافقون وأهل الأهواء. وبالنسبة لهذه المجموعة الأخيرة فقد أشار ابن أبي زيد القيرواني إلى أنّها تتكون من الإباضيّة والقدريّة حيث يتّسم اعتقادهم بتحريف كلام الله، وسواء مارسوا بدعتهم علنًا أو بصفة سريّة لابد من الضّغط عليهم للتراجع عنها[22]. تعود مسألة الكتمان إلى أربع حالات للعقيدة الإباضيّة: الظّهور، الدّفاع، الكتمان، الشّراء. الأول يعني الحالة التي يكون فيها الإباضيّة في وضعية قوة تّجاه معارضيهم ويشكل نظام سياسي-ديني (الإمامة). يتوافق الدفاع مع الوضعية التي يكون فيها الإباضية لا يستطيعون حتى ضمان الحكم السياسي في حين أنه لابد من ضمان البقاء للمذهب. بينما بالنسبة لحالة الكتمان (السريّة) فإنها تتميز برفض الإباضية التعاون مع النظام السياسي المخالف، إذن تنظيم الحياة الإجتماعية للجماعة يبقى من مهام النّخب. وفي حالة الشراء يثور الإباضية ضد الحكم القائم لانتزاع حقهم في الوجود[23].

في القسم المتعلق بالمرتدين نجد فصل متعلق بـ"حكم متعلّق بالقدرية، الخوارج وأهل البدع" وهو غنيّ بالمعلومات المتعلقة بالخوارج. لقد أصّل ابن أبي زيد القيرواني رأيه

بالنسبة لهؤلاء الأخيرين مانحا بذلك للحاكم الحق المطلق لقتل المتمردين المقبوض عليهم والإجهاز على جرحاهم، ولا عفو عليهم إلا باعتناقهم للمذهب السُّني. رأي آخر لابن حبيب ورد في الفصل ذاته حيث يقول فيه أن الخوارج لا يجب قتلهم ولا الاستيلاء على أموالهم[24]، كذلك يتم الاحتفاظ بالأسرى إلى غاية نهاية المعارك، وتتم استتابتهم عبر الإرادة الشخصية أو بالتعزير. وفي حالة الرفض يقع عليهم التعذيب. لم يعترض ابن أبي زيد القيرواني إذا ما ينفذ الحاكم فيهم القتل أثناء أو بعد المعارك[25]. وفي هذا السياق فقد ذكر رأي لابن المواز الذي قال بأن الإباضية والقدرية محكوم عليهم بالاستتابة أو القتل[26]. يبدو أن اختلاف الفقهاء المالكية حول مسألة الإباضية واضح. بالنسبة لابن القاسم يقاتل الإباضية إن ثاروا ضد حاكم شرعي أو إذا شكّلت عقيدتهم هدفا لحركتهم[27]. بينما عند ابن عمير فإنه يجب القول أن الحرورية، وهو الاسم البدائي للخوارج، هي الطائفة الأكثر مقتا عند الله لأنها أوّلت حقائق القرآن ضد المؤمنين مما يجعلهم يستحقون الإعدام[28]. دائما بالنسبة للآراء المنسوبة للفقهاء الأوائل، فقد قال مالك بن أنس لا تجوز الصلاة على موتى القدرية والإباضيّة. وفي هذا الصدد يورد ابن أبي زيد القيرواني وجهة نظر سحنون والتي قال فيها إذا أذعن هؤلاء فمن الجائز الصلاة عليهم صلاة الجنازة[29]. رأي آخر ينسب لابن المواز يمنع كلية الإمام من أداء صلاة الجنازة على موتى الخوارج الذين استتيبوا قسرا وبقوة السلاح. بينما يمكن لباقي المسلمين إكمال هذا الواجب بتغسيل الموتى والصلاة عليهم. ويرث نسل الخوارج مثل باقي المسلمين[30].

حسب عبارة منسوبة لمالك بن أنس فالإباضية مثل باقي كل الزّنادقة الذين يسكنون الأماكن ذاتها التي يسكنها أهل السنة لا يقتلون لكن لابد من تحويلهم بالتعزير أو بالسجن. ويمنع على الجميع التعامل معهم أو الحديث معهم. وفي حالة رفض التحوّل على الحاكم اتخاذ الإجراءات لضمّهم إلى الجماعة السنية تتبعا لنموذج الخليفة أبي بكر الذي أمر بإعمال السيف ضد مانعي الزكاة حتى يتراجعوا أو تتم إبادتهم[31].

لا يعتبر ابن أبي زيد القيرواني الإباضية مثل الكفار ولا كالمسلمين، ورغم وجود رأي لابن حبيب يعتبر الخوارج كافرين، مبررا ذلك بأنهم يعتبرون مرتكبوا الكبيرة كفار، ويسجن الذين يمارسون عقائدهم حتى يعلنوا توبتهم. لكن من غير الجائز سبي أبنائهم الذين لم يبلغوا بعد سن الرشد، ويحدّد المجموعات الدينية المقصودة بهذا الحكم: "جماعات الخوارج المختلفة مثل الإباضية والصفرية، وكذلك القدرية والمعتزلة"[32].

كل الآراء المشار إليها لا تتفق لاعطاء وضع قانوني وواضح للإباضية المنافسين

والمشكّلين للأغلبيّة ضمن الإسلام المغاربي. لا يُعتبرون زنادقة أو مرتدين مثل برغواطة الذين كتب فيهم: "قال أن قوما بالمغرب ادعوا أن لهم نبي يسمى صالح، يحمل كتاب بلغة البربر...هؤلاء مرتدون ووجب قتلهم إن لم يتوبوا"[33]. رأي آخر شهد إجماع بين بعض الفقهاء مثل ابن أصبغ فقد قال أن الإباضية، القدرية والحرورية مسلمين، لكن من هم كُتّاب التفاسير الخاطئة للقرآن التي تقول أنهم يستتابوا وإلا يقتلوا؟. في هذه الحالة الأخيرة تعود أموالهم للمسلمين[34]. وفي محاولته للخروج بحكم نهائي حول الخوارج، ذكر ابن أبي زيد القيرواني سحنون كسلطة فقهية لتبرير أن قتال هؤلاء ليس إلا بسبب بدعهم وأن النبي سماهم المارقين. لم يتم اعتبارهم مطلقا كالكفار، كما أنه استشهد بموقف الخليفة علي الذي لم يعتبر الخوارج كفارا ولم يستولِ على أموالهم ولم يسبِ أبنائهم، ويرى ابن أبي زيد القيرواني أن قتلهم دليل على تطبيق السنة في مواجهة ناشري البدع. وأضاف أن قتل الخوارج لا يعني أنهم كفار، مقارنا هذا الحكم بنظيره المطبّق على السارق[35].

إن قراءة الآراء المختلفة المتعلقة بالإباضية تجعلنا نستنتج أن الفقهاء المالكية واجهوا مشكلة كبيرة، تمت معالجتها سياسيا في أغلب الأوقات. في الفصل المعنون بـ "قتال الأشخاص الذين لديهم روح العصبية والعداوة بين المسلمين"، فالحكم السياسي المتخذ حول الاباضية تم تأكيده بفعل الآراء التي قالها أو نقلها ابن أبي زيد القيرواني[36]. ترتبط فكرة البدع كذلك وبصفة مباشرة بالانشقاق والتمرد، وهذه الوضعية تم تأكيدها في كراساته المعونة بـ: *"كتاب الجامع في السنن والآداب والحكم والمغازي والتاريخ وغير ذلك"*. وقد عارض فيه بالروايات الحديثية (السُّنن) البدع، وخالف الفتن والأهواء بمعنى مناصري السنة أو السنيّين مقابل الخوارج، وبالضبط المارقون حسب حديث منسوب للنبي[37]. يسترجع ابن أبي زيد القيرواني مبدأ الإجماع الذي يتعارض مع الانشقاق والصورة ضد أمير المؤمنين منتقدا بذلك مذهب الخوارج. هؤلاء الأخيرين مستبعدون من الحياة العادية ومهددون بالاستئصال إن استمروا في "بدعتهم"[38].

في المجلد العاشر من كتاب النّوادر شكّل الخوارج موضوع ملاحظة تتعلق بالتفاسير المنجزة من قبل هذا الفرع من الإسلام. يستند ابن أبي زيد القيرواني إلى سحنون الذي استشهد بدوره بالسلطات المالكيّة الرئيسية وبالفقهاء العراقيّين. وقال بصفة خاصة أن الخوارج يعرفون بتفسيرهم باسم "مُتَأَوِّلُونْ" نجحوا في ضبط البلد وطرح أفكارهم، إن أحكامهم عن المسلمين تتطابق تماما مع تلك المتخذة بشأن اللصوص والمحاربين غير المسلمين

(حربيّون)[39]. لقد تم وصف علاقة هؤلاء الأخيرين مع الخوارج في نص ابن أبي زيد القيرواني. كما أن السّلم الذي تم إقراره من قبل الخوارج لصالح الحربيّين (أهل الحرب) ساري المفعول ويمكن للحاكم السني إنهاؤه. كذلك يسمح للخوارج بالدخول في اتفاق سلام مع أهل الحرب على أرض الإسلام. هؤلاء الأخيرين لا يمكن غزوهم إلا إذا حاربوا المسلمين. في هذه الحالة يحتفظ الحاكم بحق التدخل ضدّهم. وقد تم التفصيل في مصير غنائم الحرب المحصّلة من قبل الخوارج المتحالفين مع أهل الحرب من قبل ابن أبي زيد القيرواني[40].

تم تأصيل وضعية الفقهاء المالكية في مقابل "الخوارج الاباضية" خلال القرن 5ه/11م. أبو القاسم عبد الخالق المعروف باسم السُّيوري (ت. 460ه/1067م)، اعتبرهم مثل المرتدين، أو مثل المشركين. وفي هذا السياق يعتقد أنهم من الممكن أن يكونوا مرتدين ولا يمكن بالتالي اعتبارهم كـ: مسلمين مُبتدعة[41]. وفي فتوى فقهية أخرى يظهر متحيّزا فيقول أنه يجب التعامل معهم مثل الملاعين لأنهم مسلمين لكنهم يرتكبون الكبائر (أهل الكبائر)[42]. هذا الارتباك يظهر جليّا عند السيوري في فتواه الموجودة في القسم المتعلق بالزواج لمجموع البرزلي. وقال أيضا أن الخوارج مثل كل المسلمين الذين يخرجون الزكاة لكن يمنع تزويجهم النساء السّنيّات خوفا من تحويلهن إلى معتقدهم[43]. وفي فتوى فقهية لاحقة يجعلنا جوابه ندرك أنه يعتبرهم كفار[44]. في القرن 8ه/14م حاول البرزلي تلخيص آرائه معتقدا أن الخوارج كُفّار، ومتابعة جوابه تجعلنا نعتقد أنهم يتميزون بتزوير ومعصية الأمر الإلهي[45]. في زمن هذا الكاتب، الخوارج وهم في العموم إباضية تم تصنيفهم من الحربيّين (أهل الحرب)، المرتدّون، والكفّار وحولهم قد خصّص جزءً من مجموعه. يظهر أن البرزلي مثل أسلافه المالكيّة لم يكن يمتلك معرفة مكتملة حول الإباضية. وفي الوقت ذاته فقد اتّهمهم بسبب تقديمهم تفسيرا خاطئا للقرآن[46]. وقد تذكّر الوضعية المتخذة من قبل الأصيلي الذي عارض كلية كل من يعتبر الاباضية مثل الكفار، إذ يعتبرهم مبتدعة[47]. وبقراءة نص للقاضي عيّاض (ت. 544ه/1149م) فقد تبنّى موقفا وسطا من خلاله جعل الاباضية ضمن فئة أهل البدع، أهل الضلالة وكل من لا يتبع السنة النبوية ولا يوافق جماعة المسلمين. هذه الفئة لم يحكم عليها بالكفر وبالتالي فهي تختلف عن تلك الممثلة بالشّيعة[48]. لم ينتحل البرزلي مواقف فقهاء مالكيّة القرنين 4ه/10م و5ه/11م فقد اتّخذ مواقف راديكالية ضد الإباضية: اعتناق قسري، سجن وتعذيب[49].

إذن مصير الإباضية المغاربة حدده نخبة من الفقهاء المالكية المقربة من السلطة

السياسية متخذة حكما دون إحالة ثابتة لمالك بن أنس. لقد سبق إطلاق الضوء الأخضر ضد الإباضيّة والمقدم من قبل سحنون وابن أبي زيد القيرواني، السلطات الفقهيّة المالكيّة الرئيسية بالقيروان، تلك المجازر المنظّمة من قبل الزيريّين ضد الإباضيّة، وسسوالة، وبرغواطة والإسماعيليّين. بعد المضايقات والمجازر ضد الشيعة في المدن الكبرى بإفريقية بين 406هـ/1015م و420هـ/1030م، أصبحت القرى الإباضية هدفا لجيوش الأسرتين الحاكمتين الزيريّتين: الباديسية والحمادية. كذلك نهبت جيوش حمّاد بن بلكين مدينة باغاية وقرية وغلانة وطردت جماعاتها الإباضيّة[50]. كذلك المعزّ بن باديس عنّف على وجه الخصوص الإباضية والشيعة بالجنوب التونسي وهدم خاصة قلعة دَرجين بالجريد[51].

3- الوضعيّة الخاصّة لجربة.

في التّفاصيل المتعلقة بمسألة الدليل الذي يُظهر الخصوصية الفقهية لجزيرة جربة، وقد تجنب فقهاء افريقية مثل ابن نافع وابن أبي ليلى موضوع أهل الأهواء أو بالأحرى الخوارج والقدرية حيث تم رفضهم آليا. وقد أحصى ابن أبي زيد القيرواني الفرق المختلفة المعنية بهذا المنع: المعتزلة والإباضية والجهمية والمرجئة وكل أهل الأهواء[52]. هذه الراديكاليّة تطرح مشكلة كبيرة في جربة خلال القرن 4هـ/10م.

وقد تركزت الجماعات الاباضية في نواحي القيروان، ومناطق جنوب إفريقية وبالهضاب الداخلية وفي المناطق الواحيّة[53]، بينما تعد جربة الناحية الوحيدة المذكورة عبر القرون كمركز خارجي أو ذو أغلبية إباضية. كذلك طُرح سؤال لابن أبي زيد القيرواني في موضوع دليل خارجية جربة. لقد أجاب أن دليلهم غير معترف به مضيفا أن بعض الفقهاء يجيزون ذلك إن كان الخوارج يمثلون الأغلبية في مكان وحتى في ناحية. وقدم مثالا بجزيرة جربة التي كانت في زمنه وفيّة للمذهب الإباضي. واعتبارا لبعض الاستثناءات فإن الأغلبية الساحقة من سكانها تتبع المذهب نفسه. يعلمنا ابن أبي زيد القيرواني أن هؤلاء الإباضية جرت عادتهم تعيين عدلين سنيّين الذين لا يمكنهما التكفل بالجزيرة الواسعة. في هذه الحالة ولزاما يسمح بالرجوع لنخبهم (عزّابهم) حتى وإن كانت طريقة شهادتهم خاطئة[54]. شكلت جربة إذن مركز نهضة الإباضية الوهبية في القرن 4هـ/10م حيث سمحت بإعادة هيكلة الجماعة على حساب النكار التيار المنافس والغالب قبل هذه الفترة[55].

أخذت جربة كذلك مكانة ثابتة في النصوص الفقهية بعد تطور ملحوظ منذ القرن 4هـ/10م وتبعا للانتشار القسري للمذهب المالكي بالجزيرة. إلى جانب الإباضية، الوهبية

والنكار، واليهود لعب المالكية دور في تاريخ الجزيرة في نهاية العصر الوسيط. كذلك استشارة قضاة ينتمون إلى هذه المدرسة الفقهية للفقيه البرزلي بخصوص موضوع شهود منتمون إلى الوهبية والنكارية. وبناء على جواب الفقيه نتبين أن أغلبية الجزيرة تنتمي إلى المذهب الإباضي في القرن 9هـ/15م[56]. لا يوجد نص فقهي مالكي يُلمّح إلى الإضطهاد المالكي ضد الإباضيّة أو العكس. وهنا نتساءل لماذا لم يأمر الفقهاء المالكية بتحويل أو اجتثاث الإباضية. من الممكن أن المالكية كانوا أقلية ولا يمكنهم التحكم في الجزيرة وفرض سلطتهم. وفي جميع الحالات فقد كانت جزيرة جربة مكان التقاء ثلاث تيارات إسلامية وجماعة يهودية.

4- التنصّل من الإباضية؟

لقد تم نعت الإباضية بألقاب تحقيرية مختلفة مثل: الخوارج، المبتدعة، والتسمية المستمرّة الاباضية، يجب انتظار القرن 5هـ/11م لتحديد تسمية هذه الجماعة تحت اسم الوهبية وهو ما يظهر في المؤلفات الفقهية. في فتوتين وردتا متتالتين من قبل الفقهاء: السيوري واللخمي (ت. 478هـ/1085م)[57]، تسمى هذه الجماعة مثل ما هو موجود في النصوص الإباضية المعاصرة، الوهبيّة، لتمييزها عن باقي الجماعات المختلفة المنبثقة عن الإباضية. هذه التسمية سيتم الاحتفاظ بها إلى نهاية العصر الوسيط[58].

تمت الإشارة إلى النّكار وهم الفرع الثاني للإباضية المغربية مرة واحدة في مذكّرة حررها البرزلي بخصوص قضاة جربة. تكمن أهمية هذا النص في إظهار أن المالكية يميزون وفي فترة متأخرة نسبيا بين الفرعين الرئيسيين للإباضية وهما النكار والوهبية[59]. لكنهم تجاهلوا كلية أسسهم العقدية والفقهية وكدليل على ذلك نجد نص حول البدعة كتبه البرزلي في مجموعه: "قال الإباضية: من اعتبر بكلامنا فهو مؤمن، ومن ناقضها فهو منافق"[60]. إذن الإباضية التي يحاربها هذا الفقيه تتلخّص في هذه القاعدة! زمن بعد ذلك جمع الونشريسي الفتاوى الفقهية الإفريقية منتجا بذلك قسم كبير من مجموع البرزلي. حيث قام بتغيير محتوى النصوص آخذا أحيانا في شرح بعض المصطلحات للقرّاء. وقد جعل وبطريقة وهمية الجماعة الوهبية ضمن الروافض أو بالأحرى الشيعة![61]

حسب أصالة نص الفتوى الفقهية التي أوردها ابن أبي زيد القيرواني ونقلها الونشريسي فإذن ذكر مصطلح "عزاب" يعد أقدم إشارة سنية وإباضية كذلك تعبر عن النخب الإباضية العالمة والموجهة[62]. يرتبط السياق التاريخي لهذا المصطلح بالتنظيم الفقهي لجزيرة جربة. بالنسبة لكلمة حلقة لم تذكر صراحة من قبل النصوص المالكية. بينما تجمع نخب

العزابة يجعلنا ندرك أن الأمر يتعلق بالحلقة، وهي دائرة تعليمية تضمن انتقال المعارف لدى الإباضية المغاربة[63].

يظهر العزابة لاحقا في الفتاوى الفقهية المالكية مثل تلك التي أوردها السيوري لكن بكتابة "العزّاب"[64] وهي تختلف قليلا عن تلك التي وجدناها في النصوص الإباضية: العزابة. لم تقدم النصوص المالكية وصف دقيق لهذه الفئة. ومع ذلك تسمح لنا فتوى أوردها اللّخمي باكتساب فكرة عامة حول الصورة التي تظهر خصوم الإباضية ونخبهم العالمة والموجّهة. وكذلك استفتي اللخمي في موضوع الإباضية الوهبية الذين استقروا بين أهل السنة وأخذوا في التوجه نحو بدء الجهر بمعتقداتهم بفضل العزابة القادمين من نواحي مختلفة.

يترواح عدد هؤلاء العزابة بين خمسين وستين. لم تتم الإشارة إلى أي نشاط علمي باستثناء أنهم يرتحلون كثيرا ويشاركون في الاحتفال بأعياد أهل مذهبهم[65].

5- الاعتناق، الموت والنفي.

تقدم لنا بعض الفتاوى الفقهية معلومات مهمة جدا حول عملية انتشار المذهب المالكي في غالبية الجماعات الإباضية. في البداية توجد فتاوى فقهية أوردها ابن أبي زيد القيرواني لا يسمح بتعليم القرآن والعلوم لرجال ونساء وأطفال الخوارج. وقد قدم كدليل أن هؤلاء الأخيرين حافظوا على بدعهم وأن المسلم لا يمكنه الحضور خاصة في النواحي التي يطبق فيها مذهبهم. فالمسلم السني لا يمكن أن يذل[66]. في القرن 5ه/11م هوّل السيوري من هذا القرار مانعا لكل تعليم عقائدي في المناطق ذات الغالبية الإباضية. ولتبرير هذا المنع فقد استحضر لعنة الرسول لبائع الخمر ويخلص إلى أن الطريق الخاطئة تؤدي إلى الوجهة الخاطئة[67]. وبتعبير آخر لم يحسن الفقيه التعبير عن قراره. وفي حدث ميز سنوات الأربعين من القرن 4ه/10م بإفريقية قسم من المالكية شاركوا في ثورة قام بها الفرع الثاني من الإباضية المغربية وهم النكار تحت قيادة المشهور أبي يزيد. كيف يفسر الفقهاء المالكية هذا التحالف مع الزنادقة أو أكثر من ذلك الكفار؟ هذا التساؤل يجد جوابه في المعجم التراجمي الذي ألّفه أبو بكر المالكي (ت حوالي 474ه/1081)[68]، لكن كذلك في الروايات التي جمعها ابن سعدون القيرواني في كتابه المفقود: *"كتاب تعزية أهل القيروان بما جرى على البلدان من هيجان الفتن وتقلب الأزمان"*[69] ومنه نجد قطع وفقرات في التواريخ والمجاميع الفقهية. لقد حاول البرزلي التقليل من شأن هذا التحالف معتمدا على الروايات ذات الطابع الأسطوري أحيانا. لقد قال أن الفقهاء المالكية يرون أن بدعة أبي يزيد أقل خطورة من بدع الشيعة[70].

لقد شكل الوهبيون الساكنون مع أهل السنة والذين يمارسون معتقداتهم جهرا موضوع فتوتين فقهيتين. بعد السيطرة التامة من قبل الحاكم السني، هدم المسجد، الاضطهاد والتحويل القسري نحو المذهب المالكي كلها مطروحة على الفقيه السيوري. هذا الأخير اعترض على هدم المسجد وأمر بمنع النخب الإباضية من دخوله، كما وضع نهاية للزواج مع السنيين وركز خاصة على سجنهم حتى يتراجعوا كلية عن بدعتهم. وفي هذه الحالة وجب أن يعمر المسجد الاباضي بالمؤمنين من أهل السنة[71]. إذن منعت الإباضية من المؤسسات الدينية ومن الممارسة الجهرية لمعتقدهم.

دائما وخلال القرن 5ه/11م استفتي اللخمي في موضوع الإباضية الوهبية الذين أقدموا على بناء مسجد في قرية يسكنها أهل السنة، فأجاب أن ذلك "باب كبير" يمكنه أن يدعمهم ويسوقهم نحو إفساد دين أهل السنة. إنه من واجب الحاكم أن يستتيبهم. وفي حالة الرفض وجب على هؤلاء الإباضية أن يُعزّروا، يُضربوا ويُسجنوا. وفي حالة إصرارهم على ممارسة بدعتهم قال اللخمي أن الفقهاء لم يجمعوا على مخرج محفوظ لأولئك الرافضين للتحول نحو السنة. كذلك يستند إلى ابن حبيب المعروف بموقفه الراديكالي ضد الخوارج والذي يعتقد أنهم "أشد خطرًا" من المسيحيين واليهود كونهم يقولون أنهم مسلمين ولا يبحثون إلا عن تهديم الدين الإسلامي.

إذن وجب استهجانهم واقتلاعهم من جذورهم. أضاف اللخمي أن هؤلاء الخوارج مُدانون وبشدة بحديث نقله البخاري وبرواية تنسب إلى الخليفة علي بن أبي طالب. ومحاولةً لحمل هؤلاء الإباضية إلى المذهب السني منع اللخمي رسميا كل زواج مختلط وأمر بهدم مساجدهم[72].

لقد أجمعت النصوص الفقهية للقرن 5ه/11م على المنع التام لكل زواج إمرأة سنية مع إباضي. لقد كانت إجابة الفقيه اللخمي على مسألة المرأة السنية التي إكتشفت بعد حفل الزواج أن زوجها إباضي إجابة قاطعة، فقد دعا إلى الفصل الفوري إن لم يتراجع الزوج عن مذهبه[73].

في القرن 9ه/15م تُلْفِت الاباضية الوهبية دائما انتباه الفقهاء المالكية مثلما يعرضه البرزلي في مذكرته. وتبقى مسألة تجمعات الوهبية دون شك في إطار حلقات العلماء، في شأنها دعا الفقيه التونسي إلى التفريق بالقوة وكذلك هدم مسجدهم في حالة وجود مخاوف من ذلك. والسبب أن هؤلاء الأشخاص الذين يدّعون الدين الاسلامي هم أشد خطرا من الكفار[74]. من

الناحية الاقتصادية يتجه الإباضية إلى منع كل علاقة مع أهل السنة بسبب أن الفقهاء المالكية أمروا أتباعهم برفض تولي الإباضية كل الوظائف القضائية أو الإدارية، الفتاوي الفقهية، الزواج، الشهادة في زواجهم ومعاملاتهم[75]. شكلت فتوى فقهية أوردها قاضي تونس أبو مهدي عيسى الغبريني شهادة مهمة جدا: انقرض الإباضية من الجنوب التونسي، أموالهم "حبوس" ضاعت ومساجدهم هدمها السني. كذلك أكد الفقيه التونسي أنه تجب الصرامة اتجاه الإباضية مستحضرا الإجراءات المتبعة من قبل فقهاء القرن 5ه/11م[76].

التنازل الوحيد من قبل فقهاء المالكية والمرتبط بالإباضية يتمثل في كون موادهم الغذائية من الممكن أن يشتريها أهل السنة[77].

6- خاتمة:

في نهاية هذه الدراسة ما هي النتيجة التي تمكّنا من استخلاصها من خلال قراءة النصوص الفقهية المالكية؟ في بداية الأمر لم يتفق الفقهاء بخصوص وضعية الإباضية ولم يتوصلوا إلى الفصل في مآلهم. رغم أن مؤسس المذهب المالكي لم يكن منشغلا بموضوع الخوارج[78] فإن الفقهاء المغاربة المنتسبين لهذه المدرسة الفقهية أعدوا نظرة راديكالية انطلاقا من القرن 3ه/9م ثم تعززت في القرن 4ه/10م ووجدت ميدانا تطبيقيا في القرن 5ه/11م. وبفضل تحالف السلطة مع الفقهاء رسمت المالكية القيروانية مآل الإباضية: الاضطهاد والسجن والقتل. اعتناقات قسرية، مجازر ومنافي سمحت بنقل جنوب إفريقيّة من ناحية ذات غالبية إباضية إلى مجال مالكي. تُظهر النصوص الإخبارية أن هذه التحولات وقعت بين القرنين 5ه/11م و7ه/13م. في القرن 9ه/15م لم تلق الجماعات الإباضية بالجنوب التونسي أي صدى في الإنتاج الفقهي وهي علامة على زوالهم لصالح النواحي البعيدة مثل جزيرة جربة التي ستصبح رمزا لمقاومتهم.

لم تكن جربة الوجهة الوحيدة للّاجئين الإباضيين إذ نافستها مناطق جديدة تقع خاصة في المناطق الواحية مثل ورقلة وحوض مزاب أين لا تزال توجد القصور الخمسة الشاهدة على التوطين المحصّن[79]. وفي هذه النواحي انسحب الإباضية مؤقتا بعيدا عن التهديد المالكي على الأقل إلى غاية اعتناق القبائل الهلالية للتصوف المالكي. هذه الأحداث لا تظهر في الإنتاج الفقهي الحضري للمغرب. وفي هذه القصور وجد الإباضية ملجأ ألفيا يحفظ هويتهم الثقافية والدينية[80]، وينشأ لهم شبكة طرق تنطلق من شمال المغرب إلى جنوب الصحراء[81].

من الملاحظ أن الحضور الإباضي في الإنتاج الفقهي للمغرب الأوسط، الأقصى،

والأندلس أقل أهمية. على سبيل المثال لم تتم الإشارة إلى الخوارج إلا مرة واحدة في أقدم نص فقهي مالكي في المغرب الأوسط، *كتاب الأموال للداودي*، بخصوص جمع الزكاة أثناء سيطرة الخوارج على قرية[82]. وفي هذا الإنتاج الفقهي تطرح واقعة أخرى: إدانة واستئصال بدع برغواطة وسسوالة، وهي موصى بها إجماعا. وقد تم اعتبار أتباع هذين الديّانتين كفارا[83]. يظهر أن الفقهاء لعبوا دورا مهما في تحويل الجماعات المحكوم عليها وغير الممتثلة للإسلام السنّي. لقد أنتجت راديكالية الفقهاء المالكية تحولا جذريا في الخارطة الاجتماعية-الدينية التي كان عليها المغرب في بدايات الإسلام.

([1])/ Amara Allaoua, « Entre la conversion et la mort : le statut et le sort des Ibâdites maghrébins d'après les textes juridiques mâlikites », *Biografiás Magrebies. Identidades y grupos religiosos, sociales y politiocos en el Maghreb medieval*, éd. M. Meouak, Estudios onomástico-biográficos d'al-Andalus, XVII (2012), p. 65-86.

([2])/ Amara Allaoua, « Entre la conversion et la mort : le statut et le sort des Ibâdites maghrébins d'après les textes juridiques mâlikites », *Biografiás Magrebies. Identidades y grupos religiosos, sociales y politiocos en el Maghreb medieval*, éd. M. Meouak, Estudios onomástico-biográficos d'al-Andalus, XVII (2012), p. 65-86.

([3])/ اعتنقت المجموعات الرعوية بالمغرب الأوسط وإفريقية الأفكار الإباضية. وفي المغرب الأقصى وجدت الصفرية مجال خصب بين البربر. بعد ذلك أصبح لعدة اتجاهات عقدية وسياسية مشرقية أتباع كثر. حول انتشار الإباضية ينظر:

Lewicki, T, "La répartition géographique des groupements ibadites dans l'Afrique du Nord au Moyen Âge", *Rocznik Orientalistyczny*, XXI (1957), 301-343 ; *idem*, *Les Ibadites en Tunisie au Moyen Âge*, Rome, 1958 ; Schwartz, W., *Die Anfänge der Ibaditen in Nordafrika. Der Beitrag einer islamischen Minderheit zur Ausbreitung des Islams*, Wiesbaden, 1983; Rebstock, U, *Die Ibaditen im Magrib (2/8. – 4/10. Jh.). Die Geschichte einer Berberbewegung im Gewand des Islam*, Berlin, 1983; Prevost, V., *L'aventure ibadite dans le Sud tunisien (VIIIe-XIIIe siècle). Effervescence d'une région méconnue*, Helsinki, 2008.

([4])/ الرواية الإباضية عن بداية مذهبهم في المغرب، نص ابن سلاّم، تقدّم نقيض عملية انتشار المذهب الاباضي في التجمعات الرعوية .(ISB, 139–148).

([5])/ عياض، ترتيب المدارك، ج1، ص: 45. كتب: "

TMB, I, 54, écrit : « Quant à l'Ifriqiya et à ce qui en est au-delà, l'école des Kufites y prédominait au début jusqu'à ce que 'Ali b. Ziyad, Ibn Asras, al-Bahlul b. Rašid et

d'autres après eux tel que Asad b. al-Furat […] arrivèrent avec l'école de Malik » traduction de Ghrab, S., *Ibn 'Arafa et le malikisme en Ifriqiya au VIII^e/XIV^e siècle*, Tunis, 1992, I,152.

(6)/ موطأ مالك بن أنس، رواية يحي الليثي.

(7)/ الموطأ، 187

(8)/ نفسه، 522.

(9)/ نفسه، 155–160.

(10)/ سحنون، المدونة الكبرى، ج1، ص:245.

(11)/ نفسه، ج1، ص: 589.

(12)/ النصوص الاخبارية المتوفرة تتحدث عن آخر انتفاضة إباضية في باغاية بالأوراس سنة 358هـ/959م وقد كانت موجهة ضد الفاطميّين حول هذا الحدث ينظر:

V., "La révolte de Bagaya (358/969) : le dernier soulèvement des ibadites maghrébins", *Journal of Near Eastern Studies* 65-3 (2006), 197-206.

(13)/ سحنون، المدونة الكبرى، مصدر سابق، ج1، ص: 590–592.

(14)/ محمد حسن، الجغرافيا لتاريخية لإفريقية من القرن الأول إلى القرن التسع الهجري، بيروت، 2004، ص:38–42.

(15)/ الونشريسي، المعيار، ج7، ص: 26.

(16)/ محمد بن سحنون، كتاب الأجوبة، ص: 118.

(17)/ نفسه، ص: 119.

(18)/ الخشني، أصول الفتيا، ص: 327.

(19)/ بالنسبة للمالكية المغاربة خمسة كتب "أمهات" شكلت المستند الرئيسي لمدرستهم الفقهية بعد الموطأ، مدونة سحنون، الواضحة لابن حبيب (حول الواضحة ينظر:

Arcas Campoy, M., "Proyecto de reconstrucción fragmentaria de la *Wadiha* de Ibn Habib" dans F. de Jong (ed.), *Dissertationes in Academia Ultrajectina prolatae anno MCMXC* (Orientalia Lovaniensia Analecta, 52), Louvain, 1993, 67-75).

- المستخرجة عرفت كذلك تحت عنوان العتبية للعتبي حول العتبية ينظر:

Fernández Félix, A., *Cuestiones legales del Islam temprano: la 'Utbiyya y el proceso de formación de la sociedad islámica andalusí*, Madrid, 2003, 63-198.

والموازية لابن المواز. حول روايات الموطأ وتطور المالكية من الناحية العقدية والفقهية ينظر: نجم الدين الهنتاتي، المذهب المالكي في الغرب الإسلامي، تونس، 2004، ص: 185–224.

(20)/ القيرواني، النوادر والزيادات، ج14، ص: 539.

(21)/ نفسه، ج14، ص: 522.

(22)/ نفسه، ج14، ص: 524.

(23)/ الدرجيني، كتاب طبقات المشائخ بالمغرب، ج2، ص: 364. كذلك:

Fekhar, B., *Les communautés ibadites en Afrique du Nord (Libye, Tunisie et Algérie) depuis les Fatimides*, thèse de Doctorat d'État, Université Paris - Sorbonne, 1971,50-53.

(24)/ ابن أبي زيد القيرواني، مصدر سابق، ج14، ص: 539.

(25)/ نفسه، ج14، ص: 540.

(26)/ نفسه، ج14، ص: 540.

(27)/ نفسه، ج14، ص: 540.

(28)/ نفسه، ج14، ص: 540.

(29)/ نفسه، ج14، ص: 540.

(30)/ نفسه، ج14، ص: 541.

(31)/ نفسه، ج14، ص: 541. العديد من الآراء المنسوبة لسحنون، والذي يستند بدوره إلى كتاب الواضحة لابن حبيب، والواردة في كتاب النوادر والتي تتناول الحرب التي قادها الخليفة أبي بكر أو قتل الخارجي بخراسان من طرف الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز كنقطة انطلاق لتبرير الأعمال الوحشية الممارسة ضد مختلف تيارات الخوارج.

(32)/ ابن أبي زيد القيرواني، مصدر سابق، ج14، ص: 544-545. في دراسته حول التمرد في الفقه الإسلامي أورد الروايات المختلفة، الحديثية على وجه الخصوص، المتعلقة بمنع العصيان. نجد ثلاثة مصطلحات استعملت لوصف المتمردين: مرتدون، محاربون وبغاة ينظر:

Abou El Fadl, Kh., *Rebellion and Violence in Islam Law*, Cambridge, 2001, 112-118.

(33)/ نفسه، ج14، ص: 545.

(34)/ نفسه، ج14، ص: 546.

(35)/ نفسه، ج3، ص: 87.

(36)/نفسه، ج14، ص: 546-552.

(37)/ ابن أبي زيد القيرواني، كتاب الجامع في السنن، ص: 137-139.

(38)/ نفسه، ص: 157.

(39)/ ابن أبي زيد، النوادر والزيادات، ج10، ص: 300-301.

([40])/ نفسه، ج3، ص: 84-87.

([41])/ البرزلي، جامع المسائل والأحكام، ج1، ص: 336.

([42])/ نفسه، ج3، ص: 295-296.

([43])/ نفسه، ج2، ص: 317.

([44])/ نفسه، ج2، ص: 317-318.

([45])/ نفسه، ج3، ص: 584.

([46])/ نفسه، ج6، ص: 185.

([47])/ نفسه، ج6، ص: 186.

([48])/ نفسه، ج6، ص: 187.

([49])/ نفسه، ج6، ص: 188-189، 196-197.

([50])/ الشماخي، كتاب السير، ص: 439.

([51])/ الدرجيني، مصدر سابق، ج2، ص: 406. ينظر كذلك:

Prévost, *L'aventure ibadite dans le Sud tunisien*, 199- 201.

([52])/ ابن أبي زيد القيرواني، النوادر والزيادات، ج8، ص: 292.

([53])/ حول إباضية الجنوب التونسي ينظر:

- Prevost, *L'aventure ibadite dans le Sud tunisien, passim.*

- باجية صالح، الإباضية في الجريد التونسي في العصور الإسلامية الأولى، بحث تاريخي مذهبي، تونس، 1976. مرجع سابق.

([54])/ ابن أبي زيد القيرواني، الفتاوى، ص: 211.

([55])/ Prevost, V., "La renaissance des ibadites wahbites à Djerba au X^e^siècle", *Folia Orientalia,* 40 (2004), 171-191.

([56])/ البرزلي، جامع المسائل، ج4، ص: 71.

([57])/ فتوى السيوري، البرزلي، جامع المسائل، ج1، ص: 334.

([58])/ يُعرف الاباضية في أغلب النصوص الفقهية المتأخرة باسم الوهبية مثلما وجدناه لدى البرزلي. ينظر: البرزلي، جامع المسائل، ج4، ص: 51.

([59])/ البرزلي، جامع السائل، ج4، ص: 71. لم يقدم المالكية أي معلومات مفصّلة عن هذين الاتجاهين وقد انقسمت الإباضية إلى عدة فروع بسبب احتكار الرستميين للإمامة. من بين هذه الفروع نشير إلى الوهبية وهي الاتجاه الرسمي للأئمة، النكار الاتجاه المعارض لثاني الأئمة، الخلفية ومؤسسها خلف بن السمح وحول هذا الاتجاه ينظر: (إسهام الباحثة فرجيني بريفو)، وفي النهاية الفرثية وقد أسسها سليمان بن يعقوب بن أفلح سليل الأئمة الرستميين

عاش في النصف الأول من القرن 4هـ/10م في ورقلة. أبو عمرو عثمان المارغني السوفي، رسالة في بيان كل فرقة، نشر النص في مجلة جامعة الزيتونة، 31(1994)، ص:294-297. وينظر كذلك:

Lewicki, T., "Les subdivisions de l'Ibadiyya", *Studia Islamica*, IX (1958), 71-82.

(60)/ نفسه، ج6، ص: 191.

(61)/ الونشريسي، المعيار، ج10، ص: 149.

(62)/ ابن أبي زيد القيرواني، الفتاوى، ص: 211.

(63)/ حول تطور نظام الحلقة ينظر:

EI^2, *s.v.* "Halka" [Lewicki, T.], III, 97-98 ; Prevost, V., "Genèse et développement de la h*alqa* chez les ibadites maghrébins", *Acta Orientalia Belgica*, XIX (2006), 109-124 ; Amara, A., "La structuration des ibadites- wahbites au Maghreb (XI^e-XV^e siècle)", *Annales islamologiques*, 42 (2008), 259-273,264-268.

(64)/ البرزلي، جامع المسائل والأحكام، ج1، ص: 334.

(65)/ نفسه، ج1، ص: 334.

(66)/ ابن أبي زيد، فتاوى، ص: 196-197، 294-295. كذلك: الونشريسي، المعيار، ج7، ص: 237.

(67)/ البرزلي، جامع المسائل، ج3، ص: 395.

(68)/ تحدث أبو بكر المالكي حول مشاركة المالكية في الثورة التي قام بها أبو يزيد محاولا تبرير ذلك (رياض النفوس، ج2، 444).

(69)/ ابن عذاري، البيان المغرب، ج1، ص: 281.

(70)/ البرزلي، جامع المسائل، ج5، ص: 23-24.

(71)/ البرزلي، جامع المسائل والأحكام، ج1، ص: 334. كذلك: الونشريسي، المعيار، ج10، ص: 148-149.

(72)/ نفسه،ج1، ص: 335-336. كذلك: الونشريسي، المعيار، ج10، ص: 151.

(73)/ نفسه،ج2، ص: 316-317. كذلك: الونشريسي، المعيار، ج10، ص: 150-151.

(74)/ نفسه، ج2، ص: 15.

(75)/ نفسه، ج4، ص: 51

(76)/ الونشريسي، المعيار، ج7، ص: 362.

(77)/ البرزلي، جامع المسائل، ج3، ص: 247.

(78)/ حسب أبو الفضل، الثورة والعنف في الفقه الإسلامي، 111-112، الروايات التي تدين الخوارج لم تأخذ موقعها إلا انطلاقا من النصف الثاني من القرن 2هـ/8م.

(79)/ حول هذا النمط من المعمار الإباضي ينظر:

Prevost, V., "L'urbanisme des Ibadites maghrébins médiévaux et le cas particulier de

Djerba", *Rocznik Orientalistyczny*, LIX (2006), 5-16.

([80])/ حاول الإباضيون حماية هويتهم الثقافية طيلة العصر الوسيط مثلما يشهد عليه إنتاجهم الفكري. ينظر:

Lewicki, T., "De quelques textes inédits en vieux berbère provenant d'une chronique ibadite anonyme", *Revue d'études islamiques*, III (1934),275-296.

([81])/ Lewicki, T., "Quelques extraits inédits relatifs aux voyages des commerçants et des missionnaires ibadites nord-africains au pays du Soudan occidental au Moyen Âge", *Folia Orientalia*, II (1960), 1-27.

([82])/ الداودي، كتاب الأموال، ص: 146. الملاحظة نفسها تنسحب على مجموع القاضي عياض حيث يتوفر على فتاوى تتعلق بمسيحيي الأندلس (عياض، مذاهب الحكام في نوازل الأحكام، ص: 203-204).

([83])/ نفسه، ص: 106-107. حول الممارسات الدينية لبرغواطة وسسوالة ينظر:

Talbi, M., "Hérésie, acculturation et nationalisme des BerbèresBargawata" dans *Actes du premier congrès d'études des cultures méditerranéennes d'influence arabo-berbère*, Alger, 1973, 217-233 ; Amara, A., "Texte méconnu sur deux groupes hérétiques du Maghreb médiéval", *Arabica*, LII/3 (2005), 348-372.

الكاتب: د.عبد الغني عمر اني
باحث جامعة الحسن الثاني
المغرب

عنوان المقال: الأجانب ومسألة تملك العقارات في مغرب ما قبل الاستعمار

البريد الالكتروني: Pr.ghaniho@gmail.com

تاريخ الارسال: 2020/04/22 تاريخ القبول: 2020/05/13 تاريخ النشر: 2020/06/30

الأجانب ومسألة تملك العقارات في مغرب ما قبل الاستعمار

Foreigners and the question of real estate ownership in pre-colonial Morocco

الملخص بالعربية:

لم يحظ موضوع العقار بالمغرب خلال القرن التاسع عشر بمثل ما حظيت به حقول تاريخية أخرى من البحث والدراسة سواء من طرف الباحثين المغاربة أو الأجانب، وذلك على الرغم من أهمية هذا الحقل الاقتصادي في الدراسات التاريخية المعاصرة. فقد شكل العقار دائماً إلى جانب مصادر اقتصادية أخرى كالمياه والمواشي محور نزاع محموم بين القبائل المغربية أو بينها وبين الأجانب بصفة عامة، ذلك لأن القاعدة العامة تقوم على أن من يتحكم في هذه المصادر تتحقق له السيطرة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، كما شكل العقار أيضاً لأهميته القصوى إحدى أبرز وسائل التغلغل الاستعماري بالمغرب إبان القرن التاسع عشر، وآلية عكزت عليها فيما بعد السلطات الاستعمارية لإخضاع القبائل السائبة وإجبارها على قبول نظام الحماية قسراً لا طوعاً. تحاول هذه الدراسة تسليط الضوء على أهمية هذا الحقل الاقتصادي في السياسة المخزنية ومحاولة المخزن الحثيثة للحفاظ عليه من سيطرة القوى الأوربية التي حرصت طيلة القرن التاسع عشر على امتلاكه بشتى الوسائل والأساليب قبل أن يتأتى لها ذلك تدريجياً منذ توقيع المغرب على اتفاقية 1856م.

الكلمات الدالة: المغرب، العقار، القوى الاستعمارية، المخزن، أوربا، الاقتصاد، الضغوط الأوربية، الامتيازات، اتفاقيات غير متكافئة، القنصل.

Abstract :

The subject of real estate in Morocco, during the nineteenth century, has not been researched sufficiently, neither by Moroccan nor foreign researchers, despite the

importance of this economic field in contemporary historical studies. Real estate has always been formed alongside other economic resources such as water and livestock; thus, it constituted an axis of conflict either between the Moroccan tribes themselves, or between them and foreigners in general. In this sense, as a general rule, whoever controls these resources will achieve economic, social and political control.Besides, and due to its extreme importance, real estate was one of the most prominent means of colonial penetration in Morocco during the period under study, and a mechanism on which the colonial authorities focused later on to subdue the loose tribes and force them to accept the protectorate system, forcibly rather than voluntarily. This study aims to shed light on the importance of this field in the *Makhzen* policy, and its intense attempt to preserve it from the control of the European powers, which were keen, throughout the nineteenth century, to possess it by all means and methods before gradually achieving this since Morocco signed the 1856 agreement.

Keywords: , the Consul, Colonial powers, European pressures , Europe, Morocco, .the Makhzen, Real estate, privileges,unequal treaties

مقدمة:

شهد المغرب خلال القرن التاسع عشر اضطراب الأوضاع الداخلية نتيجة تفاقم الأطماع الأوربية عليه مستهدفةً بالأساس خلخلة البنيات السياسية والاقتصادية والسوسيو-ثقافية للمجتمع المغربي بغرض تطويعه في أفق ضم البلاد إلى المتروبول. ولأجل تحقيق غايتها المنشودة حرصت القوى الأوربية خاصة فرنسا وبريطانيا وإسبانيا، وبعدها إيطاليا وألمانيا على توظيف عدة أساليب وآليات اختلفت وظيفتها باختلاف وزن وقوة حضور الدولة في المنتظم الدولي على التغلغل داخل المغرب لأجل استغلاله اقتصاديا، وإضعافه سياسيا، وتشتيته ثقافيا، وتفكيكه اجتماعيا، كفرنسا التي سعت منذ احتلال الجزائر عام 1830م إلى التفكير في وسيلة ما تتيح لها السيطرة على المغرب، وهو ما تأتى لها نسبياً سنة 1844م حينما جرَّت البلد إلى حرب خاسرة عام 1844م، وأرغمته بعد ذلك على توقيع عدد من المعاهدات الغير متكافئة (معاهدة طنجة 1844م، معاهدة لالة مغنية 1845م، وتسوية 1863م) منحت للفرنسيين امتيازات

سياسية واقتصادية عديدة في المغرب، وبريطانيا التي عملت في شخص قنصلها العام جون دراموند هاي (John Drummond Hay) [1] على إقناع المغرب بتوقيع اتفاقية 1856م التي أعطت للأجانب وللبريطانيين خصوصاً امتيازات شتى، كالحق في السفر إلى المغرب والاستقرار به، وامتلاك الأراضي والديار وغيرها من الامتيازات الأخرى التي أفقدت المخزن سيادته وهيبته. وبذلك تكون بريطانيا كما فرنسا الدولتان القويتان في أوربا وقتئذ ومن سارى على نهجهما - فيما بعد- قد وطَّدتا نفوذهما في المغرب بشكل كبير. سوف لن نسعى في هذه الدراسة إلى رصد تلك الضغوط المتنوعة التي مورست على المغرب وانعكاساتها الخطيرة على الدولة والمجتمع إبان الفترة المذكورة، وإنما سنركز الحديث في هذا الصدد على مدى إصرار الأوربيين طيلة القرن التاسع عشر على إحكام قبضتهم على إحدى أهم مقومات البلد الاقتصادية وهو «العقار» الذي كان يُعدُّ في نظرهم أساس ثروة البلاد، ومنطلقاً للسيطرة الشاملة على باقي الفروع الاقتصادية الأخرى، وذلك بالاعتماد على بعض وثائق الأرشيف الوطني بلاهاي وعلى بعض المراجع ذات الصلة.

1-امتلاك الأجانب للعقارات وردود الفعل

ظل تملك العقارات في المغرب إلى حدود منتصف القرن التاسع عشر ممنوعاً على الأجانب بصفة عامة وعلى الأوربيين بوجه خاص إلى أن اغتنمت بريطانيا فرصة توقيع المغرب على اتفاقية 1856م لتحصل منه على حق الرعايا البريطانيين في أن «يسافروا ويستقروا حيث شاؤوا بإيالة سلطان مراكش...وحقهم في امتلاك الأراضي والديار»[2]. وقد أقرَّت هذه الاتفاقية للرعايا البريطانيين الحق في «السكنى والبيع والشراء في جميع مراسي سلطان مراكش دون أمد محدود في كل ناحية من نواحي سلطان مراكش وفي كل محل يستقر فيه غيرهم من الأجناس، فإنهم يستقرون فيه، ولهم الكراء والإجزاء وإعمال الديار والمخازن لسلعهم»[3]، وبذلك تكون بريطانيا قد أباحت لرعاياها حق تملك الأراضي والمنازل بالمغرب على الرغم من معارضة النائب السلطاني محمد الخطيب[4]، الذي اعتبر أن امتلاك الأجانب للأرض أمر لا يمكن الحديث فيه إطلاقاً، لكن رد الفعل القنصل العام البريطاني جون دراموند هاي (John Drummond Hay)

على اعتراضات الخطيب كانت قوية وعنيفة، إذ اعتبر منع الرعايا البريطانيين من حق السفر والإقامة في المغرب رفضاً للمعاهدة المقترحة من أساسها[5]. وهكذا فتحت الاتفاقية المذكورة الباب على مصراعيه للبريطانيين وللأجانب عموماً ولمحميّهم للسطو على العقارات بشتى الأساليب والوسائل في المراسي والمناطق الداخلية قبل أن تتسع عملياتهم لتشمل المدن والمناطق الداخلية[6].

وحصلت دولة إسبانيا بدورها بمقتضى اتفاقية 30 أكتوبر1861م أي الاتفاقية التي أعقبت حرب تطوان على نفس الامتيازات التي حصلت عليها بريطانيا في الاتفاقية المتقدمة، إذ نصت هذه الاتفاقية على أن لـ«حضرة سلطانة أصبانية أيدها الله أن تأمر بجعل دار دار سكنا رهبان أي قسيسين بمدينة تطوان مثل الموجودة الآن بطنجة... وديارهم ومدارسهم الساكنين فيها يكونوا في غاية الأمان والحماية الخصوصية من جانب حضرة السلطان وولاته»[7].

والامتيازات نفسها تقريباً أقرَّتها الاتفاقية اللاحقة المبرمة بين الدولتين في 20 نونبر من السنة ذاتها والتي نصَّت بدورها على أن «رعية حضرة سلطانة إسبانية لهم أن يسافروا ويستقروا ويسكنوا حيث شاؤوا بإيالة حضرة سلطان مراكشة دون تعرض ولا منع من أحد...إذا اشترى أحد من جنس الإسبنيول دارا أو مخزنا أ أرضا بإيالة سلطان مراكشة وأذن له الولاة في ذلك يتصرف في ملكه كيف شاء بإنواع التصرفات، وكذلك إذا اكترى أحدهم حانوتا أو دارا أو غيرهما إلى أجل فلا يخرج قبل تمام مدته بزيادة عليه أو بغير زيادة حتى يكمل أجله»[8]1.

وجاء بعد ذلك مؤتمر مدريد الذي دعا إليه السلطان مولاي الحسن لأجل وضع حد للحمايات القنصلية أو على الأقل للتخفيف من وطأتها ليُشرعن للأجانب ولمحميّهم من المغاربة الحق في تملك العقارات ويُوسع من دائرة الدول المستفيدة من هذا الامتياز الحيوي الذي يعد صراحة أحد ركائز التغلغل الأجنبي بالمغرب خاصة في ظل انعدام نظام التحفيظ العقاري الذي لم يخرج إلى حيز الوجود إلاَّ في بداية القرن العشرين[9]، إذ نص هذا المؤتمر على أن «حقوق

الأملاك العقارية لرعية الأجناس بالمغرب معروف وشراء هذه الأملاك يكون بتقديم إذن الدولة المراكشية، ورسوم هذه الأملاك تكون مكتوبة بقوانين مقررة في شريعة البلد....، ورعية الأجناس والمحميون الذين لهم الملكية في الأرضين أو يكونونون اكتروها والسماسرة الذين تكون عندهم الفلاحة يدفعون الزكاة والأعشار»[10].

هكذا إذن شرعنت بنود الاتفاقيات السالفة حق وحرية امتلاك الأوربيين للعقارات لتنطلق سلسلة من عمليات السيطرة على أجود الأراضي الصالحة للزراعة خاصة في أحواز المدن الساحلية التي شهدت فيها الملكية العقارية امتداداً كبيراً على الرغم من احتجاجات المخزن، ففي أحواز أسفي مثلاً تجاوزت مساحة الضيعات الأوربية في نهاية عهد مولاي الحسن ثلاثمائة هكتار، وفي حدود سنوات 1892-1894م قدِّرت الاستثمارات الأجنبية الموظَّفة في البلاد من طرف الشركات الأجنبية بـ35 إلى 40 فرنك ذهبي نصفها في الملكيات العقارية[11].

وعلى أية حال، فقد ظل المخزن إلى حدود منتصف القرن التاسع عشر متشبثاً بفكرة إبعاد الأجانب والأوربيين على وجه الخصوص عن امتلاك وتملك العقارات بالمغرب، وذلك على الرغم من المحاولات المتكررة لهؤلاء للظفر بهذا الامتياز الهام، إيماناً منه بأن فتح هذا الباب على مصراعيه في وجههم قد يشكل خطراً على سيادة البلاد وهيبتها مستقبلاً، غير أن إصرارهم الشديد على كسب هذا الامتياز بالذات سرعان ما تأتى لهم إلى جانب امتيازات أخرى أكثر خطورة خصوصاً بعد أن دبَّ الضعب في دواليب الجيش والسياسية والاقتصاد المغربي منذ وقعة إيسلي عام 1845م التي كشفت الحجاب عن مغرب خائر القوة والإرادة.

2- الدبلوماسيون وشروط امتلاك العقارات

تجدر الإشارة أن نسجل في هذا الصدد أن المنع المخزني لم يكن سارياً على جميع الأفراد الأجانب، وإنما كان مقصوراً على التُجَّار ورجال الأعمال والمهاجرين والرَّحالة وشُذَّاذي الآفاق، بينما استُثني منهم ممثلي الهيئة الدبلوماسية سواء تلك التي هي في طنجة أم في غيرها من المدن المغربية.

وهكذا تفيدنا وثائق الأرشيف الوطني بلاهاي بمعلومات قيمة عن وجود حالات امتلك فيها الدبلوماسيون الأجانب لعقارات إما في شكل دور أو على شكل أراضي أو «عرصات» قبل سنة

1856م. سوف لن نقوم بعملية لجرد دقيق لجميع الدبلوماسيين الأجانب الذين استفادوا من العقارات المغربية، وإنما سنقتصر في هذا الصدد على ذكر حالات معدودة ممن ترددت أسماءهم كثيراً في الوثائق الهولندية، ويتعلق الأمر هنا بثلاث قضايا تتعلق الأولى بالقنصل الهولندي كارلوس نيسن[12] (Carlos Neissen)، والثانية بنائبه أبراهام بن دلاك[13]، والثالثة تتصل بالقنصل الدانماركي يوهان أرناط كريسطرسن (Johan Arnat Kristerson).

نطَّلع على قضية القنصل الهولندي كارلوس نيسن من خلال وثيقة خاصة مؤرخة في أواخر ذي الحجة 1234هـ/1818م، يشهد فيها على أنفسهم الذِّمِّي يعقوب سرفات وزوجته زهراء بنت سمويل مسيح والذِّمِّية سمحة زوجة ميمون بن عمُّور جَدَّة الصبية المحجورة بنت شمعون، بمنح القنصل العام الهولندي كارلوس نيسن (Carlos Neissen) منزلاً بمدينة طنجة «بحومة فرَّان الزغمورة ... يتقضَّى فيها مآربه وحوائجه التي يحتاج لها في الدار المذكورة إلى أن يريد ردَّها لهم»[14]، وهكذا يكون القنصل الهولندي المتقدم قد تملك عقاراً بمدينة طنجة مُنح له من طرف عائلة ذِّمية لغرض غير معروف قد يكون ربما تزلُّفاً لأجل قضاء مآربهم التجارية، أو لنيل رضى شخص ذو سلطة عالية، أو من أجل الدفاع عنهم كأقلية غير مرغوب فيها، أو بحكم الانتماء المشترك.

وفي وثيقة عدلية آخرى مؤرخة في17 رمضان 1240هـ/1824م، نجد فيها بأن السيد عبد القادر بن الجيلالي العبدي رزاقي قد «أَكْرَى الذمي إبراهيم بن حيِّم بن دلاك نائباً عن الرومي كَرْلُ نِيسِنْ[15] قونصو الفلمينگ جميع عرصته الكائنة خارج باب الفحص من ثغر طنجة...، لمدة خمس سنين من تاريخه بوجيبة قدرها في كل سنة اثنا عشر مثقالاً، مجموع المال ستون مثقالاً، يؤدِّيه له لمضي شهر واحدٍ من تاريخه»[16].

هكذا يمكن القول، أن دبلوماسياً هولندياً آخر يكون قد تملك عقاراً فلاحياً على شكل «عرصة»، اكتراها من السيد عبد القادر بن الجيلالي بوجيبة معلومة ولمدة زمنية محددة. ولئن

كانت صيغة تملكه مختلفة عن نظيرتها الأولى، فإن التقاطع بين القضيتين واضح للعيان، وهو أن كلا الرجلين ينتميان إلى المؤسسة الدبلوماسية، وأن تملكهما للعقار كان مسألة حتمية لم يكن في مقدرة المخزن تجنبها، وهو الذي أقرَّ في اتفاقياته مع هولندا باحترام ممثليها بالمغرب وتوفير لهم السكن وأسباب الراحة والأمان.

أما قضية القنصل الدانماركي أرناط كريسطرسن Johan Arnat Kristerson فإنها لا تختلف عن القضيتين السالفتين، ذلك أن السلطان مولاي عبد الرحمن بن هشام كان قد أصدر في 13 شعبان 1248هـ/1832م ظهيراً يمنح بمقتضاه هذا القنصل «عرصة»، بمدينة طنجة كتعبير عن أوصر الصداقة والمحبة التي تجمع بين المغرب والدانمارك[17].

ولم تمض سوى ثلاثة أيام على تاريخ صدور هذا الظهير، حتى وجَّه السلطان ذاته رسالة إلى القنصل الدانماركي المتقدم، يُجدد فيها إنعامه عليه بـ«العرصة» المذكورة، معبراً له في ذات الوقت عن المكانة المتميزة التي يحظى بها عنده بني جلدته، والمحبة التي تكنُّها دولته لشخصه قديماً وحديثاً وذلك بقوله: «وفي شأن العرصة التي كانت بيد القونصو المتوفَّى، فقد أنعمنا عليك بذلك كله، وها أَمْرُنَا بذلك يُوافيك، وجنسكم عندنا أخصُّ الأجناس، ونعلم محبتكم في عليّ جنابنا حديثاً وقديماً»[18].

خاتمة

نستخلص مما تقدم، أن المخزن المغربي ظل حريصاً على منع تملك الأجانب للعقارات بالمغرب إلى حدود النصف الأول من القرن التاسع عشر، وعياً منه بأن هذا الإجراء سيشكل على المدى البعيد خطراً على سيادة البلاد واستقلالها، لذلك سعى بشتى الأساليب والوسائل إلى إبعادهم عن هذا القطاع الاقتصادي الحيوي الذي يشكل بحق الأساس التي تقوم عليه البلاد، وتنبهاً منه أيضاً بأن سيطرة الأجانب على هذا القطاع معناه السيطرة التامة على باقي القطاعات الأخرى، بيد أنه سمح لممثلي المؤسسة الدبلوماسية بتملكه على اعتبار أن مهمتهم كانت محدودة زمنياً ومحددة مكانياً تفرض عليهم الاستقرار نسبياً، بشرط أن يردُّوا العقار كيفما كان لمالكه أو للمخزن بمجرد ما أن تنتهي مهمتهم، وبأن لا يدخلوا عليه أية إصلاحات لئلا يزعموا مع مرور الوقت أنه قد صار ملكاً لهم مثلما حدث مع النائب عن قنصل دولة هولندا

بالعرائش أندري گوانينو (A. Guagnino) سنة 1899م حينما اشتكى من عامل المدينة الذي منعه من إصلاح منزله بدعوى أنه في ملكية المخزن حسبما يبدو من رسالة بعث بها القنصل العام لدولة هولندة بطنجة البارون فريدريش فون منتسينگن(Friedrich von Mentzingen) [19] إلى النائب السلطاني محمد بن العربي الطُّرّيس[20] في سنة 1899م يُخبره فيه بأن: «بِيصْ قُنْصُ وُلاَنْدَى ساكنٌ بدارٍ منذ مدة سابقة...، تُعرف عموماً كونها لجانب دولة هولندى، فهذه مدة من أيام كان بيس قنصو كوانينو كلف بعض الصناع بإصلاح تلك الدار، (لكن) عامل العرائش جعل بالسجن هؤلاء المساكين، ويستعذر من ذلك العمل الغاصب بأن الدار لجانب المخزن....بعد هذا وجه أناس بأمره، ونزلوا الرياض البيص قنصو، وقطعوا أشجار هناك ونهبوا عدداً من اللوح»[21].

ولم يلبث أن وجَّه محمد بن العربي الطُّرّيس رسالة جوابية إلى القنصل المتقدم بتاريخ 29 ربيع الأول 1317هـ/1899م يُعلمه فيها باستلام شكايته المذكورة، وأنه ولأجل التحقق مما يدعيه نائبه، وجَّه رسالة عاجلة إلى عامل العرائش لاستجلاء حقيقة هذه القضية، فرد عليه هذا الأخير بكون الدار المعنية تعد من جملة أملاك المخزن المغربي، فلا يحق للنائب المذكور أو لغيره إدخال أي إصلاح فيها، وليؤكد له صدق كلامه أرفق رسالته الجوابية بـ«حجة ساطعة -يقول محمد العربي الطريس- لتطلع على مضمنه، وبه تَعْلَم أن الدار لجانب المخزن، فلا مدخل لغيره فيها، وتردّ لنا المُوجب المذكور بعد فهم المراد منه للاحتياج إليه، دمتَ بخير، والسلام»[22]. بيد أن الأمر سرعان ما تبدل مع تبدل أحوال البلاد السياسية والاقتصادية والاجتماعية وأضحى للأجانب عقارات شاسعة اتخذتها دولهم خاصة فرنسا وإسبانيا وسيلة لتطويع المخزن وإرغامه على الاعتراف بالأمر الواقع.

الملحق رقم 1:

رسالة النائب السلطاني محمد بن العربي الطُّرِيس إلى الوزير المفوَّض لدولة ألمانيا والقنصل العام لدولة هولندة بطنجة البارون فريدريش فون منتسينگن، بتاريخ 29 ربيع الأول 1317هـ/1899م. الأرشيف الوطني بلاهاي، سلسلة 2.05.15.15، قنصلية طنجة 1830-1907.

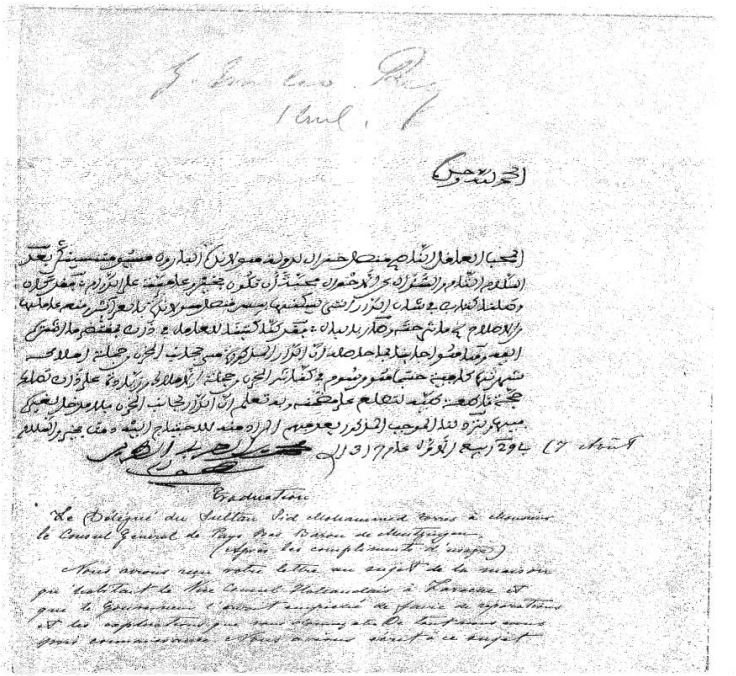

الملحق رقم 2:

عقد كراء أرض بطنجة لفائدة نائب القنصل الهولندي أبراهام بن دلاك، 17 رمضان 1240هـ/1824م. الأرشيف الوطني بلاهاي، سلسلة 2.05.22، قنصلية طنجة 1830-1907.

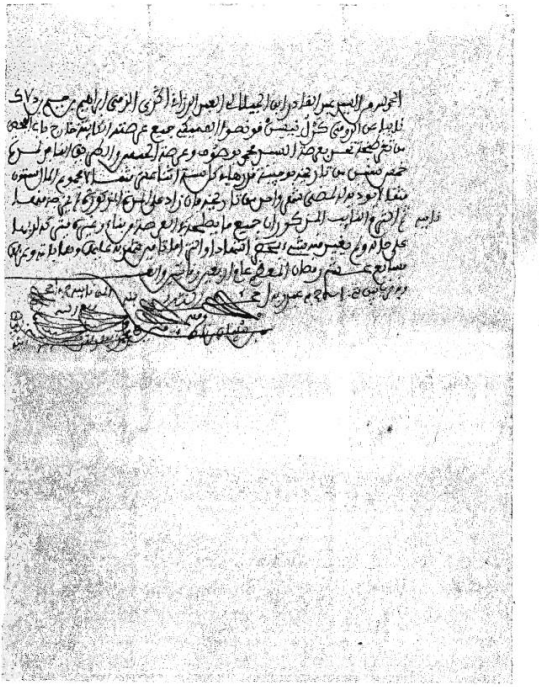

الهوامش:

(1) : ينحدر من الأرستقراطية السكوتلندية، وكانت ولادته في مدينة فلانسيين (Valencienne) الفرنسية في فاتح يونيو سنة 1818م، التحق بمدينة طنجة سنة 1832م وعمره لا يتجاوز الخامسة عشرة ، فوجه اهتماماته هناك لتعلم اللغة العربية وأصبح قادرا على الكتابة بها، وعلى ترجمة بعض نصوصها إلى الإنجليزية وكان بذلك قد وضع البنات الأولى لتهيئ نفسه للعمل الدبلوماسي في البلدان الإسلامية، تقلد منصب مساعد القنصل العام البريطاني هودجس (Hodges) بالإسكندرية قبل أن يتجه إلى العمل في خدمة اللورد بونسونبي (Ponsonby) بالقسطنطنية، ومنها إلى المغرب حين تم تعيينه قنصلا عاما لبريطانيا بعد وفاة والده إدوارد سنة

1845م، وكانت بذلك البداية لمرحلة طويلة قضاها حون دراموند هاي في المغرب لم تعرف نهايتها إلا في سنة 1886م. انظر: خالد بن الصغير، المغرب وبريطانيا العظمى في القرن التاسع عشر (1856-1886)، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط. الثانية 1997، ص ص. 52 -54؛

انظر أيضاً:

Jean-Louis Miége, *Jean-Louis Miége, Le Maroc et L'Europe 1822-1906*, Editions La Porte, Tome II,Rabat, 1962, P P.271-277.

(2) : انظر: خالد بن الصغير، المغرب وبريطانيا العظمى في القرن التاسع .....، م.س، ص.101.

(3): انظر: بنود هذه الاتفاقية في كتاب: نصوص اتفاقيات دولية مبرمة بين المملكة المغربية ودول أجنبية، تقديم وتحقيق وتعليق عبد اللطيف الشاذلي، ج 2، المطبعة الملكية، الرباط، 2007، ص ص.422-423.

(4) : محمد بن عبد الله الخطيب، ينحدر من أسرة تطوانية مرموقة ونشيطة، كان أحد تجار المغاربة الأغنياء، عاش بجبل طارق للتجارة فيها مدة 17 سنة، وأقام طويلا بمدينة مرسيليا ثم بمدينة جنوة حيث تعلم اللغة الإيطالية، عُين أولا أمينا بدوانة طنجة، وفي ماي 1851م أصبح باشا المدينة ثم نائبا سلطانياً بعد وفاة بوسلهام بن علي، بقي في منصبه حتى عزل سنة 1862م بطلب من إسبانيا، رحل بعدها إلى تطوان حيث قضى بقية عمره في العبادة حتى توفي في 24 شوال 1288هـ/6 يناير 1872م. مصطفى بوشعراء، الاستيطان والحماية بالمغرب 1863-1894م، المطبعة الملكية، الرباط، 1984، ج1. ص ص. 391-392؛ مصطفى الشابي، مادة «الخطيب مَحمد بن عبد الله»، في معلمة المغرب، ج11، نشر مطابع سلا، 2000، ص ص. 3779- 3780.

(5): امحمد أحمد بن عبود، مركز الأجانب في المغرب، دراسة قانونية لوضعية الأجانب في المغرب قبل عهد الحماية وخلاله، منشورات عكاظ، الرباط، ط. الثالثة 1988، ص ص.101-102.

(6): محمد كنبيب، المحميون، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، مطبعة دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، الطبعة الأولى 2011، ص.140؛ الطيب بياض، المخزن والضريبة والاستعمار ضريبة الترتيب 1880-1915م، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ط. الأولى 2011، ص.184.

(7): انظر الفصل السادس من هذه الاتفاقية في كتاب: نصوص اتفاقيات دولية مبرمة بين المملكة المغربية ودول أجنبية اتفاقية ....،م.س، ص.480.

(8): المرجع نفسه، ص ص. 490-489.

(9): مصطفى بوشعراء، الاستيطان والحماية بالمغرب 1863-1894م....،م.س، ص.334.

(10): نصوص اتفاقيات دولية مبرمة بين المملكة المغربية ودول أجنبية اتفاقية...، م.س، ج 3، ص ص.28-29.

(11): محمد الأمين البزاز، تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، ط. الأولى 1992، ص.156.

(12): هو القنصل العالم لدولة هولندة بالمغرب خلال فترة السلطان مولاي سليمان وردحاً من عهد السلطان مولاي عبد الرحمن، وكان له يد بيضاء في تصفية عدد من القضايا الشائكة التي طفت على الساحة السياسية المغربية الهولندية أبرزها قضية هجوم البحرية المغربية على المراكب الهولندية سنة 1817م وما ترتب عنه من

خسائر مادية وبشرية جسيمة. الأرشيف الوطني بلاهاي، سلسلة 2.05.22، قنصلية طنجة 1815-1830، رقم 7.

(13): هو ابن أسرة يهودية وفدت من هولندة إلى المغرب واستقرت بمدينة طنجة خلال القرن السابع عشر، وكانت أسرته من رعايا هولندة خلال هذه الفترة، ولد سنة 1755م وتوفي عام 1846م اشتغل مترجماً بالقنصلية الهولندية في طنجة لمدة تقرب عن أربعين سنة خلال نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر ما مكنه من الاطلاع على مراسلات الدبلوماسيين الأجانب وأنشطتهم، ووقف على كل الأحداث التي تتمحور حول العلاقات المغربية الأوربية. للاطلاع أكثر حول هذا الموضوع انظر:

Abraham Bendelac, *Chronique de Tanger, 1820-1830, journal de Bendelac,* Rédacteur Jean Louis Miège, Editions La Porte, Rabat, 1995.

(14): انظر نص هذه الشهادة بالأرشيف الوطني بلاهاي، سلسلة 2.05.22، قنصلية طنجة 1815-1830م، رقم 40.

(15): يقصد القنصل الهولندي العام بطنجية كارلوس نيسن (Carlos Neissen) .

(16) : انظر نص هذه الشهادة بالأرشيف الوطني بلاهاي، سلسلة 2.05.22، قنصلية طنجة 1815-1830، رقم 6.

(17): الأرشيف الوطني بلاهاي، سلسلة 2.05.15.15، قنصلية طنجة 1830-1907، رقم 30.

(18) : من رسالة السلطان مولاي عبد الرحمن بن هشام إلى قنصل الدنمارك بطنجة يُوهَان أرناط كريسطرسن، بتاريخ 17 شعبان 1248هـ/1832م. الأرشيف الوطني بلاهاي، سلسلة 2.05.15.15، قنصلية طنجة 1830-1907، رقم 30.

(19): هو الوزير المفوَّض لدولة ألمانيا والقنصل العام لدولة هولندا بطنجة الألماني فريدريش فون منتسينگن Friedrich von Mentzingen، تقلد مهمته بطنجة ما بين سنتي 1899-1904م.

(20): من مواليد تطوان سنة 1242هـ/1825م، أخذ قسطاً من العلوم الدينية بمسقط رأسه، ثم ارتحل إلى الصويرة حيث كان والده مقيما فأخذ من علمائها علوماً مختلفة، اشتغل أمينا بوادي مرتيل بادئ الأمر، ثم عين أميناً للمستفاد بالدار البيضاء سنة 1875م إلى أن أُعفي سنة 1878م، ثم كلَّفه السلطان بباشوية مدينة الدار البيضاء، وظل في هذه المهمة إلى سنة إعفاءه منها 1882م، ثم التحق بمدينة طنجة وصار ينوب عن محمد برگاش أثناء غيبته. وقد كان كثير التبرم من العمل المخزني ولعل هذه هو السبب في عدم تعيينه خلفا لمحمد برگاش، كما كان قليل الخبرة بالشؤون الدبلوماسية ونفسيات الأجانب وخفايا التجارة، توفي ليلة 16 شعبان 1326هـ/12 شتنبر 1908م بمدينة طنجة. مصطفى بوشعراء، الاستيطان والحماية....، م.س، ج1، ص ص. 399-405؛ محمد بن عزوز حكيم، مادة «الطريس محمد بن العربي»، في معلمة المغرب، ج17، نشر مطابع سلا، 2003، ص. 5736-5737.

(21): من رسالة الوزير المفوَّض لدولة ألمانيا والقنصل العام لدولة هولندة بطنجة البارون فريدريش فون منتسينگن إلى النائب السلطاني محمد بن العربي الطُّرِيس، بتاريخ 30 يوليوز 1899م. الأرشيف الوطني

بلاهاي، سلسلة 2.05.15.15، قنصلية طنجة 1830-1907، رقم 61. انظر أيضاً إلى الرسالة نفسها في المكتبة العامة والمحفوظات، محفظة رقم 61، ر. و. 95.

(22): من رسالة النائب السلطاني محمد بن العربي الطُّرِّيس إلى الوزير المفوَّض لدولة ألمانيا والقنصل العام لدولة هولندة بطنجة البارون فريدريش فون منتسينگن، بتاريخ 29 ربيع الأول 1317هـ/1899م. الأرشيف الوطني بلاهاي، سلسلة 2.05.15.15، قنصلية طنجة 1830-1907، رقم 61.

الكاتب: ط.د/يوسف بوسعدة
جامعة سوسة / تونس
أ/ عبد القادر عزام عوادي
جامعة الوادي/ الجزائر

عنوان المقال: تجلّيات الشخصيات الأجنبية النافذة للمناسبات الدينية والبروتوكولات الرّسميّة العثمانية بالجزائر خلال فترة الدّايَات

salahdinayouby.2014@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2020/05/15 تاريخ القبول2020/06/06 تاريخ النشر: 2020/06/30

تجلّيات الشخصيات الأجنبية النافذة للمناسبات الدينية والبروتوكولات الرّسميّة العثمانية بالجزائر خلال فترة الدّايَات

الملخص:

تزخر الجزائر مُجتمعا وسُلطة على غرار دول العالم بالعديد من المناسبات الدينية و البروتوكولات الرّسمية خلال الفترة العثمانية، وتعتبر هذه المناسبات بمثابة أعياد للسّكان تُطلق فيها العنان للأفراح عاكسة قدسية ومكانة المناسبة في نفوس الرّعية. والسّلطة العثمانية لم تكن بعيدة عن هذه المناسبات الدينية باعتبارها تمثّل الخلافة الإسلامية، فلهذا كان لزاما عليها إحياؤها وتأطيرها، وبما أنّ إيالة الجزائر تُعتبر جزء لا يتجزأ من المُجتمع الدّولي، فقد تواجد فيها قناصل وشخصيات أجنبية نافذة شكلت مع المجتمع الجزائري تنوعا اثنيا ودينيا، ما نتج عن كتاباتهم قربها للحدث، وأعطت لنا انطباعاتهم صورا أجنبية مختلفة عن باقي الكتابات، ولهذا حاولنا رصد ملاحظاتهم حول هذه المناسبات والبروتوكولات الرّسمية المتعلقة بهم، فوجدنا أنها تحمل في طياتها استحسانا وفي بعض الأحيان تقبّلا وفي غالب الأحيان كثيرا من التمرّد والرّفض .

Summary:

Algeria has a community and authority similar to the world's countries with many religious events and official protocols during the Ottoman period, and these events are considered as celebrations for the inhabitants, in which they give free rein to sacred verses and the suitable place in the care of the people. The Ottoman authority was not far from these religious occasions as representing the Islamic

caliphate, so it had to revive and frame it, and since the Algerian people were an integral part of the international community, there were foreign consuls and figures who formed with Algerian society an ethnic and religious diversity, resulting in their writings being close to the event. Their impressions gave us foreign images that were different from the rest of the writings, so we tried to monitor their observations on these official occasions and protocols, and we found that they were very much welcome and sometimes receptive and often often far from rebellion and plunder

المقدمة:

يعتبر موضوع المناسبات الدينية والبروتوكولات الرسمية من المواضيع المهمة التي نفسر في سياقاتها العديد من ممارسات السلطة، وهذه التفسيرات تعتمد على المادة المصدرية ونظرتها للحدث، ومن هذه المصادر الحسّاسة والمهمة التي نعتمد عليها مذكرات ومراسلات الشخصيات الأجنبية النافذة، سواء تعلق الأمر بالقناصل أو المبعوثون من طرف حكومات أجنبية للتفاوض على مصالحهم، أو المستكشفين العلميين الموصون تحت غطاء حكومي وحماية السلطة العثمانية، أو من خلال شخصيات أجنبية تقلّدت لمناصب إدارية عليا في الإيالة، وسُنحاول في ورقتنا العلمية أن نجمع تلك الإشارات والانطباعات التي تركها لنا هؤلاء خلال فترة محدّدة امتدت من سنة 1671-1830 والتي اصطُلح عليها بفترة الدّايات. ومن خلال ملاحظاتنا على مدَوّناتهم وجدنا أنها كانت تشمل العديد من التفاسير والتحليلات وحتى أدوار مهمة متعلقة بمصالحهم خلال المناسبات الدينية خاصة بما تعلق الأمر بشهر رمضان الكريم ومناسبة عيد الفطر والأضحى، وبما أن وفود هؤلاء إلى الجزائر كانت تضبطهم بروتوكولات السلطة العثمانية بالجزائر، وجدنا أن لهم تجلّيات حول عدّة مراسيم كالاستقبال حين الوصول والعادات المتعلقة بالقصر والبروتوكولات الرسميّة فيه.

وهو ما يدفعنا لطرح الإشكال الآتي: ما هي تجليات المناسبات الدينية والبروتوكولات الرسمية في كتابات الشخصيات الاجنبية النافذة؟ وماهي أدوارهم فيها؟

1. تمثّلات الشّخصيات الأجنبية النافذة للاحتفالات الدينية :

1.1 شهر رمضان المعظم :

يعتبر شهر رمضان المعظم من أركان الإسلام بالنسبة للمسلم وأدائه تقرب من الله سبحانه وتعالى، ولهذا كان المجتمع الجزائري كغيره من المجتمعات الإسلامية يمتثل لفرائض وسُنن هذا الشهر الكريم، وترجع عظمة هذا الشهر في قوله تعالى:﴿ شهرُ رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبيّنات من الهدى والفرقان﴾ (القرآن الكريم، سورة البقرة، الآية 185)، وقد كانت السلطة العثمانية تُصبغ على هذا الشهر نوع من التّفَرّد في الطابع العام المألوف طيلة أحد عشر شهرا في السنة، وكان يتمّ الإعلان عنه بإطلاق مائة طلقة من مدفع كبير وتوقد مصابيح كثيرة فوق منارات المساجد، ويرفع المؤذن الراية البيضاء فيدعوا بعدها لإقامة الصلاة (دودو، دت، ص 67)، كما هو شهر الحلويات والضيافة والأفراح عند الجزائريين لكن الحفلات الوحيدة الصاخبة التي نقلها الاتراك العثمانيين الى الجزائر هي حفلات القرقوز التركي وكان يحضره مئات الاشخاص ويتم بعد الافطار(هاينريش 1976، ج 3 ، ص 63)، وهو ما أعجب المفاوض الأمريكي جيمس كانكارت[1] بأجوائه التي شبه لياليه بالأعراس (كانكارت، 1982، ص252)، وهذا الخروج عن المألوف الذي تراءى لدى المفاوض يدفعنا إلى مزيد من التقصي في تمثّل هذه المناسبة عند بعض الشخصيات النافذة فوجدنا:

أولا: تغيّر دوام العمل خلال المناسبة: لامتناعِ المسلم عن الأكل والشرب من طلوع الفجر إلى حين غروب الشمس أثر على مردوده اليومي، وهو ما لاحظه العالم الألماني المبعوث هابنسترايت[2] في أنّ فئة كبيرة من مجتمع مدينة الجزائر كان يؤجل سائر أعماله إلى الفترة اللّيلية بدافع تجنّب الإرهاق (هابنسترايت، د ت ، ص 48)، ويبدو أنّ هذا التّحوّل في الدوام اليومي لم يكن مقتصرا على الرّعيّة بل حتى السّلطة التي كانت تتجنب الدّوام الصباحي، وهو ما أثار حفيظة المفاوض الأمريكي كانكارت حيث طلب إذنا من الدّاي في 5 مارس 1796لمقابلة مواطنه المبعوث الأمريكي بارلو لأجل مفاوضات بين الولايات المتحدة الأمريكية وإيالة الجزائر، إلا أن الباشا استغل مناسبة شهر رمضان فرفض اللقاء إلى غاية الانتهاء من هذه الفريضة ، ما علّق عليه كانكارت قائلا: " وأنا أعتقد أنه لو لم يكن الوقت وقت الصيام لرضي الدّاي باستقبال بارلو، على الأقل ليمتّع نفسه بشتمه وتهديده"، ولقد كان مجتمع مدينة الجزائر في غالبيته يعتقد بالعمل خلال شهر رمضان على وتيرة معيّنة حتى لا يرهق صحته، وخاصة وأن

هذا الشهر هو شهر عبادات من المسلم ما يستلزم منه جهدا بدنيا ونفسيا(كانكارت، 1982، ص252).

ثانيا : التزام الجزائريين بشهر رمضان: حرّرت عدة ملاحظات من الأجانب حول تمسك الجزائريين بصيام شهر رمضان المعظم، لكن العالم الألماني أشار إلى فئة أخرى قد يصعّب عليها ذلك نظرا لظروفها، وهم المدمنين على شرب الخمر الذين حسب إفادته استطاعوا أن يقاوموا نفسيتهم بالصوم طيلة ثلاثين أو تسع وعشرين يوما (هابنسترايت، د ت، ص 48)، ويظهر التزام هذا الصنف بالصيام على أهمية المناسبة وقدسيتها في نفوسهم . وهو ما يتجلّى أكثر في العادة التي كانت تدفع بالرعية إلى الجهاد ومحاولة تحرير وهران ابتغاء الشهادة والأجر المضاعف حيث كان يقوم بها الجزائريين في شهر رمضان من كل سنة كما يذكر ذلك خزناجي الباي تيدنا [3] (احميدة، 2003، ص 72)، وما يزيد تأكيدا لهذا السلوك هو ما نوّه إليه العالم الالماني هاينريش[4] بارتباط الجزائريين بالدّين وتعاليمه وتبين ذلك أكثر حين امتحن الجزائريين في دينهم أثناء الاحتلال الفرنسي (السعيد، 2013، ص 88).

2.1 مناسبة عيدي الفطروالأضحى:

يعتبر عيدي الفطر والأضحى من المناسبات البالغة الأهمية لدى الجزائريين في العهد العثماني ، حيث كانت هذه الأعياد تدعى بيرامات Bayrams وهي كلمة تركية الأصل خاصة بالعطل الدينية، فالعيد الصغير الذي يأتي بعد رمضان يُدعى سكر بيرام Seker Bayram وسمّي بهذا بسبب تبادل الهدايا فيه خاصة تلك القطع الصغيرة من الحلويات المصنوعة من السّكر ، أما عيد الأضحى فيدعى العيد الكبير ويدعى بالتركية Kurban Bayram أو كيوك بيرامي Kuyuk وقد كان من أكبر المناسبات أهمية بين المناسبات الدينية ومعناه الحرفي كما يذكر سبنسر: "عيد المسلم الكبير للتضحية وهو عيد الاضحى أو العيد الكبير لدى عالم المسلمين ، ويحتفي فيه بذكر التضحية المقدسة من قبل ابراهيم بكبش بدل ابنه اسماعيل" (سبنسر، 2006، ص 120).

وأما عن عيد الفطر فكان الإخبار به يقع على عاتق السلطة فبمجرد رؤية هلال العيد ينقل الخبر إلى الداي، فيأمر بدوره بإطلاق المدافع إعلانا بانتهاء الشهر المعظم وحلول عيد الفطر، وللعيدين مراسيم متبعة خاصة على السلطة إذ كان الداي يستقبل التهاني من أعضاء ديوانه والقناصل وكذا الرّعية في دار إمارته (هابنسترايت، د ت، ص 48) ، حيث كان القصر تصفف

فيه موائد الغذاء من مختلفة الأطعمة ويهيئ بشكل كما يذكر القنصل الأمريكي شالر[5] يُوحي على مظاهر البهجة والسرور (شالر، 1982، ص 67)، وعلى رأس هذه الموائد كان الدّاي يجلس بلباسه الرسمي على كرسيّه المغلف بجلد نمر ويحيط حوله أعضاء الديوان (هابنسترايت، د ت، ص 49) ، وكما أشرنا سابقا أنّنا نركز في موضوعنا على انطباعات الشخصيات النافذة ودلالات هذه المناسبة لديهم، وقد استطعنا أن نستنج العديد منها وهي:

أولا: مناسبة العيد فرصة لتحقيق المصالح الديبلوماسية: وقعت حادثة طريفة في قصر الإمارة بين القنصل الفرنسي والإنجليزي، حين تسابق القنصلان على سلالم القصر بغية الحصول على الأولوية في مقابلة الداي بمناسبة العيد، فما كان من القنصل الإنجليزي فالكون Falkon إلا أن يحمل القنصل الفرنسي ويعيده الى مدخل القصر ويحظى هو بالأولوية في مقابلة الداي (Bardoux, 1924,P266)، ويتبين لنا من خلال هذه الحادثة الطريفة بشكلها، العميقة في محتواها، بمدى أهمية المناسبة على القناصل الذين بُعثوا إلى إيالة الجزائر من أجل حماية رعاياهم وامتيازات بلدانهم، إذْ كانوا يَستغلون أية فرصة سانحة لتحقيق أهدافهم ، وتكون زيارتهم عادة محمولة بهدايا ثمينة للدّاي فهي كما يذكر المفاوض الديبلوماسي فونتير Venture[6] في القنصلية الفرنسية بالجزائر : "الطريقة الوحيدة لتهدئة الأمور بين الإيالة والدول الأجنبية" (Venture, 1898 ,p133)، ويبدو أن الأطر المعروفة حينها في المجتمع القنصلي بالجزائر عن كيفية الحفاظ أو كسب الامتيازات هي الهبات الثمينة التي تقدم للسلطة الجزائرية، فحين عين السيد فيليب فالير Philippe vallière (1791-1796) في الجزائر قنصلا عاما لفرنسا سنة 1779 م ، ذكر مقولة مهمة جدا فحواها أنّ: " هناك نوعان فقط من وسائل العيش في الجزائر... بالمال أو بالقوة ؛ الأول لا يزال فعّالا ولا مفرّ منه أما الثاني فيمكن تأخيره" (Plantet,1930,p28)، لكن لتقديم هذه الهدايا في أوقات محدّدة دلالات وتأثيرات في المسار الديبلوماسي، وبهذا كانت مناسبة مثل العيد تستغل دائما لأجل كسب ود ورضا الباشا، ولقد تفنّن الفرنسيون كثيرا في ذلك وهذا بشهادة جيمس كارنكارت بقوله: " والهدايا التي تقدم تشمل أنواعا من اللحوم والفواكه المحفوظة والطازجة والمربى وغير ذلك من المسلّيات التي يعرف الفرنسيون كيف يجعلون أنفسهم مقبولين لدى الغير بواسطتها" (كانكارت، 1982، ص41)، كما أن الهدايا لم تكن تمنح للباشا فقط، بل كانت تشمل شخصيات نافذة في السلطة ولهم مكانة، وهم عادة يتكونون من الكتاب الأربع والخزناجي

ورئيس الطبّاخين وكذا الآغا (Grammont,1890,p172)، وقد يصل عددهم في بعض الأحيان إلى 25 شخصية على غرار الباشا، ويخبرنا القنصل جين بوم Jean baume (1717-1719) عن سبب تقديم الهدايا لمثل هذه الشخصيات حيث يرى أنّ الداي : "ليس هو السيد الذي يقرر بنفسه، فيوجد دائمًا في وسط مجلس من نوع ما، يرشده وفقًا لشغفه، والذي لا يمكن أن يكون لحركات القنصل تأثير عليه إلا إذا أثّرنا على الديوان"، أمّا عن نتيجة هذه النفقات والتي حدّدها بأنها يجب أن تنفق في مناسبات خاصة تكمن في كونها تُلزم السّلطة بإقامة العدل أو على الأقل تردّ الظلم الذي قد يلحق بفرنسا (Grammont,1890,p136) وتحقق بذلك الفوائد التجارية (شالر، 1982،ص132) و لعلّ أحسن ما نُبرهن به عن أهمّية دور الهدايا في إنجاح العمل الديبلوماسي للقناصل مع السلطة العثمانية بالجزائر خلال فترة الدايات، تؤكّده أجرة قناصل الدول الأجنبية والمبالغ المخصصة للهدايا التي كانت مرتفعة جدّا ما أجبر الحكومة الفرنسية على تغيير سياسة إنفاقها على قناصلها لتحسين أوضاعهم في الجزائر فارتفعت أجرتهم إلى حدود 6000 livres خلال سنة 1692 (Grammont,1890,p2).

ثانيا: استغلال مراسيم المناسبة لدوافع سياسية: من مراسيم العيدين حسبما ذكرنا سابقا أنه كانت تقدم التّهاني صباح العيد من الرّعية ومختلف الشخصيات النافذة في الإيّالة، وكانت التهنئة تتمّ عبر مراسيم نوجزها في قدوم الضّيف إلى حضرة الباشا وإسماعه كلمات التّهاني ثمّ تقبيل يده (سيمون، 1974، ص 76)، وبالتّالي نلاحظ أن هذه المراسيم المقتضبة تجعل من الدّاي سهل المنال إن أَحَد من مضيفيه فكّر في تنفيذ مؤامرة انقلاب أو اغتيال على الباشا (هابنسترايت، د ت، ص 49)، ورغم وجود عادة في القصر كان ينفّذها شواش باب القصر والتي تقتضي بعدم السماح للضيوف بالدّخول إلى القصر بسيوفهم (Plantet,1930,P202)، إلا أنه وقع خلال عهدة الدّاي حسين آخر دايات الجزائر (1818-1830م) أن استطاع ستة وأربعين انكشاريا الدّخول إلى القصر بخناجرهم بهدف اغتيال الدّاي انتقاما لزميلهم السّابق وزير الشؤون الحربية المدعو يحي آغا المعدم بناء على أوامر الدّاي حسين وتنصيب قائدهم مصطفى خوجة على العرش (هابنسترايت، د ت، ص 76)، ولم تذكر المصادر كيف تم كشف النقاب عن هذه المؤامرة إذ استطاع الدّاي حسين المحافظة على الحكم إلى غاية دخول الاحتلال الفرنسي في 05 جويلية 1830 كما هو معلوم.

ثالثا: مراهنة السّلطة بمناسبة العيد على تعميق نفوذهم: يبدو أنّ السلطة كانت تراهن كثيرا على بروزها وظهورها في مختلف المناسبات على أحسن صورة لها، وبتتبعنا لكتابات بعض القناصل لاحظنا أن الحّكام العثمانيين كانوا يهدفون من وراء مشاهد عديدة كسب الولاءات بإبراز مظاهر القوة والتركيز عليها، بغية التأثير المباشر على الرّعايا وحتى الأجانب منهم، ويظهر هذا من خلال ما ذكر القنصل الأمريكي شالر حيث بيّن أن في مناسبة العيد كان حضور القناصل لتقديم تهانيهم للباشا يُتبع بـ " الثناء على قوته وعظمته" (شالر، 1982، ص 67) ، ولعلّ مثل هذه العبارات لا تبيّن لنا الهدف الذي نودّ الوصول إليه، لكن كيف نفسر دلالات مشهد القناصل وهم واقفين بين أوساط الرّعية أثناء تقديمهم التهاني دون تخصيص مكان أو جهة خاصة بهم؟ بل ما يزيد الأمر غرابة أنّ القناصل والذين هم في واقع الأمر يمثلون دولا لها مكانتها ونفوذها في العالم خاصة خلال بدايات القرن التاسع عشر، لا تقدّمهم قواعد المراسم على أحد بل كان دورهم في تحيّة الدّاي يأتي بعد رئيس الزّبالين في مدينة الجزائر(شالر، 1982، ص 67)، فلهذا كان القناصل يبدون حرجهم من مثل هذه القواعد (كانكارت، 1982،ص 32) خاصّة وأن المجتمع القنصلي في مدينة الجزائر كان يتمتع بكثير من الأناقة والبذخ (شالر، 1982، ص 106) وبما أنه كان جزء من داخل مجتمع مدينة الجزائر الحاضر هو الآخر في دار الإمارة، يشاهد ويسجل صورا ذهنية منبهرة من السلطة وشكلها العجائبي أكثر من حرصهم على تماسكها المنطقي وانسجامها العقلاني، لأن الصورة كما يؤكد ذلك بارت: " تصبح كتابة في نفس اللحظة التي تصبح فيها ذات دلالة" (التايب، 1994، ص126)، وهو ما يفيد السلطة إذ أن مثل هذه المشاهد تزيد من نفوذهم وعظمتهم في نفوس الرّعية وفي نفس الوقت في شخص القناصل، وقد أشار لذلك القنصل الأمريكي شالر حين اعتبر أنّ مثل هذه المراسيم وخاصة تقبيل يد الدّاي ما هو إلا تثبيت للقناصل على تبعيتهم (شالر، 1982، ص67) وكذا اعتبر أن الحكومة تعمل ما في وسعها دائما من أجل " إنعاش كبرياء الانكشاري وزهوه" (شالر، 1982، ص55) .

رابعا: واقع الاحتفال بالمناسبة على النسق اليومي للرّعية: لقد مثّلت لنا الكتابات الأجنبية أن الاحتفالات بمناسبة العيد كانت تتميّز بالاستثنائية والتّحرّر من إرهاصات الواقع اليومي، وكان الإعلان عن العيد بطلقات المدافع المدوية هو في الحقيقة بمثابة إعلان نظام جديد مغاير عن النسق العادي للحياة وهو ما نلمسه من خروج الرّعيّة والاستمتاع بمشاهدة تلك المبارزات

الرسمية التي كانت تتمّ بتأطير السلطة العثمانية، وهذا بتهيئة ساحة رملية يتقدّم إليها المصارعون بسراويل قصيرة مزيّتة وأجسامهم، فيشرع المتصارعون في التباري بعد صلاة العيد والمنتصر هو ذاك الذي يطرح منافسه أرضا، وما يزيد المشهد إثارة أن هذه المنافسات قد تؤجل إلى آخر أيام العيد حين لا تحسم النتائج النهائية في يومه الأول للعيد ، وحرصا من السّلطة على تسلية الشّعب بهدف تغيير في النسق اليومي، كانت هذه المبارزة مصحوبة بأنغام موسيقى تعزفها فرق الانكشارية(هابنسترايت، د ت، ص 67) ويذكر عالم الطبيعيات الالماني موريتس فاغنر في رحلته أن فرقا زنجية تجوب أحياء المدينة عازفة أنغام موسيقية صاخبة، بواسطة الطنابير والصفائح الحديدية، وموسيقاهم ذات ايقاع همجي، وتصاحبها حركات الفنانين السود، وتمثيلهم الصامت واهتزازات اجسادهم، منتظرين نقودا يهديها لهم الناس (بن عتو، ع2، ص 87)، كما كانت السلطة هي بدورها تخلل هذه الاحتفالات بعطاءات وهدايا صغيرة للرعيّة (Venture , 1898 ,P112) ما يجعل الأجواء مميزّة أو كما يقدم لنا نظرته القنصل الأمريكي شالر بـ" أنّ كلّ شيء يدلّ على السّرور والحُبُور والاحتفال" (شالر، 1982، ص 67).

2. تمثّلات الشخصيات الأجنبية النافذة للبروتوكولات الرّسمية:

1.2 تقبيل اليد:

من المراسيم التي تعوّدت عليها إيالة الجزائر في تطبيقها على الرعيّة هي عادة تقبيل اليد، التي كانت تجبر المتشرف بمقابلة الداي في الأيام العادية و خلال المناسبات الرسمية والدينية سواء كان بايا أو قنصلا أو أي شخصية أخرى بتقبيل يده، كما يبدو أن هذا الإجراء كان يخضع للسلّم الإداري حيث كان بايات المقاطعات الثلاث يقبّل أيديهم كل زائر قدم إليهم بل هو متلازمة على موظفيه كل بداية دوام عمل في الصباح وهو ما أطلعنا عليه الخزناجي تيدنا (احميدة، 2003، ص 62) ، ولقد كان هذا الالتزام مرفوضا جملة وتفصيلا من طرف القناصل خاصة وأنهم اعتبروه إهانة لهم وللأمة التي يمثلونها، ولهذا كانوا ينتحلون المعاذير في بعض المناسبات حتى لا يقوم بمثل هذا الإجراء (شالر، 1982، ص 68)، ذلك أن الغياب كان أهون من الوقوف أمام حضرة الداي ورفض التقبيل، إذْ أنّ الرفض كان يساوي عادة الطرد من مهام الديبلوماسية بالجزائر رغم تمتع القناصل بالحصانة الديبلوماسية وهو ما حدث مع القنصل الفرنسي إيفان Evant (Plantet,1930,P49)، ولهذا كان القناصل يفضلون أن تُلغى

هذه العادة عن طريق المسار الديبلوماسي كما حدث في إيالة تونس، حين أجاز وزير الشؤون الخارجية الفرنسي للقنصل بتونس المدعو شوبيل برسالة مؤرخة في 06 ماي 1836 بعدم تقبيل يد الباي حين نصب لأول مرة في البلد، والذي علق عليه وزير الخارجية قائلا: "الذي يعتبر في حد ذاته نوعا من الشذوذ"(GrandChamp, 1945,P292)، وأما في الجزائر فقد ألغي هذا الإجراء كما يذكر شالر بُعيد مؤتمر فيينا 1815 بعد ترسيم الأعراف والبروتوكولات الديبلوماسية (شالر، 1982، ص 68).

2.2 مراسيم الاستقبال في الميناء:

جرت مراسيم مميزة لاستقبال القناصل ومبعوثيهم حين وصولهم إلى ميناء الجزائر، فبمجرد أن ترسوَ السفينة في الميناء تطلق المدافع واحد وعشرون طلقة على سبيل التحية، وعقب ذلك، يقوم الأسطول أو السفينة الحربية برد التحية بعدد مماثل من الطلقات، وبمجرد نزوله من السفينة إلى البر، تطلق المدافع الواقعة قرب القلعة تحية له بخمس طلقات أيضا، ونفس الأمر يحدث حين مغادرته إلى وطنه، ويبدو أن هذه التحيّة كان يسْتَصِيغها القناصل والشخصيات النافذة الوافدة، حيث لم يبدُو أي ضرر منها، بل في معاهدة بين فرنسا والإيالة مؤرّخة في 25 أبريل 1684 وبالضبط في المادة 27 تؤكد الحكومة الفرنسية أسبقيتها وعلو كعبها عن بقية الدّول الأخرى بإطلاق أكبر عدد من طلقات البارود(Devoulx,1872,p83)، وهو ما لم نجده في المصادر حيث تساوت جميع الشخصيات الأجنبية النافذة في طريقة هذا الاستقبال، وما يهمنا أن هذا الإجراء كان مستحسنا بل مصدر تفاوض بين الدّول والإيالة، لكن كان فيه حديث حول ما يعقب وصول السفينة ، فحين يرسل القنصل الترجمان من أجل أن يطلب من الداي مقابلته، فيكرم القناصل والمبعوثين حين مجيئهم لطاقم أسطولهم بهدية تتمثل في عجول ودجاج وخبز وفواكه وخضر لمدة ثلاثة أيام، ويرد قنصل الدّولة التي يتبعها الأسطول، أو السفينة 40 دولار للتحية ومبلغ 14 دولار في مقابل الهدية، وهذه المراسيم في مظهرها الخارجي كما يصفها القنصل شالر تتميز بالنبالة لكن في حقيقة الأمر هي ادعاءات فقط (شالر، 1982، ص ص66، 229)، ويتفق معه في ذلك القنصل بونوا لومير Benoil Lemair حيث قال في هذا الصدد: " لا يوجد أقل إذلالا من أن تقدم لك بعد هذا كله خمس صدقات مقابل جهدك الجهيد والمتمثلة في بعض الخيول العربية ، التي سيتعين دفع رسوم نقلها إلى فرساي ، أو عدد قليل من جلود النمر أو مناديل مطرزة" (Plantet,1930,P52)، وهذا

ليس الشيء الوحيد الذي يمتعض منه القناصل في بروتوكولات استقبالهم حيث يصادف في بعض الأحيان حين نزول القنصل وتوجّهه إلى مقره، أن تنتظره حشود من الجماهير الفضوليين للتعرف عليه سائرين وراءه كما حدث للسفير الأمريكي دونالد صون حيث عبّر عن ذلك وسيطه بـ " ليروا الى أية فصيلة من الحيوانات ينتمي سفير أمريكي، والقارئ يمكنه أن يدرك الحالة النفسية المنزعجة التي كان فيها دونالد صون" (كانكارت، 1982، ص ص 163)، وهو ما نعتبره في الحقيقة بالشيء الغريب إذ من المفروض مدينة كعاصمة الإيالة تعجّ بالأجانب من مختلف بقاع العالم وتفد إليها شخصيات من شتى المراتب لا تنبهر بالوافدين الجدد ويكفي ما فيها من عبيد الولايات المتحدة الأمريكية.

3.2 القبعة والسيف ... بين التّقبّل والتّذمّر:

يعتبر إجراء خلع القبعة والتجرّد من السيف حين تمرّ أو تستقبل شخصية نافذة في القصر، من الإجراءات التي وجدنا عليها ملاحظات في مذكرات ورسائل القناصل والشخصيات الأجنبية النافذة، فبمجرد الوصول إلى باب القصر وبعد استلامه الإذن بالسماح له بزيارة الداي، كانت هنالك عدة مراسيم تحدث، وأولاها أنه كان يجب عليه حين مروره بجوار قصر الجنينة أن يلتزم بخلع قبعته، وكان المخالف لمثل هذه البروتوكولات يعاقب عليها (Plantet,1930,P51)، ولم تبد لنا من الشخصيات الأجنبية النافذة أي امتعاضات من هذا التقليد بل اعتبره العالم الألماني من باب احترام القصر كما اعتبره إجراء أمني، حيث كان مدخل الخزينة قريبا من معبَرِ المارّة ولهذا كان الجند يأمرون المارين بنزع قبعاتهم، بل حتى أن الخزناجي والذي كان مساعده من فئة العبيد يأمره بالدخول مجردا من ملابسه، وكل هذا كما فسّره هابنسترايت من باب الاحترازات الأمنية (هابنسترايت، د ت ، ص ص 39، 42). وبعد أن يحظى المستقبَل بشرف الدّخول كان هنالك إجراء آخر أسال الكثير من الحبر بين أقلام القناصل، حيث كانوا يلزمون قبل دخولهم لديوان القصر أن يجرّدوا من سيوفهم. إلا أن هذا الإجراء لم يكن الدّايات صارمين فيه، ففي كثير من الحالات كان يسمح لبعضهم بالدخول به والآخر فلا، ما جعل صفة التّمرد تعتلي نفوس بعض القناصل خاصة منهم الفرنسيين كما فعل ذلك القنصل بنوا لومير Benoil Lemair (Plantet,1930,P202)، لكن نجد أن القنصل الأمريكي شالر قد دخل بسيفه بصفة عادية مع أحد مبعوثي الولايات المتحدة أثناء إجراءات محادثات السلام بين الدولتين، بل يذكر أن الدّاي قد استقبله " بكل لباقة" (شالر، 1982، ص 231)، فهل مثل هذا الإجراء

كان يطبق فقط على القناصل والمبعوثين الأجانب؟ وما هي عواقب مخالفته؟ وإلى ماذا يعود التخبط بين القبول والرفض في دخول القصر بالسيف؟

يعود تذمر القناصل دائما من مثل هذه الإجراءات إلى الحالة النفسية التي يعيشها القنصل في الجزائر وبشكل أخص في مجتمعه القنصلي داخل المدينة، ذاك المجتمع الذي يتّسم بالأناقة والبذخ والخلو من الشّكليات، كذلك شخصية القنصل التي عادة ما تكون ذات مكانة وشرف كبيرين، حتى قال القنصل شالر في هذا الصّدد:" وإذا شاء القدر ودعتني لشغل منصب غير الذي أشغله حاليا في الجزائر. فسأحزن مدى الحياة لفقد ما أجده من لطف الكرم وسحر العشرة الطبيعية " (شالر، 1982، ص 106)، ولهذا يتذمر القناصل من أبسط الأشياء ويعتبرونها إهانة، رغم أن البايات الذين كانوا يأتون إلى قصر الدّاي كانوا هم كذلك يجرّدون من سيفهم وهذا تخوّفا من الدّاي أن تخطر ببال الباي خواطر ثورية لاغتياله (كانكارت، 1982، ص 118). وأما عن عواقب الرّفض فكانت وخيمة فحين رفض القنصل لومير الرّضوخ لمطلب الدّاي بالتّجرّد من السيف عوقب بعدّة إجراءات، فبعد أن تلقّى الشتائم والتّعنيف حُرِم من تغيير التّرجمان الذي يعتبر حقا من حقوقه، كما منع من التّواصل مع العبيد الفرنسين وطالب الدّاي بتغييره (Venture,1898 ,p 202)، وتفس الواقعة حدثت مع القنصل الفرنسي دولان Delane حيث تعرض للإهانة والاحراج في قاعة الاستقبال من طرف الداي أمام الحاضرين بسبب حضوره الى مجلس الداي بالسيف، وقدد هدّده الداي قائلا:" أنه إذا تجرأ وأعاد نفس التصرف فلن يلوم إلا نفسه، وقد يقطع رأسه" (بليل، 2001، ص 82).

وسبب تخبّط الدّايات في هذه المراسيم في الحقيقة يعود أساسا إلى طبيعة العلاقات التي تربط بين البلدين وعادة ما يكون القنصل الواجهة التي تستقبل ردود أفعال مستوى الديبلوماسية بين البلدين، فشالر ومبعوثه حين تمّ قبولهما بسيفها كان في فترة تعيش فيها الولايات المتحدة علاقة حسنة مع الإيالة، بل واستعانت بالقنصل في إجراءات السلام التي كانت بين بريطانيا وإيالة الجزائر أثناء حملة اكسموث 1816، أما عن الإجراء الذي كان عنيفا مع القنصل لومير فكان نتيجة تواجد فرنسيين في الحامية الإسبانية المتواجدة بوهران وهو ما أثار غضب الدّاي، وليس كما يدّعيه القنصل نفسه أنه نتيجة عن قلة الهدايا التي قدمت للداي وأعضاء ديوانه) Venture,1898 ,p 202).

4.2 مراسيم شرب القهوة:

يعتبر شرب القهوة بين الأشخاص والشخصيات السّامية في الفترة العثمانية موضة في مختلف أرجاء الامبراطورية (دودو، 1975، ص 64)، ولم تكن الجزائر بعيدة عن هذا النسق بل اعتبرت القهوة مشروب الترف والبذخ وبديلا عن شرب الخمر (شالر، 1982، ص88)، ولهذا جرت العادة في قصر باشوات الجزائر أن تُستقبل الشخصيات المرموقة كالباي أو الخليفة أو القايد أو الشيخ أو سفير دولة أجنبية أو قنصل بمقابلة الدّاي بجلسة على قهوة تقليدية بينما هم يتحدثون عن شؤون زيارتهم (كانكارت، 1982، ص 218) وعادة كانت تقدم هذه القهوة دون استعمال السكر (احميدة ،2003، ص 74) بل وقد كانت هذه العادة سارية في كل المراسيم الرسمية للدولة ، ففي كل صباح حين يفتتح القصر يتجه الدّاي إلى الديوان ليستقبل أعضاءه المتمثّلين في الخزناجي والآغا وخوجة الخيل والكتاب الأربعة، فبعد تقبيل كل واحد منهم ليد الداي يجلسون لشرب القهوة التقليدية بينما هم يناقشون شؤون الدولة (Venture,1898 p119,) ، وعادة ما تقدم هذه القهوة في فناجين خاصة تكون كبيرة حين تقدم لشخصيات نافذة مثل الباي(كانكارت ، 1982، ص 118) ، وما يهمّنا من هذا البروتوكول عن انطباعات القناصل الذين كانوا جزءا من هذه العادة فهل ورد عنهم ما كان يضجرهم منها؟ وإن كانت شيئا مقبولا فلم؟

في الحقيقة لم ترد أي إشارات في مراسلات ومذكرات القناصل خلال القرن 18 والربع الأول من القرن 19 عن تذمر واضح عن هذا البرتوكول، ونحن نعتقد أن سبب ذلك يعود لآثارها التي كانت تعود بالإيجاب على عبيد دولتهم، حيث كانت تحضر هذه القهوة وما معها من أمور تنظيمية من طرف العبيد المسيحيين الذين يعملون في القصر، أما عن تقديمها بصفة رسمية فكانت من مهام رئيس العبيد (Venture,1898 ,p 55)، وحين الانتهاء من الجلسة كان يجب على الزائر ترك قطعة من النقود الذهبية على صحن فنجان القهوة، تكون على مستوى مرتبة الزائر الذي نال شرف شرب القهوة مع الدّاي، وهذه المبالغ يجمعها القهواجي ويضعها في صندوق مغلق محفوظ في منزل الداي الخاص، ويقوم الدّاي بإضافة مبلغ من ماله الخاص إلى محتوى الصندوق ، ثم يوزع ربع هذه العملية مرتين في السنة على الأسرى طبقا لرغبات الداي، وتبلغ حصة الأسير من هذا الدخل حوالي ثلاثة دولارات في السنة أو أقل ولكنها قلما تنزل عن دولارين اثنين.

وبهذا لم تبد أي إشارات تذمر من القناصل وإن وردت من السفير الامريكي دونالد صون فقد كانت لجهله بالمراسيم المتبعة في الإيالة، ذلك أن هذا المبلغ يكفي لمواجهة تكاليف حاجيات الأسير من كسوة ووسائل تنظيف ولتقديم مساعدة لزملائه الذين يعملون في الأشغال الشاقة في السجن بينما كان مأكله ومشربه مأمن في القصر(كانكارت، 1982، ص ص 110، 218).

خاتمة:

عرفت مراسلات ومذكرات الشخصيات الأجنبية النافذة العديد من الإشارات والفقرات التي تتحدث عن المناسبات الدينية والبروتوكولات الرسمية، وبأخذنا للنموذج الذي يحتوي على إشارات وانطباعات عن المناسبات المتمثل في شهر رمضان الكريم والعيدين، وجدنا أن مناسبة رمضان كانت محط إعجاب لهم مع بعض التحفّظات التي سجّلت بسبب تأجيل أعمال مهمة أو بالأحرى القيام بالمهام بوتيرة ضعيفة، وهذا نظرا لطبيعة المناسبة التي عادة ما ينشغل فيها الإنسان المسلم للعبادات ويتفرغ لها، أما مناسبة العيد فوجدنا أن هنالك تجلّيات خُصّ بها أكثر من شهر رمضان، حيث اعتبرت أقلام الشخصيات النافذة أن البروتوكولات المعتمدة فيه كان الهدف منها إبراز أبهة وقوة السلطة وتعظيمها في نفوس جميع الحاضرين سواء تعلق الأمر بالرعية أو الشخصيات النافذة، كما اعتبرت المناسبة بالنسبة للقناصل فرصة من أجل قضاء مصالحهم سواء بتحقيق إنجازات ديبلوماسية أو بمحاولة منع الآخر من تحقيقها، وهو ما يتناسب مع طبيعة تواجدهم بالإيالة حيث الغاية القصوى منه هو الحرص على سلامة مواطنيهم وتحقيق مصالح ديبلوماسية تعود بالنفع على بلدانهم.

وأما فيما يخص البروتوكولات الرسمية فقد تمّ التركيز في كتابتهم على طريقة استقبالهم ومبعوثيهم ومرورا بدخولهم القصر ووصولا إلى الجلسة الشرفية مع الداي، فإن القناصل بشكل أكبر من باقي الشخصيات النافذة قد أبدوا تقبّلهم لعادة واحدة تمثلت في شرف نيل شرب القهوة مع الداي، ولكن في نفس الوقت كانوا ينكرون ويتمردون على البروتوكولات الأخرى خصوصا عادة تقبيل اليد التي اعتبروها إهانة لهم وحالوا بكل ما أوتوا وبضغط من دولهم لأجل التخلص منها، وهو حدث ما يعتبر تحوّلا عميقا في مستوى البروتوكولات الرّسمية بإيالة الجزائر ويستدعي البحث أكبر عن زمنية ترسيم البروتوكولات من طرف الإيالة والتّحوّلات الطارئة فيها.

المصادروالمراجع:

المنشورة باللغة العربية:

- أبو العيد دودو، الجزائر في مؤلفات الرحالة الألمان (1830- 1855)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر ، 1975.

- السعيد بوطاجين: هاينريش فون مالتسان: ثلاث سنوات في شمال غربي افريقيا – المقاومة المركبة-، مجلة الموروث، العدد 02، الجزائر، 2013.

- بلعمري فاتح، حملة اللورد إكسموث على مدينة الجزائر سنة 1816 في عيون رحالة محلّي وقنصل أجنبي، مجلة معارف، العدد 17، الجزائر، 2014.

- بليل رحمونة: القناصل والقنصليات الأجنبية بالجزائر العثمانية من 1564 إلى 1830، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر،وهران، الجزائر، 2011.

- بن عتو بلبروات : نظرات استشرافية لعادات وتقاليد مجتمع الجزائر العثمانية – مدينة الجزائر نموذجا - ، مجلة الحوار المتوسطي، العدد 02، الجزائر.

- ج.أو. هابنسترايت: رحلة العالم الألماني : ج. أو.هابنسترايت(1145-1732)، تر: ناصر الدين سعيدوني، دار الغرب الإسلامي، تونس.

- عميراوي احميدة: الجزائر في أدبيات الرحلة والأسر خلال العهد العثماني (مذكرات تيدنا نموذجا) ، دار الهدى، الجزائر، 2003.

- كانكارت: مذكرات أسير الداي كانكارت قنصل أمريكا في المغرب، تر: اسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1982.

- منصف التايب: "عوائد عيد الفطر في عهدي حسين بن علي و علي باشا" : الدلالات السياسية و الاجتماعية والثقافية"، المجلة التاريخية المغاربية، عدد 74، 1994.

- هاينريش فان مالتزان: ثلاث سنوات في شمالي غربي افريقيا، ترجمة أبو العيد دودو، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1976، الجزء 3 .

- وليام شالر: مذكرا وليام شالر قنصل أمريكا في الجزائر (1816-1824)، تر: إسماعيل العربي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982.

المنشورة باللغة الأجنبية:

,Revue Africaine, - Albert Devoulx: Un incident Diplomatique a Alger en 1750
volume 16, 1872.
La vie d'un consul auprés de la régence d'Alger , Revue Africaine, 1924. - Bardoux,j,
- D. De Grammont, Correspondance Des Consuls d'Alger (1690-1742),Librairie
Ernest Leroux, Paris, 1890.
- Eugéne Plantet, les consuls de France a alger avant la conquéte 1579-1830.
,Messagerie hachette, Paris , 1930.
,Revue - Pierre GrandChamp: Le baise main des consuls à la cour des bays de tunis
Africaine, Volume 89, 1945.
- Venture de Paradis , Alger au XVIIIe siècle, Typographie Adolphe Jourdan, Alger,
1898.
Tunis et Alger au XVIII e Siècle, Sindbad, Paris, 1983.
- M.Emerit, Les aventure de Thédenat ,esclave et ministre d'un bey d'Afrique au
18eme siécle,Revue Africaine , volume92, 1948.

الهوامش:

[1] : من مواليد سنة 1767 بمقاطعة ميث الغربية بإيرلندا، Leander cathcart James جيمس ليندر كاثكارت انتقل مع والده إلى أمريكا في سنّ مبكّرة، وكان يشتغل في سفينة ماريا بوسطن " التي استولى الجزائريون عليها في شهر جويلية سنة 1785، و لم يدم إلا مدّة قصيرة في أسره حتى أصبح موظفا ومديرا لمكتب الداي حسن باشا في الجزائر، حيث عمل كمفاوض بين الداي و سفراء الولايات المتحدة الأمريكية، و في سنة 1796 عاد كاثكارت إلى الولايات المتحدة يحمل معه رسائل تتعلق بصياغة بنود معاهدة السلام مع الجزائر، و قد شغل وظيفة حكومية في فيلاديفيا لمدة سنتين قبل أن تعنيه حكومته قنصلا عاما في تونس و طرابلس، وقد بلغ مجموع السنوات التي قضاها في مختلف الأماكن بصفته قنصلا أكثر من عشرين سنة، ثمّ عاد إلى الولايات المتحدة ليعيّن في مناصب إدارية في كل من لويزيانا، وواشنطن، وقد توفي يوم 6 أكتوبر 1843م. للمزيد ينظر إلى : كانكارت، 1982، ص ص 9-10.

[22] : طبيب وعالم نبات ألماني، من مواليد مدينة نوشتادت أون أورلا J.E.Hebenstreit ج.أو هابنستراية ، Leivinas ، الواقعة بمقاطعة الساكس بألمانيا، وقد درس الطب في شبابه واستقر بلايبزيغ Neustad Orla وقد تميز بحس المسؤولية والانضباط في العمل ما أكسبه ثقة ملك بولونيا، فكلفه برئاسة بعثة علمية إلى شمال افريقيا للتعرّف للبحث والاستكشاف حول الحياة النباتية بالمنطقة لقائدة القصر الملكي، وقد نجح في مهمته كثيرا حيث نال ثقة باشا الجزائر. للمزيد ينظر إلى : هابنستراية، د ت، ص ص 12-14.

[3] بفرنسا سنة 1757 وقد وقع أسيرا في أيدي الجزائريين في 12 Ozés: ولد بمدينة أوزس Thedénat تيدينا فيفري 1779 واشتراه الباي محمد الكبير باي معسكر، فوظفه في قصره خزناجيا وحين تم افتداؤه خلال سنة 1782,Emerit 1948 p 134,. عيّن مندوبا للعلاقات التجارية بمدينة سافوي سنة 1799 . للمزيد ينظر إلى :

[4] هاينريش فان مالتسان: هو عالم آثار ألماني له كتاب ثلاث سنوات في شمال غربي افريقيا بجزأين، ويعتبر هذا الكتاب علامة فارقة في أدب الرحلة وهو ينقل حياة المدن وتاريخها، ويسرد مواقفه من المشاهد اليومية ومن سلوك الاشخاص بقدر كبير من الملاحظة والنباهة (السعيد، 2013،ص 87).

[5] : عين قنصلا للولايات المتحدة الأمريكية في الجزائر ما بين سنوات 1816-William shaler ويليام شالر 1824، وأنجز مؤلفا عن حياته الديبلوماسية بالجزائر. للمزيد ينظر إلى: بلعمري، 2014، ص 23.

[6] : هو جون ميشال فونتور دو بارادي، ولد في 08 ماي 1739 بمرسيليا Venture de Paradis فونتير دوي بارادي فرنسا، وقد عمل مترجما في عدد من القنصليات الفرنسية، وقد عين في الجزائر بين سنتي 1788 و 1790 كمفاوض لتسوية الخلافات التي طرأت بين فرنسا والجزائر في تلك الفترة. للمزيد ينظر إلى: Venture de Paradis ,1983, PP9-10.

الكاتب: جمال رداحي
طالب دكتوراه،القنيطرة ،المغرب.

عنوان المقال: دور الإقطاع في ظهور الحركات الاجتماعية في الخلافة الإسلامية.

البريد الالكتروني: raddahi.jamal@gmail.com

تاريخ الارسال: 2020/03/02 **تاريخ القبول:** 2020/05/04 **تاريخ النشر:** 2020/06/30

دور الإقطاع في ظهور الحركات الاجتماعية في الخلافة الإسلامية.

the aspects of social solidarity for the Almoravid era's suffism in Morocco and Andalusia.

الملخص بالعربية:

يكتسي الإقطاع في تاريخ الدولة الإسلامية عامة والخلافة على الخصوص أهمية كبيرة، لأنه وجد في العالم الإسلامي في وقت مبكر ثم تطور وأخذ أشكال متعددة تماشيا مع خصوصيات كل ظرفية تاريخية، وكل سلطة حاكمة، كما أنه أصبح يشكل ركيزة أساسية في النظام الاقتصادية للدولة الإسلامية، ومن هنا فقد ساهم الإقطاع في خلق نوع من اللاتوازن في فئات المجتمع العربي الإسلامي، حيث ظهرت فئة تمتلك الأراضي والدور... وفئة ثانية لا تمتلك أي شيء ومن هنا بدأ يظهر السخط على الخلافة الإسلامية خاصة الأموية والعباسية، الشيء الذي أدى إلى ظهور وبروز حركات اجتماعية في عدة مناطق من الدولة الإسلامية هذه الحركات أخذت في البداية صبغة دينية ، لكن محركها كان هو التناقضات التي بدأت تظهر في المجتمع العربي الإسلامي خلال هذه الفترة.

كلمات مفتاحية: الإقطاع، الخلافة الإسلامية، الحركات الاجتماعية، الثورة.

Abstract :

Feudalism in the history of the Islamic State in general and succession in particular Of great importance, Now it is found in the Islamic world in early time Then it developed and took various forms in line with the peculiarities of each historical circumstance And every governing authority It has also become an essential pillar in the economic system of the Islamic state Hence, feudalism contributed to

creating balance in the Arab Islamic society Where she appeared in the ownership of land and the role ...A second category does not have anything Hence, he began to show indignation over the Islamic caliphate, especially the Umayyad and Abbasid،The thing that led to the emergence and emergence of social movements in several regions From the Islamic state These movements initially took on a religious character But its engine was the contradictions that started to appear in Arab Islamic society during this period.

تقديم :

قبل الشروع في محاولة البحث عن الإقطاع خلال فترة الخلافة الإسلامية والحركات الاجتماعية التي ظهرت خلال هذه الفترة، لابد من البحث عن البدايات الأولى لظهور الإقطاع وانتشاره في الدولة الإسلامية، هنا لابد من الرجوع إلى أهم المصادر التاريخية التي تطرقت للموضوع ومن بينها الطبري"تاريخ الرسل والملوك" وابن سعد "الطبقات" والبلاذري أنساب الأشراف، ثم بعض المراجع مثل عبد العزيز الدور "نشأة الإقطاع في المجتمعات الإسلامية" ومصطفي التواتي" التعبير الديني عن الصراع الاجتماعي في الإسلام" وغيرها، في محاولة منا الإلمام بالموضوع ولو بشكل يسير اعتبارا للدور الذي لعبه الإقطاع في صدر الإسلام ثم في الفترات اللاحقة من الدولة الإسلامية خاصة في عهد الرسول (ص) والخلفاء الراشدين و في عهد الدولة الأموية العباسية فيما بعد.

اكتسب الإقطاع في الدولة الإسلامية مع مرور الزمن مفاهيم متعددة، من منح أرض بملكية دائمة أو مدى الحياة أو لفترة محدودة أو منح الأرض بدل العطاء وبعد أن كان الإقطاع من الصوافي والأراضي الموات ومن ضياع الخلافة شمل فيما بعد الأراضي الخراجية، كما منحت إقطاعات بدل الرواتب، كما أن الإقطاع لعب دورا مهما في انتشار الملكية الخاصة في الخلافة الإسلامية خاصة من حاشية الخلفاء الشيء الذي سيخلق تذمر لدى البعض خصوصا مع ظهور التباين الاجتماعي مما سينذر ببروز عدة حركات اجتماعية كما سنوضح ذلك في البحث.

أولا : الإقطاع في الخلافة الإسلامية.

1- مفهوم الإقطاع لغة واصطلاحا.

أ- الإقطاع لغة.

اشتقت كلمة الإقطاع من الفعل (قطع) ومنه قيل : قطع الشيء قطعا أي فصل بعضه وأبانه. والقطعة من الشيء أي من الطائفة[1]. ويقال قطع النخالة من الدقيق بمعنى فصلها منه[2]. ويقال ترك وهجر رحمه بمعنى قطعها ولم يصلها و اقتطع فلانا أرضا أي ملكه إياها[3]. واقتطع من الشيء قطعة فصلها منه، ويقال استقطعه من المال يعني أنه اختص بجزء منه[4]. وتقطع الشيء تفرقت أجزاؤه، ويقال استقطعه أي سأله قطيعة، والقطع من الليل أي طائفة منه والقطيع من الغنم أي طائفة منه[5] اقتطع من الأرض قطعا أي جزء منها، ويقال قطعة من الأرض إذا كانت مفروزة أي مفصولة لوحدها، ويقال تقطعوا أمرهم بينهم أي تقسموه بحيث اختص كل واحد منهم بشيء[6].

ب- الإقطاع اصطلاحا.

أغلب الكتب خاصة التاريخية منها عندما تحدثت عن الإقطاع أعطته تعريفات كثيرة ومنها، أن يقوم الإمام بإعطاء قطعة من الأرض تكون مفروزة ومحددة عما يجاورها من الأراضي لشخص ما، على شكل منحة أو هبة وتكون ملكا له ولورثته من بعده، أو من الأرض التي لا مالك لها وغلتها لشخص ما[7].

من خلال التعريف يمكن القول أن الإقطاع مرتبط بالأرض التي يتم منحها لشخص ما أو لجماعة من الأشخاص للاستفادة منها.

2- نشأة الإقطاع في الخلافة الإسلامية.

أ- الإقطاع في عهد الرسول (ص).

لم يرتبط ظهور الإقطاع لأول مرة مع الدين الإسلامي، بل كان منتشرا في حضارات ودول سابقة لمرحلة الإسلام، سواء في بلاد فارس أو عند البيزنطيين، كما كان منتشرا عند العرب قبل الإسلام، لكن مع مجيء الإسلام أخذ الإقطاع أشكال أخرى خاصة في عهد الرسول (ص) حيث عمل على تشجيع الملكية الخاصة وذلك بإحياء الأرض وعمارتها، وأكد على حق الفرد في التملك بكافة أشكاله سواء كان التملك عن طريق الشراء أو الإقطاع[8]. ثم أخذ الرسول (ص) يقطع الأراضي إلى الصحابة، وقد ورد لفظ الإقطاع في كتب الرسول (ص) بصيغ متعددة مثل»إني أقطعتك، وهذا ما أعطى، وأن لهم، وما وهب، وهب لي، وأن له"[9].

بعد الهجرة إلى المدينة عمل الرسول (ص) على إقطاع الدور إلى المهاجرين كما يؤكد على ذلك البلاذري وابن سعد، كما أقطع في هذه المرحلة من أراضي المدينة فقال : "أقطع من أرض

المدينة ما كان عفا أي ما ليس لأحد فيه أثر... أو ما ليس فيه مالك"[10]. وكان هذا الإقطاع إقطاع تمليك[11].

تطور الإقطاع بعد خروج اليهود من المدينة حيث قدم الرسول (ص) منحا للصحابة على شكل إقطاعات كبيرة من أموال بني النظير وأراضيهم.[12] كما تشير الروايات أنه اقطع أراضي لأشخاص دون أن يحدد موقع الأرض أو مساحتها وأقطع أبار المياه والعيون إلى صحابته، ومن أمثلة ذلك إقطاع عبد الرحمان بن الأصم من بني البكاء بئر ماء،[13] وبالتالي فالإقطاع هنا لم يقتصر على الأرض فقط بل شمل حتى أبار المياه والمعادن.

من خلال الإطلاع على المصادر يتبين أن الإقطاع في عهد الرسول (ص) تنوع ما بين إقطاع أراضي معلومة الحدود والمساحة، وأراضي غير محددة، وإقطاع أبار وعيون الماء والمعادن وأراضي مزروعة، وإقطاع أراضي قبل أن يتم فتحها أو سيطرة المسلمين عليها، وبالتالي فالهيكل العام لنظام الأراضي في الدولة الإسلامية بدأ يتشكل في عهد الرسول (ص) والفتوحات وبدأت الملكية الخاصة تتسع شيئا فشيئا في المجتمع الإسلامي.

ب- الإقطاع في عهد الخلفاء الراشدين.

لم يختلف الإقطاع في فترة الخلفاء الراشدين عن الإقطاع في فترة الرسول (ص)، إلا أنه يختلف من خليفة إلى آخر، فقد سار أبو بكر الصديق على منوال الرسول (ص) فنجده أقطع الزبير بن العوام أرض الموات لإحيائها[14]. كما أقطع زيد بن الخطاب وعبد الرحمان بن عوف، وأقطع عائشة ابنته- زوجة الرسول (ص)- أرضا في البحرين[15].

من خلال ما ورد عند المؤرخين فالإقطاع في عهد أبو بكر الصديق كان قليلا نظرا لقصر مدة حكمه، وانشغاله بحروب الردة.

عرف الإقطاع في عهد الخليفة عمر بن الخطاب انتشارا كبيرا جدا فقد أكثر من الإقطاعات ونوع فيها، حيث أقطع من أراضي الموات، ومن أجل السكن سواء في بلاد الشام أو في مناطق أخرى من الدولة، وأعطى حق تملك الأراضي الموات لمن أحياها في مدة لا تتجاوز ثلاثة سنين فقال "من كانت له أرض ثم تركها ثلاث سنين لا يعمرها فعمرها قوم آخرون فهم أحق بها"[16].

في فترة حكم عثمان بن عفان لم يختلف الإقطاع عن السابق، بل هناك من يعتبر أن عثمان هو أول من أقطع القطائع في الإسلام كما يؤكد على ذلك البلاذري « لم يقطع الرسول

(ص) الأرض ولا أبو بكر ولا عمر، وإن أول من اقطع وباعها عثمان[17]، لكن من خلال ما توصلنا إليه سابقا يتبين أن الإقطاع في الدولة الإسلامية بدأ مع الرسول (ص).

أقطع عثمان عددا من البيوت لغاية السكن، كما هو حال العباس بن ربيعة في البصرة، وأقطع من أموال الصدقات وأراضيها[18]. كما كان الولاة والعمال يقطعون الناس الأراضي، وهو تطور جديد في سياسة الإقطاع، لأن الخليفة هو الذي يملك حق التصرف بأراضي الدولة وأموالها.

استمر إقطاع الصوافي والموات فحسب حسن قاسم العزيز فعثمان توسع في تقسيم الصوافي التي كانت تحث تصرف الدولة على المقربين إليه[19].

من هنا يتضح أن الخليفة الثالث توسع في الإقطاع فبعضها كان قرية أو ضيعة كبيرة، كما تم توسيع الملكية من طرف البعض بالشراء، الشيء الذي أدى الى ظهور ملاكين كبار مثل طلحة والزبير، مما ولد بعض التذمر لدى القبائل[20].

لم يبرز موقف علي بن أبي طالب من الإقطاع بصورة واضحة نظرا لخصوصية فترة حكمه التي تميزت بالفتن والمشاكل السياسية، لكن في سياسة الأرض فقد سار على نهج الخلفاء من قبله، حيث أقطع أراضي الموات والصوافي ومن أمثلة ذلك منح كردوس بن هاني أحد قصاص الكوفة أرض[21].

نستنتج مما سبق أن الإقطاع في عهد الرسول (ص) والخلفاء الراشدين من بعده شمل عناصر مختلفة من دور السكن وأراضي الصوافي والموات ومن أجل إحيائها، كما أن الهدف من الإقطاع يختلف باختلاف الشخص والزمن والمكان، فالإقطاع خلال هذه المرحلة قد كون النواة الأولى للملكيات العقارية الكبيرة لفئة من الصحابة التي نمت وتوسعت بمرور الأيام حتى صاروا من كبار رؤوس الأموال، وقد أبدى هؤلاء حماسا كبيرا للحصول على الأراضي إما عن طريق طلبها من الرسول (ص) والخلفاء من بعده أو عن طريق الشراء.

3- الإقطاع في عهد الدولة الأموية.

استمر الإقطاع في الدولة الأموية بل عرف انتشارا واسعا وتم إدخال مجموعة من التغييرات عليه كما يؤكد على ذلك برهان الدين دلو، فبالإضافة إلى وجود ملكية عامة، تشمل الصوافي والأراضي الخراجية التي فتحت عنوة، وملكية خاصة للأفراد والتي تضم الأراضي التي وزعت على الفاتحين أو اقتطعت لبعض الأشخاص، والأراضي الموات وهي أراضي مهملة أو مغمورة بالمياه أو الأحراش، وأراضي المؤسسات الدينية والأراضي المشتركة (الحمى)[22]، ذات

الكلأ والماء، بالإضافة إلى هذه الأشكال مع وصول الأمويين إلى السلطة توسعت الملكية الخاصة، عن طريق إحياء الأراضي الموات أو الشراء أو الإقطاع، فكانت السلطة تمنح الأراضي خلال هذه الفترة للعاملين في الجيش والدولة وللمقربين من الخلفاء[23]. من أمثلة ذلك نجد معاوية استصفى كل ما كان لكسرى وأهل بيته من أراضي الكوفة والبصرة وسواهما، وضرب عليها المسنيات (أي السدود) [24]. وفعل بالشام والجزيرة مثل ما فعل بالعراق من استصفاء ما كان للملوك من الضياع وتسييرها لنفسه خالصة وأقطعها أهل بيته وخاصته[25]. فالإقطاع في هذا العصر أصبح يمنح للأعوان والمقربين ولأصحاب النفوذ ولأشخاص قدموا خدمات خاصة للحكام، كما أن الإقطاع يمنح للشعراء، كما أن هناك أناسا من قريش وأشراف العرب سألوا معاوية أن يقطعهم من بقايا الصوافي ففعل، كما فعل من بعده عبد الملك والوليد وسليمان[26].

استمر الإقطاع مع الخلفاء الأمويين مما أدى إلى توسع الملكية الخاصة على حساب أملاك الدولة والأرض الموات وبعض الحمى[27]. وهكذا فلم يمر وقت طويل على حكم الأمويين حتى برزت الملكية الخاصة بشكل جلي وبدأت تظهر التناقضات من داخل المجتمع بين فئة تستحوذ على أغلب الأراضي وأوسعها وهي الأرستقراطية شبه الإقطاعية من أعضاء الأسرة الحاكمة وخلفائها وأعوانها ومقربيها[28]، وفئة محرومة من عبيد وفلاحين وغيرهم وهذا ما كان ينذر بانتفاضات وثورات ضد السلطة الحاكمة.

4- الإقطاع في عهد الدولة العباسية.

تعزز الإقطاع في الدولة العباسية خاصة في طورها الأول، وذلك راجع إلى توسع رقعة الدولة، فقد استولى العباسيون على ضياع السلطانية ووسعوا هذه الضياع بحفر الأنهار واستصلاح الأراضي والشراء وبالمصادرة، وكانت الضياع السلطانية واسعة وغنية وموزعة في أرجاء بلاد الخلافة[29].

كما كان للإلجاء أثر كبير في تكوين الإقطاعات خلال العصر العباسي الأول، فمثلا في ولاية القاسم بن الرشيد" ألجأ أهل زنجان ضياعهم إليه تعززا به ودفعا لمكروه الصعاليك وظلم العمال عنهم، وكتبوا له عليها وصاروا مزارعين له، وهي اليوم من الضياع[30]. الملاحظ هنا هو رغبة الفلاحين في الحماية من أذى الصعاليك وظلم العمال لدى وقعوا عقود بيع الأرض للقاسم وصاروا مزارعين عنده، كما جاء أهالي الشعيبة على الفرات وعرضوا على علي بن الرشيد أن يكونوا مزارعين له في أراضيهم إذا خفضت المقاسمة، فجعلت عشرية واتفق على تخصيص حصة له[31].

هكذا حول الإلجاء أراضي وضياع كثيرة إلى ضياع سلطانية خاصة، كما يؤكد ذلك المقديسي حيث أن أكثر الضياع في فارس مقتطعة، وبقي بعض النبلاء الإيرانيين يحتفظون بأراضيهم لقاء دفع مبلغ محدد[32].

لعب توسع رقعة الدولة و ازدهار التجارة دورا كبيرا في انتشار الملكية الخاصة في الدولة العباسية وذلك بتوفير رؤوس أموال مكنت من شراء الأرض وتطويرها وأصبح اقتناء الضياع دليل على الشرف و الثروة[33].

مع الضعف السياسي الذي عرفته الدولة العباسية والإفلاس المالي استولى البويهيون على العراق واتخذوا الإقطاع العسكري على نطاق واسع حيث اعتبروا أن الأراضي التي غلبوا عليها هي نتيجة المشاركة في الغزو والإقطاع هو ثمرة ذلك الغزو.[34] وهو نفس النهج الذي سيسير عليه السلاجقة من بعدهم.

مع مطلع القرن الرابع الهجري أصبح إقطاع الأرض يعني منحها بملكية تامة بما في ذلك حق توريثها، هكذا فقد عرف الإقطاع تطورا كبيرا بدءا من عهد الرسول (ص) إلى عهد الدولة العباسية - مرورا بالخلفاء الراشدين والدولة الأموية- هذا التطور أدى إلى خلق فئات متناقضة من داخل المجتمع الإسلامي، فئة تستحوذ على أراضي شاسعة وتستفيد من عدة امتيازات وتمتلك وسائل الإنتاج، وفئة أخرى محرومة وتعيش حياة جد صعبة الشيء الذي أدى إلى قيام عدة ثورات وانتفاضات وهذا ما سنتعرف عليه في الفصل الثاني.

ثانيا : الحركات الاجتماعية في الخلافة الإسلامية

1- ثورة البابكية

قامت انتفاضة البابكية اثر الاستغلال المكثف الذي لقيته من السلطة العباسية وظهرت بأذربيجان والجزء الشمالي الغربي من إيران والجزء الشرقي من أرمينيا وقد استغرقت 20 عاما[35]. إلا أنها لم تفلح في الوصول إلى مبتغاها المتمثلة أساسا في التحرر من قبضة الخلافة العباسية والاستغلال اللاإنساني لهم في الأعمال الشاقة، كما أن الظروف الاجتماعية المتمثلة في الرق والعبودية لصالح قوى الإنتاج حتمت على البابكية أن يثوروا ردا على أوضاعهم الاجتماعية، فتزعم بابك الخرمي قيادة الثورة البابكية سنة 201هـ، هو الذي عاش طفولة قاسية عانى في شبابه مرارة الحرمان[36] رافعا الشعار المطالب تخفيفا لوعكة ألمهم من ضمنها الملكية الجماعية للأرض ولجميع وسائل الإنتاج كما نادى بالقضاء على الإقطاع...وغيرها.

استقطبت الشعارات التي رفعها بابك الخرمي العديد من الفلاحين الغاضبين حيث كون منهم جيشه الذي يضم 300 ألف مقاتل ووجهها لقتال الجيوش العباسية وألحق بهم الخسائر وانتزع الأراضي من أيديهم، كما استقطبت الثورة صغار الملاكين الفلاحين، رغم أن البابكية كانت مناهضة للإقطاعية إلا أنهم انضموا إليها خوفا على مصالحهم، لقد نعت العباسيين الحركة البابكية بالهرطقة والكفر واتهمتها أخلاقيا بأنها إشراكية في النساء[37]. واعتبرت انتفاضتها ما هي إلا محاولة للخروج عن الدين الإسلامي، وما هذا إلا ذريعة استعملتها الخلافة العباسية لتشويه نضال الفقراء وضرب مطالبهم عرض الحائط، فالبابكية لم تكن ضد الإسلام بل ضد المتعسفين المستغلين للأرض حيث لم تلحق الضرر بالمسلمين القاطنين بالمناطق المنتفضة، والملاحظ أن القائد بابك قد أضفى الصبغة الشرعية على ثورته من خلال تسليط الإيديولوجية الدينية عليها حيث نعته أتباعه بالنبي و نفس الشرعية الدينية استمدتها الخلافة العباسة لمحاربة وإخماد الثورات الاجتماعية إذ استغرقت الثورة 22 سنة من 201هـ إلى 223هـ (815م إلى 837م) إلا أنها لقيت حتفها على يد الخليفة العباسي المعتصم حيث تم إخمادها من طرف القائد»الإفشين".

2- ثورة الزط.

لم تكن الثورة البابكية الثورة الوحيدة التي ظهرت خلال هذه الفترة بل كانت هناك عدة ثورات من بينها ثورة الزط التي ظهرت في أرياف البصرة من قبل مجموعة من القبائل تعرف بالزط وهم أقوام من الغجر، استوطنوا المنطقة ما بين البصرة وواسط[38] يشتغلون في الملاحة البحرية والزراعة الرعوية عرفوا بإتقانهم للقتال ويطلق عليم السيابجة، في سنة 206هـ[39] أعلنوا خروجهم عن السلطة بدافع تعديات السلطة المركزية وسيطروا على منطقة جنوب العراق، نشبت عدة صراعات مع الخلافة العباسية وألحقوا بجيوشها العديد من الخسائر، ولم تتمكن الجيوش العباسية من القضاء عليهم إلا بعد مدة طويلة دامت حوالي خمسة عشر سنة[40]. ويرجع سبب صمودهم إلى معرفة هذه الفئة طبيعة المنطقة وكذا معرفتهم بمسالكها المائية، بالإضافة إلى أنهم يتقنون فنون القتال، لكن سنة 220هـ استطاع جيش الخليفة المعتصم من القضاء عليهم بعد حصار من جميع الجهات دام تسعة أشهر بقيادة القائد عجيف بن عنبسة قتل العديد من مقاتليهم. أما الباقي فكانوا أسرى في يد المعتصم الذي أمر بنقلهم إلى الحدود ليكونوا عرضة لغارات جيش الروم[41]. وهكذا تخلص

الخليفة العباسي من ثورة كانت هي الأخرى مناهضة للتباين الطبقي الحاصل في العالم الإسلامي.

3- ثورة الزنج.

في سنة 255 هـ ظهرت في الساحة الإسلامية التي لم تخلى من الثورات، ثورة أخرى سميت بثورة الزنج، وهي أكبر الثورات الطبقية في الخلافة الإسلامية[42]، والزنوج هم جيل من السودان[43].

تعددت العوامل التي ساهمت في بروز هذه الثورة و منها ما هو اقتصادي المتمثل أساسا في احتكار الطبقة الإقطاعية للأراضي، هذه الطبقة التي لم تعد تقتصر على الأسرة المالكة وقواد الأتراك والوزراء بل نشأت الملكيات الفردية، بعدما أطلق بنو أمية الحرية لمن أراد أن يقتني الأراضي الشيء الذي كان ممنوعا أيام أبي بكر وعمر بن الخطاب [44]، حيث أصبح أصحاب الثروة والسلطة يمتلكون الأراضي، هذا عزز من النظام الإقطاعي، بالإضافة إلى ذلك ساهمت الأوضاع المالية المزرية للخلافة العباسية إلى تعزيزه وذلك من خلال إقطاع الأراضي للتجار[45]، وغيرها من الإقطاعات...، وهنا بدأ الاستغلال المكثف للأراضي وبالتالي الحاجة إلى المزيد من الأيدي العاملة، فلجأ أصحاب الأراضي "الإقطاعيين" إلى البحث عن أيدي عاملة رخيصة فجلبوا أعداد هائلة من زنج شرقي إفريقيا[46]، إلى البصرة وكانوا يعملون على شكل جماعات عند دجلة والفرات[47] في تجفيف المستنقعات أو كسح الملح ومنهم من يعمل في استخراج الدبس من التمر ويطلق عليهم التمارين [48]. واستصلاح الأراضي والزراعة وغيرها من الأعمال التي كانت تشكل عملا شاقا خصوصا مع الأوضاع الصعبة التي يعيشون فيها، حيث يتم تكديسهم في أكواخ من القش والقصب[49]، وكان طعامهم يتألف من الدقيق والسونق والتمر[50]، بالإضافة إلى الأمراض الفتاكة التي كان الزنج عرضة لها لإشتغالهم وعيشهم في منطقة المستنقعات والأنهار. وكذا تعرضهم إلى الإهانة والضرب[51] أمام هذه العوامل الاجتماعية والعوامل الاقتصادية التي ذكرناها تولدت لذا هذه الفئات شعور بالحقد ونمى عندهم التفكير في التحرر من مواليهم المستضعفين، وهكذا انطلقت ثورة الزنج بقيادة علي بن محمد حسب الطبري هو علي بن محمد بن عبد الرحيم من قبيلة عبد القيس[52]، اتجه علي بن محمد سنة 255 هـ إلى البصرة لتخليص عبيدها وفقرائها مما هما فيه من شدة وضنك[53]، جمع حوله العديد من الناس وانطلقت الثورة يوم عيد الفطر[54]، صمدت هذه الثورة لمدة طويلة أمام جيوش الخلافة العباسية، وسقطت تحث يدها عدة مناطق كالبصرة التي عرفت شللا في

التجارة البحرية والبرية على إثر دخولها والأبلة[55] وخوزستان وعبادان[56]، وتأسيس عاصمتهم المختارة وهي مدينة واسعة ومحصنة[57] لكن في سنة 270هـ فرض الجيش العباسي حصار اقتصادي وعسكري على "المختارة" انتهى بدخول المدينة وقتل عبي بن محمد[58]، وبذلك تم القضاء على ثورة من أهم الثورات الطبقية في العالم الإسلامي.

4- ثورة القرامطة.

اندلعت ثورة القرامطة بالعراق سنة 264هـ/ 877م وهي ثورة الفلاحين بالدرجة الأولى، وقد شملت مختلف الفلاحين من العرب والنبط [59]، اثر تردي أوضاعهم بسبب إثقال كاهلهم بالضرائب المفروضة عليهم واستغلال كبار الملاكين من الإقطاعيين لهم، وقد اتخذت حركة القرامطة من الدين رداءا لها، وكان حسين الاهوازي حاملا لمشعل الدريعة الدينية بإظهاره المعجزات التي انعم الله عليه ببعثه ليخلص المقهورين والمستضعفين من بطش الإقطاعيين من خلال بعض الأقوال التي تضفي لها طابع الشرعية الدينية» أمرت أن أشفي هذه القرية واغني أهلها وأستنقذهم أو أملكهم أملاك أصحابهم"[60]. وفي واقع الأمر فالقرامطة تأثرت إلى حد كبير بثورة الزنج، فمن المعروف أن الانتفاضة القرمطية اصطبغت بطابع ديني من طرف مؤسسها الداهية الإسماعيلي حسين الاهوازي وأخذ من بعده المشعل حمدان قرمط الذي أمن بمذهبه.

فالثورة كانت اجتماعية بالأساس قامت ضد السلطة العباسية التي أصبحت تميل بشكل كبير إلى النظام الإقطاعي الذي ولد الفوارق الطبقية داخل المجتمع، مما جعل الفلاحين يدخلون في صراع مع العباسيين، لم تقتصر هذه الثورة على الفلاحين فقط بل استقطبت حتى أصحاب الحرف والعامة في المدن، فقد اعتمد قرمط لبناء مجتمع قرمطي على فرض ضرائب على كل فرد ينضم إلى الحركة لتنازل عن ممتلكاتهم لفائدة الجماعة[61] وذلك لكي لا تبقى الأموال حكرا لدى بعض الأشخاص بغية ضرب الإقطاعية وخلق نوع من التوازن الطبقي حيث لم يبقى بينهم فقير ولا محتاج وملكيتهم تنحصر فقط في السيف والسلاح، مما جعل حمدان ينسج لبعض التدابير التي اتخذها كضريبة الإلفة شرعية دينية باعتبارها مذكورة في القرآن، فالحركة القرمطية أحيكت من الناحية الاقتصادية و الدينية مكنها من الفوز بصوت وتأييد الفلاحين والعمال الزراعيين لها، غير أن أي ثورة لم تسلم من أصبع الاتهام لكونها تبيح اشتراكية النساء، ونلاحظ أن الإيديولوجية الدينية تستمدها السلطة العباسية لردع وطمس مطالب الثورة وما هذا إلا سلاح ديني للتحريض على اضطهاد القرامطة للقضاء عليهم حفاظا

على مصالحهم وذلك سنة 316هـ في صحراء الشام وسواد العراق، وهذه الثورة لم يقتصر ظهورها على العراق بل حتى البحرين بزعامة أبي سعيد الجنابي سنة 286هـ الذي طور الجيش من جيش شعبي تطوعي إلى جيش شعبي منظم، كما قام بتشجيع شراء منتوجات الحرفيين مكنهم من التعامل بعملتهم الفضية مخالفين عملة العباسيين، وهذا بفضل إقامة نظام الألفة، فحركة القرامطة غطت النصف الثاني من القرن الثالث والقرن الرابع الهجري إلا أنها لقيت حتفها مثل سابقاتها.

خاتمة :

لقد ساهم النظام الإقطاعي في ظهور الحركات الثورية خصوصا في النصف الأول من العهد العباسي الذي أصبحت فيه السلطة تشكل أهم مالك إقطاعي، كما عملت على تقديم اقطاعات لفئات مختلفة (الوزراء- التجار- الشعراء)، وبالتالي بدأت تظهر داخل المجتمع الإسلامي تفاوتات طبقية بين فئاته، فهناك فئة تستحوذ على وسائل الإنتاج وتستفيد من عدة امتيازات (امتلاكها أراضي شاسعة) و تتمتع بحياة الترف والبذخ وتعيش تحت كنف السلطة، أما الفئة الثانية فهي الأغلبية وتتشكل من العبيد والفلاحين.... تعيش ظروف اقتصادية واجتماعية جد صعبة ومحرومة من كل شيء، كل هذا أدى إلى ظهور عدة حركات اجتماعية عبرت عن نفسها في شكل ثورات وانتفاضات من أهمها ثورة الزنج و الزط و القرامطة و البابكية وثورات أخرى كان شعارها الوحيد هو تغيير علاقات الإنتاج وتحسين ظروفها المعيشية الصعبة.

الهوامش :

[1]) ابن منظور، لسان العرب، ج 3، دار الصادر (بدون طبعة)، بيروت، لبنان، (بدون سنة)، ص280.

[2]) ابن منظور، نفس المصدر، ص279.

[3]) نفسه المصدر، ص280.

[4]) نفس المصدر، نفس الصفحة.

[5]) نفس المصدر، ص281.

[6] [6]) نفس المصدر، ص277.

[7]) نفسه المصدر، ص281.

[8]) الساهي شوقي عبد الله،المال وطرق استثماره في الإسلام، ط 1، 1981، ص 124.

[9]) ابن سعد محمد، الطبقات، ج 2، دار الصادر، (بدون طبعة)، بيروت، لبنان، (بدون سنة)، ص 89.

[10]) الطبري أبو جعفر محمد بن جرير، تاريخ الرسل والملوك،تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ج 2، ط 4، دار المعارف، بدون سنة، ص 110.

[11]) ابن سعد، الطبقات، مصدر سابق، ص 51.

[12]) نفس المصدر، ص 72.

[13]) نفس المصدر، ص 275.

[14]) نفس المصدر، ص 188.

15) نفسه المصدر، ص 188.

[16]) الطبري، مصدر سابق،ص 333.

[17]) البلاذري، أنساب الأشراف، تحقيق سهيل زكار ورياض زر علي، ج 1، دار الفكر للطباعة والنشر، ط 1، 1996، ص 273.

[18]) نفس المصدر،ص 547.

[19]) حسن قاسم العزيز، البابكية (الإنتفاضة ضد الخلافة العباسية)، دار المدى للثقافة والنشر، ط 1، 2000، ص 73.

[20]) عبد العزيز الدوري، نشأة الإقطاع في المجتمعات الإسلامية، نشأة الإقطاع في المجتمعات الإسلامية، دار الاجتهاد للأبحاث والترجمة والنشر، لبنان، 1988، ص 250.

[21]) الطبري، مصدر سابق،ص 589.

[22]) الحمى : أراضي واسعة لدى القبائل هي مراعيها وتعتبر أراضي مشتركة لا يجوز التجاوز عليها عبد العزيز الدوري، نشأة الإقطاع في المجتمعات الإسلامية، دار الاجتهاد للأبحاث والترجمة والنشر، لبنان، 1988، ص 248.

[23]) حسن قاسم العزيز، البابكية، مرجع سابق،ص78.

[24]) برهان الدين دلو، مساهمة في إعادة كتابة التاريخ العربي الإسلامي، دار الفارابي،ص 99.

[25]) نفس المرجع، نفس الصفحة.

[26]) نفس المرجع، نفس الصفحة.

[27]) حسن قاسم العزيز، البابكية، مرجع سابق، ص66.

[28]) جوزي بندلي صليبا، من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام، الإتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين،ط 2، 1981. ص 48.

[29]) عبد العزيز الدوري، العصر العباسي الأول، ص273.

[30]) عبد العزيز الدوري، نشأة الإقطاع في المجتمعات الإسلامية، دار الاجتهاد للأبحاث والترجمة والنشر، لبنان، 1988، ص 254.

31) نفس المرجع، نفس الصفحة.

[32]) نفس المرجع، نفس الصفحة.

[33]) نفس المرجع، ص 253.

[34]) محمد حسن سهيل الدليمي،الإقطاع في الدولة العباسية (447–656هـ)، بغداد، العراق، ط 1، 2010، ص42.

[35]) مصطفى التواتي، التعبير الديني عن الصراع الاجتماعي في الإسلام، دار الفارابي، بيروت، لبنان، ط 2، 2007، ص 124

[36]) ميكيال يان دي خويه، القرامطة نشأتهم وعلاقتهم بالفاطميين، ترجمة وتحقيق حسني زينه، ص 139.

[37])حسن قاسم العزيز، البابكية، مرجع سابق، ص 159.

[38]) مصطفى التواتي، مرجع سابق، ص 142.

[39]) نفس المرجع، نفس الصفحة.

[40]) نفسه المرجع، نفس الصفحة.

[41]) نفسه المرجع، نفس الصفحة.

[42]) مصطفى التواتي، مرجع سابق، ص 143.

[43]) أحمد علبي، ثورة الزنج وقائدها علي بن محمد (255–270هـ/ 883–869م)، دار الفارابي، بيروث، ط 3،2007، ص 47.

[44]) نفس المرجع، ص 153.

[45]) نفس المرجع، ص 158.

[46]) نفسه المرجع، ص 159.

[47]) نفس المرجع، ص 168.

[48]) الطبري، تاريخ الطبري المعروف بتاريخ الأمم والملوك، ص 560.

[49]) مصطفى التواتي، مرجع سابق، ص 146.

[50]) الطبري، مصدر سابق، ص 546.

[51]) مصطفى التواتي، مرجع سابق، ص 144.

[52]) الطبري، مصدر سابق، ص 543.

[53]) مصطفى التواتي، مرجع سابق،ص 147.

[54]) نفس المرجع، نفس الصفحة.

[55]) أحمد علبي، مرجع سابق، ص 202.

[56]) مصطفى التواتي، مرجع سابق،ص 149.

[57]) أحمد علبي، مرجع سابق، ص 197.

[58]) نفس المرجع، ص 247.

[59]) نفس المرجع، ص 151.

[60]) نفسه المرجع، ص152.

[61]) نفس المرجع، ص 153.

الكاتب: د/ محمد بن عربة.
جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة،
د/ أحلام بوسالم.
جامعة عبد الحميد مهري / قسنيطنة.

البريد الالكتروني: benarbamohamed.alfatih@yahoo.com

تاريخ الإرسال: 2020/04/26 **تاريخ القبول:** 2020/05/25 **تاريخ النشر:** 2020/06/30

عنوان المقال: ثروات المغرب الأوسط النباتية و الحيوانية خلال العصر الوسيط من خلال مصنفات الرحلة والجغرافيا

ثروات المغرب الأوسط النباتية و الحيوانية خلال العصر الوسيط من خلال مصنفات الرحلة والجغرافيا

الملخص:

تعد مصنفات الرحلة والجغرافيا أحد أهم المصادر التي تؤرخ للمظاهر الحضارية للمغرب الأوسط خلال العصر الوسيط، فهي تحوي معلومات قيمة وتفاصيل نادرة قل نظيرها في بقية المضان، ذلك لأن مدونيها زاروا هذه الأرض واختلطوا بسكانها، وأكلوا من خيراتها، ووقفوا على أهم التحولات الطارئة بحواضرها وبواديها، وكانت المادة العلمية عندهم تتوزع على مختلف المجالات بين السياسية، الاجتماعية، وحتى المذهبية، إلا أن أهمها تلك التي ارتبطت بالحياة الاقتصادية، فوصفت معاملاتها وعرفت بمسالكها ونظمها، كما أنها تحدثت بإسهاب عن ثرواتها وعلى رأسها المنتوج النباتي والحيواني وهي موضوع بحثنا.

الكلمات المفتاحية

المغرب الأوسط - كتب الرحلة والجغرافيا- الثروة النباتية- الثروة الحيوانية.

Abstract

The books of the journey and geography are one of the most important of sources that chronicle the culturale aspects Algeria during the middle ages ,it contains valuable information and rare details, its countarparts in the rest of the sources because those who wrote it visited this land and mingled with its inhabitants and ate its good things and observed the most important

transformations in its cities and countryside . distributed among the various fields between political and social and even nodal but the most important that have been assosiated with economic life and described its transactions and knew ways and methods and systems and talked to many about the natural wealth, especially the plant and animal product .

key words: Middle East - Travel and geography books - Plant wealth – animal product

أولا: الثروة النباتية

تعتبر الثروة النباتية العنصر الأساسي لتأمين الغذاء سواء كان ذلك بالنسبة للإنسان أو للحيوان، وهي بمثابة الركيزة الأساسية لمختلف الأنشطة الاقتصادية للدول، لهذا انصب اهتمام الرحالة خلال تنقلاتهم بين مدن وحواضر العالم الإسلامي لاسيما المغاربي والمغرب أوسطي منه على وجه الخصوص بوصف هذه البلاد وخيراتها الطبيعية.

لقد اشتهرت بلاد المغرب الأوسط خلال العصر الوسيط بتنوع غطائها النباتي ووفرة محاصيلها الزراعية، وهذا بسبب خصوبة التربة وتوفر المياه، إلا أن هذه الوفرة تباينت من مكان لآخر، كما أن هذه المحاصيل الزراعية تفاوتت فيما بينها من حيث أهميتها الاقتصادية وقيمتها الغذائية وسدها لحاجات ومتطلبات السكان، إذ نجد أن مزارعها وبساتينها حسب ما جاء في المصادر الجغرافية تتوزع وتحتوي على ما يلي:

- القمح والشعير:

لقد كان القمح والشعير من أكثر الزراعات المنتشرة بإقليم المغرب الأوسط نظرا لأهميتها وقيمتها الغذائية، كما أنها لا تتطلب السقي مما يسهل عملية زرعها في كل مكان، إضافة إلى ذلك فهي تقاوم التعفن والتلف عند ادخارها، وإمكانية تخزينها في بعض مناطق المغرب الأوسط تقارب أو تتجاوز المائة سنة في المطامير تحت الأرض، وهذا على حسب إشارة الجغرافي الشريف الإدريسي(ت585هـ/1162م) عند تعرضه لمدينة قسنطينة[1] حيث ذكر أن الحنطة" تقيم بها في مطاميرها مائة سنة لا تفسد"[2] وكانت قلعة بني حماد تخزن بها الحنطة فتبقى العام والعامين لا يدخلها الفساد ولا يعتريها تغيير[3]، وقد لاحظ الرحالة المشرقي ابن حوقل النصيبي(ت380هـ/990م) الذي زار بلاد المغرب الإسلامي في منتصف القرن4هـ/10م

أن بمدينة بونة" القمح و الشعير في أكثر أوقاتها كما لا قدر له"[4] كما نوه برخص سعره بمرسى الدجاج[5]، وأكد على وفرته بمدينة وهران حين قال:" وغلاتهم من القمح والشعير"[6].

وقد أشار الشريف الإدريسي إلى وفرة الحبوب بتنس، حتى أنها لكثرتها كانت توجه للتصدير فيقول: " وبها الحنطة ممكنة جدا وسائر الحبوب موجودة وتخرج منها إلى كل الآفاق في المراكب"[7]، وقد أكد على هذا ابن سعيد المغربي(ت685هـ/1286م) والذي ذكر بأن:" تنس مشهورة بكثرة القمح، ومنها يحمل في المراكب إلى سواحل الأندلس وغيرها"[8]، ونفس الوفرة تواجدت بشرشال والتي كان لها" من زراعة الحنطة والشعير ما يزيد على الحاجة"[9]، ووصف الإدريسي الحنطة والشعير بمدينة برشك بالكثرة[10]، وذكر ابن حوقل أن لأهلها:" من الزرع والحنطة والشعير مايزيد على حاجاتهم"[11]، كما أفاد أن بجاية لها بواد ومزارع والحنطة والشعير بها موجودان كثيران"[12]، وكانت قبائل جزائر بني مزغناي" زراعاتهم الحنطة والشعير"[13]، وذكر الحسن الوزان(ت بعد957هـ/1550م) أن سهل متيجة به" ينبت القمح الجيد"[14] وكان أهل دلس "يملكون أراضي زراعية كثيرة تنتج القمح بوفرة"[15]، ونفس الشيء بالنسبة لأهل باغاية[16]وكذلك طبنة[17] و المسيلة[18]، وكانت حنطة القلعة رخيصة[19]، أما تلمسان فقد ذكر لسان الدين ابن الخطيب(ت776هـ/1374م) في مؤلفه معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار أنها:" خزانة زرع، ومسرح ضرع"[20].

- البقول :

لهذه الشعبة من المزروعات أهمية كبيرة لما تحتويه من عناصر ذات قيمة غذائية، إلا أن حضورها في المصادر الجغرافية لم ينل قسطا كاف مقارنة بمادتي القمح والشعير، ماعدا تلك الإشارات الشحيحة التي جاءت متناثرة هنا وهناك، والبقول المنشرة في بلاد المغرب بصفة عامة بحسب ابن فضل الله العمري(749هـ/1349م) عديدة ومتنوعة منها:

الخيار والقثاء، اللوبياء، اللفت، الباذنجان، القرنبيط، الكرنب، البقلة اليمانية واسمها بليدس، الرجلة، الخس، الهندبا على أنواع والملوخيا...[21]، وقد تواجد بمدينة وازلفن البصل[22]، وبمدينة نقاوس الجزر[23].

- الفواكه:

لقد اشتهر المغرب الأوسط خلال العصر الوسيط ببساتينه التي زخرت بمختلف الثمار و الفواكه، وقد أختص الجزء الشمالي منه كثيرا بذلك ففي المنطقة الشرقية وفي مجالات كتامة بالضبط يذكر إبن رسته(توفي في حدود300هـ/912م):" أن البلد كله عامر كثير

الأشجار والثمار"[24]، وقد أشار الإدريسي إلى وفرة البساتين والفواكه ببونة، وأن أكثرها من البادية [25]، وكذلك مدينة تبسة قال عنها" كثيرة الثمار والأشجار"[26]. ويذكر صاحب مؤلف الاستبصار في عجائب الأمصار(ت6ه/12م) أن مدينة القل: " كثيرة الفواكه والخيرات والعنب فيها كثير"[27] أما حصن سطيف فقد أشتهر بكثرة مياهه وأشجاره المثمرة[28]، وقد تواجد ببجاية المستحدثة من طرف الحماديين الكثير من الفواكه المأكولة والنعم المنتجة [29]، ويذكر الرحالة ابن حوقل أن مدينة شرشال" بها فواكه حسنة غزيرة"[30] وفي الجهة الغربية من الساحل كان بوهران" بساتين وأجنة كثيرة فيها من جميع الفواكه"[31]، وبتاهرت الحديثة أشجار وبساتين[32]، كما وصف الرحالة المشرقي المقدسي(ت375ه/985م) متيجة بكثرة بساتينها [33] وعن تاهرت قال بأنها" بلغ المغرب التفت بها الأشجار وغابت في البساتين"[34]، ومن جهته عبيد الله البكري (ت487ه/1094م) يذكر أن مدينة بسكرة" كثيرة النخل والزيتون وأصناف الثمار"[35]، وفي نفس السياق نجد الإدريسي يذكر أن مدينة نقاوس كثيرة الشجر والبساتين[36] وكذلك الخضراء[37]، ولمدينة مازونة مزارع وبساتين[38]، ويلل بها " فواكه وزروع، وبلادها جيدة للفلاحة وزروعها نامية"[39]، ونفس الأمر بالنسبة لتلمسان حيث يذكر الإدريسي" أن غلاتها ومزارعها كثيرة، وفواكهها جمة"[40]، وكذلك صاحب كتاب الاستبصار(ت6ه/12م) ذكر أن مدينة ندرومة بنواحي تلمسان كانت كثيرة الفواكه[41]، ونجد يحي ابن خلدون (ت780ه/1378م) في مؤلفه التاريخي " بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد" يشير إلى بساتين تلمسان بقوله:" ويوجد بخارجها الخمائل الألفاف والأدواح الأشبة والحدائق الغالب بما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين من الفواكه والرمان والزيتون والتين"[42]، ومن أهم الفواكه التي اشتهر بها المغرب الأوسط نذكر ما يلي:

- **الزيتون:**

تعتبر شجرة الزيتون من بين الأشجار المثمرة التي اشتهرت بها أرياف المغرب الأوسط خاصة والمجال المتوسطي عامة، وهي شجرة مباركة جاء ذكرها في القرآن الكريم لقوله تعالى:" **اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ۖ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ ۚ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** "[43].

وقد ورد ذكرها في المصادر التي أرخت للمغرب الأوسط خلال العصر الوسيط، فنجد ابن الصغير المالكي(كان حيا أواخر القرن3ه/9م) قد أشار إلى وجود الزيت بتاهرت الرستمية، بدليل أن الإمام عبد الرحمان بن رستم قام بتوزيع الزيت على الفقراء[44]، وكان زيت مقرة بنواحي المسيلة من أطيب الزيوت[45]، ويقول ابن الصباح (ت النصف الثاني من القرن الثامن الهجري) في رحلته إلى تلمسان أنها مدينة خضراء من كثرة البساتين والأشجار، والغالب عليها ثمار الزيتون[46]، هذا وقد توفر الزيتون بكثرة في كل من بنطيوس[47]، بسكرة [48]، وطولقة[49]، وكذلك اشتهرت بإنتاجه كل من قالمة وسكيكدة وجيجل، واختصت واشتهرت به منطقة زواوة، حيث استمرت وفرته فيها إلى غاية الفترة الحديثة وهذا على حسب شهادة كبير رحالة الجزائر العثمانية الحسين الورثلاني(ت1193ه/1779م) والذي قال:" وبلدنا كثير الشجر من زيتون وعنب وتين كثيرة الفواكه..."[50]، ولازالت هذه المنطقة وبلاد كتامة تحتل الصدارة في إنتاجه كما ونوعا.

الكروم:

إشتهر المغرب الأوسط بهذه الفاكهة التي عمت بانتشارها أرجاء واسعة من إقليم المغرب الأوسط، وذلك من خلال الإشارات التي وردت في المصادر الجغرافية، فقد اشتملت طولقة على كل من:" الزيتون والأعناب والنخل والشجر وجميع الثمار"[51]، وتوفر في كل من شرشال[52]والخضراء[53]،وهنين[54]، كما اشتهرت قرية بني وازلفن بإنتاج الكروم حسب الإدريسي الذي أورد أن بها" كروم كثيرة ومعظمها على نهر شلف"[55]، بالإضافة إلى كل من القل جيجل[56]، وميلة[57]، وأيضا الغدير التي كان" قنطار عنب فيها بدرهم"[58]، وذكر الحسن الوزان أن بتلمسان" الكروم المعروشة الممتازة تنتج أعنابا من كل لون، طيبة المذاق جدا"[59]، وشاهد الرحالة العبدري(ت725ه/1325م) والذي زار المغرب الأوسط سنة(688ه/1290) أن أحواز تلمسان كلها" مغروسة بالكرم وأنواع الثمار"[60]، كل هذه الشهادات إن دلت على شيء فإنها تدل على كثرة هذه الفاكهة ووفرتها.

- التمور:

تعد التمور أشهر الفواكه التي انتشرت في بلاد المغرب الأوسط خلال الفترة الوسيطة، و انتشارها كان يقتصر على المناطق الجنوبية، وكان به الكثير من الأنواع[61]، وقد تباهت المصادر الجغرافية بجودتها ونوعيتها، ومن جملة ذلك ما ذكره الجغرافي البكري عن مدينة بسكرة، حيث ذكر أن فيها جنسا من التمور يعرف:" بالكسبا وهو الصيحاني يضرب به المثل

لفضله على غيره، وجنس يعرف بالليلاري أبيض أملس كان عبيد الله الشيعي[62] يأمر عماله بالمنع من بيعه والتحضير عليه وبعث ما هنالك منه إليه، لطيبه وحسنه"[63]، وكانت بسكرة تعرف"ببسكرة النخيل"[64]، وقد أكد على جودة ونوعية هذا التمر في المنطقة الرحالة ابن سعيد المغربي(ت672هـ/1274م) عندما قال:" فهي بلاد نخل ومنها تجلب أصناف التمر إلى حاضرتي تونس وبجاية"[65]، وفي ذات السياق يذكر الشريف الإدريسي أن باغاي هي أول بلاد التمر[66]، وبمدينة بسكرة"من التمر كل غريبة وطريفة"[67]، كما كانت كل من بنطيوس، طولقة وتهودة " كثيرة الثمار والنخيل"[68]، وأيضا واركلان[69]، المسيلة[70]، بلاد ريغ[71]، طبنة[72] وبلاد الزاب[73]، أما عن تمر توات وأحوازها فيذكر الرحالة المغربي ابن بطوطة(779هـ/1377م) أنه وجد بها:" رمال وسباخ وتمرها كثير ليس بطيب"[74]، وقد كان الحسن الوزان شاهدا على تواجد ووفرة التمر الذي ينقل إلى قسنطينة حيث يباع فيها "بثمن بخس"[75].

- التين:

نظرا لوفرة هذه الفاكهة بإقليم المغرب الأوسط فقد كانت على رأس المنتوجات المصدرة إلى أقطار العالم الإسلامي مشرقه ومغربه، وهذه الحقيقة أكدتها العديد من كتابات ومشاهدات الرحالة والجغرافيين، فقد أشار ابن حوقل إلى وجود هذا المنتوج في مرسى الدجاج حيث قال:" به التين خاصة العظيم الجسيم ما يحمل منه إلى البلاد النائية عنه"[76]، وكان تين مدينة جزائر بني مزغناي" يجلب إلى القيروان وغيرها"[77]، ويذكر الإدريسي أن بباجة" إقليم شجر التين كثير جدا، ويعمل بها من التين شرائح على مثال الطوب وبذلك تسمى وتحمل منها إلى كثير من الأقطار"[78]، ونفس الأمر مع مرسى الدجاج حيث كان تينه " يحمل إلى سائر الأقطار، وأقاصي المدائن والأمصار..."[79]، وكانت بجاية هي الأخرى قد اشتهرت بإنتاجها للتين، الذي كان يكفي لكثير من البلاد[80]، ويكثر في جيجل" الجوز والتين، ويحملان إلى تونس في سفن صغيرة"[81] وتين نقاوس" شهير بأنه أجود تين"[82]، كما اشتهر حصن تاونت بالتين، فكان" يحمل من زبيب تينه إلى ما يليه من النواحي"[83]، وتلمسان أيضا كان بها من التين ما تلذ به الأعين[84]، وقد وصفه الحسن الوزان بأنه" الشديد الحلاوة، أسود غليظ، طويل جدا، يجفف ليؤكل في الشتاء"[85].

- السفرجل:

اشتهرت بلاد المغرب الأوسط بالسفرجل، وقد أشاد الجغرافيون بجودته وحسن طعمه ومشمه، وذلك وفقا لمشاهداتهم وكتاباتهم التي وصلت إلينا، وفي مقدمتها مشاهدة ابن حوقل

الذي اندهش من حلاوته وطيب رائحته فقال أن مدينة تنس بها من "السفرجل المعنق ما لا أزال أحكيه لحسنه ونعومته وحلاوته وطيب رائحته"[86]، وأكد هذا الإدريسي في روايته الذي قال:" وبها من الفواكه كل طريفة ومن السفرجل الطيب المعنق، ما يفوق الوصف في صفته وكبره، وحسنه"[87] واشتهرت برشك بسفرجلها المعنق كبير الحجم ذوا أعناق القرع الصغار[88]، وكان لأهل المسيلة من السفرجل المعنق ما يحمل إلى القيروان وأصله من تنس"[89] أما سفرجل تاهرت فكان يعرف بالفارسي وقد وصفه البكري أنه" يفوق سفرجل الأفاق حسنا وطعما ورائحة"[90]، كما اشتهرت كل من الخضراء[91] وميلة بهذه الفاكهة[92].

إضافة إلى فواكه أخرى جاء ذكرها في المصادر إلا أن الإشارة إليها كانت مقتضبة، وربما راجع ذلك لوجودها بكميات قليلة مقارنة بالفواكه التي أسلفنا ذكرها، مثل الجوز[93]، الخوخ[94]، التفاح[95]، المشمش[96]، التوت بنوعيه الأبيض والأسود[97]، الخروب[98]، الكرز، الأجاص[99]، الزبيب[100] ، اللوز والبطيخ[101].

- **النباتات الصناعية**

زخر المغرب الأوسط بنباتات كانت بمثابة مواد أولية تدخل في العديد من الصناعات ولعل أهمها الصناعة النسيجية ومن أهم هذه النباتات نذكر مايلي:

- القطن:

إن نبتة القطن من النباتات الدخيلة على أرض المغرب الأوسط، إذ أن أصولها الهند[102]، غير أنه تواجد في البيئة المغرب أوسطية وهذا بشهادة الجغرافيين والرحالة، فقد ذكر عماد الدين أبي الفدا(ت732هـ/1331م) أن طبنة" كثيرة المياه والبساتين والزرع من القطن"[103]، وتواجد كذلك في كل من المسيلة[104] وأشير[105]، وتامزكيدة[106]، وهنين[107]، أما مستغانم فقد كان" يبذر في أرضها القطن فيجود"[108]، كما اشتهرت مدينة ندرومة بإنتاجه حيث شاهد الحسن الوزان أنه كان ينمو بكثرة في نواحيها[109].

- الكتان:

تكتسي مادة الكتان أهمية كبيرة خاصة عندما يتعلق الأمر بالنشاط الحرفي، وتكمن أهميته في كونه مادة أولية تدخل في العديد من المصنوعات، لهذا نجد أن كتب الجغرافية أولت هذا النوع من المحاصيل الزراعية التي اشتهر بها المغرب الأوسط إهتماما بالغا، ومن مؤشرات ذلك ما ذكره اليعقوبي(ت284هـ/897م) عندما أبدى إعجابه بوادي شلف الذي" يفيض كما يفيض نيل مصر يزرع عليه العصفر والكتان والسمسم"[110]، كما اشتهرت مدينة

بونة بزراعة الكتان وذلك على حد مشاهدة الرحالة ابن حوقل الذي قال أن بها يزرع الكتان[111]، وكانت متيجة من" أكثر النواحي كتانا ومنها يحمل"[112]، و أشار الإدريسي إلى أن أهل مقرة يزرعون الكتان وهو عندهم كثير"[113]، وكان أهل طبنة "يزرعون الكتان" أيضا [114] وكذلك أهل قسنطينة [115]، وكانت بادية برشك" تنتج من حولها الكثير من الكتان"[116]، ونظرا لجودة الكتان وكثرته بالمغرب الأوسط كان يحمله التجار إلى الحبشة لكثرة الطلب عليه[117].

- النيلة:

إن المعلومات شحيحة جدا حول تواجد هذه النبتة بالمغرب الأوسط، ماعدا تلك الإشارة التي ذكرها صاحب كتاب الإستبصار، والتي تفيد أن سكان مدينة الغدير" عندهم النيلة المشهورة"[118].

إلى جانب ما تقدم ذكره هناك نباتات أخرى كانت منتشرة بإقليم المغرب الأوسط، فقد أكد الرحالة اليعقوبي أن زراعة العصفر والسمسم انتشرت على ضفاف وادي شلف[119]، كما اشتهرت بني وازلفن وهي إحدى القرى القريبة من المسيلة بإنتاجها" البصل والشهدانج والحناء والكمون[120]، وأكثر غلات أهل تقيوس من الحناء والكمون والكروياء[121]، أما الزعفران والذي كان أحد أهم المنتوجات المجلوبة من الشرق فإن مدينة مجانة من المناطق التي كانت تصلح بها زراعته حسب إشارة الإدريسي التي جاء فيها:" وكان بها ... يزدرع بصل الزعفران كثيرا"[122]، ونفس الملاحظة أكد عليها القزويني الذي ذكر أن" أرضها أرض طيبة ينبت بها زعفران كثير"[123].

- **الحشائش الطبية**

هي تلك الحشائش البرية التي كان سكان المغرب الأوسط خلال الفترة الوسيطة يتخذونها للمداواة من بعض المشاكل الصحية والأمراض التي كانت تصيبهم، والتي لا تزال البعض منها تستخدم لنفس الغرض إلى يومنا هذا، نجد منها على سبيل المثال: الشيح والزعتر، النونخة ، النابطة، فليو، العينون، الدرياس وبونافع[124]، كما توجد في أكناف جبل مسيون شمال بجاية نباتات" ينتفع بها في صناعة الطب، مثل شجر الحضض، والسقول وفندوريون والبرباريس والقنطاريون الكبير والزراوند، والقسطون، والأفسنتين أيضا"[125]، أما مدينة القلعة فيكثر بها نبات الفوليون الحرافي، حيث كان أهلها يتحصنون به من ضرر لسعات العقارب[126]، ويقال أن من شرب وزن درهمين منه لعام كامل لا يصيب شاربه ألم تلك العقارب[127]، وبالقرب من أسير كانت تجمع النبتة الطبية المسماة "بعروق عاقر قرحا"[128].

- الأخشاب:

لقد اشتهر المغرب الأوسط بكثافة غطائه النباتي خلال الفترة الوسيطة، غير أن هذا الغطاء تتفاوت كثافته من منطقة إلى أخرى، ومن المناطق التي اشتهرت بكثرة غاباتها وكثافة غطاءها النباتي نجد زانة التي تقع بالقرب من مدينة بونة، والتي عبر عنها البكري لكثافة غاباتها أنها " في شعراء عظيمة شجرها كلها زان"[129]، كذلك نجد مدينة بجاية التي كانت بها دار صناعة لإنشاء الأساطيل والمراكب والسفن لأن الخشب في جبالها وأوديتها كثير موجود[130]، كما توفرت كل من مدينة بونة[131]، سطيف[132]، نقاوس[133]، بسكرة[134]، مليانة[135]و تاهرت[136]على الأخشاب التي كانت تستمد من الغابات والأشجار.

ثانيا: الثروة الحيوانية

لقد زخرت مصنفات الرحالة والجغرافيون بالإشارات التي تؤكد وفرة الثروة الحيوانية وتوزيعها في إقليم المغرب الأوسط، ولعل أهم المناطق التي اشتهرت بوفرة الماشية والدواب وسائر الكراع هي المناطق الساحلية، وذلك لسعة مراعيها ومسارحها الممتدة مثل بونة[137]، جيجل[138]، جزائر بني مزغناي[139]، شرشال[140]، مرسى الدجاج[141]، تدلس[142] أرجقول[143].

إضافة إلى المناطق الساحلية إشتهرت المناطق الداخلية بتربية المواشي مثل واسلن[144]، القلعة[145]، طبنة[146]، الغدير[147]، المسيلة [148]، تاهرت[149]، مازونة[150] وتلمسان[151]، ولم يقتصر الأمر على الساحل والداخل فحسب، بل اشتهرت بعض المناطق الصحراوية بتربية المواشي مثل واركلان[152]وغيرها، وقد كانت أسعارها رخيصة ببعض مدن المغرب الأوسط ومنها تلمسان أواسط العصر الوسيط، ويذكر الإدريسي في هذا المقام أن:" خيراتها شاملة، ولحومها شحمية سمينة، وبالجملة إنها حسنة لرخص أسعارها ونفاق أشغالها، ومرابح تجارتها..."[153]، ونفس الملاحظة مع القلعة، التي كانت" لحومها طيبة سمينة"[154]، وكذلك المسيلة التي كانت" كثيرة اللحم رخيصة السعر"[155]، ورغم كثرة الحروب بالمغرب الأوسط فإن أعداد الماشية إلى مطلع العصر الحديث كانت في توافر وهذا ما أكده الحسن الوزان عندما أورد قصة خراب البطحاء أثناء الحروب المشتعلة بين الزيانيين والمرنيين، فنزلها أحد النساك مع عدد من أتباعه" فأمر هذا الرجل بحرث الأراضي، وتكاثر بقره وخيله وغنمه إلى حد أن أصبح هو نفسه لا يعرف عدد رؤوس تلك الماشية...، وأن له زهاء خمسمائة من الخيل ذكورا وإناثا، وعشرة آلاف من الغنم، وألفين من البقر..."[156] وقد تواجد بأرض المغرب الأوسط أنواع عديدة من الثروة الحيوانية نذكر منها:

- المواشي: تأتي المواشي في طليعة الحيوانات الأكثر اهتماما من طرف ساكنة المغرب الأوسط

- **الأغنام:**

يعتبر الضأن من بين المواشي التي اشتهرت بتربيتها المناطق السهبية من إقليم المغرب الأوسط[157]، ولعل أهم المدن التي اشتهرت بتربيتها هي مدينة بونة، حيث يفيدنا ابن حوقل أن من تجارتها" الغنم والصوف والماشية من الدواب وسائر الكراع"[158]، واشتهرت جزائر بني مزغناي بذلك فكان أهلها" أكثر أموالهم المواشي من البقر والغنم سائمة في الجبال"[159]، ومدينة تدلس كانت بها الغنم تباع بأثمان يسيرة لكثرتها[160]، وكان بتاهرت" البراذين والخيل كل حسن، وأما البقر والغنم كثيرة جدا"[161]، وأكد ابن حوقل أنها:" أحد معادن الدواب والماشية والغنم والبغال والبراذين الفراهية"[162]، وبتدلس الغنم والبقر موجودة كثيرا وتباع جملتها بالأثمان اليسيرة ويخرج من أرضها إلى كثير من الأفاق..."[163]، أما إشارة الزهري(ت6هـ/12م) فتفيد أن مدينة تلمسان كان يعمل فيها من الصوف" كل بديع من المحررات والأبدان وأحاريم الصوف والسفاسير والحنابل المكلكلة"[164] مما يدل على أن تربية الغنم بها كانت مزدهرة، كما كثرت الأغنام في كل من شرشال[165]، مرسى الدجاج[166]، طبنة[167]، المسيلة[168]، بلزمة[169]، برشك[170]، ووهران[171].

- **الأبقار:**

تواجد هذا النوع من المواشي بكثرة بالمغرب الأوسط، ومناطق انتشار تربيتها كانت تتركز بالجهة الشمالية حيث المراعي الخضراء والأراضي المنبسطة الخالية من السفوح الشديدة الانحدار[172]، وبالرغم من قلة عددها مقارنة بالأغنام إلا أن هذا لا ينفي الاهتمام المتزايد بها، هذا وقد أكدت المصادر الجغرافية استفادة أهل المنطقة من لحومها وألبانها وجلودها، واستخدامها في أعمال الفلاحة أو في مجالات أخرى كالتجارة والحروب، فابن حوقل كان شاهدا على وفرتها في مدينة بونة وقال أن:" أكثر سوائمهم البقر"[173]. ونفس الملاحظة أكد عليها البكري الذي ذكر أن:" أكثر لحمانهم البقر" [174].

كما اشتهرت جزائر بني مزغناي بوفرتها[175]، أما وهران فإن البقر والغنم" بها رخيصة بالثمن اليسير"[176]، وكانت طبنة "وافرة الماشية من البقر والغنم وسائر الكراع والنعم..."[177]وقد كثرت عند أهل المسيلة" المواشي من الدواب والأنعام والبقر" [178]، واشتهرت كل من تاهرت[179]، وتدلس[180] بوجودها، ومن الدلالات التي تؤكد وفرة الأبقار بمنطقة الأوراس تلك الرواية التاريخية التي حفظتها لنا المصادر خاصة الإباضية منها حول ثورة أبو

يزيد مخلد بن كيداد [181] ضد الحكم الفاطمي[182]، حيث أورد الدرجيني (ت670هـ/1240م) أن أبا يزيد استخدم خمسمائة ثور لفك الحصار الذي ضرب عليه من طرف الفاطميين في منطقة الأوراس[183]، وزاد الاهتمام بتربيتها خلال عهد الدولة الزيانية، لأن استخداماتها تعددت من الاستخدام الفلاحي إلى المتاجرة بجلودها التي كانت تدبغ وتصدر إلى أوروبا[184].

- **الدواب :** لقد عرف سكان المغرب الأوسط أنواعا عديدة من الدواب منها:

- **الخيول:**

لقد ورد الكثير من الإشارات في المصادر التاريخية والجغرافية عن تواجد كبير للخيول بأرض المغرب الأوسط خلال العصر الوسيط، و الإشارات المدونة حولها تؤكد على دور كبير لقبيلة زناتة[185] في الاهتمام بتربية وترويض هذا النوع من الدواب، وفي هذا الشأن ذكر الإدريسي أن " أكثر زناتة فرسان يركبون الخيل"[186]، كما نجد ابن حوقل يذكر أن أهل بونة:" قل من بها تفوته الخيل السائمة"[187]، واشتهرت المسيلة بسوائم الخيل والأغنام والأبقار[188]، ونفس الأمر مع أشير فقد كان لأهلها:" سوائم خيل وأغنام وأبقار"[189] أما مدينة تاهرت هي الأخرى فكانت أحد معادن الدواب والبغال والبراذين[190] ويؤكد الإدريسي ذلك قائلا:" بها ضياع جمة وبها من نتاج البراذين والخيل كل حسن"[191]، ولسكان جبل بني راشد من زناتة" نتاج في الخيل معروف"[192]، وكان بجبال الجزائر" كمية عظيمة من الماشية والخيل"[193]ويذكر ياقوت الحموي(626هـ/1229م) أن تلمسان اشتهرت بالخيل الراشدية والتي لها فضل على سائر الخيل[194]، ومن المعروف أن سلاطين بنو زيان اهتموا بتربية الخيل ورعوه رعاية خاصة، لأنهم كانوا يتباهون بها أمام مقاتليهم[195]، كما كانت بجاية خزان للخيل العراب الذي يشبه خيل برقة[196].

إضافة إلى قبيلة زناتة يشير القاضي النعمان (ت363هـ/973م) عند تطرقه لموضوع بداية الدعوة الإسماعيلية في بلاد المغرب[197]، حديث الذي دار بين الداعية أبو عبد الله الشيعي[198] والكتاميين حول امتلاكهم للسلاح والخيول فأجابوه: ذلك أكثر كسبنا، وبه نفتخر وإياه نفتدي"[199]. هذه الإجابة قرينة على كثرة هذا النوع من الحيوانات بإقليم المغرب الأوسط وانتشاره بين مختلف القبائل، وكانت شهرة الزناتيين في ركوب الخيل وترويضه مصدر إعجاب من طرف الأندلسيين، فقد ذكر صاحب مؤلف المقتبس إبن حيان القرطبي(469هـ/1076م) على لسان الخليفة الأموي الثاني بالأندلس الحكم المستنصر

بالله(ت366هـ/977م)[200] إعجابه بفرسان بنو برزال وهم يروضون الخيل ويستعرضونها بمايلي:

" انظروا إلى انطباع هؤلاء القوم على خيولهم فكأنهم الذين عناهم الشاعر بقوله:

فكأنما ولدت قياما تحتهم وكأنهم ولدوا على صهواتها

ما أعجب انقيادها لهم، كأنها تفهم كلامهم!... "[201].

- **الإبل:**

كانت الجمال والمسماة بسفن الصحراء[202] أهم الأنواع الحيوانية انتشارا في المجالات الصحراوية، وقد تميزت بالعديد من المزايا منها احتمالها للعطش، وحمل الأثقال وقطع المسافات الطوال في الصحاري والقفار، وقد اشتهرت زناتة بامتلاكها وتربيتها لها في صحاري المغرب الأوسط ولا أدل على ذلك من أنه:" لما عزم المعز على الرحيل إلى مصر أتاه بلكين بن زيري بألفي جمل من إبل زناتة"[203] وكانت هذه الجمال هي التي حملت تحف ودخائر وأموال الفاطميين نحو القاهرة

ويبدوا أن الجمال لم تكن تقتصر على الصحراء بل كان يتم إدخالها إلى التلال وكان استخدامها لا يقتصر على التجارة بل تم إقحامها في الحروب وقد توفرت لنا إشارات عن تواجدها بقوة في مجالات كتامة أواخر القرن3هـ/9م في الحرب القائمة بين الجماعة الإسماعيلية والقوات الموالية للدولة الأغلبية[204] حيث غنمتها قوات الداعي أبي عبد الله الشيعي وكانت لكثرتها تباع بأثمان بخسة ويورد في هذا الشأن القاضي النعمان"... وبيع ذلك اليوم الجمال عشرين بعيرا بدينار، وبيع الجمل بخمس بصلات..."[205]، وعن وفرتها في المغرب الإسلامي عامة والأوسط على وجه الخصوص يذكر الرحالة ابن حوقل أن:" الجمال كثيرة في براريهم وسكان صحاريهم التي لا تدانيها في الكثرة إبل العرب"[206]، ولقد استخدم الجمل خلال العصر الوسيط أساسا في النقل، ولعب دورا كبيرا في نمو التجارة وتقريب محطاتها ومراكزها[207]، وفي هذا الصدد أشار ابن الفقيه(توفي بعد290هـ/902م) أن القوافل كانت تسير على ظهر الإبل بين إفريقية و تاهرت مسيرة شهر[208]، مما يدل على تواجده وبأعداد كبيرة، غير أن الإشارات ضمن كتب الرحلة والجغرافيا إلى هذا النوع من الدواب شحيحة نوعا ما.

- **النحل:**

لقد اشتهرت العديد من مناطق المغرب الأوسط خلال الفترة الوسيطة بوفرة النحل وإنتاج العسل، ومن الدلالات التي تؤكد ذلك ما جاء به الرحالة والجغرافيون عن كثرة العسل، ومن هذه الإشارات رواية ابن حوقل بشأن مدينة بونة حيث قال فيها:" وبها من العسل والخير والمير ما تزيد به على ما داناها من البلاد المجاورة لها"[209]، ونفس المشاهدة أكد عليها الحميري عندما قال:" ومدينة بونة كثيرة العسل[210]، وتوفرت أيضا بجزائر بني مزغناي والتي كان لأهلها" من العسل ما يجهز عنهم..."[211]، أما شرشال " فالنحل عندهم كثير والعسل بها ممكن"[212]وبوادي برشك كان الناس يشترون العسل من الشجر والأجباح لكثرة النحل بالبلد"[213]، وأهل المسيلة قد كثر عندهم" العسل والسمن وضروب الغلات"[214] وكان أهل ندرومة" يتغذون بالعسل الموجود بها بوفرة"[215] إضافة إلى توفره في كل من: جيجل[216]، قسنطينة[217]، تاهرت[218]، وهران[219] ومازونة[220]وحوض فروج[221]وتنس[222].

- **الأسماك:**

حوى المغرب الأوسط شريط ساحلي طويل مزود بثروة سمكية هائلة، وقد اختصت العديد من المراكز البحرية بصيده منها مدينة جيجل، حيث أشاد الجغرافيون بوفرة حوتها وتنوعه، وفي هذا الشأن يؤكد الإدريسي أن" فيها الحوت الكثير العدد المتناهي في الطيب والقدر" [223]، كما أن البكري وصف مدينة بونة بكثرة حوتها[224]، أما مدينة دلس فقد ذكر الحسن الوزان أن أهلها" قد تعودوا جميعا اصطياد السمك بالشباك فيحصلون على كمية وافرة منه لا تباع ولا تشترى، وإنما يهدونه لمن يرغب فيه"[225] وفي هذا قرينة على وفرته بسواحل المغرب الأوسط.

والجدير بالذكر أن الثروة السمكية لم تقتصر على ساحل المغرب الأوسط لوحده بل توفرت كذلك في أنهاره وعلى رأسها نهر الشلف الذي توفر على نوع ناذر من الأسماك، وفي هذا الشأن يذكر القزويني(ت682هـ/1283م) أنه" في كل سنة في زمان الورد يظهر فيه صنف من السمك يسمى الشهبوق، وهو سمك طوله ذراع، ولحمه طيب إلا أنه كثير الشوك ويبقى شهرين، ويكثر صيدها في هذا الوقت ويرخص ثمنها ثم ينقطع إلى القابل، فلا يوجد في النهر شيء منها إلى السنة القابلة أوان الورد" [226]، ومن بين الأنهار التي حوت الأسماك نهر المسيلة الذي يتميز" بسمك صغير، فيه طرق حمر حسنة، ولم ير في بلاد الأرض المعمورة سمك على صفته، وأهل المسيلة يفتخرون به، ويكون مقدار هذا السمك من شبر إلى ما دونه، وربما اصطيد منه الشيء الكثير، فاحتمل إلى قلعة بني حماد "[227]، وقد اشتهرت بأرض المغرب

الأوسط قرى امتهنت حرفة صيد الأسماك، وهذا ما ذكره الإدريسي عن قرية هوز حين قال:" بها قوم صيادون للحوت"[228].

- **الطيور:**

من خلال الإشارات التي جاءت ضمن كتب الرحلة والجغرافية يمكن القول أن فصيلة الطيور بنوعيها البرية والداجنة قد عرفت انتشارا كبيرا بالمغرب الأوسط خلال الفترة الوسيطة، ولعل من بين أهم هذه الأنواع نجد الدجاج والحمام، فقد أشار الإدريسي إلى كثرة تواجدها لما قال:" ومن جزائر الحمام إلى مصب وادي شلف اثنان وعشرون ميلا ومنه إلى قلوع الفراتين في وسط الجون، اثنان وعشرون ميلا، والقلوع جباة بيض"[229]، ولم يقتصر وجود الطيور على هذه النوعية فقط بل تواجدت فصائل أخرى بالمنطقة منها طير السماني الذي كان يكثر تواجده ببونة وبمرسى الدجاج[230] إلى جانب طائر الخواص أو ما يعرق بالكيكل[231] وبالخضراء أيضا[232]، والبط البري[233]وغيرها من الطيور الأخرى، وقد تحدث البكري عن وجود بركة" بينها وبين بونة مسيرة يوم ...فيها سمك جليل وفيها الطائر المعروف بالكيكل يعشش على ماء تلك البحيرة ويفرخ فيها...وهو الطير الذي يسمى بمصر بالخواص، ويصنع من جلوده الفراء ويباع بالأثمان الغالية"[234].

إلى جانب الحيوانات التي أشرنا إليها هناك حيوانات أخرى كانت متواجدة بالمغرب الأوسط خلال الفترة الوسيطة منها الأسود والتي تواجدت في" صحراء أنكاد بالقرب من تلمسان، وبين عنابة وتونس وهي أشهر أسود إفريقيا وأكثرها شراسة"[235]، وتواصل وجود الأسود بالمغرب الأوسط والجزائر بكثرة حتى القرن19م، حيث تحدث أبي راس الناصر المعسكري(ت1238هـ/1823م) عن موضع قريب من مضارب اليعقوبية (سعيدة حاليا) به" غابة كبيرة، غربي نهر هونت كثيرة الأسود"[236] بالإضافة إلى البغال والحمير والسباع [237] والسلاحف[238]، والذرب المشوك[239] والغزلان[240] والوعول والنعام[241] والقرود والفهود[242]، والذئاب والبراغيث[243].

خاتمة:

- كان المغرب الإسلامي محط استقطاب للعديد من الرحالة الذين زاروه، وقد حظي المغرب الأوسط بحصته من ذلك الحضور نظرا لتوسطه دويلات ومجالات المغرب الإسلامي، إضافة لأنه كان طريق رابط بين أوربا والصحراء، والغرب والشرق.

- توفر المغرب الأوسط على ثروة نباتية هامة وهائلة تفاوتت فيما بينها كما ونوعا، وهذا راجع إلى تنوع مناخه وجودة تربته.

- اختص الإقليم الشمالي للمغرب الأوسط والذي كان منحصرا ما بين الساحل وسلسلة الجبال بزراعة الحبوب والفواكه والكروم والتي كان غالبيتها محل تصدير نحو الأندلس وبلاد السودان الغربي وبلاد المشرق الإسلامي.

- كانت الحشائش والأعشاب الطبية من بين أهم وأثمن النباتات التي اختصت بها مناطق محددة كبجاية والقلعة وبلاد كتامة، وكانت ولازالت محل إقبال من طرف الأطباء والعامة لما لها من منافع.

- تميزت الثروة الحيوانية بالوفرة والتنوع، وقد كانت تستخدم في مجالات عديدة(النقل- التجارة- الحروب...) كما أنها ساهمت في انتعاش العديد من الصناعات وعلى رأسها الصناعة النسيجية.

- على الرغم من كثرة الفتن والحروب بالمغرب الأوسط خلال العصر الوسيط وديمومتها إن صح القول، غير أن النشاط الفلاحي به ظل مزدهرا، وظل معه المغرب الأوسط مجال أخضر يضم مختلف النباتات والمزروعات، وتعيش على أرضه فصائل عديدة من الحيوانات.

الهوامش:

[1] - لتفاصيل أكثر عن مدينة قسنطينة ودورها في العصر الوسيط. ينظر: إبن الحاج النميري، فيض العباب وإفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب، تح: محمد ابن شقرون، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1990. أحمد بن المبارك بن العطار، تاريخ بلد قسنطينة، تح- تع- تق: عبد الله حمادي، دار الفائز للطباعة والنشر والتوزيع، قسنطينة، الجزائر، 2011. عبد العزيز فيلالي، مدينة قسنطينة في العصر الوسيط(دراسة سياسية عمرانية ثقافية)، دار البعث، قسنطينة، الجزائر، 2002.

[2] - أبي عبد الله الشريف الإدريسي، القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس- مقتبس من كتاب نزهة المشتاق، تح - تق- تع: إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983، ص: 166. أبي العباس أحمد القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ج5، المطبعة الأميرية، القاهرة، مصر، 1915، ص: 110. عبد المنعم الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، تح: إحسان عباس، مكتبة لبنان، 1984، ط2، ص: 480.

[3] - الشريف الإدريسي، المصدر السابق، ص: 162.

[4] - أبي القاسم ابن حوقل النصيبي، صورة الأرض، ط1، شركة نوابغ الفكر، القاهرة، مصر، 2009، ص: 81. الشريف الإدريسي، المصدر السابق، ص: 192.

[5] - ابن حوقل النصيبي، المصدر السابق، ص: 81.

[6] - نفسه، ص: 82. الشريف الإدريسي، المصدر السابق، ص: 153.

[7] - نفسه، ص: 153.

[8] - ابن سعيد المغربي، كتاب الجغرافيا، تح- تع: إسماعيل العربي، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1970، ص: 140.

[9] - نفسه، ص: 159.

[10] - نفسه، ص: 158.

[11] - ابن حوقل النصيبي، المصدر السابق، ص: 82.

[12] - الشريف الإدريسي، المصدر السابق، ص- ص: 161 - 162.

[13] - نفسه، ص: 159.

[14] - الحسن الوزان، وصف إفريقيا، تر : محمد حجي - محمد الأخضر، ج2، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1983، ص: 37.

[15] - نفسه، ص: 42.

[16] - ابن حوقل النصيبي، المصدر السابق، ص: 88. الشريف الإدريسي، المصدر السابق، ص: 177.

[17] - الشريف الإدريسي، المصدر السابق، ص: 164. ابن حوقل النصيبي، المصدر السابق، ص - ص: 88 - 89.

[18] - الشريف الإدريسي، المصدر السابق، ص - ص: 155- 156. ابن حوقل النصيبي، المصدر السابق، ص: 89.

[19] - الشريف الإدريسي، المصدر السابق، ص: 156.

[20] - لسان الدين ابن الخطيب، معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار، تح: محمد كمال شبانة، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، مصر، 2002، ص: 184.

[21] - ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تح: كامل سلمان الجبوري وآخرون، ج4، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2010، ص: 65.

[22] - الشريف الإدريسي، المصدر السابق، ص: 154.

[23] - ابن حوقل النصيبي، المصدر السابق، ص: 95.

[24] - أحمد بن عمر ابن رسته، الأعلاق النفيسة، مج7، مطبعة ليدن، بريل، 1891ص: 351.

[25] - الشريف الإدريسي، المصدر السابق، ص: 192.

[26] - نفسه، ص: 49.

[27] - مؤلف مجهول، الإستبصار في عجائب الأمصار- وصف مكة والمدينة، ومصر، وبلاد المغرب لكاتب مراكشي من كتاب القرن السادس الهجري(12م)، نش- تع: سعد زغلول عبد الحميد، دار الشؤون الثقافية العامة- أفاق عربية-، بغداد، العراق، دت، ص: 127.

[28] - الشريف الإدريسي، المصدر السابق، ص: 170.

[29] - نفسه، ص: 162.

[30] - نفسه، ص: 159.

[31] - ابن حوقل النصيبي، المصدر السابق، ص: 82. الشريف الإدريسي، المصدر السابق، ص: 153.

[32] - الشريف الإدريسي، المصدر السابق، ص: 157.

[33] - شمس الدين المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1992، ص: 228.

[34] - نفسه، ص: 228.

[35] - عبيد الله البكري، المسالك والممالك - الجزء الخاص ببلاد المغرب-، تح: زينب الهكاري تق: أحمد عزاوي، رباط نت، الرباط، المغرب، 2012، ص: 138.

[36] - الشريف الإدريسي، المصدر السابق، ص: 165.

[37] - نفسه، ص: 154.

[38] - نفسه، ص: 172.

[39] - نفسه، ص: 152.

[40] - نفسه، ص: 150.

[41] - مؤلف مجهول، المصدر السابق، ص: 135.

[42] - يحي ابن خلدون، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، مج1، مطبعة بيير فونطانا الشرقية، الجزائر، 1903، ص: 10. الشريف الإدريسي، المصدر السابق، ص: 150.

[43] - سورة النور، الآية: 35.

[44] - ابن الصغير المالكي، تاريخ الأئمة الرستميين ، تح- تع: محمد ناصر- إبراهيم بكير بحاز، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1986، ص: 41.

[45] - عبد الكريم جودت، الحياة الاقتصادية والاجتماعية في المغرب الأوسط خلال القرنين الثالث والرابع هجريين، (9-10م)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، دت، ص: 47.

[46] - ابن الصباح، أنساب الأخبار وتذكرة الأخيار، ته- تع: محمد بن شريفة، دار أبي رقراق، الرباط، 2008، ص: 95.

[47] - عبيد الله البكري، المصدر السابق، ص: 166.

[48] - نفسه، ص: 138. مؤلف مجهول، المصدر السابق، ص: 173. عبد المنعم الحميري، المصدر السابق، ص- ص: 113 - 114.

[49] - عبد المنعم الحميري، المصدر السابق، ص- ص: 400 - 401. عبيد الله البكري، المصدر السابق، ص: 166.

[50] - الحسين بن محمد الورثيلاني، الرحلة الورثلانية- نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار- ط1، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، مصر، 2008، ص: 109.43.

[51] - عبيد الله البكري، المصدر السابق، ص: 166.

[52] - الشريف الإدريسي، المصدر السابق ، ص: 159.

[53] - نفسه، ص: 154. عبد المنعم الحميري، المصدر السابق، ص: 223.

[54] - الحسن الوزان، ج2، المصدر السابق، ص : 15.

[55] - الشريف الإدريسي، المصدر السابق، ص: 159.

[56] - مؤلف مجهول، المصدر السابق، ص- ص: 127- 128. ينظر أيضا: عبد المنعم الحميري، المصدر السابق، ص: 184.

[57] - عبد المنعم الحميري، المصدر السابق، ص: 569.

[58] - عبيد الله البكري، المصدر السابق، ص: 149.

[59] - الحسن الوزان، ج2، المصدر السابق، ص: 20.

[60] - أبو عبد الله العبدري، رحلة العبدري، تق - تح: علي إبراهيم كردي- شاكر الفحام، ط2، دار سعد الدين، دمشق، سوريا، 2005، ص: 49.

[61] - أحلام بوسالم- يوسف عابد، دور إباضية المغرب الأوسط في تنشيط التجارة الصحراوية خلال العصر الوسيط، مج11، ع01، مجلة الحوار المتوسطي، مخبر البحوث والدراسات الإستشراقية في حضارة المغرب الإسلامي، جامعة الجيلالي ليابس، سيدي بلعباس، الجزائر، 2020، ص: 126.

[62] - عبيد الله المهدي: لايزال تحديد نسب عبيد الله المهدي والخلفاء الفاطميين لغزا محيرا بين المؤرخين القدامى وبين الباحثين المعاصرين، بين من ينسبهم إلى سلالة آل البيت من نسل الحسين بن علي رضي الله عنهما، وبين من ينفي ذلك عنهم، إلا أن المتفق عليه حول عبيد الله المهدي أنه من مواليد سلمية بسوريا سنة 260هـ/874م، حيث نشأ بها وتولى إمامة الإسماعيلية فيها، وخرج منها قاصد بلاد المغرب سنة 289هـ/902م وتربع على عرش الخلافة برقادة سنة 297هـ/910م وفي عمر 36 سنة، بنى مدينة المهدية واتخذها عاصمة له سنة 300هـ، جابهت فترة حكمه العديد من الثورات سواء من بطانته التي مهدت لقيام دولته أو من رعاياه المتعديين بين سنة وإباضية وقد نجح في القضاء عليها توفي سنة 322هـ/934م، وهو يعتبر أحد أهم الشخصيات المؤثرة في التاريخ الإسلامي. عن نسبه وحياته ينظر: تقي الدين المقريزي، اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الخلفا، تح - مق: أيمن فؤاد السيد ، مج1، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، مصر، 2016، ص - ص: 32 -77. فرهاد دفتري، معجم التاريخ الإسماعيلي، تر: سيف الدين القصير، ط1، دار الساقي - معهد الدراسات الإسماعيلية، بيروت، لبنان - لندن، بريطانيا، 2016، ص- ص: 267 - 268. هاينتس هالم، إمبراطورية المهدي وصعود الفاطميين (875-973م)، تر: محمد كبيبو، ط1، دار الوراق،

بغداد، العراق، 2013. حسن إبراهيم حسن - طه أحمد شرف، عبيد الله المهدي إمام الشيعة الإسماعيلية ومؤسس الخلافة الفاطمية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، مصر، دت.

[63] - عبيد الله البكري، المصدر السابق، ص: 138. ينظر أيضا: مؤلف مجهول، المصدر السابق، ص: 173. عبد المنعم الحميري، المصدر السابق، ص- ص: 113 - 114.

[64] - عبد المنعم الحميري، المصدر السابق، ص: 114. عبيد الله البكري، المصدر السابق، ص: 139.

[65] - ابن سعيد المغربي، المصدر السابق، ص: 126.

[66] - الشريف الإدريسي، المصدر السابق، ص: 177.

[67] - الشريف الإدريسي، نفسه، ص: 165.

[68] - عبيد الله البكري، المصدر السابق، ص: 167. مؤلف مجهول، المصدر السابق، ص: 174. عبد المنعم الحميري، المصدر السابق، ص - ص: 142. 401.

[69] - ابن سعيد المغربي، المصدر السابق، ص: 126. عبد المنعم الحميري، مصدري، ص: 600.. الحسن الوزان، المصدر السابق، ص: 136.

[70] - مؤلف مجهول، نفسه، ص: 172. عبد المنعم الحميري، مصدري، ص: 558.

[71] - ابن سعيد المغربي، المصدر السابق، ص: 126.

[72] - الشريف الإدريسي، المصدر السابق، ص: 164.

[73] - مؤلف مجهول، المصدر السابق، ص- ص: 171- 172. عبد المنعم الحميري ، المصدر السابق، ص- ص: 281. 387.

[74] - أبو عبد الله محمد إبن بطوطة، رحلة إبن بطوطة- تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار-، تق - تح: محمد عبد المنعم العريان - مر فه : مصطفى القصاص، ج1، ط1، دار إحياء العلوم، بيروت، لبنان، 1987، ص: 713.

[75] - الحسن الوزان، ج2، المصدر السابق، ص: 56.

[76] - ابن حوقل النصيبي، المصدر السابق، ص: 81.

[77] - نفسه، ص : 81.

[78] - الشريف الإدريسي، المصدر السابق، ص: 152.

[79] - نفسه، ص: 160.

[80] - نفسه، ص: 161.

[81] - الحسن الوزان، ج2، المصدر السابق، 52.

[82] - الحسن الوزان، ج2، المصدر السابق، ص: 53.

[83] - عبيد الله البكري، المصدر السابق، ص: 177.

[84] - يحي ابن خلدون، المصدر السابق، ص: 10.

[85] - الحسن الوزان، ج2، المصدر السابق، ص: 20.

[86] - ابن حوقل المصدر السابق، ص: 82. الشريف الإدريسي، المصدر السابق، ص: 154. عبد المنعم الحميري، المصدر السابق، ص: 138.

[87] - الشريف الإدريسي، المصدر السابق، ص: 153.

[88] - نفسه، ص: 159. ابن حوقل، المصدر السابق، ص: 82.

[89] - ابن حوقل، المصدر السابق، ص: 89.

[90] - عبيد الله البكري، المصدر السابق: ص: 160. زكريا بن محمد القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت، لبنان، دت، ص: 169.

[91] - نفسه ، ص: 92. الشريف الإدريسي، المصدر السابق، ص: 154. عبد المنعم الحميري، المصدر السابق، ص: 223.

[92] - عبد المنعم الحميري، المصدر السابق، ص: 569.

[93] - الشريف الإدريسي، المصدر السابق، ص: 165. مؤلف مجهول، المصدر السابق، ص: 166. عبيد الله البكري، المصدر السابق، ص: 172. الحسن الوزان، ج2، المصدر السابق، ص: 35.

[94] - الحسن الوزان، ج2، المصدر السابق، ص: 16.

[95] - مؤلف مجهول، المصدر السابق، ص: 128، 166. عبد المنعم الحميري، المصدر السابق، ص- ص: 184 - 569.

[96] - أبي العباس أحمد القلقشندي، المصدر السابق، ص: 112. الحسن الوزان، ج2، المصدر السابق، ص: 16.

[97] - الحسن لوزان، ج2، المصدر السابق، ص: 34.

[98] - نفسه، ص: 14.

[99] - نفسه، ص - ص: 15- 16.

[100] - عبيد الله البكري، المصدر السابق، ص: 177.

[101] - الحسن الوزان، ج2، المصدر السابق، ص: 20.

[102] - عبد الكريم جودت، المرجع السابق، ص: 53.

[103] - عماد الدين أبي الفدا، تقويم البلدان، دار صادر، بيروت، لبنان، دت، ص: 139. ابن حوقل النصيبي، المصدر السابق، ص: 88. الشريف الإدريسي، المصدر السابق، ص: 156.

[104] - ابن حوقل النصيبي، المصدر السابق، ص: 89. عبد المنعم الحميري، المصدر السابق، ص: 558. عبيد الله البكري، المصدر السابق، ص: 148.

[105] - الشريف الإدريسي، المصدر السابق، ص: 156.

[106] - تقي الدين المقريزي، جني الأزهار من الروض المعطار، تق - تح - تع: محمد زينهم، ط1، الدار الثقافية للنشر، القاهرة، مصر، 2006، ص: 65.

[107] - الحسن الوزان، ج2، المصدر السابق، ص: 15.

[108].- عبيد الله البكري، المصدر السابق، ص: 163. عبد المنعم الحميري، المصدر السابق، ص: 558.

[109] - الحسن الوزان، ج2، المصدر السابق، ص: 14.

[110] - أحمد بن أبي يعقوب اليعقوبي، البلدان، تح: محمد أمين ضناوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، دت، ص: 197. إبن رسته، المصدر السابق، ص: 358.

[111] - ابن حوقل النصيبي ، المصدر السابق، ص: 71، الشريف الإدريسي، المصدر السابق، ص: 192.

[112] - عبيد الله البكري، المصدر السابق، ص: 159. عبد المنعم الحميري، المصدر السابق، ص: 523.

[113] - الشريف الإدريسي، المصدر السابق، ص: 164. عبد المنعم الحميري، المصدر السابق، ص: 556.

[114] - ابن حوقل النصيبي، المصدر السابق، ص: 89.

[115] - ابن سعيد المغربي، المصدر السابق، ص: 121.

[116] - الحسن الوزان، ج2، المصدر السابق، ص: 33.

[117] - محمد بن أبي بكر الزهري، المصدر السابق، ص: 124.

[118] - مؤلف مجهول، المصدر السابق، ص: 167.

[119] - اليعقوبي، المصدر السابق، ص: 197. إبن رسته، المصدر السابق، ص: 358.

[120] - الشريف الإدريسي، المصدر السابق، ص: 154. مبارك الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، تق-تص: محمد الميلي، ج2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، دت، ص: 76.

[121] - الشريف الإدريسي، المصدر السابق، ص: 178.

[122] - الشريف الإدريسي، المصدر السابق، ص: 194.

[123] -زكرياء بن محمد القزويني، المصدر السابق، ص: 260.

[124] - محمد بن رمضان شاوش، باقة السوسان في التعريف بحاضرة تلمسان عاصمة دولة بني زيان، ج2، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ص: 07.

[125] - الشريف الإدريسي، المصدر السابق، ص - ص: 160 - 161. عبد المنعم الحميري، المصدر السابق، ص-ص: 80 - 81.

[126] - الشريف الإدريسي، المصدر السابق، ص: 156.

[127] - نفسه، ص: 156. عبد المنعم الحميري، المصدر السابق، ص: 469.

[128] - عبيد الله البكري، المصدر السابق، ص: 157.

[129] - نفسه، ص: 142.

[130] - الشريف الإدريسي، المصدر السابق، نفسه، ص: 161.

[131] - نفسه، ص: 192.

[132] - مؤلف مجهول، المصدر السابق، ص: 166.

[133] - الشريف الإدريسي، المصدر السابق، ص: 165.

[134] - عبيد الله البكري، المصدر السابق، ص: 138. مؤلف مجهول، المصدر السابق، ص: 173. عبد المنعم الحميري، المصدر السابق، ص- ص: 113 - 114

[135] - مؤلف مجهول، المصدر السابق، ص: 171.

[136] - زكرياء بن محمد القزويني، المصدر السابق، ص: 169.

[137] - ابن حوقل النصيبي، المصدر السابق، ص: 81. عبيد الله البكري، المصدر السابق، ص: 143.

[138] - الشريف الإدريسي، المصدر السابق، ص: 169.

[139] - ابن حوقل النصيبي، المصدر السابق، ص: 81. الشريف الإدريسي، المصدر السابق ص: 159.

[140] - ابن حوقل النصيبي، المصدر السابق، ص: 82. الشريف الإدريسي، المصدر السابق، ص: 159. عبد المنعم الحميري، المصدر السابق، ص: 340.

[141] - ابن حوقل النصيبي، المصدر السابق، ص: 81. الشريف الإدريسي، المصدر السابق، ص: 159.

[142] - الشريف الإدريسي، المصدر السابق، ص: 160. عبد المنعم الحميري، المصدر السابق ص: 132.

[143] - ابن حوقل النصيبي، المصدر السابق، ص- ص: 83. الشريف الإدريسي، المصدر السابق، ص: 159. عبد المنعم الحميري، المصدر السابق، ص- ص: 26- 27.

[144] - ابن حوقل النصيبي، المصدر السابق، ص: 83.

[145] -الشريف الإدريسي، المصدر السابق، ص: 156.

[146] - ابن حوقل النصيبي، المصدر السابق: 89.

[147] - عبد المنعم الحميري، المصدر السابق، ص: 427.

[148] - ابن حوقل النصيبي، المصدر السابق، ص: 89. عبد المنعم الحميري، المصدر السابق، ص: 558. الشريف الإدريسي، المصدر السابق، ص: 157.

[149] - الشريف الإدريسي، المصدر السابق، ص: 157. عبد المنعم الحميري، المصدر السابق، ص: 126.

[150] - عبد المنعم الحميري، المصدر السابق، ص: 521- 522.

[151] - عبد المنعم الحميري، المصدر السابق، ص: 135. مبارك الميلي، ج2، المرجع السابق، ص: 447.

[152] - عبد المنعم الحميري، المصدر السابق، ص: 600. بوعصبانة عمر لقمان بن محمد سليمان، معالم الحضارة الإسلامية بوارجلان من نهاية الدولة الرستمية إلى زوال سدراتة، مديرية الثقافة، دت، ص: 188.

[153] - الشريف الإدريسي، المصدر السابق، ص: 150.

[154] - نفسه، ص: 156.

[155] - نفسه، ص: 148.

[156] - الحسن الوزان، ج2، المصدر السابق، ص- ص: 28-29.

[157] - مختار حساني، تاريخ الدولة الزيانية- الأحوال الاقتصادية والثقافية-، ج2، منشورات الحضارة، 2009، ص: 40.

[158] - ابن حوقل النصيبي، المصدر السابق، ص: 81. عبيد الله البكري، المصدر السابق، ص: 143.

[159] - ابن حوقل النصيبي، المصدر السابق، ص: 81..

[160] - الشريف الإدريسي، المصدر السابق، ص: 160. عبد المنعم الحميري، المصدر السابق، ص: 132.

[161] - الشريف الإدريسي، المصدري السابق، ص: 157.

[162] - ابن حوقل النصيبي، المصدر السابق، ص: 89.

[163] - الشريف الإدريسي، المصدر السابق، ص: 160.

[164] - محمد بن أبي بكر الزهري، المصدر السابق، ص: 113.

[165] - الشريف الإدريسي، المصدر السابق، ص: 159. عبد المنعم الحميري، المصدر السابق، ص: 340.

[166] - الشريف الإدريسي، المصدر السابق، ص: 159. ابن حوقل النصيبي، المصدر السابق، ص: 81.

[167] - ابن حوقل النصيبي، المصدر السابق، ص: 89.

[168] - ابن حوقل النصيبي، المصدر السابق، ص: 89. الشريف الإدريسي، المصدر السابق، 155.

[169] - ابن حوقل النصيبي، المصدر السابق، ص: 95.

[170] - نفسه، ص: 82.

[171] - الشريف الإدريسي، المصدر السابق، ص: 153. عبد المنعم الحميري، المصدر السابق، ص - ص: 612 - 613.

[172] - مختار حساني، نفسه، ص: 39.

[173] - ابن حوقل النصيبي، المصدر السابق، ص: 81. عبد المنعم الحميري، المصدر السابق، ص: 115.

[174] - عبيد الله البكري، المصدر السابق، ص: 143.

[175] - ابن حوقل النصيبي، المصدر السابق ص: 81. عبد المنعم الحميري المصدر السابق، ص: 163.

[176] - ابن حوقل النصيبي، المصدر السابق، ص: 82.

[177] - الشريف الإدريسي، المصدر السابق، ص: 153. ابن حوقل النصيبي، المصدر السابق، ص: 89.

[178] - ابن حوقل النصيبي، المصدر السابق، ص: 89.

[179] - ابن حوقل النصيبي، المصدر السابق، ص: 89. الشريف الإدريسي، المصدر السابق، ص: 157. عبد المنعم الحميري، المصدر السابق، ص: 126.

[180] - الشريف الإدريسي، المصدر السابق، ص: 160. عبد المنعم الحميري، المصدر السابق، ص: 132.

[181] - هو مخلد بن كيداد بن سعد الله بن مغيت بن كرمان بن مخلد بن عثمان ابن وريمت بن تبقراسن بن سميدار بن يفرن، والده كيداد من سكان تقيوس من بلاد قسطيلية ،كان يختلف إلى بلاد السودان للتجارة فولد له بها أبو يزيد من جارية صفراء هوارية تدعى سبيكة، وأتى به إلى توزر وبها نشأ وتعلم القرآن، أشعل أكبر ثورة ضد الحكم الفاطمي ببلاد المغرب واقتطع أجزاء كبيرة من المغربين الأوسط والأدنى وتحالف مع العديد من القبائل والزعامات وحتى فقهاء المالكية وامتدت ثورته حتى بلغت قصر الحكم الفاطمي بالمهدية غير انه فشل في الأخير وتم القبض عليه. ينظر: ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك

الأندلس والمغرب، تح- ظيط- تع: بشار عواد معروف - محمود بشار عواد، مج1، دار الغرب الإسلامي، تونس، 2013، ص - ص: 228- 233. فرهاد دفتري، المرجع السابق، ص - ص: 79- 80.

[182] - لتفاصيل أكثر عن الحكم الفاطمي في بلاد المغرب الإسلامي وحركات المعارضة ضده ينظر: بلهواري فاطمة، الفاطميون وحركات المعارضة في بلاد المغرب الإسلامي، دار المسك للطباعة والنشر، الجزائر، 2011. سنوسي يوسف إبراهيم، زناتة والخلافة الفاطمية، ط1، شركة سعيد رأفت للطباعة، القاهرة، مصر، 1986. محمد الصالح مرمول، السياسة الداخلية للخلافة الفاطمية في بلاد المغرب الإسلامي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983، ص- ص: 75- 109. موسى لقبال، دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية منذ تأسيسها إلى منتصف القرن 5هـ، سلسلة الدراسات الكبرى، الجزائر، 1979، ص - ص: 332- 456.

[183] - أبو زكرياء يحي، سير الأئمة وأخبارهم، تح- تع: إسماعيل العربي، المكتبة الوطنية، الجزائر، 1979، ص: 117. ينظر: أحمد بن سعيد الدرجيني، طبقات المشائخ بالمغرب، تح: إبراهيم طلاي، ج1، مطبعة البعث، قسنطينة، الجزائر، دت، ص: 99.

[184] - مختار حساني، المرجع السابق، ص: 40.

[185] - لتفاصيل أكثر عن قبيلة زناتة ودورها السياسي خلال العصر الوسيط ينظر: محمد بن عميرة، دور زناتة في الحركات المذهبية بالمغرب الإسلامي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984. محمد بن عميرة، بنو خزر ودورهم السياسي والعسكري في المغرب العربي،منشورات وزارة الثقافة والسياحة، الجزائر، 1986.

[186] - الشريف الإدريسي، المصدر السابق، ص: 158.

[187] - ابن حوقل النصيبي، المصدر السابق، ص: 81. الشريف الإدريسي، المصدر السابق، ص: 192.

[188] - الشريف الإدريسي، المصدر السابق، ص: 155.

[189] - نفسه، ص: 155.

[190] - ابن حوقل النصيبي، المصدر السابق، ص: 89. عبد المنعم الحميري، المصدر السابق، ص: 126.

[191] - الشريف الإدريسي، المصدر السابق، ص: 157.

[192] - ابن سعيد المغربي، المصدر السابق، ص: 145.

[193] - الحسن الوزان، ج2، المصدر السابق، ص: 46.

[194] - ياقوت الحموي، معجم البلدان، مج2، دار صادر، بيروت، لبنان، دت، ص: 44.

[195] - مختار حساني، المرجع السابق، ج2، ص- ص: 36- 37.

[196] - أبي العباس أحمد القلقشندي، ج5، المصدر السابق، ص: 113

[197] - لتفاصيل أكثر عن الدعوة الإسماعيلية في بلاد المغرب. ينظر: محمد بن عربة- إسماعيل سامعي، البيوتات العربية في المغرب الأوسط وإسهاماتها في الدعوة الإسماعيلية قبيل 296هـ/909م- البيت الحمدوني

أنموذجا-، ع18، مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية، جامعة الشهيد حمة لخضر، الوادي، الجزائر، 2017، ص – ص: 176- 194.

[198] - الداعية أبو عبد الله الشيعي: هو أبي عبد الله بن الحسين بن أحمد بن محمد بن زكريا الشيعي، أشتهر بالصنعاني كما أشتهر بالمحتسب والمشرقي، كان صاحب علم وفهم وذكاء، تلقى علوم الدعوة من ابن حوشب في اليمن، زمن هناك بعثوه إلى أرض كتامة بالمغرب الأوسط لنشر الدعوة الإسماعيلية والتحضير لقيام دولة الفواطم، واستطاع أن يقضي على ملك: الأغالبة، وبني رستم، وبني مدرار، توفي مقتولا من طرف الخليفة عبيد الله المهدي سنة 298هـ/911م. ينظر تقي الدين المقريزي، المقفى الكبير، تح: محمد اليعلاوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت ، لبنان، 1987، ص: 25 شمس الدين ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تح: إحسان عباس، مج2، دار صادر، بيروت، لبنان، ص: 192. علي حسني الخربوطلي، أبو عبد الله الشيعي مؤسس الدولة الفاطمية، المطبعة الفنية الحديثة، القاهرة ، مصر،1972.

[199] - القاضي النعمان إبن حيون المغربي، إفتتاح الدعوة، تح: فرحات الدشراوي، ط2، الشركة التونسية للتوزيع، تونس- ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1986 ص:38.

[200] - الحكم المستنصر بالله الأموي: هو أمير المؤمنين الحكم المستنصر بالله بن عبد الرحمن الناصر لدين الله ين محمد بن الإمام عبد الله بن محمد بن عبد الرحمان الأوسط بن الحكم الربضي بن عبد الرحمن الداخل بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان، يعتبر ثاني خلفاء بني أمية بالأندلس، في السنة الثامنة من عمره رشحه أبوه وجعله ولي عهده وأثره على جميع أولاده، ودفع إليه كثيرا من التصرف في دولته، عرف عنه حبه وشغفه للعلم والعلماء وكان هو نفسه شاعرا وعالما يقول عنه ابن الآبار:" وكان ممن عرف عن الحكم المستنصر فضله وعلمه وجليل عائدته على العلم وأهله: وكان يشاهد مجالس العلماء ويسمع منهم، ويروي عنهم حبا للعلم، ورغبته في الإشراف عليه، والاطلاع على شؤونه وسعيا لاقتناء أصوله وفروعه، وضم أبكاره إلى عونه "، تعتبر فترة حكمه من السنوات التي زادت في مجد وتاريخ الإسلام، حيث تمكن من كسر شوكة النورمان، ومن إذلال تام للممالك النصرانية شمال الأندلس،كما جابه التشيع والخلافة الفاطمية للمغرب ورسخ قواعد لدولته في المغرب، وفاقت قرطبة في عصره جميع حواضر الإسلام علما وتقدما، توفي سنة 366هـ/977م حيث دخلت الأندلس بعدها مرحلة جديدة تمثلت في أفول نجم الأسرة الأموية لصالح أسرة العامريين وبعدها ملوك الطوائف. عن حكمه وأحوال الأندلس في عهده ينظر: حيان الأندلسي، المقتبس في أخبار بلد الأندلس، شر: صلاح الدين الهواري، ط1، المكتبة العصرية، صيدا- بيروت، لبنان، 2006. ابن الآبار، الحلة السيراء، تح: حسين مؤنس، ج1، ط2، دار المعارف، القاهرة، مصر، 1985، ص - ص: 200 - 205 . محمد بن زين العابدين رستم، تعليقات الحكم المستنصر بالله الأندلسي على الكتب، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2008.

[201] - ابن حيان الأندلسي، المقتبس في أخبار بلد الأندلس، شر: صلاح الدين الهواري، ط1، المكتبة العصرية، صيدا-بيروت، لبنان، 2006، ص- ص: 150 - 151.

[202] - لمعلومات أكثر حول دور الجمال في التجارة الإسلامية خلال العصر الوسيط. ينظر: جيمس لينذزي، العالم الإسلامي في العصور الوسطى، تر: ناصر الحجيلان - مر: سعد البازعي، ط1، دار كلمة، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة، 2012 ص - ص: 77 - 81 .

[203] - تقي الدين المقريزي، اتعاظ الحنفا، المصدر السابق، ص: 110.

[204] - لتفاصيل أكثر عن الصراع الأغلبي الإسماعيلي ببلاد المغرب الأوسط قبيل سنة296هـ/909م. ينظر: محمد بن عربة، بلاد كتامة في ظل الصراع بين الجماعة الإسماعيلية والإمارة الأغلبية(280- 296هـ/893-909م)، مج09، ع02، مجلة الحوار المتوسطي، مخبر البحوث والدراسات الإستشراقية في حضارة المغرب الإسلامي، جامعة الجيلالي ليابس، سيدي بلعباس، الجزائر، ص - ص: 225- 256.

[205] - القاضي النعمان، افتتاح الدعوة، المصدر السابق، ص: 109. عماد الدين إدريس القرشي الداعي، تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب- القسم بالخاص من كتاب عيون الأخبار-، تح: محمد اليعلاوي، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1985، ص: 105.

[206] - ابن حوقل، المصدر السابق، ص: 98.

[207] - محمد زنيبر، المغرب في العصر الوسيط ، الدولة – المدينة - الاقتصاد، تنسيق محمد المغراوي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 1999، ص- ص: 396.

[208] - ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان، مطبعة بريل، ليدن، 1885، ص: 79.

[209] - ابن حوقل المصدر السابق، ص: 81. عبيد الله البكري، المصدر السابق، ص: 143.

[210] عبد المنعم الحميري، المصدر السابق، ص: 115.

[211] - ابن حوقل، المصدر السابق، ص: 81. الشريف الإدريسي، المصدر السابق، ص: 159. عبد المنعم الحميري، المصدر السابق، ص: 163.

[212] - الشريف الإدريسي، المصدر السابق، ص: 159.

[213] - ابن حوقل، المصدر السابق، ص: 82.

[214] - نفسه، ص: 89.

[215] - الحسن الوزان، ج2، لمصدر السابق، ص: 14.

[216] - الشريف الإدريسي، المصدر السابق، ص: 169. عبد المنعم الحميري، المصدر السابق، ص: 184. علي خنوف، تاريخ منطقة جيجل قديما وحديثا، منشورات الأنيس، الجزائر، 2011، ص- ص: 92- 93.

[217] - الشريف الإدريسي، المصدر السابق، ص: 166. عبد المنعم الحميري، المصدر السابق، ص: 480.

[218] - ابن حوقل، المصدر السابق، ص: 86. الشريف الإدريسي، المصدر السابق، ص: 157. عبد المنعم الحميري، المصدر السابق، ص: 126.

[219] - الشريف الإدريسي، المصدر السابق، ص: 153. عبد المنعم الحميري، المصدر السابق، ص- ص: 612- 613.

[220] - عبد المنعم الحميري، المصدر السابق ، ص- ص: 522 -521.

[221] - الشريف الإدريسي، المصدر السابق، ص: 172.

[222] - الحسن الوزان، ج2، المصدر السابق، ص: 36.

[223] - الشريف الإدريسي، المصدر السابق، ص: 169 . عبد المنعم الحميري، المصدر السابق، ص: 184.

[224] - عبيد الله البكري ، المصدر السابق، ص: 143. مؤلف مجهول، المصدر السابق، ص: 127.

[225] - الحسن الوزان، ج2، المصدر السابق، ص: 42.

[226] - زكريا بن محمد القزويني، المصدر السابق، ص: 148.

[227] - الشريف الإدريسي، المصدر السابق، ص: 156. عبد المنعم الحميري، المصدر السابق، ص: 558.

[228] - الشريف الإدريسي، المصدر السابق، ص: 173.

[229] - الشريف الإدريسي، المصدر السابق، ص : 172.

[230] - مؤلف مجهول، المصدر السابق، ص: 131.

[231] - نفسه، ص- ص: 131- 127.

[232] - عبد المنعم الحميري، المصدر السابق، ص: 223.

[233] - جودت عبد الكريم، المرجع السابق، ص: 70.

[234] - عبيد الله البكري، المصدر السابق، ص: 147.

[235] - مارمول كربخال، إفريقيا، تر: محمد حجي وآخرون، ج1، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرباط، المغرب، 1984، ص: 76. الحسن الوزان، ج2، المصدر السابق، ص: 266.11.

[236] - أبي راس الناصر المعسكري، فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته- حياة أبي راس الذاتية والعلمية-، تح - ظبط - تع: محمد بن عبد الكريم الجزائري، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ص: 28.

[237] - الحسن الوزان، ج2، المصدر السابق، ص: 11.

[238] - نفسه، ص: 59.

[239] - مؤلف مجهول، المصدر السابق، ص: 130.

[240] - تواجد بالجهة الجنوبية من صحراء أرض المغرب الأوسط، كما نوه مارمول كربخال بتواجد قطعان كثيرة منه بتلمسان. مارمول كربخال، المصدر السابق، ص: 74.

[241] - الحسن الوزان، ج2، المصدر السابق، ص: 11. مارمول كربخال، المصدر السابق، ص: 74.

[242] - نفسه، ص: 51.

[243] - زكريا بن محمد القزويني، المصدر السابق، ص: 173.

الكاتب: د/ محمد العزوزي
كلية الأدب والعلوم الإنسانية فاس - سايس

عنوان المقال: المغرب في الصراع الفرنسي الإنجليزي: نحو تسوية ثنائية للمصالح المشتركة (1902-1912)

البريد الالكتروني: azzouzimohamed61@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2020/05/05 **تاريخ القبول:** 2020/06/04 **تاريخ النشر:** 2020/06/30

المغرب في الصراع الفرنسي الإنجليزي: نحو تسوية ثنائية للمصالح المشتركة (1902-1912)

الملخص بالعربية.

يعالج المقال إشكالية، تتمحور حول تحديد مظاهر وأهداف الصراع الفرنسي الانجليزي بالمغرب والنتائج التي أفرزها، وينطلق من تحديد مفهوم الصراع في العلاقات الدولية إلى رصد إشكالية بخصوص الحضور الفرنسي والانجليزي في المغرب طول المرحلة ما بين 1902-1912.

يخلص المقال، إلى أن الصراع الدبلوماسي بين فرنسا الانجليزي عرف منعطفا جديدا في أواخر القرن التاسع عشر، فبعد أن كانت إنجلترا تبدي تصلبا في مواقفها ضد التدخل الفرنسي في المغرب، أصبحت خلال العقد الأول من القرن العشرين تبدي تساهلا غير مسبوق بخصوص المسألة المغربية. وأن المدخل الأساسي لوضع حدّ للصراع الدبلوماسي بين انجلترا وفرنسا بخصوص المسألة المغربية أنبنى على تبادل المصالح الاستعمارية بين الطرفين.

الكلمات المفتاحية: الصراع الدبلوماسي – فرنسا – انجلترا – تبادل المصالح – المسألة المغربية

Abstract

The article deals with a problematic issue, centered on the manifestations and goals of the French-English conflict in Morocco and the results it produced, and

proceeds from defining the concept of conflict in international relations to monitoring its forms regarding the French and English presence in Morocco throughout the period between 1902-1912.

The article concludes that the diplomatic conflict between France and Britain marked a new turn in the late nineteenth century. After that England had been stiff in its positions against French interference in Morocco, it became during the first decade of the twentieth century an unprecedented leniency regarding the Moroccan issue. And that the main entrance to end the diplomatic conflict between England and France regarding the Moroccan issue was based on the exchange of colonial interests between the two parties.

Key words: diplomatic conflict - France - England - Morocco - exchange of interests.

مقدمة:

أدركت فرنسا منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر أن احتلال المغرب مسألة مختلفة تماما عن سيناريو الدخول الفرنسي للجزائر، الذي لم يثر كثيرا من المعارضة الأجنبية، على اعتبار أن الجزائر كانت أول مستعمرة فرنسية بشمال افريقيا، لم تبرهن عن النوايا الاستعمارية الفرنسية إلا بعد ضم / احتلال تونس سنة 1881، الذي أكد بالملموس للقوى العظمى خاصة لإنجلترا وألمانيا، أن هدف فرنسا ليس استعمار قطري فقط، وإنما هو مشروع استعماري يرمي إلى ربط دول شمال افريقيا الثلاث بالجمهورية الفرنسية، وجعلها خزان طبيعي وبشري أساسي لكل الاحتمالات المستقبلية لوضع العلاقات الفرنسية الدولية.

وأمام الوعي الانجليزي بالمشروع الاستعماري لفرنسا بالمغرب، سخرت اهتمامها أكثر للمسألة المغربية، التي تعني حسب منظور حكومة لندن؛ الحفاظ على المصالح الانجليزية في المغرب وفي عرض البحر المتوسط،مما جعل المغرب في قلب الصراع الدبلوماسي بين فرنسا انجلترا.

ولدفاع عن مصالحها استخدمت انجلترا وسائل متنوعة، من كسب حظوة المخزن إلىالدخول في مفاوضات ثنائية مع فرنسا؛ بعد أن بدأت تفقدبريقها في البلاط السلطاني،

خاصة بعد نهاية المهام الناجحة للقنصل جون درامند هايوالأزمة التي خلقتها سفارة "إيوان سميث" إلى فاس سنة 1892،مما جعل فرنسا تستغل هذه التعثرات في مسار العلاقات المغربية البريطانية أحسن استغلال،وتوطد أقدمها أكثر في المغرب، وتعتمد من جهة ثانيةمبدأ المفاوضات الثنائية لتصفية المصالح أمام المعارضة الانجليزية.

أمام هذا التحول، وبعد أن ضمنت انجلترا في اتفاق أبريل 1904 لمصالحها الاقتصادية والاستراتيجية في عرض المتوسط، تحول موقفها من معارض عنيد للتدخل الفرنسي في المغرب إلى دور الوسيط في تقريب وجهات النظر الفرنسية من باقي القوى المهتمة بالمغرب.

وبناء على ذلك،فإن اشكالية الموضوع، تتمحور حول تحديدبعض مظاهر وأهداف الصراع الفرنسي الانجليزي بالمغرب والنتائج التي أفرزها،ولمناقشة هذه الاشكالية اعتمدنا محورين أساسيين هما:

- الصراع الفرنسي الانجليزي بالمغرب: المفهوم والمظاهر
- نتائج الصراع الفرنسي الانجليزي وامتداداته

I. الصراع الفرنسي الانجليزي بالمغرب: المفهوم والمظاهر

1. مفهوم الصراع في العلاقات الدولية

يقصد بالصراع في **معناه العام**، "نشاط انساني ينشأ عن رغبة طرفين أو أكثر في القيام بأعمال متعارضة، ... يتم حله بواسطة مجموعة متناسقة من التدابير والقواعد، تتعدى مستويات الأفراد إلى الجماعات والدول."ومن أسبابه: " الرغبات والحاجات الخاصة، التي تُشعر الاطراف المتفاعلة أن هناك ثمة مصالح يمكن أن تجنيها من جراء الانخراط في الصراع".[1]

وفي العلاقات الدوليةيعنيالصراع، "تنازع الإرادات الوطنية، نتيجة الاختلاف في دوافع الدول وفي تصوراتها وأهدافها وتطلعاتها وفي مواردها وإمكاناتها ... مما يؤدي إلى اتخاذ قرارات أو انتهاج سياسات خارجية تختلف أكثر مما تتفق، لكن بالرغم من ذلك، يظل الصراع بكل توتراته وضغوطه، دون نقطة الحرب المسلحة".[2]

والصراع يتضمن درجة أعلى من التنافس، حيث لا يرقى التنافس ليصبح صراعا إلا "عندما تحاول الأطراف دعم مراكزها على حساب مراكز الآخرين، وتعمل على الحيلولة دون تحقيق الآخرين لغاياتهم أو تحييدهم أو حتى تدميرهم، والصراع قد يكون عنيفا أو غير عنيف، وقد يكون مستمرا أو متقطعا، أو يمكن التحكم فيه أو خارج عن نطاق السيطرة، وقد يكون قابلا للحل أو غير قابل في ظل مجموعة من الظروف"[3].

إذن فالصراع، أكثر دلالة من التنافس، حيث يعبر على محاولة الدول دعم نفوذها على حساب القوى الأخرى، والعمل على تحقيق مصالحها والحيلولة من جهة أخرى دون وصول الأطراف الأخرى إلى غايتها، عكس المنافسةالتيترتبطبتاريخ المغرب للقرن التاسع عشر بالاقتصاد والبحث عن منافذ تجارية. وبذلك فإن الوسائل المرتبطة بالصراع من دعم النفوذ، والبحث عن المصالح، ومعارضة الطرف الأخر...كلها ممارسات نلمسها بقوة في المواقف السياسية لفرنساوانجلترا بخصوص المسألة المغربية، غير أن الصراع الذي نحن بصدد مناقشة مظاهره هو صراع دبلوماسي، يتمثل في اختلاف المواقف والرؤى بين انجلترا وفرنسا بخصوص ملف القضيةالمغربية.

فأين تتجلى بعض مظاهر الصراع الفرنسي الانجليزيبالمغرب ؟

2. من مظاهر الصراع الفرنسي الانجليزي بالمغرب

كان لحظوة جون درامند هاي (John Hay Drummond Hay)داخل البلاط السلطاني دور أساسي في عرقلة المشاريع الفرنسية بالمغرب، فقد استغل القنصل الانجليزي فرصة التقرب من السلطانين عبد الرحمان بن هشام وخلفه مولاي الحسن لتنصيب نفسه كمستشار للمخزن في الاصلاحات التي يعتزم ادخالها للمغرب.[4]

فقدكان درامند هاي لا يبخل في تقديم "النصيحة" للمخزن،فبخصوص التدخل الفرنسي في المغرب الشرقي، وعقب المناوشات بين قبائل المنطقة والجيش الفرنسي سنة 1859م، اقنعالقنصل الانجليزي المخزن بأن "يحجم السلطان عن مهاجمة الجيوش الفرنسية التي قد تكتسح الحدود المغربية، إلا في حالة زحف الفرنسيين على مكناس أو فاس".[5]وإذا كان هذا الموقف في صالح الادارة الفرنسية بالجزائر، إلا أنه يعبر عن قوة موقف القنصل البريطاني على المحزن، وهو ما كانت تخشاه فرنسا باستمرار، على اعتبار أن مواقف جون هاي كانتمتقلبة بحسب موقع انجلترا من الحدث.

فما التحولات التي عرفها موقعانجلترا بالمغرب بعد نهاية مهام القنصل جون درامند هاي ؟

أدركت فرنسا قوة التأثير الذي تمارسه بريطانيا على المخزن، والذي كان يهدف في نظرها إلى عرقلت المشروع الفرنسي بالمغرب، فقد عبر المفوض الفرنسي بطنجة السيد "أوبيني (D'AUBIGNY) في رسالة إلى وزارة الخارجية الفرنسية بتاريخ 21 دجنبر 1892م على أنه لا يمكن مقاومة المشاريع البريطانية الطموحة إلى بممارسة تأثيرعلى نفسية السلطان، وذيل أوبيني اقتراحه بهاجس من التخون من أن الإنجليز، بفضل رأس مالهم وامتلاكهم لروح المبادرة، سوف يسيطرون تدريجياً على الإمبراطورية الشريفة، وسيكون من السهل عليهم إثارة وضع جديد".[6]

وقد شددت بريطانيا في كل مناسبة دبلوماسية عن معارضة قوية لتوجد فرنسي في المغرب لا يراعي مصالحها، واستعملت وسائل ضغط متنوعة؛ يمكن أن نميز فيها بين ورقة الضغط الدولي المعادي للتقدم الفرنسي في المغرب، وأحيانا أخرى عبر الصحف الوطنية التي لها تأثير كبير على الرأي العام الدولي لاسيما جريدة التايمز (Times)وجريدة "ستاندرد") (Standardالتي كانت تقدم "تعليقات شوفينية" بخصوص الصراع حول المتوسط والمغرب. فقد كتبت بتاريخ 17 يناير 1893مأن المسألة المغربية ووضعية طنجة: "لا يمكن حسمها إلا بعد حرب في البحر المتوسط، ستشارك فيها بكل تأكيد فرنسا وإسبانيا وإنجلترا وربما دول أخرى."[7]

دفع هذا المقال الذي رأت فيه الحكومة الفرنسية تهديدا لسلامة وجودها بشمال افريقيا، السفير الفرنسي بلندن السيد وادينغتون (Waddington) إلى توجيه خطاب قوي اللهجة لوزير الشؤون الخارجية البريطانية السيد ديفيل(Develle) :"أنت تفهم التأثير الناتج عن مثل هذه المقالات على الرأي العام لدولة تضم خمسين ألف رجل في الجزائر، والتي لها أكبر مصلحة في كل ما يحدث في المغرب".

فأمام هذا الصراع الخفي بين انجلترا وفرنسا حول المغرب، نتساءل ما الوسائل التي اعتمدها الطرفين لتسوية المصالح المشتركة بينها بخصوص المغرب ؟

اقتنعت فرنسا أنالمفاوضات الدبلوماسيةهي الطريقة الكفيلة بحل المسألة المغربية وإبعاد المعارضة الانجليزية، وبناء عليه سيعقد السفير الفرنسي بلندن السيد وادنغتون

(Waddington) لقاءات دبلوماسية مع وزير خارجية بريطانيا اللورد روزبيري (Lord Rosebery)لتدارس المصالح المشتركة بين الطرفين بالمغرب.

ففي رسالة تقريرية بتاريخ 22 غشت 1892م، من السيد وادنغتون سفير فرنسا بلندن إلى السيد ريبوت (RIBOT) وزير الشؤون الخارجية الفرنسية، يتضح أن فرنسا كانت تعتبر في أواخر القرن التاسع عشروأمام شدة المعارضة الاجنبية أن "الحفاظ على الوضع الراهن"بالمغرب هو المدخل الأساسي لوضع حد للصراع الفرنسي الانجليزي، حيث نقرأ على لسان "وادنغتون" في لقائه مع " اللورد روزبيري" معقبا على الأزمة الدبلوماسية التي خلقها المبعوث الانجليزي "تشارليز إيوان سميت" (Charles Evan Smith)مع المخزن:

" أخبرته (اللورد روزبيري) أنه إذا أراد بإخلاص أن يعمل من أجل الحفاظ على الوضع الراهن بالمغرب، فإنه سيجد فينا (فرنسا) متعاونين وليس خصومًا، ويمكننا أن نتفق بشأن القضايا التجارية."[8]

وتأتي هذه الرسالة التي تبدي من خلالها فرنسا حسن نيتها في "التعاون" مع بريطانيا في إطار تعثر مفاوضات المبعوث الانجليزي "ايوان سميت" مع السلطان مولاي الحسن الاول في أبريل 1892م، ورغبته في "إبرام معاهدة تجارية تخلف اتفاقية 1956م."[9]

حاولت الحكومة الفرنسية استغلال هذا الحدث بحرص شديد، لتوطيد نفوذها أكثر بالمغرب، والحق أن الحكومة البريطانية بدأت تفقد بريقها لدى الدوائر المخزنية منذ إنهاء القنصل الانجليزي جون درموند هايسنة 1886م، لمهامه الدبلوماسية الناجحة بالمغرب،وانضاف إلى ذلك أزمة سميت واقباله على تمزيق مشروع معاهدة التجارة، كل هذا فتح الباب أمام النفوذ الفرنسي، بل إن فرنسا نصبت نفسها حامية ومستشارة للمغرب فيما يتعلق بالتدخل الأجنبي؛ وما يؤكد ذلك رفع المخزن في 10 يوليوز 1892م رسالة شكوى تحمل الكثير من الدلالات ضد المبعوث الانجليزي "إيوان سميت" للوزير الفرنسي الكونت دوبيجني (d'Aubigny) نصها:

"عندما وصل السير تشارلز إيوان سميث عند جلالة الملك كمبعوث استثنائي لحكومته، استقبله سيدي المحترم كما ينبغي أن يكون،[...] ووجد هنا (بفاس) ترحيبا متميزا بقي محفوظا لدى القوى العظمى، ثم سلم للسلطان (مولاي الحسن) نسخة من المعاهدة التجارية الإنجليزية التي طلب تجديدها مع التغييرات التي اقترحها.

أعطى السلطان الأمر لدراسة هذه التعديلات من قبل التجار وذوي الخبرة من إمبراطوريته. وبعد دراستها بعناية، تم الاعلان أنها تحتوي على شروط يمكن أن تضر بمصالح الأشخاص والعائدات الجمركية، لكن المخزن من أجل تسهيل نتائج المفاوضات قدم تعديلات من أجل الحفاظ على علاقات الصداقة والتعاطف القائمة بين الحكومتين، والسعي لإرضاء المبعوث البريطاني. لكن (تشارلز إيوان سميث) لم يرغب أبدًا في سماع أي شيء سوى ذلك المقترحات التي كانت ستؤدي بالتأكيد إلى تدمير الحكومة والشعب المغربي.

أرسل المخزن بعد ذلك إلى تشارلز إيوان سميت نسخة من المعاهدة، مذكرا بجميع الاختلالات التي جاءت فيها، والتي سيسبب بعضها في تحامل كبير؛ مزق تشارلز المعاهدة وأعادها إلى صاحب الجلالة الشريفة."[10]

يضيف كاتب الرسالة الممثل المخزني فضول غريط موضحا للوزير الفرنسي "الكونت دوبيجني" سياق هذه المراسلة بقوله:

"طلب مني سيدي (مولاي الحسن) أن أطلعكم على هذه الحقائق؛ أولاً حتى تكونوا على دراية بالمعاملة التي قام بها الوزير "ايوان سميت" والتي من المحتمل أن تأثر على الصداقة القديمة القائمة بين البلدين، ثم أن تقوم بإبلاغ حكومتك التي ستحذر الحكومة الإنجليزية لتعلم أي الطرفين على خاطئ.

وعلى الرغم من هذا التصرف الذي اتخذه الوزير (الانجليزي) وغيره من الأفعال التي لم يعتاد عليها الممثلون الأجانب، فقد تجاهل السلطان هذا التصرف وعارض استقالته، احتراماً للحكومة التي يمثلها السيد تشارلز.

كما طلب مني أيضًا أن أحثك علىأنتخبرحكومتكبكلهذهالحقائقفيأقربوقتممكن،حتىتبلغللحكومةالإنجليزيةلتعرفمايجبالال تزامبه. لأنالسيدتشارلزأرسلمعلوماتمخالفةللحقيقة، ومن المرجح أن تأثر على علاقات الصداقة القائمة بين البلدين."[11]

يتضح من خلال المراسلة،أن معارضة المخزن لتعديل معاهدة التجارة المغربية البريطانية وفق منظور المبعوث الانجليزي "ايوان سميت"، دفعت هذا الأخير إلى الاحتجاج على "الحكومة الشريفة" وتمزيق المقترحات التي تقدم بها السلطان، ومن جهة أخرى نلمس في المراسلة أن المخزن ينصّب فرنسا كوسيط دبلوماسي وكحكم بين المغرب وبريطانيا في الأزمة

التي خلقتها سفارة سيمت إلى فاس، مما أعطى لفرنسا الشرعية -دون شك- لتقديم "النصيحة" للمخزن، واستغلال الفرصة أحسن استغلال في المفاوضات الدبلوماسية بين الحكومة الفرنسية والبريطانية للضغط على حكومة لندن لتقديم مزيد من التنازلات بخصوص ملف القضية المغربية.

وفي تقرير أكثر أهمية بتاريخ 9 غشت 1902م حول محادثات السفير الفرنسي بول كامبون (Paul Cambon) مع وزير خارجية بريطانيا السيد لانسداون[12](lord Lansdowne) بشأن التأثيرات الانجليزية على المخزن والتي ترى فيها الحكومة الفرنسية عائقا لنجاح مشاريعها في المغرب، رفع السفير الفرنسي التقرير إلى السيد ديلكاسي (Delcassé) وزير الشؤون الخارجية الفرنسية، ولأهمية التقرير في رصد الصراع الفرنسي الانجليزي حول المغرب، يمكن أن نميز فيه بين موقفينهما:**الأول** حول وجهة نظر السفير الفرنسي بلندن بول كامبون حول أسباب فشل حصول الفرنسيين على الحظوة من داخل بلاط مولاي عبد العزيز، عكس الانجليز وخاصة القائد هاري ماك لين(Harry Mac-lean) الذي أصبح له تأثير قوي على المخزن، ويمسك بأحد القطاعات الأكثر حساسية وهي الجيش. و**الثاني**؛ عبارة عن تقرير مفصل عن محادثات بول كامبون مع السيد لانسداون حول نقط مختلفة من المسألة المغربية.

الموقف الأول:

قام بول كامبون في رسالة إلى وزارة الخارجية الفرنسية بمقارنة هامة بين مؤهلات العنصر الإنجليزي ونظيره الفرنسي، حيث نقرأ في نص المراسلة:

"توصلت من سان رينيه تايلانديه (Saint-René-Taillandier)بآخر مراسلات؛ إنها لا تكشف شيئًا جديدًا، باستثناء التقدم المستمر للتأثيرات الانجليزية في بلاط سلطان المغرب التي يمكن أن تعيق عملنا مع الحكومة الشريفة، أخذت حرية التعبير، في رسالتي المؤرخة في 3 مارس، لإبلاغ سعادتك (ديلكاسي) برأيي عن طريقة العمل التي يجب أن نتبعها فيما يتعلق بالمغرب، فالحكومة الإنجليزية لا تتصرف من تلقاء نفسها؛ إن لها في المغرب رعايا ومغامرون تعرف كيفية استخدامهم للقيام بأعمال حكومتهم.

أكرّر أن مهمتنا العسكرية المؤلفة من ضباط متميزين، ولكن غير مدركين للسياسة العربية، قد تم القضاء عليها من قبل الرئيس ماك لين الذي كان مجرد مغامر فقط. فإذا لم

نقررتحديد مهمتنا من خلال موقعنا، ليس من الناحية العسكرية، ولكن من وجهة النظر السياسية، فإن القائد ماك لين يستحوذ على الجيش المغربي.من جهة أخرى، يشير السيد سان رينيه تيلانديه إلى مناورات السيد والتر هاريس (Walter Harris) مراسل التايمز، الذي أقام في طنجة، ويسهل عملية زيارات العديد من الإنجليز المتميزين الذين تم تقديمهم إلى مولاي عبد العزيز.

يضيف السفير الفرنسي بول كامبونإن: "الحكومة الإنجليزية غائبة عن كل هذه الخطوات؛ لكنها تستفيد منها، وأنا لا أراها مسألة تمثيلية؛ فهل هناك صحيفة فرنسية قادرة على الاحتفاظ بمراسل ذكي في طنجة ؟ وإذا شعرت إحدى هيئات الإعلان الكبرى لدينا بأنها على استعداد لتحمل هذا العبء، فهل سنجد في الصحافة الفرنسية رجلاً وحيدًا قادرًا على أداء دور السيد هاريس ؟ بالتأكيد لا. "[13]

أما بالنسبة للسياح الإنجليز الذين يتوافدون إلى المغرب والذين يقدمون إلى السلطان، فإنهم يطيعون غريزة جنسهم. فالإنجليز يسافرون عكس الفرنسيون، فمن منا بعد القيام بجولة في الأندلس يأتون لزيارة طنجة ؟ وبالتالي سنفاجئ السياح الفرنسين كثيرًا من خلال اقتراح التكلف بنفقات الرحلة إلى فاس أو مراكش. فيكفي أن نلاحظ أن الخدمات الجيدة الوحيدة للقوارب بين مرسيليا وطنجة هي قوارب إنجليزية أو ألمانيا، حتى ندرك قلة رحلة الفرنسيين إلى المغرب.

فقوتنا في المغرب هي جوارنا له، إنه أمر عظيم إذا عرفنا كيف نستخدم هذا الجوار، وفي هذا الصدد فإن اتفاقيتنا حول توزيع قبائل الحدود جد ممتاز؛ إنها تعطينا سلاحًا يجب أن نستخدمه بحذر، ولكن بحزم أيضا،لذلك كان ينبغي عليّ أن أكون حذرا بما فيه الكفاية من تقديم ملاحظات إلى اللورد لانسداون بشأن محاولات رعاياه التأثير على السلطان".[14]

إذن، نبرّر التوجس الفرنسي من التدخل الانجليزي في المغرب، بروح المبادرة والمغامرة التي تمتع بها العنصر الانجليزي عكس الفرنسيين، ويمكن أن نبرز عناصر قوة الانجليز في النقط التالية:

- دور العنصر البشري الإنجليزي في التأقلم بسرعة مع طبائع المغاربة، وهنا نشير الى أدوار القائد ماكلين والصحافي والتر هاريس.
- روح المغامرة عندالسائح الانجليزي، واقباله على زيارة المغرب عكس الفرنسيين.

الموقف الثاني:

استفسر السفير الفرنسي نظيره وزير خارجية بريطانيا حول بعض الاجراءات الانجليزية التي ترى فيها الحكومة الفرنسية تهديدا مباشرا لمصالحها في المغرب، وهنا نورد جواب خارجية بريطانيا لوزارة ديلكاسي حول نتائج جلسات الحوار بين بول كامبون ولانسدون التي امتدت على الفترة ما بين 23 يوليوز و 6 غشت 1902 حيث نقرأ في المراسلة على لسان السفير الفرنسي بلندن ما نصه:

"في لقاء 23 يوليوز ، طرحت سؤالا على لانسدون حول بعض المخاوف التي تنتاب فرنسا بخصوص المغرب، فيما يتعلق باستعدادات القبائل الحدودية تنفيذ خططها لخرق الاتفاقية والتي سيضع تطبيقها حداً لنهبهم؛ ونظرا للموقف الغامض للمغاربة الذين سمح لهم الضعف أو التواطؤ باستمرار في التسلح أتيحت لي الفرصة لاستجواب الحكومة المغربية، وتحدثت بشكل طبيعي عن ماك لين والانجليز الذين كانوا دون شك على علم من الحكومة البريطانية ويتابعون في المغرب هذه الخروقات التي تؤثر تماما على استمرار الحفاظ على الوضع الراهن بالمغرب.

صرح لانسداون، أن السياسة الإنجليزية في المغرب هي سياسة الحفاظ على الوضع الراهن، وأن آرثرنيكولسون[15](Arthur Nicolson)تلقى تعليمات بخصوص استعداد القبائل الحدودية للمقاومة وأن الحكومة البريطانية رفضت طلب السلطان إرسال بعثة عسكرية إنجليزية إلى المنطقة.[16]

وعلّق بول كامبون في تقريره لوزير الخارجية الفرنسية ديلكاسي حول موقف لانسدونمن رغبة انجلترا في تقديم الدعم العسكري للمغرب بقوله:

"يؤكد هذا الطلب من السلطان المتعلق بالدعم العسكري مدى هيمنة التأثيرات الإنجليزية على مولاي عبد العزيز، وحتى آرثر نيكولسون في حديثه حول اعتماده ممثلا لإنجلترا بطنجة، كان يعلم جيدًا أنه يمتلكه في شخص ماك لين أداة أكثر فعالية، من مهمته العسكرية الرسمية، هذا ما أشرت إليه لوزارة الشؤون الخارجية وأضفت أننا لا نشك في نوايا الحكومة الإنجليزية، لكن في الواقع قيام القائد الانجليزي بدور القائد، وتنظيم جيش من المشاة والفرسان والمدفعية أمر يتعارض مع التزامات مولاي عبد العزيز، وإننا نخشى أن نكون عاجلاً أم آجلاً ملزمون بضمان سلامتنا واحترام حقوق جوارنا".[17]

ويستطرد بول كامبون للسيد ديلكاسي، "في رأيي ، كانت المصلحة السياسية الوحيدة لإنجلترا في المغرب هي طنجة؛ لكن دول أوروبا لن تسمح للإنجليز بمدّ أيديهم إلى هذا المجال الذي يمثل مفاتيح مضيق جبل طارق؛ كما أن الحكومة الإنجليزية من جانبا، لن تسمح لأي سلطة بالاستقرار هناك؛ يبدو أن الحل هو تحييد طنجة، ومقابل الأمن الذي ستحصل عليه إنجلترا، قد تعترف بحقنا في التأثير، وإن لزم الأمر، في ممارسة المراقبة في المناطق الجنوبية."[18]

بناءً على جلسات هذا اللقاء الدبلوماسي، نخلص إلى رصد المواقف الفرنسية التالية:

- احتجاج فرنسا عن متابعة انجلترا لما أسماه السفير الفرنسي "تجاوزات القبائل الحدودية" ورغبتها في دعم السلطان مولاي عبد العزيز عسكريا.
- ترى فرنسا أن المصلحة السياسية الواحدة لإنجلترا في المغرب هي طنجة، وأن تحييد المدينة، يلزم انجلترا الاعتراف بالمصالح الفرنسية في المغرب.

أما بخصوص لقاء 31 يوليوز فقد كان قصيرا، اقتصر على تقديم إجابات من الحكومتين حول مقترحات لقاء 23 يوليوز الذي انصب على تقديم الحكومة الفرنسية شكوى حول التأثير الانجليزي على المخزن وانعكاسات ذلك على المصالح الفرنسية، وسُبل التوصل إلى حل يراعي مصالح الجانبين، كما كان لقاءً ترتيبياً مهدّ لبرمجة لقاء جديد في 6 غشت 1902م.

إذن فما هي المستجدات التي جاء بها هذا اللقاء بخصوص الموقفالفرنسي والإنجليزي من القضية المغربية ؟

انصب لقاء 6 غشت على تصريح السفير الفرنسي أن انجلترا كانت دائما، لصالح سياسة الحفاظ على الوضع الراهن بالمغرب؛ وأن فرنسا بعد أن أعادت تشكيل مجالها الاستعماري أصبحت مهتمة بشؤون المستعمرات، ورهانها يقوم على تنظيم "ممتلكاتها"؛ وأن المنافسة الاستعمارية هي السبب الوحيد للانقسام مع إنجلترا. وأن سبب عدم التوصل للتوافق؛ ليس هو الجانب السياسي ولا الاقتصادي؛ وإنما هو الصراع الصناعي والتجاري بين إنجلترا والولايات المتحدة؛ المصدرين للفحم والمنتجات المعدنية، ونفس الصراع يمكن تصوره مع ألمانيا منتجة المواد الرخيصة، والتي يدفعها طموحها لتشكيل قوة بحرية

وإمبراطورية استعمارية، غير أن فرنسا المصنعة للسلع الفاخرة، والتي تفتقر إلى الفحم والحديد الذي يشكل سببا لوجود المنافسة الاستعمارية.[19]

ويرى بول كامبون أن السبب الوحيد الذي فرض على الحكومة الفرنسية التدخل في المغربهو "حماية ممتلكاتنا فيما وراء البحر من كل المشاريع العدائية؛ ففي المغرب كان التدخل، لأن سيطرتنا على الجزائر ستتعرض للتهديد من قِبل دولة أخرى، وفي "سيام"[20](Siam) بسبب جوارها للهند الصينية

ففي سيام (التايلاند حاليا) يمكننا حل جميع الصعوبات من خلال الاعتماد على روح اتفاقية 1896م. أما بالنسبة للمغرب، فإنه لا يشبه "سيام" تمامًا؛ فنحن أمام وضع ملتبس، قد تتعرض مصالحنا فيه للتهديد، وبالتالي من المفيد تحديدها؛ فمصالح فرنسا في جميع الأحوال: هي مصالح اقتصادية وسياسية، المغرب يشبه امتداد الجزائر، إنه بوابة إمبراطوريتنا الأفريقية؛ لا يمكننا بأي حال أن ندع هذه القوة تفلت من نفوذنا".[21]

أما مصالح إنجلترا في المغرب-يرى بول كامبون- "فهي اقتصادية بحتة، باستثناء طنجة؛ المغرب لا يجاور أي من مستعمراتهم، ولا يوجد في منطقة نفوذهم، وليس لدى انجلترا مصلحة في ممارسة نفوذ داخله أو في الاستيلاء على أجزاء ترابية،[...] اهتمام انجلترا السياسي -يقول بول كامبون- يقتصر على مدينة طنجة نظرا لموقعها على المضيق جبل طارق".[22]

وشدد وزير الدولةديلكاسي من جهته أنه يستحيل السماح لإنجلترا بالاستقرار بطنجة؛ ومستعد للاعتراف بأن احتلال طنجة محظور على جميع الدول الأخرى، وأن المدينة والمنطقة المحيطة بها يجب أن تبقى في وضع محايد؛ بمعنى أن وضعيتها ستبعث ارتياحًا مهمًا للمصالح السياسية لإنجلترا.وبالنسبة لمصالح انجلترا الاقتصادية، يرى ديلكاسي أنه إذا كان هناك حل للمسألة المغربية في المستقبل، وإذا ما تمكنت فرنسا من بسط سيطرتها على المغرب، فستتمتع إنجلترا بالحرية التجارية، وبهذه الطريقة، سيتم حماية جميع مصالحها، ولن تضطر إلى القلق بشأن توسع النفوذ الفرنسي بالمغرب.

ويضيف السفير الفرنسي أن هناك دولة ثالثة تهتم بشؤون المغرب: هي إسبانيا،"استقرت على ساحل البحر المتوسط ،لديهاحقوقيجباحترامها،ويرى ديلكاسيأنه من الأحسن أن تحتفظ إسبانيا بمنطقة نفوذ حول المناطق التي تحتلها (سبتة ومليلية)، وأن

تؤسس منطقة نائية كافية لتصفية حقوقها في المغرب.[23]وجنوب هذه المنطقة النائية، ستتمتع فرنسا، إذا لزم الأمر، بحرية التصرف،ويطمح ديلكاسيألا يستغرق هذا الأمل مدة طويلة؛ ويتمنى أن يحافظ لعدة أجيال على الوضع الراهن بالمغرب؛ ويعتقد أن أفضل طريقة للحفاظ عليه؛ هي تبادل وجهات بصدق بشأن المستقبل وتجاوز المنافسات لإيجاد الحلول".[24]

ختّم السفير الفرنسي مراسلاته إلى وزارة الخارجية الفرنسية بالإشارة إلى شدة اهتمام وزير الشؤون الخارجية البريطانية لانسداون بآرائه حول المسألة المغربية، وإلى تقديما لمقترحات الفرنسية بأمان إلى الحكومة البريطانية.

من هذا اللقاء،نسجل بعض المواقف الفرنسية من المسألة المغربية، والتي حاول من خلالها السفير الفرنسي إقناع انجلترا بإيجاد حل لمسألة الصراع بين الجانبين، وهي:

- أن المفاوضات الجدية هي السبيل الجيد لإيجاد حل للمنافسة الاستعمارية بين فرنسا وانجلترا
- التدخل الفرنسي في المغرب هو للحفاظ على المصالح الاقتصادية والسياسية لفرنسا من جهة، وضمان حقوق انجلترا من جهة ثانية.

ومن جانب أخر، نستشف من رسالة سرية مؤرخة في 11 شتنبر 1902م الحرص الشديد لعدم اثارةالمفاوضات الفرنسية الاسبانية التي انطلقت في غشت 1902، للرأي العام الدولي خاصة انجلترا الأكثر اهتماما بالمسالة المغربية. حيث نقرأ في الرسالة:

"إن مفاوضاتنا مع إسبانيا جد متقدمة، ومن المهم عدم المساس بمسار هذه المفاوضات، لخلق أزمة مفاجئة من شأنها أن توفر الظروف المناسبة لمن يبحثون عنها، وتوفر الفرصة لفتح المسألة المغربية قبل أن نحسم القضية إلى جانبنا، ونحصن مصالحنا، وبما أننا متأكدين بالفعل من عدم معارضة إيطاليا، وبالتوافق مع إسبانيا، سنجد أنفسنا في ظروف جيدة لإجراء مفاوضات جدية مع إنجلترا، والتي يبدو أنها ترغب فيها".[25]

فما النتائج التي أفرزها هذا الصراع الدبلوماسي حول "المصالح" الفرنسية الإنجليزية بالمغرب ؟

II. نتائج الصراع الفرنسي الانجليزي وامتداداته

فتح فشل مشروع الاتفاق الفرنسي الاسباني لغشت 1902 حول المغرب، ونجاح اللقاءات التمهيدية– المشار إليها أعلاه- بين السفير الفرنسي بول كامبون ووزير الخارجية البريطانية لانسدون باب المفاوضات بجدية أمام فرنسا للتوصل إلى اتفاق يحدد المصالح الاستعمارية المشتركة، خاصة بعد موافقةإنجلترا في 19 نونبر 1903 على مبدأ ديلكاسي المتمثل فيأن "أي اتفاق عام بين البلدين، ينبغي أن يقوم على فوائد وتنازلات متبادلة تكون بقدر الإمكان متساوية".[26]

وأمام وضع التصور العام للاتفاق، توصلت فرنسا وانجلترا في 08 أبريل 1904 إلى اتفاق ثنائي، ما يهمنا من مقتضياته المادة 02 التي تنص على أن الحكومة الفرنسية لا تنوي تغيير وضعية المغرب السياسية، وتعترف الحكومة الإنجليزية نظرا لمجاورة ممتلكاتها للأراضي المغربية أن تسهر فرنسا على أمن المغرب وأن تقدم له كامل مساعدتها، وتعلن عدم عرقلتها للإجراءات الفرنسية التي تهدف إلى تحقيق هذه الغاية، شريطة ضمان حقوق بريطانيا المستمدة من المعاهدات والمواثيق الدولية.والمادة 03 التي تخول نفس الامتيازات بخصوص الاعتراف بالوجود البريطاني في مصر ورعاية حقوق فرنسا به.[27]

وخُتّم نص الاتفاق ببيان سري،يُلزم فرنسا في المادة الثالثة منه، بمراعاة حقوق اسبانيا في "بعض مناطق الحدود المغربية المجاورة لمليلة وسبتة ومناطق أخرى".[28]

نجحت فرنسا من خلال هذا الاتفاق في إبعاد خصم عنيد،عبر ضمان حقوقه الاقتصادية،وحققت بالموازاة لذلك نجاح سياسي واقتصادي في المغرب،مكنها من تقوية مركزها أمام باقي القوى المعارضة خاصة ألمانيا التي دعت فرنسا -لتجنب أي نزاع مسلح- إلى عقد لقاء دولي يحدد بالتساوي حقوق كل طرف،[29]غير أن المعارضة الألمانية اختفت بعد التوصل ألى تسوية مع فرنسا على -نهج الاتفاق الإنجليزي-في أكتوبر 1911.

فهل حققت إنجلترا أهدفهامن خلال ضمان الحقوق الاقتصادية وبالتالي لزمت الصمت بخصوص المسألة المغربية أم أن التدخل الإنجليزي في المغرب استمر بعداتفاقية التسوية لسنة 1904 ؟

رغم توصل انجلترا مع فرنساإلى اتفاق ثنائي لتبادل المصالح الاستعمارية، إلا أنها ظلت تراقب باستمرار خطوات التدخل الفرنسي في المغرب، بل وأصبحت انجلترا وسيط

مباشر في تقريب وجهات النظر الفرنسية الاسبانيةخلال مفاوضات تقسيم مناطق النفوذ بين الطرفين، ويمكن إبراز دور الوساطة الانجليزية في مناسبتين هما:

أولاخلال مفاوضات أكتوبر 1904:حيث اتصل وزير الخارجية الاسبانية سرا بإنجلترااليطلعها بالعروض الفرنسية، وأعلن أن اسبانيا تعارض كل تسوية دون موافقة انجلترا، ومن جهته صرح وزير الخارجية البريطانية لانسدون أن إنجلترا لاتقر وضع تقسيم افتراضي للمغرب، ودعا اسبانيا للعمل سويا بخصوص مشروع التقسيم.[30]

ثانيا خلال مفاوضات نونبر 1912:أعلنت انجلترا أنها لا تستطيع الاعتراف بالحماية الفرنسية على المغرب ما لم تتوصل فرنسا إلى اتفاق مع اسبانياوتسوية وضعية طنجة، ومع تعثر جلسات المفاوضات الفرنسية الاسبانية تدخلت انجلترا من جديد كطرف ثالث بناء على طلب من اسبانيا وموافقة فرنسا.[31]

بواسطة من إنجلترا،نجحت المفاوضات الفرنسية الاسبانية لسنة 1912 إلى الاهتداء إلى اتفاق لتقسيم مناطق النفوذ بالمغرب، حيث تم توقيع مشروع الاتفاق في 27 نونبر، غير أن حل المسألة المغربية ظل علقا بالنسبة لإنجلترا ما دامت لم تحدد وضعية طنجة، التي عارضت انجلترا احتلالها من طرف أي قوة أجنبية، ودافعت عن وضعها الدولي.

ورغم اختلاف مواقف فرنسا واسبانيا وانجلترا بخصوص ملف طنجة، تمكن الأطراف الثلاث، من وضع نظام نظري حول وضعية طنجة خلال اجتمع بلندن في مارس 1913 يتأسس؛على منح نوع من الاستقلال الذاتي للمدينة، ووضع نائب مخزني لتمثيل السلطان، وتحديد النظام القضائي للمدينة.[32]غير أن مشروع النظام الأساسي لطنجة ظل جامدا إلى حدود سنة 1923 نتيجة الظروف الدولية التي طفت على السطح؛ والمتمثلة في اندلاع الحرب العالمية الأولى التي كانت فرنسا وانجلترا طرفا في أحداثها.

شكل تبادل المصالح الاستعمارية بين فرنسا وإنجلترا المدخل الأساسي لحل أزمة الصراع الفرنسي الانجليزي بالمغرب؛ففي الوقت الذي التزمت فيه انجلترا في اتفاق أبريل 1904 الحياد بخصوص التدخل الفرنسي في المغرب، اعترفت فرنسا بالاحتلال الإنجليزي لمصر وضمان الحقوق الاقتصادية لإنجلترا بالمغرب.

غير أن الملاحظ،هو أن انجلترا انتقلت بموجب اتفاق أبريل من موقف الدولة المعارضة لفرنسا إلى دور الوسيط في حل المسألة المغربية، عبر تقريب وجهات النظر

الفرنسية الاسبانية بخصوص تقسيم مناطق النفوذ، كما تشبثت من جهة ثالثة بموقفها من طنجة الذي يقضي بتدويل المدينة، ومعارضة احتلالها من طرف أي قوة أجنبية.

خاتمة

نخلصانطلاقا مما سبق،أن موازين الصراع الدبلوماسي بين فرنسا وانجلتراعرف منعطفا جديدافي أواخر القرن التاسع عشر، فبعد أن كانت إنجلترا تبدي تصلبا في مواقفها ضد التدخل الفرنسي في المغرب، أصبحت خلال العقد الأول من القرن العشرين تبدي تساهلا غير مسبوق بخصوص المسألة المغربية، حيث فتحت باب المفاوضات بشكل جدي أمام فرنسا لتسوية "المصالح الثنائية"بالمغرب، وبذلك تم التوصل إلى اتفاق أبريل 1904 الذي أعطى الضوء الأخضر للتدخل الفرنسي في المغرب، مقابل حفظ المصالح الاقتصادية الإنجليزية في المغرب والسياسية في منطقة طنجة. والاعتراف من جهة أخرى بالوجود الانجليزي في مصر.

وبالتالي نسجل، أن المدخل الأساسي لوضع حدّ للصراع الدبلوماسي بين انجلترا وفرنسا بخصوص المسألة المغربية أنبنى على تبادل المصالح الاستعمارية بين الطرفين، غير أن المصالح الإنجليزية لم تنتهي بضمان الحقوق الاقتصادية، بل استمرت امتدادات التدخل الانجليزي في المغرب؛ حيث نصبت انجلترا نفسها الوسيط في تقريب وجهات نظر فرنسا واسبانيا في مفاوضات تقسيم مناطق النفوذ بالمغرب، وأقنعت الدولتين بعد عقد معاهدة "الحماية" بفكرة وضع نظام دولي لمنطقة طنجة، بعد أن حاولت كل من فرنسا واسبانيا جعل المدينة داخل مجال نفوذها.

الهوامش:

[1]- جهاد عودة، **الصراع الدولي: مفاهيم وقضايا**،دار الهدى للنشر والتوزيع، ط، 1، ص، 17.

[2]- اسماعيل صبري مقلد، **العلاقات السياسية الدولية، دراسة في الأصول والنظريات**، المكتبة الاكاديمية، القاهرة، 1991، ص، 223.

[3]- جيمس دورتي وروبرت بالتسغراف، **النظريات المتضاربة في العلاقات الدولية**، مكتبة شركة كاظمة للنشر والترجمة والتوزيع، بيروت، ط، 1، 1985م، ص، 140.

[4]- خالد بن الصغير، **المغرب وبريطانيا العظمى في القرن التاسع عشر (1856-1886م)**، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية بالرباط، ط، 2، 1997، ص، 337.

[5]- نفسه، ص، 176.

[6] -M. D'AUBIGNY Ministre de France à Tanger à M. Ribor, Ministre des Affaires étrangères **in: documents diplomatique français (1871-1900)**, premier série, Tome Second (1 juillet 1875-11931 Décembre 1879), Imprimerie national, Paris, P.

[7] - M. Waddington, Ambassadeur de France à Londres à M. Develle, Ministre des Affairés étrangères ; **In D.D.F.** 1e série, 1871-1900,Imprimerie national, ParisP.P.162-163.

[8] - M. Waddington, Ambassadeur de France à Londres à M. Ribot Ministère des affaires étrangères, **Op.cit**.P.14-15.

[9] -- مصطفى بوشعراء، **الاستيطان والحماية بالمغرب 1863-1894**، تقديم عبد الوهاب بنمنصور، المطبعة الملكية بالرباط، ط، 1، 1894م، ص، 526.

[10] Jean Louis Miège**, Le Maroc et l'Europe 1830-1894,** Centre National de la Recherche Scientifique, Paris, 1969, P.P. 201-202.

[11] - Ibidem.

[12]- وزير الشؤون الخارجية لبريطانيا، ولد لانسداون بلندن في 14 يناير 1845 وتوفي في 3 يونيو 1927م.

[13] - M. Paul Cambon, Ambassadeur de France à Londres à M. Delcassé, Ministre des Affaires étrangères, **in: documents diplomatique français** (1871-1900) deuxième série (1901-438-4371911)Tome Second (1 janvier 31 -Décembre 1902), Imprimerie national, Paris, PP.

[14] - M. Paul Cambon, Ambassadeur de France à Londres à M. Delcassé, Ministre des Affaires étrangères, Op.cit. PP. 438-439.

[15]- **آرثر نيكولسون**؛ ممثل دبلوماسي لإنجلترا في طنجة، ولد سنة 1849م وتقلد أيضا مناصب دبلوماسية وسياسية في بريطانيا في الفترة ما بين الربع الأخير من القرن التاسع عشر ومنتصف الحرب العالمية الأولى، توفي سنة 1928م.

[16] - M. Paul Cambon, Ambassadeur de France à Londres à M. Delcassé, Ministre des Affaires étrangères**. Op.cit**. P.P. 439-440.

[17] - M. Paul Cambon, Ambassadeur de France à Londres à M. Delcassé, Ministre des Affaires étrangères**. Op.cit**. P.P. 439-440.

[18] - Ibidem.

[19] - M. Paul Cambon, Ambassadeur de France à Londres à M. Delcassé, Ministre des Affaires étrangères. **Op.cit.** P. 441.

[20]-**سيام هو** الاسم القديم **لتايلاند**، تأسست مملكة سيام في عام 1350 م من قبل الملك **راثيبودي الأول**، أخذت البلاد اسم تايلاند في عام 1939 ، بعد استيلاء **الجنرال بليك فيبونسونجكرم** على السلطة.

[21] - M. Paul Cambon, Ambassadeur de France à Londres à M. Delcassé, Ministre des Affaires étrangères. **Op.cit.** P. 441-442.

[22]- Ibidem.

[23] - M. Paul Cambon, Ambassadeur de France à Londres à M. Delcassé, Ministre des Affaires étrangères. **Op.cit.** P. 440-441.

[24]- M. Paul Cambon, Ambassadeur de France à Londres à M. Delcassé, Ministre des Affaires étrangères. **Op.cit.** P. 442.

[25] - M. Delcassé, Ministre des Affaires étrangères à Saint-René-Taillandier, Ministre de France à Tanger, **In : D. D. F**, deuxième série (1901-1911)Tome Second (1 janvier 31 - Décembre 1902), Imprimerie national, Paris, PP. 473-474.

[26]- محمد خير فارس، **المسألة المغربية 1900-1912**، مكتبة دار الشرق، بيروت، ط،2، 1980، ص، 194.

[27] - Livre collective, **les Accords franco-anglais du 8 avril 1904, appréciation critique**, édition ; Revue général de droit international public, Paris 1905. P. 151.

[28]- Ibidem

[29] - Richet, Étienne, **La politique allemande au Maroc**, Éditeur Emile Larose, Paris, 1917, P.5.

[30]- محمد خير فارس، **المسألة المغربية**، م، س، ص، 201.

[31]- محمد خير فارس، **تنظيم الحماية الفرنسية في المغرب 1912-1939**، ط،1972، ص، 57.

[32]- محمد الأمين البزاز، "طنجة في عهد الادارة الدولية"، ضمن: **مجلة دار النيابة**، عدد 18، سنة 1955، ص، 17.

الكاتب: د/ محمد نفاد
الأكاديمية الجهوية للتربية والتكوين فاس-مكناس

البريد الالكتروني
mohammednafad@gmail.com :

عنوان المقال: الفكر الصوفي المغربي وسؤال التنمية

تاريخ الإرسال: 2020/04/19 **تاريخ القبول**: 2020/06/08 **تاريخ النشر**: 2020/06/30

الفكر الصوفي المغربي وسؤال التنمية

Moroccan Sufi Thought and Development Question

ملخص :

ارتبط مفهوم التصوف عند الكثيرين بالزهد والانقطاع للعبادة وترك ما له علاقة بملذات الحياة والاستمتاع بها، وهو تصور مجانب لِكُنْهِ الحقيقة لأن التصوف كان عبر تطوره الزمني مضطلعا بدور سياسي وعمق رؤيوي ومشروع بأبعاد تنموية وسياسية واجتماعية... بل كان حاملا همَّ وحدة الأمة والدفاع عن حماها ومواجهة ما من شأنه تهديد كيانها.

وتسعى 'هذه الورقة مقاربة خصوصية التصوف المغربي كتراث له أصوله وثوابته وامتداداته، ومحاولة كشف منطلقاته المتسمة بالوسطية والاعتدال، ودوره في استثباب الأمن الروحي والفكري ومدى مساهمته في البناء الاقتصادي، ونطمح إلى الإجابة على إشكالية مفادها:

ما هي خصوصية التصوف المغربي؟ كيف استطاع التفكير الصوفي صيانة الهوية والخصوصية المغربية؟ إلى أي حد يمكنه المساهمة في بلورة مشروع تنموي بأبعاد اقتصادية؟

وننطلق في الدراسة العلمية من فرضية: التفكير الصوفي المغربي تأسس على الانخراط في الحياة الاجتماعية وتحريض الأتباع على إعمار الأرض.

Keywords: Moroccan mysticism, privacy, identity, development.

Summary:

The concept of Sufism was associated with many asceticism, discontinuation of worship and the abandonment of the pleasures of life and enjoyment. Protect it and confront what would threaten its existence.

The scientific paper to be presented at the Symposium (Heritage in the Mediterranean Basin: Reality, Development and Valuation) seeks to approach the specificity of Moroccan mysticism as a heritage with its origins, constants, and extensions, and to try to expose its principles characterized by moderation and moderation, and its role in attracting spiritual and intellectual security and the extent of its contribution to economic construction, and aspire to Answer to the problem:

What is the specificity of Moroccan Sufism? How did Sufi thinking preserve Moroccan identity and privacy? To what extent can it contribute to the formulation of a development project with economic dimensions?

In the paper, we start from the hypothesis: Moroccan Sufi thinking was founded on engaging in social life and inciting followers to reconstruct the land.

أولا: الخصوصية وحافز التنمية

1) سمة العلم

من سمات الإنسان الصوفي أنه "عالم" بما تحصل لديه من معارف، فبالعلم تتجلى معالم الطريق الموصلة إلى الله وإلى حقيقة الأمور التي يروم الصوفيُّ إدراكها خاصة وأن العلم هو مناط الخشية التي دلت عليها الآية الكريمة "إنما يخشى الله من عباده العلماء"[1]، ويمكن هنا الإحالة على كتب التفسير لتبيان دور العلم في بناء الخوف من الله الذي هو صفة الإخلاص.

ونميز في الحقل الصوفي بين نوعين من امتلاك المعارف وتحصيلها :

أ- "العلم : وهو ما حصل بطريق النقل والسماع، أو عن طريق النظر والاستدلال.

ب- المعرفة : هي ما حصل عن طريق الفيض الرباني على جهة الكشف والانجلاء الغيبي"[2].

ومرد صفة العلم إلى جهود صوفية المغرب إلى تأصيل منهجهم التربوي الروحي في التنشئة والتوجيه خوفا من الانحراف أو دخول الشوائب على منهجهم.

وإن كان علماء الأمة الإسلامية على قسمين كما رأى العلامة المغاربي ابن خلدون : فريق اهتم بأحكام الظاهر من أفعال المكلفين، وفريق عني بفقه الباطن وهو معرفة الأحكام المتعلقة بأفعال القلوب[3]. وقد استطاع التصوف المغربي الجمع بين التفقه والتحقق لأن رجالاته أخذوا بمفهوم العلم الواسع الذي يضبط حياة الناس ظاهرا وباطنا، وفي هذا السياق نورد قول ابن خلدون الذي يرى أن "الشريعة عند المتصوفة تحكم على المكلفين من حيث ظاهر أعمالهم، ومن حيث باطن أعمالهم"[4].

وهذه السمة هي التي جعلت التصوف المغربي متشددا في اعتماد الكتاب والسنة ونهج الصحابة وإجماع علماء الأمة، وأهلته ليوصَف بكونه تصوف سني.

2) سمة امتداح العمل

التصوف السني لا يرسم خط القطيعة مع الدنيا، ولا يعيش منزويا عارضا عن قضايا الناس ومشكلات المجتمع، ولا يدعو إلى "انطواء" الرهبانية قاطعا مع الدنيا وشؤونها ومنشغلا بالعبادة و"التشدد فيها"، بل تراه واقعيا منغمسا في هموم الواقع وإشكالاته، يمارس تجربته الروحية من قلب الواقع المعيش، لأن إصلاح الباطن لا بد أن يتجلى في خدمة الناس ودعم كل مبادرة تهدف إلى تنمية المجتمع.

والتصوف المغربي تصوف ينهل ويرتوي من الكتاب والسنة الداعيين إلى البناء والنماء والمشاركة في الحياة الاجتماعية، ومن محفوظات العوام والخاصة في هذا الأمر قول الله تعالى : "والعصر إن الإنسان لفي خسر، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر"[5].

وقد كانت سمة العمل التي ميزت التصوف المغربي بوجهين، أو لنقل في منحنين:

الأول: تعبدي إيماني مثل ما عرف به أولياء دكالة الذين «اشتهروا في مجال نفوذهم وخارجه، وكان عنوان هذه الشهرة حرصهم على الإلتزام بالكتاب والسنة والإكثار من نوافل الصلاة والإهتمام بدقائق التعاليم الصوفية مثل الصحبة والعلم والذكر وشدة التهجد»[6]، وكل هذه الأعمال التعبدية العملية ليست بغريبة على منتسبي طريقة الجنيد.

الثاني: عمل المتصوفة وجهدهم الذي جعل منهم قدوة في العطاء والبذل وتنمية المجال، وقد كانت الزوايا في المغرب ملاذا للمحتاج، تطعم الجائع وتتصدق على المعوز، وإذا كان لابد من إدراج النموذج فلنقدم ما قاله أحد معاصري الشيخ ماء العينين «وكان هذا الشيخ -ماء العينين- فاضلا كريما لا يوجد أحسن منه أخلاقا، وقد اجتمعت به... فرأيت منه ما يحيرني، لأني قَدَّرْتُ من معه في وادي اسمار من الساقية الحمراء بعشرة آلاف شخص بين أرملة ومزمن وصحيح البنية، وكل هؤلاء في أرغد عيشة، كاسيا من ذلك الشيخ، ويزوج الشخص ويدفع المهر من عنده ويجهز المرأة من عنده، مع حسن معاشرته لهم، لافرق عنده بين ولده والمحسوب عليه، ولا يمضي عليه يوم إلا وقد بعث قافلة تأتيه بالميرة (الطعام)... ومتى بلغ الإنسان قريبا منه، يسمع دوي مريديه يذكرون الله، وينشدون الأدعية، ورأيته في تلك الأيام التي أقمت عنده لا تفوته صلاة الجماعة في أول الوقت»[7]. فهذا نموذج حي واقي جمع بين التوجهين في العمل الصوفي المغربي.

كما أن خاصية العمل والواقعية للتصوف المغربي هي التي جعلته يلقى قبولا في الأوساط المجتمعية، لدعوته إلى الكد والجهد والكسب متواصلا مع الناس متبنيا هموم حياتهم[8]، ومشاركا في بناء الحياة في كل مجالاتها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية والعلمية... استنارة واقتفاء للأمر القرآني والنبوي.

3) سمة الوسطية والاعتدال

ارتباطا بما سبق ذكره في المحاور السالفة تقرر أن التصوف أمر متجذر في حياة المغاربة، مما يجعل الباحث أو الدارس للظاهرة يقرر أن الشخصية المغربية روحية بطبيعتها، لكن أهم ما يميز هذه الطبيعة الروحية هو بعد "الوسطية والاعتدال"، وهذه الخاصية طبعت المغاربة في حياتهم الدينية، ومرد ذلك ومرجعه كون شيوخ التصوف المغربي كانوا على دراية بالعلوم الشرعية التي تساهم -وبشكل كبير- في تأطير الفرد وعصمته من الوقوع في زلل الاندفاع والمغالاة اللذين غالبا ما يكونان خارج الحكم الشرعي وضوابطه، بمعنى آخر هم أناس جمعوا بين الفقه والولاية. نظيف إلى أن المغاربة أول ما عانقوا التصوف اتجهوا إلى المَنْحَى الرقائقي الأخلاقي وجعلوا أنفسهم في منأى عن الفلسفة الصوفية التي خالفت التصوف الهادف إلى تزكية النفس. وكون المغاربة اختاروا لأنفسهم "التصوف السني" يأخذ بالكتاب والهدي النبوي وسير الصحابة والتابعين وصلحاء الأمة، فيكفي بهذه المصادر

العظمى، والمظان الكبرى التي لا توحي إلا بما هو عملي/علمي بعيدا كل البعد عن التوجهات المُوغِلَةِ في التطرف الذهني أو إحاطة النفس والعبادات بترهات البدع والخرافات التي كانت مصدر الإساءة ونَبْعَ التحامل على التصوف.

هذه بعضٌ من السمات المميزة للتصوف المغربي في حلته المعاصرة والتي تستمد ماهيتها من الجذور التاريخية لسيرورة هذا الحقل الروحي. وقد عمدت إلى رسم هذه المميزات بأبعاد قوامها العلم والتفقه وطرفاه العمل والوسطية والاعتدال. ويمكن إضافة العديد من العلامات المميزة كسمة التكامل بين الفقه المالكي والعقيدة الأشعرية وأخلاق الجنيد، وسمة الانفتاح والتواصل بين القبائل والعشائر سواء داخل الوطن أو خارج الحيز الجغرافي، فضلا عن خاصية القصد الإصلاحي الذي كان غاية وهدف كل ما ذكر من عناصر التمييز

ثانيا: مستويات التنمية عند الصوفية

1) المستوى السياسي

انفرد التفكير الصوفي بتنظير بديع في مجال السياسة، وخلافا لطريقتنا في المباحث السابقة فإني سأعمد إلى الاشتغال على كتاب فريد في تخصصه استجلاء للرؤية السياسية الصوفي ومساهمتها في تحقيق التنمية، ويهمني في هذه الدراسة طرق أعتاب كتاب معتبر في مجال تخصصه، سامق في موضوعه، إنه كتاب "التدبيرات الإلهية في إصلاح المملكة الإنسانية". وهو كتاب مماثل لمصنفاته "السياسية" التي لم تنطلق من المفترض المتخيل في الجمهوريات والمدن الفاضلة/المثالية، إنما يضع السياسة في إطارها الواقعي من حيث نقد المعاش المشاهد ككتابه "روح القدس" الذي كان نقدا دقيقا موجعا لحكام عصره.

والكتاب المنتقى للدراسة وإن كان عنوانه يصرف نظر المتلقي إلى ما عهد في المتصوفة من تزكية ومعارج المقامات فإنه في جوهره تنظير " للتنمية المجتمعية" من خلال الممارسة السياسية. وكان ابن عربي قد أشار إلى إمكانية قراءة كتابه باحتمالات مختلفة/التأويل، يقول: «جاء غريبا في شأنه ممزوجا رمزه ببيانه، يقرؤه الخاص والعام، ومن كان في الحضيض الأوهد، ومستوى الجلال الأكرم، قد علم كل أناس مشربهم، ففيه للخواص إشارة لائحة، وللعوام طريفة واضحة»[9]. وتدور فكرة الكتاب حول مقارنة –فيها نفحة إبداعية- بين قوى الإنسان الفرد ووظائفها وبين أفراد الدولة وأدوارها المختلفة، وقد رصد ابن عربي النظام الذي يحكم العالم (الكون) والفرد والدولة.

وقد يطرح التساؤل لماذا لم يتناول الكتاب المبحث السياسي بشكل مباشر، ولعل الأمر واضح إذ كان يتحاشا رقابة الدولة مما جعله ينحو تجاه الرمز وتعويم الخطاب مستحضرا فكره الصوفي في التزكية وإسقاطه على العمل السياسي.

وقد نرصد بعض الرؤى السياسية في كتاب "التدبيرات الإلهيةفي إصلاح المملكة الإنسانية" على النحو التالي:

- العدل: من المتوارث المعروف في الفكر الديني أن العدل أساس الملك، وذهب ابن خلدون في "المقدمة" أن غياب العدل سبب تراجع الدولة واضمحلالها. في هذا الباب استعرض ابن عربي " العدل" كقيمة له دوره في استقامة الحكم وبناء الدولة والحفاظ عليها، يقول مخاطبا الحاكم «ينبغي لك إن أردت بقاء مملكتك والظفر بأعدائك، أن يكون متولي أحكام رعيتك ومنفذ قضاياك العدل، فإنه أبقاه الله عليك ما ولي مدينة قط ولا مملكة إلا ظهرت فيها البركة ونمت الأرزاق وعمت الخيرات جميعها»[10]، كما أن نقيضه مؤداه خراب الملك وذهابه، يقول: «وإن الملك جسد روحه العدل، ومتى لم يكن العدل خرب الملك»[11]. واستحضر مقولة للحكماء تقول " عدل السلطان أنفع للرعية من خصب الزمان"[12].
- هندسة الدولة:

في تنظير ابن عربي لهرمية الدوله وهيكلتها تناولة مؤسسة الوزارة بعع المؤسسة الملكسة ، فَ «لا يستقيم أمر ملك في ملكه إلا بوزير يدبره ويكون واسطة بين المالك والمملوك»[13]، وقد حلل حجم المسؤولية المناطة به من زاوية لغوية ، جاء في الباب السابع المعنون ب "ذكر الوزير وصفاته وكيف يجب أن يكون": «فإن كان من الوزر الذي هو الثقل فإنه حامل أثقال المملكة وأعبائها؛ وإن كان الوزر الذي هو الملجأ، فإنه يلجأ إليه في جميع الأشياء، إذ هو لسان الخليفة والمنفذ عنه أوامره فلهذا صح عليه اسم الوزارة»[14]. وقد رصد له مجموعة من الصفات نذكر منها العدل- النصح مصاحبة الشريعة- الفراسة....

كما تحدث عن الكاتب في تفصيل قوله:«الكاتب وفق الله به الإمام، وسلك به من حيث لا خلف ولا أمام، موجود لطيف شريف»[15].

ويَجْمل بنا أن نحلل كلام ابن عربي ونظريته لهيكلة الدولة وفق نظام المؤسسات وليس بمنطق القبيلة أو العشيرة، فهو يراهن على مأسسة "النظام" بتصور عصري سابق زمانه، وحدد دور كل مؤسسة (الإمارة- الوزارة- الكتابة...) ومواصفاتها وحدود اشتغالها، ولا

يخفى أن مؤسسات الدولة هي التي يناط بها تنزيل الترسنة القانونية وتعمل على اقتراح أخرى لخلق مناخ تنموي يُوجه المصادر الاقتصادية إلى الفعل التنموي. بل إن الكثير من الأدبيات الإقتصادية تتفق على أن«مستوى التطور والنمو الاقتصادي بين البلدان لا يمكن رده بالضرورة إلى مدى وفرة الموارد الطبيعية والإمكانات المالية في جودة إدارة المؤسسات بأنواعها: المؤسسات الاقتصادية، المؤسسات السياسية، الإدارية والتعليمية والقضائية فهي تؤثر بصورة واضحة في الأداء الاقتصادي السائد في البلد»[16]. فالتفكير الصوفي ينطلق من كون الدولة لها دور في "تنظيم" مختلف المجالات ومنها الجانب الاقتصادي الذي لا يمكن تحقيقه إلا برسم هيكلة مؤسساتية لمكونات الدولة.

➢ نظام الجبايات

«والذي ينبغي لك أيها الإمام الكريم، إذ لا تتمكن أن تباشر الأمور بنفسك، أن تجعل الأمر متحدا فتنظر في أمير ثقة قوي الجأش ينظر في استخراج هذه الجبايات من أيدي الرعية عن طريق العدل والسياسة»[17]. وإذا كان الفكر الصوفي المغربي/الأندلسي أطر عملية استخلاص الضرائب بشروط وصفية تحفظ حق الدولة كما تحفظ حق الرعية فإننا نستحضر نموذجا للدراسات المعاصرة التي تكشف الجانب التنموي للضرائب، وفي الصدد أوردت جريدة " هدف واقتصاد" أن مجموعة من الدول التي لا تملك موارد نفطية أو غازية حققت تقدما اقتصاديا «لأن هذه الدول تتبع نظاما ضريبا جديدا يعتمد على الاستحقاق الضريبي طبقا للأرباح المحققة جراء الفارق بين التكلفة والإنتاج وسعر البيع»[18].

وابن عربي يتناول الجبايات بوعي مادي يدرك دور المداخيل والموارد المادية في تمويل ميزانية الدولة وصرفها في تغطية النفقات وتمويل مشاريع الدولة/المجتمع.

2) المستوى الاجتماعي

ننطلق في هذا المستوى من نص يكشف حجم الخدمات المجتمعية التي قدمتها الزوايا الصوفية للمجتمع: «وكان هذا الشيخ -ماء العينين- فاضلا كريما لا يوجد أحسن منه أخلاقا، وقد اجتمعت به... فرأيت منه ما يحيرني، لأني قَدَّرْتُ من معه في وادي اسمار من الساقية الحمراء بعشرة آلاف شخص بين أرملة ومزمن وصحيح البنية، وكل هؤلاء في أرغد عيشة، كاسيا من ذلك الشيخ، ويزوج الشخص ويدفع المهر من عنده ويجهز المرأة من عنده، مع حسن معاشرته لهم، لافرق عنده بين ولده والمحسوب عليه، ولا يمضي عليه يوم إلا وقد

بعث قافلة تأتيه بالميرة (الطعام)... ومتى بلغ الإنسان قريبا منه، يسمع دوي مريديه يذكرون الله، وينشدون الأدعية، ورأيته في تلك الأيام التي أقمت عنده لا تفوته صلاة الجماعة في أول الوقت»[19].

اتجهت بعض الحركات الإسلامية لخدمة المجتع بهدف الاستقطاب والتبشير بلون سياسي معين، في حين نفذت التيار الصوفي إلى المجتمع من خلال الخدمات المقدمة بدافعة عقدية تزكي النفوس وتهذب القلوب. وقد تعددت أنماط الدور الاجتماعي حسب موقع الزاويا ومقدورها المادي، وفي العموم اتخذ العمل الجمعوي لهذا التيار أنماطا نذكر منها: الخدمة التكافلية كإيواء الطلبة والاعتناء بالأيتام والأرامل. ونمط تنموي حيث لا يخفى على المتتبع للمجال الصوفي دوره في إنشاء مراكز طلب العلم والإنفاق عليها، نمط إصلاحي تمثل في تدخل الطرق الصوفية للإصلاح بين القبائل المتخاصمة أو التدخل لدى السلاطين لإخماد غضب تجاه فرد أو جماعة. وعموما، العمل التنموي الجمعوي للتصوف قابل للتبني والتطوير لبلورة نموذج تكافلي في المجتمع يساهم في تحقيق التنمية الروحية والمادية.

3) تنمية المجال البيئي

لا مجال للشك والريب في العلاقة الجدلية التي تجمع بين التنمية والبيئة، لأن البيئة مورد ومصدر من مشارب تحقيق التطور في كثير من جوانبه، وأي تقصير في التعامل مع الحقل البيئي لا محالة مؤداه الإخلال بمسار التنمية. وإن القلق الذي أظهره المنتظم الدولي في ستينات القرن العشرين ومطالبته الوقوف في وجه تداعيات التقدم الصناعي على البيئة كاشف لعلاقة الإنسان بمحيطه والتي تمتد إلى القديم الذي حفز الإنسان على وضع قوانين وأعراف قد نجد بعضها يُستند إليه الآن (مثلا: توزيع الماء- الري- جني المحصول...).

والتصوف بما هو ممارسة تزكوية إصلاحية، كان له تنظير خاص للنهوض بالوعي البيئي ومشكلاته، فجاء التعامل مع هذا المجال بمنهجين يكمل واحده الآخر. فمن جهة وضع قواعد مرجعية للتعامل مع المحيط، ومن زاوية أخرى واجه السلوكات والانحرافات لأن «التربية الصوفية إجمالا هدفها هو البحث الدائم للمسلم عن مقر آمن للاستقرار الروحي والنفسي، وبالطبع مادام يعيش في مجتمع آهل بالمخلوقات لابد أن يتعايش معها ويجتمع يستأنس، ويعرف حقوق وواجبات المحيطين به من كائنات حية وجامدة»[20].

وقد تعامل أهل التصوف مع المجال البيئي بمستويات مختلفة تعكس طبيعة التفكير المُسْتَقَى من المرجع الديني وأبرزها:

أ- **حسن الاستغلال**: إن النص القرآني بما هو مرجع معتمد عند الصوفية في المقام الأول، منه يستمدون قواعد الممارسة السلوكية، نجده (أي النص القرآني) يربي في أهل الطريقة التزام عدم الإسراف في كل المعاملات ومنها ملازمة التوسط في الاستهلاك بما في ذلك التوسط في استغلال ما يحتاج إليه في مقام العبادة، وهنا نستحضر كلاما للعلامة ابن عاشر الذي نظم متنه المشهور في العقيدة والعبادات والتصوف، إذ جعل تقليل استهلاك الماء من مندوبات الوضوء والغسل، يقول:

- ✓ **تقليل ماء** وتيامن الإنا والشفع والتثليث في مغسولنا
- ✓ تقديم أعضاء الوضوء، **قلة ما** بدء بأعلى ويمين خذهم

فإذا كان الاقصار على البُلغة في مقام العبادة مطلوب فإنه في غيرها أولى، وفي مقدمتها الحرص على احترام مكونات البيئة واستغلالها وفق ما نص عليه القرآن الذي منه يستمد المتصوفة تصوراتهم للكون.

ب- تجنب المفسدة البيئية

اجتهد شيوخ الصوفية لترسيخ تربية بيئية توجه الأتباع لاستكناه التعاليم الرقائقية في مجال المحافظة على البيئة والعناية بها «إيمانا منهم ويقينا انها ضرورة ضرورية ومتكاملة وتخدم الفرد والمجتمع وكل الكائنات الحية والجامدة الي سخرها الله من أجل تحقيق الاستخلاف من دون هلاك ولا استهلاك»[21].

إن الفكر الصوفي عموما والمغربي خصوصا يعتبر التعامل مع البيئة ضمن منظومة الخطاب الإلهي إلى العباد أمرا ونهيا، بل إن صوفية المغرب أَنْسَنُوا مكونات البيئة وأنزلوها منزلة العاقل الذي يخاطب ويتجاوب مع فحوى الخطاب، ورسموا في أحضانها جمال الصور وبديع التشخيص لأنها كانت دوما عندهم مصدر انسجام جمالي. وكان الوعي عميقا في رفع تحديات الجور ضد المحيط/المجال وضبط العلاقات التي تربط الفرد/المجتمع بالبيئة.

خلاصة واستنتاج

في آخر هذه الورقة يمكن رصد مجموعة من الخلاصات في شكل نقط تكثيفية نوردها كالآتي:

أولا يمكن تأكيد الفرضية التي انطلقنا منها وهي أن التفكير الصوفي المغربي تأسس على الانخراط في الحياة الاجتماعية وتحريض الاتباع لإعمار الأرض.

محاولات الفكر الصوفي المغربي لم تكن في حرصها الوقوف على الزهد والعبادة والتبتل، لكن ساهموا في بناء وحدة البلد وحافظوا على تماسكه من موقع النقد والنصح والإرشاد والإصلاح في جميع المجالاح (اجتماعية- سياسية- بيئية...).

وغرس متصوفة المغرب قيم المواطنة الداعم لإمكانات التنمية باستجلاء مكامن قوة الفرد والمجتمع والعمل على تنميتها.

إمكانية استدعاء التجربة الصوفي لمعالجة قضايا اقتصادية آنية وإيجاد حلول لها خاصة تلك التي ترتبط بشكل مباشر باليومي الإنساني المعيش.

لائحة المصادروالمراجع

- **القرآن الكريم**
- حقيقة التصوف وأهدافه عند الشيخ محمد بن عبد الكبير الكتاني الشهيد، للدكتور يوسف الكتاني، مجلة أنوار التصوف المغربية، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، العدد الأول.
- شفاء السائل وتهذيب المسائل، عبد الرحمان بن محمد بن خلدون، تحقيق : "محمد مطيع الحافظ، دار الفكر الطبعة1، دمشق 1996م.
- شفاء السائل وتهذيب المسائل، عبد الرحمان بن محمد بن خلدون ، تحقيق : "محمد مطيع الحافظ، دار الفكر الطبعة1، دمشق 1996م.
- الحركة الصوفية في دكالة-ملاحظات أولية-(مقال)، محمد نعايم، مجلة أمل: التاريخ. الثقافة. المجتمع، نشر وزارة الثقافة، مطابع الرباط نيت، العدد 42، سنة 2014م.
- الوسيط في تراجم أدباء شنقيط والكلام على تلك البلاد تحديدا أو تخطيطا وعاداتهم وأخلاقهم وما يتعلق بذلك" أحمد بن الأمين الشنقيطي، مطبعة المدني، مصر، الطبعة 4، سنة 1989.
- حول التصوف والمجتمع، لحسن السباعي الادريسي، ، منشورات الاشارة، دار أبي رقراق الرباط. الطبعة الأولى 2007م.

- علاقة الصوفي بالبيئة، خالد السقاط، التصوف وتفاعل البناء الانساني والحضاري، منشورات الملتقى العالمي للتصوف، مداغ-المغرب، تنسيق منير القادري، الطبعة 2015م، ج2.
- التصوف وتفاعل البناء الإنساني والحضاري، تنسيق مولاي منير القادري، منشورات الملتقى العالمي للتصوف، مداغ-المغرب، الطبعة الاولى 2014، ج2.
- التدبيرات الإلهية في إصلاح المملكة الإنسانية، ابن عربي الطائي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، 2002م.
- دور الضرائب في تنمية الاقتصاد الوطني، صحيفة "هدف واقتصاد" الإيرانية، عدد الأربعاء01 يناير 2014م،
- الوسيط في تراجم أدباء شنقيط والكلام على تلك البلاد تحديدا أو تخطيطا وعاداتهم وأخلاقهم وما يتعلق بذلك" أحمد بن الأمين الشنقيطي، مطبعة المدني، مصر، الطبعة 4، سنة 1989.
- al .sharq.com

الهوامش:

[1] - سورة فاطر، الآية 28.

[2] - ، حقيقة التصوف وأهدافه عند الشيخ محمد بن عبد الكبير الكتاني الشهيد، للدكتور يوسف الكتاني، مجلة أنوار التصوف المغربية، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، العدد الأول 2014، ص60.

[3] - شفاء السائل وتهذيب المسائل2014، ص60.

[3] - شفاء السائل وتهذيب ، عبد الرحمان بن محمد بن خلدون، تحقيق : "محمد مطيع الحافظ، دار الفكر الطبعة1، دمشق 1996م، ص44.

[4] - شفاء السائل وتهذيب المسائل، عبد الرحمان بن محمد بن خلدون ، تحقيق : "محمد مطيع الحافظ، دار الفكر الطبعة1، دمشق 1996م، ص48.

[5] - سورة العصر، الآية 3.2.1.

[6] - الحركة الصوفية في دكالة-ملاحظات أولية-(مقال)، محمد نعايم، مجلة أمل: التاريخ. الثقافة. المجتمع، نشر وزارة الثقافة، مطابع الرباط نيت، العدد 42، سنة 2014م، ص 38.

[7] - الوسيط في تراجم أدباء شنقيط والكلام على تلك البلاد تحديدا أو تخطيطا وعاداتهم وأخلاقهم وما يتعلق بذلك" أحمد بن الأمين الشنقيطي، مطبعة المدني، مصر، الطبعة 4، سنة 1989، ص 365 – 366.

[8] - حول التصوف والمجتمع، لحسن السباعي الادريسي، ، منشورات الاشارة، دار أبي رقراق الرباط. الطبعة الأولى 2007م،ص11.

[9] التدبيرات الإلهية في إصلاح المملكة الإنسانية، ابن عربي الطائي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، 2002م، ص 52.

[10] نفسه، ص 52.

[11] - نفسه، ص 52.

[12] - نفسه، ص 52.

[13] - نفسه، ص 55.

[14] - نفسه، ص 54.

[15] - نفسه، ص 70.

[16] - al .sharq.com

[17] - نفسه، ص 77.

[18] - دور الضرائب في تنمية الاقتصاد الوطني، صحيفة "هدف واقتصاد" الإيرانية، عدد الأربعاء01 يناير 2014م،

[19] - الوسيط في تراجم أدباء شنقيط والكلام على تلك البلاد تحديدا أو تخطيطا وعاداتهم وأخلاقهم وما يتعلق بذلك" أحمد بن الأمين الشنقيطي، مطبعة المدني، مصر، الطبعة 4، سنة 1989، ص 365 – 366.

- علاقة الصوفي بالبيئة، خالد السقاط، التصوف وتفاعل البناء الانساني والحضاري، منشورات الملتقى العالمي للتصوف، مداغ-المغرب، تنسيق منير القادري، الطبعة 2015م، ج2، ص 208.[20]

[21] - التصوف وتفاعل البناء الإنساني والحضاري، ج2، ص 206.

الكاتب: **نورالدين احميان**
باحث في سلك الدكتوراه، كلية الآداب سايس، جامعة سيدي محمد بن عبد الله – المغرب

البريد الالكتروني : ahmiane@gmail.com

عنوان المقال:
سلوان وقلعتها خلال بداية القرن 20م

تاريخ الارسال: 2020/04/17 **تاريخ القبول:** 2020/05/22 **تاريخ النشر:** 2020/06/30

سلوان وقلعتها خلال بداية القرن 20م

ملخص:

تمتعت قلعة سلوان خلال بداية القرن العشرين بأهمية بالغة، ويرجع سبب ذلك الى اندلاع تمرد بوحمارة الذي اتخذها عاصمة له بعد انتقاله الى القسم الشرقي من البلاد، وهو ما جعلها تبرز على ساحة الأحداث، إلى أن تمكنت مقاومة قبائل قلعية من السيطرة عليها بعد القضاء على الثائر بوحمارة. إلا أن خضوع المنطقة تحت الاستعمار الإسباني جعلها تعرف عدد من التطورات الأخرى بعد أن جعلها الجيش الإسباني مطارا لانطلاق طائرات قصف المقاومة الريفية بعد فرض الحماية الاسبانية على المنطقة.

الكلمات المفاتيح: القلعة، سلوان، المقاومة، ثورة، بوحمارة، المخزن العزيزي، قبائل قلعية.

Abstract

At the beginning of the twentieth century, the fortress of Silwan was of great importance. This was due to the outbreak of the rebellion in Buhmara, which took its capital after its transfer to the eastern part of the country, which made it stand out on the scene until it was able to resist Qalaia tribes to control it after the elimination of the revolution in Buhmara, However, the subjugation of the region under the Spanish colonialism made it known a number of other developments after the Spanish army made it an airport for the launch of aircraft bombing the rural resistance.

Keywords: Castle, Silwan, resistance, revolution, Buhmara, store, Qala'ia tribes.

مقدمة:

لعبت قلعة سلوان[1] أدوارا متعددة منذ تأسيسها من قبل المولى اسماعيل في سنة 1678،على الرغم من أنها غابت عن الأحداث خلال القرن 18م بل وحتى 19م، إلا أنها ستطفو على ساحة الأحداث الوطنية بل والدولية بشكل كبير خلال مطلع القرن 20م، وتصبح محط إزعاج للمخزن المغربي بسبب استغلالها من قبل القوى المعارضة له كالثائر بوحمارة ثم الإسبان من بعد ذلك، وتوظيفها من قبلهم في توسعاتهم بمنطقة الريف، فكان لها حضور قوي في ظل هذه الأحداث والتطورات التي عرفتها المنطقة.

أولا: سلوان خلال مرحلة تمرد بوحمارة.

خلال أواخر القرن التاسع عشر دخل المغرب ومعه منطقة الريف مرحلة جديدة تميزت بالصراعات والأزمات، وذلك راجع إلى تزايد الأطماع الأجنبية في المغرب، إضافة إلى تدهور أوضاعه الاقتصادية، فترتب عن ذلك ظهور اضطرابات عدة في مختلف ربوع البلاد، وبعد وفاة السلطان المولى الحسن الأول في سنة 1894م، وخلفه ابنه المولى عبد العزيز الذي لا يزال صغير السن، فإستغل هذا الأمر الجيلالي الزرهوني[2] وادعى انه الابن الأكبر للمولى الحسن الأول، وبأنه هو الأولى بالخلافة بدلا من أخوه عبد العزيز، وأشاع بأن أخاه انغمس في الملذات، وفتح باب المغرب للأجانب...[3]، وتمكن من اقناع عدد كبير من قبائل المغرب بهذه الأمور واستمالها إليه "**فصار يجول في تلك القبائل ومن بينها الحياينة، غياثة، التسول، البرانص، صنهاجة، اكونايا، بنو يزناسن، امطالسة، وغيرها ، إلى أن وصل إلى قبائل قلعية الواقعة على حدود مليلية التي تحت الاحتلال الإسباني**"[4]، واستقبلته هذه القبائل بحفاوة وقدموا له العديد من الهدايا والخيول تعبيرا عن دخولهم تحت سلطته، ثم اتخذ بعد ذلك قلعة سلوان عاصمة له دون أي مقاومة تذكر.

هكذا أصبحت العديد من قبائل الريف الشرقي والأوسط تحت نفوذ بوحمارة وخرجت عن نفوذ المولى عبد العزيز، ومن المنطقي أن تكون وراء ذلك عدة أسباب جعلت قبائل الريف تقبل على هذا الأمر، خاصة ما يتعلق بالحالة التي كانت تعيشها المنطقة اجتماعيا واقتصاديا، وقد وصف العربي اللوه حالة الريف بقوله" **الجهة الثانية الشمال المغربي، ويشمل القبائل التي تمتد على ساحل البحر الأبيض من كبدانة شرقا إلى طنجة والعرائش غربا، وقبائل الشمال عموما كانت في هذا العصر، تعاني من قسوة الأمراض الاجتماعية التي انبثقت**

بينها ما لا يخطر بالبال، بالتلصص والنهب والسرقة والاختطاف والتقاتل وغيرذلك من أنواع الشرورالجرائم، وهي التي كانت متفشية في الشمال"[5]، بلا شك أن هذه الأوضاع المتسمة بعدم الاستقرار والفقر وغياب الأمن،... إضافة إلى الشعار الذي رفعه بوحمارة في البداية، وهو القيام بالجهاد ضد التوغل الأجنبي في مختلف ربوع المغرب ومنها منطقة الريف[6]، هذه العوامل المختلفة مجتمعة دفعت هذه القبائل إلى التنصل من بيعة المولى عبد العزيز، والدخول تحت نفوذ الفتان بوحمارة. **"فقد وجد فيهم قابلية لسماع ما يدعوا اليه من القيام على المخزن ومبايعته"**[7]

لقيت حركة بوحمارة دعما من قبل القوى ذات الأطماع الإمبريالية في المغرب لإضعاف سلطة المخزن، كما استغلت هذا التمرد من اجل زيادة التسرب في البلاد والاستفادة منه تجاريا وماليا، من خلال ضمان بيع الأسلحة للجيش العزيزي حتى يتمكن من مواجهة هذا التمرد، إضافة إلى أن هذه الثورة ستجعل الدولة في حاجة أكثر إلى الموارد المالية لتمويل الجيش، مما سيفرض عليها التوجه إلى الاقتراض من الخارج. بالإضافة إلى هذا الأمر فقد **" ضمن الأوربيون بتكوين الزرهوني لسلطنته بالريف رقعة جديدة من التراب المغربي تسمح لهم بالتحرك في جميع اتجاهات المنطقة الريفية، لقد أصبح الريف في عهد الزرهوني قبلة للأجانب الذين حجوا إليه"**[8]. هكذا أصبح الأوربيون وخاصة الإسبان والفرنسيين يتحركون بكل حرية في منطقة الريف، واستغلت هاتين الدولتين الإمبرياليتين وجودهما العسكري وقامتا بإنشاء بعض المشاريع في المغرب مثل: السكك، الطرق، الموانئ، التلغراف،... خاصة وأن مقررات الجزيرة الخضراء كانت قد أطلقت يد فرنسا وإسبانيا في المغرب.

تمكن بوحمارة بعد استمالة عدد كبير من قبائل الريف أن يجعل المنطقة تعيش نوعا من الإستقرار مقارنة مع بعض المناطق الأخرى، إذ **"أصبحت الطريق إلى سلوان (عاصمة الزرهوني) هي الطريق الأمنة في كل المغرب"**[9]، ويمكننا أن نتصور إمكانية انتشار هذا الأمن في مختلف المناطق التي كانت خاضعة للعاصمة سلوان، ويعتقد بأن اتخاذه (بوحمارة) لسلوان عاصمة له يمثل بداية انهيار حركته، لعدم قدرته على القيام بالجهاد ضد الأوربيين(الإسبان والفرنسيين)[10]، وشعار الجهاد الذي كان قد رفعه يعتبر من بين أهم الأسباب التي جعلت قبائل الريف تلتف حوله.

اصطدم الجيش الحكومي بجيش الزرهوني في وجدة" **فقتل [جيش الروكي] من الف وخمسمائة جندي، وقطع من الرؤوس ما حمل على أربعين بغلة وأسير منه خمسمائة أسير. ثم إن أبا حمارة أرسل الأسرى والرؤوس مع ثلاثين فارسا من جيشه إلى عاصمته الشرقية : سلوان لتعلق تلك الرؤوس في الجمرك الذي في حدود مليلة والمغرب**"[11]، هكذا أصبحت سلوان خلال هذه المرحلة قاعدة لجيوش الزرهوني، فمنها كانت تنطلق الجيوش في حملاتها، كما أنها إليها تعود أثناء حملاتها العسكرية، كما نستنتج أنها مثلت كذلك مخزنا لغنائم المعارك التي كان ينتصر فيها باستمرار على الجيش الحكومي الضعيف والمتفكك والمفتقد للكفاءة العسكرية. وقد كان لجيش الروكي نفس اسلوب الجيش المركزي (العزيزي) ونفس التراتبية للمحلات العسكرية التي تشكلت في بداية الامر من 1500 جندي من المشاة، و1200 من الفرسان مجهزين بـ 45 قطعة من المدفعية[12]

تمكن الجيش الحكومي بعد عدة معارك من تجاوز نهر ملوية في اتجاه الريف وبالضبط في اتجاه سلوان، واستطاع التغلب على جيش بوحمارة، مما جعل هذا الأخير يطلق نداء الإستغاثة من القبائل التي كانت تحت طاعته[13]، فوفدت عليه بسلوان أعداد كبيرة بلغت ثلاثين ألفا من الجنود[14]، فغدت سلوان مركز قوات بوحمارة وقاعدة لانطلاقها.

من خلال تتبع ثورة بوحمارة في إطار صراعها مع المخزن الشرعي يمكننا أن نقسمها إلى ثلاث مراحل أساسية:

- المرحلة الأولى: تمتد ما بين 1902-1904 حقق خلالها بوحمارة انتصارات عدة.
- المرحلة الثانية: ما بين 1905-1908 مرحلة تميزت بتكبد بوحمارة للعديد من الهزائم فحاول فيها استعادة توازنه، واتخذ سلوان عاصمة له.
- المرحلة الثالثة: ما بين 1908-1909 تخلى فيها بوحمارة عن أهم دعائم ثورته وهي المتمثلة في فكرة الجهاد، والتعاون مع الأجانب خاصة الإسبان، مما جعل قبائل الريف تنقلب عليه.

بتخلي بوحمارة عن فكرة الجهاد التي كانت من أهم عوامل انضمام قبائل الريف إلى حركته، وتعاونه مع الإسبان من خلال بيعه حق استغلال حديد أكسان للإسبان مما جعل الريفيون ينقلبون عليه، خاصة بعد الإنهزام أمام قبيلة بني ورياغل في شتنبر 1908م. لكن

المثير أن رجال قبيلة بني ورياغل لم **"يعبروا نهر النكور، بعدما هزموا جيش أبي حمارة ولم يطاردوه خوفا من مكايد تحاك لهم في الخفاء، لذلك لم يشاركوا في الزحف على سلوان مقر أبي حمارة، مع من زحف من القبائل المذكورة مع الشريف"**[15]. ومن هذه القبائل التي التفت حول الشريف محمد أمزيان لمحاربة بوحمارة نجد: تمسمان بني توزين، تفرسيت، بني اولشيك، بني سعيد، امطالصة، بني سيدال، مزوجة، بني شيكار، بني بوغافر. ويمكننا ملاحظة أن بعض القبائل التي كانت في صف بوحمارة قد انقلبت عليه وانضمت إلى جيش الشريف امزيان، الذي وفدت عليه أيضا بعض القبائل الأخرى التي لم تكن خاضعة للفتان. وفي الجهة المقابلة نجد بعض القبائل الأخرى التي كانت خاضعة لبوحمارة قد ظلت معه مثل قائد بني بويفرور ومعه فرقة من قبيلته ظلت تحارب بجانب هذا الأخير، وكانت قلعة سلوان تقع ضمن المجال الترابي لهذه لقبيله.

كانت العادة أن يتم جمع القبائل بواسطة إشعال النار ليلا فوق قمم الجبال، فإذا رأت القبيلة نارا فوق قمم الجبال في القبيلة المجاورة تعلم آنذاك بوجود خطر يهددها، وأنها تستصرخها لتقديم الدعم والمساندة ضد هذا الخطر[16].

بعد اكتمال اجتماع رجال الريف والتفافهم حول الشريف محمد أمزيان، أصبحت سلوان مقصد هؤلاء الرجال، فبعد ما كانت فيما سبق مركز انطلاق الجيوش لمهاجمة قبائل الريف والجيش الحكومي، أصبحت الآن مقصد الجيوش أهل الريف اللذين **" أحاطوا بقلعة سلوان غربا وشمالا وجنوبا، وكانت الحروب تدور رحاها بين نواحي تنيمرت[تاويمة حاليا]إلى بوسخان، تخرج غالبا فرق من فرسان أبي حمارة فتتلقاها فرق من أهل الريف فتشتد الحرب بين الفريقين"**[17]، أحيطت القلعة من هذه الجوانب ثلاث إضافة إلى أن الجانب الشرقي يحط به نهر سلوان مما سيجعلها تعيش نوعا من الحصار. وغير بعيد عن القلعة على بعد نحو ثلاث كيلومترات يوجد جبل بوغنجاين، كان رجال الشريف أمزيان يسيطرون على الجبل **" فإذا كان بيدهم سلاح جيد تصل قذائفه إلى قلعة سلوان وأخبية الجيش المحيطة بها فيلحقون بجيش أبي حمارة خسائر فادحة في الأرواح والدواب ... ومن كان فوق ذلك الجبل يكون مسيطرا على قلعة سلوان إن كان بيده سلاح تصل قذائفه إليها"**[18]. هكذا تمكن رجال الريف من حصار جيش أبي حمارة وشل حركته حتى داخلوا القلعة بواسطة القذائف التي كانوا يرسلونها انطلاقا من قمة الجبل المذكور.

بسبب هذا الحصار تمكن رجال الريف من هزم جيش بو حمارة الذي كان يقوده العبد الجيلالي، وبسبب توالي هزائمه **" لم يرى بوحمارة بدا من مغادرة قصبة سلوان، لما ضايقه رجال تلك القبائل وشدوا عليه الخناق والحصار من جميع الجهات، حذرا واحتياطا من أن تنتشر الثورة عليه إلى القبائل التي تقع بين قصبة سلوان وتازة، والتي كانت لا تزال خاضعة له، حتى لا تسطو عليه تلك القبائل فتفتك به وتدوسه بالأقدام"**[19].بعدما استمرت سلوان عاصمة له ومركزا لقيادته انتهت هذه المرحلة في أواخر 1908 بعد مغادرتها، فتوجها نحو تازة إثر فقدانه الأمل في إعادة السيطرة على قبائل الريف مرة ثانية.

بعد خروج بوحمارة من سلوان وتمكن المحاصرون منها ترددوا أول الأمر في الدخول إليها خوفا من أن يكون قد حاك لهم مكيدة(فخا) أو وضع ألغاما داخلها. لكن فيما بعد دخلوا إليها وقاموا بتخريب بعض منشأتها، خاصة بناية كان قد بناها داخل القلعة وسماها مولاي إدريس[20]، لذا يرجح أن يكونوا قد غيروا بعضا من معالمها نتيجة هذا التخريب.

إذا كان الدارس لقلعة سلوان خلال مرحلة الجيلالي الزرهوني يركز على ما هو عسكري باعتبارها مركزا لجيوشه، فإننا لا يمكن أن نهمل باقي الأدوار الأخرى التي اضطلعت بها، خاصة ما ارتبط بالجانب الاقتصادي والمالي. فمن اجل ضمان تموين الجيش في معاركه سواء ضد الجيش الحكومي أو ضد القبائل فرض **"المكوس على الأسواق"**[21]، وبدون شك أن سلوان(العاصمة) كانت مركز جمع هذه الضرائب من مختلف مناطق "سلطنته"، ولتسهيل عملية جمع الضرائب والمعاملات النقدية فكر في إحداث بنك وعملة خاصة به، وقد منح حق إنشاء هذا البنك للأجانب (حصل على حق إنشاء البنك الفرنسي الفريد ماصيني)، وأن يقوم بإنشاء هذا البنك ودار السكة بالجوار من ديوانة مزوجة[22].

منذ 1905 سيبرز لنا دور جديد قامت به قلعة سلوان وهو استقبال الزرهوني للفرنسين بها في إطار التهيئ لإنشاء الوكالة المحمدية بمنطقة الريستينكا[23]، وقد أنشئت هذه الوكالة في البداية **" باعتبارها مؤسسة تجارية بحته، والتي تحولت إلى مركز للذخائر لقوات الزرهوني، لعبت نتيجة لذلك دورا اقتصاديا بالغ الأهمية لفائدة سلطنة الزرهوني. كما أصبحت بمثابة العاصمة الاقتصادية له"**[24]، هكذا شكلت هذه العاصمة الاقتصادية نقطة لإنفتاح سلطنة الروكي على الخارج خاصة في ما يتعلق بمسألة التهريب، كما أننا نتصور بأنها كانت في اتصال مستمر مع العاصمة السياسية (سلوان)، التي كانت تصدر منها الأوامر

والقرارات. إلا أن أهداف بوحمارة لن تستمر في التحقق بفعل تدمير هذه الوكالة من قبل الجيش العزيزي الذي أرسل الباخرة المسماة "التركي"، وتمكن مدفعيتها من تدمير الوكالة بشكل نهائي في 28 شتنبر 1909م، لكن بعد ذلك ستسيطر إسبانيا على المنطقة وتجعل منها معسكر لقواتها.

ثانيا: سلوان خلال مرحلة مقاومة الشريف محمد أمزيان

تمكن رجال قبائل الريف من استعادة سلوان بعد توحيد صفوفهم بقيادة الشريف محمد أمزيان ورفيقه في الكفاح عمر المطالسي، من يد الفتان بوحمارة في سنة 1908، إلا أن فرحتهم لم تدوم طويلا بعدما بدأت إسبانيا هي الأخرى تستهدف السيطرة على بعض مناطق الريف، فوجهت أنظارها نحو تراب قبيلة قلعية ومعها منطقة سلوان، وفي هذه الأثناء كانت قصبة هذه الأخيرة تلعب دور جد مهم، حيث استغلت من قبل حركة المقاومة كمركز لتنظيم المقاومة ضد المشروع الاستعماري الرامي إلى التقدم في اتجاه قلعية، انطلاقا من معسكر الريستينكا ورأس الماء بسبب عجز الإسبان عن تجاوز أراضي مزوجة[25] لقوة المقاومة، مما جعل إسبانيا تتبع من أجل الوصول إلى مبتغاها **"خطا حربيا دائري مجزأ إلى معقوفتين: يبدأ الجزأ الأول من المخطط باجتماع قوات مركز الريستينكا فكبدانة وأولاد ستوت، بالجنوب والجنوب الشرقي، رأسه متجه نحو قصبة سلوان من جهة الجنوب الشرقي، مرورا بقرية أربعاء أركمام"**[26].

تفطنت حركة المقاومة لهذا المشروع الاستعماري، مما جعلها تستعد بقصبة سلوان لدفاع عنها ودفع الخطر الإسباني الذي يهددها، ومن أجل ذلك حشدت بالقصبة" **فرقة من المشاة بلغ عددها 1500. ومن القصبة أشرفت على تنظيم مقاومة شمال قلعية من محرس عين برحال**[27] "[28]، وهكذا أصبحت القلعة مركزا لتنظيم المقاومة في منطقة كبدانة، ومراقبة زحف قوات الاحتلال الإسباني في اتجاه سلوان انطلاقا من معسكر الريستينكا مرورا بأربعاء أركمام.

رغم هذا التنظيم والخطة الإستباقية للمقاومة لوقف القوات الإسبانية، إلا أن هذه الأخيرة تمكنت من التقدم نحو سلوان، ويرجع اهتمام الإسبان بها إلى موقعها المتميز الذي يمثل حلقة وصل بين بني بويفرور من جهة وأولاد ستوت من جهة ثانية، وكذلك الشأن بين سبخة بوعرك وبني بويحي، إضافة إلى عامل حصانة قلعة سلوان ورغبة الإسبان في استغلالها، وهذا ما

جعلهم يولون اهتمام بالغ الأهمية لإحتلالها، وتمكنوا من السيطرة عليها فعلا في 27 شتنبر 1909. وتم احتلالها **"لأن الريفين لم يقدروا على طردهم منها رغم الحملات الجهادية التي قاموا بها تحت قيادة الشرف محمد أمزيان"**[29]. ومنذ هذا الوقت أصبحت سلوان خاضعة للإسبان، واتخذت قاعدة في توسعاتهم في اتجاه باقي المناطق الأخرى، مثل ثنيمرت (تاويمة حاليا) وبني بويفرور... وخاصة جبل أكسان الذي كان الهدف الأهم لقوات الإحتلال.

كنا قد تحدثنا سابقا عن أهمية تل بويغنجاين المجاور للقلعة، وأن المتحكم فيه سيجعل القلعة تحت سيطرته، كما كان الشأن عندما حاصرت القبائل بوحمارة بسلوان في أواخر 1908م، فتفطنت القوات الإسبانية لهذا الأمر لذلك **"تسابق الغزاة إلى السيطرة على تل بويغنجاين"**[30]، حتى لا يستغله المجاهدون في قصف القلعة خاصة وأنه لا يبعد سوى مسافة ثلاث كيلومترات، فكانت القذائف التي ترسل منه تصل إلى غاية القلعة.

عملت حركة المقاومة في الفترة ما بين 1910-1912 على استعادة السيطرة على المناطق المحيطة بسلوان، سواء في اتجاه الناظور أو في اتجاه أزغنغان، وفي الطرف الثاني وجهت إسبانيا أنظارها اتجاه قبيلة بني بويحي، وفي 17 يناير 1912 انطلق الجيش الإسباني المكون من 20819 جندي، من سوق خميس بني بويفرور وقصبة سلوان وتمكنت من السيطرة على كدية عروات[31]، التي كانت إلى غاية هذا اليوم تحت سيطرة قبيلة بني بويحي.

ثالثا: سلوان خلال ثورة الريف الثانية

بعد استشهاد الشريف محمد أمزيان تمكنت إسبانيا من فرض سيطرتها على مناطق جديدة من الريف، ومن أجل تسهيل سيطرتها على مناطق الريف، ستقوم بإنشاء مطار بمحاذة القصبة **" احتضن بدءا من منتصف شهر ماي 1914 طائرات من طراز نيوبور ف.اي. ام (nieuport V.I.M) والتي حولت من مطار تطوان"**[32]، وأصبحت سلوان خلال هذه المرحلة قاعدة خلفية للجيوش الإسبانية، وكان دورها الأساسي بعد إنشاء المطار يكمن في قصف مواقع المجاهدون بإستعمال الطائرات انطلاقا من مطارها لإضعاف قبائل الريف، وكذلك حتى لا تخسر اعدادا كبيرة من جنودها في المواجهات المباشرة مع الريفين. فعلى سبيل المثال تم "**يوم السبت الثالث والعشرين [يوليوز 1921] وفي عملية جمعت كل الطائرات الموجودة بادر فرناند يثموليرو**[33] **بقصف ابن طيب"**[34]، هكذا حاولت إسبانيا إضعاف أبناء الريف.

ولحماية المطار من أي هجوم محتمل "**خصصت إسبانيا ثلاث نواب و ثلاثة وأربعون جنديا انضاف اليهم ثلاثون فارسا من فرقة الكانطرا علاوة على ثلاث من الضباط وهم: الملازم مارتينيث بيبانكوس Martinez vivancos، الملازم الثاني ماروطو Maroto ، ومارتينيث كانياداسMartinez cañadas** "[35]. وبالفعل فقد تعرض المطار عشية يوم قصب بن طيب لهجوم من قبل الريفين للحد من القصف الجوي الذي تتعرض له مواقعهم، كما أنهم تقدموا في اتجاه الناظور ومليلية واستعادوا السيطرة على كوروكو (في 26 يوليوز) و فرضوا سيطرتهم على الناظور مرة ثانية، ثم على مطار سلوان بعد ذلك في 2 غشت مستغلين نقص الزاد والماء لدى الجنود الإسبان، وتمكنت المقاومة من وضع يدها على ما كان بالمطار، وخاصة الطائرات الخمس الموجودة به، أما القصبة فقد سيطروا عليها في اليوم الموالي - الثالث من غشت - بعد أن فقد الإسبان أكثر من 100 جندي.[36]

أدت هذه الهزائم المتتالية للإسبان إلى موجة من التمردات في صفوف الشرطة الأهلية والمتعاونين مع الإسبان، وتحولوا إلى المشاركة مع المجاهدون في الدفاع عن وطنهم، بعد أن ولدت لديهم هذه الانتصارات الريفية نوع من الحماس في نفوسهم وقوت لديهم شعور الدفاع عن وطنهم ودينهم، وكان هؤلاء "**الفارين من صفوف الجندية المنتمين للقوات النظامية المنحدرين من الجهة الشرقية كانوا كثرا، لكن هروبهم هذا لم يكن من أجل العودة إلى دواويرهم، بل بهدف الإنضمام إلى الحركة التي تحارب الإسبان**"[37]، والمقصود هنا بالحركة هو حركة المقاومة.

لم تكن سلوان في منأى عن هذه الأحداث التي ما فتئت تتزايد سواء في صفوف الشرطة الأهلية أو في الجنود النظامين، فمن" **بين سرايا الجنود النظامين المتمركزين في سلوان، تمردت السرية الثالثة يوم 24 يوليوز[1921]وفر منها حوالي مائة رجل بالخيول والسلاح**"[38]، وبهذا التمرد ستساهم سلوان في تقوية حركة المقاومة بالرجال وكذلك بالسلاح و الخيول، فأصبحت إسبانيا تحارب "برجالها" وأسلحتها، ولم يكن هذا التمرد مقتصر على سلك الجندية فقط، بل انتقل حتى إلى صفوف رجال التربية والتعليم، حيث تمرد "**فقيهين أحدهما ملحق بالمدرسة الأهلية بسلوان**"[39].

وفي الجهة المقابلة أثارت هذه الهزائم سخطا كبيرا جدا لدى الإسبان، مما جعلهم يعيدون تنظيم صفوفهم بسرعة ويعملون على استعادة الأراضي والمواقع التي فقدوها، فتم استعادة

الناظور في 17 شتنبر ، ثم تنيمرت في 23 من نفس الشهر، وكوروكو في 10 أكتوبر، ثم بعد ذلك سلوان في 1923. وبسبب استعادة الإسبان "**السيطرة على سلوان عمت الفرحة بشكل كبير كل أرجاء إسبانيا. ولم تكن مليلية في منأى عن هذه البهجة التي عمت البلاد**"[40]، وفرحة الإسبان باستعادة سلوان دليل أخر على مدى أهميتها مقارنة مع باقي المواقع الأخرى بالنسبة للإسبان ومشروعهم الاستعماري في شمال المغرب.

وبالعودة إلى الطائرات التي استحوذ عليها الريفيون بمطار سلوان، والتي كان عددها أربع طائرات في حالة جيدة وطائرة واحدة لم تكن جاهزة للاستعمال، فقد قام الريفيون بإحراقها بسبب بقاءها بدون طيارين[41]، وأحرقوها حتى يحرموا الإسبان من إعادة استعمالها مرة أخرى ضدهم، ولا نعلم إن كانوا قد الحقوا أي ضرر بالمطار.

بدءا من 1923 ستلجأ إسبانيا إلى أسلوب جديد في مواجهتها للريفين بسبب عجزها عن تحقيق انتصارات مهمة أمامهم، ويتمثل هذا الأسلوب في اللجوء إلى استعمال الغازات السامة لتعويض هذا العجز ولإيقاف الريفين، وكذلك لإخراج الجنود الإسبان من حالة اليأس التي أصابتهم بعد الانهزام في العديد من الواقع: جبل العروي، الكبداني، الناظور، أنوال، سلوان،... على الرغم من أن الاتفاقيات والمواثيق الدولية تحرم استعمال هذه الغازات (مثل اتفاقية لاهاي الموقعة ما بين 1899-1907، ومعاهدة فرساي 1919 والتي وقعت عليها إسبانيا)، فمباشرة بعد الهزائم التي تلقاها الجيش الإسباني في1921 بعد ملحمة أنوال، سيتم التفكير في استعمالها، إذ في "**يوم الثاني عشر من غشت [1921] جرى اتصال تلغرافي أخر بين كل من الوزير ايزا وبرنكر[المقيم العام]**"[42] واتفق الطرفان على استعمال الغازات السامة، وإن لم تستعمل في حينها بل إلى غاية 1923.

وخلال " **يوليوز 1926 كان المطار الوحيد المعتمد لتلك العمليات [القصف الجوي لمواقع المجاهدون]في منطقة سلوان**"[43]، فقد ساهمت سلوان بواسطة مطارها في قصف قبائل الريف خلال 1926، بل كان مطارها هو الوحيد المستعمل من الإسبان في ذلك الأمر بعد مطار مليلية.

رابعا: أهمية سلوان في المشروع الاستعماري الإسباني

احتلت سلوان مكانة جد مهمة في المشروع الاستعماري الإسباني بمنطقة الريف، نظرا لموقعها المتميز وسط كنفدرالية قلعية من ناحية ومن ناحية أخرى قبيلة بني بويحي وأولاد ستوت،

فبادرة الإدارة الاستعمارية إلى وضع بعض البنيات والتجهيزات الأساسية، بإنشاء محطة للقطار بسلوان بدءا من سنة 1911 ومثلت نقطة وصل بين الناظور وجبل العروي.

ومن أجل تدريس أبناء الموظفين الإسبان بالمراكز التي كان يستقر بها عدد مهم منهم إضافة إلى أبناء الأعيان، بادرة إسبانيا إلى توفير المؤسسات التعليمية بهذه المراكز" **فإلى حدود سنة 1916، أنشأت الحماية الإسبانية بالمغرب الخليفي مدارس إسبانية بأحد عشر منطقة مختلفة: العرائش وأصيلة وتطوان والقصر الكبير والحد بني شكار، وجبل العروي والناظور والمضيق وسلوان وواد مرتين وجامع الطلبة"**[44]، وإنشاء إسبانيا لمدرسة بسلوان دليل أخر على الأهمية التي احتلتها سلوان لديها، وكذا على حجم الإسبان القاطنين بها من موظفين وعمال ومتعاونين معهم.

وبدون شك فإن التوفر على هذه المنشآت سيؤدي إلى ظهور نواة مركز حضري بسلوان، الذي سيصبح من أهم المراكز في إقليم كرط خلال فترة ما بعد 1926، متفوقا في ذلك على مراكز أخرى مثل قرية أكمان، وزايوا، وجبل العروي، كما هو واضح من خلال الجدول التالي:

حجم الساكنة ببعض المراكز الحضرية خلال سنة 1940[45]

المركز الحضري	مجموع السكان	الإسبان	المغاربة المسلمون	المغاربة اليهود
الناظور	8826	5978	2367	457
ازغنغان	975	773	117	66
سلوان	557	398	156	3
زايوا	365	222	33	110
جبل العروي	501	319	148	26

يتضح لنا انطلاقا من هذا الجدول ارتفاع عدد سكان سلوان مقارنة مع باقي المراكز ، فلم يتفوق عليه سوى الناظور وأزغنغان، كما يتضح أيضا حجم الإسبان القاطنين بها، حيث بلغوا 398 من أصل 557 من مجموع السكان، أي أنهم مثلوا حوالي 71 %من مجموع ساكنة سلوان، وهو ما يفسر إقدام الإدارة الإسبانية على إنشاء مدرسة بهذا المركز.

خلاصة

كان لسلوان وقصبتها إسهام كبير في تاريخ الريف والمغرب بشكل عام منذ تأسيسها، ولعبت أدوارا متعددة اختلفت من مرحلة إلى أخرى حسب ظروف ومميزات كل مرحلة، لكن يبقى الدور العسكري هو البارز أكثر من باقي الأدوار الأخرى، خاصة في بداية القرن العشرين حينما كانت تمثل عاصمة الثائر الجيلالي الزرهوني، وستسمر هذه الأهمية بعد ذلك في فترة مقاومة الشريف محمد أمزيان وأيضا خلال مرحلة الحماية الإسبانية، لذلك منحت إسبانيا أهمية بالغة لسلوان في سياستها التوسعية، لموقعها الجغرافي وكذلك لاستغلال قلعتها الحصينة، إلا أن هذه القلعة والمنطقة ككل ستتأثر بهذه الأحداث، كما أثرت هي الأخرى في مجرياتها، وهو ما سيترتب عنه بداية تشكل نواة حضرية مع نهاية فترة الحماية الإسبانية.

1- تبعد سلوان عن مدينة الناظور بحوالي 15 كيلومتر أسست من قبل المولى اسماعيل في سنة 1678م إلى جانب قلعة أخرى بعيون سيدي ملوك، من اجل مراقبة تحرك قبائل بني يزناسن الموالي للأتراك بالجزائر هؤلاء الذين كانت لهم أطماع في المغرب.

2- الزرهوني: هو الجيلالي الزرهوني ينتمي إلى قبائل كانت مستقرة بالقرب من مولاي إدريس زرهون، تنعته كتب التاريخ والرسائل السلطانية بعدد من الألقاب المشينة منها على سبيل المثال لا الحصر: بوحمارة، الروكي ،الفتان، الثائر، الدعي، الغاصب، المارق، ...

3 - عبد الرحمان ابن زيدان: إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس. ج 1، ط 1، الرباط، 1929 . ص 401.402

4- العربي اللوه: المنهال في كفاح أبطال الشمال، مطبعة ديسبريس، تطوان، 1982، ص 23

5- نفسه، ص 43

6 - إبراهيم كريدية: ثورة بوحمارة: 1902-1909، مطبعة S.I.E K، الدار البيضاء، ص 40

7 - أحمد سكيرج: الظل الوريف في محاربة الريف، تحقيق رشيد اليشوتي، منشورات المعهد الجامعي للبحث العلمي، الرباط، 2010، ص 91

8- Gabriel Morales : Datos para la historia de Melilla. Tip. El Telegrama del Rif. Melilla 1909, pp 388-389

أورده رشيد اليشوتي: إسبانيا والريف والشريف محمد أمزيان 1909-1912. منشورات المعهد الجامعي للبحث العلمي، الرباط،2011. ص 61

9- نفسه، ص 62

10- محمد الصغير الخلوفي: بوحمارة من الجهاد إلى التآمر: المغرب الشرقي والريف من 1900 إلى 1909م. دار المعرفة، الرباط، 1993. ص 35

11- العربي الورياشي: الكشف والبيان عن سيرة بطل الريف الأول سيدي محمد أمزيان. مطبعة المهدية، الطبعة الأولى، تطوان 1976. ص61

12 - إسبانيا والريف والشريف محمد أمزيان، م. س. ص 61

13- القبائل التي كانت تحت طاعة بوحمارة هي: تمسمان، بني توزين، تفرسيت، بنو اولشيك، بنو سعيد، امطالصة، بنو بويحي، أولاد ستوت، كبدانة، ثم اخماس قلعية: بنو سيدال، بنوبويفرور، بنو بوغافر، بنوشيكار، مزوجة.

14- الكشف والبيان، م. س. ص 66.

15- نفسه، ص 79

16- الكشف والبيان، م. س، ص 79.82

17- نفسه، ص 85

18- نفسه، ص 85-86

19-المنهال في كفاح أبطال الشمال، م. س . ص 37

20- الكشف والبيان، م. س، ص 89

21- إسبانيا والريف والشريف محمد أمزيان، م. س. ص 70

22- نفسه. ص 356

23- هي المنطقة المعروفة حاليا بالجزيرة والفاصلة بين بحيرة مارتشيكا والساحل المتوسطي.

24- إسبانيا والريف والشريف محمد أمزيان، م. س. ص 98

25- حسن الفكيكي: الشريف محمد أمزيان شهيد الوعي، شهيد الوعي الوطني (1908-1912).مطبعة ربا نيت، الرباط، 2008. ص 194

26- نفسه، ص 181-182

27- محرس عين برحال يقع جنوب قصبة سلوان على بعد 4 كيلومترات منها، وهو يوجد بالقرب من الموقع الحالي لكلية الناظور. الشريف محمد أمزيان، م. س. ص 194

28- الشريف محمد أمزيان، م. س. ص 193

29- بوحمارة من الجهاد إلى التآمر، م. س. ص 45

30- الشريف محمد أمزيان، م. س، ص 200

31- كدية عروات وكانت تعرف بالاسم المحلي "تاعرورت ن ينسي" واسم عروات محول من اللفظ الأمازيغي المفرد تاعرورت، واقتبسه الإسبان وحولوه إلى جبل العروي Monte Arruit. الشريف محمد أمزيان، م. س، ص 359

32- إسبانيا والريف والشريف محمد أمزيان، م. س، ص 342

33- فرناند يثموليرو: كان هو المهندس المسؤول عن الطائرات بمطار سلوان.

34- خوان باندو: التاريخ السري لحرب الريف (المغرب.. الحلم المزعج)، ترجمة سناء الشعيري. منشورات الزمن، مطبعة النجاح، الدارالبيضاء، الطبعة الأولى، 2008. ص 293

35- نفسه، ص 292

36- التاريخ السري لحرب الريف، م. س، ص 306

37- ماريا روسا ذي ماداریاكا: محمد بن عبد الكريم الخطابي والكفاح من اجل الاستقلال، ترجمة وتقديم: محمد أونيا، عبد المجيد عزوزي، عبد الحميد الرايس. منشورات تيفراز، مطبعة النجاح الجديدة، الطبعة الأولى 2012. ص 223

38- نفسه، ص223

39- نفسه، ص 222

40- التاريخ السري لحرب الريف، م. س. ص 378

41- نفسه. ص294

42- أرشيف مؤسسة انطونيو ماورا: المجموعة442/9، نقلا عن: التاريخ السري لحرب الريف، م. س، ص319

43- ماريا روسا دي ماداریاغا: مغاربة في خدمة فرانكو، ترجمة: كنزة الغالي. منشورات الزمن، مطبعة النجاح الجديدة، الدارالبيضاء،2006. ص 37

44- خالد بويقران: الاستعمار الإسباني بالمنطقة الخليفية: بين اليات التدخل ومخطط الهيمنة 1912- 1956. مطبعة الرباط نت،2015. ص 124

- Mimoun aziza : la sociedad rifeña frente al protectorado español de marruecos [1912-45 19156]; Edicion sbellaterra; barcelona; 2003. P207

الكاتب: د/عولمي الربيع
قسم التاريخ وعلم الآثار
جامعة باتنة-1-

عنوان المقال: الحضور العسكري الروماني بالأوراس (في ضوء النقائش اللاتينية والدراسات الحديثة)

rabieoulmi@yahoo.fr

تاريخ الإرسال: 2019/07/11 تاريخ القبول2019/11/06 تاريخ النشر: 2020/06/30

الحضور العسكري الروماني بالأوراس (في ضوء النقائش اللاتينية والدراسات الحديثة)

The Roman military presence in Aurès (In the light of Latin inscriptions and recent studies)

ملخص:

تعالج هذه الدراسة إشكالية التواجد العسكري الروماني في الأوراس منذ أن خضعت المنطقة لروما في السنة السادسة للميلاد (6م) علي يد كاسيوس كوسوس (Cassius Cossus)، الذي توغل في المنطقة بعد تحقيق انتصارات على قبائل الموزولامي (Musulami) الى أن بلغ تخوم الأوراس. هذه المنطقة التي ظلت مستعصية على الأجنبي عبر التاريخ، وعلى الرومان رغم أن الاحتلال كان مبكرا في السنة 6 م. إلا أن احتلال نوميديا لم يتم إلا بعد القضاء على ثورة تاكفاريناس سنة 24 م.

ومن الشواهد المادية على هذا التواجد العسكري الروماني عثور الجنرال "دي سانت آرنو" (général de Saint-Arnaud) خلال الفترة الاستعمارية على نقيشة في قلب الأوراس عرفت بـ "نقيشة تيغانيمين" والتي عرضها لأول مرة في سنة 1850م. وكان قد انطلق من خنشلة بعد أن جاب جبال النمامشة اجتاز جبل ششار ثم اتجه نحو الواد الأبيض الى أن بلغ خنقة سيدي ناجي ثم اتجه شمالا نحو واد الشرفة الى المدينة، ومنها الى الواد الأبيض الى بلغ خنقة تيغانيمين" أين اكتشف النقيشة المذكورة آنفا.

الكلمات المفتاحية: تيغانيمين، الأوراس، الفيلق الأغسطسي الثالث، فيلق فيراتا السادس، الجيش الروماني، شمال إفريقيا.

Summary :

The occupation of the Aures by Rome was achieved in 6 AD, thanks to the successes of Cassius Cossus. It has advanced to the limit of the Musulames country, i.e. to the foothills of the Aurès.

When we examine the civil or military works carried out by the Roman army in North Africa that Y has built. The Bohec1, we can see that the lion's share goes to the Third Augustus Legion. The only exception is the road works carried out in Tighanimin by a vexillation of the 6th Ferrata Legion, normally stationed in Syria. These works carried out by this legion are known thanks to a famous inscription engraved at the southern exit of the Tighanimine challenge, in the valley of the el-Abiod wadi. Since then, the inscription of Tighanimin has been considered as proof of the existence of a Roman road linking the Numidian Highlands to the Sahara through the Aurès, and among other things of the Roman military presence in the Aurès.

This inscription was first presented in 1850 by General de Saint-Arnaud, who left Khenchela, walked through the Nemenchas mountains, crossed the djebel Cherchar and descended the El-Abiod wadi to Khanga Sidi Nadji. He went up the Cheurfa wadi to Medina, then down the El-Abiod wadi and reached the Tighanimine gorges. It was also published by Th. Mommsen in the t. VIII of the Corpus InscriptionumLatinarums under number C.12230.

Keywords: The inscription of Tighanimin, Aurès, VIth Legion Ferrata, IIIrd Legion Augustus, the Roman army, North Africa.

مقدمـة.

حينما نفحص قائمة المراجع والوثائق المدنية والعسكرية التي خلفها الجيش الروماني في شمال إفريقيا، والتي جمعها الباحث يان لوبوهاك (*Yann le Bohec*)، نلاحظ أن حصة الأسد من هذه والوثائق تعود الى الفيلق الأغسطسي الثالث (*IIIe légion Auguste*)، ولا نستثني

منها إلا أعمال الطرق التي أنجزها فيلق فيراتا السادس (*VI*ème *légion Ferrata*) في تيغانيمين بالأوراس (خريطة 1: خريطة الأوراس)، هذا الفيلق الذي كان يعسكر في سوريا ثم انتقل إلى شمال إفريقيا.

ظروف اكتشاف النقيشة:

بلغتنا أخبار الفيلق وأعماله بفضل كتابة لاتينية تعرف بنقيشة تيغانيمين، نقشت عند مخرج خنقة تيغانيمين بالواد الأبيض. وقد اعتبرت نقيشة تيغانيمين دليل مادي على وجود طريق بالمنطقة كانت تربط الهضاب العليا النوميدية بالصحراء عن طريق الأوراس. إلا أن هذه (الفرضية) تطرح إشكالا. ترى ما هو؟

عرض النقيشة لأول مرة الجنرال سان-أرنو (*Saint-Arnaud*) [1] في سنة 1850م، وكان يقود حملة عسكرية على رأس رتل يتكون من 1200 رجل من الفيلق الأجنبي (*légion étrangère*)، وأثناء مرور الحملة بخنقة تيغانيمين (أنظر الصورة 4) تفاجأ الفيلق بالعثور على شواهد أبيغرافية خلفها فيلق فيراتا السادس منذ ما يزيد عن 1700 سنة مضت. وقد كشف الجنرال سانت أرنو عن فحوى هذه النقيشة في رسالة وجهها إلى أخيه في ذات السنة (1850)، وأوردها أميل ماسكوري في كتابه "جبل أوراس" (*De Aurasio Monte*). [2] وكان الفيلق الأجنبي قد عبر عن فخره واعتزازه بما أنجزه بعد عبوره المضيق، رغم توصيات قيادة الأركان في قسنطينة التي نصحت بسلوك طريق مغايرة أكثر طولا لكنها قد تكون أقل خطورة. [3]

نشر تيودور مومسن (*Th. Mommsen*) النقيشة في مدونة النقوش اللاتينية C.I.L. VIII (الجزء 8) مع نصب أميال إفريقيا تحت رقم: C. 12230. [4] (أنظر الصورة 1) إن ظروف اكتشاف النقيشة أكدها في نفس الفترة العقيد كاربوشيا (*Carbuccia*) وهو القائد الثاني للفيلق الأجنبي بعد الجنرال سانت أرنو، في رواية سرد فيها أحداث الحملة الفرنسية على الأوراس والنمامشة، ووصف كل الآثار التي صادفها الفيلق في مساره، وهو العسكري المولع بالتاريخ القديم. [5]

وقد تعزز هذا الوصف في "جريدة المسيرة"(*Journal de marche*) التي كان الفيلق الأجنبي يصدرها دوريا، ومما ورد فيها أن مفرزة من فيلق فيراتا السادس (*VI*ème *légion Ferrata*) تمكنت من فتح ممر في الصخر على الضفة اليمنى من خنقة تيغانيمين (الصورة 2). لكن ما يلفت الانتباه فعلا، أنه لم يتم العثور على أية آثار للطريق المزعوم. وهذا ما أكده صراحة أميل ماسكوري بعد ذلك بحوالي 20 سنة حينما أقام في منطقة الأوراس لإنجاز أطروحته حول

المنطقة [6]: "جبل أوراس" (*De Aurasio Monte*) وأشار أيضا إلى أن المسافرين أو عابري السبيل إنما يسلكون الوادي وهم بذلك يخاطرون بحياتهم في حال وجود سيول جارفة فجائية، أو اتخاذ مسلك آخر مع الالتفاف حول الوادي.

وذلك ما نصحت به قيادة الأركان الجنرال سانت أرنو في تلك الفترة. [7] وقصد تسهيل عبور المضيق تمت تهيئة درب ضيق بين سنتي 1912 و1920م من طرف مصلحة الأشغال العمومية، كما أقيم نفق على الضفة اليمنى للواد، ولذلك يعتقد البعض أن هذا النفق هو من إنجاز الرومان. [8]

وفي تعليقه على تدشين هذه الطريق سنة 1936م، أكد تينغري (*Tingry*) مهندس الأشغال العمومية بباتنة، أن الأمر لا يتعلق بطريق وإنما بدرب ضيق وممر روماني قديم. إذن ماذا حدث لهذه الطريق؟ ألم تكن موجودة أصلا؟ [9]

بعد أن تمكن موريزو ورفاقه من اجتياز المضيق راجلين في 22 ماي سنة 1989م، ساد الاعتقاد بأن مهندسو الفيلق السادس فيراتا وهم قادمون من الجنوب، أبت مفرزة منهم إلا أن تترك بصماتها بمنطقة الأوراس. [10] وأمام صعوبة المهمة اكتفت بإقامة ممر يمتد إلى المدخل الجنوبي لخنقة تيغانيمين، دون أن تذهب أبعد من ذلك. [11]

وقد ورد في الوصف الذي قدمه كاربوشيا و"جريدة المسيرة" (*Journal de marche*) إشارات إلى وجود نقيشتان عثر عليهما على حافة القنوات المحفورة في الصخر متوازية مع مجرى الوادي. إضافة إلى نقر التعشيق مصفوفة ومربعة الشكل ضلعها يقدر بحوالي 15 سم، والتي تحيط بنقيشة الفيلق السادس.

مضمون النقيشة:

وجدت النقيشة على الضفة اليمنى لخنقة تيغانيمين فوق قناة محفورة في الصخر، إلا أن مضمونها بقي مبهما. فقد قام العقيد كاربوشيا (*Carbuccia*) بنقل محتوى النقيشة وقدمه إلى جمعية الآثاريين القدماء (*Société des Antiquaires*) مع التعليق الآتي: « يبدو أن هذا عمل جنود الفيلق الذين كانوا يتسلون أوقات الراحة بالكتابة على الصخر بشكل سريع وغير متقن، في انتظار استئناف العمل.» وقد اعتمد العقيد كاربوشيا على 600 رجل كلفهم بالعمل على حفر ممر لاجتياز المضيق، وكانوا يشكلون بالنسبة له ملاحظين أقل كفاءة ربما، ولكن تحدوهم الرغبة والحماس في الاكتشاف ونيل رضا قائدهم. [12] يوجد نص النقيشة على

الضفة اليمنى للواد الأبيض مباشرة فوق ساقية محفورة في الصخر، على بعد حوالي 400 متر من النفق، وحوالي 15 متر عن طريق آريس-بسكرة. (الشكل 1)

تحليل النقيشة:

ومهما يكن من أمر، وبالنظر إلى (الصورتين 5 و6) يبدو أن النص الذي نقله كاربوشيا لم يكن مهما –كما كان يعتقد-إذ يمكن قراءته إذا ما أدخلنا عليه التحسينات الآتية:

-يليق أن نزيل في بداية كل سطر الخط العمودي الذي -في اعتقاد النقاش lapicide-يمثل القسم الأيمن من حقل كتابة (cartouche) يحد النقش.

-علامات الوقف مغايرة، حيث نجدها أحيانا مطابقة لترجمة ل. ريني (Léon Rénier) وأحيانا أخرى مطابقة لترجمة كاربوشيا (*Carbuccia*).

-ارتفاع الحروف يقدر بحوالي 7.5 سم.

-وجود كلمة (*PERFC*) في نص كاربوشيا، والتي تشير إلى نهاية النص، وتتطابق مع الفعل (*facere*) أو مرادف آخر.[13]

-في السطر الأول: الحرف المختصر (S) يشير إلى العبيد (Servus) وهو مصطلح شائع في النقوش، حيث يسخر العبيد في الأشغال الشاقة.

- في السطر الثاني: قراءة الكلمة (*CONDUC*) التي وردت في مدونة النقوش اللاتينية متبوعة بنقطة واضحة لا شك فيها، تشير إلى *Conduc(tor)* التي تعني "الأكارون" [14] وهو اختصار كلاسيكي في النقوش.

- في السطر الثالث: كلمة (*CIV*) اختصار مؤكد وثابت للمصطلح (*Civitas*).[15] (*Op*) وتشير إلى (*Opus*) التي تعني عمل أو إنجاز، متبوع بالأحرف (*PERFECIT*) مع أداة الوصل *F* و *E* والتعبير: *Opus Perfecit* كلاسيكي أيضا.

وبذلك تكون لدينا القراءة الآتية:

CAI . S . ET . Q . C . FL

FECERVNT. CONDUC(TOR)

C I V (ITATIS) OP(VS). PERFEC [IT]

Cai s (ervus) ou *s (ervi) et Q (uintus) C (ai) f (ilius) Fl(avius) / fecerunt conductor civ (itatis) op (us) perfec(it)*

الترجمة:

العبدان كايوس وكوينتوس أبناء كايوس فلافيوس، أنجزوا هذا العمل، وأكار (مستأجر) المدينة أتمه.

نلاحظ في السطر الأول الكلمة المختصرة FL والتي يمكن قراءتها *félix* أو *Fl(avius)* والمعنى العام واحد. أما كلمة *conductor* فمعناها العام: ملتزم أو مستأجر الضيعات. إلا أننا أمام حالة استثنائية، حيث يتصرف المستأجر لصالح مدينة معينة أو سلطة محلية وذلك بعقد صفقات أشغال عمومية.

إن قراءة النقيشة C.2446 (الصورتين 1-3) كلمة بكلمة إذا ما افترضنا وجود بعض أدوات الوصل وبعض المختصرات ذات الاستعمال المألوف، يعطينا نصا بسيطا ومفهوما وذو أهمية. ما يسمح بتصور وجود مدينة صغيرة في قلب الأوراس. وفي موضع آخر نجد أعضاء بالمجلس البلدي (*magistri*) ومجلس الأعيان (*séniores*) والكهنة (*flamines*)، حيث يمثل حضورهم مدى تكيف السكان في قلب الأوراس مع المؤسسات الرومانية. ويمكن أن نضيف أيضا وجود المستأجر (*conductor*) في منطقة غسيرة. [16]

لقد شكلت هذه المدينة-إضافة إلى إمكانياتها الفلاحية-وموقعها بين منطقتين مناخيتين، وبفضل الممر الذي فتحه فيلق فيراتا السادس (*VI^e légion Ferrata*) في الصخر، شكلت سوقا هامة أين يتم تبادل سلع ومنتجات التل والصحراء. [17]

لم يتمكن موريزو-رغم الابحاث المتواصلة-من العثور على النقيشة الثالثة التي أشار إليها كاربوشيا. وفي المقابل، وفي خضم هذه التحقيقات تم العثور على وثيقة حديثة، لكنها بالغة الأثر، نقشت على جدار المضيق في 1962م من طرف مفرزة من فيلق القناصة الرابع المكلف بحماية موقع تكوت (*Tkout*)، وتحمل شعار هذه الوحدة. (أنظر الشكل 3)

نقر التعشيق: (les mortaises)

أشار النقيب لافورغ (*Lafforgue*) قائد محطة تكوت، بعد خمسين سنة من أبحاث كاربوشيا في تقرير غير منشور، [18] ذكره س. غزال في أطلسه. [19] أشار هو أيضا إلى وجود مجموعتين من نقر التعشيق عند مخرجي المضيق الأيمن والأيسر. (أنظر الشكل 2) إلا أنه لم يتوصل إلى معرفة سبب استعمالها، وقال أيضا بأنها لا تؤدي إلا إلى أرض غير مزروعة. بينما يؤكد كاربوشيا وجود مجموعة من الحفر العميقة على الضفة اليمنى، وهي التي افترضت "جريدة

المسيرة" التي كان الفيلق الأجنبي يصدرها، بأنها استعملت لتنصب عليها الروافد (*Chevrons*) والحوامل "الدعامات" (*Supports*).

ويشير أ. ماسكوري في مذكرة حول « أولاد داود بجبال الأوراس » إلى حقيقة واقعة وهي "وجود طريق معلق بمحاذاة جدار الضفة اليمنى" ووجود نقر التعشيق يؤكد ذلك [20]. يبدو أن هذا النوع من الطرق –بعد دراسة القنوات المعلقة في سويسرا-غالبا ما استعمل كممر [21]. وفي دراسة نشرها موريزو في مجلة "الآثار السويسرية" (*Helvetia Archeologica*) يذكر أن نظام الدعامات هذا عن طريق نقر التعشيق والحوامل قد أنجز في سنة 100م في عهد الإمبراطور تراجان (*Trajan*) (98-117م)، ليسمح للفيالق الرومانية باجتياز "أبواب الحديد" (*Portes de fer*) في سهول نهر الدانوب وسط أوروبا. [22]

خاتمة: تخلص هذه الدراسة الى مجموعة من النتائج منها:

1-إن إنجاز النقيشة من طرف فيلق فيراتا السادس والذي تم استدعاؤه من سوريا دليل على عجز فرق الجيش الروماني النظامية القضاء على ثورات الأهالي في الجنوب النوميدي.

2-يبدو أن الأوضاع في الأوراس كانت غير مستقرة في تلك الفترة خاصة تلك الثورة التي اجتاحت موريطانيا سنة 144م مما اضطر الرومان الى استقدام الفرق المساعدة من سوريا واسبانيا.

3-إقامة الطريق في هذه المنطقة (الجنوب النوميدي-الأوراس) يهدف إلى سيطرة الرومان على المنافذ الرئيسية بين التل والصحراء.

4-ظلت منطقة الأوراس مستعصية على الأجنبي عبر التاريخ، وعلى الرومان رغم أن الاحتلال كان مبكرا في السنة 6 م من القائد كاسيوس كوسوس (Cassius Cossus) الذي تقدم في بلاد الموزولامي وبلغ تخوم الأوراس. إلا أن احتلال نوميديا لم يتم إلا بعد القضاء على ثورة تاكفاريناس سنة 24 م.

5-تواصل الثورات ضد الاحتلال الروماني بعد اغتيال بطليموس سنة 40 م والقضاء نهائيا على الكيانات السياسية النوميدية والمورية من أبرز هذه الثورات ثورة ايديمون 42-44م.

6-أن ذكر فيلق فيراتا السادس (*VI^e^ légion Ferrata*) في النقيشة يفسر وجود طريق على الضفة اليمنى من خنقة تيغانيمين، رغم غياب آثار طريق على مستوى الطريق الحالية. وتمديد هذه الطريق بممر معلق مدعم بألسنة مثبتة في نقر التعشيق بالضفة اليمنى، حيث من

المحتمل أن يكون جنود الفيلق هم الذين أنجزوا هذا العمل. فرضية أخرى نسوقها وهي أن نقر التعشيق يمكن ان تكون قد استعملت لتدعيم خط سير يقود إلى برج مراقبة وظيفته السهر على أمن المسافرين وخاصة الجند وهم يعبرون المضيق المحفوف بالمخاطر. نسوق هذه الفرضية ولكن بحذر شديد، مما يتطلب من الباحثين والآثاريين خاصة من ضرورة التأكد في عين المكان ما إذا كانت نقر التعشيق قد شكلت فعلا دعامة الممر المحتمل. ويبقى السؤال مطروحا هل ستثبت الأبحاث الأثرية ذلك مستقبلا؟

الهوامش:

[1] - سان-أرنو (آشيل لوروي)، (*Saint-Arnaud* (*Achille leroy de*، (1798-1854م)، جنرال فرنسي في عهد نابليون الثالث، شارك في الحملة على قسنطينة 1837م، واحتلال جيجل 1839م، وجرح في الهجوم على موزايا 1840م، واحتلال معسكر 1841م، عين قائدا عاما على مقاطعة قسنطينة 1850م. Bouillet (M.N.), *Dictionnaire Universel d'Histoire et de Géographie*, Paris, hachette, 1878, p.1662.

[2]- Saint-Arnaud, « Lettre à son frère du 7 juin 1850 », dans *Lettres du Maréchal de Saint-Arnaud*, cité par E. Masqueray, *De Aurasio monte*, trad. C. Guittard, *Aouras,* 4, 2007, p. 33.

[3]- Cne d'E.-M. Fournier, *Notice sur l'Aurès*, Constantine 8 janvier 1845, m.s. H.229, archives du SHAT, Vincennes.

[4]- C.I.L., VIII, 10230 ; I.L.S., 2479.

[5]- Carbuccia, (colonel), *Description des ruines situées sur la route suivie par le général de St-Arnaud dans les Nemenchas et dans l'Aurès*. Publié par J.-P. Faure, *Aouras* 2, 2004, p. 17-63.

[6]- Masqueray, (E), .*De Aurasio monte*, traduction C. Guittard, *Aouras* 4, 2007, p. 32.

[7]- Masqueray, (E.), .*Ibidem.*

[8]- هذا ما ذكرته نقيشة وضعتها مصلحة الأشغال العمومية في عين المكان في سنة 1910م حسب الدكتور ب. رحماني.

[9]- يذكر كل من سالاما وشوفالي أن مثل هذه الأشغال تترك آثارا، وأكدا على وجودها في شمال إفريقيا في مواضع عدة. Salama (P.), *Les voies romaines de l'Afrique du Nord*, Alger, 1951, p. 76 ; Chevallier, (R.), *Roman Roads*, Batsford, Londres, p. 105.

[10]- C.I.L., VIII, 2490. عثر جون باراديز على إهداء موجه إلى الإله هرقل (*Hercule*) بهنشير سلاوين وعلى آثار تدل على مخيم لفيلق فيراتا السادس، وهي فرضية تدعم الاعتقاد بأن مفرزة تيغانمين أتت من الجنوب.
Baradez (J.), *Fossatum Africae, Recherches Aériennes sur l'organisation des confins sahariens à l'époque Romaine,* Paris, Alger, 1949, p. 255.

[11]- Morizot P., « Le réseau de communication de la 3è Légion de Lambèse au Sahara à travers l'Aurès », *Actes du IV e Colloque sur l'histoire et l'archéologie de l'Afrique du Nord*, t. II, 113e *Congrès national des sociétés savantes*, Strasbourg, 1988, tome II, p. 409-426.

[12]- *Annuaire de la Société Nationale des Antiquaires de France*, 1851, p. 196.

[13]-على سبيل المقارنة أنظر إهداء قناة نقل المياه لعين الشعير. Leschi, (L.), *Études d'épigraphie*, p. 267.
حيث شكك ميشال جانون جزئيا في تفسيرها. Janon, (M.), « *Recherches à Lambèse* », II, *Antiquités Africaines*, 1973, p. 249.

[14]-هم مسيرو أعمال يستأجرون الضيعات الواسعة من الإمبراطورية لمدة معينة (5 سنوات في الغالب) ويستغلون جزء من الأرض استغلالا مباشرا ويسندون الباقي إلى مزارعين بالحصة *Coloni*. Kolendo - (J.), *« Sur la législation relative aux grands domaines de l'Afrique romaine »*, R.E.A., LXV, 1963, p.83.

[15]- يورد كانيا في كتابه هذه المصطلحات كما يلي: *CONDUC* بالنسبة لـ: *Conductor* ، و *CIV* و *Civit* بالنسبة لـ: (*Civitas*). CAGNAT (R.), *Cours d'Epigraphie Latine*, Paris, 1914.

[16]- Morizot (P), L'« incompréhensible » Inscription de Tighanimine, in : C. R. A. I., n. 4, 2008. p. 1624.

[17]- Morizot (P), *Ibidem.*,

[18]- Capitaine.Lafforgue, chef du poste (Tkout), *Travaux hydrauliques des Anciens*, 11/03/1898

[19]- Gsell, (S.), *Atlas Archéologique de l'Algérie*, f°38, n° 58.

[20]- Masqueray, (E), *Note concernant les Aoulad Daoud du mont Aurès*, Alger, 1879, p. 13.

[21]- Morizot (P), *Helvetia archeologica* 129, 2001, pp. 30-41.

[22]- Morizot (P), *Ibid.* et *CIL* III, 1699 =8267.

Bibliographie : بيبليوغرافيا

1. BARADEZ J., (1949), *Fossatum Africae*, « Recherches aériennes sur l'organisation des confins sahariens à l'époque romaine », Paris, Alger.
2. CAGNAT R., (1914), *Cours d'épigraphie latine*, Paris.
3. CARBUCCIA (colonel), (2004), *Description des ruines situées sur la route suivie par le général de St Arnaud dans les Nemenchas et dans l'Aurès*, publié in-extenso par J.-P. Faure, *Aouras*, 2, pp. 17-63.
4. CHEVALLIER R., *Roman Roads*, Batsford, Londres.
5. FOURNIER E.-M. (Capitaine), (1845), « Notice sur l'Aurès », *Recueil de Constantine*, 8 janvier 1845, m.s. H.229, archives du SHAT, Vincennes.
6. JANON M., (1973), « Recherches à Lambèse », II, *Antiquités Africaines*.
7. LAFFORGUE (capitaine), (1898), chef du poste de Tkout, *Travaux hydrauliques des Anciens*, 11 mars 1898.
8. LE BOHEC Y., (1989), *La troisième légion Auguste*, édition du CNRS, pp. 581-583.
9. LESCHI L., (1957), *Études d'épigraphie, d'archéologie et d'histoire africaine*, Paris,pp. 267-270
10. LEVEAU P., (2008), *Transferts de technologie hydraulique dans l'Afrique*, colloque hydraulique de Tunis, 31 mars 2008.
11. MASQUERAY E., (2007), *De Aurasio monte*, traduction C. Guittard, *Aouras* 4.
12. MASQUERAY E., (1879), *Note concernant les Aoulad-Daoud du mont Aurès*, Alger.
13. MORIZOT P., (2001), « À propos des bisses du Valais », *Helvetia archeologica* 129, pp. 30-41.
14. MORIZOT P., (1988), « Le réseau de communication de la IIIe Légion de Lambèse au Sahara à travers l'Aurès », *Actes du IV^e Colloque sur l'histoire et l'archéologie de l'Afrique du Nord*, t. II, *113^e Congrès national des sociétés savantes*, Strasbourg, tome II, pp. 409-426.
15. PEYRAS J., (1975), *Antiquités Africaines* 9, pp. 181-222 et *Antiquités Africaines* 19, 1983, pp. 234-238.
16. RINN L., (1898), *Revue Africaine*, XXXVII, n° 211, 4e trim, pp. 309-319.

17. ROSTOVTSTEFF M.I.,(1988), L'*Histoire économique et sociale de l'Empire romain* de, traduit de l'anglais par O. Demange, éditionsR. Laffont, Paris.
18. RUGGERIO E. de,*Dizionario epigrafi co di Antichità romane*, Rome.
19. SAINT ARNAUD (général), (1850),« Lettre à son frère du 7 juin 1850 », dans *Lettres du Maréchal de Saint Arnaud*, extrait cité par E. Masqueray, *De Aurasio monte*.
20. SALAMA P., (1951), *Les voies romaines de l'Afrique du Nord*, Alger.

الكاتب: د/فتيحة قشيش
جامعة خميس مليانة/ الجزائر

عنوان المقال: صدى ثورة التحرير الجزائرية في صحيفة " العمل " التونسية 1955 – 1962 .

kechichefatiha@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2020/01/17 **تاريخ القبول:**2020/04/26 **تاريخ النشر:** 2020/06/30

صدى ثورة التحرير الجزائرية في صحيفة " العمل " التونسية 1955 – 1962

The echo of the Algerian revolution in the Tunisian newspaper "Al-Amal" 1955-1962.

ملخص

تعتبر الثورة الجزائرية من أهم الثورات التي اعتمدت على الدعاية والإعلام في مواجهة الاستعمار، ومما لاشك فيه أن التحدّيات التي واجهتها هذه الثورة والانتصارات التي حققتها في صراعها ضد الاستعمار الفرنسي، جعلتها تفرض نفسها على مختلف الصحف العربية والدولية، ومنها صحيفة "**العمل**" التونسية لسان الحزب الحر الدستوري التونسي، التي أخذت هذه الثورة حصة الأسد في اهتماماتها، حيث يتجلى ذلك من خلال حرصها الكبير على نقل أحداثها، وتتَبع أنباءها ومستجدّاتها.

ومن هنا يمكن القول بأن صحيفة " العمل" التونسية تعتبر إحدى أهم الصحف العربية والمغاربية التي دعّمت الثورة الجزائرية، حيث لعبت دوراً متميزاً في تعبئة الرأي العام التونسي وتوجيهه نحو تأييدها والتضامن معها، كما أدت دورا بارزاً في إثارته ضد النظام الاستعماري الفرنسي وذلك باجتهادها في محاولة فضح جرائم هذا النظام ودحض مزاعمه وادعاءاته، التي عملت على تقزيم الثورة وحاولت التقليل من شأنها. ومن هذا المنطلق حاولنا معالجة هذه الدراسة التي تهدف إلى إبراز صدى أهم قضايا وأحداث الثورة التحريرية الجزائرية في جريدة العمل التونسية، وتوضيح الدور الذي لعبته هذه الصحيفة في استقطاب الرأي العام المحلي والدولي نحو نصرة القضية الجزائرية والتضامن معها، وكذا دورها في كشف ألاعيب الدعاية الاستعمارية الفرنسية والتصدي لمغالطاتها المضللة.

الكلمات المفتاحية : الثورة الجزائرية ، صحيفة العمل ، الدعاية والاعلام .

Abstract :

The Algerian revolution is considered one of the most important revolutions that relied on propaganda and media in the face of colonialism, and there is no doubt that the challenges faced by this revolution and the victories achieved in its struggle against French colonialism, made it impose itself on various Arab and international newspapers, including the Tunisian newspaper "Al-Amal" speaking in the name of The Tunisian Constitutional Free Party, which has been keen on reporting its events, and follows its news and developments.

Hence, it can be said that the Tunisian newspaper "Al-Amal" is considered one of the most important Arab and Maghreb newspapers that supported the Algerian revolution, as it played a distinguished role in mobilizing Tunisian public opinion and directing it towards its support and solidarity with it, and it also played a prominent role in provoking it against the French colonial regime by its diligence in trying to Exposing the crimes of this regime and refuting its allegations and allegations, which worked to dwarf the revolution and tried to belittle it. From this standpoint, we tried to address this study, which aims to highlight the echoes of the most important issues and events of the Algerian editorial revolution in the Tunisian newspaper Al-Amal, and to clarify the role that this newspaper played in attracting local and international public opinion towards championing the Algerian cause and its solidarity with it, as well as its role in exposing the games of French colonial propaganda. And address its misleading fallacies

key words : Algerian revolution, newspaper "Al-Amal ", propaganda and media.

مقدمة :

تعد الصحافة المكتوبة من أبرز الوسائل الإعلامية التي ساهمت في نجاح الحركات التحررية التي شهدها العالم العربي والإسلامي في الفترة المعاصرة، حيث شكلت وسيلة

أساسية في التعبير عن طبيعة هذه الحركات وتوضيح أهدافها، ومنبرا هاما في نشر الوعي الوطني والفكر التحرري بين الشعوب.

وفي هذا السياق تعتبر الثورة الجزائرية من أهم الثورات التي اعتمدت على الدعاية والإعلام في مواجهة الاستعمار، ومما لاشك فيه أن التحديات التي واجهتها هذه الثورة والانتصارات التي حققتها في صراعها ضد أقوى وأبشع استعمار عرفه التاريخ المعاصر ألا وهو الاستعمار الفرنسي، جعلتها تفرض نفسها على مختلف الصحف العربية والدولية، ومنها صحيفة "**العمل**" التونسية[1] التي أخذت الثورة التحريرية الجزائرية حصة الأسد في اهتماماتها ويتجلى ذلك من خلال حرصها الكبير على نقل أحداثها وتتَبع مستجداتها، التي لا نبالغ إذا قلنا بأنها كانت حاضرة في كل أعداد الجريدة، وفي صفحاتها الأولى خلال الفترة المدروسة.

وبهذا يمكن القول أن صحيفة ***"العمل"*** تعتبر إحدى أهم الصحف العربية والمغاربية، التي دعّمت الثورة الجزائرية وروّجت لها على المستويين العربي والعالمي. ف***ما هي أبرز قضايا وأحداث الثورة التحريرية الجزائرية التي استأثرت اهتمام هذه الجريدة؟ وكيف تفاعلت وتجاوبت معها؟ وإلى أي مدى ساهمت الجريدة في استقطاب الرأي العام المحلي والدولي نحو نصرة القضية الجزائرية والتضامن معها؟ ثم إلى مدى ساهمت في كشف ألاعيب الدعاية الاستعمارية الفرنسية؟ وكيف تصدت لمغالطاتها المضللة؟***

1 - مباركة صحيفة العمل التونسية لثورة أول نوفمبر1954 التحريرية :

تعتبر الفترة التي سبقت تفجير الثورة التحريرية فترة عصيبة جداً في تاريخ النضال الوطني في الجزائر حيث شهدت أزمة حادة مرّ بها الحزب الذي كان يعوّل عليه الجزائريون في استعادة حريتهم وسيادتهم وهو حزب حركة انتصار الحريات الديمقراطية، حيث كادت هذه الأزمة أن تعصف بوجوده، فصمّمت فئة من منضاليه الواعين بخطورة الوضع على ضرورة إعادة الوحدة إلى صفوفه، وذلك عن طريق التعجيل بتفجير الثورة التحريرية، وهذا ما لم تعرج عليه الجريدة، حيث تجنبت الحديث عن الأزمة التي كادت أن تعصف بهذا الحزب وذلك في مختلف مقالاتها التي خصصتها لتناول موضوع التحضير لتفجير الثورة، مكتفية بالإشارة إلى تأسيس اللجنة الثورية للوحدة والعمل في 23 مارس1954، التي أخذت على عاتقها مهمة تفجير هذه الثورة[2] ، وقد نشرت الجريدة بخصوص هذا الموضوع مقالا جاء تحت عنوان :" **ثلاثون انفجارا بدأت بها الثورة المظفرة** " تعرضت فيه إلى مختلف الأحداث

والتطورات التي عرفتها الجزائر عشية اندلاع الثورة، كما أشادت فيه بالدور البطولي الذي لعبه ثلة من الشباب الجزائري في الإعداد لها، مبدية إعجابها بمختلف الاجراءات السياسية والتنظيمات العسكرية التي اعتمدوها في إطار التحضير لتفجيرها، حيث قالت في هذا المضمار:«... وفي الجزائر تجسدت فكرة الثورة في وجه النظام الاستعماري في ثلة من الشباب، كانوا منضوين تحت لواء اللجنة الثورية للوحدة والعمل، وهم مصطفى بن بولعيد والعربي بن مهيدي ومراد ديدوش ورابح بيطاط وكريم بلقاسم وأحمد بن بلة وحسين آيت أحمد ومحمد بوضياف... وذات يوم وهو يوم 10 أكتوبر 1954 تسرب ستة شبان ممن حكمت عليهم فرنسا بالإعدام أو بالسجن، تسربوا تحت ستار الخفاء إلى بيت في قلب العاصمة الجزائرية حيث عقدوا اجتماعا لبحث برنامج تنفيذ خطة اندلاع الثورة، وفي ذلك البيت تقرّر القيام بالثورة المباركة في غرة نوفمبر1954، ووزعت الأعمال أهمها تفجير ثلاثين قنبلة في مختلف أنحاء الجزائر وفي وقت واحد...»[3]

كان رد فعل سلطات الاحتلال الفرنسي بالجزائر إزاء حدث تفجير هذه الثورة هو الارتباك الشديد ومحاولة التقليل من شأنها والتعتيم عليها، بحجة أنها من فعل ثلة من "الخارجين عن القانون" هذا من جهة، ومن جهة أخرى كان رد فعلها عنيفاً على المستويين السياسي والعسكري، حيث صرّح رئيس الجمهورية الفرنسية فرنسوا ميتران عقب هذه الحوادث قائلا: «... إن الجزائر هي فرنسا والحرب هي لغة الحوار الوحيدة...» وذلك في إعتراف ضمني منه على أنها بوادر ثورة أشعل الشعب الجزائري فتيلها من أجل استرجاع استقلاله و استعادة سيادته .[4]

وهو نفس الرأي الذي ذهبت إليه صحيفة العمل في تناولها لرد الفعل الفرنسي على أحداث ليلة الفاتح من نوفمبر1954، حيث أكدت - ساخرة من السلطات الاستعمارية الفرنسية - على أن الثورة التي نعتتها هذه الأخيرة بالأعمال الإرهابية، هي الآن سائرة كما خطط لها قادتها وفي الطريق المحدد لأهدافها، رغم القوة الهائلة التي جُندت للقضاء عليها فقالت: «... وفي يوم غرة نوفمبر1954 في الساعة صفر ذُعر الوالي العام على الجزائر والسلطة هناك، واستفاقوا من غيبوبة نومهم الهادئ على دوي الانفجارات، فلم يفقهوا أمرهم وبوغتوا بالحقيقة التي لطالما تجاهلوها، وبدأت خطة التعسف والقمع وخرافة الفلاقة... كان ذلك هو الصدى الأول الذي أحدثه اندلاع الثورة الجزائرية المظفرة في أوساط الحكام الفرنسيين بالجزائر، الذين حسبوها حوادث إرهابية فردية لا يلبثوا أن يقضوا

عليها... وسارت الثورة كما رسم لها قادتها، وكما أرادها شعب الجزائر المكافح، سارت في الخطوات المحددة لمراحلها تقطع كلا منها في الوقت المعيّن على الرغم من ضعف الوسائل وتعذرها أحيانا وعلى الرغم من القوة الهائلة التي حشدتها فرنسا لتنتهي بها... تلك هي الثورة التي ظننتها فرنسا أعمالا إرهابية...».[5]

أماعن رد فعل الشعب الجزائري إزاء الثورة ، فقد أكدت "العمل" على أن هذا الأخير ومنذ الوهلة الأولى لاندلاعها هبّ ملبياً لندائها، وذلك إدراكا منه أن الحلم الذي لطالما انتظره أصبح أمراً واقعا، فكتبت في هذا الشأن تقول: «... في غرة نوفمبر سنة1954 نادى صوت الوطن مجلجلاً فاستجاب الشعب الجزائري كالرجل الواحد لبيك النفس، والنفس رخيصة لديك...».[6]

وكما تمت الاشارة إلى ذلك سابقا، فإنه وبالرغم من أن حدث تفجير الثورة التحريرية جاء في فترة كانت فيها صحيفة " العمل" محتجبة عن الصدور، إلا أن ذلك لم يمنعها من الإعلان عن مواقفها الصريحة اتجاه هذا الحدث فور استئناف عملها، وذلك بعد مرور حوالي سنة كاملة على اندلاع الثورة، حيث جاءت مقالاتها مباركة للمشروع الثوري ومعلنة عن تأييدها الكامل له، ومساندتها المطلقة للثوار الجزائريين، الذين أظهروا من الارادة والعزيمة والتضحية والاستماتة النادرة -على حد قولها- ما جعل شعوب العالم تخلّد وتعظّم يومهم التاريخي وهو يوم الفاتح من نوفمبر1954، وتلتف حول مشروعهم وتؤمن بقضيتهم حيث نشرت الجريدة بهذا الخصوص مقالات كثيرة منها المقال الصادر بالعدد 22 والذي حمل عنوان "**بيان المكتب السياسي للحزب الدستوري التونسي**"، وذلك بعد عقد الحزب الناطقة باسمه لمؤتمر ناقش فيه تطورات القضية الجزائرية [7]، حيث تضمن هذا المقال تحية للشعب الجزائري مع الإعلان عن التأييد والدعم المطلقين له، كما نددت فيه بالقمع والاضطهاد الاستعماري المسلّط على الجزائريين، ودعت الحكومة التونسية إلى ضرورة توضيح موقفها من القضية الجزائرية لدى السلطات الفرنسية، مؤكدة على أنه لا استقرار ولا سلم في تونس طالما الشعب الجزائري غارق في محنته.[8]

وفي مقال آخر نشرته في عددها الصادر يوم 06 جويلية1956، تناولت الجريدة البيان الذي أصدره الحزب الدستوري التونسي بمناسبة ذكرى احتلال الجزائر من طرف فرنسا، حيث أعلنت فيه مرة أخرى عن تضامن الشعب التونسي المطلق مع القضية الجزائرية، وشهّرت فيه بالممارسات الاستعمارية المسلطة على الجزائريين، مشيرة إلى أن استمرار الحرب

الاستعمارية في الجزائر يعتبر تهديداً للسلم في شمال إفريقيا والعالم ومما جاء في هذا المقال: «... يندد الحزب الحر الدستوري التونسي بالحرب الاستعمارية القاسية ويشهر بالاعتداءات المتوالية على الأرواح والأرزاق والمدن والقرى الآمنة وما تجره من آلام وخراب... و يعرب عن تضامن الشعب التونسي الكامل مع الشعب الجزائري الشقيق في محنته ويلاحظ أن استمرار الحرب في الجزائر تهديد دائم لاستقلال شمال إفريقيا والعالم...»[9]

كما كتبت في افتتاحية عددها الصادر في 01 نوفمبر1961 بمناسبة إحياء ذكرى يوم اندلاع الثورة مقالاً، عبّرت فيه عن عظمة هذا اليوم ، وعظمة ما قام به الجزائريون فيه من تضحيات جسام، واصفة إياه بالمعجزة الكبرى، حيث عبرت عن ذلك بقولها: «... يوم أول نوفمبر الذي وقع فيه حدث عظيم، وعمل خطير ومعجزة كبرى ونصر أكبر، فأصبح خالداً على مر الأيام، حيث انطلقت فيه تلك الثورة العارمة التي خاضها شعب الجزائر البطل... لقد بدأت في هذا اليوم تلك الثورة المباركة، واستمرت وتواصلت وفي كل يوم يحتدم أوارها، وفي كل ساعة يصطلي الاستعمار بنارها، وفي كل آن تزداد التضحيات الجسام التي يبذلها الشعب الجزائري المكافح، والتي أتى فيها بالخوارق والمعجزات، حتى أصبحت البطولة فيه أمراً عادياً والتضحية أمرا يؤديه كل يوم، بل كل ساعة، وحتى أصبح التصميم والاستبسال والعزم الذي لا يلين صفاته الوحيدة...».[10]

وفي تحديد مواقفها من الثورة التحريرية الجزائرية، لم تقف الجريدة عند محاولة تعظيم ومباركة يوم الفاتح من نوفمبر1954 فحسب، بل حاولت تتبّع أهم المحطات التاريخية التي مرّت بها هذه الثورة، كما حرصت على الإشادة بإنجازاتها وانتصاراتها، ففي عددها الصادر بتاريخ 21 أوت1957 وإحياءا للذكرى الثانية لهجومات الشمال القسنطيني 20 أوت 1955[11] نشرت الجريدة مقالا تناولت فيه وقائع وأحداث هذه الهجومات محاولة كشف الستار عن الخسائر الفادحة التي ألحقها ثوار المنطقة بالمستعمر الفرنسي، كما أكدت فيه على أن هذه الهجومات أعطت نفساً جديداً للثورة التحريرية، وذلك بتحطيمها لأسطورة الجيش الفرنسي الذي لا يقهر، فكتبت بهذا الخصوص تقول: «... كانت السلطات الفرنسية قبل العشرين من أوت سنة خمس وخمسين تهزأ بالكفاح الجزائري، ولقد حاولت أن تهزم جيش التحرير، ولكن عند إخفاقها في ذلك نظمت هجمات ضد الشعب الجزائري المسالم الأعزل وابتداء من العشرين من أوت 1955 كان النساء والأطفال والرضع والشيوخ الموجودون بالمدن والقرى الجزائرية ضحية لرصاص الاستعمار، الذي خاب في مطاردة

المقاومين المعتصمين بالجبال والأرياف... ولهذا سجّل الشعب الجزائري المكافح يوم 20 أوت 1955 في مقدمة أيامه الخالدات، حيث ردّ فيه على الاعتداء بالاعتداء، وواجه التقتيل بالتقتيل والتخريب بالتخريب، ففي ذلك اليوم شن رجال التحرير الوطني هجوماً عاماً على عدة مدن في الشمال الشرقي من القطر الشقيق، فاحتلوا المطار العسكري بمدينة سكيكدة في الساعة الحادية عشر صباحاً، بعد معركة طاحنة خسر فيها العدو مائة جندي وعشرين من حافلات النقل وأحرقت عدة طائرات، وفي نفس اليوم سقطت في أيدي الفدائيين ثكنة الجندرمة بالخروب وعين عبيد و مليانة وقتل الوطنيون كل من فيها واستولوا على جميع الأسلحة التي كانت مخزنة بها...»[12]

تؤكد جل الدراسات التاريخية بأن هجومات20 أوت 1955 كانت نقطة تحول في مسار الثورة التحريرية الجزائرية، حيث أعطت دفعاً قوياً للعمل العسكري، وقضت نهائيا على كل ما كانت تروج له السلطات الفرنسية بجميع وسائلها العسكرية والدعائية من إشاعات مفادها أن الثورة ليست إلا تمرداً سيقضى عليه بعد أسابيع، كما برهنت على أن هذه الثورة ذات طابع جماهيري ووضعت حداً نهائيا لتردد البعض في الالتحاق بها.

ولم تقتصر النتائج التي أسفرت عنها الهجومات على الجانب العسكري فحسب ، بل أحدثت نتائج هامة على المستوى الخارجي، تمثلت في انتقال الثورة الجزائرية إلى المحافل الدولية حيث أصبحت تتصدّر الصفحات الأولى في جرائد العالم بعد هذه الهجومات وتلقت دعوة لحضور مؤتمر باندونغ[13] في سبتمبر1955 [14]، وهذا مالم تشر إليه الجريدة، حيث اكتفت بسرد وقائع ومجريات الأحداث مع توضيح نتائجها على الصعيد العسكري دون التعريج على أبعادها وانعكاساتها المختلفة.

واصلت الجريدة حديثها حول هذه الهجومات، منددّة برد الفعل الفرنسي عليها وواصفة إياه بالرد الهمجي والوحشي، حيث أكدت على أن القوات الفرنسية أقدمت فيه على ارتكاب مجازر انتقامية فضيعة في حق سكان قرى مداشر المنطقة، الذين لم يسلم حتى أطفالهم في تلك الفاجعة الأليمة، فقالت في هذا السياق: «... وكان رد الفعل الفرنسي شنيعاً للغاية لا لتعدد ضحاياه في جانب جيش التحرير، بل لتعدد القتلى من النساء والرضع والشيوخ، وقد وصف مبعوث صحيفة لوموند مشهد تلك الضحايا بأنه أفضع ما عرفه الملاحظون من مشاهد ميادين القتال بعد إنتهاء المعارك، فقد رأى بعيني رأسه جثث الأطفال والبنات الصغار مطروحة هنا وهناك على مساحة عريضة، وسمع أنين الشيوخ المحتضرين،

وما أكده الصحفي الفرنسي هو أن الجنود الفرنسيين لجأوا إلى إحدى المواقع الأثرية الرومانية وحفروا بها هوة عميقة ودفنوا فيها قرابة الألف شخص من الضحايا... »[15]

ثم حاولت الجريدة الوقوف عند محطة تاريخية أخرى لا تقل أهمية عن هجومات الشمال القسنطيني وهي مؤتمر الصومام20أوت1956[16] ، حيث رصدت لنا – وفي ذات المقال- قرارات وانعكاسات هذا المؤتمر،الذي اعتبرته أول محاولة لتقييم وتوحيد النظام الثوري من خلال مراجعة هياكله، وتنظيماته العسكرية والسياسية، ودراسة العراقيل والتحديات التي تمثلها السياسة الاستعمارية الفرنسية في مواجهتها للثورة، فقالت بهذا الشأن:«... وحال الحول وجاء يوم العشرين من أوت 1956، الذي أقيم فيه أخطر مؤتمر دعت إلى عقده جبهة التحرير الوطني الجزائري، وقد اتخذت أثناءه مقررات سياسية وعسكرية هامة، وتوحدت فيه القيادة، وأسندت إلى جيش وجبهة التحرير، وتفرعت عنهما منظمات عديدة خطيرة أنيطت بعهدتها مهام مختلفة، كالتموين بالعتاد والاتصالات الخارجية، وتنظيم سير المعارك والإشراف على مناطق التموين ورجال جمع الأموال، والإعلانات والمنظمات الصحية وغيرها من العناصر التي يعتمد عليها جيش عصري وافر العدة والعدد...» [17]

ومما ذكرته الجريدة حول المؤتمر نلاحظ بأنها تناولت هذا الموضوع بشكل مقتضب، حيث أشارت إلى أهم القرارات التي تمخضت عنه، دون التطرق إلى حاجة الثورة الماسة إليه أو الأسباب الداعية إلى انعقاده، وكذا مجرياته وفعالياته، لكن رغم ذلك يلاحظ على الجريدة اجتهادها الكبير في محاولة تعريف الرأي العام العربي والعالمي أنداك بأهمية بعض المحطات التاريخية الحاسمة في مسار الثورة التحريرية الجزائرية.

2 – استنكار العمل التونسية لأساليب القمع والتنكيل المسلطة على الجزائريين.

واكبت صحيفة العمل التونسية الأحداث التطورات التي شهدتها السياسة الاستعمارية الفرنسية إبان الثورة التحريرية الجزائرية بمختلف مظاهرها، حيث إتسمت مواقفها إزاء هذه الأحداث برفضها القاطع من جهة، والعمل على كشفها وفضحها أمام الرأي العام من جهة أخرى، فبالنسبة لسياسة العقاب الجماعي ومختلف أساليب الإرهاق والتعذيب التي كانت تمارس داخل مراكز الاعتقال والمحتشدات، فقد أدانتها الجريدة بشدة واجتهدت في التشهير بها، معتبرة إياها جرائم حرب ستبقى وصمة عار في تاريخ الجمهورية الفرنسية، التي طالما تغنت بمبادئ الحرية ورفعت شعارات الإخاء والمساواة، حيث تقول في

أحد المقالات التي تناولت فيها هذا الموضوع مايلي: «... ثم شرعت تباشر ضد هذا الشعب الأعزل قمعا ذريعا وفتكاً وحشياً، فأجلت السكان عن قراهم ومداشرهم بجبال الأوراس بواسطة الحديد والنار، وتركتهم مع أطفالهم ونسائهم بالعراء دون أي حماية يموتون برداً وجوعاً، ثم باشرت بواسطة الطائرات والمدافع الثقيلة والمتفجرات تحطم القرى والمداشر، فمات تحت الأنقاض، أو بواسطة القنابل، أو حصداً بالرشاشات من الطائرات، أو بأيدي جنود المظلات الشيوخ والعجائز والحوامل والحيوانات ... الأمر الذي تسبب في فضيحة عالمية للسمعة الفرنسية فأثار بحق سخط الرأي العام العالمي والضمير الفرنسي...»[18]

وتقول في آخر: «...أصبح السكان المدنيون يعدمون بكل وحشية إعداماً جماعياً، لا يسلم منه فلاحاً في حقله ولا راع وراء قطيعه، ولا شيخاً هرماً، ولا صبي صغير، ولا امرأة حامل... وقد تواترت الأخبار أن المدنيين أُلقوا من أعالي الجوّ، وأنه قد سُكب على الأحياء من الناس النفط، و أُشعلت فيهم النار، واغتصبت العذراء أمام والدها، وفي كل يوم تعلن البلاغات الرسمية عن قتل عدد كبير ممن سمتهم العُصاة أو الخارجين عن القانون والحقيقة التي يعلمونها قبل غيرهم، ويعلمها الشعب الجزائري، ويجب أن يعلمها العالم أجمع، أن أولئك القتلى أغلبهم من المدنيين الأبرياء، الذين وضعهم سوء حظهم في طريق قوات الأمن...»[19]

كما استنكرت الجريدة حادثة القرصنة الجوية التي تعرض لها زعماء الثورة الخمسة[20] وندّدت بالعدوان الفرنسي على قرية ساقية سيدي يوسف[21]، كما أثار مشروع الأسلاك الشائكة المكهربة غضبها[22]، ومع ذلك أظهرت سخريتها من هذه المخططات، مؤكدة أنها فشلت فشلاً ذريعاً في إخماد نار الثورة، فحادثة إختطاف الطائرة – حسب رأيها- أدت إلى تصعيد الثورة في الداخل، ومشروع الأسلاك الشائكة لم يقف حاجزاً أمام عزيمة الثوار، في حين لم تنجح مختلف ممارسات الاضطهاد التي تعرض لها الشعب الجزائري في الحيلولة دون احتضانه لثورته.

3 – تطورات السياسة الديغولية وموقف صحيفة " العمل " التونسية :

تجاوبت صحيفة العمل بحماس شديد مع الأحداث والتطورات التي شهدتها السياسة الديغولية المستهدفة للثورة الجزائرية، منذ اعتلاء الجنرال ديغول[23] السلطة عقب إنقلاب13ماي1958 إلى غاية ظهور محاولة التمرد التي قادها بعض جنرالات الجيش ضده في أفريل1961، متخذة إزاءها مواقف متباينة، فالنسبة لانقلاب 13 ماي 1958 الذي جاء

بديغول إلى الحكم اهتمت الجريدة بتغطية حيثياته واستنكرته، معتبرة إياه محاولة أراد من خلالها غلاة المستوطنين الاستنجاد بالجنرال ديغول لإعانتهم على تكريس سياسة الاستعباد وتجسيد أطروحة الجزائر الفرنسية التي خيبت الحكومات السابقة أملهم في تحقيقها، حيث قالت الجريدة في أحد المقالات التي نشرتها بخصوص هذا الموضوع ما يلي:«... لم تفاجئ حركة التمرد الجنونية التي اجتاحت عاصمة الجزائر، ثم عمت البلاد الجزائرية بسرعة البرق كل الذين يتتبعون أطوار هذه الحرب الدامية، التي تدور رحاها منذ أربع سنين على أديم تلك الأرض الطاهرة، بعد أن درسوا تاريخ الحركة الوطنية هناك، ويعرفون دلائل الأقلية الفرنسية أو المتفرنسة والضغط الذي لم يزالوا يسلطونه على حكوماتهم، حتى تبقى امتيازاتهم ويستمر استغلالهم الفاحش لثروات البلاد على حساب أبناء البلاد، فهم الذين مانعوا في تطبيق قانون 1947 التقدمي نسبيا، وهم الذين استقبلوا رئيس الحكومة الفرنسية غي مولي يوم 06 فيفري1956 بالطماطم والحجارة، وكالوا له السب والشتم، فما كان منه إلا أن يتراجع عوض أن يقدم على مالم يكن منه بد، وأن يتنكّر للمبادئ التي انتخب من أجل الدفاع عنها... وأخيرا تقدم رئيس حكومة جديد أمام البرلمان للتزكية، ورغم تأكيده بأن الروابط التي بين فرنسا والجزائر لا يمكن أن تنقسم، فإن المدللين أقاموا الدنيا وأقعدوها، فشكلوا لجنة وأسندوا رئاستها إلى الجنرال ماسو فقبلها، بعد أن فكر ثلاثين ثانية فقط، وشقّوا عصا الطاعة وتحدّوا الحكم المركزي، وصرّحوا بأنهم يلتزمون الدفاع عن مصالح الجزائر الفرنسية ولو تخاذل المسؤولون بباريس...»[24]

كما استنكرت الجريدة سياسة الإدماج التي باشرها ديغول بعد توليه السلطة، كعرضه لمشروعي قسنطينة ومشروع سلم الشجعان، وتنظيمه لاستفتاء 28 سبتمبر1958، وهي السياسة التي لم ترى فيها الجريدة جديدا مقارنة بسياسة الحكومات السابقة ، حيث قالت في هذا المضمار: «... وتتجه الأنظار الآن إلى الجزائر، حيث شاء ديغول أن يدشّن مهمته الجديدة، وهو منقذ الأمة الفرنسية مثلما يقال ويعلن عن سياسته، التي تعود إلى سالف العهود، وتبرز في أوضح مظاهر السياسة الاستعمارية التي تسلكها فرنسا منذ عشرات السنين... ويكفيك دليلا على ذلك أن تسمع ديغول يعلن من أعلى شرفة الوزارة العامة بالجزائر ومن مقر ولاية وهران، أن العشرة ملايين من الجزائريين والفرنسيون متساوون في الحقوق والواجبات، وأن الجزائر فرنسية فوجب إدماجها وإدماج الأرواح مع فرنسا وروح فرنسا... ويكفيك دليلا أيضا أن ترى الجنرال العظيم يساير المتمردين، ويسعى ليحظى

برضاهم ولا يستنكر عليهم شيئا مما أتت به أيديهم، ويشاطرهم أراءهم المتطرفة حتى المغالاة عما شاءوا أن يسموه بالأخوة الفرنسية الإسلامية، ويأخذ عنهم هذا الاعتقاد ويعمل معهم على تعميق هذه الحركة الوهمية...»[25]

تفاعلت الجريدة مع المشروع الذي لجأ إليه الجنرال ديغول بعد فشل مخططاته العسكرية في حل القضية الجزائرية، وهو اعترافه بحق الشعب الجزائري في تقرير مصيره، حيث رأت في هذا المشروع خطوة جريئة أقدم عليها ديغول، رغم إدراكه لما سوف تثيره من ردود أفعال قوية في أوساط التيارات المنادية بفرنسة الجزائر وفي هذا الإطار أشادت الجريدة بالشدة والحزم اللذين أظهرهما هذا الأخير في قمع بعض الحركات التمردية التي ظهرت ضده من طرف هذه التيارات، التي حاولت إفشال مساعيه في منح الشعب الجزائري حق اختيار ما يريده كتمرد24 جانفي1960، ومحاولة انقلاب 22 أفريل1961، فقالت : «... إنه لا داعي للريب في صدق الجنرال دي غول، إذ اعترف بحق الشعب الجزائري في تقرير مصيره ، وكذلك لاريب في صدق نية الحكومة الجزائرية إذ أقرت مبدأ تقرير المصير وما بقي على كل طرف إلا أن يدرك وضعية الطرف الآخر، وأن يراعي صعوبات وضعه الداخلي، بل وأن يعينه على تذليلها... إن المهم هو الاتصال... الاتصال مهما كان الشكل الذي يكتسيه ذلك الاتصال، الذي لا داعي للاحتياط فيه، لأن الشعب الجزائري والشعب الفرنسي راغبان رغبة عميقة في السلم، ومن المحال أن يطغى على تلك الرغبة العميقة اعتبار بروتوكول ما...»[26]

وقالت في مقال آخر : :«... لقد انهارت حركة التمرد انهياراً سريعا وكاملاً وخرج الجنرال دي غول من هذه الأزمة التي مست كبرياؤه أقوى عمليا مما كان من قبل، من حيث امتداد نفوذه وعمقه، فقد حظي خلال الأيام المنصرمة بتأييد يكاد يكون جماعيا في فرنسا وخارج فرنسا، فاستطاع بفضل ذلك التأييد وبفضل الحزم الذي أظهره في خنق حركة الثورة الاستعمارية، أن يجعل الاستعماريين يبرزون في مظهرهم الحقيقي... مظهر كمشة صغيرة من الاستعماريين الفاشستيين، الذين لم يتعلموا شيئا من تجارب التاريخ، ولم يقتنعوا يوما بالمبادئ الديمقراطية سواء بالنسبة للشعوب المستعمرة أو بالنسبة لشعبهم نفسه ...»[27]

4 - تفاعل الصحافة التونسية مع المفاوضات الجزائرية الفرنسية :

استأثرت قضية المفاوضات الجزائرية الفرنسية اهتمام جريدة العمل، حيث حرصت على مواكبة تطوراتها ابتداء من ظهور أولى الاتصالات السرية التمهيدية بين الطرفين سنة1956، والتي لم تتواني عن كشف ملابساتها، ومحاولة توضيح وقائعها للرأي العام إلى

غاية انطلاق المفاوضات العلنية الرسمية التي تتبعتها بجميع مراحلها، ابتداء بمحادثات مولان (25-29جوان1960)، مرورا بمحادثات إيفيان الأولى (20ماي-13جوان1961) وصولا إلى مفاوضات إيفيان الثانية، التي انتهت بالتوقيع على اتفاقيات وقف إطلاق النار يوم 18مارس1962.

وفي إطار تتبّعها لمراحل هذه المفاوضات، أظهرت الجريدة من الترحاب والابتهاج بالتصريحات الرسمية التي كانت تصدر عن الطرفين الفرنسي والجزائري في كل مرة يعلنان فيها عن استعدادهما للشروع في عملية التفاوض، ما يدل على تمسّكها بخيار المفاوضات وتعليق أمل كبير عليها كوسيلة وحيدة لحل القضية الجزائرية واقرار السلم في الجزائر، حيث جاء في أحد مقالاتها ذات العلاقة بهذا الموضوع، والذي نشرته بعد الدعوة التي وجهها الجنرال ديغول لقادة الثورة في 14 جوان 1960 للذهاب إلى باريس من أجل الشروع في عمليات التفاوض ما يلي :«... رحب العالم أجمع بالحدث الجديد، الذي أتاح للأمل مجالا في قضية الجزائر، ولم يشد عن هذا الترحيب حتى أولئك الذين كان ينتظر من جانبهم الاحتراز أو السكوت، ذلك أن هذا العالم الذي هزه الفرح وشمله الارتياح يأبى أن ينظر إلى الجزئيات فلا يسجل من الوضع الجديد إلا المهم، وهو قبول طرفي النزاع الاجتماع عن طريق الاتصال المباشر... فقد كان البحث عن حل لقضية الجزائر بحثا يعتمد أساسا على الحرب، فالحرب كانت هي الوسيلة التي بقيت ممكنة في نظر الطرف المكافح، والاضطهاد هو الطريق الذي سلكه الطرف الآخر صاحب السلطة، أما اليوم فقد تحول المنظار وتغيرت زاوية الحكم.... فلأول مرة ومنذ سنوات عديدة مليئة بالإرهاق والتعسف، أصبح ممكنا أن يجلس ممثلو الثورة حول مائدة واحدة مع ممثلي فرنسا وصار هذا الحدث الذي كان تصوره ضربا من الخيال واقعا بفضل الشجاعة الأدبية التي أملت على الجنرال ديغول موقفه هذا...»[28]

ومن جهة أخرى أثنت الجريدة على موقف الحكومة المؤقتة التي لم تتوانى –حسب رأيها- في تلبية دعوة الجنرال دي غول، مشيرة إلى أن هذا الموقف لا يمكن أن يفسّر، إلا بتعلّق قادة الثورة بالحل السلمي للقضية الجزائرية وأنه جاء ليضع حدا لتلك الاتهامات التي لطالما وجهتها لهم الحكومة الفرنسية، بتحميلهم مسؤولية استمرار الحرب والإعراض عن الحلول السلمية، حيث قالت في هذا المضمار: «... إن هذه المسافة الشاسعة قطعت بفضل تعلق قادة الثورة بالسلام، ورفعة إدراكهم السياسي، وحكمة تقديرهم، فقد وضعت الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية بفضل موقفها التاريخي قضية الجزائر في سياق السلم...»[29]

ولم تكتفي " العمل" في تناولها لقضية المفاوضات الجزائرية الفرنسية بالتغطية الإخبارية لحيثيات المراحل والأشواط التي قطعتها هذه المفاوضات، بل ذهبت إلى أبعد من ذلك محاولة إبداء وجهة نظرها – بالتحليل والنقاش- إزاء كل قضية من القضايا والعقبات التي أفرزتها عمليات التفاوض بين الطرفين الفرنسي والجزائري طيلة فترة المفاوضات، ومنها قضيتي الصحراء والأقلية الأوروبية، اللتين أفردت لهما الجريدة عدة مقالات، حاولت من خلالها أن تدافع عن موقف الطرف الجزائري إزاءهما، و تبرز مساندتها وتأييدها لهذا الموقف.

كما حرصت الجريدة على مواكبة الأحداث والتطورات التي شهدتها الجزائر بعد التوقيع الرسمي على اتفاقيات وقف إطلاق النار، حيث اهتمت بمتابعة حيثيات الاستفتاء الذي تم اجراؤه بالجزائر في الفاتح من جويلية 1962، والذي اعتبرته محطة حاسمة في تاريخ الجزائر مكّنت –حسب رأيها- الشعب الجزائري ولأول مرة بعد132 سنة من الاضطهاد من اختيار مصيره بكل حرية، حيث قالت في هذا الشأن: «... وهي لاشك أعظم لحظة في حياة الشعب الجزائري، تلك اللحظة التي سيتقدم فيها كل ناخب أي كل جزائري إلى الصندوق ليودع اختياره لتاريخ سيكتب ولمصير سيفتح عهده... لكن اللحظة الحاسمة اللحظة التي تطوى فيها في حركة سريعة- لا تعدو مد اليد إلى صندوق مقفل- مائة واثنان وثلاثون سنة من التبعية، هي تلك اللحظة التي سيقرر فيها ستة ملايين من الجزائريين مصيرهم ومصير الأربعة ملايين الآخرين من أبنائهم القاصرين، وأمام قداسة هذه اللحظة لا يتمالك الذهن من استعراض صور خاطفة من الآلام والآمال التي طوّتها الأحداث والبطولة والكفاح ولاستماته ومن القهر والهزيمة ...»[30]

وفي ذات السياق اهتمت الجريدة بتغطية مختلف مظاهر الاحتفالات التي أقامها هذا الشعب بمناسبة حصوله على استقلاله واسترجاعه لسيادته الوطنية، فأشادت بالطريقة التي احتفل بها الجزائريون والتي اقتصرت – على حد قولها - على الرقص والزغاريد والهتافات، دون أن يحاول هؤلاء اللجوء إلى إثارة أعمال الشغب والاصطدام بالمستوطنين الفرنسيين. وذلك عكس ما كانت تتوقعه وتستعد له أجهزة الأمن الفرنسية المتواجدة بالجزائر، ومما قالته بهذا الخصوص : «... ولابد في هذه المرحلة وقبل الاهتمام بأي جانب آخر أن نسجل علناً وبكل ما يلزم من إشهار، ما أظهره الشعب الجزائري من امتثالية واحترام للنظام ونضج رائع، لفت أنظار جميع الملاحظين، فقد كان كثير من الناس في خارج الجزائر

وفي فرنسا خاصة، بل في الجزائر نفسها من بين صفوف الجالية الأوروبية، يتساءلون عما سيحصل يوم 2 و3 جويلية، أي بعد إعلان نتائج الاستفتاء مباشرة وذهب بعض القواد العسكريين الفرنسيين إلى حد التصريح بأن الجيش الفرنسي سوف يقوم بواجب إنقاذ من يهدد بخطر الموت في حالة هجوم الجزائريين على الأوروبيين ... لكن شيئا من ذلك لم يحصل، بل أن الشعب الجزائري في حماسه واندفاعه العارم في فرحته، برهن حسب ما شاهدناه بأعيننا عن مقدرة في التحكم في عواطفه، فقد عبر عن فرحته بالهتاف والزغردة والتصفيق والرقص وهتف لنفسه مرددا دون انقطاع "يحيا الشعب"، وهتف لوطنه مرددا بدون انقطاع " تحيا الجزائر"، وهتف لقادته مردداً بدون انقطاع " الاتحاد الاتحاد" وحافظ أثناء كل ذلك على نظام محكم...» [31]

خاتمة :

إن تحليلنا للمادة التاريخية الواردة في الصحيفة موضوع الدراسة قادنا إلى استخلاص مجموعة من النتائج العلمية أهمها:

1- ساهمت جريدة " العمل" التونسية مساهمة فعالة في إبراز الموقف التونسي الرسمي المتضامن مع الثورة الجزائرية، كونها صحيفة حزبية ناطقة باسم الحزب الحاكم في البلاد، وهو الحزب الحر الدستوري التونسي.

2- لعبت جريدة **"العمل"** على غرار أغلب الصحف التونسية والعربية دوراً متميزاً في دعم القضية الجزائرية إعلاميا، وذلك من خلال الاجتهاد في التعريف بها، وتعبئة الرأي العام التونسي وتوجيهه نحو نصرتها والتضامن معها.

3- أدت الجريدة دوراً بارزاً في إثارة الرأي العام التونسي ضد النظام الاستعماري في الجزائر، وذلك باجتهادها في فضح جرائمه ودحض مزاعمه وادعاءاته، وهو ما يعكس البعد المغاربي للثورة التحريرية الجزائرية .

4- إن حرص الجريدة على تتبع الأنباء السياسية والأحداث العسكرية اليومية للثورة التحريرية الجزائرية طيلة سبعة سنوات، خلّف لنا مشاهد بطولية خالدة عن هذه الثورة، كما خلّف لنا مادة صحفية يمكن اعتبارها كمصدر أساسي، ومرجعية علمية لتوثيق الأحداث والوقائع التي شهدتها الثورة الجزائرية، ومرجعية فكرية تعكس قوة الرابطة الأخوية واللحمة القائمة بين الشعبين الجزائري والتونسي .

الهوامش:

[1]- صحيفة يومية، وطنية، سياسية جامعة، لسان الحزب الحر الدستوري التونسي، مديرها الحبيب بورقيبة، صدر أول أعدادها في غرة جوان 1934، كانت العمل محل مراقبة شديدة من طرف السلطة الاستعمارية الفرنسية، ونظرا لمواقفها الجريئة المناهضة لهذه الأخيرة، تعرضت للتعطيل في 7 أفريل 1938، ولم تستأنف نشاطها إلا في 25 أكتوبر 1955 حيث واصلت صدورها كصحيفة يومية إلى غاية سنة 1988 . أنظر : عمر بن قفصية، أضواء على تاريخ الصحافة التونسية (1860-1870)، د ط ، دار بوسلامة للطباعة والنشر، تونس ، د ت ن ، ص 213.

[2] - ما تجدر الإشارة إليه هو أن الجريدة موضوع الدراسة كانت قد توقفت عن الصدور في الفترة الممتدة ما بين (1938-1955) أي أنه في الفترة التي اندلعت فيها الثورة التحريرية الجزائرية كانت الجريدة محتجبة عن الصدور، لكن رغم ذلك عملت على توضيح موقفها من الثورة فور استئناف نشاطها في 25أكتوبر سنة1955.

[3]- **" ثلاثون انفجارا بدأت به الثورة المظفرة "**، العمل، العدد 1994، (19مارس1962)، ص02.

[4] - محمد عباس، نصر بلا ثمن، دار القصبة، الجزائر،2007، ص91-92.

[5]- **"حقائق عن الثورة الجزائرية "**، العمل، العدد940،(01 نوفمبر1958)، ص06 .

[6] - **" ثورة من أجل الحياة الكريمة "**، مقال سابق، ص06.

[7] - انعقد هذا المؤتمر أيام 15-16-17-18 نوفمبر1955 بصفاقس، وكانت القضية الجزائرية من بين أهم القضايا التي عولجت فيه.

[8]- **" بيان المكتب السياسي للحزب الدستوري التونسي"**، العمل، العدد22،(18 نوفمبر1955)، ص01

[9] - **نفسه** .

[10] - **" يوم... بل سنين خالدة "**، العمل، العدد1876، (01 نوفمبر1961)، ص 01.

[11] - جاءت هذه الهجومات رداً على سياسة القمع والارهاق التي مارستها السلطات الاستعمارية ضد الشعب الجزائري بعد فشلها في مطاردة عناصر جيش التحرير الوطني، كما جاءت لتخفيف الضغط عن منطقة الأوراس التي كانت القوات الفرنسية قد حاصرتها من كل الجهات، لاعتقادها بانحصار الثورة فيها دون غيرها من المناطق، ولهذا وبغرض فك الحصار عنها خططت قيادة الثورة لشن هجومات واسعة في الشمال القسنطيني يوم20اوت1955 بقيادة زيغود يوسف. للمزيد حول موضوع الهجومات راجع: محمد العربي الزبيري، **الثورة الجزائرية في عامها الأول**، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1984، ص143 وما يليها.

[12] - **" ذكرى 20 أوت1955 في سجل الكفاح الجزائري"**، العمل، العدد568، (21أوت1957)، ص 4 .

[13] - وهو المؤتمر الذي انعقد بالمدينة الأندونيسية باندونغ من 18 إلى 24 أفريل1955، جمع دول آسيوية وإفريقية حديثة العهد بالاستقلال، اجتمعت لمناقشة قضاياها التحررية الوطنية والعمل على التخفيف من التوتر الدولي، وهو أول مؤتمر دولي يشارك فيه قادة الثورة الجزائرية، حيث حصلت فيه هذه الأخيرة على تضامن ودعم مطلقين من طرف الدول المشاركة في المؤتمر. للاستزادة في الموضوع أنظر: مالك بن نبي، **فكرة الإفريقية الآسيوية في ضوء مؤتمر باندونغ**، تر: عبد الصبور شاهين، ط2 ، دار الفكر، دمشق، 2001.

[14] - محمد عباس، نصر بلا ثمن، مرجع سابق ، ص ص 125 – 127

[15]- **" ذكرى 20 أوت1955 في سجل الكفاح الجزائري"**، مقال سابق، ص06.

[16]- انعقد هذا المؤتمر بالمنطقة الثالثة (القبائل الكبرى) بقرية افري أوزلاقن وسط غابة لأكفادو المشرفة على وادي الصومام يوم20أوت1956، حيث خرج هذا المؤتمر بقيادة موحدة للثورة، تمثلت في المجلس الوطني للثورة ولجنة التنسيق والتنفيذ، كما أصدر وثيقة سياسية هامة كانت بمثابة الدستور الذي ينظم شؤون الثورة، إضافة إلى تأسيس بعض الهيئات الاجتماعية التي كلفت بمهمة التعبئة الجماهرية، وقد اعتمد مؤتمر الصومام تقسيما جغرافيا جديدا قسمت فيه البلاد إلى 06 ولايات كما تمت فيه إعادة هيكلة الجيش وتنظيمه إلى غير ذلك من القرارات التي مست مختلف الميادين. للمزيد حول هذا المؤتمر أنظر: لحسن زغيدي، **مؤتمر الصومام وتطور ثورة التحرير الوطني الجزائرية (1956-1962)**، دار هومة الجزائر،2009.

[17]- **" ذكرى 20 أوت 1955 في سجل الكفاح الجزائري"**، مقال سابق، ص06.

[18] - **" فضائع الاستعمار الفرنسي في الجزائر"** ، العمل، العدد154، (20 أفريل1956)، ص04.

[19] - **نفسه** .

[20] - **"حي على العمل"** ، العمل، العدد 311، (24 أكتوبر1956)، ص01.

[21] - **" اعتداءات على ساقية سيدي يوسف "**، مقال سابق، ص01.

[22] - **مع الأيام "**، العمل، العدد1969، (18 فيفري1962)، ص06

[23] - من أبرز الشخصيات الفرنسية في القرن العشرين، ولد سنة 1880، شارك في الحرب العالمية الأولى (1914-1918) والثانية (1939-1945)، تدّرج في الرتب العسكرية إلى أن بلغ رتبة جنرال، قاد من لندن لجنة تحرير فرنسا بعد سقوط هذه الأخيرة في يد الألمان سنة 1940، تولى تأسيس ورئاسة الجمهورية الفرنسية الرابعة، انسحب من الساحة السياسية الفرنسية سنة 1946 ولم يظهر إلا في 1958 ، حيث جيء به إلى الحكم على إثر انقلاب 13 ماي1958 فشكل الجمهورية الفرنسية الخامسة وحكم فرنسا إلى غاية 1969.

أنظر: عبد الوهاب الكيالي ، الموسوعة السياسية ، ج 4 المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، د ت ن ، ص ص 732 – 733 .

[24]- **محمد مزالي، " انتفاضة اليأس"**، العمل، العدد 796، (16 ماي 1958)، ص04 .

[25] - **"هل و افق الغرب على سياسة الإدماج الديغولية "**، العمل، العدد 815،(07 جوان 1958)، ص 02.

[26] - **" الفهم المتبادل"**، العمل، العدد1224، (02 أكتوبر1959)، ص01.

[27] - **" الدرس الأساسي"**، العمل، العدد1714،(27 أفريل1961)، ص01.

[28] - **" إرادة النجاح "**، العمل، العدد1449،(22 جوان1960)، ص01.

[29] - **نفسه .**

[30] - **" زلزال الحرية "**، العمل، العدد2092،(01جويلية1962)، ص01.

[31] - **" بعد الاستقلال"**، العمل، العدد2096،(05جويلية1962).

الكاتب: د/محمد المنتفع
الأكاديمية الجهوية لمهن التربية والتكوين كلميم وادنون (المغرب)
elmountafiamed@gmail.com

عنوان المقال: الاستعماروميراسيم الماء في مراكش وأحوازها 1919_ 1939

تاريخ الإرسال: 2020/03/06 تاريخ القبول:2020/04/26 تاريخ النشر: 2020/06/30

الاستعماروميراسيم الماء في مراكش وأحوازها 1919_ 1939

Colonialism and the decrees of water in Marrakech and its surroundings 1919 _1939

ملخص

يروم هذا المقال إلى دراسة تاريخ الماء في مدينة مراكش وأحوازها إبان الحماية الفرنسية على المغرب من خلال الظهائر والقرارات التي أصدرتها فرنسا لتنظيم شؤون الماء بالمدينة، وتعد هذه الدراسة من المواضيع المهملة في حقل التاريخ المغربي المعاصر، نظرا لتعقد إشكالاتها. لذلك سنحاول ملامسة إشكالية الاستعمار والماء بالتصدي لمختلف التساؤلات المرتبطة بها بالوقوف عند حدود مجال مدينة مراكش وأحوازها عبر تقديم رؤية حول وصاية الاستعمار الفرنسي على الأنظمة المائية بالمدينة ونواحيها، وذلك بتتبع الإجراءات القانونية والإدارية التي أقرتها الحماية تحت إشراف الإقامة العامة، ومدى استفادة المدينة والنواحي من مزايا التشريعات القانونية حول حقوق الماء، الذي وظفت لتدبير شؤونه آليات متعددة سهرت على تفعيلها مؤسسات عدة.

الكلمات المفتاحية: الاستعمار؛ الماء؛ المراسيم؛ مراكش؛ المغرب.

Abstract

This article tries to study the history of water in the city of Marrakesh and its surroundings during the French protection over Morocco by issuing decrees and laws to regulate the water affairs in the city.This study is one of the neglected subjects in the contemporary Moroccan history field because of the complexity of its issues. So, we will try to address the problem of colonialism and water by addressing the various questions related to it and also by talking a little about the

boundaries of the city of Marrakesh and its surroundings. Moreover, we will try to present a vision about the guardianship of French colonialism over the city's water systems and its different aspects. All this will take into consideration the legal and administrative procedures approved by the protection under the supervision of public residency. And the extent to which the city and the districts benefit from the advantages of the legal legislations on water rights, which have employed various mechanisms to manage its affairs that have been activated by several institutions

Key words: colonialism, water, decrees, Marrakesh, Morocco.

مقدمة:

ظلت دراسة تاريخ الماء بمدينة مراكش وأحوازها، خلال المرحلة الاستعمارية، رغم أهميتها، منزوية في الهامش، بحيث لم توثق إلا قليلا بدراسة شاملة لإشكالاتها بالوقوف عند الأنظمة المائية المحلية، والأنظمة التي أحدثها الاستعمار. والنظر في مختلف الإجراءات والتدابير التي أقرتها دولة الحماية لتنظيم شؤون المياه المعدة للشرب وسقي الأراضي. ومدى استفادة المدينة ونواحيها من مزايا الضوابط القانونية والمؤسساتية التي تقرها مديرية الأشغال العمومية، وصندوق تحسين شؤون المياه، ونظام البوليس الجاري على الماء، وغيرها من المؤسسات التي كرست الوصاية الاستعمارية على المياه بمحو أساليب الأنظمة القديمة المتأكلة، واستبدالها بأنظمة جديدة، أو إحداث تحسينات على بعضها، وذلك لتدبير أمثل للمياه المعدة للشرب والسقي في ظل الصراعات على حقوق الماء، ومواجهة خطر النقص المائي، والفيضانات والسيول التي أثرت، بشكل كبير، على شبكة المنشآت المائية.

أولا: الماء بمراكش وأحوازها في التشريعات القانونية

تختزن مراكش وأحوازها موارد مائية مهمة توفرها منابع أودية ومجاري الأطلس مما خول لها إنشاء نظام هيدروليكي كبير ومتطور في سقي الأراضي الفلاحية، يعود تاريخه إلى القرن الثاني عشر الميلادي، جعل من حوز مراكش منطقة جذب لمشاريع الاستعمار الأوروبي منذ نهاية القرن التاسع عشر.[1] وبعد عملية التهدئة للمجال طورت فرنسا الأنظمة المائية بالمنطقة فأنشأت بذلك منشآت جديدة، وعززت القديمة منها. وأصدرت تشريعات قانونية، ما بين 1919 و1939، لتنظيم شؤونها تنظيما عصريا يوكب التقنيات الأوربية الحديثة، والحد من النزاعات على حقوق الماء.

مبيان رقم 1: التشريعات القانونية لتنظيم شؤون المياه بمدينة مراكش وأحوازها ما بين 1919- 1939 بـ%

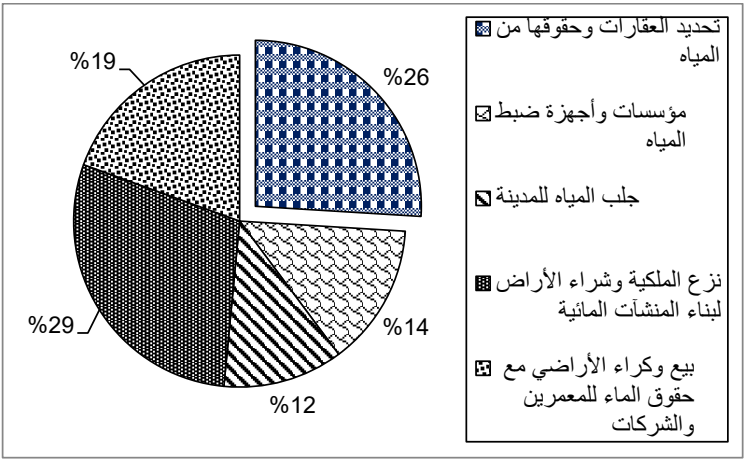

المصدر(بتصرف) [2]

ارتكزت التشريعات القانونية الفرنسية على تحديد الأراضي التي تحتوي على المنشآت المائية، وقد صلت إلى 60 قرارا، وبلغت القرارات المتعلقة بخلق مؤسسات تدبير المياه 32 قرارا، أما القرارات الخاصة بجلب المياه للمدينة فقد اشتملت 27 قرارا، أما القرارات المرتبطة بنزع الملكية من أجل بناء المنشآت المائية ومناطق الوقاية فقد وصلت 67 قرارا، وبلغ عدد قرارات ببيع وكراء الأراضي مع حقوقها من الماء 45 قرارا. وهكذا، فإن هذه التشريعات، ذات الطبيعة القانونية والمؤسساتية، تظهر اهتمام إدارة الحماية بالتخطيط والتنظيم الهيدروليكي الاستعماري، وذلك واضح من خلال القرارات التي نصت على جرد شامل للمنشآت المائية،[3] والتركيز على المياه السطحية والينابيع والأنهار والمجاري،[4] وذلك بالاعتماد على المهندسين والجيولوجيين المهتمين بدراسة الشبكات المائية الباطنية.[5] وتعد عملية الجرد قضية أساسية في سياسة الإدارة الاستعمارية لضمان استخدام رشيد ومتكاملا للمخزون المائي لتفادي تبذيرها.[6]

ثانيا: المنشآت المائية و أنظمتها بمراكش وأحوازها

تمتد المنشآت المائية، من القنوات المعدة للشرب والسواقي والخطارات والآبار والمصارف، على حدود واسعة من مدينة مراكش وأحوازها، وعلى طول وادي النفيس وتانسيفت ووادي تساوت وغيره من الأودية.[7] جعل إدارة الحماية تسجلها في كنانيش خاصة بالأملاك العقارية قصد تنظيم وتحسين شؤون المياه عبر توزيعها توزيعا منظما، وجعل تدفق الوديان أكثر انتظاما وبناء العديد من السدود الصغيرة في الجبال بناء صلبا.[8] وقد وظفت في ذلك عدة آليات ووسائل لإحداث هذه المنشآت، وأهمها نزع ملكية أراضي المغاربة التي كانت ترويها سواقي عديدة،[9] ووضع قوانين قضائية وأمنية ووقائية لضبط وتنظيم الموارد المائية بالمدينة وأحوازها.

1- القنوات المعدة للشرب والسقي

كانت مدينة مراكش تتطلب كميات كبيرة من الماء لتزويد ساكنتها البالغ عددها ما بين 200 إلى 300 ألف ساكن خلال فترة الحماية، وحوالي 6 خطارات وأربعة سواقي تقدم لها كل يوم من 8 إلى 10 آلاف متر مكعب من الماء.[10] وكانت معظم منازل السكان المحليين تتلقى المياه المعدة للشرب من الآبار بعمق 30 مترا، ومن النوافير عبر ناقل المياه مقابل خمسين سنتيما لسكب الماء في الجرار الطينية والقرب المصنوعة من جلد الماعز والبرم الكبيرة الحجم التي تحمل الواحدة منها أربعين لترا.[11] وتبقى هذه الطرق غير كافية لضمان احتياجات السكان المتزايدة من الماء، لذلك أصدرت الإقامة العامة، منذ سنة 1919، قرارات تنص على إحداث مناطق لجلب المياه وبناء دهاليز معدة لجرها مع حفر قنوات لها لتجهيز المدينة بالماء الشروب.[12] ومن الأمثلة الدالة على ذلك قنوات جلب المياه بالمكان المعروف بـ "بزوكار" بالقرب من تحناوت بدائرة أحواز مراكش،[13] وقنوات إخراج مياه خطارة "الرويش" بقلعة السراغنة.[14] أما طرق سقي الأراضي فكان السكان يعتمدون على الأساليب البدائية التي بالرغم من بساطتها فقد سمحت بتحسين المردودية الزراعية، بحيث كانت عبقرية للغاية وأكثر فاعلية، عندما تنقص كمية المياه خلال فترات الجفاف، بفضل الخبرة التي راكمها السكان المحليين، لقرون عديدة، مكنتهم من ابتداع طرق لاستغلال المياه الجوفية.[15]

في مقابل الأنظمة التقليدية لجلب المياه المعدة للشرب وسقي الأراضي، كان نظام تزويد المنازل والأراضي الاستعمارية في مراكش وأحوزها يعتمد على التقنية الحديثة، إذ كانت تحصل منازل وفنادق حي "كيليز" الأوربي على المياه عن طريق الضخ من ساقية تاركة وخطارة أكدال 1، ويتم التخلص من المياه المستعملة من خلال نظام صرف حديث، والاهتمام بإصلاح المجاري

القديمة للمدينة.[16] ولم يستثن الاستعمار في وصايته على الماء بالمدينة السقايات بحيث اعتبرها في عداد الأبنية التاريخية، ومنها سقاية المواسين، وسقاية باب دكالة وسقاية اشرب وشف[17]. لكن الوصاية كانت أكثر شدة وحزما عندما يتعلق الأمر بسقي الأراضي وخاصة الفرنسية، لذلك أصدر قرارات عدة تنص على نزع ملكية الأراضي لبناء قنوات سقي صلبة بالبرصلانة ومقواة بالحديد والحجر لإخراج مياه الخطارات وجلب المياه من الأودية،[18] ثم صيانة هذه القنوات من الأمطار والفيضانات والسيول الجارفة عبر فرض ضريبة المباني على المغاربة لصيانة القنوات المعدة للشرب والسقي وكذلك للمياه القذرة.[19]

جدول رقم 1: بعض القنوات الاستعمارية المعدة لجلب المياه للشرب ولسقي الأراضي من 1919 إلى 1939

القناة	مصدر مياهها	خصائص بناءها	وظيفتها
تحناوت	وداي غيغاية	البرصلانة	السقي
الخرد	خطارة أكدال 4	"	الشرب
قناة الفرع الغربي	خطار أكدال 3	"	الشرب
تاركة	ساقية تاركة	البرصلانة ومقواة بالحديد	سقي أراضي تاركة
سعادة	ساقية سعادة	" "	سقي أراضي سعادة
أولاد بوكرين	وادي تساوت	البرصلانة والحجر	سقي أراض السراغنة
قناة الفرع الشرقي	خطارة تابوحنيت	البرصلانة	السقي معدة لجريان وادي أوريكة
تسلطانيت	وادي أوريكة	"	
قناة شيشاوة	وادي شيشاوة	"	السقي
قناة غيغاية	وادي غيغاية	قناة مقواة بالبرصلانة	السقي

المصدر[20]

أولت الإدارة الاستعمارية عناية كبيرة بالمياه المعدة للسقي خدمة لممتلكاتها الزراعية، بحيث منحت الفلاحين الفرنسيين حقوق المياه في الأراضي المغربية بعد امتلاكهم لمساحات واسعة منها، مثل تملكهم لأرض "تابوحنيت" في شرق مراكش بـ 1200 هكتار سنة 1921. وأرض تاركة في غرب مدينة "كيليز" بـ 3800 هكتار سنة 1923. وأرض تسطانت وأغواتيم المجاورة للمدينة

بين غيغاية وأوريكة بـ 7000 هكتار سنة 1924. وبلاد سعادة في جنوب غرب تاركة، والعطاوية - الشعيبية على ضفاف وادي تساوت بـ 1800 هكتار سنة 1926،[21] وامتلك الأجانب أراضي بتاملالت على بعد 50 كلم شرق مراكش بـ 2950 هكتار، ومساحات مهمة بأراضي تكتزا سنة 1927، وأراضي بتاجوجيت بالقرب من شيشاوة سنة 1930.[22]

2- الخطارات

شكلت الخطارة طريقة الري الأكثر استخداما في مراكش وأحوازها، وهي عبارة قنوات باطنية تجلب مياه العيون والأنهار من المرتفعات إلى مكان السقي، والسبب في طمرها هو الرغبة في تقليل حدة تبخر المياه المارة عبرها، وتتصل هذه القنوات بسطح الأرض بواسطة آبار حفرت لبناء القناة،[23] ويبلغ عمق الماء الواصل إليها ما بين 30 و40 مترا، وقد أحصي منها أكثر من 400 خطارة قديمة.[24] وينتهي عند مصب كل خطارة ساقية رئيسية كبيرة مقسمة إلى عدة سواقي تزود الحقول بالمياه وفق ما يسمى بنظام النوبة.[25] ونظرا لأهميتها في العملية الإنتاجية قامت الإدارة الاستعمارية بتحديد مواقعها وتدفقاتها المائية اليومية، وأدرجتها ضمن سياسة الاعتراف بحقوق المياه.[26]

جدول رقم3: نماذج من الخطارات بمراكش وأحوازها ما بين 1919 و1939

أسماء الخطارات	أصحاب الخطارات	طول مجراه بـ m	عمق الآبار بـ m	كميات المياه باللتير في الثانية
فريمة	فوهير	480	7	12 إلى 22
الحصيرة	لوكوك	5283	36,80	-
قراوة	سيستي	4256	32,70	-
منصورة	الفقيه بوجمعة واخوته السيد لحسن وعمر والسيد علي الفقيه السيد الحسين، وحم بن محمد، ومحمد العسري وشركاؤه في الإرث، والطالب السيد أحمد	594	6	ما بين 1.85 و23.85
حادي أو حادي	لافونطين	1526		5 و9.05

الشرابلي بمفسيو	السيدة طيزيز لوميرل (5 أيام ونصف)، وموسيز عمار ودافيد هروش (يوم ونصف في الاشتراك بين الجميع)	1000	10	ما بين 2.25 و 7.50
أرجان قديم **أرجان جديد**	جيدال جبلبير " "	5200 4600	18 و27 14 و36	1 و5 9 و23
تفرطة الصغيرة	الأملاك الخاصة بالدولة الشريفة (4 أيام بالسقي)، وعباس الحماد (يومان ونصف)، والمدام زكار (يوم ونصف)	1587	14 و10 سنتيم ترا	2.75 و12.75
سونة	ورثة وريز أوكيسط، ولوفوا انطوان، وشارل بيير	1205	16 و30	1.50 و8
دار التونسي	ورثة مولاي عبد الله البوكيلي (أربع فرديات ونصف فردية)، والأمين خربوش (ثلاث فرديات) والسيد برابيش (فردية واحدة ونصف)، وآلان لونوكس (فردية واحدة)	4684	26	4.50 و12.75
عبدية الفوقانية عدد 54	الحاج المكي، والشيخ بريك، والحسن بن دهان، وعباس المرياك، ومحمد الحلو، والحسين مسكون، والميلو بن باكة، والقائد احمد باكة، وعباس المرياك، وجيل.	1579	34 و95	5 و7

المصدر[27]

قدرت إدارة الحماية تدفقات المياه بالخطارات بـ 10 لتر/الثانية في المتوسط لكل خطارة.[28] ورغم أن الخطارة تقنية بدائية إلا أنه تبين بعد عدة دراسات دقيقة للغاية أنها من أهم التقنيات عقلانية في تزويد المدينة وأحوازها بما تحتاج إليه من المياه حسب رأي العديد من المهندسين والجيولوجيين.[29]

3- السواقي

دفع غنى المورد المائي، بأراضي مراكش وأحوازها، بإدارة الحماية إلى سن تشريعات قانونية وقضائية ووقائية بتنظيم شؤونه والحفاظ عليه خاصة المياه المعدة لسقي الأراضي التي تتوفر

على حقوق الماء مثل أرض تاركة الغنية التي تصل مساحتها إلى ألفي وثمانمائة هكتار لتنشئ بها فرنسا سواق لتزويد حي "كليز" الأوربي بما يحتاجه من الماء،[30] وأقامت في الجهة الموالية من وادي النفيس قنوات لجلب المياه وسقي أراضي تاركة التي قسمت مساحتها ما بين 20 و40 هكتارا، وفوضت زراعتها للمستوطنين وبعض السكان المحليين.[31] كما أقامت إلى جانب السواقي القديمة سواق عدة متفرعة عن وادي النفيس وتانسيفت وتساوت وباقي الأودية الأخرى، وسهرت على تقييدها في سجلات خاصة بالأملاك العقارية بعد تحديد موقعها ومصدرها وحقوق أصحابها من كمية المياه الجارية من الساقية.

جدول رقم 2: بعض السواقي ومنابع مياهها وحقوق الماء بها ما بين 1919 و1939م

السواقي	موقع	مصدرها	حقوق الماء
السويهلة	بلاد السويهلة	وادي النفيس	حظ أولاد سيدي الشيخ وأولاد بن عزوز
الجعفرية	بلاد الجعفرية	"	فرديتان في ملك أولا رحمون واثني عشر فردية للمخزن
النخيلات	الشمال الغربي	"	مجموع كمية مياه الساقية
سعادة	الحوز	"	حق جيش المنابهة وعبدة وحربيل واحمر
تاركة	الشمال الغربي	"	حق المحاميد، وتمصلوحت وعوينة معزوزة، ورحى الصفصاف. وتراوحت كمية الماء الجاري من الساقية ما بين 0.44 إلى 38.78%.
طلونا، والشهيدة، والبوعيسى، وأوزن.	أرض أغواطيم	وادي غيغاية والبعجة	تسقى أغواطيم بفرديات ثمانين من أربعة عشر من ساقية الشهيدة
العطاوية الشعيبية	السراغنة	وادي تساوت	حق المخزن ا مع أولاد عطية بمقدار النصف من الماء
تسليمت	نواحي مراكش	" "	مجموع كمية مياه الساقية

تاينين، وتازو انت، والكراوية، والشريفية، وأملاح، و أتويند، وغار الطور، والإسماعيلية	جيش الأوداية	وادي النفيس والمرجات، وادي تانسيفت	تتوفر عدة عيون، عينان اثنتان منها معروفتان بعين العثمانية، وعين الكراوية، وعين مولاي الطايع، وعين الضريضية، وعين تقبيلت، وعين تاسوارت، وعين ايراورت، وعين زيزر.
أكفاي بورويتة، وتاكلاوت	أحواز مراكش " "	القرب من وادي تيمونت ويرمان وادي تساوت	بلغت كمية الماء الجاري من الساقية سنة 1939 حوالي 57.49% مجموع كمية مياه الساقية

المصدر[32]

كان طول بعض سواق مراكش يصل 30 كلم، وكان معدل تدفق المياه منها كبيرا، إذ بلغ تدفق الماء من ساقية تاركة 704 لتر/الثانية، و800 لتر/الثانية من ساقية تسلطانيت. ورغم الهدر والتبذير الذي يطال المياه من هذه السواقي بسبب تسرب الماء وتبخره،[33] فإنها مع ذلك كان دورها كبيرا في تحسين المردودية الزراعية، بحيث كانت تضمن ري أزيد من 150،000 هكتار.[34] ولذلك قامت الحماية بفرض وصايتها على حقوق هذه السواقي من الماء، التي تزود دور وأراضي تارغة وسعادة وأسكجور وأغواتيم وتسلطانيت وتبوحانيت وتاملالت، ولتنشئ بفضلها نظاما زراعيا كبيرا في محيط سد وادي النفيس مما يسمح بتحسين مردودية وجودة الإنتاج الزراعي،[35] ولا يتأتى ذلك بالطبع إلا بمحو بعض الأساليب البدائية التي ميزت هذه المنشآت، وتحسين تقنيات بعضها رغم تشبث السكان المحليين بها.[36]

كانت الآليات التي لجأت إليها الحماية في بناء المنشآت المائية، من قنوات وسواق وخطارات وتهيئة السدود، تضر كثيرا بالسكان المحليين، بحيث كانت تنتزع منهم مساحات كبيرة من أراضيهم، من أجل القيام بأشغال البناء والتهيئة، فخسر هؤلاء عددا مهما من قطعهم الأرضية وصلت أحيانا إلى 68 قطعة للملاك الواحد، مما أحدث نقصا على مستوى مساحة أراضيهم وإلحاق الضرر بممتلكاتهم غير المنقولة خاصة الأشجار المثمرة كالزيتون والكروم وغيرها مقابل منحهم تعويضات مالية هزيلة[37]. وفي ظل الموقف المعارض للملاكين المغاربة ولأنظمة

السقي الخاصة بهم، كانت الحماية تقدم دعمها للمعمرين الفرنسيين والشركات الفلاحية الكبرى عبر خلق ظروف ملائمة لاستقرارهم بتمكينهم من الأراضي، التي اقتطعت جلها من الأراضي الجماعية، وبيعت لهم بأثمنة تفضيلية تدفع عبر أقساط سنوية.[38] وكانت أغلبها جاهزة للعملية الإنتاجية، بحيث تتوفر على حقوق الماء أسبوعيا ولمدة تتجاوز 24 ساعة، هذا مع تقديم الدعم المالي والتسهيلات الإدارية للاستثمار في القطاع الفلاحي، وربط علاقات مع النخبة المحلية للحصول على الأراضي وحقوق الماء.[39]

وبالإضافة إلى نزع إدارة الحماية لملكية أراضي المغاربة والصراع الدائم بين السكان والمعمرين على حقوق الماء كانت التساقطات المطرية الرعدية وفيضانات الوديان تحطم شبكة السواقي ملحقة خللا بالغا بجريان المياه، وذلك بردم مجاري الوديان بواسطة رواسب الأتربة والحصى والحجارة والصخور التي تجرفها الفيضانات،[40] ويؤدي غياب ترميم شبكة السواقي إلى الانهيار لكون معظمها من الأتربة الهشة القابلة للتسرب بفعل الإشباع بالماء.[41] لكن إدارة الحماية غالبا ما كانت تقوم بترميم السواقي وتهيئتها مثل بناء ساقية بالبرصلانة والحديد في مياه وادي بوشان بعد انحرافه سنة 1937.[42] وهكذا، فإنه بفضل النظام الهيدروليكي العصري الذي أقامه الاستعمار الفرنسي في مراكش وأحوازها إلى جانب تعزيزه لبعض أنظمة السقي المحلية تغير مشهد السهل في محيط وادي النفيس من قاحل إلى أرض خصبة، وكان إنشاء بعض السواقي المتفرعة من النهر كافية لتحويل هذه المنطقة إلى مزارع كبيرة.[43]

ثالثا: الوصاية الاستعمارية على الماء

كان من أولويات الإدارة الفرنسية لتنظيم الموارد المائية بمراكش وأحوازها إصدار قرار سحب جميع الاختصاصات المتعلقة بالمياه من مؤسسة الأحباس وتوليها مسؤولية تدبير شؤون المياه بموجب ظهير 7 شعبان 1332هـ الموافق 1 يوليوز 1914.[44] وذلك بوضع ضابط للمياه يرمي إلى ترشيد وعقلنة استغلالها، وبموجبه تتكفل بالحقوق الثابتة شرعا للأفراد ونصيبهم من الماء. ولفرض هذه الوصاية قامت بتحديد الأراضي التي تتوفر على حقوق الماء من عيون وآبار وسواق وخطارات ومصارف معدة لسقيها. ونزع الملكية من الفلاحين المغاربة لجلب المياه، وإعداد الأشغال بدعوى المصلحة العمومية، وغيرها من الجهود والتدابير التشريعية والقضائية والوقائية لتنظيم شؤون المياه المعدة للشرب وسقي الأراضي بمراكش وأحوازها.

1- المؤسسات المنظمة لشؤون المياه

لجأت الإدارة الفرنسية إلى إنشاء مؤسسات وأجهزة إدارية لتفعيل إجراءات وتدابير تنظيم المياه المعدة للشرب وسقي الأراضي المدينة وأحوازها ما بين 1919 و1939. وتتمثل هذه الأجهزة في إدارة الأشغال العمومية، وصندوق الاستعمار وفن جلب المياه، ونظام البوليس الجاري على المياه، وغيرها من الأجهزة المنظمة لشؤون الماء.

أ- إدارة الأشغال العمومية

تدير جميع الشؤون المتعلقة بالمياه وحقوق التصرف فيها، ولها الحق في إصدار القرارات المناسبة في كل القضايا المتعلقة بالمياه،[45] وذلك لتنظيم تهيئة المجاري المائية ولتوزيع المياه توزيعا عموميا بين الأفراد والجماعات من أرباب الصنائع أو الفلاحة الذين لهم مصلحة في الأمر.[46] ويحق لها إصدار الأوامر اللازمة في حالة حدوث نقصان الماء بشأن تنظيمها مؤقتا بقصد أن يعطي الناس حاجاتهم منها ويسقوا بهائمهم.[47]

ب- صندوق الاستعماروفن جلب المياه

يسمى أيضا بـ "الصندوق المختص بإدارة تحسين شؤون المياه لأشغال الفلاحة والاستعمار"، أسس بموجب الظهير الشريف المؤرخ في 4 يناير 1927، تعهد مسؤولية تدبيره إلى مهندس القناطر والطرق، وهو المكلف الوحيد بأشغال استجلاب المياه إلى المدن والأراضي الفلاحية.[48] ومع ذلك كانت الحماية تلجأ أحيانا إلى التدبير المفوض لقطاع الماء لبعض الإدارات العمومية خاصة تشييد المنشآت المائية كالسواقي والخطارات التي تعد عملا صعبا لا يتم إلا بمساعدة اليد العاملة المحلية وتتطلب صيانتها وتهيئتها تجديدا متكررا خاصة عند نزول المطر،[49] ولإنجاز أعمال البناء والتهيئة كانت تفوض الأمر إلى إدارة الاستغلاليات الصناعية للدولة الحامية التي قامت سنة 1932 بجلب مياه الخطارة المسماة بأكدال عدد 1 بناحية مراكش وكذلك تموين مدينة مراكش بالمياه المجلوبة،[50] واستمرت عملية التدبير المفوض لإمداد المدينة والأراضي الفلاحية بالمياه سنة 1933، وذلك ببناء الخطارة المعروفة بأكدال عدد 2 بفرع أحواز مراكش بعد نزع الملكية لأجل المصلحة العمومية.[51] وقد تمكن بالفعل المهندسون الفرنسيون من تحسين عمل هذه المنشآت من خلال سعيهم لجعلها أقوى للحصول على مياه أكثر وفرة ونقاء، ويمكن أن تكون خطارة أكدال 1 نموذجا لهذه المنشآت الجديدة، إذ يمتد طول القناة تحت الأرض وعززت بالإسمنت ووصل طولها إلى 7 كيلومترات، وتنقسم إلى فرعين كل جانب منها خمسة كيلومترات. وتم تطوير الجزء الجالب للماء بشكل كاف لتوفير متوسط 140 لتر/الثانية، وعند خروج المياه من الخطارة فإنها تمر مباشرة إلى حوض المعالجة بالكلور

قبل وصولها للمستهلكين.[52] وكان تحسين السواقي عن طريق بناءها بالإسمنت يتيح إمكانية الرفع من مستوى كمية المياه المخصصة للسقي.[53]

ج. نظام البوليس الجاري على المياه

يشرف على تدبير شؤون "نظام البوليس الجاري على المياه" المدير العام لإدارة الأشغال العمومية، الذي يحق له بناء على هذا النظام أن يقفل رأسا الأقنية التي تؤخذ منها المياه التي كانت قد أحدثت بدون إذن بها أو ثبت كونها محدثة بدون حق. وله الأمر بتنقيص مياه الأقنية التي يجري من مائها مقدار زائد على المقدار المعين بالرخص الممنوحة بشأنه أو بالضوابط الوقتية، وإن بلغ المخالف الإنذار الذي يجوز تقصير آجاله وجعلها 24 ساعة عند الاستعجال ولم يمتثل لأوامر المدير العام لإدارة الأشغال العمومية يتخذ حينئذ هذا الأخير وعلى نفقة المخالف التدابير اللازمة والعقوبات الموجبة في حقه[54].

2- التدابير الاستعمارية لتنظيم الموارد المائية

تنوعت التدابير والإجراءات الاستعمارية لتنظيم شؤون المياه المعدة للشرب ولسقي الأراضي الزراعية بين تدابير تشريعية عبر وضع ضابط للمياه، ونزع ملكية الأراضي ومنح رخص الماء للملاكين، وتدابير قضائية عبر فض النزاعات على حقوق المياه وضمان حق المرور، وتدابير زجرية ووقائية للمحافظة على الثروة المائية.

أ- التدابير القانونية

– إنشاء ضابط المياه

سعى الاستعمار الفرنسي إلى وضع تشريعات قانونية تتعلق بالمياه، تزيد من نصيب الممتلكات الاستعمارية من المياه، وتنزع الحقوق القديمة للسكان القائمة على السقي المحلي ذوي المردودية الضعيفة، ولتحافظ كذلك على وصايتها الاستعمارية على المياه[55]. لذلك تعتبر، بناء على الظهير المؤرخ في فاتح يوليو 1914 والمغير بالظهير المؤرخ بتاريخ 8 يونيو 1919، أن مجاري المياه المستمرة والمنقطعة وينابعها وموضع سيولها تدخل في حيز الأملاك العمومية.[56] وأكدت أحكام ظهير غشت 1925 إلى حد كبير هذه الوصاية على المياه السطحية والجوفية، لتصبح بذلك كل المياه تحت تصرف الدولة،[57] مع ضمان حقوق الملاكين في مياه الأمطار الواقعة على أراضيهم، والحق في حفر الآبار بدون رخصة مع مراعاة القوانين المتعلقة بالمحافظة على الراحة العمومية.[58] ووضعت فرنسا برنامجا يشمل فحص أولي لاحتياجات البلد فيما يتعلق

بالمنشآت المائية ودراسة الإمكانيات التقنية لتنفيذ الأعمال الهيدروليكية، وكل ما يتعلق بتوزيع المياه بين الصناعة والزراعة وإنشاء سدود كبيرة وخزانات وقنوات.[59]

- **نزع ملكية الأراضي**

استهدف القانون الصادر في نزع ملكية الأراضي المؤرخ في 9 شوال عام 1332 الموافق 13 غشت سنة 1914 أراضي الفلاحين المغاربة من أجل إحداث مناطق لجلب المياه، وبناء دهاليز معدة لجرها مع حفر القنوات لتجهيز مراكش بالماء الشروب وسقي الأراضي. وكانت نوعية هذه العقارات من صنف الأراضي المحروثة وغير المحروثة، اشتملت على عدة سواقي من أهمها ساقية الوادي.[60] وكان من ضمن المنشآت المائية التي شيدتها الحماية على هذه الأراضي خطارة مولاي رحال بالغرب من قلعة السراغنة سنة 1930.[61] وقامت بتهيئة السدود والزيادة فيها مثل الزيادة في علو سد وادي نفيس بـ "لالة تاكركوست" سنة 1933،[62] لإتاحة إمكانية الاستفادة من المياه المعدة للشرب وسقي الأراضي.[63] لكن رغم أعمال إنجاز المنشآت المائية وتهيئتها فإنها جاءت على حساب أراضي المغاربة في مقابل صيانة وضمان حقوق الملاكين الفرنسيين في السقي، وتسهيل أنشطتهم في مراكش وباديتها عبر منحهم أراضي شاسعة المساحة تضم سواقي وخطارات وقنوات لسقي ممتلكاتهم.[64]

- **رخص الماء**

نهج الاستعمار بعد دخوله إلى المنطقة عدة إجراءات، لتجاوز النزاعات وضمان حقوق الأفراد والجماعات من الماء، تمثلت في منح رخص الماء خاصة لسقي الأراضي بموجب قرار من المدير العام لإدارة الأشغال العمومية عقب إجراء بحث بذلك، مع مراعاة الشروط التي تنص على ضرورة انتفاع صاحب الرخصة بها في أجل قدره سنتان اثنتان. وتلغى الرخصة في حالة إذا انتفع بالمياه على كيفية مغايرة للكيفية المأذون فيها.[65] وكانت رخص السقي غالبا ما تدخل ضمن الامتيازات التي تمنحها الإدارة الفرنسية لكبار الملاكين ولأرباب المصانع، وكانت تجري هذه الامتيازات على المجاري التي يجري منها ماء يزيد مقداره على مائة ليتر في الثانية عند أقصى انخفاضها، ويخول الامتياز لصاحبه الحق في إحداث كل ما يلزم من الأبنية المعدة لاستعمال مجموع المياه أو قوتها المرخص بها.[66] واستفاد من رخص الماء الفلاحين الفرنسيين الذين منحتهم حقوق المياه الجديدة في التدفقات المستمرة المأخوذة من الأنهار والينابيع، ثم من الاحتياطيات الناشئة عن السدود أو مخزونات المياه الجوفية.[67]

ب- التدابير القضائية

وضع الاستعمار ضوابط قانونية لتفادي نزاعات الماء التي تحدث بين السكان المحليين والمعمرين خلال فترات نقص التدفقات المائية بسبب الاستغلال المفرط للمياه الجوفية من قبل المزارعين الأوروبيين خاصة في الجهة الشمالية ووسط الحوز التي تسقيها هذه المياه أكثر من الخطارات القديمة.[68] وأمام تزايد النزاعات بين الجماعات المحلية نفسها، التي تدير السواقي، والأوربيين، الذين يسعون نحو الوصول إلى القنوات المتاحة أو استعدادهم لبناء قنوات جديدة لسقي أراضيهم، دفع بإدارة الحماية إلى رفع قضايا النزاع على حقوق الماء إلى محاكمها التي تبث فيها، ثم فرض رقابتها على المياه ورصد المصارف التي تهدر المياه الجوفية، بل سعت إلى جمع معطيات شاملة عن جميع القنوات السطحية ووضع تصاميم لتحديد جميع التدفقات النهرية، وتدفقات القنوات وتشعباتها.[69] ولم تستثن من ذلك ضمان الحقوق المتعلقة المرور، التي عدتها من العوائد المرعية، بحيث يمكن أن تحدث حول الآبار والينابيع المجرورة منها المياه للمنفعة العمومية مناطق وقاية تترتب عليها حرمات خصوصية، وإذا كان إحداث هذه الحرمات سببا لعدم الانتفاع بأجزاء الأراضي التي تستغل فعليا فيحق لرب العمل بأن يطالب بنزع ملكيتها[70].

ج. التدابير الزجرية والوقائية

شملت الضوابط القانونية المتعلقة بحفظ المياه المعدة للشرب ومياه السقي بمراكش وأحوازها في عدم التعدي على حدود الملك العمومي، وعدم وضع حواجز تعيق جريان المياه وعدم الجولان على الضفاف، وعدم حفر الأرض وإحداث تجهيزات لاستقاء الماء بدون الاستئذان بذلك. ويعاقب كل من يخالف هذه الضوابط بذعيرة يتراوح مقدارها من فرنك واحد إلى خمسة عشر فرنكا وبالسجن من يوم واحد إلى ثلاثة أيام أو بإحدى هاتين العقوبتين فقط. ويعاقب بذعيرة مقدارها من 26 فرنك إلى 500 فرنك ويحكم عليه بالسجن من ستة أيام إلى ثلاثة أشهر أو بإحدى هاتين العقوبتين فقط كل من يضع بدون إذن في أقسام الأرض التي تغطي بالمياه حواجز وأسداد وكل بناء من شأنه أن يعيق عن جريان المياه عند فيضانها مالم يكن وضعها لوقاية المساكن والأجنة المتصلة بها، وأن ترمى في مجاري المياه مواد مضرة بالصحة العمومية وبسقي الحيوانات.[71]

أما الإجراءات الوقائية لاستهلاك المياه المعدة للشرب فتتمثل في زجر الغش والخداع والتدليس في بيع المياه المعدنية والكازوزة والماء السلس أو الثلج المعد للشرب بموجب القرار الذي أصدرته الحماية سنة 1933،[72] وضرورة خلو المياه المعدة للشرب من جراثيم الأمراض، ويجب أن

تكون المياه المبيعة للشرب في أوعية مفتوحة كالدمنجانات وأوعية القزدير وقرب الماء. ولا يجب أن يدخل في تركيب المياه المشروبة المتاجر بها بالقنابي أدنى مادة ذات خاصية علاجية. وعموما، فإن جميع المياه المعدة لشرب الناس المعروضة لأجل البيع أو المبيعة أو المقدمة للبيع يجب أن تكون خالية من كل جرثومة مرض، ويجب إجراء فحص تحليلي لمعرفة وجود جراثيم الأمراض في الماء وذلك بفتح الإناء الحاوي لتلك المياه بالطرق الواقية من الفساد وجراثيم الأمراض، ويجب أن تكون معقمة طبق الشروط المأمور بها لتعقيم مياه الشرب.[73]

وهكذا، فرضت الإدارة الفرنسية، منذ سنة 1919 إلى غاية 1939، وصايتها على الموارد المائية بمدينة مراكش وأحوازها بإحداث نظام هيدروليكي عصري يخدم بالأساس الممتلكات الاستعمارية، وقد تم ذلك بالاستحواذ على العقارات التي تتوفر على خزان مائي مهم، وفي كل موضع به جريان المياه والأودية وضفاف الأنهار. وأنشأت لغاية تكريس هذه الوصاية مؤسسات ومراكز واختبارات للبحث، وخلقت إجراءات لوقاية مناطق جلب المياه المعدة للشرب، وإثبات حقوق وضبط تهيئة المياه وتوزيعها العام.

خاتمة

إن دراسة تاريخ الماء في مراكش وأحوازها من المواضيع المهملة في حقل التاريخ المغربي المعاصر، نظرا لتعقد إشكالاتها ومواضيعها. وأمام هذه العقبات المنهجية حاولنا ملامسة إشكالية الاستعمار والماء بالتصدي لمختلف التساؤلات المرتبطة بها بالوقوف عند حدود مجال مدينة مراكش وأحوازها عبر تقديم رؤية حول وصاية الاستعمار الفرنسي على الأنظمة المائية في مراكش ونواحيها عبر تتبع الإجراءات القانونية والإدارية التي أقرتها الحماية تحت إشراف الإقامة العامة، ومدى استفادة المدينة والنواحي من مزايا التشريعات القانونية حول حقوق الماء، الذي وظفت لتدبير شؤونه آليات متعددة سهرت على تفعيلها مؤسسات عدة. ورغم جهود الإدارة الاستعمارية في إحداث منشآت مائية وخلق مناطق لجلب المياه وفرض شروط صحية ووقائية للمياه المعدة للشرب بالمدينة وأحوازها فقد شابها نقائص وإكراهات تنظيمية جعلتها دون فاعلية تذكر أمام نزع ملكية الفلاحين المغاربة وتحديد حقوق الماء المعد لسقي أراضيهم خلافا للمستثمرين الفرنسيين.

الهوامش:

[1] - Thierry RUF, Mina KLEICHE-DRAY, « Les eaux d'irrigation du Haouz de Marrakech : un siècle de confrontations des modèles de gestion publics, privés et communautaires », **EchoGéo**, 3/2018, //journals.openedition.org/echogeo/15258 ; DOI: 10.4000/echogeo.15258, p. 3.

[2]- اعتمدنا في إنجاز الشكل على عدة ظهائر وقرارات وزارية نشرت في أعداد الجريدة الرسمية من سنة 1919 إلى 1939، على سبيل التمثيل: العدد 446، 15 نونبر 1921، ص. 1027. ع 670، 25 غشت 1925، ص 145. ع 771، 2 غشت 1927، ص 1812. ع 926، 25 يوليوز 1930، ص 1655. ع 1097، 3 نونبر 1933، ص 1784. ع 1142، 14 شتنبر 1934، ص. 1297- 1298. ع 1184، 5 يوليوز 1935، ص. 1085. ع 1304، 22 أكتوبر 1937، ص. 1712- 1713. ع 1253، 12 يونيو 1938، ص. 826. ع 1403، 15 شتنبر 1939، ص. 1684-1685.

[3] - RUF, KLEICHE-DRAY, p. 4.

[4]- "**قرار وزيري في تعيين حدود الملك العمومي لمجرى وادي تملالت وضفافه المرتفعة**"، الجريدة الرسمية، عدد 661، 23 يونيو 1925، ص. 1126.

[5]- NACIVET, « L'Eau au Maroc », **France-Maroc**, 2e année N 1, 15 Janvier 1918, p. 4.

[6]- Ibidem.

[7] - Paul Fénelon, « L'irrigation dans le Haouz de Marrakech », In: **Bulletin de l'Association de géographes français**, N°138-139, 18e, année, 1941, p. 66.

[8] - Ibid, p. 67.

[9] - Marquis De Segonzac. « **Au cœur de l'Atlas, mission au Maroc, 1904-1905** », Émile Larose Libraire- Éditeur, Paris 1910, p. 12.

[10] - Fénelon, p. 68.

[11] - Ibidem.

[12]- "**قرار وزيري يتعلق بنزع ملكية اللازمة لإحداث منطقة لجلب المياه وبناء دهاليز معدة لجرها مع حفر قنوات لها لتجهيز مدينة مراكش بالماء الشروب وذلك من المصلحة العمومية**"، الجريدة الرسمية، ع 771، 2 غشت 1927، ص. 1810- 1811.

[13]- نفسه، ص. 1817.

[14]- "**قرار وزيري في التصريح بأنه من المصلحة العمومية والأمور المستعجلة مباشرة الأشغال المتعلقة ببناء القنوات الصالحات لإخراج مياه خطارة الرويش (بقلعة السراغنة) وفي نزع ملكية الأراضي اللازمة للأشغال المذكورة**"، الجريدة الرسمية، عدد 1145، 13 أكتوبر 1934، ص. 1432.

[15] - Nacivet, p. 8.

[16] - Fénelon, p. 69.

[17]- "**ظهير شريف في تقييد البناء المشتمل على ضرائح السلاطين وثلاث سقايات كائنة بمراكش في عدد الأبنية التاريخية**"، الجريدة الرسمية، العدد 455، 17 يناير 1922، ص. 53.

[18]- "**قراروزيري ف الإذن بشراء قطعتي أرض كائنتين بتحناوت بناحية مراكش**"، الجريدة الرسمية، عدد 1233، 12 يونيو 1936، ص. 828.

[19]- "**قراروزيري يحد بموجبه عن سنة 1936 عدد الأعشار التي تزاد على أصل الضريبة من المباني وتستخلص لمنفعة ميزانيات المدن التي فيها بلديات**"، الجريدة الرسمية، عدد 1236، 3 يوليوز 1936، ص. 922.

[20]- **الجريدة الرسمية**، عدد 1236، 3 يوليوز 1936، ص 925- 926- 927. ع 1251، 16 أكتوبر، 1936، ص 1469- 1470. ع 1282، 21 مايو 1937، ص. 904. ع 1290، 16 يوليوز 1937، ص 1124- 1125. ع 1329، 15 أبريل 1938، ص. 677- 678. ع 1332، 6 مايو 1938، ص. 793. ع 1389، 9 يونيو 1939، ص. 1113. ع 1396، 28 يوليوز 1939، ص. 1373.

[21] - Jean Rossano, « La colonisation européenne dans le Haouz de Marrakech », In: **Cahiers d'outre-mer**. N° 28 - 7e année, octobre- décembre 1954, p. 346.

[22] - Ibidem, p. 346.

[23] - علاحمو عمر، هلال عبد المجيد، "أهمية الحفاظ على الخطارات وإمكانيات إدماجها في صيرورة البناء الترابي بواحة تودغا (المغرب)"، **مدارات تاريخية**، المجلد الأول – عدد خاص- أبريل 2019، ص. 139.

[24] - Fénelon, p. 66.

[25] - نفسه، ص. 142.

[26] - Nacivet, p. 7.

[27]- اعتمدنا في إنجاز الجدول على عدة ظهائر وقرارات وزارية نشرت في أعداد الجريدة الرسمية من سنة 1919 إلى 1939، على سبيل التمثيل: العدد 1150،9 نونبر 1934، ص 1607- 1608. ع 1184، 5 يوليوز 1935، ص 1084. ع 1251، 16 أكتوبر 1936، ص 1465- 1466. ع 1265، 22، 1937، ص 112- 113. ع 1304، 22 أكتوبر 1937، ص ص 1711- 1713. ع 1338، 17 يونيو 1938، ص ص 1002- 1005. ع 1341، 6 يوليوز 1938، ص 1128- 1129. ع 1362، 2 دجنبر 1938، ص ص 1993- 1995ع 1396، 28 يوليوز 1939، ص. 1373.

[28] - Jouve, p. 53.

[29] - Ruf, Kleiche-Dray, p. 8.

[30] - Fénelon, p. 69.

[31] - Ibid, p. 70.

[32]- اعتمدنا في إنجاز الجدول على عدة ظهائر وقرارات وزارية نشرت في أعداد الجريدة الرسمية من سنة 1919 إلى 1939، على سبيل التمثيل: العدد 446، 15 نونبر 1921، ص 1027. ع 465- 466، 28 مارس و4 أبريل 1922، ص 428. ع 527، يونيو 1923، ص 552. ع 544- 545، 2 و9 أكتوبر 1923، ص 867-

23 دجنبر 1924، ص. 1644- 1645. ع 651، 14 أبريل 1925، ص 695. ع 1161، 25 يناير 1935، ص ص. 116- 117- 118. ع 1338، 17 يونيو 1938، 1001- 1002. ع 1416، 15 دجنبر 1939، ص. 2104.

[33] - Ibid, p. 67.

[34]- Anne-Marie Jouve, « Les trois temps de l'eau au Maroc : l'eau du ciel, l'eau d'État, l'eau privée », **Confluences Méditerranée**, 2006/3 (N°58), p. 53.

[35] - Rossano, « **La colonisation européenne dans le Haouz de Marrakech** », op.cit, p. 353.

[36]- Jouve, p. 53.

[37]- "**قرار وزيري في الإذن بشراء الأراضي اللازمة لبناء الساقية المدعوة تسلطانت (مراكش)**"، الجريدة الرسمية، العدد 1082، 21 يوليوز سنة 1933، ص. 1234.

[38] - Rossano, p. 346.

[39] - Ruf, Kleiche-Dray, p. 3.

[40] - الناصري، محمد، **الجبال المغربية: مركزيتها- هامشيتها- تنميتها**، منشورات وزارة الثقافة المغربية، الرباط، 2003، ص. 189.

[41]- علاحمو عمر، هلال عبد المجيد، "**أهمية الحفاظ على الخطارات**"، ص. 145.

[42]- "**قرار وزيري في التصريح بأنه من المصلحة العمومية والأمور المستعجلة الأشغال الراجعة لبناء ساقية لانحراف مياه وادي بوشان**"، الجريدة الرسمية، عدد 1315، 7 يناير 1938، ص. 11.

[43] - De Segonzac, p. 11- 12.

[44] - Ruf, Kleiche-Dray, p. 4.

[45]- "**ظهير شريف يتعلق بجعل ضابط للمياه**"، الجريدة الرسمية، العدد 670، 25 غشت 1925، ص 1459.

[46]- نفسه، ص. 1459- 1460.

[47]- نفسه، ص. 1462.

[48]- "**ظهير شريف في تغيير الظهير الشريف المؤرخ بتاسع وعشري جمادى الثانية عام 1345 الموافق 4 يناير سنة 1927 الصادر بتأسيس صندوق للاستعمار ولفن استجلاب المياه للمصالح الفلاحية**"، الجريدة الرسمية، العدد 759، 10 ماي 1927، ص. 1092.

[49] - Fénelon, p. 66.

[50]- "**قرار وزيري يتعلق باستغلال إدارة عمومية لتوزيع المياه**"، الجريدة الرسمية، العدد 1060، 17 فبراير 1933، ص. 2307.

[51]- "**قرار وزيري في التصريح بأن الأشغال المتعلقة ببناء الخطارة المعروفة بأكدال عدد 2 (بفرع أحواز مراكش) هي من المصلحة العمومية والأمور الاستعجالية**"، الجريدة الرسمية، العدد 1094، 13 أكتوبر 1933، ص. 1688- 1689.

[52]- Ibidem.

[53] - الناصري، ص. 181.

[54]- "**ظهير شريف يتعلق بجعل ضابط للمياه**"، الجريدة الرسمية، العدد 670، 25 غشت 1925، ص. 1462.

[55] - Moulay Driss El Jihad, « L'eau de la montagne et le pouvoir étatique au Maroc : entre le passé et le présent », **Annales de Géographie**, t. 110, n°622, 2001, p. 668.

[56]- "**ظهير شريف يتعلق بجعل ضابط للمياه**"، الجريدة الرسمية، العدد 670، 25 غشت 1925، ص. 1459.

[57] - Ibid.

[58] - نفسه، نفس الصفحة.

[59] - Nacivet, p 9.

[60]-"**قرار وزيري يتعلق بنزع ملكية الأراضي اللازمة لإحداث منطقة لجلب المياه وبناء دهاليز معدة لجرها مع حفر قنوات لها لتجهيز مدينة مراكش بالماء الشروب وذلك لأجل المصلحة العمومية**"، الجريدة الرسمية، العدد 771، 2 غشت 1927، ص. 1812.

[61]-"**قرار وزيري في التصريح بأنه من المصلحة العمومية والأمور الاستعجالية أشغال بناء خطارة بمولاي رحال بالغرب من قلعة السراغنة**"، الجريدة الرسمية، العدد 926، 25 يوليوز 1930، ص. 1655.

[62]- "**قرار وزيري في التصريح بأن الأشغال المتعلقة بالزيادة في علو سد وادي نفيس بلالة تاكركوست (بمراكش) هي من المصلحة العمومية**"، الجريدة الرسمية، العدد 1083، 28 يوليوز 1933، ص. 1273.

[63]- Ruf, Kleiche-Dray, p. 8.

[64]- "**ظهير شريف في الإذن بأن تباع بالمزايدة العمومية قطعة عدد 11-5 الكائنة بقلعة السراغنة (بناحية مراكش)**"، الجريدة الرسمية، العدد 858، 2 أبريل 1929، ص. 882- 883.

[65]- "**ظهير شريف في تغيير الظهير الشريف المؤرخ في 11 محرم عام 1344 الموافق لفاتح غشت سنة 1925 الصادر بجعل ضابط للمياه**"، الجريدة الرسمية، العدد 1034، 19 غشت 1932، ص. 1534- 1535.

[66]- "**ظهير شريف يتعلق بجعل ضابط للمياه**"، الجريدة الرسمية، العدد 670، 25 غشت 1925، ص. 1460.

[67] - Ibid, p. 5.

[68] - Ibid, p. 7.

[69] - Ibidem.

[70]- "**ظهير شريف يتعلق بجعل ضابط للمياه**"، الجريدة الرسمية، العدد 670، 25 غشت 1925، ص. 1459.

[71]- نفسه، ص. 1462.

[72]- "**قرار وزيري يتعلق بالمياه المعدة للشرب والمياه المعدنية والكازوزة وماء سلس وشراب الليمونادة والصودا أو بالثلج المعد للشرب**"، الجريدة الرسمية، العدد 1097، 3 نونبر 1933، ص. 1784.

[73]- "**قرار وزيري في تغيير القرار الوزيري المؤرخ في 3 محرم عام 1352 الموافق 28 أبريل سنة 1933 المتعلق بالمياه المهيأة للشرب والمياه المعدنية والكازوزة وماء سلس وشراب الليموناد والصودا وبالثلج المعد للشرب**"، الجريدة الرسمية، العدد 1111، 9 فبراير 1934، ص. 174- 175.

الكاتب: أ/ محمد مرزوك
بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالقنيطرة المغرب
merzougmohamed20@gmail.com

عنوان المقال: محورية الوقف في رعاية الفئات الهشة في تاريخ الغرب الإسلامي من خلال كتب النوازل

تاريخ الإرسال: 2020/03/06 تاريخ القبول:2020/05/26 تاريخ النشر: 2020/06/30

محورية الوقف في رعاية الفئات الهشة في تاريخ الغرب الإسلامي من خلال كتب النوازل

ملخص

يعتبر الوقف آلية إسلامية خالصة للتكافل الاجتماعي بين فئات المجتمع، وحلا ناجعا لمشكلة الفقر والهشاشة. وقد تميز مجتمع الغرب الإسلامي عبر تاريخه باعتماد الوقف من أجل رعاية الفئات الهشة اقتصاديا ونفسيا.

فقد شمل عطف أغنياء مجتمع الغرب الإسلامي فئة الفقراء والمساكين، بتخصيص أوقاف تمنح عائداتها مرتبات شهرية أو أعطيات منتظمة لهذه الفئة، وكانت هذه الأوقاف لكثرتها تكفي هذه الفئة ويبقى منها وفر يصرف على باقي الفئات الهشة الأخرى من المجتمع. كما كان الاهتمام كبيرا بفئة الأيتام باعتبارها فئة تحتاج دعما نفسيا أكثر، وقد خصصت بعض الأوقاف من أجل التكفل بها والإحسان إليها وختان الأيتام الذكور منها.

ومن الفئات الهشة التي اعتنى بها الوقف فئة المرضى عموما والمجذومين خصوصا حيث تم بناء حارات للجذمى تمول بالكامل من الأحباس، وتوفر كل احتياجات فئة المجذومين. أما عموم المرضى فكانت تخصص لهم أوقاف بعينها سواء قبل تأسيس المستشفيات أو بعدها، كما كانت عناية الوقف بارزة في التكفل بفئة المعوقين نظرا لخصوصية احتياجاتها.

ومن الفئات الهشة التي لم يغفلها الوقف فئات المشردين والغرباء والمسنين والنساء اللاتي وقع بينهن وبين أزواجهن نفور، حيث تم بناء ملاجئ ودور خاصة بكل فئة تحفظ كرامتها وتقيها الأمراض والأخطار وتوفر لها كل ما تحتاجه.

الكلمات المفتاحية: الوقف، الأحباس، الفئات الهشة، الغرب الإسلامي، النوازل.

Abstract

The "waqf" is considered an Islamic tool for social solidarity among social groups, and an effective solution to the problem of poverty and fragility.

Throughout history, the western muslim community was distinguished by adopting the Waqf for the poor groups at the economic and psychological levels.

Rich people of the Islamic west society sympathize the situation of the poor and the needy which pushed them to allocate endowments that give a monthly salary or regular grants to this group. These endowments were sufficient for this group and still remain a saving that is spent on the rest of the other fragile groups of society. There was also a high interest for the category of orphans, as it is a category that needs more psychological support, and some endowments have been devoted to sponsoring and circumcising male orphans.

Among the fragile categories that the endowment took care of, the category of patients in general and the leprosy in particular, where leprosy lanes were built, which are entirely sponsored from Ahbas, and provide all the needs for the leper group. Whereas for other patients, special endowments were allocated to them, either before or after the establishment of hospitals. This endowment care was prominent in sponsoring disabled people due to their particular needs.

Amid the fragile groups that were not ignored by the waqf were the homeless, strangers, the olderly, and the women who had problems with their husbands. Shelters and homes were built for each group that preserves their dignity, protects them from diseases and dangers, and provides them with everything they need.

Key words: waqf, Ahbas, fragile groups, the Islamic west, the nawazil.

مقدمة

يعتبر نظام الوقف الإسلامي ابتكارا إسلاميا فريدا لحل الكثير من المشكلات الاجتماعية المتعلقة بالفقر والهشاشة، فهو نوع من التكافل الاجتماعي بين مكونات المجتمع الواحد. وقد قام بأدوار فريدة وكانت له بصمات واضحة في تاريخ المجتمعات الإسلامية شرقا وغربا.

غير أن مجتمعات الغرب الإسلامي منذ الفتح الإسلامي لبلادها، قد تميزت عن مثيلاتها بالمشرق بوفرة الوقف وتنوع مصادره وكثرة أنواعه، فشمل الوقف الحيوان والإنسان والطبيعة. والسبب في هذا التنوع والكثرة هو طبيعة مجتمعات الغرب الإسلامي المتسمة بالعطاء، ثم ما وفره المذهب المالكي المعتمد في الغرب الإسلامي عبر تاريخه الطويل من يسر ومرونة في شروط الوقف مخالفا في ذلك باقي المذاهب الفقهية التي تشددت في الكثير من شروط الوقف.

وباعتبار الفئات الهشة تحتاج إلى تعهد دائم وعناية خاصة مستمرة، فقد كان نظام الوقف هو الأقدر على القيام بهذا الدور بفضل الأموال والممتلكات التي وجهها أغنياء المسلمين وملوكهم، فكان هذا الوقف موردا دائما لا ينضب للتكفل التام بالمعوقين والمرضى والمسنين والفقراء والمساكين والأيتام والمشردين والغرباء وغيرهم.

وفي هذا البحث سأذكر نماذج من الفئات الهشة التي استطاع نظام الوقف التكفل بها كلية، معتمدا على التنقيب في كتب النوازل بالغرب الإسلامي التي تعتبر مصدرا تاريخيا تبعيا خصبا وغنيا للتاريخ الاجتماعي لهذه الرقعة الجغرافية من العالم الإسلامي، وعلى كتب التاريخ العام التي أرخت للمنطقة.

لا بد في بداية هذا البحث من تعريف الوقف في الفقه الإسلامي باعتباره عبقرية إسلامية تهدف تحقيق التكافل الاجتماعي بين فئات المجتمع، خصوصا في المجتمع الذي نتحدث عنه وهو مجتمع الغرب الإسلامي الذي كان المذهب المالكي عبر تاريخه المذهب الرسمي والشعبي، ومعرفة الخصائص المميزة له عن باقي المذاهب التي كانت سببا في تنميته وتميزه.

الوقف في الفقه الإسلامي

إن الفقهاء يستعملون مصطلحين للدلالة على الوقف، فيستعملون "الحبس" ويستعملون "الوقف"، قال ابن عرفة في حدوده: " الْفُقَهَاءُ بَعْضُهُمْ يُعَبِّرُ بِالْحَبْسِ وَبَعْضُهُمْ يُعَبِّرُ بِالْوَقْفِ، وَالْوَقْفُ عِنْدَهُمْ أَقْوَى فِي التَّخْبِيسِ"[1]. وقد عرف الوقف في الفقه الإسلامي بتعريفات متقاربة تتفق حول المقصد من إنشاء الوقف وأدواره التكافلية، لكن اختلفت هذه

التعريفات في رؤية كل مذهب للوقف، من حيث أحكام استرجاعه، ومدة عقده، ومن له الحق في التصرف فيه وغيرها من الأحكام.

وبما أننا سنتحدث عن الغرب الإسلامي فسأقتصر على تعريف المذهب المالكي للوقف، وهدفي من ذلك هو معرفة ما يميزه عن غيره من المذاهب في يسر شروطه وقلة تعقيداته. فالوقف عند المالكية عرف بدوره بتعريفات كثيرة تراعي نظرة المذهب للوقف وأحكامه، لكن مضمونها واحد، ومما يميز المذهب المالكي عن غيره في مسألة الوقف أنه يعطي للواقف حق اختيار التوقيت لوقفه، كأن يوقف عقاره أو منفعتها بمدة حياته. وقد عرف الشيخ الدردير الوقف بأنه: "جعل منفعة مملوك ولو بأجرة أو غلته لمستحق بصيغة مدة ما يراه المحبس مندوب"[2].

والوقف عند المالكية يتميز بالخصائص التالية [3]:

- أن الوقف يكون في الأعيان والمنافع.
- أنه يجوز للواقف اشتراط المدة فيه.
- أن الوقف يخرج العين الموقوفة من ملك الواقف، فلا يحق له التصرف فيه بالبيع والهبة والرهن وغيرها.
- أن الوقف لا ينتقل بالميراث إن اشترط الواقف التأبيد فيه.
- أن الوقف من التصرفات اللازمة بعد انعقاده، فلا رجوع فيه.
- أن الوقف لا يقطع حق الملكية، وإنما يقطع حق التصرف في الموقوف.

إن الكثير من هذه الخصائص السالفة الذكر يختلف فيها المذهب المالكي مع غيره، فهو يتميز بالتيسير في الشروط، مما جعل الوقف ينتعش وتكثر أنواعه وتتعدد الفئات الموقوف عليها خاصة أنواعا كثيرة من الفئات الهشة التي سنبين دور الوقف في التكفل بها فيما يأتي من عناصر هذا البحث.

1- الوقف على الفقراء والمساكين والأيتام

كانت فئة الفقراء والمساكين بالغرب الإسلامي الفئة الغالبة على باقي الفئات الهشة في المجتمع، لذلك حظيت بنصيب كبير من مجموع الأوقاف، إذ الفقر يقترن في الغالب بقلة التغذية وسوئها، وضيق المساكن أو انعدامها، والعجز عن التداوي بسبب قلة اليد، وهذه الظروف هي البيئة الخصبة لنشوء الأمراض وانتشارها، مما جعل أغنياء المسلمين يوجهون عنايتهم للتكفل باحتياجاتها وقاية لها من مخاطر أخرى.

وقد حوت كتب التاريخ نماذج كثيرة على وقف أغنياء المسلمين ببلاد المغرب أملاكهم على الفقراء والمساكين، وأصدق من عبر عن ذلك كتب النوازل المالكية ببلاد المغرب والأندلس، التي تعتبر كنزا وجب الاهتمام به من أجل التأريخ لهذه الرقعة الجغرافية من العالم الإسلامي بفضل ما تتميز به هذه النوازل من واقعية وحدوث فعلي، ولا يعتريها ما يعتري بعض كتب التاريخ العام من الزيادة أو التحجيم أو أي عوامل أخرى تتعلق بتوجه المؤرخ أو انتمائه العقدي أو المذهبي أو السياسي أو غيرها.

كما كانت للمساكين أوقاف تكفي حاجاتهم ويصرف من ريعها لتسد فاقتهم، وكانت غالب العقارات المحبسة على المساكين أراض تكترى ويصرف عائدها عليهم، غير أنه كان بين الفينة والأخرى يحدث جفاف في بعض السنوات، يجعل عائد الأحباس ينقص مما يؤثر على النفقات التي تجرى على المساكين، فينتج عن ذلك مجاعات وأوبئة تهدد حياة هؤلاء المساكين. وقد دفع هذا الوضع بعض الناس إلى سؤال القاضي أبي الحسن علي محسود عن إمكان بيع أرض المساكين المحبسة عليهم " في مثل هذه السنة لعيشهم لما نزل من الخصاصة والحاجة". ورغم رأي المالكية في عدم بيع الأحباس وتشددهم في ذلك، إلا أن القاضي قد رأى أن من مصلحة المساكين بيع أحباسهم في مثل هذه الظروف حفظا لنفوسهم من الهلاك، فقال رحمه الله: " بيع أرض المساكين في مثل هذه السنة لعيشهم وحياة أنفسهم أفضل عند الله من بقاء الأرض بعد هلاكهم، وقد أمرت ببيع كثير منها في مثل هذه السنة"[4].

بل أكثر من ذلك إن ظهر أن أحباس المساكين لم تعد تؤدي دورها وقل ريعها، فإن بيعها واستبدالها بما هو أصلح لهم هو عين الصواب، ومن ذلك أن ابن الفخار سئل عن ذلك فأجاب: " كل ما لا ينقسم من الأصول أو الأرحى وغير ذلك مما يكون فيه نصيب للمساكين وغيرهم، وقل نفعه بيع جميعه واشترى بما لا يقع منه للمحبس مثل بيع منه تكون صدقة محبسة مسبلة، كما سبلها صاحبها"[5].

وقد كانت أحباس المساكين في كثير من الأحيان لوفرتها وكثرتها تكفي كل مساكين الموضع ويبقى منها وفر فائض عنهم، مما جعل بعض الفقهاء يفتي بتحويل هذا الفائض في وجوه خير أخرى، كما حكى ذلك الإمام عبد الله العبدوسي حين قال: " إن كان الحبس من أحباس المساكين وظهر وفر واسع على ما سموا جاز أن يصرف ذلك الوفر في مَصالح لغيره"[6].

ولما انتشرت ظاهرة الوقف على المساكين، فقد استأثرت قضية تعيين هؤلاء المساكين باهتمام الفقهاء وعموم الناس، فإن تعيين المسكين من غيره مما يعسر لصعوبة إيجاد

ضوابط تحدد ذلك، كما أنه كان من عادة بعض الناس غير المساكين أن يدخلوا أنفسهم ضمن قائمة المساكين فيضيقون عليهم نفقاتهم، وقد جر هذا الوضع غير السوي إلى سؤال الفقيه عبد الله العبدوسي عن ذلك، فكان جوابه: " النظر في أعيان المساكين وتعيينهم ومقدار ما يستحقونه موكول إلى أمانة الناظر في الحبس، ومصروف إلى اجتهاده ونظره، والناظر مصدق في ذلك من غير بينة تقوم عليه"[7].

وقد أورد الونشريسي في معياره أن الإمامين أبي عمران الفاسي وأبي بكر بن عبد الرحمان قد سئلا "عمن حبس موضعاً من ماله مؤبداً على المساكين في وصيته"[8].

ومما يبرز الوقف على إطعام المساكين أن المواق سئل "عن رجل أوصى بفدان يكون حبساً على المساكين بعد وفاته يؤخذ فائده كل عام ويشترَى به خبز ويفرق على الضعفاء والمساكين"[9]. والأمثلة على وقف المغاربة أملاكهم على رعاية المساكين كثيرة، ويكفي ما ذكر في هذا الباب إذ الهدف إبراز بعض الأمثلة حتى يتضح المعنى[10].

وإلى جانب فئة الفقراء والمساكين، اتجهت عناية أغنياء المسلمين نحو فئة تحتاج عطفا ورأفة ورحمة أكثر هي فئة الأيتام خصوصا إن كانوا فقراء، لذلك وجد الكثير من الأوقاف التي تعتني بهم، فقد خصص السلطان أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق وقفا لختان الأيتام وكسوتهم والإحسان إليهم بالمال والطعام في كل عاشوراء زمن حكمه[11].

2- الوقف على المجذومين وعموم المرضى والمعوقين

سأعتمد في هذا العنصر في الغالب على نوع من المصادر التي بدأ المؤرخون المعاصرون الاعتماد عليها بقوة في التأريخ للغرب الإسلامي وهي كتب النوازل المالكية التي ألفها علماء من هذه الرقعة الجغرافية من العالم الإسلامي، فطائفة كبيرة من الباحثين قد انصبت جهودهم نحو استثمار الجانب التاريخي من النوازل باعتبارها "مرآة تعكس الواقع في أصدق صوره"[12]. إن غنى مادة النازلة يمكّن من كشف ما عجزت عن إدراكه الحوليات التاريخية، فهذه النوازل وقائع حية تعكس صورة المجتمع الإسلامي في خصوصياته ومشاكله وتعقيداته.

وقد ضمت كتب النوازل الكثير من فتاوى الوقف، مما جعل مصنفي هذه الكتب يفردونها بأبواب بأكملها، بل إن الونشريسي في موسوعته النوازلية الموسومة ب "المعيار المعرب" قد جعل أحد أجزاء هذا الكتاب (الجزء السابع) مخصصا للوقف فقط وسماه " نوازل الأحباس"، وهو يضم 528 صفحة حوت 471 نازلة عن الأوقاف، وزعت على مجالات

كثيرة اقتصادية واجتماعية[13]، كما وجدت نوازل أخرى للأوقاف موزعة على أجزاء كتاب المعيار، فقد وجدت في الجزء الأول، والخامس، والسادس، والثامن والتاسع. وهذا يؤكد أن فكرة الوقف كانت حاضرة بقوة في مجتمعات الغرب الإسلامي، وكانت " مملكة الوقف" تأوي الكثير من المحرومين والمرضى والضعفاء، وتقوم بأدوار طلائعية في تنمية المجتمع.

1.2 الوقف على المجذومين

وقد وجد الوقف على المرضى بتخصيص عائدات بعض الأوقاف للمرضى خصوصا الجذمى منهم، فوجدت حارات ببلاد المغرب والأندلس كانت مخصصة للمصابين بالجذام، وكان موقعها يختار بعناية في ضواحي المدن كقرطبة وفاس ومراكش وغيرها من الحواضر، وكان يطلق عليها في بعض بلاد المغرب " حارة الجذمى" وفي بلاد أخرى " ربض المبتلين"، وقد شهد بوجود هذا الربض بالقيروان الإمام البرزلي (ت 841هـ) في نوازله فقال: " وقد كان بالقيروان ربض يسمى بربض المبتلين، وجعل لهم ماجل لم أزل أسمع بالقيروان يقال له ماجل المجذومين"[14].

وكان فقهاء المالكية الأوائل قد اختلفوا في إخراج المجذومين لناحية من الحاضرة، فمنع ذلك بعضهم كأصبغ، وأمر بعضهم كابن حبيب بضرورة اتخاذ موضع لهم خارج المدن. لكن يبدو أن الضابط في هذا هو عدد مرضى الجذام، فإن كانوا قلة لم يخرجوا، وإن كثروا وجب اتخاذ موضع خاص بهم يوفر فيه كل ما يحتاجونه في حياتهم اليومية دون مخالطة للأصحاء خوفا من انتشار العدوى. قال البرزلي: " واختلف في إخراجهم من الحاضرة لناحية منها، ففي الواضحة عن الأخوين أيضا: لا يمنع النفر القليل، وحكمهم حكم غيرهم من الأصحاء في المخالطة، وإن كثروا اتخذوا لأنفسهم موضعا كما صنع لمرضى مكة أخرجوا إلى التنعيم. وأما القرى لا يخرجون منها وإن كثروا إلا أنهم يمنعون من أذاهم في مجامعهم. وعن أصبغ: لا يقضى عليهم في الحاضرة بخروجهم منها، ولكن إن كفاهم الإمام مؤنتهم منعوا من إذاية الناس. وابن حبيب: ويمنعهم ويصرفهم لناحية منها"[15].

والذي يهم من هذا أن أغنياء المسلمين كانوا يوجهون عنايتهم للتكفل بالمجذومين عبر نظام الوقف على هذه الحارات التي كان لها نظام خاص، حيث يوفر لهم كل ما يحتاجونه من المأكل والمشرب والخدمة، وإنما كان عزلهم في ضواحي المدن كشكل من أشكال العزل الصحي أو " الحجر الصحي" الذي يطبق على بعض الأمراض المعدية إلى يومنا هذا خشية انتشار العدوى.

2.2 الوقف على عموم المرضى

لقد كانت أوقاف المرضى حاضرة في المصادر التاريخية والفقهية بالغرب الإسلامي، وعرف عن المغاربة الوقف على المرضى حتى قبل بناء المستشفيات بزمن بعيد، فقد نقل عِيسَى بن سهل الأَسدي الجياني (413-486هـ) في كتابه " ديوان الأحكام الكبرى" وهو يذكر أقوال أئمة المذهب المالكي في عدم جواز الكراء بغير أمد أو الكراء الطويل الأمد للأحباس - خشية منهم موت العارفين بالحبس والشهداء فيه فيأخذه المكتري ويصبح ملكا له أو لورثته-، أن ابن العطار(ت 399هـ) في وثائقه صرح أن القضاة في عهده رخصوا بعقد قبالة أحباس المرضى لأربعة أعوام فقط حفاظا على هذه الأحباس من الضياع بطول الوقت. قال ابن العطار: " واستحسن القضاة عقد قبالة أحباس المرضى والمساكين والمساجد لأربعة أعوام خوف أن تدرس الأحباس بطول مكثها بيد متقبلها"[16]. وهذا يثبت الوجود الفعلي لأحباس المرضى منذ القرون الأولى للتاريخ الإسلامي للمغرب والأندلس.

وقد كان أغنياء بلاد المغرب والأندلس يحبسون بعض ممتلكاتهم على المرضى، حتى أصبحت لهم أوقاف كثيرة معروفة في كل حاضرة من حواضر الغرب الإسلامي تكفيهم لسد حاجاتهم، وكان بعض المرضى ينتقلون من مدينة إلى أخرى، فيقع أن يمنع بعضهم من حقهم فيما حبس لمرضى البلد الذي حلوا به، مما جعل بعضهم يتجه إلى القضاء لإنصافه بأخذ حقه مثل باقي مرضى البلد الذي نزل به، فكان القضاة ينصفون هؤلاء المرضى بمجرد التأكد من أنهم قد استوطنوا البلد الجديد وأصبحوا مقيمين به، معتمدين توجيهات المذهب المالكي الذي يعتبر كل من حل ببلد ومكث فيه فوق أربعة أيام فهو في حكم المقيم وليس المسافر، فلا يقصر الصلاة تبعا لذلك. وهذا ما سئل عنه ابن سهل في مرضى دخلوا لقرطبة من غيرها وطلبوا الدخول مع مرضاها في الأوقاف المحبسة على المرضى، فكان حكمه أن " ذلك لهم بعد مُقام أربعة أيام إذا قالوا إنهم يريدون الاستيطان بها"[17].

ولما كان الحبس على المرضى يقتضي تعيينهم، فقد كان يقع الخلاف في تحديد المرضى المستحقين، خصوصا وأن درجات المرض تختلف من مريض لآخر، كما أن من شروط بعض الواقفين أن يجعل ريع ما وقف على نوع من المرضى خصوصا مرضى الجذام الذي كان منتشرا ببلاد المغرب والأندلس، مما جعل مهمة تعيين المرضى من اختصاص الأطباء الذين وكل لهم تشخيص المرض، وتحديد مستوى خطورته، ليسهل تبعا لذلك تحديد المستحقين

للأحباس، وفي مثل هذا أفتى ابن الحاج " في حبس على المرضى بأن شهادة الأطباء أن به مرضاً يقال له الجذام يوجب له السهم، ولو كان على المرض القطع فقطع أنملة فما فوقها يوجب السهم"[18].

ومما يبرز مكانة الوقف على المرضى في المغرب والأندلس قبل إنشاء المستشفيات، أن السلاطين أنفسهم لم تكن لهم القدرة على مصادرة أحباس المرضى ولا استبدال موضعها رغم حاجة الحكام لذلك أو تأذيهم بها، مما يدل أن الوقف على المرضى لم يكن من اختصاص السلاطين لوحدهم بل كان ظاهرة مجتمعية من أغنياء المسلمين لفائدة المرضى الفقراء. فقد أورد القاضي عياض في مداركه أن الأمير عبد الرحمان الناصر أراد شراء مجشر من أحباس المرضى بقرطبة في عدوة النهر، فشرح الأمير الأمر للقاضي ابن بقي وأبدى له رغبته وضرورته في شرائه نظرا لتأذيه من منظره، ذلك أن قصره كان مقابلا له، وكان منتزهه يطل عليه، فاعتذر ابن بقي للأمير الناصر، فأمره باستشارة الفقهاء، وأن يخبرهم برغبة الأمير في إعطاء أضعاف ثمن هذا المجشر من أجل شرائه، فاستضافهم في القصر واستشارهم ابن بقي فلم يرخصوا له بشرائه معتمدين في ذلك على المذهب المالكي الذي يمنع بيع الأحباس، فغضب السلطان على الفقهاء غضبا شديدا. فلما بلغ الفقيه محمد بن يحيى بن عمر بن لبابة (ت 330) [19] هذا الخبر، - وهو الذي كان الناصر قد عزله عن الشورى لما بلغه عنه من أمور- رفع إلى الأمير الناصر أن الفقهاء قد ضيقوا عليه واسعا وأن له مخرجا شرعيا، فأمر الناصر بإعادة الشورى في هذه المسألة مع الفقهاء، وأنه يريد معاوضة هذه الأحباس بما هو أغبط لهم، فاجتمعوا في جامع قرطبة هذه المرة، فبقي الفقهاء على رأيهم بعدم جواز المعاوضة، فحضر الاجتماع هذه المرة ابن لبابة وجاء متأخرا، فأفتى هو بجواز شراء الأمير الناصر لهذا المجشر معتمدا على رأي مالكية العراق فقال: " أما قول إمامنا مالك بن أنس، فالذي قاله أصحابنا الفقهاء، وأما أهل العراق، فإنهم لا يجيزون الحُبُسَ أصلاً، وهم علماء أعلام، يهتدي بهم أكثر الأمة. وإذا بأمير المؤمنين من حاجة إلى هذا المجشر ما به، فما ينبغي أن يرد عنه، وله في السنّة فسحة. وأنا أقول فيها بقول العراقيين، وإنفاذ ذلك رأياً"[20]. فأخذ الأمير بفتوى ابن لبابة وأمره بكتابة عقد المعاوضة بنفسه، وعوض الناصر المرضى من هذا المجشر بأملاكه بموضع آخر يسمى "منية عجب" في قرطبة، وكانت هذه الأملاك كثرة تزيد في قيمتها أضعافا على المجشر[21].

ومن أجمل الأوقاف على المرضى ما عرف عند المغاربة بالوقف على " مؤنس المرضى" أو " مؤنس الغرباء" وكان بمدينة فاس، حيث كان لبعض المؤذنين وقف لإحياء الليل بالمناوبة، كل واحد منهم يسبح الله نحو ساعة بصوت رخيم جميل وأدعية جميلة لإيناس المرضى الذين لا يستطيعون النوم من الآلام والمرض، خصوصا في الساعات الأخيرة من الليل، فيكون هذا التهليل والتسبيح من المؤذنين تسلية للمرضى وإيناسا لهم[22].

كانت عناية أغنياء الغرب الإسلامي بعموم المرضى كما ذكر تعتمد على الأعطيات المباشرة والتكفل المباشر، لكن بمجرد تأسيس أول مستشفى بالغرب الإسلامي بمدينة مراكش بمبادرة من الخليفة يعقوب المنصور الموحدي سنة 585هـ23، كانت جهود الوقف على المرضى موجهة نحو هذه المستشفيات التي كانت تسمى المارستانات، بناء وتجهيزا، وكانت تقدم خدمات جليلة كالإيواء والتغذية والعلاج. وقد اشتهرت الدولة المرينية ببناء الكثير من المستشفيات خصوصا في عهد السلطان أبي عنان المريني[24].

3.2 الوقف على المعاقين

لقد اهتم مجتمع الغرب الإسلامي بفئة المعوقين باعتبارها فئة ذات احتياجات خاصة، وكان يطلق عليهم اسم " الزمنى" أي أصحاب الأمراض والعاهات المزمنة. وقد قام الوقف بأدوار كبرى في رعاية هذه الفئة وتلبية حاجاتها.

فقد خصص للمعاقين مراكز إيواء كانت تمول كلية من مداخيل الأوقاف[25]، كما كان التنصيص صراحة على فئة من المعوقين هي العميان في وثائق المحبسين، فقد ذكر في سؤال استفتي فيه ابن رشد الجد فيمن" حبس على ابنه وعلى عقبه وعقب عقبه، فإن انقرضوا رجع الوقف إلى صاحبه أو إلى أقرب الناس إليه إن كان ميتا، فإن انقرضوا ولم يكن للمحبس قرابة رجع إلى المرضى المجذومين والعميان بغرناطة سواء بينهم"[26].

كما وجد بتونس وقف سيدي أبي العباس السبتي للعميان والزمنى، يأخذون كل يوم من ريعه ما يعيشون به، ذكورا وإناثا على كثرة عددهم[27].

وقد كان بعض السلاطين يخصصون صدقة جارية من أموالهم للفقراء وأصحاب العاهات الدائمة (الزمنى) كما فعل السلطان النصري أبو عبد الله محمد بن يوسف (ت 635هـ) عندما أمر بوقف لـ" ضعفاء الحضرة وزمناهم"[28].

كما اهتم سلاطين دول الغرب الإسلامي بفئة المعاقين خصوصا فئة المرضى النفسيين والعقليين (المجانين) وخصصوا لها مارستانات (مستشفيات) تتكفل بكل احتياجاتهم من المأكل والإيواء والعلاج، فقد اشتهر أن ماهد الدولة المرينية أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق بنى المستشفيات للمرضى والمجانين، وأجرى عليهم النفقات، وجميع ما يحتاجون إليه من الأغذية والأشربة، وما يشتهونه من الفواكه، ووظف الأطباء لتفقد أحوالهم مرتين كل يوم بالغداة والعشي، وفي هذا يقول صاحب الذخيرة السنية: " وهو الذي صنع المارستانات في بلاد المرتضى للغرباء والمجانين وأجرى عليهم النفقات وجميع ما يحتاجون إليه من الأغذية، وما يشتهونه من الفواكه والطرف، وأمر الأطباء بتفقد أحوالهم في أمورهم ومداواتهم وما يصلح أحوالهم"[29]. وقد اشتهر من هذه المستشفيات التي خصصت للمرضى العقليين (المجانين) مستشفى سيدي فرج بفاس الذي أسس في عهد الدولة المرينية واستمر دوره إلى حدود المرحلة الاستعمارية، حيث انتهى خلالها دوره نهائيا.

3- الوقف على المشردين والغرباء والمسنين والنساء اللاتي وقع بينهن وبين أزواجهن نفور

إن المشردين كانوا ولا زالوا فئة في كل المجتمعات حتى الغنية والمتحضرة منها، لأن أسبابه الاقتصادية والاجتماعية المنتجة له كانت وما تزال قائمة، فالمجاعات والحروب وتفكك العلاقات الاجتماعية والأوبئة وغيرها ظواهر تتجدد عبر العصور. ومجتمع الغرب الإسلامي ليس بدعا من ظاهرة التشرد، فقد وجد متشردون يحتاجون المأوى والغذاء والحماية من كل ما يهدد صحتهم وسلامة أرواحهم.

ونظرا لحركية المجتمع وما يحتاجه من سفر وهجرة، فقد كان الغرباء الوافدون على حواضر الغرب الإسلامي - خصوصا الفقراء منهم- يحتاجون إلى الإيواء والإطعام إلى أن تنتهي مهمتهم ويرجعوا إلى أوطانهم، كما أنه انتشرت ظاهرة أخرى ببعض حواضر الغرب الإسلامي هي ظاهرة اجتماع بعض المنقطعين للعبادة من المتصوفة في بعض الأماكن للذكر والعبادة.

وقد تكفلت الملاجئ بإيواء وإطعام الغرباء والمشردين والفقراء وبعض الفئات الهشة من المجتمع وكانت تقيهم البرد والحر وكل ما يهدد صحتهم، وقد وجدت الملاجئ منذ العقود الأولى من فتح بلاد المغرب. وتشير كتب التاريخ أن مدينة فاس كان فيها ملجأ مكون من دارين تقع

إحداهما في المشاطين قرب ساحة السفارين، والأخرى في وادي الرشاشة جوار دار عديل خاص بالنساء الشريفات الفقيرات[30].

وقد أصبح الوقف على الغرباء المشردين عبر بناء ملاجئ ودور لإيوائهم عادة في مدن المغرب في القرن العاشر الهجري، فقد أكد الحسن الوزان أن الغرباء الوافدين على مدن وقرى المغرب كانوا يستقبلون بحفاوة، فقد كان في مدينة " تدنست" بنواحي مراكش ملجأ خاص بإيواء الفقراء والغرباء وإطعامهم[31]. كما أن سكان مدينة " المدينة" شرقي مراكش قاموا ببناء دار لضيافة الغرباء، وكان في مدينة " تاكوليت" في حاحا بنواحي مراكش أربعة ملاجئ للفقراء[32].

وقد شكلت فئة المسنين الذين لا يجدون من يرعاهم فئة معتبرة في مجتمع الغرب الإسلامي، فهي فئة تحتاج إلى رعاية خاصة بفعل الضعف والمرض المصاحبين للشيخوخة، لذلك كان اهتمام أغنياء المسلمين وسلاطينهم بهذه الفئة بارزا عبر آلية الوقف عليها من أموالهم. فقد بنى السلطان أبو الحسن المريني دورا شبيهة بالربط (جمع رباط) يسكنها من دخل مرحلة الشيخوخة من الضعفاء الملازمين للخير والصلوات بجامع الأندلس بفاس، قال ابن مرزوق:" كان مولانا رضي الله عنه أشفق خلق الله على من علت سنه ووهنت قوته، وقد أجرى على من اتصف بالشياخة من الضعفاء ولازم الخير رواتب تكفيهم، ورسمهم في جرائد عماله شيوخ الجامع، وبنى لهم دورا شبه الربط"[33]. كما كان بفاس أيضا " دار للشيوخ" عند زقاق رياض حجا بين الصاغة ورحبة قيس[34]. ووجد بمكناس المجاورة لفاس دار للشيوخ، وهي كما أخبر بذلك المنوني بفندق الجزارين داخل باب الجديد[35].

وباعتبار الأسرة أصغر مؤسسة اجتماعية، فقد يعتريها ما يعتري باقي المؤسسات من الخلافات والصراعات التي قد ينتج عنها نفور بين الزوجين يحتاجان معه إلى فترة راحة تهدأ معها النفوس، وكانت الزوجة هي من تغادر -في الغالب- بيت الزوجية متجهة نحو أهلها. غير أن بعض النساء اللاتي لم يكن لهن أهل أو أن أهلهن بعيدون عن مكان إقامتها، لم يكن يجدن مأوى. وقد تحرك أغنياء مدينة مراكش لحل هذه المشكلة فتم بناء دار لهؤلاء النساء كان يطلق عليها " دار الدقة" وهي عبارة عن ملجأ، وكانت هذه الدار توفر لهن المأوى والمأكل والتعليم إلى أن يزول ما بينهن وبين أزواجهن من نفور. وكانت لهذه الدار أوقاف كثيرة تصرف عليها لتغطية نفقاتها[36].

الخاتمة

من خلال ما تم عرضه في هذا البحث، يمكن إجمال الخلاصات والنتائج فيما يلي:

- أن الوقف تصور المذهب المالكي للوقف، وتساهله في الكثير من الشروط كان سببا في ظهور أنواع كثيرة من الوقف وعلى رأسها الوقف على الفئات الهشة من مجتمع الغرب الإسلامي.
- كان اهتمام أغنياء المسلمين بفئة الفقراء والمساكين كبيرا، تجلى ذلك في حجم الأعطيات والأحباس التي كانت تصرف على هذه الفئة بسخاء لدرجة وصلت فيها في بعض الحواضر أن الأوقاف تكفي مساكين وفقراء الموضع ويبقى منها وفر يوجه لوجوه خير أخرى غير هذه الفئة مما يبرز حجم الأحباس التي كانت مخصصة للفقراء والمساكين.
- لم يقتصر اهتمام الأغنياء بالغرب الإسلامي على الفئات الهشة اقتصاديا بل تعداه للفئات الهشة نفسيا وهم على سبيل المثال الأيتام خصوصا إن كانوا فقراء، لذلك وجد الكثير من الأوقاف التي خصصت من أجل ختانهم وكسوتهم والإحسان إليهم.
- كان الاهتمام بالمرضى عموما سمة بارزة بالغرب الإسلامي، لكن مرضى الجذام كان لهم وضع خاص حيث خصصت لهم حارات لوحدهم في ناحية الحواضر سميت في بعض البلاد " حارات الجذمى " وفي بلاد أخرى " ربض المبتلين" كانت عبارة عن عزل صحي لمرضى الجذام، وقد تم توفير كل احتياجات المرضى في هذه الحارات.
- إلى جانب المجذومين كانت هناك أحباس خصصت للعناية بعموم المرضى وأعطيات شهرية لهم حتى قبل ظهور المستشفيات في عهد الدولة الموحدية، وبعد تأسيس أول مستشفى بمراكش اتجهت عناية الأغنياء والسلاطين نحو الوقف على هذه المستشفيات وتوفير كل ما يحتاجه مرتادوها.
- بسبب ما تخلفه الإعاقة من أضرار نفسية واقتصادية على صاحبها، فقد خصصت أحباس خاصة بهذه الفئة خصوصا العميان والمجانين حيث كان بعض الواقفين يخصونهم بالعناية في وثائقهم الحبسية.
- بلغت العبقرية الإسلامية في التكافل الاجتماعي إلى تخصيص بعض الملاجئ لفئة المشردين والغرباء من عائدات الوقف، وكانت هذه الملاجئ توفر كل ما يحتاجه ساكنوها وتحفظ صحهم وكرامتهم.

- إذا كان من علامات التحضر في بعض الدول العناية بفئة المسنين بتخصيص دور لهم، فإن هذا الأمر كان منذ القدم في الغرب الإسلامي، حيث تم بناء " دور للشيوخ" بالعديد من حواضر بلاد المغرب والأندلس من أجل التكفل بمن بلغوا مرحلة الشيخوخة ولم يكن لهم عائل أو كفيل.
- مما تميز به مجتمع الغرب الإسلامي أنه كان يبالغ في حماية الأسرة من كل ما يهددها خصوصا النساء، لذلك تفتقت عبقرية المجتمع لتأسيس دور تحتوي المشاكل الزوجية إلى حين حلها، مثل ما تم بناؤه في مدينة مراكش لدار سميت " دار الدقة" حيث كانت توفر للنساء اللاتي وقع بينهن وبين أزواجهن خلاف المأوى والمأكل والتعليم إلى أن يزول ما بينهن وبين أزواجهن من نفور. وكانت لهذه الدار أوقاف كثيرة تصرف عليها لتغطية نفقاتها.

الهوامش/

[1] محمد بن قاسم الأنصاري، أبو عبد الله، الرصاع التونسي المالكي (المتوفى: 894هـ)، **شرح حدود ابن عرفة (الهداية الكافية الشافية لبيان حقائق الإمام ابن عرفة الوافية)**، المكتبة العلمية، الطبعة الأولى، 1350هـ، ص: 410.

[2] انظر: أبو العباس أحمد بن محمد الخلوتي، الشهير بالصاوي المالكي (المتوفى: 1241هـ)، **بلغة السالك لأقرب المسالك المعروف بحاشية الصاوي على الشرح الصغير (الشرح الصغير هو شرح الشيخ الدردير لكتابه المسمى أقرب المسالك لِمَذْهَبِ الْإِمَامِ مَالِكٍ)**، دار المعارف، بدون طبعة وبدون تاريخ، 98/4.

[3] انظر: عبد القادر بن عزوز، **فقه استثمار الوقف وتمويله في الإسلام (رسالة تطبيقية عن الوقف الجزائري)**، رسالة دكتوراه، كلية العلوم الإسلامية، قسم الشريعة، جامعة الجزائر، السنة الجامعية 2004-2003م/ 1424- 1425هـ، ص: 20-21.

[4] أبو العباس الونشريسي، **المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب**، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط – المغرب، ط1، 1401هـ/ 1981م، 7/ 332.

[5] الونشريسي، **المعيار المعرب**، 7/ 183.

[6] المرجع السابق، 7/ 301.

[7] نفسه، 7 / 300.

[8] نفسه، 7/ 420- 421.

[9] نفسه، 7/ 183.

[10] انظر بعض الأمثلة الأخرى للوقف على المساكين في: الونشريسي، **المعيار المعرب**، 8/ 114-115.

[11] علي بن أبي زرع الفاسي، **الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية**، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط المغرب، د.ط، 1392هـ/ 1972م، ص: 91.

[12] مصطفى الصمدي، **فقه النوازل عند المالكية تاريخا ومنهجا**، مكتبة الرشد- ناشرون، الرياض السعودية، ط1، 1428هـ/ 2007م، ص30.

[13] انظر هذه المجالات في: عمر بلبشير، **النصوص النوازلية مصدر لدراسة الأوقاف نوازل المعيار نموذجا " إشكالات ومعطيات"**، مجلة الناصرية، العدد السابع، الجزائر، ص: 193-197.

[14] أبي القاسم بن أحمد البلوي التونسي المعروف بالبرزلي، **فتاوى البرزلي (جامع مسائل الأحكام لما نزل من القضايا بالمفتين والحكام)**، دار الغرب الإسلامي، ط1/ سنة 2002: 3 / 220 – 222.

[15] **فتاوى البرزلي**: 3 / 220 – 222.

[16] عيسى ابن سهل الأسدي، **ديوان الأحكام الكبرى أو الإعلام بنوازل الأحكام وقطر من سير الحكام**، دار الحديث، القاهرة، د.ط، 1428هـ/ 2007م، ص 580.

[17] الونشريسي، **المعيار المعرب**، 7/ 482.

[18] المرجع السابق، 7/ 341- 342.

[19] هو أبو عبد الله، يلقب بالبرجون، وهو ابن أخ الشيخ ابن لبابة الشهير، كان جلّ سماعه من عمه محمد بن عمر بن لبابة، وقد تتلمذ على يد غيره من شيوخ قرطبة. رحل فسمع بالقيروان، من حماس بن مروان، وكان من أحفظ أهل زمانه للمذهب، عالماً بعقود الشروط، بصيراً بعللها. وله اختيارات في الفتوى والفقه خارجة عن المذهب، وله كتب في الفقه. توفي سنة 330هـ (انظر ترجمته في: أبو الفضل القاضي عياض بن موسى اليحصبي (المتوفى: 544هـ)، **ترتيب المدارك وتقريب المسالك**، تحقيق سعيد أحمد أعراب، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، مطبعة فضالة - المحمدية، المغرب، الطبعة الأولى، 1401هـ/ 1981م، 6 / 87-92).

[20] القاضي عياض، **ترتيب المدارك وتقريب المسالك**، 6/ 90.

[21] انظر تفصيل هذه الواقعة في **ترتيب المدارك**: 6/ 87- 92.

[22] **مدونة أحكام الوقف الفقهية**، إدارة الدراسات والعلاقات الخارجية، الأمانة العامة للأوقاف، دولة قطر، ط1، 1439هـ/ 2017م، ص: 57.

[23] انظر: أحمد عيسى بك، **تاريخ البيمارستانات في الإسلام**، دار الرائد العربي، بيروت- لبنان، ط1401،1هـ/ 1981م ص 280. الوقف في الفكر الإسلامي، ص 145. مؤسسات العلاج بالمغرب والأندلس في العصر الوسيط، محمد حقي، مجلة عصور الجديدة، ص 35.

[24] محمد بن مرزوق التلمساني، **المسند الصحيح الحسن في مآثرومحاسن مولانا أبي الحسن**، دراسة وتحقيق ماريا خيسوس بيغيرا، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، د.ط، 1401هـ/ 1981م، ص: 415.

[25] انظر: سعيد بنحمادة، **الإعاقة الجسدية بالمغرب والأندلس خلال العصر الوسيط**، مجلة عصور الجديدة، العدد 11-12، خريف شتاء (فبراير) 1434-1435هـ/ 2013-2014م، الجزائر، ص: 34.

[26] ابن رشد، **فتاوى ابن رشد**، تحقيق المختار بن الطاهر التليلي، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1407هـ/ 1987م، س1، ص: 624.

[27] **مدونة أحكام الوقف الفقهية**، مرجع سابق، ص: 52.

[28] لسان الدين ابن الخطيب، **اللمحة البدرية في الدولة النصرية**، تحقيق محمد مسعود جبران، دار المدار الإسلامي، بيروت، 2009م، ص: 68.

[29] علي بن أبي زرع الفاسي، **الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية**، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط المغرب، د.ط، 1392هـ/ 1972م، ص 91.

[30] انظر: مدونة أحكام الوقف الفقهية، مرجع سابق، ص: 50.

[31] الحسن بن محمد الوزان الفاسي المعروف بليون الإفريقي، **وصف إفريقيا**، ترجمه عن الفرنسية محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان، ط2، 1983م، 1/ 99.

[32] المرجع السابق: 1/ 100.

[33] محمد بن مرزوق التلمساني، **المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن**، دراسة وتحقيق ماريا خيسوس بيغيرا، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، د.ط، 1401هـ/ 1981م، ص: 427.

[34] عبد الحي الكتاني، **الملاجئ الخيرية الإسلامية في الدولة الموحدية والمرينية بالديار المغربية**، المجلة الزيتونية، المطبعة التونسية بنهج سوق البلاط- تونس، ج6، مج3، ص 278.

[35] محمد بن عبد الهادي المنوني، **دور الأوقاف المغربية في عصر بني مرين**، مجلة دعوة الحق، العدد 230، مرجع سابق.

[36] راغب السرجاني، **رو ائع الأوقاف في الحضارة الإسلامية**، شركة نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الجيزة مصر، ط1، 2010م، ص: 129.مدونة أحكام الوقف الفقهية، ص: 50.